



كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

القاهرة

تأليف: ديزموند ستيوارت • ترجمة: يحيى حقي • مقدمة: د. جمال حمدان

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : كامل زهيري

٢١٦ ـ ذو الحجة ١٣٨٨ ـ مارس ١٩٦٩

No. 216 - Mars 1969

مركز الادارة

دار الهـلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخـارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحـددة ..

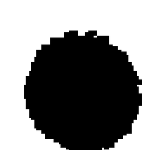
كتاب الهلال



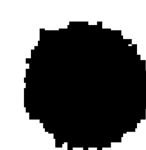
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشــــة
الفنان حلمي التوني

القاهرة



تأليف
ديزموند ستيوارت
ترجمة
يحيى حقي
مقدمة
د. جمال حمدان



دار الهلال

هـــذا الـكتـاب ..

لم يستطع معول التنظيم الغشـــوم ، ولا أكداس العمارات الشاهقة المسلحة بالاسمنت ، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالاسفلت ، ولا احياء حجـارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان ، شقا الى القلب كالطعنة النجلاء أو لفا على الجوانب ، غلافا فوق غلاف ، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس يد عمياء متلهفة على التقليد ــ لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون ــ هبة لها من حضارة الشرق ، ونفحة من سـماته ، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه . ان كنت تأنس لجمالها حين يطوف به خيالك اذ هو بالأمس في قصره ، في عز مجده فانك أشد أنسا به وأنت تزوره اليوم فتراه منكمشا منزويا في صومعته . بقي من الثمرة سر الحياة والديمومة في نواتها الصلبة ، هيهات أن تتحطم ، انها صلابة الدفاع المستميت في آخر خندق ، وهذا التجمل بالستر اذ الود فاتر ومنسى أشد نبلا من اريحيتها واغداقها اذ هي مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة ..

لم تستطع الاسطح المتعـالية يوما بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة ، باقية هي ناجية بشممها وشموخها ، ولا الضجة الهائلة التي اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه

المآذن ، يخشـــع لها القلب وتطرب الاذن عند مولد كل فجر ..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ ،آية في فن العمارة ، في ذروة الصدق ، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال ، تحكي في صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضـــارة عملوا في ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف اسماءهم أحد ، ولا يذكرهم احد ، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم ، جزاؤهم عند رب لهم عليم ..

وأسواق لا تزال متشـــبثة بأمكنتها ، كأن لها جـــذورا ضـــاربة الى الأعمـــــاق ، هيهات أن تنقصف أو تذوى ، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها . تغير عن يمين ، عن يسار ، من حول كائن واحد لا يتغير ، ابن البلد ، بكرمه ومروءته ، بلطفه وظرفه ، ببشاشته وخفة دمه ، بنكاته وقفشاته ، بذكائه وحضور بديهته ، هو الذى رقق العامية على لسانه واثراها بأبدع مجاز واستعارة ، ساخر وحكيم ، تحسبه لطيبته غرا ولكنه « حويط » ، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عملة كثيرة زائفة ولو براقة ، لا ينطلى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح ..

هذه هى القاهرة ، ان كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها ، اذن ستحبها ، ستعشقها ، ستنضم الى زمرة عشاق لهـــا كثيرين ، هاموا بها ولاء والتحاما ، منذ أن ألقي فى نهر النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة فى منديل ، عشق بالغريزة ، بالارث ، بالقسمة والنصيب والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه ..

لم أعرف عيـــدا قوميا تمثل لى فيه لقاء موعود مع حبيب كالعيد الألفى للقاهرة ، بلدى الذى ولدت فيه ،

ونشأت في أحيائه العتيقة الشعبية ، تحس أعصابي قبل عقلي بمقدم العيد ، وددت أن أشارك أهلي في الاحتفال به فاخترت أن أترجم لهم عن الانجليزية كتابا ان صدر سنة ١٩٦٥ فهو لا يزال ــ بقدر علمي ــ من احدث الكتب التي الفت عن القاهرة . كتبه ديزموند ستيوارت الذي يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنه عمل بها واقام بيننا طويلا ، وله في بلده انتاج أدبي ، متعدد متنوع . اخترت كتابه لأنه صغير الحجم ، ملموم ، فصوله محددة أجمل تحديد ، موصولة ببراعة ، أرجو أن تلحظ كيف كان اول تناوله للقاهرة من ناحية طابعها الصحراوي لأنها ــ بل الوادي كله ــ في حضن الصحراء ، ثم من ناحية طابعها النهري ، ثم يمضي يساير التاريخ في فصول يأخذ فيها اللاحق من السابق ..

وأحب ان أنبهك أن هذا الكتاب هو كلام اجنبي ، مقصود به خدمة زائر أجنبي يقدم الى بلادنا لأول مرة ، فالحديث له لا للمصريين . لا تضق ذرعا اذن بمعلومات وردت به هي غير مجهولة لك ، بل لعلك تجد متعة في مقارنة دلالتها عندك بدلالتها عند المؤلف ، لذلك فانه يرسم لهذا الزائر طريقه الى المساجد والكنائس ، ويقيس له زمن المشوار مشيا بالساعة والدقيقة ، ويحدد له اسعار فنجان القهوة وقطار حلوان ودخول المتاحف ، ولكنه يقتصد في هذه الارشادات العملية ويتخذ طريقا وسطا ، فلا يتسم بهذا الجفاف العلمي الذي تجده في مؤلفات فقهاء الآثار ، ووقوفهم الطويل أمام الأحجار والعقود والمقرنصات ، (وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لا نزال في حيرة لا نستقر على مصطلح نستخدمه في التأليف أو الترجمة) ولا يتسم الكتاب كذلك بالجفاف التجاري الذي تجده في

كتب دلالة السياح ، ولم يقصد المؤلف أن يقدم لنا فى صورة مختصرة معلومات كثيرة استقاها من المراجع ، وانما أراد أن يحكي بأسلوب ادبي للزائر الأجنبي (وقد افترض فيه هيامه بالفن وجوانب الطرافة فى الحى والجماد) ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض احاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية التى استمدها من مراجعها الوثيقة ، انه رأى الألوان واطياف الالوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والاسطح والجدران وأكوام القمامة ، كم كنت أود أن يكتب كل أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على نفسه كما فعل هذا الاجنبى . انك لا تملك الا أن تحس أنه يحب القاهرة حبا كبيرا ، ولكن بقيت مع ذلك فى نفسى من الكتاب أشياء تململت لها ، ابقيتها ليكون النص العربى مطابقا للنص الانجليزى تمام المطابقة ، وكان من الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هو أعلم منى بالتاريخ ، ودعنى أعترف لك أننى ما تناولت كتابا لأجنبى يصف فيه بلدى فأراه يلقى عليه نظرة جديدة تعتمد على ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالحس المرهف الى السر من تحت السطح الا تملكنى شىء من الحسرة والغيرة ، قد يصدنى أحيانا عن متابعة الكتاب لئلا أحكم بنفسى على خيابتى وقصور بصرى ، وهذه هى حيلة العاجز المعتذر مع ذلك بأن نيته فى النهوض صادقة ، والنية بلا عمل كالبندقية بلا رصاصة ، فأبناء بلدى هم عندى أولى الناس بفهم بلدى وخدمته ، لن أتخوف — شأنى مع الأجانب — شبهة التجنى عن سوء فهم ، أحيانا عن سوء قصد ، ثم أعود للكتاب وأنا أقول ان الاجنبى أقدر من ابن البلد على الرؤية لانه ليس مثله ضحية الالفة المستنزفة لجدة الانتباه

والعجب ، المفضية الى عناق تموت فيه اللهفة وان بقى الحب ، واشهد أن ديزموند ستيوارت أرانى لاول مرة اشياء كان يقع عليها بصرى من قبل ولا أنتبه لها ..

ونحن الآن نحتفل بالعيد الالفى للقاهرة ، الام التى نحلف بجمالها وننعم بحضنها . سنقرأ ولا ريب أعمالا بديعة تتحدث عن التاريخ والاثار والعمارة والخطط وتراجم الاعيان ، ولكن الذى أبحث عنه هو كتاب يتحدث عن القاهرة حديث عاشق عن عشيقته ، حديث انسان حى عن انسان حى ينفرد بملامح ثابتة وان تقلبت ثيابه . لن يخط هذا الكتاب قلم مؤرخ أو عالم آثار ، بل قلم أديب ابن بلد ، أو قل قلم شاعر يكتب بالنثر ، والعجيب أننى وجدت ضالتى لا عند أديب أو شاعر بل عند صديقى الاستاذ عبد الفتاح عيد ، نابغة فن التصوير الفوتوغرافى فى بلدنا ، فان لوحاته عن القاهرة شعر ونغم ، وحس مرهف ، وفيض حب كامن فى أعماق القلب . وكم كنت اتمنى أن يصحب الاحتفال بذل جهود كبيرة للتعريف بالقاهرة والحض على حبها . اتمنى أن تنظم لنا جولات صباحية أيام العطلة مشيا على الاقدام ، بالمجان ، فى صحبة عالم آثار لا دليل سياح ، يشرح ويفسر . جهود اخرى للمناداة بصيانة الآثار الاسلامية فى ذاتها وفى نوع الجيرة من حولها ، واثارة الاهتمام بفن العمارة ، فمن العار ان لا تصدر مجلة للعمارة فى القاهرة أم العمارة ، والمطلب من هذا كله هو حث المعماريين عندنا على الوصول الى طراز يلائم طبعنا وجونا ، ويستمد من تراثنا ، فما أشد ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا ، نذل بها وتذل هى بالغربة عن مواطنها ، لا تنفعنا كما نفعت أهلها ، فالشقاء مزدوج متبادل ..

يحيى حقى

مقدمة

القاهرة الكبرى
دراسة فى جغرافية المدن

بقلم : د . جمال حمدان

اذا عدت المدن العواصم العظمى فى العالم ، فالقاهرة واردة بالتاكيد فى العشرة الاولى او العشرة ونيف . وهى المدينة الاولى ـ المطلقة ـ فى قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى افاق القارة الافريقية الى تخوم الالب ووسط آسيا . بل ان بضعة لا يستهان بها من الدول الافريقية لتقل سكانا ـ سكان كل منها اقصد ـ عن حجم القاهرة كثيرا او قليلا ، وذلك حتى دون أن نذكر ان القاهرة تستاثر وحدها بنحو نصف سكان العواصم الافريقية الخمسين مجتمعة !

وان حصرت العواصم المخضرمة العريقة فى الدنيا ، فلعل القاهرة (واسلافها أو بأسلافها) هى أم المدن جميعا ،وعلى اية حال فقليلة جدا هى المدن التى يمكن ـ كدمشق ـ أن تنافسها فى هذه الصدارة . وحتى نتمثل هذا البعد الزمانى السحيق بشىء من التجسيد الذهنى ، يكفى أن نقول انه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوربا ، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة ..

اما اذا اعتبرنا الوزن الحضارى والنفوذ السياسى والوقع والاشعاع القومى والفكرى ، فما من عاصمة فيما نظن لها فى دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية

وسيطرة او توجيه ، بل والى حد الافراط ربما . ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم : هل العواصم هى اكبر وخير ما يمثل ويجسم روح بلدها وكيانه وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره واقاليمه ، أم هى بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما نضم من جاليات واجناس أجنبية وبما تتطلع دائما الى الخارج تؤلف فيما بينها طبقة « كاستية » خاصة من المدن فى العالم اشبه ببعضها البعض منها بصميم اقطارها المحلية ؟ مهما اختلف الرد ، فلا خلاف فى حالة القاهرة ، ولا يمكن له أن يقوم ، فهاهنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز الى جوهر كيـــانه حضاريا وماديا ، جغرافيـــا وتاريخيا ، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى

هذه اذن هى القاهرة : تاريخ مفعم مجمد او محفوظ ، كل حجر فيها مشبع بعبق الماضى وعرقه ، وكل شبر منها يحمل بصمات الانسان . انها ـ كبيت جماعى كبير ، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها فى مصر ـ عمل فنى من مقياس ضخم مهندسه وساكنه هو المصرى ، وهى بهـــذا اكثر او اكثف رقعة من اللاندسكيب الحضارى فى مصر « تبشيرا » وحملا للطابع البشرى ، وبنفس الدرجة أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللاندسكيب الطبيعى الغفل للوادى ..

ورغم هذا كله ، فان القاهرة من أسف من أقل المواصم حظا فى دراسات المدن العلمية الحديثة . كثيرة هى لاشك الكتابات الاكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينـــة الخالدة ، ولكن الغالب عليها اما التاريخ عموما أو تاريخ العمران او الاثار خصوصا . وربما أضفنا بعض كتابات « هواة المدن » من الرحالة أو الادباء أو الصحفيين ،

لا سيما منهم الاجانب

أما دراسة المدينة ككل حي متعضون فوار محـــدد السمات والقسمات ، كمجتمع مركب متلاطم مضطـرم يضطرب فى وعاء جغرافى واضح المعالم بارز التضاريس ، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المـدن بوجه خاص ، أما مورفولوجية القاهرة الكبـــرى ، تركيبهـا الوظيفى ، ايكولوجيتها البشرية ، نموها السكانى وزحفها العمرانى وضوابطه ، هيدرولوجية النقل ومشـــاكله الخانقة المختنقة ، الطبوغرافيا الاجتماعية والتـــوزيع الجغرافى للطبقات والحـرف ، اقليم المدينة وحـدوده ، التخطيط المستقبلى ومؤشراته .. الخ ، أما هذا كله فما زال فراغا مقلقا وارضا بكرا (ولا نقول مجهولة) منـذ ظهرت أول وآخر محاولة جادة فى هذا الميدان الخصم ، ونعنى بها دراسة كليرجيه (١) فى الثلاثينات ، والتى دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجارى الحديث الى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى

والكتاب الحالى الذى نقدم له بين يدى القارىء نموذج شيق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الاجانب هـواة المدن الذين يحـاولون بذكاء أن يستقطروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية ، مدعمة بقراءة واسعة فى التاريخ والتراث تترامى من الفولكلور

---

(1) Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Géographie Urbaine et d'Histoire Economique, Le Caire, 1934, (2 vols.).

الى اللغات ، ومن الدين الى الادب ، ومن الجغرافيـــا والاجتماع الى العمارة والهندسة .. الخ

ولقد يختلف القارىء مع بعض الاحكام والنظرات التى أوردها المؤلف كأجنبى عابر ، فهذا امر لا مفر منه وتلك عموما نقطة ضعف الكاتب الاجنبى ايا كان ومهما حاول ، ولكن من المحقق ـ بالمقابل ـ أننا سنلمس لمسا نقطة القوة وميزة العين الاجنبية النافذة الثاقبـــة ترى وتلتقط من اللمحات الشفافة واللفتات الدقيقة اللماحة ما قد أخفى الالف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى غاب عنه أو كاد

الكتاب اذن ـ فى كلمة ـ قصة رحلة travelogue رحلة فى الزمان والمكان ، طولها مدينة وعرضها زيارة . ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك ، وممتعة وجذابة الى ذلك . انه سياحة بلا دليل ، وتاريخ بلا أرقام ، وجغرافية بلا خرائط ، وهندسة وعمارة بلا لوحات ، واجتماع بلا نظريات ، وايضا سياسة بلا شعارات : قل باختصار :علم وثقافة بلا دموع ، كما يعبر الاوربيون

نعم ، بلا دموع . ومن هنا بالدقة تبدأ مهمة هــــذه المقدمة . ففى تصورنا أن مثلها ـ لا سيما ونحن نحتفل بالعيد الالفى للقاهرة ـ ينبغى أن يوفر الاساس العلمى الصلب ، والقاعدة المادية والفيزيقية لهذا البنـاء المدنى الشامخ المعقد والمتعدد الابعاد . فلعل من المفيد للقاهرى ابن العاصمة ، وللمصرى أبى العاصمة ، فضلا عن أخيها العربى ، أن يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات مدينته المترامية واطرافها فى صورة اختزالية متكاملة دالة وهادفة ، تؤكد الخطوط العريضة فى هيكلها وتكمل خبرته اليومية ومعايشته الجارية لاحيائها وحياتها

لتكن هذه ، اذن وبعبارة أخــرى ، مقدمة مبسطة فى

جغرافية المدينة ، تحلل الاساس الطبيعى الذى تقوم عليه العاصمة موقعا وموضعا ، وتتتبع نموها العمرانى فى ظاهرها وظهيرها ، وكذلك خطتها الهندسية وكتلتها المبنية ، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية ، وقد تعالج أهم مشاكلها واختناقاتها. وكثير من هذه - بالفعل - جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو باخرى

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجة - احسب - الى الوقوف عندها طويلا أو قصيرا ، وهى من قلم واحد من سادة الادب والفكر وعمالقته المعدودين فى مصر ، ذى سلطان عظيم على لغتى الاصل والنقل معا بل وعلى الثقافتين العربية والغربية على حد سواء وعلى أرفع المستويات . ثم ان أمر هذه الترجمة متروك للقارىء نفسه ، فهى مكافأته الحقيقية - كما اثق - فى هذه الرحلة الشائقة . وحسبى هنا أن أشهد مخلصا أننى قطعت شوطا كبيرا فى مطالعة النص وأنا أظنه تاليفا ودون أن أفطن الى أنه عمل مترجم ، وهذه ولا شك أكبر شهادة لاى ترجمة ومترجم . فأنت هنا تشعر انك تقرأ لصاحب « القنديل » ، بأسلوبه ، بجمله التاثيرية ووقفاته ولزماته، بكل خصائصه ونكهته ، كل أولئك فى أمانة وولاء للنص الاجنبى هما أول ما يطلب فى ترجمة . وهناك كما يقال من اذا الفوا ترجموا ، واذا ترجموا الفوا ، ولكنك هنا ابعد ما تكون عن هذا . على العكس تماما ، ستجد التزاما أمينا بالنص حريصا على روح المؤلف ، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكيب الفجة أو التشويهات والاهتزازات التى تسقط فيها عبودية الحرفية

الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الاطار الجغرافى الكبير الذى تحـدده العلائق المكانية العريضة والقيم الاقليمية النسبية التى تتعدى كثيرا جدا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل الى أبعاد قارية برمتها . لذا فهو فكرة متغيرة على العصور ، وبالتالى فقليل من المواقع ما يعد خالدا فى التاريخ . أما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التى تقوم عليهـا الكتلة المبنية مباشرة ، وهو لا يتغير الا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها الى رقعة اخرى

والقاهرة تحتل موقعا فريدا فى مصر وخارج مصر . ففى اطار التقاء الدلتا بالصعيد ، فى عقدة الوادى وصرته ، موقع حتمى خالد ظلت العواصم تدور فيه ، قد تنتقل من موضع الى موضع ، ولكنها لا تخرج عنه الا فى فترات عابرة ـ وربما قيل شاذة ـ فى التاريخ القومى ، مثله فى هذا مثـل خاصرة الرافدين فى العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل الى قطيسفون الى بغداد ، ومثل تونس على رأس البلد وعلى خاصرة البحـر المتوسط حيث تنـاسلت أو تناسخت قرطاجنه وتنس وتونس

فموقع القاهرة اذن هو خاصرة مصر ، مجمع الوادى والفرعين ، وملتقى الصحراوين ، كانما القطر كله على ميعاد فيه . ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسى . فمن منف الفرعونية (فى منطقة البدرشين حاليا) الى أون أو هليوبوليس (عين شمس ومصر الجديدة الان) الى بابليون (مصر القديمة) الى الفسطاط العربية ثم الى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية ـ كل أولئك حلقات متباينـة فى سلسلة جغرافية أو نسل اقليمى واحد أساسا

واذا كانت العاصمة قد عرفت اطارا اقليميا مختلفا ومتطوحا اكثر من مرة ، كطيبة (الاقصر) فى الجنوب الاقصى ، وافاريس قاعدة الهكسوس فى شرق الدلتا ، والاسكندرية البطلمية الرومانية ، فانما كانت الاولى فى المرحلة التكوينية للدولة المصرية ، وكانت الثانية انحرافة غزو أجنبى بحت ، بينما اتت الثالثة انحرافة استعمارية لامبراطورية بحرية على الجانب الاخر من المتوسط ، وظلت حينا اشبه بجزيرة غريبة من الارخبيل اليونانى نقلت والصقت بالساحل المصرى سياسيا وبشريا

والانتقال من منف الى الفسطاط يمثل نقطة انتقال هامة فى التوجيه الطبيعى والسياسى : فهو انتقال من الضفة الغربية الى الشرقية ، ويشير الى أن منف ، التى كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت أسهل اتصالا بالصعيد (حيث المعمور الزراعى يقع فى سواده الاعظم على ضفته الغربية) ، كانت عموما أدنى الى التوجيه المصرى المحلى ..

اما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقا مع توجيه الفتح العربى الجديد ، الذى هو نحو الخارج اولا وبرى الطابع ثانيا ، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمرو « الا يجعل بينه وبين المسلمين ماء » ، فاختار موضع الفسطاط بدلا من الاسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه . ومن هنا أصبحت الفسطاط فى موضع اشبه بالكوفة والبصرة فى العراق ، كلها ترسم مروحة حول رأس الجزيرة العربية ، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوى يخرج منها أو قربها وينتهى الى ماء نهر كبير ولكن اساسا دون أن تعبره

من هناك أيضا بدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر

امام الفسطاط ــ لاحظ اشتقاق الاسم من الاجتياز والمجاز ــ اى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد ، وورثت بذلك ظل منف ــ الظل فقط ــ ولذا ظلت دائما وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة . وفى هذا الدور كانت جزيرة الروضة اشبه بنصف جسر طبيعى بين الجيزة والفسطاط ، يكمله عادة نصف اخر معلق من السفن الثابتة ..

ومن الضرورى هنا أن نذكر ان موضع الفسطاط فيما هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدنى جنوبا انما يمثل ما كان فى حينه اضيق ــ واسهل ــ عبور للنهر بين ضفتيه ، فى عصر كان النهر يمثل عقبة مواصلات لا يستهان بها . ذلك ان شاطىء النيل الشرقى لم يكن يتبع حده الحالى ، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو الشمال الشرقى الى قلب القاهرة الحالى فى الشمال ، بحيث كان الثلث أو المثلثات العربى من الرقعة الحالية تقريبا ماء وجزءا من مجرى النيل

ومعنى هذا أيضا ان الضفة الشرقية لم تكن بمثل اتساعها الحالى ، بل كانت اقل مساحة ، والمثلث الغربى منها يمثل اضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون نتيجة لارسابات النهر الطمية ، بينما اخذ النهر نفسه يتراجع نحو الغرب بانتظام ، وهذه هى الحركة التاريخية التى تعرف بهجرة مجرى النيل نحو الغرب . أما تلك الارض التى انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة فيزيوغرافيا على الفور ، وانما ظلت مواطىء رطبة تملؤها البحيرات والخلجان والمضاحل ولا تصلح للسكنى والتعمير الا بعد قرون من الارساب والنضج والصلابة . فمثلا لم تظهر منطقة الازبكية كأرض صلبة الا منذ الفاطمية ، ومنطقة

باب اللوق الا منذ الايوبية

وعند هذا الحد ، يمكننا ان نكون تصورا عريضـــا لموضع منطقة القاهرة عامة . فالضفة الشرقية تحدها سلاسل تلال تقترب من النهر فى الجنوب وتنفرج بعيـدا عنه كلما اتجهنا شمالا هى جبل المقطم الـذى ينتهى فى الشمال بالجبل الاحمر قرب العباسية . وحواف هذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ متر فى الجنوب ، ٨٠ مترا فى الشمال . وتخرج من السلسلة عدة بروزات ناتئة نحـو الغرب كتلول ثانوية هى من الجنوب الى الشمال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة

فاذا عرفنا ان شاطىء النيل هنا يقـع عمـــوما على منسوب نحو ٢٠ مترا ، ادركنا ان الضفة الشرقية ،التى تتسع كالمروحة شمالا وتضيق جنوبا ، ينحدر سطحهـا كلما اتجهنا من الصحراء الى النهـــر ، اى ان القطاع الشرقى منها مرتفع والغربى منخفض (كلمة بولاق مثلا اصلها بلاق وتعنى لغة « الارض المنخفضــة) ، بمثل ما ان الشرقى اقدم جدا فى تكونه بينما الغربى احدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر

وعلى العكس من هذا الضـــفة الغربية ، فليس ثمة حائط تلى ، بل تمتــــد الارض الزراعية حتى هامش الصحراء ،والارض تنحدر لا نحو النهر بل نحو الصحراء، ولكنه انحدار طفيف جدا لا يقدر الا بالبوصات حيث يصل فى الضفة الشرقية الى عشرات الامتار ، الا انه مع ذلك واضح للعيان كما يمكن للناظر ان يرى من فـوق كوبرى الزمالك تجاه ميت عقبة

وترتيبا على ذلك كله ، فان ارض الضفة الغـــربية ببهلية منبسطة بعامة وكلها كانت ارضا زراعية ، بينما

الشرقية منحدرة تصلها نهايات الاودية الصحراويةوالتلية التى تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتى يعرفها اكثر سكان الاحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة الى خنادق مائية مؤقتة . وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية (باستثناء طريق الهرم) كطرق مسطحة موحدة المستوى ، ينفرد القطاع الشرقى من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول الى درج حقيقى يذكرنا بشوارع المدن الجبلية فى أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط

أخيرا وعموما ، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة اذا وضعت فى الميزان ؟ ثمة مزايا لاشك واضحة . فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل ، وهى مفتوحة من الشمال فقط • ثم ان وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر ، مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب . وارتفاع القطاع الشرقى يعوض عن البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحى وحركته النشطة المنشطة ، فى حين يتمتع القطاع الغربى بجبهة مائية منعشة ومرطبة . وأخيرا فان كثرة الجزر كثرة غير عادية فى المنطقة ـ كنتيجة لتغير مستوى الارساب فجأة مع الانتقال من الوادى الضيق الى الدلتا الواسعة ـ هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ولنمو المدينة

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

فى هذا الاطار الطبيعى الملائم اذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربى . حين نشأت الفسطاط فى اقصى الجنوب ، قرب النهر والتل معا ، فانما كانت مدينة حربية اساسا ، تنشد موضع حماية معلقا على التل ومحصنا بالطبيعة . فكانت فى النتيجة مدينة

اكروبوليس ، أى مدينة قمة تل . (ومن الطريف ، وهو بالتأكيد اكثر من صدفة ، أن ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب الى حد تشبيه جامع ابن طولون على جبله بالبارثينون على الاكروبول فى اثينا !) وحين بنيت العسكر الى الشمال الشرقى منها ، ثم القطائع على جبل يشكر فى نفس الاتجاه ، وأخيرا القاهرة المعزية التى بدأت كمدينة ملكية محرمة ، فانها لم تغير تلك الصفةالاكروبولية العسكرية اساسا ، فكانت جميعها تلتزم السفوح التلية العالية فى الشرق ، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبة . وكل ما حدث انها كانت تزحف من موضع جنوبى الى موضع أكثر شمالية

ومن الطريف ، ما دمنا قد تحدثنا عن المدينة المسورة وسور المدينة ، ان نلاحظ اولا أن مصر فى هذا الصدد شذوذ عالمى نادر ، وثانيا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر فى مصر نفسها .. ففى العصور الوسطى وعهد الاقطاع ، كانت المدينة المسورة هى القاعدة العالمية طلبا للحماية من الاخطار الخارجية والصراعات الاقطاعية الداخلية . ولكن حالات ثلاث فقط فى العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الاقطاعى منذ وقت مبكر : تلك هى بريطانيا واليابان ومصر ، وكلها جزر حقيقة أو مجازا على ضلوع قارة يفصلها عنها بحر الماء أو بحر الرمل . لقد كانت الصحراء ـ كما يعبر لويس ممفورد ـ هى السور الطبيعى لمصر . ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تماما . فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجى دائما والصراع الداخلى كذلك ، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت اسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة ، وذلك

حين لم تعرف المدن الاقليمية المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانى الثغور

هذا عن نمو المدينة في حضن التلال • وفي المراحل اللاحقة فقط بدأ يضاف الى التوسع نحو الشمال ، توسع في اتجاه جديد نحو الغرب • فمع نمو الارض الطمية ونضجها الفيزيوغرافي على حساب النهر المتراجع غربا ، بدأ الاستثمار الزراعي ثم البنائي العمراني يزحف غربا • لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتورات العالية الى الكنتورات المنخفضة بالتدريج • وبعد أن كانت تتشبث

بضلوع التل ورأسه وتخشى الاقتراب من النهر حيث خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه river-shy أخذت تتحول من مدينة أكروبوليس معلقة الى مدينة نهرية شاطئية مستوية • لقد تحررت المدينة من عقال الجبل واسار السور معا وفي نفس الوقت

وفي المحصلة ، فلقد اخذت رقعة العمران والمنطقة المبنية تنمو في اتجاهين لا في اتجاه واحد ، شمالا وغربا ، أو قل على محور شمالي غربي عموما • وتلك هي الحركة التاريخية الاساسية والمفتاح في نمو القاهرة ، وهي حركة مطردة وايقاع ثابت ، مهما توقفت المدينة أو انتكست في مراحل الجمود أو الانكماش

وحتى أيام الحملة الفرنسية ومحمد علي كان خط الحسينية ـ باب الشعرية ـ بولاق يمثل أقصى حدود امتداد المدينة شمالا ، دون أن يعنى هذا بالضرورة ان كل ما الى الجنوب كان عمرانا كاملا وسكنى متصلة ، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية ، ودون ان يعنى كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف الى الشمال ولقد كان محمد علي هو الذي اخترق ذلك الحد وتعداه

شمالا ،نحو شبرا ، كما كان عباس هو الذى بدأ العباسية عبر الحسينية. ومع ذلك فقدكان محمد على نفسه هو الذى بدأ الاتجاه الى جاردن سيتي لتكون سكنا راقيا لعائلاته ، بينما أن حى الاسماعيلية لم يبدأ الا أيام اسماعيل والتوفيقية ايام توفيق

وبالمثل فان النمو الاساسى فى نطاق مثل الفجالة ـ الظاهر ـ غمرة ـ السكاكينى ، أى جنوب خط المترو ومحطة مصر ، لم يتم حقيقة الا بعد ١٩٠٠ . وأحدث من ذلك كله بالطبع نمو الشمال الشرقى ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكرى حيث يتفرع الى شعبتين : الى الزيتون فالحلمية فالمطرية فعين شمس شمالا ، والى مصر الجديدة جنوبا . وهذا يصدق أيضا على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج الى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد)

ونفس الشىء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة الى بداية القرن الحالى ، وظلت تنمو شمالا ببطء كشريط يزداد سمكا وعمقا ، الى أن دخلت فى موجتها المدية مع وبعد الحرب الاخيرة حتى وصلت عبر الدقى والعجوزة الى امبابة فى عروض تناظر عروض حى الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد . وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائما « جنوب » القاهرة ، اصبح يقع « غربها » نصا . وهنا نلاحظ ان نمو الضفة الغربية باستثناء بندر الجيزة هو نمو طارىء حديث جدا اذا قورن بالضفة الشرقية عموما

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله ـ على الضفتين ـ مندفع نحو الشمال ، وانما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطرا وهى أن النمو متوقف

تماما الى درجة الشلل فى الجنوب ، وفى الضفتين أيضا على السواء • فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنة قرب أثر النبى ، وكذلك الجيزة القديمة (البندر) • واذا كانت المعادى وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان نموا حديثا وعصريا ، حلوان منذ اسماعيل كمدينة استشفاء ، والمعادى منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطانى ، فانها تمثل ضواحى منفصلة عن جسم المدينة ولا تنقض القاعدة بقدر ما تؤكدها • وقل الشىء نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثا ، فهى أقرب الى النمو الشريطى الخطى على اطراف المدن ribbon development

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة تمثل الثوابت الاستاتيكية Constants فى حركة المدينة ، حيث تمثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة النامية والدينامية variables وان فى مجرد الفرق فى التسمية بين مصر القديمة فى أقصى الجنوب ومصر الجديدة فى اقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا المجمع المدنى الحافل

على أنه ليس يكفى أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلى وحده من اختناقه فى الجنوب وانفساحه السهلى فى الشمال • فلا شك أيضا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج ، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانى واتصالات خارجية تجارية ، تمثل لا شك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعتها بالخامات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصريف الخارجى • بل قد يمكن أن يقال أن نمو القاهرة شمالا فى لسانيه الاساسيين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد فى نهاية المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب ..

وإذا كان التناقض فى قوة النمو واضحا صارخ الوضوح ما بين الشمال والجنوب ، فهو على الاقل حقيقة مؤكدة ما بين الشرق والغرب أيضا • ففى الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخنق كل امكانيات النمو ، حتى فى الوقت الحالى لا يمثل مشروع مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية • أما غربا فان المدينة استعمرت النهر نفسه — أعنى جزيرتى الجزيرة والروضة — ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة صغرى للشرقية تناظرها طولا وان دقت عرضا ، ولتجعل من المجمع المدنى كله مدينة ضفتين تمتطى النهر كما يقال à cheval

ومن المحتمل فى المستقبل أن يرجح معدل النمو فى الضفة الغربية معدله فى الضفة الشرقية نسبيا ، لان الاولى هى جبهة ريادة العاصمة الان وطاقة أو كوة رئيسية لتمددها • ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول ان دفعة النمو اذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالى فقد تتحول فى بضعة عقود الى المحور الغربى • وقد وصل عمق الضفة الغربية اليوم الى بولاق الدكرور فى الجنوب وميت عقبة فى الشمال ، وربما واصل نموه الى الخط الشريانى للسكة الحديدية بين الوجهين

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة اذ تزحف شمالا فى موجتها المدية العاتية ، وبسرعة العاصفة فى العقود الاخيرة خاصة ، مع ثباتها المطلق أو شبه المطلق فى الجنوب ، فهى انما تنتقل بالتدريج مبتعدة عن الصعيد وملتحمة بالدلتا • ان الاصل فى القاهرة — عاصمة — أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط ايقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه ، تنتمى الى الدلتا بقدر ما تنتمى الى الصعيد • ولكن الواقع المحقق

الان أنها أدخل فى فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفا اليها ..

ذلك وكأنما هى تزحف تدريجيا مع رأس الدلتا (التى كانت ازاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتى تزحف شمالا باستمرار . أو كأنما هى تزحف مع مصر الحديثة عموما ، حيث يقتصر المعمور فى أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالاخص مع السد العالى) ، ويتمدد فى أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البرارى الذى سيصل بالارض الزراعية قريبا الى سيف البحر) . أو ـ أخيرا ـ كأنما هى ترمز الى تناقص وزن الصعيد النسبى فى اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس الى الدلتا (الصعيد الان لا يقدم الا ٣٨٪ من عائد الزراعة المصرية) ..

وهذا ما يقودنا الى وجه شبه اخر فى الشكل بين نمو القاهرة الكبرى وامتداد الارض السوداء فى مصر . اذا أنت نظرت الى خريطة القاهرة فلن تخطىء بالتأكيد شكلها الكأسى الخاص ، فهى أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية ، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولى الى نحو ١٣كم ، لا تزيد فى أقصى عرض لها عن ٧كم ، وتقل عن ذلك كثيرا فى المتوسط وقد تصل الى حد الاختناق فى أقصى الجنوب . وبينما يأخذ النيل محورا شماليا جنوبيا بعامة ، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر الجديدة الى أقصى حد ممكن . ويلاحظ أن جبهة الزحف شمالا لا تمثل خطا واحدا منتظما ، بل يتقعر فى وسطه لانه يتقنل أساسا فى محورين هما كتلة مصر الجديدة ـ عين شمس فى الشمال الشرقى وكتلة شبرا ـ روض الفرج فى الشمال ، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء

النيل ، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الارض الزراعية

الشكل اذن مروحي بوضوح ، تكمن خلفه ضوابط الموضع وتضاريسه الاولية ، سواء أخذنا الضفة الشرقية على حدة أو اذا أضفنا اليها الغربية • وهذه اذن مروحة منشورة مفتوحة ، يدها في الجنوب • وهذا يذكرنا على الفور - وان يكن على تصغير شديد - بشكل الدلتا نفسها • وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرهما يكملان التشبيه بفرعي دمياط ورشيد ! بل اننا اذا أضفنا الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحياء في الجنوب عبر المعادى وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة، لاقترب الشكل جميعا من هيئة مصر عموما حيث يرسم الصعيد يدا طويلة جدا ، ولكنها ليست قوية جدا ، لمروحة الدلتا • ان عاصمتنا لا تلخص كيان مصر البشرى فحسب ، وانما تختزل شكلها الجغرافي أيضا في بقعة او في كبسولة ••

ماذا اذن عن توسع ونمو القاهرة الرأسى ، بعد ذلك النمو الافقى الطاغي ؟ معه جنبا الى جنب تقدم بايقاع متناغم • فتاريخ المدينة لم يكن تمديدا للاطراف فحسب ، بل وتكثيفا للداخل أيضا • ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجوات وفراغات ضخمة من الخراب أو الخواء ، وحتى أوائل القرن الماضي، كان جسم المدينة مبعثرا مخلخلا غير ملموم ، ولكنه أخذ يلتئم بالتدريج • وبينما كانت الاطراف تنمو كفيللات مبعثرة وسط الحقول ، كانت الفيللات في الوسط تتحول الى عمارات ، والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق الى أعلى كالاشجار في الغابة تتصارع من أجل الوصول الى الشمس • وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص

وتختنق ولا تكاد تجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة • والناظر الى خريطة المنطقة المبنية اليوم فى القاهرة قد يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كتلك التلول المتقدمة فى عين الصيرة وزينهم وقطع المرأة فى شرق المدينة . ولكن الحقيقة ان هذه حدود المنطقة المبنية هناك ، وانما تفصل بين مدينة الاحياء ومدينة الاموات ، أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها

وفى ختام هذا الحديث عن النمو ، لا بد لنا من وقفة تجيب على سؤال ملح : ما الذى أطلق المدينة من عقالها ، خاصة منذ القرن الماضى ، كمارد خرج من القمقم ؟ لقد ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة فى شرق المنطقة ، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية والجغرافية الا فى أواخر العصور الوسطى — وعلى استحياء ذلك . ثم مع القرن الماضى فقط تمددت تمددا جديدا تماما صوب النهر ، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد فى العقود الاولى من هذا القرن ، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت فى موجة مدية حقيقية هى منذ الثورة أسرع وأعتى منها فى أى وقت مضى • ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترات فى تاريخ حياة المدينة الى مراحل ثلاث أساسية : الاولى هى المرحلة النووية ، والثانية هى التكوينية ، والاخيرة هى الانفجارية

ولعل رقعة القاهرة قد نمت فى القرن السابق للحرب الثانية أى فى المرحلة التكوينية اكثر مما نمت طوال الالف عام منذ نشأتها العربية أى فى المرحلة النووية ، بينما قد يزيد نموها بسهولة فى مرحلتها الانفجارية فى ربع القرن الاخير عنه طوال القرن الاسبق عليه • لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الابوية ، وانساحت من المقطم الى الهرم ،

ومن الصحراء الى الصحراء ، ومن حلوان الى شبرا الخيمة، وبعد ان بدات بحدود صارمة كالخط الهندسى هى سور المدينـــة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخـــله كمدينة بلا حدود · ومن السهل أن نتتبع انعكاس هذا كله رقميـــا في تعداد السكان ، ولكن يكفى هنـــا أن نذكر أن المدينة التى بدأت مع محمـــد على ربع مليـــون وانتهت معه ثلث مليون ، قد تعدت الان الخمسة ملايين

مرة أخرى : لماذا ، وما هو الزناد الذى أطلق هذا النمو المريد ؟ ثمة على الترتيب عاملان ضابطان أو محركان ، لا يكفى اي منهما وحده تفسيرا الا لمرحـلة محددة . الاول هو الموضع والثاني هو المواصلات · فمن السهل أن نرى أن النمو فى المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج · ولكن لا شيء يفسر المرحلة التكوينية ، فضلا بالتاكيـــد عن الانفجارية من بعدها ، الا ثورة المواصلات الحديثة· فحتى محمد على ، كانت الدواب هى وسيلة النقل الاســـاسية داخل المدينة ، والمركب الشراعى وسيلته خارجها · كان نفس الحركة البشرية قصيرا للغاية ، ومعه كان توســع المدينة قاصرا بالضرورة · ثم بدأت سلسلة تاريخية : من الدواب الى عربات الخيل الى خطوط « سوارس » المنتظمة الى الترام ثم أخيرا السيارة الخاصة والعامة · وحـــدود القاهرة العمرانية فى اى لحظة خلال هـــذه المرحـــلة هى وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه : هذا النمو ، هل هو صحى سليم تماما ؟ أيســـير فى انسب خطوطه واتجاهاته الاكثر ترشيدا ؟ لن نقف هنا عنـــد قضية تضخم العاصمة فى جسم البلد حيث بلغت الخمســـة ملايين من ثلاثين مليونا او يزيد ، ولن نقول « الورم

الاكبر The Great Wen » كمـا قال كوبت Cobbet عن لندن فى عصر الصناعة . فمن المحتمل جدا أن القاهرة تعانى من افراط المتروبوليتانية مثلما تعانى مصر نفسها من افراط السكان بعامة . ولكن لعل أخطـر من هذا النمو ـ الشيطانى نوعا mushroom ـ ملمح ملح مزمن قد يحمل شبهة النمو السرطانى ذاته

والاشارة هنا هى يقينا الى توسع الرقعة المبنية على الارض الزراعية الثمينة فى عالم جغرافى متناه يعانى من مجاعة أرضية . فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولا شك فى مدى عمرهم آلاف الافدنة الزراعية فى شبرا والجيزة (بمعناهما الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والترام تمضي لأميال وسط مزارع ومشـاتل الفواكه والزهور والخضروات الكثيفة ، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتدريج وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المبانى . ولكن هذا كله تحول اليوم الى مبـان كثيفة ونفيت الزراعة الى آفاق بالغة التطوح والبعد . واذا كان هذا لا يصدق علي لسان النمو فى اتجاه مصر الجديدة ، فهو للأسف صادق على شعبته الثانية فى اتجاه عين شمس حيث لا يحاذى امتـداد العمران حافة المزروع وانما يترامى عليه ، لا يجاوره بل يجاوزه

ان المدينة تأكل سكانها كما يقال ، ولكنها هنا تأكل ارضها أيضا ، فهى من قوارض الارض الزراعيـة ، وبشراهة ذلك . وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين للزراعة . وفى شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب ، بينما قد يكمن الحل بعد ذلك فى الضواحى المنفصلة فيزيقيا عن جسم المدينة بحيث تقوم لا فى عرض الوادى وانما على حافتي الصحراوين ، خاصة على طول مخارج المدينـة

الاساسية فى طريقى الاسكندرية والسويس الصحراويين

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة الى خريطة القاهرة ، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية ، لا يمكن أن تخطىء ثلاثة ملامح بارزة فى خطة العاصمة . أولها وجود عنصرين اساسيين يتقاسمان رقعة المدينة : تخطيط — أو بالأصح لا تخطيط — عشوائى تلقائى يمثل النمط العتيق فى المدن بل والقرى المصرية عامة ، ويمثل فى العاصمة مناطق النواة القديمة منها ، وتخطيط هندسى مصمم منتظم فى اشكال مربعة او مستطيلة او مضلعة او دائرية، يمثل بدوره العنصر العصرى « الاوربى » الجديد فى تركيب المدن المصرية الذى أدخل منذ القرن الماضى فقط . وهذه الثنائية الاساسية فى الخطة ترمز بسهولة وبلاغة الى الثنائية الحضارية فى مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والأصيل والدخيل

الملمح الثانى هو سيادة مساحة التخطيط الهندسى الحديث سيادة حاسمة بالنسبة الى مساحة اللاتخطيط العشوائى القديم . وقد يبدو هذا غريبا نظرا لحداثة عهد التخطيط الهندسى المنتظم ، ولكنه فى الحقيقة يلخص — فى نظرة — قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا ان الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هى أساسا بنت القرن الاخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية فى تاريخها . أضف الى هذا أن كثيرا من عمليات التقويم والتهذيب الهندسى فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم ، مما يخفف من انتشارها وان لم يخف آثارها

ثالثا ، وأخيرا ، فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسا فى أطراف المدينة القديمة خاصة فى الشرق والجنوب ، وان وجدت منها

جيوب شاذة فى الشمال أو الوسط . وعلى أية حال ، فان هذا الوضع أوضح جدا فى الضفة الغربية منه فى الشرقية ، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسي كل الشمال . ويعني هذا في نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكنتورات الاعلى من المدينة ، بعكس مناطق التخطيط الهندسي الحديث

وهذا الملمح الاخير كله يتفق الى حد كبير مع قانون الخطة فى المدينة المصرية عامة ، حيث نجد دائما كتلة قديمة عشوائية فى القطاع الجنوبي تقوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب ، بينما تترامى تحت أقدامها فى القطاع الشمالى وعلى مستوى الارض الطبيعي رقعة من التخطيط العصرى المنتظم . فالقطاع الجنوبي هو نواة المدينة قبل العصر الحديث ، والشمالى هو النمو الحديث فى القرن الاخير . وتتناسب مساحة كل من القطاعين الى الاخـر بحسب خط المدينة من النمو والتضخم فى الفترة الحديثة . اى انه كلما زاد نمو المدينة ودرجة انفجار هذا النمو ، قلت نسبة مساحة النواة العشوائية القديمة الى مساحة التخطيط الهندسى الحديث ــ والعكس

فى ضوء هذه المؤشرات الاساسية ، يمكننا الان أن نتتبع خطط القاهرة بشىء من تفصيل . ولنبدأ باللاتخطيط القديم . هذا نوع من الخطة البدائية الفطرية التى تظهر تلقائية غير عامدة ، خطة بلا تخطيط كما قد نقول ، تبرز من مجرد تجمع المبانى معا . وهى فى جوهرها خطة القرية المصرية والتى لا تخلو تماما من منطق ، بل ومنطق هندسى ، ولكنه باهت بالغ التقريب . فثمة حول الحلة طريق دائرى ولكنه غير منتظم (داير الناحية) تخرج منه الى قلب المنطقة المبنية عشرات من

الطرق الضيقة والحارات التى تنتهى الى نهايات مسدودة فى قلب البلد ـ أى ازقة مغلقة ـ والتى تتلوى وتتفرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة او بأخرى . والعشوائية بادية لا شك فيها ، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة المتشععة أو الدائرية المتشععة بصورة أو بأخرى
radio-concentric

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر فى القطاع الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل ابتداء من بالفعل هى القاهرة القديمة والاحياء التاريخية والتقليدية باب الشعرية والازبكية والظاهر والحسينية فى الشمال، حتى السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوبا . ثم تعود فتظهر فى مصر القديمة فى أقصى الجنوب . وهذه التى تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة والتوائها وتعرجها الشديد ، الذى يضاعف منه تضرس الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها أحيانا الى طرق سليمة ، والذى يضاعف بدوره من كثافة المساكن والسكان ودرجة التزاحم . والكل ينتهى الى تيه لابرنتى من شبكة طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة بحال . من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات والشوارع ، اى بعملية فرض أو مزاوجة مفروضة بين اللاتخطيط والتخطيط . والواقع أن هذه العملية واسعة الانتشار فى كل هذا النطاق

ومن طريف المفارقات هنا أن نلاحظ انه بينما تبدو أحياء شرق القاهرة ضائعة فى خطتها المضطربة العشوائية ، نجد الى الشرق والجنوب منها توا أو وشيكا مساحات من التخطيط الهندسى النظيم الدقيق تغطى رقعة كبيرة من خريطة المدينة . على أن هذه لا ينبغى أن تخدعنا ، فانما هى مدينة الأموات ـ المقابر والجبانات المترامية فى حى الخليفة وفى قايتباى والغفير ـ .

التى تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ ديزموند ستيوارت بدهشة أسماء وارقاما !

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك ، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التى يفرضها تنظيم العاصمة ، فى حى بولاق ، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسى . ثم لا نلقاها بعد ذلك الا عبر النهر فى أقصى الجنوب من الضفة الغربية ، أى فى نواة الجيزة القديمة (البندر) حيث تتنافر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسى المنتظم الى الشمال

واذ ننتقل الى التخطيط الهندسى الحديث ، الذى يغطى بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر واسافين قزمية متفرقة من التخطيط العشوائى على أطراف المدينة هى القرى والعزب السابقة التى أغرقها وابتلعها المد الحديث ، كمنية السيرج وبعض العزب المبعثرة فى شمال شبرا ، وقرى كامبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور فى الضفة الغربية ، اذ ننتقل اليه نجد صورة مختلفة تماما، بسيطة جدا ولكنها بالغة التعقيد جدا . فالمدينة هنا عبارة عن موزايكو لانهائى من وحدات مساحية ذات أشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلا ما تجنح الى الدائرة أو المضلع . ولكنها دائما خطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة فى هندسيتها . أما التعقيد فمصدره أن هذه الاشكال المنتظمة القائمة الزوايا لا تتبع فى توجيهها بالنسبة للجهات الاربع الاصلية محورا واحدا باستمرار، كما هو الحال فى المدينة الامريكية مثلا ، وانما تتبع ـ حرفيا ـ عشرات وعشرات من المحاور التى تختلف من رقعة الى اخرى وتستقل بها كل واحدة عن الاخرى

كأنها صفحة الفاز Jig-saw . ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة فى آن واحد . ولا يستثني من ذلك الا المعادى وحلوان حيث محور توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر فى كل المنطقة المبنية

واذا كانت المحاور القاعدية التى تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر ، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطا ، بل هى من وحى وتوجيه ضابطين اساسيين : النهر ، ذلك الشريان المحورى الذى تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة ، والشوارع الرئيسية أى الطرق الشريانية التى تفتح الاحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها ..

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى . فسواء على الضفة الشرقية او الغربية ، ولكن على الاخيرة بالأخص ، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى (ممتطيا ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذيه ، كشارعى الجيزة والقصر العينى على الترتيب . ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته ، فان ذلك الشارع يتبعها بأمانة . وكذلك تفعل الشوارع الثانوية الموازية الى الداخل . ولما كانت الشوارع العرضية عمودية على الطولية ، فان شبكة الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير فى محاور اتجاهاتها الاصلية من قطاع الى آخر بحسب تعرجات النهر الحاكمة

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى امبابة ، ولن تجد لهذه القاعدة تبديلا . وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان : الشوارع الطولية تحاذى النهر ، والعرضية تتعامد عليه وعليها . وبالمثل فى جزيرة الروضة ، حيث توازى الشوارع الطولية

شاطئى الجزيرة الاثنين ، حتى اذا ضاقت الجزيرة فى الجنوب تبعت الخطة محور أحد الشاطئين دون الاخر ، فتتكون شرائح مثلثة شاذة . ونفس الشيء واضح فى فم الخليج وابو السعود شمال مصر القديمة ، مثلما هو فى الشمال فى روض الفرج والساحل عموما

اما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح فى الداخل ، بعيدا عن أثر النهر . فهذه تصبح العمود الفقرى الذى تركب عليه ــ بزوايا قوائم ــ تفاصيل الخطة الهندسية ، فاذا انحرف العمود انحرفت معه واتجهت بحسب توجيهه . أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين النقط الاستراتيجية فى المدينة ، أو ربما ضوابط الموضع القديمة كالترع الحفرية التى ردمت وتحولت الى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصرى (شارع بورسعيد الان) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية)

والأمثلة عديدة . ففى شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا ، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية ، وكل تفاصيل الخطة المربعة فى الحى برمته تعكس اتجاه كل منهما. ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحى . ففى كل هذا النطاق المترامى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة ، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدا . غير أن هذه جميعا انما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو ، الذى ينحنى ويتعرج بحسب مساره ووجهته . والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محورا يوشك أن يكون شرقيا غربيا ، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها

المحور الى شمالي جنوبي ، في حين يتعدل فيما بينهما بالتدريج كالبندول

هذا ، وتمثـل الزمالك ـ النصـف الشمالي من الجزيرة ـ حالة طريفة ، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة بطابع فذ . فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسي الحاكم الذى يقطع الجزيرة بين كوبرى ٢٦ يوليو (ابو العلا) وكوبرى الزمالك ، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينهـا اشكالا هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف ... الخ ، بينما الى الجنوب من شارع الكوبريين تسود شـبكة مربعات منتظمة تتوازى معه وتتعامد عليه نصا

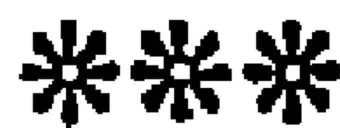
وينبغى أخيرا ان نذكر نمطا خاصا ومحليا من التخطيط الهندسي ، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر ما يتبـع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة . ونعنى بهذا خطة الحدائق الانجليزية English Gardens ، التى تنحـدر أصلا عن فن تخطيط البساتين landscape gardening ففى جاردن سيتى وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز . وبقـدر ما تعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية فى لاندسكيب الحى ، تعطى من مشاكل المواصـلات . فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصـمة لسكانهما ولغير سكانهما على ما نعلم

واذا نظرنا الى مناطق التخطيط الهندسى فى العاصمة بعامة ، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط او تنشأ فى ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعى مع النمو الجزئى . ولهذا فهى تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالبا ،

والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر فى محاور التوجيه يخفف من تنميط الخطة ورتابة الاحياء والشوارع ، كما يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى فرصا أكثر للتهوية والاشعاع والظل ، كما يمنع تحول المدينة الى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلا . ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى عن طريق المواصلات ضعيفا مفككا . وينم عن هذا ويشى به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشععة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة ، تتحول بها الى شيء اشبه بالخطط الدائرية المتشععة أو قل المضلعة المتشععة ، كما فى الاسماعيلية فى وسط البلد وكما فى وسط الروضة وفى العجوزة ثم السكاكينى بالظاهر ، ولكن بالأخص فى مصر الجديدة

غير أن هذا غالبا ترقيع موضعى أو تحايل محلى ، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت اجزاء خطتها الى بعضها بالتقسيط وبلا اطار عام . فاذا أضفنا الى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة ، مع ضخامة رقعة العاصمة عموما ، لكان حقا أن يقال ان القاهرة من المدن التى يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها . ولكن هذا أدخل فى باب المواصلات ، وهو ما ينقلنا الى شبكة النقل العاصمية



رغم بعض الشوارع الرئيسية التى تحاول أن تصحح أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط العشوائى ، الا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية

متشعمة على مستوى العاصمة ككل . وهناك أكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هي التي تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها . ولعل أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا شمالا ، وبولاق غربا ، والجلاء جنوبا بغرب ، الجمهورية جنوبا (ابراهيم سابقا) ، ثم شارع رمسيس بوابة وعنق زجاجة كل ضواحي شمال شرق القاهرة . وتقدم العتبة بؤرة أخرى ، فميدانها مصب لحركة شرق المدينة: شارع الجيش الى العباسية ، شارع الموسكي ـ جوهر الى الجمالية ، شارع الازهر الى الغورية والدراسة ، شارع القلعة الى القلعة والخليفة . وميدان باب اللوق والسيدة زينب بؤر أخرى

على أن هذه الحزم المتشعمة لا تؤلف فيما بينها خطة متشعمة بمعنى الكلمة ، ولو أن الملاحظ ان شبكة خطوط الترام كانت تقليديا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع ما يرسم خطة متشعمة بارزة ، لا سيما من مركزين هما ميدانا محطة مصر والسيدة زينب

وعدا هـــذا فينبغي ان نلاحظ اثر مواقع الكباري النهرية على تفنيل شبكة المواصلات . فعلى جانبي النهر في كل من كوبري التحرير وكوبري الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفة من محاور الحركة والنقل ، بل ان كلا من هذين الميدانين يشكل في الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر . ومثل هذا يقال عن كوبري ٢٦ يوليو والزمالك في الشمال ، وكوبري الجيزة والملك الصالح في الجنوب ، بدرجات متفاوتات . والحقيقة أن مواقع هذه الكباري المتناظرة والمترابطة ، التي هي أعناق الزجاجة الحاسمة والخانقة بين ضفتي النهر ، هي التي تحدد معظم الشرايين

العرضية التي تقطع المدينة من طرف الى طرف . والتى تعانى القاهرة من قلتها بوضوح

ولأن القاهرة مدينة طولية أكثر منها عرضية ، فان أهم محاور وشرايين الحركة هى الشمالية الجنوبية التى تخترق بالضرورة قلب المدينة فيختنق بها . وهذا هو المحرك الاساسي خلف فكرة انشاء طريق دائرى يلف بأطراف المدينة دون أن يخترق قلبها ، كما يتمثل فى شارع بورسعيد ، أطول شوارع القاهرة الان ، والذى يرتبط أساسا بشرق المدينة القديم ، وكذلك شارع صلاح سالم الذى شق حديثا

من كل هذه الزوايا يتضح لنا بجلاء أن مشكلة المواصلات فى العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة . ويقف فى مقدمة هذه الضوابط الجغرافية اثنان . أولا ، انشطار المدينة الى شقين أو ضفتين ، الأمر الذى يجعل على الفور من كبارى النهر اخطر نقط استراتيجية حرجة فى تدفق الرحلة اليومية الى العمل . ثانيا ، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أو مثلثين ضخمين فى شبرا ــ روض الفرج وفى مصر الجديدة ــ عين شمس ، يتصلان بجسم المدينة فى أضيق رؤوسهما ، اى بأعناق زجاجية مختنقة على التو . وهذا النمط بارز جدا فى الحالة الاخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد أن يكون منفصلا الا من عنق دقيق عند كوبرى القبة . فى كل هذه المواقع بنوعيها ، كبارى النهر واعناق الضواحى ، تتأزم مشكلة المواصلات الى حد الاختناق

على أن الذى يضاعف منها ان كل تلك الاطراف فى الضفة الغربية عموما وفى شمال الضفة الشرقية هى

باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل . ثم هى تتضاعف مرة أخرى كالربح المركب بطبيعة هذه الاحياء . فان كانت شعبية لا تملك كثافة السيارات الخاصة ، فهناك كثافة السكان العالية التى تنعكس على وتترجم الى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا ــ روض الفرج) . وان كانت سكنا راقيا أقل كثافة سكان ، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقى ، والضفة الغربية)

ــ ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة مغزى وخطرا عن شبكة النقل الأخف . ويمكن ابتداء أن نزعم ان محطات السكك الحديدية فى المدينة المعاصرة هى بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وانما انتقلت من السور الهامش الى الوسط . انها « مداخل » المدينة ولكن فى الداخل . ولعلها أكثر من صدفة أسماء « باب » الحديد ، و « باب » اللوق ، كأنما تلح لتذكرنا بأنها وظيفة وان لم تكن موقعا وريثة «باب» زويلة أو «باب» النصر مثلا ..

ومواقع محطات السكة الحديدية فى القاهرة استراتيجية تماما ، فمحطة مصر (وكوبرى الليمون التابعة) ومحطة باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية ، وتخرج منها الخطوط القومية أو خطوط الضواحى فى اتجاهات ثلاثة ، شمالا وشمالا شرقا وجنوبا

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية كالخلية العارمة لشبكات الاوتوبيس ، فهى أقطاب مغنطيسية للمواصلات عموما ونقط انقطاع وتغيير فى

وسيلة المواصلات (من السيارة الى القطار أو العكس) . غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام ، بمثل ما أن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة فى تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول خط مترو شمال شرق القاهرة

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية فى المدينة فى أن التكامل والتعايش بين القطار والسيارة تحول أخيرا الى صراع انتصر فيه القطار فى محطة مصر حيث نقلت محطة أوتوبيسات الاقاليم بعيدا الى أطراف المدينة فى شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية . أما فى محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذى سيخسر الحرب ، اذ تقرر مبدئيا فى مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحى جنوبا الى كوبرى الملك الصالح

من كل هذه الخيوط المعقدة اذن تنسج مشكلة المواصلات أخطبوطها الخانق المزمن فى العاصمة التى يئست نهائيا من الحلول السطحية ــ أعنى على سطح الارض ــ فلجأت الى الحلول تحت الارضية كما تتمثل فى فكرة مترو الانفاق الذى يعكس مشروع خطته المبدئية شكل المدينة الطولى أساسا . الا أن جذور المشكلة تكمن فى أكثر من قضية ، منها الفارق الحضارى : فشوارع المدينة خططت فى عصر ــ ولعصر ــ ما قبل السيارة وما قبل الصناعة ، وهى الان تعانى بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية

ولقد اثبتت تجربة العواصم الكبرى المماثلة ان خطوط الأنفاق ليست بالضرورة الكلمة الاخيرة فى القضية ، ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود . فلندن

وباريس تملكان خطوط انفاقهما منذ عقود وعقود ، وكذلك نيويورك ، ومشكلة المواصلات السطحية لم تزل مزمنة . ولعل بعض الدرس المستفاد هو أن القاهرة الكبرى بحاجة حقيقية ـ مع أو قبل الأنفاق ـ الى عملية « هسمنة Haussmannisation » ، كما تسمى ، على غرار ما عرفت باريس فى السبعينات الماضية ، جريئة واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة ، فتفرض على أرضية خطتها الفسيفسائية نظاما متشعبا ، متعدد البؤرات ـ منعا لتركيز المشكلة فى نقطة واحدة ـ من البوليفارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الاستراتيجى بحيث تتحول هيدرولوجية النقل فى قلب المدينة الى نهر قليل الروافد كثير المصاب

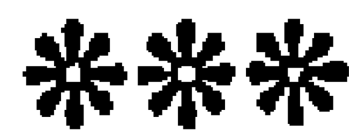
كذلك لا مفر من اعادة توزيع العمل والسكن فى محيط القاهرة الكبرى . فتركيز العمل فى القلب التجارى المركزى (C.B.D. كما يسميه الامريكيون) وغيابه الى حد بعيد فى الاحياء السكنية فى الاطراف عامل جذرى وقاعدى . ولعل من الضرورى أن يتحول قلب المدينة نفسه هو الاخر الى نهر قليل الروافد كثير المصاب ، بخلق نويات جديدة فى الاطراف كمراكز ثانوية subcentralisation ، تخفف الضغط عن القلب المركزى وبالتالى تخفف من كثافة الرحلة الى العمل

التركيب الوظيفى

المدينة اى مدينة حزمة من الوظائف فى التحليل الاخير ، وليست المؤسسات والمبانى الا اوعية مادية لتلك الوظائف المركزية .. غير ان هذه لا تتعايش معا الا بعد صراع على المكان ، فالوظائف تتنافس فيما بينها على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من وجهة نظرها ،

وتحصل عليه الوظيفة الأقدر التى تدفع أكثر . ولما كانت قيم الارض والعقارات والايجارات أعلى ما تكون فى قلب المدينة الضيق المكتظ ، فان وظائف المدينة تتنضد (أى تتفنط) تلقائيا بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من القوى الطاردة المركزية centrifugal تطرد الأضعف الى أطراف المدينة ، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركزية centripetal تجذب الأقوى الى القلب ..

والوظائف مجموعتان عريضتان : وظائف عمل وانتاج كالتجارة والادارة والصناعة ، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه . غير أن بين المجموعتين حلقة وصل هامة هى السكن . والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لا شك ، بل هو الوظيفة التى تغطى أكبر رقعة من مساحة أى مدينة فى العادة . ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعى لوظائف الخدمات ، فهى غالبا الاطار الذى تدور فيه وتتشكل به قليلا أو كثيرا . ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جدا ، ربما قلنا وظيفة سالبة تمييزا لها عن الوظائف الموجبة من انتاج أو خدمات . ولهذا فلعل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية المدينة الاجتماعية ، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية .



وفى القاهرة ، اذا بدأنا بالوظيفة التجارية التى تلعب دورا حيويا فى كيانها كعاصمة قومية فضلا عن كونها مدينة كبرى ، أمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من التجارة تمثل فى الحقيقة ثلاث درجات من المركزية . فهناك أولا التجارة المركزية التى تتكدس وتتزاحم بلا هوادة فى قلب

المدينة . ويلمس القاهرى نبض التجـــارة المركزية فى مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجـلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية ، ومن شارع الجمهورية الى العتبة من ناحية اخرى ، ، حتى الموسكي وما وراءه تجاه الفورية وشارع الازهر .. الخ . ففى هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجمـــلة ، السلعية والمالية ، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية . هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التى تتجاذب حولها المحلات الصغيرة . وهذه المنطقة التجارية تمثل الجهـــاز العصبى المركزى للوظيفة التجارية لسكان العاصمة واقليم العاصمة جميعا

من اخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة ، الأقل اتصالا بالجمهور المباشر والتى تحتاج الى مساحات أوسع ، تنزوى نوعا الى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفى هى بأن تقف خلفهـــا لتغذيها وتخدمهـــا . اما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجى البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطىء قدم صغير ولكنـــه حساس وباهظ الثمن أو الايجار . فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطـــة مصر وتجاه التحرير فى منطقة معروف تسودهما مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والاطارات والادوات الكهربية . وفى اركان ميدان الفلكى تتركز تجارة اطارات السيارات . وفى مداخل شـارع القلعة كما فى الفجالة تتركز تجـــارة الورق والوراقين وأدوات الكتابة . وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والانتيكات .. الخ . وكل

هذه شوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومى العريض ، وهى اكثر هدوءا نسبيا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حرب وعدلى وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لا نجد الا تجارة التجزئة الكثيفة المضطرمة بالحياة والحركة . وبينما يظهر التخصص فى خط واحد بحسب الشوارع أو المناطق فى حالة تجارة الجملة ، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عموما ، والذى يصل الى مداه فى المحلات الكبرى المنوعة multiple stores مثل شيكوريل وهانو وجاتينيو .. الخ ، وتلتصق وثيقا بعين المنطقة نصا

من أهم الخصائص بعد هذا ، الفصل الجغرافى بين محلات التجارة العصرية والقديمة التى تختلف أيضا فى روادها ، فالاولى أكثر ارتباطا بجمهور العاصمة نفسها أولا وبطبقاته الاكثر غنى ثانيا ، بينما يكثر فى زبائن الاخيرة أبناء اقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد الى جانب الطبقات القاهرية الشعبية . فالقطاع الغربى من منطقتنا تستأثر به التجارة العصرية ، بينما تتراجع القديمة الى القطاع الشرقى ابتداء من العتبة تقريبا . فهنا تسود المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق الى « سويقات » ، وقد يخرج من المحل الى الرصيف ومن الرصيف الى المتجول . كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة ، كما نرى فى محلات المصنوعات الجلدية والاحذية والصينى على نواصى العتبة ، وكتجارة الذهب والصياغة فى الموسكى والصاغة ، والاقمشة الخشنة وغزل الانوال الريفية فى شارع الازهر ، والعطارة فى الغورية ... الخ

تلك هى تجارة القاهرة المركزية ، التى يتعدى اشعاعها

حدود العاصمة ، ولكنها مع ذلك لا تحتكر كل نشاطها . فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة الاحياء التى تظهر فى مفارق الطرق الاستراتيجية فى أغلب الاحياء كنسخ مصغرة محلية ــ كأنها الاقمار فى فلك شمس ــ من منطقة التجارة المركزية ، التى تخرج منها كالاشعة فى الواقع السنة ممتدة على طول الشوارع الرئيسية فى المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها وواجهاتها ، حتى اذا تجمعت فى مفارق الطرق بعيدا عن قلب المدينة برزت من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز الثانوية التى تخدم الاحياء

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة ، وهى آلاف المحلات الصغيرة المبعثرة فى كل شوارع أو زوايا ونواصي الجيرة والاحياء السكنية ، والتى يتحدد توزيعها عادة بحسب كثافة السكان ، مثلما يتحدد مستواها بحسب الحالة الطبقية . وعادة ما تمثل هذه مشكلة فى مناطق الهوامش والاطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الان، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد أو لا يظهر منها أولا الا محلات الضروريات كالبقالة والتموين ، وتظل المنطقة خاما تعانى من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الاكثر رقيا وترفيها



من الوظيفة التجارية ننتقل منطقيا الى الادارية . فكعاصمة سياسية ، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقراطية ثقيلة ، تلعب الادارة دورا هاما فى حياة القاهرة . ويكفى أن أكثر من ثلث هيئة موظفى الدولة يتركز فيها . والوظيفة الادارية تتداعى مؤسساتها

بالطبع ، وتميل الى التجمع الجغرافى ، كما انها تحتاج الى موقع مركزى دون أن يكون بالضرورة فى صميم القلب المزدحم الصاخب

من هنا ، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناحية الجنوب والجنوب الغربى ، تمتـــد رقعة دولة الادارة وتتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين . فابتداء من ميدان التحرير ، الذى يقف مجمعه الشاهق ليعلن كنصب تذكارى عن حدود تلك الدولة ، وفيما بين شارع القصر العينى وخط حديد حلوان ، يمتد لنحو الميل حى الوزارات والبرلمان بلا انقطاع ، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد . بل وتطفو خارجها طفوح النمو والربح المركب ، حتى تصل عبر ميدان لاظوغلى الى ميــدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا

ويلاحظ أنه يرتبط بهــذه الكتلة ارتبــاطا صميما ومباشرا ، وظيفيا وجغرافيا ، شريحة مميزة بكاملها على الجانب الاخر من شارع القصر العينى من الســفارات والقنصليات ، تتمثل فى قصر الدوبارة وجاردن سيتى التى تتصل بها مبانى الخارجيــة والجامعة العربيــة المترابطة أيضا . هنا دولة السلك السياسى الاجنبى الذى يحتاج الى أن يتعامل مبــاشرة وفورا مع دولة الموظفين المجاورة . وقديما ، وفى العصر الاستعمارى ، فلعل الكلمة الدارجة « ما بين لاظوغلى وقصر الدوبارة » كانت تعبر عن علاقة أكثر من عابرة . على أن هــذه الشريحة انما ترتبط بالوظيفة الادارية السياسية ارتباطا جزئيا ، ولكنها أساسا منطقة سكنية وليست من القلب الادارى

***

العاصمة بعد هذا هى عاصمة الصناعة المصرية أيضا ،

ففيها أكبر حشد للصناعة فى البلد . واذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيا فى وظائف القاهرة ، فهى منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحلية التى تراجعت الان كثيرا جدا فى اهميتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى . وهذه التفرقة هى نفسها مفتاحنا للتمييز وظيفيا وجغرافيا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والالية . فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان الا على أطراف المدينة ، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم فى داخلها ولكن بعيدا عن قلبها التجارى

على اننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالا نسبيا خاصا فيه قدر من تجاوز . فلعل من الخير ومن المقبول لاغراضنا وفى اطار المدينة المحلى الضيق ان نطلق الاولى على الصناعات الاكثر اهمية وحجما أو وزنا فى اقتصاد او لاندسيب المدينة ، والثانية على الاقل خطرا ومقياسا أو ثقلا . وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح فى القاهرة الا صناعة الحديد والصلب فى حلوان

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية فى بولاق والسبتية ، ترتبط غالبا بالحدادة والسمكرة وتصليح وتجميع الالات والمراكب ووابورات السكة الحديدية ، وتعتمد أحيانا على الخردة التى لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح) ، كما تعمل فى الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة فى القرن الماضى أيام محمد على حين استمدت « المبيضة » اسمها من صناعة تبييض الاقمشة

وعلى الجانب الاخر الشرقى من المدينة خلف الموسكى والفورية وباب الخلق حتى السيدة زينب ، فى الجمالية والدرب الاحمر ، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليديةوالحديثة التى تتراوح بين معامل الغزل المتوسطة وصناعات الاغذية وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية . ومن هذه الوحدات ما يقوم فى بنايات أنشئت خصيصا للصناعة ، أو فى شقق أو بدرومات المساكن العادية ، وبعضها لايخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة ، وبعضها نصف آلى نصف يدوى ، ومنها ماينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الافراد من الجمهور ..

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة ، التى لاتحتاج الى رؤوس أموال أو عمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة ، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتمل نسبيا ، هى وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست منعزلة عنها . ولكنها من الناحية الاخرى لا يمكن أن تقوم ـ وما قامت هنا ـ الا فى تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية ، ووجودها نفسه بين ظهرانيها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية ، غير أنها فى النهاية من أهم مصادر الدخل والعمل للسكان ، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة.

واخيرا فان تركز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة ملموسة هو فى الحقيقة استمرار لتوطن صناعى تقليدى قديم هنا . ففى هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة

كان القلب الصناعى للقاهرة الوسيطة ، بتنظيماتها ونقاباتها واسطواتها . وصناعاتها اليوم تستمد بعضا من مسحة وخصائص صناعات الأمس ، اما متطورة أو متدهورة نوعا ، وان كانت لا تبدى التخصص الجغرافى الذى كان يسود قديما حين كانت كل صناعة ـ على طريقة العصور الوسطى ـ ترتبط بشوارع أو حارات معينة لا زالت مقروءة حتى اليوم فى الاسماء وان زالت من اللاندسكيب . من هذه الاسماء ـ التى لم تعد اسما على مسمى بالضرورة ـ السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة ، ثم المغربلين والكحكيين والفحامين والنحاسين ... الخ

فاذا انتقلنا الان الى الصناعة الثقيلة (تجاوزا أو نسبيا) ، التى هى أحدث جدا من الناحية التاريخية ، فانما ننتقل من وسط جسم المدينة الى أقاصى أطرافها والهوامش . فالصناعة الثقيلة وظيفة هامشية جدا بالضرورة ، تقذف بها عوامل الطرد المركزية الى حواف المجمع ، بل على انفصال فيزيقى عنه ان أمكن ، بينما لاتجد هى نفسها اى فائدة أو منطق فى السعى الى داخله

واذا كانت هذه الصناعات حديثة تاريخيا وعصرية تكنولوجيا ، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدى على قلة اهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنعزل بصرامة عن جسم المدينة . ولعل المثل الكلاسيكى هو صناعة التحجير والجير والطوب . فمحاجر القاهرة وجياراتها مركزة كلها بالضرورة فى الجنوب الشرقى فى جبل المقطم اساسا ، حيث تتتابع عشرات وعشرات منها فى نطاق واضح ، ينحصر بين كنتورى ١٠٠ ـ ٨٠ مترا

فى الشرق ، ٦٥ ــ ٣٥ مترا فى الغرب ، ويمتـــد من مشارف الجبل الأحمر حتى نهاية الخليفة ، كما يتناثر عدد منها فى تلول عين الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التى تعرف نشاطا هاما فى صناعة وتجارة الجير والجبس . وليس من الصدفة أن كثيرا من مبانى شرق القاهرة هى من الحجر أكثر منها من الطوب . وعلى النقيض تماما من المحاجر التى ترتبط بالجبل ، ترتبط القمائن وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميها . فجزيرة الذهب غابة من المضارب ، وهى المورد الاول للعاصمة

وما دمنا هنا فى دائرة المحاجر ، فقد يمكن أن نمضى منطقيا الى الجنوب ، الى طرة والمعصرة ، لنجد استمرارا وظيفيا ، ولكن مع انقطاع جغـرافى جزئى وتكنـولوجى تام ، للصناعة المرتبطة بالمحاجر . فمنـذ أوائل القرن قامت هنا وحدات عصرية وعلى أضـخم نطاق لصـناعة الاسمنت والجير ، طفرت فى العقـود والسـنين الاخيرة لتصبح أعظم صرح فى هذا الخط لا على مستوى الجمهورية وانما على مسـتوى القارة ، يغطى انتـاجه الاسـتهلاك القومى ويجد فائضا هاما للتصدير . والوحدتان ، اللتان تستوعبان بضعة الاف من الايدى العاملة واللتان تعدان بمقياسهما وطبيعة منتجاتهما من أثقل الصناعات ، هما فى الحقيقــة مســتعمرتان ضـخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية ، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تماما ، ولكنهما تدخلان فى صميم وشقوق كل نسيج فيه

غير أننا فى الحقيقة اذا قلنا الصناعة الثقيلة فقـد قلنا شبرا فى الشمال ، وحلوان فى الجنوب . هاتان قطبـا الصـناعة الثقيلة ، وأعظم منطقتـين صناعيتـين منفردتين فى مصر عموما ، وتبلغ قيمة رأس المال الذى وضع

فى صرح كل منهما الان بضعة مئات من الملايين من الجنيهات

والقطب الشمالى أقدمهما ، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الاجنبية والمتمصرة والمصرية ابان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح فى صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية أساسا ، فى مصانع متهالكة وفى خطة عشوائية وفى ظروف عمالية سيئة . ولكن النواة التي بدأت منفصلة جغرافيا فى شبرا الخيمة نمت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى توسعت زحفا : الى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحى مصر ، والى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه . كما انتقلت بعد ذلك من القطنيات الى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون ، كما نمت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والاطارات .. الخ ، لتؤلف منطقة صناعية منوعة ومتكاملة أفقيا ورأسيا بمعنى الكلمة

وبقوة هذا القطب الصناعى ، انبثقت أخيرا نويات صناعية أحدث على طول الترعة الاسماعيلية وشارع بور سعيد ؛ زحفت حتى مسطرد ، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكاوتشوك ... الخ . ومن قبل قفزت حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العشش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيرا وتمثل خلية من التزاحم الخطير ، تجمع فى محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسراتهم

هذا ، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية حديثة متواضعة وزنا وحجما ولكنها تناظرها عبر النهر فى شمال الضفة الغربية فى امبابة ، تدور أساسا حول

النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجـوارب ، تخلقت حولها هى الاخرى مستعمرة عمالية ـ مدينة العمال بامبابة ـ الا أنها مخططة هندسيا على نمط مستطيل . وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياه ... الخ

والآن ، ومن وجهة جغرافية المدينة ، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلابة يدعو الى التساؤل . لسببين أساسيين : أولهما أنها تقوم فى صميم الارض الزراعية الثمينة ، فهى وان نقلت بالتحول المهنى عشرات الآلاف من الفلاحين الى عمال فقد عقمت الالاف من اجود الاراضي ، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع . السبب الثانى أن هذا الموقع الشمالى يأتى على النقيض تماما من كل منطق التخطيط فى بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف صيفا (البحرى) . فهى تلقى بكل دخانها وافرازاتها على سماء المدينة الى الجنوب . ولعل هذا وحده أن يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال فى القطاع الشمالى من المدينة هنا فى شبرا وروض الفرج والساحل فى وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقى باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل

غير أنه ما من شك ان الذى يفسر هذا التوقيع الخاطىء سكنيا هو الميزة الموقعية اقتصاديا . فهنا فى الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل واسرع اتصال مع كتلة الدلتا الغنية مصدر خامها وغذائها الاول وممر التصدير والاستيراد الخارجى . لقد تغلبت مصالح

الانتاج على السكن ، ومصالح صاحب راس المال (قبل التأميم) على صاحب العقار

واذ ننتقل الى حلوان ــ القطب الجنوبى ــ نجد المسرح مختلفا والقصة احدث بكثير . فهنا ومنذ عقد تقريبا غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية منفصلة ، سكنية سياحية ، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن المياه Spa town ، لترتفع الافران العالية الى جانب ينابيعها المعدنية . هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب ، قاعدة الصناعات جميعا ، بدأت على خام أسوان والنقل النهرى وتتحول الى خام الواحات البحرية والخط الحديدى . ففى احضان وادى حوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والافران تترامى لبضعة أميال وتعمل على خط انتاج واحد كسير متحرك ، لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح ، عدا صناعة السيارات تصنيعا وتجميعا ، وعدا الصناعات الحربية والادوات المنزلية الحديثة ... الخ

والعملية هنا انقلاب عمرانى كامل بقدر ما هى انقلاب اقتصادى . فأمام حلوان الآن نمو سكانى ومدنى ضخم ، ومن المحتمل ان تنمو حتى تتقابل او تتقارب يوما مع حدود كتلة القاهرة المبنية (؟) مثلما دخلت الآن أكثر من أى وقت مضى فى فلكها الاقتصادى . واذا كان التوقيع الصناعى هنا سليما من وجهة مناخ القاهرة ، فان مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به فى قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة . ولكن المحقق على اية حال ان ليس ثمة مبرر جغرافى طاغ او واضح

لذلك التوقيع أصلا ، الا ان يكون القرب من مجمع العاصمة ، الامر الذى يعود بنا الى قضية أفراط المتروبوليتانية عموما

من وظائف الانتاج ندلف الى وظائف الخدمات ، وأولها التعليم . وللوظيفة التعليمية فى القاهرة دور خاص ان لم يكن فريدا حقا ، اذ ان جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أى خمس السكان ، ولا مفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بالحاح فى لاندسكيب المدينة . والقاعدة الاصولية أن هذه توزيعها الجغرافى يتناسب مع درجتها التعليمية ، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلا عنقوديا أو شجريا أو هرميا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها فى الاقليم . فمدارس الصغار ـ وهى اساسا خدمات جيرة ـ اشدها انتشاراوانتشارا ، وتوزيعها سكنى بحت أى يرتبط بالاحياء السكنية . أما المدارس الثانوية فخدمات أحياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة ، وهى لذلك أقل عددا وأكثر تباعدا ، ولكنها سكنية أيضا بالضرورة . .

واذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذى يؤكدها ، وهو التعليم الاجنبى . فمدارس الجاليات والارساليات الاجنبية كلها تتقاطر (او كانت) على قلب العاصمة التجارى ، فهى ـ كروادها ـ أدنى الى المسحة التجارية وأشبه ان تكون عناصر مقتلعة ، مثال ذلك المدرسة اليونانية والالمانية والفرنسية قرب الفلكى (وربما أضفنا تجاوزا الجامعة الامريكية غير بعيد) ومدرسة الارسالية الامريكية قرب حديقة الازبكية . الخ

أما التعليم العالى فهو وحده الذى يبدى تركزا جغرافيا حاسما أولا ، وانفصالا مطلقا عن السكن

ثانيا ، وارتباطا حتميا بأطراف المدينة ثالثا ، وبأطرافها الحديثة الراقية المصرية رابعا . ذلك أن الجامعة تحتاج الى مساحات شاسعة ـ تتزايد أبدا ـ مثلما تحتاج الى الهدوء المطلق . وهذا يتجسم فى ترامى جامعة القاهرة فى الجيزة الحديثة على مدى ما بين كوبرى الجامعة وكوبرى الجيزة وبعمق كبير ، ثم فى انتشار جامعة عين شمس من الزعفران الى العباسية . وكل منهما ـ يلاحظ ـ على ضلوع العاصمة غربا وشرقا ، كأنهما قطبان الا أنهما قطبان متنافران موقعا مع قطبى الصناعة فى الشمال والجنوب

وتمثل جامعة الازهر توقيعا مختلفا ، فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفى حضن الجبل من الشرق توا ، ولكنها فى أقدم قطاع فى المدينة . ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية الى جانب نوعيتها الدينية . غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزا عن التوسع المساحى فى وسط ذلك الحى الشعبى المكتظ ، الذى يضفى عليها أيضا جوا وطابعا خاصا . ولهذا فقد بدأت أخيرا تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيدا فى مدينة نصر

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخى فى الحركة من الجامعات الدينية القديمة الى الجامعات العلمانية الحديثة . فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الاخير من التعليم الدينى التقليدى الى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمز اليه الانتقال من جامعة الازهر الى جامعة القاهرة ، من أقصى شرق المدينة المرتفعة العتيقة الفقيرة الى أقصى غربها السهلى المحدث الغنى . وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما ، تتوسط

المدينة عبر هذا القوس جغرافيا واجتماعيا كما تتوسطه تعليميا ، وتتمثل فى مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالى والمعاهد المجاورة والمماثلة فى منطقة المنيرة » وذلك قبل ضمها اخيرا الى الجامعات الحديثة ، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعا !

هذا ، ويختلف التعليم الفنى فى توقيعه ، فهو عادة ــ وبأنواعه المختلفة ــ يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الاحياء المعنية • فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الاحياء الصناعية ، مثلما يتبلور فى سلسلة متراصة من المدارس الفنية الصناعية وورشها فى بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية والميكانيكية سابقا ، ورشة القطن .. الخ) • ويمكن فى معنى خـــاص ان نمد هذه القاعدة الى بعض مؤسسات التعليم الجامعي الطبى بحسبان المستشفيات الجـــامعية تعليما وممارسة معا • فمن أدعى الظاهرات لفتا للنظـر تلك الكوكبـــة العديدة والمتلاصـــقة من المستشفيات الجامعية لكلية الطب ومعامل الابحاث ، التى تتركز فى شمال الروضة وعلى طول القصر العينى من كوبرى المنيل الى فم الخليج ، والتى تحدد قدرها فيما يبدو منذ بـــدأ القصر العينى ايام كلوت . فهذه الدائرة المأمومة لا يمكن الا ان ترتبط فى الذهن على الفور ، كما هى فى الواقع ، بأكبر تجمع فى الجمهورية للاطباء وللعيادات الطبيـــة فى دائرة باب اللوق وما حولها ، وليس يفصل بينهمـــا الا شارع القصر العينى نفسه

***

ثم ننتقل الى وظيفة تعد ــ عكس التعليمية ــ مناقضة ومضادة للسكنية الى حد كبـير ، وهى الصـــــحية •

فالمستشفيات بمساحاتها الكبيرة وحاجتها الى الهدوء وبأخطار العدوى ، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموما وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية ، فالموقع السائد والمفضل غالبا والمحتم أحيانا هو الاطراف، وربما الاطراف المنعزلة تماما ، وقد نضيف : فى منصرف الرياح كما فى العجوزة ومستشفاها العام الكبير ، وكما فى العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلا عن كورنتينة بيطرية ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات فى شمال امبابة)

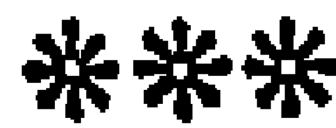
وترتبط المدافن ، من زاوية معينة ، بالوظيفة الصحية، فتصدق شروطها على توقيعها بصورة أشد صرامة • وجنوب شرق القاهرة فى منصرف الرياح ، عاليا على التل المكشوف ، بعيدا عن الطين فى الرمل الجاف ، منفصلا عن جسم المدينة ، هو مدينة الاموات • والواقع أن سلسلة الجبانات ، من الغفير شمالا حتى الامام الشافعى جنوبا ، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطاق المحاجر والجيارات شرقا وبين سلسلة التلول المتقدمة غربا « قطع المرأة ، زينهم ، عين الصيرة » التى بدورها تشكل نطاقا متقطعا يعزلها ويعزله عن السكن

ومع ذلك ففى الامام الشافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده ، وتداخلت مدينة الاحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس • وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أسماء وأرقاما ، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى ، فالطريف أن العزل فيها على الاساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه فى مدينة الاحياء ، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة

تبقى أخيرا بعض وظائف تتشابه مع الصحية فى طبيعتها الهامشية ، الا أنها لا تبدو كذلك دائما فى القاهرة • فالمؤسسات الترفيهية ـ الرياضية منها ـ كالملاعب والاندية الكبرى هى بطبيعتها مسرفة فى حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والاماكن المكشوفة. ولان جمهورها ـ فى ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن ـ ما زال محصورا غالبا فى الطبقات القادرة ،فهى تجنح عادة الى أن تقع فى القطاعات الراقية من الاطراف • اعتبر مثلا نادى الصيد خلف الدقى ، والزمالك والترسانة فى مداخل العجوزة ، واستاد القاهرة فى مدينة نصر ، ثم نادى سباق الخيل والبولو فى مصر الجديدة •• الخ

ولقد نظن أن هذا يصدق ايضا على نادبى الجزيرة والاهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبى ويمثلان معا اكبر رقعة رياضية متصلة فى العاصمة • ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شىء الى قلب المدينة ، وموقعه هنا انما يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن • وهذا نقد قد يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين ، ولكنه يفهم على ضوء الماضى • فقد أنشأ الاستعمار البريطانى هذه الحلبة لتكون حكرا ارستقراطيا له أولا ، وحين أنشأها فى العقود الاولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة ، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهامشية . ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية خاصة سرعان ما غمره فى مده واحتواه حتى أصبح الان قريبا جدا من قلب المدينة • وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدأ بالفعل يعرقل النمو الطبيعى لهذا القلب ، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمى خطير فى مواصلات

العاصمة . والاسوأ من هذا انه يعقم الاستغلال الامثـــل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر فى موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو • فكل اصابع التخطيط الرشـيد تشير اليه اما كمنطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمي (فنادق سياحية الخ) او كخلية ومجمع للقاعات الدوليـة وصالات المؤتمرات والمعارض العـــالمية الخ • والمنطق التخطيطى يقضى بأن يهاجر الى الهوامش الجديدة ، مثـلا كمنطقة نادى الصيد • أما القول بأن هذا يحرم القاهرة من « رئة » طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان ، فليس ردا ، لان النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة ، والحاجة الى رئة انما تزداد كلما بعدنا عن النهر خاصة فى أعماق الضفة الشرقية المكتظة • ثم ان الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تخنق أحدا • وفوق هـــذا كله ، فما نعرف عاصمة كبرى فى العالم تتوسطها جزر نهرية دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمرانى : مثلا السيتى فى باريس ، مانهاتن فى نيويورك



مثل هذا او شيء منه يمكن ان يقـــال عن الوظيفـــة الحربية ومؤسساتها فى القاهرة ، فمنذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة مثلا ، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة (بثكناتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها) التى تقع كليـة خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية ، مصـــدر الخطر الخارجى الاساسى . (على العكس من هذا تماما فى ظل الاستعمار ، كانت هذه المدينة العسكرية فى صميم قلب المدينة ، قصر النيل ، استجابة لا لاغـــراض الدفاع الخارجى ولكن لاغراض الاحتلال الداخلى) وانتقال موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القلعة) الى شمالها

الشرقي (العباسية ـ القبة) يرمز الى تطور الفن العسكري ولا شك أن الموقع الاخير ، الحالي ، هو عنق زجاجة القاهرة ومدخلها الاستراتيجي الاخطر • غير أن القصة هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة ، فقد احتوى المد العمراني المدينة العسكرية ـ على ترامى رقعتها ـ الى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكني والمدني لها شرقا نحو الصحراء • واذا كان هذا عنصر تعويق في نمو المدينة ، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها • ولقد نضجت المشكلة ـ التي واجهتها عواصم أخرى كثيرة ـ بما يسمح باعادة توقيعها ونقلها الى الاطراف الجديدة

الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية ، ان لم ترادفها تقريبا • والطبوغرافيا الاجتماعية ـ والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسي جاستون بارديه ـ هي أساسا التوزيع الجغرافي للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة • واذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفييتية لا تعرف الا التباين الجغرافي على أساس الانتاج ، بينما تتجانس فيها الاحياء السكنية تماما ، فان طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وان كانت لمدينة عاصمة في دولة تتحول الى الاشتراكية • فنحن هنا ازاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الاقطاع والرأسمالية ، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الاحياء السكنية على الاساس الطبقي اقتصاديا واجتماعيا • بل ان المسكن مازال هو التعبير المادي الاخير عن الطبقة ، والمنزل هو المنزلة ، والمكان هو المكانة

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها ، بل والجنسية والطائفة أيضا ، أى الاقليات عموما ، وهذه لها مكانها فى عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة ، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة . على أن من الواضح تماما أن وزن الجنسية والطائفة ثانوى وضئيل للغاية بالقياس الى الطبقة ، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم فى الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ الاف السنين . وهذا على العكس تماما من مدينة كالمدينة الامريكية تمتاز أساسا ، كمدينة بلا تاريخ وكمدينة هجرة ، بالتنافر الاثنولوجي وتعدد الاجناس والقوميات، ويأخذ فيها الجنس بعدا لا يقل خطرا عن الطبقة فى تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم ، يمكن أن نحصر الاحياء السكنية الفقيرة فى أقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها ، مع جزيرة كبيرة فى وسطها . أقصى الجنوب : فى أجزاء من الجيزة البندر ، وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب ، مرورا بأبو السعود والمدابغ والمذبح والبغالة . أقصى الشرق : من الخليفة حتى الحسينية ، مرورا بالقلعة والدرب الاحمر والجمالية . أقصى الشمال : فى اطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولها وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجى ، ثم ازاءها فى امبابة . اما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية . وثمة أحيانا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية فى الضفة الغربية من القرى المبتلعة كبولاق الدكرور او مدن العمال مثل بين السرايات

هذه بوضوح هى اما احياء شعبية قديمة التاريخ ، والمبانى عتيقة الطرز ، بعضها متهالك او آيل للسقوط ، شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطة ، ترتفع فيها كثافة المساكن بفضل أزقتها وحواريها الضيقة ، كما ترتفع فيها كثافة السكان وحجم الاسرة . أو هى أحياء عمالية حديثة التاريخ ولكنها منخفضة المستوى ، وقد ترتبط ببعض البورجوازية الصغيرة من صغار الموظفين او الحرفيين . واوضح من ذلك كله ان السكن يختلط فيها بدرجة أو بأخرى بالصناعة والتجارة كما رأينا . وهى أخيرا وفى أغلبها ، ولكن ليس دائما ، تقوم على الارض المرتفعة ذات الكنتورات العالية

وعلى طرف النقيض ، تتوزع الاحياء السكنية الفنية ، بدرجاتها المتفاوتة ، فى معظم النطاق الاقرب الى النهر من الضفة الغربية شمال الجيزة البندر ، ثم فى الجزء الاكبر من جزيرة الروضة ، ثم فى الجزيرة (الزمالك) ، ثم نعبر الى جاردن سيتى وقصر الدوبارة ، لنقفز بعدها بعيدا الى مصر الجديدة واجزاء كثيرة من الشمال الشرقى ابتداء من القبة . وابرز ما يجمع بين هذه الاحياء جغرافيا أنها باستثناء مصر الجديدة وما حولها تقع فى الاراضى المنخفضة على جبهة النيل

وفى الاعم الاغلب تقتصر هذه الاحياء على السكن ، فان غزتها وظائف اخرى فبعض المؤسسات الادارية كالوزارات او المصالح ، ولكن بوجه أخص البعثات الدبلوماسية ، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقى ، فنجد اغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعشش فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقى وحديثا واخيرا العجوزة . على أن السفارات والهيئات

الدبلوماسية اذا عدت دليلا على السكن الراقي ، فهذا يقتصر على الاحياء السكنية القريبة من قلب البلد نسبيا ، أما المتطوحة منها فتخلو منها ، كمصر الجديدة .

أما اللاندسكيب المدني السائد هنا فهو العمارات العالية واحيانا الناطحات الصغيرة ، ودائما في عمارة عصرية حديثة . اما الفيللات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة أراضي البناء على الارض السوداء حيث لابد من الحد الاقصى من الاستغلال بالكثافة الرأسية . وهنا نستطيع أن نرى كيف أن « جاردن سيتي » مثلا اسم على غير مسمى ، بل وسخرية من فكرة «الجاردن سيتي» المعروفة في أوربا منذ هوارد ، فهي غابة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيللات في بحر من الحدائق . ولكن الفيللا تعود فتسود على الزمل في مصر الجديدة وضواحي الشمال الشرقي حيث تملك ترف الانسياح الافقي

أما السكان ، فهذه هي المحل المختار للطبقات الموجهة والمسيطرة والاكثر دخولا وترفيها وترفا . وقد حدثت هنا منذ الثورة عملية « تتابع سكني » تغير فيها نوع السكان . فقد كانت هذه هي المواطن المفضلة لسكنى الاقليات الاوربية الاستعمارية ، مثلما كانت المقر الطبيعي للاسر الاقطاعية والرأسمالية والصناعيين من الوطنيين . ومع تصفية هذا وذاك ، حلت بالتدريج صفوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية ، مما بدأ يخفف نوعا من حدة تضاريس الطبوغرافيا الاجتماعية في العاصمة .

فيما بين النقيضين ، الاحياء الرقيقة الحال والغنية ، تنتشر أو تنحشر الاحياء المتوسطة التي يتفق أنها متوسطة في الموقع الجغرافي مثلما هي في الموقع الاجتماعي

والتى تتألف غالبا من الطبقات الوسطى المعتدلة او العادية من الموظفين والمثقفين أو التجار • فعدا الجانب الخلفي من الضفة الغربية ، تغلب فى فم الخليج وتسود فى المنيرة وكل ما حولها وخلفها حتى حدود الاحياء المتواضعة فى شرق المدينة ، ثم تغلب على كل النطاق العرضي الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسية ثم فى قطاعات كبيرة من ضواحى الشمال الشرقى . هذا عدا القطاع الاكبر والجنوبى من شبرا وروض الفرج . ومن الملاحظ ان خطوط السكك الحديدية داخل المدينة ، قومية كانت أو ضواحى ، تخترق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة (أو الفقيرة) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية

ماذا تعنى هذه الخريطة الاجتماعية ، وهل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث ؟

لعل أبرز ما يلاحظ هو ان مبدأ الفصل السكنى سائد بعامة ، بمعنى أن لكل طبقة منطقة ، ولكل منطقة طبقة . وأهم من ذلك ان الفصل السكنى سلمى ، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة الى أخرى كما تتدرج فى السلم الاجتماعى . وبتفسير أوضح فان منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقتين ، بل الاغلب ان تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما ، كما فى منتصف المدينة على محور جاردن سيتى ـ المنيرة ـ القلعة

وقد تتقارب او تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة ، بل ان هذا احيانا مطلوب لان القوة الضخمة العاملة فى الخدمة الشخصية والمنزلية فى احداهما تستمد من

الاخرى ، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعى فاصل ، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعي ويصل الى قمته ، وحيث تصل المسافة الاجتماعية الى اقصاها والمسافة الجغرافية الى أدناها ، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى اكثر اعتدالا . .

اما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن ان نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة . ففى كثير من المدن الاوربية والامريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسا طرديا للمستوى الاجتماعي والانتماءالطبقى ، كلمازادت ارتفع ، والعكس . ولكن القاهرة لاتحقق هذه القاعدة الا جزئيا (مصر الجديدة ، المعادى ، وكل ضاحية منفصلة او شبه منفصلة) ، وتعارضها أكثر (جاردن سيتى ، والزمالك من ناحية ، وامبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية اخرى)

فاذا بحثنا عن احتمال اخر ،كالارض العالية والمنخفضة فى المدن الغربية الباردة ، حيث الارض المنخفضة مصايد للضباب والرطوبة ، والارض العالية صحية جافة ومشرقة، وحيث ــ بالتالي ــ « العالي اجتماعيا هو العالي جغرافيا ، والواطىء اجتماعيا هو الواطىء جغرافيا » ، وجدنا أنفسنا فى القاهرة أزاء قلب رئيسى وأن يكن غير كامل للقاعدة . فشرق المدينة الاعلى تضاريسيا يحمل الاحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية ، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفى جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغنى . ولكن يعود فيشذ قطاع كبير فى بولاق والشمال

(شبرا الخيمة وما حولها وامبابة) فهذه كلها ارض منخفضة واحياء متواضعة

هل هو اذن ضبط الرياح السائدة ؟ فقد لوحظ فى الغرب ان السكن الراقى يسعى الى أن يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة ، طازجة غير ملوثة . وفى مصر الحارة ، فليس ثمة شك أن الرياح البحرية السائدة مرغوبة جدا وان لها ثمنا يدفع فى فيم الارض أو الايجار ، وان المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة تنجذب أحياؤها السكنية الراقية الى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية . ولكننا فى القاهرة نصطدم بشبرا الصناعية وامبابة واحيائها المتواضعة فى أقصى الشمال ، وان كانت مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى مكشوفة للرياح « البحرى » منطقة بلا عائق

لا يبقى الا ان تكون جاذبية النهر ، فللجبهة المائية المنعشة فى مناخ حار ، فضلا عن المنظر الطبيعى فى اللاندسكيب ، مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقى ، ومن الواضح أن هذا يمثل جزءا كبيرا من الحقيقة فى القاهرة : اعتبر معظم الضفة الغربية ، ثم الجزيرتين ، فجاردن سيتى ، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة ، حيث تقع بولاق وامبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة ابعد ما تكون عنه . على أن هذا لا يقلل من أهمية عامل الجبهة المائية ، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة ، راقية كانت او متوسطة ، يطل على النهر عادة أفضل المساكن وتقل درجتها كلما بعدنا عنه .. وفى الضفة الشرقية مثلا ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل فى انحدار مستمر من الراقى الى المتوسط الى الفقير ، ولا نقول الى سكن الموتى فى أقصى الشرق !

والخلاصة الصافية ؟ لاشك ان كلّ هذه العوامل تعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيا ، وليس فيها مفتـــاح احادى . والسبب ان القاهرة مدينة معقدة مركبة بحـكم تاريخها الطويل وتنوع ارضيتها كموضع مابين الجبـــل والنهر وما بين الصحراء والوادى . ولكن من الممكن ان نقول ان ضابط الجبهة المائية فيها اقوى بعامة من عامل الرياح البحرية ، وهذا بدوره أقوى من عامل التضاريس

ذلك اذن وجه المجتمع القاهرى فى بيته الجغرافى او بيئته الطبيعية . غير أنه ان حددت الطبقـــة ملامحه الاساسية ، فان الاقليات تكملها بلمسات نهائية ترصـع صفحته دون أن تخرج عن الفرشة القاعدية . ولقدحدثت تغييرات هامة فى العقد الاخير فى حجم وتوزيع الاقليات الاجنبية والجاليات الاوربية نتيجة « للخروج الابيض » مع التحرير ، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الآلاف ، وان قد كانت دائما أقل منها فى الاسكندرية بالذات

ففى مرحلة الاوج فى الثلاثينات والاربعينات ، كـانت أبرز حقيقة عن توزيع الاوربيين فى القاهرة تجمعهـــم فى النصف الشمالى منها ، او بالاحرى غيـــابهم تماما من النصف الجنوبى . وفى النصف الشمالى كان توزيعهـم اقرب الى قلب المدينة ، وكان مركز الثقل فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة وفى الاسماعيلية والتوفيقية ، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان فى كثير من الشياخات . وحول هاتين النواتين ، وعدا الزمالك ، كانت تجمعـاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنساوى حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا ، وفى كثير من شياخات هذه الحلقـــة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان

واهم معانى هـــذا التوزيع هى ، اولا ، ميل طبيعى للاقليات والجـاليات الاجنبية الى التجمع وعدم الانتشار تماما بين الوطنيين . ثانيا ، انجذاب (غير مألوف عنـد الوطنيين ولـكنه منطقى للاجانب) نحو قلب المدينة التجارى حيث يربطون بين العمل والسكن او حيث يظهر السكن التجارى (الفنادق والبنسيونات الخ) . ثالثا ، يتبع توزيع الاقليات الاجنبية الاطار الطبقى العام . فكانت العناصر الاكثر غنى ونفوذا منهم ترتبط بالاحياء السكنية الراقية كجاردن سيتى والزمالك ، والعناصر الاقل مكانة بالاحياء البورجوازية المتوسطة ، ولكنها فى جميع الحالات كانت بعيدة تماما عن الاحياء الوطنية الفقيرة . رابعـا ، ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديا او بصـفة خاصة : الانجليز بجاردن سيتى والزمالك عدا المعـادى المنفصلة ، واليونانيون والطليان واللفانتيون بمداخل شبرا تجاه المحطة (الشوام فى قصورة الشوام خاصة)

خامسا ، واخيرا ، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبى عن الوطنيين ، فلا مجال قط للحـديث عن عزل سكنى صارم بالمعنى المعروف فى العواصم الاستعمارية فى افريقيا او اسيا . بل ان بعضا من العناصر الاقل ثراء من الاوربيين اندمج تماما فى كتلة السكن الوطنى ، ومن الناحية الاخرى لم تظهر قط مدينة اوربية مقفلة بالمعنى الاستعمارى ، وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقـاليد المنجهية الانجلوسكسونية تحايلوا على العزل السـكنى المقنع من خلال الانفصال الجغـرافى الطبيعى حين نموا لانفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا ، وغزتها العناصر الوطنية . وهذا كله يذهب ليؤكد ان الفارق الحضـارى والجنسى بين الاوربيين والمصريين كان دائما على غير ماعرف

الاستعمار فى كثير من بلاد العالم الثالث ، وانه عجز عن أن يخلق فى مصر اى شبهة من « حاجز لونى » ما

اما من الناحية الدينية ، فقد كانت هذه الجاليات الاوربية ذات التركزات غير العادية فى قلب المدينة او قربه تتخذ مؤسساتها الدينية فى ذلك القلب التجارى او قريبا منه ، وذلك بصورة شاذة غير مالوفة ، وليس فى الاحياء السكنية كما هى القاعدة فى مؤسسات الديانات الوطنية . وحتى بعد تصفية هذه الاقليات والجاليات ، فما زالت مؤسساتهم تحتشد فى ذلك الوسط التجارى : مثلا كاتدرائية الانجليز بماسبرو ، كاتدرائية سان‌جوزيف بعماد الدين ، عديد الكنائس فى باب اللوق والفكى وكنيس الاسرائيليين فى شارع عدلى .. الخ

هيكل العاصمة :
اقاليم القاهرة الكبرى

من المسلم به ان القاهرة ، بتاريخها الالفى العريق ، مدينة ناضجة مورفولوجيا من وجهة جغرافية المدن ، بمعنى انها مرت بمراحل وأدوار عديدة من التجربة والخطأ ،واعادة التجربة والتصحيح ، حتى استقرت واستوت خطتها وبنيتها العامة على انسب تنضيدوترتيب ممكن لبيتها من الداخل

ومن هذه الزاوية ، فالمفروض ان تكشف القاهرة لدارسها بسهولة عن هيكلها الاساسى وعن الخطوط العريضة فى مورفولوجيتها . غير ان الواقع ان القاهرة مدينة معقدة نوعا من حيث الموضع الجغرافى الذى يحتويها . فاختناقها بتلال المقطم فى الشرق منع بصرامة

توسعها فى هذا الجانب وفرض على نموها اتجاها أحاديا او قل نصفيا نحو الشمال والغرب أو الشمال الغربى ، وبذلك حد من حريتها فى الانطلاق نحو النمط الدائرى وحصرها فى نمط مروحى بالتقريب

ونقول النمط الدائرى لانه « باستثناءات ليست قليلة الاهمية ومع تحفظات معينة ، فان المدينة اى مدينة حين تترك لنفسها فى بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات الطبيعية فانها فى الاعم الاغلب تميل بالنظرية الى أن تنمو حول قلبها ، كجذوع الاشجار ، على شكل حلقات متتـــــابعة نحو الاطراف ، وتكتسب محيطا دائريا أو شبه ذلك . والسؤال هو : ما النمط « ما المنطق البنائى القائد او الحاكم الذى يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة بملامحه وعناصره ووظائفه وديناميـــاته التى طالعنا وحللنا ؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القـــاعدة الذى ارتكزت عليه القاهرة فى نموها ، وبينما لم يعد اجتيازها للنيل عقبة على الاطلاق ، على الاقل منذ القرن الماضى ، فقد ظل محور المقطم منذ البداية الى اليوم عقبة طبيعية صارمة . ومن الناحية التاريخية ، وعبر العصور الوسطى ، فان أحضان المقطم المبـــاشرة التى نشأت فيها هى بطبيعة الحال « النواة النووية » للمدينة مثلما كانت قلبها المركزى فى مراحل طويلة من حياتها

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمبانى والسكان فى مدن العصور الوسطى « خاصة الاسلامية منها ، بسيطا فى جوهره يتركز ــ كما يلح علينا ديكنسون ــ حـــــول السلطان : فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الامراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصـــغار

الناس حتى اذا وصلنا الى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون فى حقول المدينة وارباضها

وشىء من هذا توحى به القاهرة العربية الاسلامية . فدائما منذ الفتح العربى وقبل أن تبنى القلعة فى الايوبية ولكن بعدها بصورة اقطع ، كان مقر الحكم لصيقا او يكاد بسفوح المقطم فى الشرق ، ومن حوله كانت تترى أحياء الاعوان والمقربين وأهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة ، بينما كانت بطائح وشطوط النيل التى ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة الى أخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة ، وأحيانا ملاعب ومتنزهات ... الخ

وقد يمكن ان نعبر عن هذا فنيا بأن نقول ان نمط القاهرة العربية المورفولوجى كان حلقيا وانما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم . وربما اضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر — مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع — بهيكل مدينة شيكاغو المشهور فى دراسات المدن ، حيث يتركز القلب على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظاما نصفيا وليس دائريا كاملا

ولكن قاهرة اليوم أشد ماتكون تعقيدا بالمقارنة . فمنذ القرن الماضى اخذت المدينة تهجر ظلال المقطم وتزحف نحو النيل ، وأخذ كثير من أجهزتها ومؤسساتها ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم فى شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب . ولقد بدأت هذه الاعراض مع محمد على ، ولكنها تسارعت بعده منذ اسماعيل خاصة ، ولم تكف منذئذ حتى الآن : مقر الحكم ، مثلا ، كان القلعة أيام محمد على ، ولكنه

هو نفسه بدأ يشتل وزرع أجهزة ادارة جديدة وعديدة في منطقة الازبكية ، إلى أن نقل اسماعيل الحكم فيهــا نهائيا الى عابدين . هذا مجرد مثال دال » ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة انما هو عمليتــان ايكولوجيتان رئيسيتان : من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب، وإعادة توزيع وترتيب لاجهزتها وأنسجتها وأعضــائها ووظائفها واستعمالات الارض فيها من الداخل .

ولاشك أن ابرز المظاهر المؤثرة والملموســة لديناميكا القاهرة ، كما تنبثق من تفــاعل هاتين العمليتين ، هى هجرة القلب التجارى المركزى . وهى نتيجة حتمية . فقلب اى مدينة هو فى الحقيقة « عاصمتها » ، هو فى المدينة كالعاصمة فى الدولة تماما . وكما أن هناك علاقة ايقاع غير منظورة ولكنهــا محققة بين حــدود الدولة السياسية وبين العاصمة السيــاسية ، ينبضان معــا ويتأرجحان معا ، فكذلك قلب المدينة : يرتبط وثيقــا ويتذبذب حثيثا مع حدود المنطقة المبنية ، كلما اتسعت حدود هذه ، كلما تحتم على القلب أن يتحرك معهــا ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه . هكذا القاهرة : كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساسا ، نحــــو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها .

ومن السهل ربما ان نتتبع حركة القلب التاريخية هذه من الازهر والموسكى فى مطالع القرن ، الى العتبة والازبكية بعد ذلك ، الى الاسماعيلية خلال فترة الحرب الثانيــة وما قبلها . وبمزيد من التحــديد فقد كان كليرجيه فى الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حــول شارع عماد الدين . ومنذ ما بعد الحرب وصلت الحــركة الى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو وطلعت حــرب (فؤاد

وسليمان سابقا) ، ومن بعدها انحدر الزحف على طول شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير حتى شارفه ، وحتى اصبح هذا من مراكز قلب القاهرة وقطب الجاذبية فيها ، حيث اخذت المؤسسات والاجهزة والهيئات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وادارات وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله ، وأخذ هو يكتسب صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية

وكمقياس اختبار او كرموز لهذه الحركة ، اعتبر هجرة فندق شبرد من الازبكية ، والجامعة العربية من الداخل ، الى النيل ، ثم قيام الهيلتون ، ولا تنس قيام المجمع قبل الجميع . كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقة الاضواء Bright Light Area (المسارح ودور السينما والهو وشرنقة المقاهى والمطاعم الكثيفة التى تغلفها .. الخ) من شارع عماد الدين فى الثلاثينات الى شارع طلعت حرب الان ..

لقد تمت دورة بندول كاملة فى حياة المدينة وقلبها ، انتقل فيها من سند الجبل الى شاطىء النهر ، ومن ضلوع المقطم الى ضفاف النيل ، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة الى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس الى مدينة فيضية ، ومن موضع منحدر تلى الى موضع يمتطى نهرا ويضع قدما فى ضفه وقدما فى الاخرى حتى اصبح هذا هو محور المدينة الجديد

ولاشك ان هذا الزحف الهادف انما يتم فى جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمرانى الضخم ، والمتفجر اخيرا ، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر المزيد من النمو والانسياح . وهو ايضا يحقق النظرية الاصولية من ان القلب يزحف نحو الاحياء السكنية

الراقية . كذلك فانه يدل على ان القلب برقمته المزدحمة الحالية بدأ يكتظ ويضيق بمؤسساته وأجهزته الكثيفة والمكدسة ، بمثل ما ان بعض هذه المؤسسات بدأت هي الاخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى الى اطرافه الاكثر هدوءا واتساعا لاغراضها . خذمثلادور الصحافة الكبرى في القاهرة : تجد منذ مدة هذا الاتجاه الى الابتعاد عن عين القلب الى هوامشه ، ابتداء من قيام دار اخبار اليوم فى شارع الصحافة ، الى انتقال الاهرام اخيرا جدا الى شارع الجلاء . ومن قبل يلاحظ الموقع الهامشى من القلب فى بقية دور الصحف : الجمهورية تجاه الازبكية ، الشعب فى القصر العينى ،الهلال فى المبتديان .. الخ . كذلك مرافق الادارة المركزية ، لم يعد القلب الادارى يتسع للمزيد منها وبدا يلفظ نموه بعيدا ، واحيانا خارج القلب تماما ، كوزارة الزراعة بالدقى من قبل ووزارة الاصلاح الزراعى من بعد ، وكعدد اخر من الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية

هذا ، واذا كان لنا أن نحدس المستقبل من مؤشرات الحاضر ، فان ضغط القلب من اجل المكان سيفرض نفسه قريبا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصة ملاعب الجزيرة التى هى حقيقة استغلال سيىء ومسرف لموقع محورى والتى قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعى ، ولكنه صراع وظيفى لا يمكن ان تكون الغلبة فيه الا للقلب فى النهاية . وقد لا يكون قيام فندق عالمى تجارى ضخم ـ شيراتون او سفنكس (؟) ـ على راس الدقى السكنى فى قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة ، بلا مغزى ودلالة على هذا الاحباط الذى تفرضه تلك الملاعب مؤقتا

كذلك فان كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة ، التى تبدو اليوم ناضجة تماما لجراحة كبرى فى ازالة العشش،

هي بالقوة الاحتياطي والرصيد الطبيعي لتوسع القلب في بعض جوانبه في المستقبل . وهي قد بدأت بالفعل تتلقى او تستشعر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل في ماسبرو (مبنى الاذاعة والتليفزيون مثلا .. الخ)

هذا عن حركة القلب غربا ، والمهم والسؤال الان : ما الذي حدث للمنطقة التي هاجر وانحسر عنها القلب بالتدريج ؟ انها ببساطة ــ ولكن ببسالة ، اذ ان المقاومة تستمر عقودا ــ تفقد بالتدريج أجهزة وعناصر التجارة والنشاط التجاري التي هي مقومات القلب وصفته الاساسية . فالقلة من محلاتها ومؤسساتها الاكثر طموحا والاقدر على التكيف الحديث تغادره الى القلب الجديد كلية او قد تتخذ لنفسها فيه فروعا عصرية ، والكثرة تذوى وتذبل بالتدريج ويتضاءل روادها ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتمادا على ولاء جمهور واسع الدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات ، وقد تتحول الى مخازن وموردين للجملة او متاجر محلية للحي او حتى للجيرة ، وفي نهاية الدورة قد تصفى اعمالها فاذا بمبانيها ومنشآتها تتحول الى استعمالات جديدة ، سكنية اساسا ، او قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحرفيين او المموّلين .. الخ . وبعبارة اخرى ، تتحول المنطقة التي تراجع عنها القلب القديم الى مجرد اطراف وهوامش او رقع من جسم المدينة العادى بحلقاته الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية او الحلقة الداخلية كما تسمى .

وعلى الفور فان هذه العملية تضع ايدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة ،

وتعد قلبا للعملية الشائعة فى ديناميات ونمو اقاليم وحلقات المدينة الداخلية . فالقاعدة مع نمو المدينة ان يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به ، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة الى التجارة ، ولكن التحول هنا فى المناطق الشرقية من القاهرة والتى كانت القلب القديم ، تم على العكس بتراجع وانحسار القلب ، وبالتحول من التجارة الى السكن المختلط بالصناعة

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالم فى هذه القطاعات ، خاصة اذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفى القطاعات الأخرى من المدينة ، ولا تتسع الا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب وانحساره عنها . والنتيجة الصافية أن مورفولوجية حلقات المدينة الداخلية التى كانت فى العصور الوسطى نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائرى بصورة عامة ، الا أنه هنا منبعج مختنق فى شكل مروحى

هذه العملية كلها لا شك بدأت فى القرن الماضى حين اخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضارى الجديد ، ولا جدال أنها ظلت تشتد مع شدتها ، ولكنا لا نستطيع أن نتتبعها بالعين المجردة الا فى الاجيال والعقود الاخيرة حيث دخلت مرحلة النضج . هذا ويلاحظ فى تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الاوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير ، وخاصة فى قاهرة ما بين الحربين ، أعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة

والصغيرة ، مثلما نشرت تطلعات الاوربة والتغريب بين الجماهير ... الخ

وهذا كله أتى لحساب القلب العصري « الاوربى » الحديث ، وعلى حساب القلب التقليدى الآفل ، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج . والكثيرون ما زالوا يذكرون أو لا شك سيتذكرون حالات افلاس كثير من محلات الموسكى والازهر ... الخ فى تلك الفترة . أما اكتمال الهجرة من القلب القديم الى الحديث فيرمز اليه ببلاغة تحول مركز الثقل والاهمية من شارع الموسكى الى شارع طلعت حرب ، ومن ميدان العتبة الى ميدان التحرير . وقد يمكن أن نعتبر العتبة هى الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث فى قلب القاهرة التجارى . وفى الوقت الحالى ، أصبح القلب القديم ـ الموسكى والازهر والغورية ... الخ ـ يلعب فى كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان فى الماضى ، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الاخير للقديم فى كل شىء ..

وعلى الفور ، لن يخطىء أحد أن ها هنا ثنائية أساسية فى قلب العاصمة التجارى : قلب جديد نابض متنام ، عصرى حديث الطراز ، فى الغرب ، وقلب قديم عتيق الطراز ، آفل وفى انكماش مطرد ، فى الشرق . وهذه الثنائية ، التى يعرفها قلب كل مدينة هامة فى العالم الثالث ، تلخص وترمز الى الثنائية الحضارية القاعدية التى تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الاوربى والاحتكاك الحضارى مع الغرب . ومن الطريف فى القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين الموقع الجغرافى والموقع الحضارى داخل هذه الثنائية : فالقلب الشرقى القديم

فى الشرق ، والغربى الحديث فى الغرب ! على أن هذه الثنائية مرحلية فى جوهرها وان طال الامد ، ولنا أن نتوقع ، ولكن ليس قبل عقود على الاقل ، أن يذوب الغلب القديم فى الجديد فى نهاية المطاف مع اكتمال التحول الحضارى والتقدم المادى

وهنا وفى النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مغزاها وطرافتها ، وذلك ما بين هذه الثنائية الحضارية وما رأيناه من قبل من تجانس بشرى فى السكان . فاذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضارى ، فان تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشرى . وهذا وذاك على العكس تماما من المدينة الامريكية : تنافر جنسي وبشرى حاد وصارخ ، وتجانس حضارى الى درجة التنميط الممل ربما . ولعلنا لا نغالى اذا قلنا فى هذا الصدد ان القاهرة أقدم عواصم العالم القديم ترمز له وتلخصه مثلما ترمز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كواشنطن أو نيويورك ...

الفصل الأول

القاهرة .. بنت الصحراء

القاهرة ، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا ، ٣٫٣٤٨٫٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى ، والذى شادها هو ايمان ربيب الصحراء ، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الابيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقبة الى أن يتصاعد خلف الاهرامات ليهوى الى واحة الوادى ، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف الوان ما بين الرمادى والبنى ، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها الى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التى تتشبث بحضنها ، فالاهرامات اا العجائب التى اقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملى جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها الى الغرب طوفا على الماء عبر الوادى اذ النيل فى عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم ، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد فى عمارة الامراء المسلمين للمساجد والقصور

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة الى صحراء

النسيان ، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشيها من خيوط الذهب قد اندثرت هى والحجرات الاربعة الآلاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن اشارته ، وكذلك لم يبق اثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير ، وتلال المقطم التى جاءت منها الاهرامات والتى تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها على أبى الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحى أسطورة قوطية

أن الصحراء تغزو المدينة سواء فى ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة فى الاحياء القديمة ، وتهب رياح الخماسين من ليبيا فى شهر مايو تحمل معها ترابا ناعما يتسرب من خلال احكم النوافذ فيضفى على المدينة ـ زرعها وابنيتها ـ كساء من مسحوق رمادى . ان اهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب ، لا مجرد زينة ..

ومباهج القاهرة ـ شأنها شأن مباهج الصحراء ـ تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة . عديدة محال بيع عصير المانجو وقصب السكر لارواء الحلوق الجافة من العطش الشديد . وفى أركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور بالوان متوهجة . وحينما تغيب الشمس أخيرا بعد نهار قائظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفل والياسمين وزخمة وحوش الفلا

والصحراء ،كالبحر ، هيهات أن يقال عنها خلاء محصن، بل أنها ملتقى قوى عديدة ، وكما ربط البحر ما بين الجزر

اليونانية فى العهود الخوالى ، فان الصـــحراء ربطت بين البعيد والبعيد من أقطار الشرق الاوسط ، وقد وفـــد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التـــاريخ ، فهى وأن اتخذت اسما عربيا فقد حظى موقعها باهتمـام كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويل ، فعند هذا الموقع الذى يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين ذراعيه أرض الدلتا ، وهى على شـــكل مروحة ، أقام الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهرم المدرج فى سقارة ، وهو أقدم بناء من الحجر فى العالم كله . لا يزال يطـــل على مقابر منف ، تراه بالعين المجردة من أعلى العمـارات فى القاهرة) وقد أقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة الجيزة ، لا تبعد عن قلب القاهرة ـ ميدان التحرير ـ الا مســـافة ٤٠ دقيقة بالاوتوبيس رقم ٨ . ومدينة عين شمس ـ هليوبوليس الآن ويربطها بالقاهرة قطار المترو ـ كانت لها سمعة عالمية فى العلوم ، ولكهنتها فضـــل على هيرودوث وأفلاطون . وقد أطلق اسم عين شـــمس على واحدة من جامعات مصر الاربعة

واشد زائرى القاهرة تأثيرا عليها لم يأتوا ببضـــاعة التجارة ، بل بأفكار دينية ، فالقاهرة اليوم ـ شـــأنها فى ذلك شأن مدن كثيرة ـ وليدة أحدث موجة من سلسلة أمواج المد البشرى ، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الاديان . فقد اقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بنى اسرائيل) فى شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم فى صناعة الطوب ، ثم استوطنت جاليات يهودية ـ قبل ميلاد المسيح بعدة قرون ـ على ضفاف النيل ، وكان أكبر مراكزهم فى الاسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربى ، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلســـفة

اليونانية ، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن « اللوجوس » أو « الكلمة » فى شرح عقيدة التجسد الالهى ، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون فى مصر ـ وهى مكان القاهرة اليوم ـ ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هرباً من طغيان هيرود . ولا يزال الرهبان الاقباط يقودون زوار كنيسة أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام « اللوجوس » وحراسه . وبالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة ثمينة من التوارة

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على أفق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية . انها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى . هى عند المسلمين لا تقل جلالا عن مكة ، التى تتجه اليها قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة ، ولا عن المدينة مثوى الرسول . واذا كان الافق من حول القاهرة قد ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ ظلال ناطحات السحاب وصروح اخرى هندسية ، فان العين لا تلحظ على هذا الافق اذا ترامت نظرتها فوق الاسطح الغبراء الا المآذن المشرئبة للسماء ، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى اليوم

وللقاهرة ـ لأنها مدينة صحراوية ـ ثروة نباتية تنفرد بها : زهور لا تنمو فى الشمال الا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضفى زينتها على ما حولها من قتامة ، أشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة ، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف ، أشجار الجميز ، أشجار التين البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة ، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها . واذ كانت السماء لا تمطر

الا نادرا فان اللون الآخضر يشوبه على الدوام صـــفرة مغبرة ..

ولكن دع عنك النبت والحجر ، فان الذى يجعـــل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية انما هو هـذا النهر الذى يهبها الحياة ، فالمدن الاخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات انما يغلها العطش ويهددها ، أما القـاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل ـ أطول أنهار العـــالم القديم ـ يحمل اليها العطايا من شـــاطىء الاطلسى عبر الغابات والاحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى

الفصل الثانى

القاهرة .. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشى للقاهرة ، لا مندوحة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفا على ماء النيل ، هذا النهر الذى يلاحقه شعار : « من شرب منه عاد اليه » ، وأصدق منه الشعار القائل : « من ارتوى منه لم يطق السلو عنه » . أما للفلاح فماؤه ، وان عكر ، فهو نعمة فيها الحياة ، فالناس تتشبث بهذا النهر وتلوذ به ، ففى فراقهم له عذاب الاشراف على الهلاك

وهذه العبارة الاخيرة ليست من وحى بلاغة خطابية ، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيدا عن شريط الماء وضللت السبيل فستموت عطشا ان لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول ، فالمطر نادر ، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم فى بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الاحمر الى شاطىء الاطلسى عبر الصحراء الكبرى ...

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه ، فاللون المفضل عند عجائز العقيلات فى انجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه أخضر نيلى ، فاقترن النيل بخضرة يختص بها — اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها الفرشاة التى رسمت ريش الطاووس ، أو عند منتصف الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ

أما الوصف الذى لا يلحق النيل فهو اباء الثبات، فإن مجراه قد خضع - ككل شيء فى الوجود - لتصاريف الزمن . والخضوع هنا تنظيمى ، للقضاء على نزوات النهر فى الماضى . ان النيل لمصر هو شريان قلبها . وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الاسلام هو مقياس النيل ، عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة، ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وان أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل فى الاقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانه بالحجارة ، فى وسطه عمود له تاج من طراز كورنثى . و « الذراع » هو وحدة القياس المبين عليه . ان استنباء مقياس النيل أشد لزوما وأجل خطرا من التكهنات بحال الطقس عند الاوروبيين قبيل العطلات الصيفية ، فعلى مقدار ارتفاع المياه فى المقياس يتوقف الغد : اما خصب وما جدب . .

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع فى أواخر اغسطس . حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه فى احتفال يسمى « وفاء النيل » . أما فى السنين التى يخشى فيها أن لا يفى النيل كعادته ، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطىء الشرقى وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الاديان جميعها - ائمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود - فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء . كل يقرأ فى كتابه المقدس - ليمن الله عليهم بنيل واف عميم . وكان الفراعنة فى القديم يحسبون الفيضان من دموع ايزيس وهى تبكى على أوزيريس ، وكانت لهم طقوس تتصف بالقسوة ، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهى

رحيمة ، انها طقوس زفاف النيل العاشق وعروســـه « عروس النيل » كانت فى القديم فتاة يضحى بها كمـــا كان يضحى أهل اثينا ببعض فتياتهم على قرون «ميناطور» الغول الذى نصفه انسان ونصـــفه ثور ، ثم أصبحت العروس دمية فى حجم فتاة

والان تتولى السدود تنظيم النهر ، فلن يتكرر جفاف شهر يوليو الذى يعقبه ، بشكل درامى ، غمر الماء فـوق شواطئه الطينية العامرة بالفيران . لم يعد يتالف موكب الزوارق للاحتفال بالفيضان ، واذا علا ماء النيل فى أوائل الصيف فانه علو قليل ، حينئذ يشكو أهل القـــاهرة من الرطوبة تضاف الى الحرارة ، فيهرب الاغنيـــاء منهم الى الاسكندرية ، رطبة هى أيضا ولكنها أندى نسـيما ، دع عنك شكوى أهل القاهرة أيضا من كثرة البعوض

لقد بدل النيل مجراه على مر الزمن فتبدلت أيضـــا مرافقه ، فاقدم موانىء النيل على الشــــاطىء الشرقى للقاهرة (اما منف فهى على الشــــاطىء الغربى) كانت بالقرب من موقع بابيلون الرومانية الى الجنـــــوب من القاهرة بنت اليوم . وفى القرون الوسطى كانت الميناء هى « المقس » بالقرب من الموقع الذى يحتله الان فندق الكونتننتال وحديقة الازبكية ، وحى المتـــاجر والملاهى ـ بطابعها العصرى ـ الواقع على يسار خط يمتد من ميدان المحطة « باب الحديد » الى باب اللوق عبر الازبكية ، كان أرضا عامرة بالبساتين والحدائق فى أوائل القرن التاسع عشر تغمرها مياه النيل فى كل صيف . وفى القرن الثامن عشر كانت الارض التى تحتلها حديقة الازبكية مكانا لبحيرة متسعة (وقد تقلص حجم هذه الحديقة على اثر التخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم إنحسر ماء البحـــيرة وجفت

ارضها بحيث استطاع نابوليون أن يستعرض فوقهـــا جيشه . اما ميدان باب اللوق ـ كمـــا نعرفه اليوم ـ بسوقه ومحطة الضاحية حلوان ـ فقـــد كان فى القرون الوسطى مرفأ القاهرة ـ بابها من ناحية النهر . فلمـــا بدل النيل مجراه اختفى « المقس » وحـــل محله بولاق ، وبرز من النهر بجزيرته « الجزيرة الوســطى الان » ، ثم اندمج حى بولاق فى بقية أحياء السكنى وضاع بينهـــا ـ كما ضاعت شلزى في لندن،ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهرى للقاهرة ، وكان الذين يصلون بالسفن اليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة اكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب ، بل جرى عليـــه عدوان الاسمنت المسلح ، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الاشجار

وكان يشق قلب القاهرة الى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضـــان تتدفق اليه من مصب اندثر مكانه الآن ، ليسير بعد ذلك فى اتجاه شارع الموسكى، وكان هذا الخليج يضفي ـ فعلا لا مجازا ـ على المنـــازل المطلة عليه عطور مدينة جديرة بأن تسمى « بندقيـــة الشرق » ، وقد حل هذا الخليج محل القناة التى انشأها الامبراطور الروماني تراجان لربط وادى النيل بخـــليج السويس عبر شرق الدلتا ، وقد بطل استخدام هـــذه القناة الى ان جددها عمرو بن العاص ، أول حاكم مسلم لمصر ، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبـــلاد العرب . وشارع الخليج الان ـ وكذلك شارع الـــكورنيش ـ هو أطول شوارع القاهرة ، انه شارع عريض لا يســـلم من الدمامة ، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الالومنيوم

اسمه الآن شارع بورسعيد . حقا ان أسماء الشـــوارع أسرع من مجاري الانهار فى التبدل

وكان النيل فى مطلع القرن التاسع عشر ـ كالبسفور ـ بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام ، يلقى فيهـا بمثيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشـــق الانثى ، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الاليمة وصــار النهر عنصر وداعة ورقة فى مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع

وأمام فندق سميراميس يقف نوتية ســمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الاجانب استئجار فلوكة ، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان فى أقصى الجنوب . واجرة نزهة لمدة ساعة هى خمسة شلنات . وما ان تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيـــدا الى الوراء كل ضجة ورائحة للبترول ، وتنتفخ بالهواء القـــلاع المرقعة وتعالج بحذق فاذا بالأذن يشجيها صوت تلاطم المـــاء على جانبى الفلوكة . ان شكلها مخلد على صـفحة النيل ، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشـفى قصر العينى الى كوبرى الجامعة ، وفى أيام الاعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الاسمنت وسط النهر أقامها « مصنع كروب لاقامة الكبارى »

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الاخـــر ، نهر دجلة ، واسمه فى اليونانية تيجريس بمعنى النمر ، فدجله نهر مفترس عنيف يطغى على الاراضى فى أســوا موعد ، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه ، أما نهر النيل فهو أكثر أنهار العالم نفعا ـ نافع للرى والنقل على سواء ، فان تياره المتدافع دوما نحو الشمال يحمل السفن الى البحر الابيض المتوسط ، ورياحه الغالبة

عليه تهب من ناحية هذا البحر فى الشمال فهى تسهل على هذه السفن رحلة العودة دون حاجة الى عون آخر ، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة الى مياهه أى عندما يبدأ لهيب الصيف فى تقديد الحقول

ويحبه أهل القاهرة النيل لانه عنصر الوداعة والرقةفى بيئتهم الصحراوية ، وافضل المساكن ما كان مطلا عليه ، وبعد أن احترق فندق شبرد فى مكانه القديم بجوار الازبكية ، أقيم له مبنى حديث يطل الى الغرب على النيل هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون . وينشق النيل الى فرعين اذا التقى بالجزيرة الوسطى ، أما فرعه الغربى الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب ، هى العوامات ، قميئة وان تكن عليها مسحة رومانتيكية ، واكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة . انها سد عريض يحتجز الماء لاشهر اربعة عطشى . وهذه القناطر ترمز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملكت السيطرة على مصر السفلى والعليا ، ومن ملك مفتاح الماء فى بلد صحراوى ملك البلد كله . ويرجع الفضل فى اكتساب القاهرة لاهميتها الى أنها واقعة حيثيتفرع المجرى الموحد للنيل الى عدة رياحات تنتشر شمالا كالمروحة لتروى أرضا هى مضرب المثل فى الخصب . والقاهرة ليست مدينة كبيرة فحسب ، بل انها عاصمة كبيرة ايضا فى يدها مقاليد أمة بلا منازع ، ولكن أهلها خليط من اجناس عديدة ..

الفصل الثالث

القاهرة .. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة (١) متعددة الالوان ، حتى فى القرون التى كانت فيها « دار السلام » مفصولة عن « دار الحرب » ـ اى البلاد النصرانية . لم تنقطع أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر ، من بينها شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣) . هذه هى حال لم تتبدل لمدينة لا تكف عن التبدل . طرق أبوابها الرقيق الابيض من القوقاز ، الذين صاروا فيما بعد حكام البلاد تحت أسم المماليك ، والرقيق الاسود من السودان (وما كان أكثر ثوراتهم على الجلابة تجار الرقيق ، وكان هؤلاء فى وجلهم يجعلون بيوتهم أشبه شىء بالحصون ذات الابواب المنيعة) . والى جانب أولئك جميعا تجار من جاوة

---

(١) كلمة مدينة هى من الكلمات التى حار اللغويون فى معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الاستاذ الدكتور محمود حجازى فى كتابه «اللغة العربية عبر القرون » ان بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الاخر أنها الميم ليست أصلا وان الاصل هو د ى ن أو دان والواقع ان البحث المقارن يخرج هذه الفروض الى مرحلة الاثبات العلمى فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان فى العربية والعبرية والارامية هو القاضى و «بيت دين» فى العبرية هى محكمه كما تعرف العربية « الدائن » و «المدين» لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعنى أساسا القانون ومايتعلق به من ضوابط والتزامات . أما الصيغة ذات الميم فظهرت فى الارامية بمعنى وحدة قضائية ، فالمدينة هى المركز الذى التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعا وحدة قضائية . وعندما انتقلت الكلمة الى العربية وأطلقها الرسول على يثرب كان هذا فيما يبدو اول أستخدام للكلمة فى العربية

والصين وعلماء وفقهـــاء من تونس ومراكش ، وأكثر من هؤلاء عددا وتدفقا حشود الفلاحين المصريين من الدلتـا وجنبات الوادي تجرى فى عروقهم آثار دماء فرعونية ، يضـــاف اليهم طوائف من أهل ليبيا والنـوبة واليونان والصومال والحبشة . وهكذا استقر من قـــديم طابع القاهرة المميز لها ــ طابع تعدد الالوان كما كان يبـدو فى معاهدها العلمية وفى خاناتها التى تستقبل التجـــار من كل الانحاء (ويحق لنا أن لا نعتمد على صيغة التعميم ــ وان كانت جديرة بالملاحظة ــ التى اوردتها ناشرة كتـاب « دليل المسافر » سنة ١٨٩٦ عن دار موراى للنشر فى وصف أهل القاهرة اذ جاء فيه أن ابن البلد القاهرى أسرع واذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهـــو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملتى الخلقة والانف البدين العريض والساقين الضخمتين كمـا تلحظ العين انه صلب متين البنيان) ..

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للاوروبيين أصــــبح تناقض الوان القاهرة أشد اثارة للانتباه والعجب فقـــد انضم الغرب العصرى على الشرق التليـــدى ، وان كانت الاضافة الجديدة لا تمثل أفضـــل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والامانة منهم ، فقد توافدت على مصر فى القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر فى بلاد جنوب أوروبا ، وأصـــــبح عدد هؤلاء الاوروبيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الالوف ، وانضم اليهم جواب الارض من الليفانتيين نسبهم المصريون المضـــيافون الى الشام وهى كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتـــد حتى تشمل سوريا ولبنان . وازدهرت أحوال هؤلاء الاجانب

فى مصر ــ اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغـــدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد ، وان سـحنتهم لا تسلم من أن يغشاها شحوب رمادى أقل رواء من سـمرة من يقيمون بين ظهرانيهم ، ولكن رصيدهم فى البنوك كان يتمتـع دائما بأطيب صحة . .

وليس اسم العاصمة فى اللغة الدارجة هو القـاهرة ، بل مصر ، وهو بالعربية يطلق على القطر كله . ومنذ ثورة ١٩٥٢ أصبح التمصير ــ عن خطة أو عفوا ــ هو السياسة المتبعة ، فانحسرت موجات الاجانب الوافدين ، أزاحتهـا قوانين جديدة واجراءات المصادرة والتأميم وتغير المنـاخ السياسى ، وما جذب أيضا هؤلاء الاجانب الى العودة الى مواطنهم الاصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء . وأمست القاهرة اقل وضاحة وأناقة . وكان الشعب فى أواخـر عهد فاروق قد سقط فى وهدة فقر زاد من وطأته انلانجاة منه ، وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ (وقـد قامت محطة بنزين بين شارعى عدلى وثروت مكان نادى « التيرف » الانجليزى) لم يكن احتجاجا على الفقـر فحسب بل كان احتجاجا أيضا على الترف الباذخ وسط هذا الفقر ، ففى تلك الايام الكئيبة كان شارع فؤاد الأول وشارع سليمان باشا (٢٦ يوليو وطلعت حـرب الان) ترتادهما أميرات جميـلات لشراء كل ما يروق لهن من المتاجر الفاخرة ، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقـع وانواع الجبن الاجنبى ترد لها بالطائرة من باريس ، بينما عاش أفراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة . لم يعد فى القاهرة الجديدة قمم للاناقة، فالقصد هو تحقيق الاستواء ، لاقمم تشمخ فيها الاناقة ولا وهاد يعشعش فيه الفقر . .

واذا كان هدف الحكومة هو الوصول الى مجتمـــــع متجانس فان العين لا تخطىء أن تلحظ تباين الانماط بين أهل القاهرة ، فالمدينة فى ذاتها ـ بتعدد أحيائها وأحوالها ـ تعكس اختلاف الاجناس والالوان والعادات التى يتألف منها المجتمع القاهرى

الفصل الرابع

القاهـرة .. الطابع البلدي

بالقاهرة ثلاث صحف يومية ـ الاهرام (١) والاخبار والجمهورية ـ تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ، ورسامو الكاريكاتور فيها اذا تمثلوا القاهرى القح جعلوه عادة رجلا نحيلا قصيرا مخلوع العذار ، ذرب اللسان ، قد يلبس نظارة ، ويخب فى جلباب فضفاض من قماش قطنى مخطط وينتعل خفا من الجلد ، وعلى رأسه عمامة مشوشة ـ أو طاقية قطنية بيضاء ، فالطربوش الاحمر ـ وكان قد استحدثه الاتراك اقتباسا من شمال أفريقية ـ قد اختفى لاعتباره رمزا للتخلف ، فلا يتشبث به الان آلا السياح الاجانب وخدم المطاعم من أهل النوبة ، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذى انتقل اليه الاتراك فيما بعد « البيريه » التى فرضها أتاتورك على شعبه ، وهى غطاء من قماش للرأس ينتهى برفرف أمامى ، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا ، لم تأخذ بها القاهرة تقليدا للاتراك ، فأغلب رجال العاصمة ، وكل نسائها بصفة عامة يسيرون برءوس عارية

والصفة التى تطلق على القاهرى كما يتخيله رسامو

(١) جريدة الاهرام هى أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقلا وقد هاجرا من لبنان فى سنة ١٨٧٥ . وقد صدر قانون فى سنة ١٩٦٠ ألغى الملكية الخاصة للصحف

الكاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هى صفة « البلدى » وهى فى اللغة نسبة الى « بلد » • وكلمة بلدى تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الاحياء التى تعيش فيها هذه التقاليد • والمصرى بجلابيته المخططة وصوته الاجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير عن نفسه بالصوت والاشارة ، قد يبدو فى نظر السائح الاجنبى الهياب شخصا متنافرا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة ، بل قد يبدو شخصا يثير التوجس ، أما الذين يكلفون انفسهم عناء مقابلته « وهو سهل المنال فى دكانه الصغيرة أو فى مقهاه المألوفة » يجدون ابن البلد هذا — ملح الارض — شخصا يتصف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس ، فان كان شيخا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوفه • ان اساس نمط معيشتهم قد رسخ فى أقدم احياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة فوق طبقة ، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق اكوام النفايات ..

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة ، وأشدهم دقة هو أدوارد لين صاحب الاثر المعروف « العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين » وصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير ماهولة ، ففى سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد ، ما ترتب على نمو السكان من اختزال الى اصغر فأصغر للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الرطيبة، مما ادى الى تزاحم المساكن واختفاء العناية بها • وحين نشر لين بول وصفه للقاهرة بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال فى الاستطاعة التحدث بافاضة عن

الاحياء القديمة على النحو الاتى :

« بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك فيهذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور ، هنا تحس أن المعمار المصرى قد وفق أبدع توفيق فى الوفاء باحتياجات العيش تحت سماء الشرق ، فانه جعل الشوارع ضيقة ، يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لان الشمس تصب شواظها ، فلو كانت الشوارع فسيحة كما هو الحال فى مدن أوروبا لأصبحت لا تطاق • وان جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع احاطتها بأفنية خلاء أو مزروعة بساتين وحدائق ، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات فى الصيف غير محتملة ، وفن المعمار المصرى كان يقتضيه ان يبنى لك بيتا لا تطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من خلال نوافذك ، فكان الاسلوب البديهى لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلى عالى الاسوار . وستر النوافذ بمشربيات كانها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب ان يتبينه • وهذه المشربيات ـ او قل هذه الستائر الخشبية ـ وكذلك هذه الافنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضى بحجاب النساء »

ومابقى الآن من بيوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف ـ مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون ، تولى ضابط بريطانى الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم بـ « متحف جاير أندرسون » • وفى القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكى : بيت جمال الدين الذهبى وبيت الشيخ السحيمى ، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة

الحديثة ـ ذلك ان حجاب النساء قد سقط لزومه في حياة المصريين اليوم • ويرجع بعض الفضل في هذا التحول الى نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الازهر الذى توفى فى السنة السابقة لنشر الكتاب الذى نقلت عنه • وكان من نتيجة شيوع هذه الافكار ، مع تفسير جديد للدين الاسلامى يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح الاف من النساء يعملن مع الرجال جنبا الى جنب لا فى دور العلم فحسب بل فى المصانع والمكاتب الحكومية ، وهناك فى الازهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة ..

وساير نزعة التجديد فى الفكر الاسلامى نمو مطرد خلال قرن لنظام علمانى للتعليم ، فى قمته جامعتان فى القاهرة ، تقوم بجانبهما ايضا جامعة أمريكية • وأغلب الشباب من الكتاب والمفكرين لهم نزعة علمانية ، وبعضهم يولى ظهره للدين ..

دع عنك هذا التحول الفكرى ، فان تزاحم البشر فى القاهرة يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلا ، ولم يعرف الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن فى العمل بالحقول • ان نظام الحجاب كان شرفا مقصورا على المدن • وكل مبالغة تقصر عن وصف ازدحام الاجساد فى القاهرة ـ أكبر مدن أفريقية ـ لا لان اهلها يتكاثر نسلهم جيلا بعد جيل فحسب ، بل لانها كالعهد بكل العواصم بمثابة الاسفنجة ، تمتص مئات الالوف من المهاجرين من ابناء الريف ، وترتب على ذلك ان كل قطار قادم من الشمال أو الجنوب يصب فى القاهرة مزيدا من السكان • كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٣٧٤ر٨٣٨ ، وتضاعف هذا العدد عشر مرات فى سنة

١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضي سنة على نشر هذا الكتاب

والقاهرة القديمة .. اى هذه الرقعة التى لا يتجاوزها صوت المؤذن فى مساجد حى القلعة ، لم تعد المركز الذى يتكشف عنده هذا النمط التقليدى لحيـــاة أولاد البلد ، فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد على قصرا صيفيا له ، وكانت الكتب المعدة للسائحين الى ســـــنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا اذا أرادوا الركوب فى الامسيات للتنزه فى الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه . أما اليوم فاذا اردت ان تشاهد الريف فعليك ان تمضى الى جهة أخرى :

غربا الى الاهرامات أو جنوبا الى حلوان ، لان شبرا ذاتها أصبحت أشد زحاما من ايسنت هام وهارلم اشد احيــاء لندن ونيويورك زحاما ، واحتل نظام المعيشة البلـــدية مئات من شوارعها . واذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه فى الريف فانها مع ذلك تســـتحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة « سانت تريزا » وهى احـــدى المزارات العجيبة الموجودة فى العالم ، أخذ فى انشائها فى العقد الثاني من هذا القرن طائفة من الكارميليت تجمع بين الانجليز والارلنديين ، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب اليه جموعا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء ، والكنيسة القائمة اليوم هى مزار للامهـــات المصريات ، يدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجى يضم رسما للقديسة ، وجدران مدخل الكنيســـة منقوش عليها نذور بأكثر من اثنى عشرة لغة من بينها نذر لرئيس وزراء سابق فى مصر

و « العباسية » حى كذلك من الاحياء الســكنية التى اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على

الاراضى البراح الممتدة الى هليوبوليس والمطـار ، فقصر حبيب سكاكينى ، وهو أعجوبة بطرازه القوطى وبأعمدته على هيئة فتيات من ذوات الاجسـام البضـة وبأطره الجدرانية المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحـرفين الاولين لاسم صاحبه الليفانتى ولقبه ، كان فى الاصـل معدا لاقامة خلوية ، فأصبح الان تلتقى عنده دروب عديدة لحى سكانى مزدحم الى درجة الاختنـاق • وحتى فى

هليوبوليس « مصر الجديدة » تمتلىء الشـوارع الخلفية بمنازل على غرار منازل الاحياء السكنية فى القـاهرة القديمة ، ولكنها تستوعب اجهزة الترانزستور والغسالات

الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفا منزوعة من نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك ، وتلعلع أجهزة الراديو من المقاهى ، ويسير الناس فى الشوارع مرتدين البيجامات

وتعرقل ٤٠ الف سيارة حركة المرور ، ويندفع رجـال الشرطة بزيهم الاسود شتاء الابيض صيفا فى نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البال أن ثورة توشك

أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هـذا كله الى تكشير بالانياب سرعان ما ينقلب الى تبادل السـلامات • وهنا طرح كبير للاطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت

غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخـلاط متباينة ولهم ضجة عالية ، انهم لا يزالون فى رهبة من آبائهم ، كثير منهم يميل الى الشر وبعضهم الى الانحراف،

ولهؤلاء ملاجىء اصلاحية يدخلونها ان امكن القبض عليهم فهم خفاف فى الجرى والقفز ، ومع ذلك فلا تدل الاحصاءات على تفشى هذا النوع من الاجرام المعدوم الهدف الذى هو فى بعض الاحيان طابع المجتمعات الاكثر رخاء

والاحياء البلدية فى القاهرة جديرة بالزيارة فى جـولة استكشافية فهي بقايا لا تزال حية لمسرح الف ليلة وليلة، واذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصي العظيم عند العرب قد وقع فى بغداد فان المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة ، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو فى الف ليلة وليلة باقية الى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الاحياء البلدية هو ان تسعى اليها مشيا على القـدمين ، وستكون آمنا مطمئنا ، ولكنك قد تتعرض لاشتبـاكات جدلية اذا ابرزت آلة تصوير لا ترحم ، فانها قــد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بانـك تخليت عن دور الضيف ـ وللضيف مكانته المقدسـة فى الشرق ـ لتقوم بدور « البصاص » الذى يتصيد عجائب القارات كما يتصيد هاوى الفراشات أنواعها العجيبة وان هـذه الامثلة التى تجمعها لعجائب السلوك الانسانى ستعرضها على أصدقائك فى بيتك حين تعود اليه فى جو من التندر والسخرية ، والسبب ان هؤلاء الناس اصحاب القلوب الطيبة قد بدأوا يعيشون فى مأساة انتباههم الى أنهـم متخلفون ، وان اعتماد كيانهم على الدروب الضيقـة والمعيشة والعمل نشرا تحت قبة السماء قد يعـد من الوصمات . والطبقة الوسطى فى المجتمع هى التى غرزت فى أذهانهم هذا الخاطر اكثر مما غرزه الاجانب . وفى الحق ان خير نتاج مصر هو الذى ينبع من هذه الدروب الضيقة ، فهنا حيوية هيهات أن يكون لها قرين ، وحماس وتطلع ، جديران بالاعجاب ، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفوا

ولكن ليس كل أفراد الطبقة الوسطى ينظرون الى هذا الطراز من المعيشة نظرة ازدراء ، فالروائي نجيب محفوظ

قد سجل بعناية قصوى مشاهدها فى روايته « بـــين القصرين » وهى ثلاثية تتتبع الاجيال وتعكس حياة أولاد البلد فى أدق تفاصيلها ، وكذلك يوسف شاهين وهو من ألمع المخرجين فى ميدان السينما بمصر قد صنع فيلماعن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتدى الجلابية وجعل حوادث الفيلم كله تدور فى محطة باب الحديد بضجتهـا العالية وحواشيها الرثة الحظ.

الفصل الخامس

القاهرة .. الطابع الإفرنجي

واغلب أولاد البلد في القاهرة يقبلون على شراء البنطلون اذا قدروا على دفع ثمنه ، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الافرنجية . وكلمة « أفرنجي » هي المقابلة لكلمة « بلدى » . انها النطق العربى لكلمة «فرانك» وهى اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا فى القرن الخامس واطلق فى الشرق على الاوربيين عامة ، فهى تعنى الآن فى موضوعنا كل ما هو ليس بمصرى ، او كل ماهو اجنبى . وكان التفرنج يعنى فى البدء ـ علاوة على لبس البنطلون ـ الرقص الاوروبى على انغام الموسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية فى حجر الاستقبال بدلا من لافتات الخط العربى وأثاث من طراز لويس الخامس عشر ـ يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدى ! ـ ويعنى فوق ذلك أيضا ايداع النقود فى بنك لا فى شمكجية . كان هذا فى البدء ، اما الان فقد أصبحت جميع هذه الاشياء من صميم الحياة فى القاهرة بحيث انقطع الاحساس بانها من اختصاص الافرنج

والمتفرج القاهرى (وهو مسلم فى تسع حالات من عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة» ، وهذا لقب صيغ فى الاصل ليطلق على كل من هو مسيحى أجنبى وان شمل احيانا القبطى : المصرى المسيحى أيضا . ويعيش

المتفرنج القاهرى والخواجة جنبا الى جنب فى وئام أشد من وئام المسيحيين والمسلمين في قبرص ، الاان لكل منهما حسابا مختلفا للاخر . قد يكون نمط حياتهما متشابها، ولكن «الخواجة» الذى كان من قبل يتميز بسلطان اكتسبه ابان هيمنة الغرب المسـيحى على أقدار العرب ، قـد خف الآن فى الميزان . وكلمة « خواجة » ذاتها ـ وهى من القاب التكريم فى لبنان ـ اصبحت فى مصر تبطن معنى الازدراء ، لذلك يفضل الاجنبى ان يكون النداء عليـه « ياسيد » بدلا من « يا خواجة » فان كلمة سيد فى مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» فى انجلترا

والطبقة الوسطى هى العنصر الحاكم على القـاهرة الحديثة ، فمن صفوفها خرج أولئـك الذين يخططون العاصمة كما هى اليوم ، ويرسمون لها أذواقها ، ويقودون ثورتها . وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثـا من الجماهير البلدية ، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتـلاك الارض ، وكان كسر احتكار الاسرة الحاكمة للملكية العقارية هـو منشأ الطبقة البورجوازية ، والفروق بين الطبقات المائعة ، والطبقة الوسطى آخذة فى النمو ، وقد نحدس حجمها من نتائج احصاءين ، فبينما لايزيد عدد اصحاب السيارات فى القاهرة عن ٧٠ الفا نجد مالا يقـل عن ٦٠٠ ألف من سكانها بين موظف حكومى اومستخدم ، وفئة المستخدمين تشمل أناسا قد وضعوا قدما ـ على الاقـل ـ على أول سلم الطبقة الوسطى .

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة فى كل الاحياء السكنية، ففى شوارع يغلب عليها الطابع البلدى بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة فى الطرقات ، تتعالى عمارات تسكنها

اسر متفرنجة ، وان بقى لهما اقارب فى القـــرية او فى المدينة . ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابـــع الافرنجى . والزمالك هى اكثرها عمرانا واشدها افتقارا الى السمة الذاتية وهى تمتد مسافة ميل ونصـف فى شمال «الجزيرة» ، هنا تتبادل اشجار البوجانفيليـــــا والزاكرندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات واعيان القاهرة . اما الطرف الجنـــوبى من « الجزيرة » ، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى الجزيرة ، وكان هذا النادى فى وقت ما وقفاعلىالموظفين الانجليز ورجال الاعمال الاجانب ، واليوم ورثهالمصريون منهم ..

اما الروضة ـ الجزيرة الجنوبية ـ فهى اقل طولامن «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف واقلّ منها ايضا تعاليا ، فان عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى اليها الا لابسو البنطلون ، اما لابسو الجلاليب فهم الخدم والباعة ،على حين ان الشاطىء الغربى للروضة تتسم مساكنه بالترف

وفى احد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشامصرى متزوج من سيدة يونانية ، وبلغ منغرامها بالطب الفرعونى القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفى احدىالمناسبات عارضها صديق ثرى قتله السأم يريد أن يملأ فراغهبشىء ما ولو كان شرا فتحداها ان تظهر قدراتها ، فحبســـنت عنكبوتا ساما فى آنية زجاجية (برطمان) مع تمثـــال من الطين على هيئة هذا المستهزىء الساخر وأودعته بعضا من شعره واظافره . ولم يحدث شىء ، ثم اضـــطرت الساحرة الى السفر الى سويسرا لبعض الامور العاجلة، وبينما هى هناك وصلتها برقية تفيد ان صديقها هـــذا فى المستشفى على وشك الموت ـ فيما يبدو ـ بالسرطان

فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعمليةانقاذ ، وامرت خدمها بأن يقتحموا المعمل ، فوجدوا أن العنكبوت الذى كان على وشك الموت جوعا داخل البرطمان قد قرض طريقا عميقا الى داخل التمثال ، ربما سعيا وراء قطع الاظافر ، فامرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال فى ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملا) فما أن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية فى الحال

والطبقة الوسطى غالبة ايضا على الشاطىء الغربى للنيل عند محافظة الجيزة ، تحيط هناك باحدى مؤسساتها ــ وهى الجامعة ــ وكذلك غالبة هى على مصر الجديدة والمعادى ، وكانت الضاحية الاخيرة خالصة لسكنى الاوروبيين ، اما اليوم فان العنصر المصرى شائع فيها ..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى ، هم اليوم على غير ماهم عليه ، وانت اذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من افرادها فى القاهرة يوافقك على رايك ، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين افرادها لا يخلو على اية حال من تحيز متفضل ، فالذى يقول انه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول انه متحمس للزنوج . والطبقة الوسطى فى القاهرة ــ كالشأن بها فى كل بلد ــ هى منبت افراد للامة وهذا هو مبرر وجودها . واشخاص رواية « الرجل الذى فقد ظله » ــ وتجرى حوادثها فى حى قاهرى ــ يصفهم مؤلفها فتحى غانم تعميما بانهم قساة و انهم جديرون بالسخرية والرثاء معا ، ولكنهم شهود على القرن العشرين فى كل

مكانه ، وليهنأ القـــارىء الاجنبى اذا لم يجد نفســـه صورة اخرى من هذا الانتهازى المجرد من البطولة الذى جعله المؤلف بطل روايته . وهذه الرواية ــ ومعهاكتابات اخرى عديدة ــ تعبر عن عقائد طبقة خلعتعنهاقيمالماضى وأزياءه . وقد وصف فتحى غانم حادثا بقى فى ذاكرته منذ طفولته كحادث هام ، حين تحدث عن أبيه القـروى الذى كان اول فرد فى الاسرة خلع الجلابية ، فاناباه هذا ذهب الى طبيب ليمحو بالكى آثار وشم على يده ، وكان الصبى يعجب بهذا الوشم واحزنه أن تختفى عن يد أبيه رسوم الثعابين والتروس ، فلما كبر الصبى أدرك انهذا الكى فى غير ضرورة هو رمز مأسوى لطبقة تبدت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعـة لهم بعد ..

وسواء كان هذا التحول صوابا أو غير صـــواب فان تطلعات الطبقة الوسطى ــ على كل حال ــ هى التىتحدد للعاصمة رسمها ، فذوق هذه الطبقة هو الفيصـــل : أى المبانى يهدم وأيها يبقى وايها يقام . وتدشين انتصـــار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى انشـــاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلومترا ، فقد ظل هـــذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة ، ثم اذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة ، والان يتمتـع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقا رئة جديدة للعاصمة ..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم ، حديث ، مريح ، فهاهو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له اشعاعصورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون اجهزة التليفزيون او لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة .

وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهيـــة وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و ١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة ، انه خارج من احضان الطبقـة الوسطى ، وقد وصفته احدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الاسلامى الحديث ، ولكنه يشبه ســـــلة مهملات الورق ، ضخمة متعالية ، وفى سطحهمطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطيء جدا بحيث ان الذين يتناولون فيه ــ وسط جو من المرح ــ وجبـة كاملة (حساء ــ لحم ــ فاكهة) اذا رفعوا أبصارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا » رأوا ان المنظر قد تبدل كل التبدل ، اصبحت الاهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك

الفصل السادس

القاهـرة .. والأرستقـراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل خمسة عشر عاما أية سطوة ولم يحظوا بالسكنى فى المبانى والشقق الفخمة الا قليلا ، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حساب فبيدها زمام الامور . ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر الى الخارج معظم الارستقراطيين والاقطاعيين ، وفضل من كان منهم من أصل تركى ، دون أن يكون منتميا إلى العـائلة العثمانية المخلوعة ، الاقامة فى تركيا ـ واختار آخـرون سويسرا أو فرنسا أو ـ كما فعل الملك السابق فاروق ـ مونت كارلو . وفضل البعض البقاء بعيدا عن الاضـواء ماستطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك فى حالة الامراء والاميرات السابقين) أو بما بقى لديهـم بعد التأميم والمصـادرة . واستمر البعض فى شغل القصور الجميلة التى تحوى اثاثاتهم يستعملونها كيف شاءوا بدخلهم الضئيل . وأبدعت سيدة مجتمع سابقة قطعا فنية رائعة من تجميع قطـع الزجاج الفاطمى أو من قطع اشغال العظم القبطية التى يمكن اقتناؤها من محال بيع القطع الاثرية والانتيكات ، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنع بالجملة لافواج السياح، ويتحول نتاج ما تصنعه الى احدى الجمعيات الخـيرية القبطية . ويعزف أمير سابق أنغام شوبان فى الاستقبالات المحدودة من أجل البر ايضا . ولا يتصور كثير من هـؤلاء

الأرستقراطيين الذين بقوا كيف يتركون مصر ، فهـــم مخلصون لها بحمــاس يعسر دائما ادراكه ممن احتــلوا اماكنهم ..

ويسكن في جاردن سيتي أثرياء الاقباط ، وكثير منهم اقتنى الكتب الانجليـــزية وتخلق بالمعيشـــة الانجليزية ، ويأخذك العجب وقليل من الحزن أيضا وأنت تزورهم في غرف مكاتبهم .. التي رصت جدرانها بالكتب عنـــدما يسألونك بذهن شارد عن اسم كان ملء الافواه في عالم الادب أو عن « زيد » أو « عمرو » الذي كان يشغل مركز نائب دولة أو سفير ثم بات في هامش الحياة

وقد نبذ الاقباط الاسماء الانجليزية واختفت أسماء مثل وليم وجفري وسسل ، وحل محلها أسماء أكثر فطنة مثل « توفيق » أو حتى « جمال » وهي مدلولات غير محددة تنفع للمسلمين والاقباط على السواء

الفصل السابع

القاهرة .. الطابع النوبي

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع فى القاهرة مع أن آثار بلادهم هى محل اهتمام السياح ، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين . وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين ، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حى قد لا تلحظه عين القاطن العابر فى فندق هيلتون أو شبرد ، وانا نفسي لم انتبه لوجود هذا الحى العجيب الا حين كنت اقيم فى بنسيون فى الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب ، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة وثغاء غنم ، فلما خرجت الى الشرفة وأطللت منها رأيت قرية متناثرة على الاسطح المستوية للمبانى المجاورة ، اذ هى تزيد فى ارتفاعها عن ستة طوابق ، وتتكاثر فيها . تقليدا للفن الحديث . زخارف من المعدن والجص اى أن المنطقة تقابل شارع اكسفورد فى لندن . وجدت من تحتى بط يبطبط ، واغناما تلوك حزما من البرسيم ، ونساء فى ملابس سود تمد أيديهن الى اقفاص الدواجن لتخرج بفطور عيالهن (والبيض فى القاهرة بيض بدارى الدجاج فيلزمك اربع منها لكى تصنع لك عجة) . فى كل قرية من هذه القرى المتناثرة على الاسطح يعيش البوابون — وهم فى مساكن القاهرة من

علاماتها المتميزة ـ فانك لابد واجد عند مدخل كل عمارة بوابا ـ واحدا على الاقل ـ جالسا على دكة ، يلاحق بنظره الداخلين والخارجين ، وفى أغلب الاحيان يكون مع رفاق له ، والنوبيون يحبون المؤانسة . انهم يأتون من هـذا الوادى الضيق ما بين أسوان وشمال السودان ، وقراهم تمتد طولا ، النيل هو شارعهم الرئيسي ، بيوتهم فسيحة ، نظيفة ، طليقة الهواء ، جدرانها مزينة برسوم من صنـع أيديهم ، ما من باب عليه قفل ، فليس هناك سرقة ، وليس هناك زنى ، ويعترف القاهريون بأمانة النوبيين ويرونها سبب استخدامهم بوابين . ومع كل هذا فقد احتجت الحكومة السودانية لدى منتجى السينما المصريين لانهم يظهرون الشخصيات ذوى السحنة السمراء فى دور الخدم دائما ولم يظهروهم سادة مطلقا

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح . قد يحدث اشتباك بين خواجه ومسلم وبين مصرى حنطى اللون وآخر من أبناء السود ، ولكن لا يكون هذا الاشتباك بسبب نفور جنس من جنس . وبعض دروب القاهرة تشبه حى هارلم فى نيويورك ، ولكن بدون حزازاته ، وان كان السودانيون يتجمعون فى مقاه خاصـة بهـم فليس مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع ، بل الى اختيارهم هم أنفسهم لهذه المقاهى ، شان المقهى التى تجدها فى كل مدينة وقرية كبيرة فى وادى النيل فيها أبناء القاهرة المقتربون عنها

الفصل الثامن

القاهـرة .. منازل الأموات

وفى أطراف العاصمة قطاع تقطنه الاغلبيــة العظمى ، يقطنه الاموات . انها مدينة أو قل ضاحية ان شئت ، تمتد وتستدير مع مدينة الاحياء ما بين شوارعها المزدحمة وتلال المقطم ـ تلك الخـرطة المقسمة دروبهــا تقسيمــا هندسيا تتبين لك اذا وقفت عند مسجد الجيوشى فوق القلعة من اعلى الحصن الذى قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة . انها ليست أرض الجبانة وان كانت القبور جزء منها ، بل هى مدينة مسطحة وحشية اللون ، لها هى أيضا شوارعها ، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد ، ولكنه اذا دق الباب لن يفتح له أحد ، فاذا دفعه دخل الى مأوى كأنه مسخ للمعتاد من مساكن الاحياء : حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب . وفى كل منهما نصب مستطيل من حجر أو جص ، وتحت أرض احدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الاسرة ، عزلهم الموت عن الاناث المدفونات فى قبور الحجرة الاخرى . ويسجى الميت على لوح من الحجر ، مكفنا ولكن بلا ناووس . ومتاح لك زيارة مقابر المماليك، حكام مصر خلال ستة قرون ، وزيارة المسجد الذى يضم وفات سلالة محمد على ، ويرجع عهده الى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة

واعرف فتى مصريا ولد ونشأ فى أمريكا ، ذهب أخيرا الى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته ، وكان لم يألف بعد عادات بلده ، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له فى اهتمام خاشع انه أتى اليه من بعد أن ألقى السلام على أخته . لم يفهم قوله أول الامر ثم أسعفته ذاكرته وادرك أن محدثه يعنى أختا له ماتت فى طفولتها قبل مولده ، انها كانت راقدة فى قبر الاسرة طوال السنين وتزار هى ايضا .

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين اهل القاهرة اليوم واهل منف من قبل اربعة آلاف سنة ، فان فى مدينة الاموات التى وصفتها ما يكفى للرد عليهم . كان الرومان يحرقون موتاهم ، والاغريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق ، أما الدين الاسلامى فمن سنته دفن الميت فى قبر لا حد لبساطته حتى انك تستطيع بيدك أن تسويه بالارض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع انه توفى منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الان فى الرياض من يذكر أين هو ولا بقى من يزوره)

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الاسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات ، ففى الأيام المشهورة على مدار السنة ــ كأيام العيد الصغير الذى ينتهى اليه شهر الصيام ، وايام العيد الكبير الذى يحتفل عنده بوصول الحج الى مكة ــ تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الاموات ، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج الى نزهة ، متلهفا على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الاثواب الجديدة فى العيد او التمتع بالفسحة وشم الهواء . وكان هذا هو الشأن ايام الفراعنة فى مواسمهم أيضا ، وان اختفت اثنتان من عاداتهم ــ الان لا تحنيط

للموتى ، والدفن فى الضـــــفة الشرقية من النيل حيث تشرق الشمس ، أما عند الفراعنة ـ اللهم الا أيام هرطقة اخناتون ـ فقد كان الميت يدفن ـ بعد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقا لدخل الاسرة ـ فى الضفة الغربية من النيل ، حيث مملكة أوزيريس

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة ، وما الاهرامات والقبور الغائرة فى الصخر الا محـاولات لتضليل هؤلاء اللصوص. وأهل القاهرة يعانون منهم اليوم ايضا ، شأنهم شأن أجدادهم . وهنالك قوة من الحـرس تجوب المقابر ، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم ايضا ، قامت متاجر صغيرة تبيع الشاى والادوات المدرسية . وبعض الغرف المبنية فوق المقابر قد اتخذها الناس مساكن لهم ، ولكن بالرغم من قوة الحرس وبالرغم من الغول الذى تقول الاساطير انه يسكن فى ظلام المقابر ، فان كثيرا من الاسر تعمل المقص فى أكفان موتاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة

الفصل التاسع

القاهرة .. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن افريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطالع القرن التاسع عشر عاصمة قطر ، أيا كان هو ، فانه متقارب من الدولة الحديثة . وليس من قبيل الاطراء خلعنا هذا الوصف عليها ، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب . يكفى القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيا ومستشارا و ٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و٦٥ مستشفى بها ١٣٫٠٣٢ سريرا وما يزيد عن ١٫١٠٠ من شرطة المرور ، ليقال ان هذا كله لا يعكس انها عاصمة فحسب ، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة ، وهى أيضا فريدة فى انها تمثل مجتمعا شرقيا فى صراع دائم مثمر مع الغرب ، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول (وهى مدينة لابد أن يقال عنها أنها غربية فهى مقامة فى أوروبا) فان القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب ، فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة الى بلد صغير فى قلب الاناضول ، ولا أحد فى مصر (اللهم فى شهر اغسطس حين تصبح الاسكندرية بمثابة العاصمة الثانية) يتبادر الى ذهنه التخلى عن القاهرة

وعلى مدى قرن ونصف ــ ما بين نابليون وجمال عبد

الناصر ـ تولت حكم مصر سلالة اجنبية واحدة بلغ من تتابع توارثها ان أصبح يطلق عليها ـ تفخيما لها ـ كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفى التاريخ للعهد الفرعونى ـ اسم « الاسرة الحاكمة » ومنشىء خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة فى مقدونيا بشمال اليونان ، وكذلك الى مقدونيا ينتسب منشىء الاسكندرية العاصمة المتلألئة لمصر البطالسة ، وبعد ان انحدر حالها وانكمشت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف ، أعاد اليها محمد على ـ المنتسب الى مقدونيا أيضا ـ ازدهارها ، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة لملكه . وكان حين مجيئه الى مصر من أتباع السلطان العثمانى ، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون ، ولكنه قلب تبعيته الى نظام حكم مبتدع فريد اذ أصبح يخص نابوليون باعجابه الشديد ، وتعاون اسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الاقاليم المتخلفة فى تحطيم المماليك فى مجزرة وحشية انقسم امتدادها الى مرحلتين ، الاولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امبابة (التى اندمجت فى القاهـرة الكبرى اليوم وبهـا مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالامراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون ، وفر من نجا من المعركة الى صعيد مصر والسودان ، انتظارا ـ هكذا ظنوا ـ لعودتهم الى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابوليون الى باريس . ولكن محمد على ـ وهو فى بعض الاعتبار آخر المماليك وانجحهم ـ دعا بقيتهم الى حفل فى القلعة وفتك بهم هناك . ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هـذه المذبحة ، انه الممر الضـيق المؤدى من القلعة الى باب العزب . وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التى هام بها المصورون فى القرن التاسع عشر

فرسموه ، وفقا لاسطورة شائعة ـ وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاويا الى الارض . ولكن الحقيقة هي على خلاف الاسطورة ، وان كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل . واستمر القتل ايضا فى المماليك الذين كانوا متفرقين فى ارجاء مصر .. فمن هم هؤلاء المماليك ؟

انهم فى الاصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم . وكما حدث فى الامبراطورية الرومانيـة من تحول قادة الجند عن حراسة الامبراطور الى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله ، فان هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر . وقد جاء هؤلاء المماليك من الاطراف الشمالية الشرقية لدار الاسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان ، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس ، وأحيانا بالتقى والورع ، وأحيانا بالانتهازية الكلبية ، ولكن محال وصفهم بانهـم مصريون . ورأس المماليك يصبح هو السلطان ، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب الى ابن ، ولكن كان من المحبب لهم فى المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكا أثيرا عنده ، وكان هذا المملوك اما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره . ويمكن القول بأن نظام المماليك يرجـع مبدأه الى عهد صلاح الدين وهو كردى من ابناء القـرن الثاني عشر ، فانه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم اشبه مايكون بنظام الحكم الاقطاعى فى الغرب ، ولو أن فرق الجنس بين المماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قد جعل هؤلاء المماليك أقل من بارونات القـرون الوسطى فى فرنسا وانجلترا اهتماما بالحقوق الديمقراطية ، وان أخطأنا عمدا فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها . ولما انهزمت مصر أمام

الاتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باى آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن ابرهة بأن دولة المماليك قد دالت ، على يد غزاة لايقلون عتوا عن التيودور فيغزوهم لانجلترا ، ولكن أعباء هذه الامبراطورية التى اتسعت فجاه ثقلت على الاتراك فراوا من الاصلح ان تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم ، فبقيت هـذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم الى نهاية القرن الثامن عشر وان بقى لموظف تركى سيادة اسمية عليها

ومن تركة المماليك التى أورثوها للقاهرة شيئان : هذه العيون الزرق والخضر فى بعض الوجوه السمر ، وهـذا الحشد من الصروح الفخمة : مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبـابها التى تتميز بها مقـامة فوق قبورهم ، كأنمـا انتقل اليهم بالعـدوى من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهـام بضريح لائق بالرقدة الابدية ، وهكذا اضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ الى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التى انتقلت من يدهم الى يد نابليون والى يد مريده المقدونى لم تكن الا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم . ويرجع الفضل فى اتساع هذه المدينة الى أسرة محمد على ، وان تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار الا بعد انقضاء عهد المماليك

ولم يشعر محمد على فى قرارة نفسه انه مصرى قط ، ولو ان ابنه ابراهيم ـ هذا الجندى الصارم ـ كان يحس انه قريب الى أبناء العرب سمر الوجوه ، شأنه فى ذلك شأن لورنس ، اذا راعينا واجب تبديل زمن بزمن . وكان محمد على يتكلم التركية لا العربية ، ويعد نفسه عثمانيـا لا مصريا ، ولا حتى من مقدونيا . وكان له ـ كما للملك عبد العزيز آل سعود ـ وفرة من الاولاد ، ولكنه كان

فى نفس الوقت من المعجبين بالمدنية الغربية الحديثة واراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فانشأ الالات البخارية وبنى الفنارات . والطابع الذى خلفه على مدينة القاهرة يستمد اشعاعه من القلعة ، اذ شيد فيها قصره ــ قصر الجوهرة ــ بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح المماليك الذين ذاقوا الموت ذبحا . وبجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره ، وهذا المسجد لا يعد فى نظر عشاق العمارة الاسلامية فى القاهرة من افضل نماذجها ، شأن دار الاوبرا فى باريس بين مثيلاتها . وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فانه ــ فى عاصمة مصر ــ يطغى على أفقها الشرقى

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة المحمودية ، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها ــ كالشأن فى أغلب منجزاته ــ كانت مهتزة الدعائم ، فلم يتم لها رسوخ الا فى التسعينات من القرن الماضى . وفى قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد ، كما نجده قاعدا فى الصورة القلمية التى رسمها له روبرت كيرزون . قال :

« وجدنا الباشا حين لقيته شيخا عفيا متين البنيان ، عريض الكتفين ، عريض صفحة الوجه ، واسع انفتاح المنخرين ، تضفى عليه نظرته الحادة الوثابة هيئة أسد أغبر هرم . تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى امكان مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس . وكان هذا المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ . ولكن الحادثة التى سجلت هذا اللقاء بقوة فى ذاكرتى والتى دهشت لها لانها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن فى ذاتها الا حادثة هينة ، فقد رأيت الباشا يطلب منديله

فاخذ يبحث عنه فيما حوله ، ثم ينقب فى جيوبه ، فلم يجده . وكان اثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفة ، استجاب لها اخر الامر خادم سعى اليه من أقصى الحجرة وقال له «ابحث عنه فى جيبك الآخر » فأجابه الباشا « فعلت فلم أجد فيه منديلى » رد عليه الخادم « اذن عد الى البحث عنه فى جيبك الاول»

فلما أجابه الباشا « ليس عندى منديل » أو بكلام من هذا القبيل ، كان الرد السريع الذى أتى اليه من الخادم «بل عندك منديلك» وتكرر القول والرد « ليس عندى منديل » ـ « بل عندك منديلك » وانتهى الامر بأن تقدم هذا الخادم الى الباشا واخذ ينقب فى جيبى سترتهدون ان يجد المنديل ، فأخذت يده تدور حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف الشال الذى يتلفع به ولكن بلا جدوى ، حينئذ امسك الخادم بسيده مولاه وأماله الى اليمين فوق الاريكة ونظر تحته ليرى ما اذاكان قد قعد على منديله ، ثم عدله وأماله من جديد الى اليسار ، وظل الباشا طوال هذه المناورة العجيبة على اتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام ، ثم دس الخادم ساعده الى الكوع فى احد جيوب سرواله الكبير المنتفخ واخرج علبة نشوق ومسبحة واشياء آخرى صفها على الاريكة ، ولكنه لم يجد المنديل ، فانتقل ساعدهالىالجيب الاخر ومده الى عمق مهول حتى اخرج من قاع الجيب المنديل المفقود ، وفى حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة الى يد الباشا ثم تراجع الى الطرف القصى من الحجرة حيث كان »

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ماكان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التى

اغتصبها ، وكذلك ونحن نستمع الى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة . قد يكون محمد على نهازا للفرص ، يمضى الى غاياته بلا رحمة ، وقد تكون اصلاحاته سابقة لاوانها ، ضحضاحة لانها انبعثت من دوافع باطلة ـ اذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لامبراطورية يقيمها لشخصه ـ ولكن رجلا له مثل هذا المسلك السمح وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره ، ومثل هذه الخلال لاتزال الى اليوم فى جميع البلاد العربية هى التى تمهد لحكامها طريق النجاح

لم يرث احد من ابنائه عبقريته وانتماءه للشرق وقد وجد اسمه اسوا تخليد له فى القاهرة « فان اسماعيل هو الذى اطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسى ، فجاء اشد شوارع العاصمة دمامة واجتراء فانه هتك احشاء حى من اجمل احياء القاهرة ، وهدم قصورا وأزال حدائق وقوض جانبا من مسجد عتيق لا لشىء الا لكى يسلم للشارع تمام امتداده على خط مستقيم ، وهذا حرص سخيف عديم الذوق » هكذا قال ستانلى لين بول . ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من اسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيها بشارع ريفولى فى باريس . ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل اصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكى ، فاختفى اكثرها واصبح جريحا متناثرا ، واصبح ـ باسمه الجديد شارع القلعة ـ من اقبح الشوارع فى مدينة جميلة

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعا لخضوعهم لحكم سلالة محمد على . كان مطلب ثأرهم عند قصورهم ، فقصر

عابدين ــ وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه ــ يطل على ميدان كبير . هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابى ــ مثيل عبد الناصر فى الثمانينات من القرن الماضى . اصبح الان يسمى بميدان الجمهورية وينقلب الى سرادق مكبب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة الى الخطب احتفالا بعيد الثورة فى شهر يوليو من كل عام ، اما القصر ذاته فقسم منه تشغله احدى الوزارات « وزارة الاصلاح الزراعى » وقسم آخر يحتله ناد للشباب ، وقسم آفرد ليكون متحفا . وقد بيع اغلب أثاثه الفاخر ، وما بقى منه ينم عن ذوق اسماعيل الذى كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا ، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات اسماعيل مرتديات ملابس عقيلات طبقة السادة فى اكسفورد ، وبقيت الادوية فى الحمام الملكى كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش ، وبقى الميزان كذلك ، ذكرى حزينة لبدن يود ان يذوى كما ذوت سمعة صاحبه . اما القصر الذى احتفل فيه اسماعيل بالامبراطورة الفرنسية ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لاسرة مسيحية من الصعيد ، هى اسرة لطف الله ، وبقى القصر بقدر ما كما كان ، وان أقيمت على أرضه شاليهات مترفة

وقصر الامير محمد على (ولى العهد آلى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبل خلعه بقليل) قائم الى اليوم بجزيرة الروضة ، من وراء أسواره العريضة دروب يحفها نبات الصبار او تظللها اشجار البانيان ، لا ينساها من يجوس خلالها ، تصلح ان تكون مسرحا لفيلم سيريالى ان صنعت هذه الافلام فى مصر . وبالقصر

مجموعة ضخمة من صور فوتوغرافيـــــة لملوك الدول ورؤسائها عليها توقيع اصحابها ، وفقا للمراسم . وينقلب طابع القصر المستلهم من ذوق دمشق الى طابع عهد ادوارد فى انجلترا اذا انتقلنا الى الحمام ورأينا من خزفه زخارف على هيئة ازهار . وأقام الامير على أرض قصره متحفه وهو خير مكان تستعرض فيه السجاد الشرقى ، ولوحات الملوك ورؤساء الدول ، والمصاحف المزخرفة ، واشيـــاء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقى مطلق السلطان

وهذه الفقرة التى كتبتها لها صدقها ، ولكن السرعـــة التى يتصف بها تغيير الاحوال فى الشرق الجديد مالبثت ان جعلت كلامى محمولا على الماضى ، فقد علقت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن انه هو ايضا أصبح فندقا باسم « عمر الخيام المنيل » وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد فى الامكان صنع فيلم سيريالى كالذى تحدثت عنه فان نبات الصبار قد أذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا ــ أنا وانت ــ لم نهضم بعد نصيبنا من متعته . وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة

ولن تجد فى القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه ، وهذا حال يدعو للاسف ولو أنه مفهوم . فاذا كان هذا التراث يعد فى نظر الانجليز فى بلادهم منحدرا عن عصر الملـــكة فيكتوريا عصر القوة السيادة ، فانه فى نظـــر المصريين ينحدر عن عصر اسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة . أما ابراهيم فلانه قائد عظيم فهو لايزال يحتفظ بنصيب من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له امام دار الاوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده ، على حين ان سليمـــان باشا ، هذا الفرنسى الذى اعتنق الاسلام واصبح معروفا

ـ الى جانب ما يعرف عنه ـ بانه ايضا جد نازلى أم فاروق فقد استمر تمثاله ـ الذى يمثله بسراويله الواسعة وبطربوشه ـ قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان القريب من محل جروبى حيث كان يعطى ظهره للسيدات البدينات المندفعات صوب الشيكولاتة ، ومن حل محله؟ تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك مصر

والذين يهيم ذوقهم بعطر الماضى الحديث هيهات ان يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك الحديدية بالقاهرة ، ما دام باقيا . انه منزو بالقرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور الفوتوغرافية ، تشهد باستباق مصر لدخول عصر السكك الحديدية فى وقت مبكر . وقد وصفت لك من سابق محمد على وهو يباحث كيرزون فى مد خط حديدى ، وقد تم مد خط بين القاهرة والاسكندرية سنة ١٨٥٦ . ويحتفظ المتحف فى احد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى «بالكشك» الذى كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذى أعطى الاذن بشق قناة السويس ، انه بين القطارات عديل سيارة رولز رويس بين السيارات وهو من انتاج مصانع ستيفنسون .. أول المصانع فى انشاء السكك الحديديه اطلاقا ـ وتم تسليمه سنة ١٨٢٦ . وقد طلى القطار من الخارج بألوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال البوهيمى ارضاء للذوق الشرقى ، وفرش داخله بالطنافس فامتزجت مع الآلات اللمعة امتزاجا غريبا . وكان سعيد باشا ـ الذى كان بين أفراد أسرته الذين لاتنقصهم البدانة اكثرهم امتلاء ـ مشهورا بانه كان يقود هذه القاطرة بنفسه فى زياراته لاقطاعات أقاربه واصدقائه

اما عمران القاهرة فالفضل الاكبر فيه راجع الى

اسماعيل . تدين له احياؤها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الايطالى ، واحيانا بنصيبها من رشاقته ايضا . من اجل اسماعيل جرى اطلاق اسمه على هـذا الميدان الواسع الذى كان فيما مضى تشنيه الثكنـات البريطانية فتحول الى منظر فخم باقامة فندق الهيلتون مكانها . ولقد اقيم فى سرة هذا الميدان قاعدة تمثـال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قمتها تمثـال اسماعيل وبذلته الرسمية ، وتبدل اسم الميدان من ميدان الاسماعيلية الى ميدان التحرير

أما دار الاوبرا فهى الى اليوم درة منجزات اسماعيل ، بنيت على عجل من الخشب والجمص لتلحق افتتاح قناة السويس ، ولكن تعجل الحاكم الشرقى لم يجد مجاراة له عند الملحن المكلف باعداد أوبرا عايدة لليلة الافتتاح ، فلم يستطع فردى اتمامها ، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو» . وقد حضرت يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعا لاوبرا «لاترافياتا» مترجمة الى العربية فقـدم ابراهيم رفعت نصا بلغ القمة فى قابليته للغناء ، ولكن السيـدات اللاتى استضافتهن فيوليتا فى صالونها جئن من عصر اشـد ديمقراطية من عصر اسماعيل الذى لايزال الحرف اللاتينى الاول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبـة على مدخل دار الاوبرا

الفصل العاشر

القاهرة ..طابع الأجانب

يجيء الاجانب في الصف الثاني بعد أسره محمد علي، فانهم ـ وربما بتوالس معها ـ حققوا للقاهرة ، ولانفسهم ـ مغانم كثيرة ـ فالبارون هرتز يدين له هواة الفن بالشكر والتقدير لانه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار الاسلامية ، فلولاه ـ وهذا مثل من عديد ـ لبلى الساتر الخشبي ذو الزخارف الدقيقة في مسجد الماردانى وتحول الى تراب.

وهذا بارون آخر ـ البارون امبان ـ كان الهمة الدافعة لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة ،انشئت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ الفا . وقد انفق البارون امبان أرباحه من شركة الترام في بناء قصر له على الطراز الهندي ، يعد من أغرب الابنية في القاهرة، انه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لاحد معابد مادورا في الهند ببرجه الشاهق المخروطي وتماثيله على هيئة الفيلة ، وزخارفه على شكل رءوس مفزعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر . اما من الداخل فقد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى في بلجيكا، واتخذ من الشباك ستائر نوافذه . وامبان مثال للمغامرين الاجانب الذى وجدوا في النظام الاقتصادي لمصر قبل الثورة مرتعا خصبا لهم ، لم يكن بطبيعة الحال محبوبا

لان تشبهه بالامراء لم يأتلف مع سماحة الشرق . وكان يهيم بالمعارك ، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد ، فترجم هذا العطف الى امتيازات كبيرة غنمها

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون امبان احيانا قليلة ، فقد سبق له فى الريفييرا فى فرنسا حوالى سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه الى الملك الفونسو الثالث عشر وهو لايزال على عرش اسبانيا ، ثم قام الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذا له اسما مستعارا ، فدعاه البارون الى العشاء فى قصره الهندى، وقبل الملك الدعوة ، ولما اجتاز صفوف الرءوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من اصدقاء البارون القدامى، كلهم من محترفى القمار فى النوادى الليلية ، أو من ارتستات الكاباريهات ، وجلس الملك الى المائدة ، وكان جلوسه هو كل شيء فعله ، لم يأكل ، لم يشرب ، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة ، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندى الذى صار مثل فيل اسمر فى حديقة خشنة ماتت أشجارها التى لم تجد من يدفع ثمن مياه ريها . وقد أبدى أحد الامراء السعوديين مرة استعداده لتحويله الى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم الى مصر للتمتع بجوها ،ولكن المشروع اهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما اعدت له هذه الاستراحة

ولكن مابقى واضحا من نفوذ الاجانب هى هذه المطاعم والفنادق ذات الاسماء الانجليزية ففى مطعم « سان جيمس » ــ الذى اشتهر وانفرد بتقديم جمبرى البحر

الاحمر ــ يعرض عليك صاحبه بزهو قصاصة ترجع بك الى الماضى ، انها من جريدة « الاجبشيان جازيت » فى عام ١٨٩٥ تقول :

« سيطبق المحل فى مكانه الجديد الى الموسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجد السادة المقيمون حجرة للنوم مع الافطار تماما كما هو متبع فى حى وست اند بلندن فى المناطق المجاورة للنوادى الراقية الخاصة »

واختفت التقاليد الانجلوسكسونية تماما من فندق شبرد . اللهم الا اسمه ، ويرجع عهدها الى العصر الفيكتورى حين انشأ هذا الفندق رجل مغامر جسور وجعله استراحة للذين ينزلون فى الاسكندرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا ببواخرهم فى السويس .لقد كان فندق شبرد القديم معقلا من معاقل رجال الامبراطورية العظام ، وكانت الجرائد تهتم بنقل كل مايدور فى ارجائه حول اثاثه الخيزرانى ونخيلاته المفروزة فى قصاريها . فمثلا اهتمت الجرائد بحفلة رأس السنة الجديدة لعام ١٩١٥ حيث دار الرقص حثيثا فى القاعة المصرية بالازياء الغريبة المبتدعة ، وفى نصف الليل

« أعاد صوت تردد فى القاعة بعض الضيوف المجتمعين الى الواقع حيث شاهدوا نموذجا كاملا لطائرة ترتفع بلطف من القاعة الى اعلى نقطة فى صالة الرقص وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجهها الى الحاضرين جميعا ، واطلقت حمامات تحمل اشرطة عليها التمنيات الطيبة كما قام الجميع برمى كرات ثلجية كتذكارات لطيفة ، ولكنها لم تكن باللينة فى حالة الضابط الصغير الذى طارت كرته داخل القاعة وأصابت وجه الجنرال ماكلارن . وكان وقتا عصيبا

سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة . واخيرا انتهى كل شيء ونامت القاهرة ملؤها الحيرة والتعب .. والسعادة »

اما عن أثر فرنسا فان لغتها كانت ـ حتى فى ظل الحماية البريطانية ـ اكثر تداولا من اللغة الانجليزية ، ولا تزال الليسيه الفرنسية قائمة ، ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدهم ، والمجمع العلمى المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذى انشأه نابليون . وهناك جامعة امريكية ، لا تنفك تتسع ، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسى وليامز

وتتناثر فى القاهرة بنسيونات متواضعة للاجانب الوافدين من وسط اوروبا ، كصديقى يانكو ، وهو ارستقراطى من سلوفاكيا يهوى الرسم ، ويقطن فى شقة تطل على وزارة الاوقاف . انه يضع على عينيه نظارة سوداء ، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار ، ويشرب الزبيب فى شرفة يرقب منها المارة ، ولا يخرج من داره الا ليشترى حاجته من سوق الخضار المسقوف فى باب اللوق أو مزيدا من الزبيب من بقال يونانى قريب من داره ، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التى أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم . أما رسومه هو فبالالوان المائية على ورق غير مستو ، وله اعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو « الاحداث المشردون » وقد علقت بصالة الخريف . ولما سألته عن الطابع المصرى فى الرسم اجابنى « ماذا تقول ؟ ليس عندنا الا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن فى الاسكندرية فى أواخر حكم الاغريق ، ولاغرابة كان الامير يوسف كمال حين انشأ مدرسة للفنون

الجميلة سنة ١٩٠٨ اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين ولكن العجيب ان المصريين ، بعد انقطاع من الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرنا ـ باستثناء العهد الفاطمي ـ قد اخذوا الآن يعودون اليه بحماس كبير . وخديجة رياض ـ حفيدة أحمد شوقي الشاعر ـ تعرض لوحات تجريدية ، ولكني افضل شغلها في الحلى ، انه بديع ، ورءوف عبد المجيد يحيل أكواخ الشواطىء الى تكوينات تجريدية فكأننا بازاء عالم صامت متفرد لا تطيب له النفس وافضل المصورين عندي هي عفت ناجي ، وقد اشتهر اخوها محمد برسم هيلاسلاسي في الحبشة قبل الحرب الايطالية ، وتستلهم عفت رموز السحر ـ هذا العنصر الدائم في حياة مصر ـ السحر الاصيل الشرانى ، لا السحر المدعى طلبا للتصاحب ولبريق التظاهر ، ثم تحيلها الى رسوم ، وهى لا تعنى بمقاييس الذوق او الموضة الشائعة ، وهما مطبان خطران على الفنان ، ورموز عفت السحرية هي من تشكيلات خشبية بارزة ، فلها أبعاد ثلاثة ، وتصبغها بدهان لامع كالفلورسنت »

اعود الى صديقي يانكو ، انه تحول الآن الى التصوير الفوتوغرافى ، وقد ظل مرة ساهرا طول الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صبار مرة كل ثلاث سنوات .. ويقول يانكو بشىء من المرارة « الزهور ؟ نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور ، ولكنها عند المصريين اشياء توضع في سلة مفضضة ، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار ، وترسل لحفل زفاف » !

وأقول من جديد أن هذا الذى أكتبه قد عفى عليه الزمن ، فقد تلقيت اخيرا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميونخ

الفصل الحادى عشر

القاهرة .. الطابع الاسلامى

العمارة الاسلامية التى ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة فى هذا الفن ، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل . وقد رايت أن أنسب هذه العمارة الى الاسلام ، لان نسبتها الى السراقنة ــ كما فعل القرن التاسع عشر دائما ــ منافية للدقة والصواب ، ولانه كما يقول أئمة المتخصصين اليوم ، لا يجوز اطلاقا نسبتها الى العرب ، وها هو ذا الاستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم ، وقد يغتفر لى أن ألجأ الى الصفة المشتقة من كلمة « الاسلام » لانها الاسم الذى يطلق على هذا الدين وحضارته ، فهى أفضل عندى من كلمة « المسلم » التى هى صفة من يعتنق الاسلام ، فمن محامد النسبة التى استخدمها انها تنطبق على ابنية أنشأها معماريون مسيحيون

وحتى القول بأن هناك مدنا اخرى تزهو كل منها بمثال للعمارة الاسلامية أوفى صدقا وكمالا هو قول موضع نظر . حقا ان كل من زار بورصة (فى الاناضول) ورأى عمائرها لا يسعه الا الاعجاب بالوانها الزاهية ، وان عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (فى لواء كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع ، وان ضريح تاج محل

الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ماله من الهائمين بالتقاط صورته ، ولكنها جميعا اما ابنية فرادى ، واما ــ كما هو الحال فى بورصة ــ أبنية من نتاج عصر واحد . اما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنا بعد قرن ، يتدرج من السذاجة عبر البساطة الى تعقيـــد التركيب ، ومن الازدهار العفى الى الذبول السقيم . وهكذا فان سجل حضـارة بتمامها يتكشف على الحجر والاجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنا كهو الان معروض للناظرين . وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة ، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف . لذلك اذا أردنا ان نتذوق الفن الاسلامى بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما فى قصر الحمراء ، وبغير أن يشوهه تعمل مبالغ فيه ــ كما فى عمارة الهند ــ فينبغى لنا ، كما يقول ستانلى لين بول ــ أن نتأمل مساجد القاهرة واضرحتها

واذا كانت القاهرة بهـــذا النمو العشوائى لاحيائهـا السكنية تبدو مختلطة المسالك ، فان ميزتهـا انك اذا تأملتها بصبر وجدتها لا تكشف لك عن اختلاطها الذاتى فحسب . بل تكشف ايضا عن اختلاط جانب دخيـــل وجانب أصيل لحضارة تتمركز فى القاهرة ، وهى اذ تكشف تفسر

ان مشوارا طويلا فى يوم واحد (وان كان من الافضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك ، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة الى الجنوب الشرقى لحوض البحر الابيض المتوسط ، كما تفهم تطورها

وينبغى أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبى للقاهرة

بنت اليوم . وافضل وسائل القيام به هو ركوب قطار ضواحى من محطة باب اللوق (وثمن التذكرة فى الدرجة الاولى ثلاثة قروش ، اى ما يعادل ستة بنسات) ثم تنزل فى المحطة الثالثة .. محطة مارجرجس ، فتشرف على مدخل ضيق لكنائس لا تخلو من دمامة . احن رأسك تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصـون القاهرة الرومانية ، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة فى غد ، ثم امض فى طريقك واسلك دربا معتما متربا يحاذى السور الذى يضم الكنائس ، فاذا بك تصل الى أقدم مسجد فى القاهرة

وقد تم فتح مصر سنتى ٦٤٠/٦٤١ م وفاتحها هو عمرو بن العاص ، وكان فى شبابه من أصحاب الرسـول الذى توفى سنة ٦٣٢ . وقد جاء عمرو من الاراضى العربية حيث ــ ونحن ننقل مرة أخرى كلام الاستاذ كرسويل ــ

« لم يكن لاهلها العرب قبل الاسلام ــ فيما يبدو ــ الا فكرة بدائية عن فن العمارة ، فلم يكن معبدهم قبل سنة ٦٠٨ يزيد عن اربعة جدران فى قامة الرجل تدور حول بئر زمزم ، وبعبارة أخرى كانت الاراضى العربية تمثل فراغا معماريا تاما أو يكاد » . وعمرو الذى شرب من ماء زمزم كان قائدا عبقريا ، سلس الايمان بدين سلس ، فكان فى حاجة الى جامع يؤدى فيه صلاته . لاشك أنه رأى هذه الكنائس التى مررنا بها لتونا على الصورة التى كانت لها فى الاصل ، انها تختلف عن الكنائس الواقعة الى الشرق من مصر فى سوريا وفلسطين فهى بادية التقشف مكنونة ، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلهـا الى الاقتصار فى غموض على الذات .. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لان المسلمين ظلوا زمنا طويلا يشاركون

فى كنائسمها ، يصلون فى جانب ، ويصلى المسيحيون فى الجانب الاخر

واليوم فى الموقع الذى تدبر فيه عمرو كيف يفى بحاجته، لا نرى الا سورا عظيما من الاجر المغطى بالجص ، كانه مهجور ، له ثلاثة أبواب ، فاذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة ارضها من الرمل ، هذا البهو فى الوسط يسمى بالصحن ، انه مصطلح فني يحسن بنا أن نتذكره ، والى امام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الاروقة ، وهي غابة من الاعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين

وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط ، كان فى الاصل معدا فى المحل الاول لاغراض عسكرية ، ليتـــاح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم فى أمن . لم يبق منه اليوم الا اشباح تتراءى فى الجامع الذى نزوره ، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء اخر ، لان جامع عمرو كان يوم انشائه ضئيلا بالقياس اليه اليوم ، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط) التى استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية . هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع ، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة ، اما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ فى ١٧ ياردة) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالجص ، وعلى قوائم من جـذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين ، كما كان حال بيت الرسول فى المدينة ، اما الجدران فكانت من اللبنات . وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه ، ثم أهمل وتهدم ثم تجدد مرة بعد أخرى الى زمن محمد على . وهو اليوم افضل بداية لجولة فى القاهرة الاسلامية

فاذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها فى هذا الحى الفقير) ورضينا بالسير على الاقدام ، وجدنا أنفسنا نطأ ارض أول موقع للقاهرة الاسلامية . كانت مدينة من الخيام نصبها البدو .. حقا انه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوانى فخارية بدائية

وكانت حركة العمران فى القاهرة الاسلامية تتجه دائما الى الشمال

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط والى الشمال منها مسافة ميل واحد ، أنشئت المدينة الاسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسى . فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأى) التى شيدها الخليفة المعتصم ، وقد أعياه تتابع الصدام فى بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الاتراك ، مدينة لم يسبقها فى الضخامة والطموح الا مدينة روما العتيقة ، فقد كانت فسيحة الطرقات ، تتقاطع متعامدة ، ولا يزال تخطيطها الهندسى بينا عند تصويره من الجو ، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم . ولان ابن طولون ، وهو نفسه من الاتراك ـ قد جاء من هذه المدينة الكبيرة ، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة ، وكذلك وجد اتباعه جامع عمرو ـ رغم أنه كان قد زيدت مساحته ـ أصغر من أن يفي بحاجتهم لاداء صلاة الجمعة . أين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفا يصلون جماعة معا

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ فى اقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه(اللعب بالكرة من على ظهور الخيل ، اى لعبة البولو الحديثة) . خلة واحدة

تؤلف بين العرب والاتراك وهى عشق الخيل ، ولكن الذى كان يؤلف قبل كل شيء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الاسلامى الذى يطرح الفوارق القوميـــة التى يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه الحاحا شديدا . وكان ابن طولون متدينا ، تقيا ، ورعا . وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعه

حقا ان وصوله الينا سليما يعد من الخوارق ، هذا المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا لمعبد البارثينون . بل هو عندى يوحى بفيض أكبر من القداسة ، انه أميل فى الشبه الى معبد فرعونى منه الى معبد اغريقى ، فهو يخفى جماله من وراء أسوار لابد لمن يؤمه من المؤمنين من اجتيازها . وهو مقام على تل صغير ليكون بمنجاة من ماء الفيضان ، ولكنه لا يطاول الاكروبول فى الارتفاع ، فأنت تصل الى مدخله عبر طرقات زاخرة بالضجة والزحام ـ وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد يكون دميما . فاذا جاوزنا المدخل الفينا أنفسنا وقد شملنا جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر،وينكشف الصحن للسماء فتحرقه الشمس وتجلله بالصفار . وفى وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع الى سنه ١٢٩٦ ، وهى أقل قيمة من القبة الاصلية التى كانت مقامة على عشرة أعمدة من المرمر ، طلبا للجمال وحده لا للنفع ، فنحن نعلم أن ماء الوضوء لجموع المصلين كان مبـــذولا ميسرا من وراء الجدار الغربى للجامع الأصلى . اذا كان الصحن هو بمثابة الصحراء فالفسقية هى الواحة والعقود هى الغـــابة التى ترمز لمـــا فى النفس من تشابك المنـــازع المتضاربة ، فيطالعها فى ظلال الاروقة جو رطيب يشعشع فيه الجدل الروحى ويخيم فيه السكينة الداعيـــة الى

الاستغراق فى التامل والاستعبـــار ، فالمسلمون الذين اخضعوا صحارى الشرق الاوسط لم يألفوا الغابات الا قليلا ، رأوا غابات النخيل على شاطىء دجلة وغابات شجر الارز فى جبل لبنان ، الف نادر وقصير الامد ، فهو يتوهج فى الذاكرة كما يتوهج القرآن الذى نزل فى مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن الحدائق والجنـــان ، فالســماء والصحراء والماء والغابة ، هذه الاشياء الاربعة انما توحى بشىء خامس ينطوى فى وجوده وجود كل الاشياء : الله .

فأنت فى هذا المبنى لا تستشعر الله فى رؤيتك لتمثال ـ فليس فى الجامع طبعا تماثيل ـ أو لتفاصيل من زخارف ، ولو ان الزخارف الجصية حول الشبابيك بديعة الجمال ، بل تستشعره فى هـــذا الانســـجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح رمزها ..

وفى المساحة التى اضيفت للجامع وفى حضن اسواره العالية تقوم مأذنة من الحجر الرملى ، كانها مسخ لطراز معمارى قديم ، فنصفها مربع ونصفها اسطوانى . وقد تعددت واختلفت الاراء فى تعيين هذا الشكل العجيب ،

فهناك رأى يقول ان ابن طولون كان رجلا منصرفا الى عمل نافع أو متحفزا له ، يكره البطالة والمتبطلين وكان جالسا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريده أن يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجدة فى استغنائه عن الاعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس ، فرآه جلساؤه يلهو بورقة فى يده ، ويلفها فى غير مطلب ، فلما احس انهم ضبطوه وهو يعبث أراد أن يبرهن لهم أنه كان منصرفا الى عمل نافع يتدبره ، وقال لهم من فوره « اعملوا لى مأذنة على هيئة هذا المخروط الذى فى يدى »

ولكن التعليل الاقرب للعقل هو أن تذكر البرج المخروطى الهائل فى جامع سامرا ، وهو نفسه احد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت فى بابل قائما فى زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدما الى الان فى افق بغداد . ولكن ان كانت عقود الجامع وهى من الطوب الاحمر المغطى بالملاط والجص ، وكذلك زخارفه فى الاروقة وحول الشبابيك باقية كما كانت فان المأذنة التى نراها اليوم ليست هى التى كانت قائمة فى البداية ، فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من جديد على يد السلطان لاجين فى عهد المماليك . والمأذنة ، فى شكلها الذى اتخذته فى عصر أصبحت فيه المآذن تزهو برشاقة تغلو أحيانا فتبلغ حد التخنث ، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمـأذنة الى أصلها الذى عرف كيف يقتبس فى غير اختلاط او اضطراب هذه الخطوط المنسابة التى ميزت المخروط الهائل فى مسجد سامرا . ولم تكن المأذنة منذ انشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة ، اذ كانت المآذن ــ هذا الشكل المعمارى المستقل ــ تستفتح أول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونا عديدة . وكانت أوائل المآذن ابراجا مربعة حول الكنيسة الكبرى فى دمشق التى أصبحت فيما بعد مسجدا . وكلمة مأذنة فى الاصل تعنى « مكان يسترعى فيه الانتباه » وكان يمكن ان تطلق على فنار كمنارة الاسكندرية

والمدينة الاسلامية الثالثة ــ تلك التى اتخذت لاول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع الى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل ، وكان انشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه . لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها ، ومن الاصوب ان تعدل عن ركوب التاكسى وتعتمد على قدميك ، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو

مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبا

لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية ـ متينة عفية ـ من طراز بيزنطي . جناحاها المحصنان ترتفع فوقهما ـ كأنما تتهلل لنا ـ مآذن رشيقة أقيمت في عهد لاحق . كانت تتهلل في الماضي للمجرمين ، هي حقا جسر التنهدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق أصبحت مأوى خفيا لسيدي المتولي ، انه قديس يطير في الهواء من مكة الى القاهرة بالسهولة ذاتها التي يطير بها بطل من الف ليلة وليلة ، اليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج بأوراقها مابين المسامير وخشب الباب ، اما استجلاب شفقته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولي يسمى « باب المتولى » . وهناك طريقان سهلان يؤديان اليه ، كلاهما ممتع لك . فاذا كنت تمشي مرخي القياد ، غير متريث لتتأمل أثرا معماريا تقصده لذاته ، وانما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذي تنفثه عمائر ، مسلم لها كمالها ، أو تعرضت للبلى فان سيرك في أي الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان مابقي في نفسك من جو القبور التي تجلت لك تحت اضواء الفجر عند جامع عمرو .. او من صرامة الجد والاحتشام التي استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الاساسية . وتكفيك نظرة الى أي خريطة لاثار العصور الوسطى في القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين ، فهما يتحاذيان او يكاد ، ويتجهان الى الشمال فيكون النيل على يسارك والقلعة وتلالها الجرداء عن يمينك ، وبدايتهما واحدة ، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلي فوق رابيته ، فاذا خرجت من بابه انعطفت الى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبة الممتد شرقا غربا ، هابطا من الميدان الكبير تحت

القلعة الى ان يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل

وشارع الصليبة شارع جدير بأن تعود اليه بالليل . ترى فيه « سبيلا » من طراز تركي ، وحماما عتيقا أسدل على بابه ـ كستارة ـ بشكير حمام يستعمل كازار وجامعا له قبتان حيث يرقد اثنان متصادقان من رجال المماليك ، والافضل أن تكون هذه الجولة الليلية اخر شيء تفعله قبل ان تأوى الى فراشك ، وأن تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل ، ولكننا الأن بالنهار ، فأنت اذا تابعت شارع الصليبة في صعوده الى القلعة بلفت مفترق طرق ، ورأيت مشربا للشاي ـ شتان بينه وبين امثاله في أوروبا رغم وحدة الاسم . قد تخير مكانه قبالة « سبيل » انطلق فيه فن العمارة التركي على هواه ، حتى لتظن لحظة انك أمام منظر في أواسط اسيا لافي افريقية ، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال ، وخمسة اضلاع بارزة النقوش وفق الذوق التركي ، وشبابيك حواجزها المعدنية مصنفرة بدقة وتداخل بارع . بجانب السبيل دكان يبيع البصل ، يتعهده شيخ يعتم بطاقية بيضاء . الى جوارى في مشرب الشاي رجل لفه الذبول يحتسى قدحا من القرفة باللبن

سأعيد لك وصف جولتي محددا زمن كل رحلة ، نفعا للقراء جاعلا قيامي بها في يوم معتاد من ايام شهر مايو ، والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول طريق مؤد الى باب زويلة ، يسمى ابتداؤه بشارع السيوفية ، ثم يمتد مستقيما وان تغير اسمه أربع مرات ، ولا يقاطع الا شارعا واحدا كبيرا ، وهو الشارع الذى كان يسمى من قبل شارع محمد على وأصبح اليوم يسمى بشارع القلعة ، فاذا بلغته فجاوزه محاذرا حركة المرور المشتدة فيه ، وتابع سيرك في نفس الاتجاه فانه الطريق ، بعد

اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات ، ماهو الا سـوق واحد متصل . انني أمر بذبائح الجاموس وعلى اللحم اختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل اول اسـتيراد للبطاطس ـ وهو معروض ايضا امامي للبيع ـ من امريكا للقاهرة ، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودا في نسج السجاد ، ها انذا ارى صدفة اربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها ، ثم أمر بعـد قليل ببرميل ممتلىء بالفلفل الاخضر اللامع فيهيج شوقي الى ان اصنع لنفسي « سلطة » متبلة ، ثم بأكوام من الطماطم ، حباتها كبيرة . شتان بينها وبين طماطم أوروبا التى لاتزيد في الحجم عن كرة البلياردو ـ ولكنها تشكلت باعتسـاف كأجساد الفلاحين في لوحات المصور بروجل ، ثم اذا بصبي يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحا بحزمات خضراء وهو ينادي بصوت عال « نعناع . نعناع » كم هي عسيرة هذه الكلمة على نطقي ، ولكن هاهو عطر جديد يختلط ببقية العطور التى تملا خياشيمي ، ثم أمر بجدار تتدلى منه سلاسل من الاحذية والشباشب والصنادل ، ثم هاهي امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقا اسمه « الدقة » وهي اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة ، شـتان بينها وبين الفلفل ، انها لا تهيج شوقي الى دخول المطبخ . ثم أمر بدكان مشيد حديثا بالاسمنت المسلح ، فهو دميم في هذا المكان ، تعالت على جوانبه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته . أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلا ويستطيل ، ادخل مقهى أمامها سقيفة ، بلدية هي ولكنها مريحة ، عليها لافتة تقول « قهوة محمد ناصف واولاده » وأشرب فنجانا من قهوة ناصف التركية « سادة » أي خالصة بغير سكر . على حين يمـر أمامي حمار يجر عربة محملة بالقدور الكبيرة ، حشرت في أفواهها

سدادات مكورة من الورق ، هي قدور الفول المدمس ، انه الطعام المفضل الذي يلتزمه المصريون لفطورهم ، يخلط بالزيت ويتبل . ادفع ثمن قهوتي مايعادل خمسة بنسات ـ ثم أمضي فأمر على « قصارى » الاطفال من قبل أن أدخل الى القسم الاخير من الطريق . انه سوق مسقوف « وكلمة بازار الشائعة في الهند غير مستخدمة في مصر » . وهذا السوق أمتع بكثير من سوق خان الخليلي ذائع الصيت ، فخ السائحين من قديم . فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذي يرسم لك أقرب صورة الى الصدق باقية الى اليوم من حياة الناس في عهد المماليك . . ابواب ضخمة ـ متروكة الآن مفتوحة دائما ـ رشقت فيها كرات من حديد ، وكان التجار يغلقونها بالضبة والمفتاح اذا ثارت ثائرة المماليك ، هنا تستطيع ان تشترى بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به ، كلها من أجل الدواب ، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمير ، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول راس الحصان من خيوط صوفية ، وهى اشياء تقصد أيضا الى الزينة وان بقى لها نفعها وثمنها معتدل ، ثم اذا بهذا السوق الذى يتسلل اليه ـ كأنما من مصفاة ـ ضوء شاحب ، ينتهي فجأة عند باب زويلة . هنا انظر الى ساعتي ، ان مشواري من جامع ابن طولون ـ مع حساب تريثي لشرب الشاى عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده ـ قد استغرق من وقتي ساعة كاملة ، لاتزيد ولا تنقص

اما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الاول في المتعة ، وان كان أطول واكثر تعرجا ، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك ، ثم انعطف في أول شارع يتجه بك يمينا الى القلعة فتجد جامعين كبيرين ـ احدهما جامع السلطان حسن

الذى سنزوره فيما بعد ـ يحيطان بالطريق وهما على حافة وسماية صغيرة ، فلا تعرج عليها واقطع شارع القلعة الذى لايخلو من دمامة ، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو ابنية متداعية تريد أن تنقض ، حتى اذا بلغت نهايته اتجه يسارا الى شارع التبانة الذى يمر بجامع الماردانى (١) .. ثم يتجه غربا فيحيط بالدرب الأحمر ، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وانغام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الاصيل الذى عرفناه . واذا بك فجأة تجد باب زويلة شامخا على يمينك غير مواجه لك

وهكذا تجدنى دائم السعى الى باب زويلة كأنما كانت هذه البوابة هى محط الانظار ، وانها لكذلك ، فهى المدخل الى القاهرة الاصيلة

وكما ان لندن الاصيلة عبارة عن نواة مسورة فى وسط سوق اقيم حولها ، فكذلك القاهرة ، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الارض لايزيد ضلعها عن الف خطوة . هذه المدينة الداخلية التى بنيت اصلا لتكون مقرا لشئون

---

(١) بنى جامع الماردانى فى سنة ١٣٣٩ م وهو يمثل خير تمثيل قدرة المزج فى الفن العربى الاسلامى فأعمدته من كل شكل وحجم .. فمنها الجرانيتية الحمراء المأخوذة من المعابد الفرعونية ، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية . وتيجانها محلاة بزهر اللوتس أو بالازهار ذات الطراز الكورنثى بل ان بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب . ولكن الطريقة التى وضعت بها تضفى على الجميع وحدة تدعو الى الدهشة مع اناقة تؤثر فى النفوس . وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة فى طراز جديد واحد هى احدى السمات الواضحة فى الفن الاسلامى العربى . كما اننا نرى فى الشربية التى تفصل بين رواق القبلة عن صحن الجامع المحاط بالاعمدة المقنطرة مثالا رائعا فى أعمال الخشب فى القرن الرابع عشر الميلادى وان تجدد أكثره . وقد كان الماردانى ساقيا للحاكم المملوكى الكثير الذرية الناصر محمد بن قلاوون وزوج احدى بناته ، ثم صار حاكما على حلب حيث وافته منيته

الحكم والدين ، لا للاسكان والمعيشة هى مدينة القاهرة ، وهذه المساحة يحدها شمالا الجزء الشمالى من سورها الاصلي ، وشرقا سور صلاح الدين الذى أقيم فى فترة تالية ، وجنوبا الدرب الاحمر وامتداده تحت الربع ، وغربا مجرى الخليج القديم

واستمرت القاهرة على شكلها الاصيل مدة قرنين . اما اصل بنائها فمعروف لنا تماما .. فهو اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٩٦٩ وهى الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتى عمرو وابن طولون باسم مولاه المعز لدين الله . اما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل اوروبى ، ومولاه هو رابع من تولى الحكم من اسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها الى السيدة فاطمة بنت النبى (١) التى تزوجت من على ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمسا للدين . وانبثقت فرقة من الاسلام ـ وهى الشيعة ـ تؤمن بأن الامامة وقف على سلالة على من فاطمة . ويتبع مذهب الشيعة حاليا نصف سكان العراق تقريبا وكل سكان ايران بينما تخلو منه مصر فهى تتبع المذهب السنى ، فى حين كان مذهب الشيعة هو الاساس فى انشاء عاصمة البلاد التى نجتاز عتبتها الآن من باب زويلة ، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود فى الضلع الشمالى من هذا المربع الفاطمى لا نزال نقرأ مانقش عليه بالخط الكوفى « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » وهو مايدين به المسلمون جميعا ، مضافا اليه « على وصى الله »

اما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة .. ففى ذلك قصة طريفة . فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على أضلاع المربع الذى حدده على الارض بواسطة قوائم

---

(١) لقد توفى كل أولاد النبى الذكور قبل البلوغ

من الخشب ، وأوصل اعلى هذه القوائم بجبال مدلى منها اجراس ، ووقف المنجمـــون المغربيون على اســـتعداد يتفحصون أدواتهم وطوالعهم الفلكية حتى اذا اطمأنوا الى دخول الوقت المبشر بالخير ، حركوا الحبال لتمر عبرها الحركة ـ كتليفون بدائي ـ فتدق الاجراس ايذانا بالعمل ، ولكن الذى حصل هو ان غرابا وقف على الحبل وسبق المنجمين فى هزه واعطاء الاشارة ، فانهالت الفئوس والمعاول من آلاف العمال تحفر الارض . ولم يكن هناك مجال لمنع ذلك ، فاكتفى المنجمون بأن يحسبوا الكوكب صـــاحب الطالع وقت الخبطة العشواء فوجدوه المريخ . ذلك الكوكب الاحمر اللون واسمه « القاهر » فأطلقوه على المدينـــة متحدين بذلك النذر التى يحملها معه وبذلك سميت المدينة « القاهرة » واجتازت النذر بأمان

ولافراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة ، فهم من ناحية من أصل عربى لا تركى ، ومن ناحية أخرى كانوا يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم ، ثم انهم بحكم شيعتهم قد انفصلوا عن بقية العالم الاسلامى . فظهر فى الفن اتجـــاه حسى لم يظهر فى العصور العربية الاخرى ، اللهم الا فى ايران الشيعية ، وبدلا من أن نرى الزخرفة العربيـــة الجافة ، نجد منقوشا على أوانيهم الخزفية صورا لعـــازفى العود ، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب ، وتظهر لهـــم عيون واسعة وعمائم كبيرة ، كما نجد رسوما لحيـــوانات ايضا ، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف فى المتحف الاسلامى

ويتميز الفاطميون ايضا بالسرعة والهمة فى الانشاءات ، وخير دليل على ذلك ماتراه اذا مااتجهنا شمالا الى منتصف المربع ، ففى السنة التالية لتاسيس المدينة وضع جوهـــر

اساس مسجد وجامعة الازهر فى ٣ ابريل فى الجـــزء الشرقى من العاصمة الفاطمية ، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبى العلم فى سنة ٩٧٢

ولايزال لهذا الجزء من القاهرة ـ الذى كان اصلا المدينة الفاطمية ـ سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمـــال مااستحدث بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عـــن انشاءات العصر المملوكى ذات الحدائق الداخلية ـ وهى مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال . وطالما شكا النقاد من أن المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم ، ومنهم ستانلى لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عاما ان « المصـــلحة التى تعنى بتخطيط الشوارع انما قامت بمهمتها بأفـــق ضيق من الفكر فى خدمة المدينة » ولكننى أقول ان كل مدينة ـ بله العاصمة ـ لايمكن أن تظل على حال واحـــدة مثل مدينة محنطة ، فالناشئة من الاطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الاسمنت واسياخ الحديد ؟ وعلى كل حال فلا يزال هناك قدر كاف من الاثار يعطى للذهن مجالا لتصور ماكان عليه الحال فى الماضى

اذن فلنأخذ الان الطريق الذى يقودنا من باب زويلة فى الجنوب الى باب النصر فى الشمال ، وخير رفيق لنا فى هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى « جولات فى القاهرة » فهى ترشدنا فيه ـ كاحسن دليل ـ فى لغـــة سهلة صريحة ، وعن علم خال من الحذلقة الى ماحتجب من آثار الماضى فى أماكنها غير الجلية ، وهى قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا الى اغفالها فى هذا الفصل من الكتاب ، ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت تطول الى سبعة ايام او اكثر يقضونها فى القاهرة مع كتابها

ونعود فنتقدم في طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والاثار البديعة الاخرى التى خلفتها لنا عصور المماليك ونخطو فى شارع بين القصرين الذى يصل باب زويلة بباب النصرحيث نكافأ فى نهاية مسيرتنا المضنية فى الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الاسوار العظيمة مباشرة ..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم الى القائمين على رعاية التراث الاسلامى ، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم سمى اولا بالجامع الجديد وبالجامع الابهى ولكنه يقف الان فى الناحية الداخلية من المدخل الشمالى للمدينة الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب . والاسوار تغطى الجامع وهى حماه ، فلكى نشاهده بوضوح علينا أن نتخذ لنا مكانا فوق أحد برجي باب النصر . واعتقد انه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما انجزوه لاشار اول مايشير على الاقل الى هذه الاطلال فى القاهرة . صحيح ان فى القاهرة جوامع اكبر حجما ولكنه يتميز عنها انه أقيم لحاكم عربى الارومة ، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير فى مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قرونا ، فى حين كانت الترميمات تافهة ، فسقط كثير من الجبص المنقوش عليه بالخط الكوفى ، ومع هذا فلهمأذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة متراجعة ، كما انتشر البلى فى المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالاجر تحتهما ، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركنا من اركانه

وقد قدمت اقتراحا لاحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلا من اهماله خصوصا وانه يقع فى مدينة ينادى بها قلبا للعروبة فأجابنى : « ربما كان الكره

الذى لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب فى اهمال جامعه »

والحاكم ــ حفيد المعز ــ كان اشبه بالامبراطور كاليجولا الرومانى . انه كان مدللا شديد الانانية تنتابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب ، كما كان مصدرا لكثير من المضايقات للناس فى التافه من الامور وفى خطيرها، وظل كذلك حتى لقى مصرعه . قتله شخص مجهول فى الصحراء أثناء تجواله فيها وهو راكب حماره . وكان من ضحاياه الاقباط فقتل منهم الكثير ، وبائعو الملوخية التى حرمها ، وهى طعام صمغى القوام محبوب عند المصريين الى يومنا هذا ، وحرم صنع أحذية النساء منعا لهن من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا ، ومنع الناس من بيع الزبيب وأمر بحرق الكروم وقطعها كما حرم ايضا اللعب بالشطرنج ، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فامر بقتل جميع كلاب القاهرة ، الامر الذى يجعلنى انفر منه . ولكن لابد أن هذا الوحش المتاله كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه الى يومنا هذا ويجعلونه رمزا مجسدا للفضائل التى تجمعت فيه . ومع كل فانى اتردد كثيرا قبل ان الج هذا الجامع ليلا ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج ما تنقض وهى طائرة حتى بالنهار داخل البرج المربع الذى تسمو منه المأذنة الى طرفها المزخرف ويصدر عنها عجيج يطغى على ضوضاء المارة فى الطريق

وبجامع الحاكم هذا تنتهى سلسلة من الجوامع ذات طابع واحد : طابع العزة الدينية ، تماما مثل جامعى عمرو وابن طولون ، نبعث من هذا الدين الذى ينزع الى الديمقراطية فى احد نواحيه . فكل الناس داخل الجامع سواسية لا تفاضل بينهم يندمج فيهم الخليفة ولو حضر

فى فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه . وكانت هـذه الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلما كان الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح ، وأعنى بالشعب هنا المسلمين ، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية واخرى تركية ، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفا خلف امامهم يسجدون لله كما علمهم النبى العربى

ولكن فى جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرا ما . ذلك اننا نعلم ان هذا الخليفة كان مختل العقل طاغيـة ، ونعلم أيضا أن حراسة الذين خصصت لهم احياء كاملة فى المدينة صارت لهم سطوة طغت او كادت على سطوة الشخص الذى كلفوا بحراسته ، فكانت هذه الرقة فى عقود الجامع التى توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء حتى فقدوها كلية ، وظهرت الرشاقة الى حد الانوثةالتى تبتعد عن الروح ذات البأس التى نراها متمثلة بوضـوح فى اعمدة جامع ابن طولون اكثر من اى مكان آخر ،فهى مؤشرات تدل على ان الاسلام فى عهد الحاكم ابتدأ فى الانكماش والدفاع (انتهت الدولة الفاطمية عندما احتل الصليبيون القاهرة لمدة قصيرة سنة ١١٦٣) . ولم تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ماكانت تدل عليه فى القرون الاولى عندما امتطى المسلمون خيولهم مشرقـين ومغربين ، لا حدود تفصلهم عن الدنيا بأسرها ، ثم بدأت الفرقة بينهم ، وما كان الخليفة الفاطمى الا واحـدا من الذين ادعوا حق السلطان لانفسهم ونافســاه فى ذلك صاحبا بغداد والاندلس

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيارة اجرة،وفى طريق العودة . على بعد مئات قليلة من الامتار وفى شارع

بين القصرين الذى اجتزناه من قبل ندع السيارة تقف بنا هنيهة ـ بدون ان يبطل عدادها عن العد ـ عند الجامع الاقمر ، وهو احسن جوامع الفاطميين حفظا ، وله واجهة جامدة ضئيلة الزخرفة كعادة الفـــاطميين . ولا نتلبث عنده الا قليلا ، ونطلب من السائق ان يتوجه بنا الى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل ، وسيسر حتمـــا بمنحة قرش او قرشين زيادة

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريح ان المستوى الحضارى للدين ـ وليست العقيدة نفسها او تعاليمه ـ قد ناله بعض التغيير ، كما ان المبانى قد تغيرت فى الشكل والروح ، فهذا الجامع لا يقل عن جامع ابن طـولون فى اظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التى صممت لتدخل الرهبة والخشية فى نفوس المتعبدين ويشبهها ايضا فى اقامة هذا البنـاء المتعالى الضخم لاجل ان يضم رفات انســان ضئيل . ومدخل هذا الدهليز عبارة عن بوابة ضخمة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة ، وفى نهايته نجد صحنا واسعا مكشوفا للسماء التى تبدو بعيدة لان الصحن محاط بأربعة ايوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخـال انه محاط بغابة من الظلال . ويوجد الضريــح خلف ايوان القبلة فى قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذى كان مستعدا لاستقبال جثمان السلطان حسن ، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذى خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية اولاد خلفهم الناصر محمد المملوك الذى كانت له سطوة وقوة . ولكن ابنه حسنا لم يستطع ان يقيم قاعدة يمسك بها أزمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكنه من عواطف نحو المصريين المسلمين . وكفاه ذكرا انه

أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلا ايضا على حالة الدول الاسلامية فى اواخر العصور الوسطى .. وهـذا الجامع ولو انه بنى خصيصا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم ايضا أربعة مدارس ، فعلى كل جانب من جوانب الصحن يوجد باب يؤدى الى مدرسة يدرس فيها أحـد المذاهب الاربعة المعترف بها فى المذهب السنى، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جدا ولا يمكن ان تقارن بما بين مذهبى السنة والشيعة من اختلاف . ومع ذلك وبالرغم من هـذه الرعاية كما نراها فى هذه المدارس وفى الميضأة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فاننا نرى فيه رمزا للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميـله الى المصريين كان مملوكا أى غريبا من طائفة لم تندمج مع الشـعب سواء كانوا فى عز قوتهم مشيدين او كانوا فى قلة حيلتهم متقلبين . من هنا نرى ان جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطا طويلا بعيدا من روح عمرو الذى أقام مدينـة من الخيام وبنى مسجدا متواضعا لجنود ولى عليهم وهم معه سواسية . عمرو هذا الذى قدم من بلاد العـرب المحمدية حيث كان النبى يرقع ملابسه فى بيت متواضع وحيث شاركت النساء فى غزوات الحروب وندوات الادب، بينما نشأ السلطان حسن على تقاليد دعت الى حجزهن فى « الحريم » . ففى جامعه تجلت الملوكية بأوضح معانيها كما تجلت فى وندسور فى انجلترا

أما آخر مرحلة فى رحلة اليوم فهى زيارة القرافة شرقى المدينة ، فهنا شغل المماليك المتأخرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضآت ، انما هيئت للموت فقط . وكثير منها جميل وكثير أيضا متداعٍ ، وتعددت القباب حتى صارت رمزا لمدينة الموت . وقد ابتدىء فى زرع

الاشـجار فى الاراضى المحيطة ولكن التراب يملأ مابين القبور . هيا نختار واحدا منهـا . اذن فلنزر ضريح قايتباى فعسى أن يكون مفتوحا . وقايتباى واحد من المماليك ذوى النشاط عاش فى العصر السابق مبـاشرة للفتح التركى العثمانى . ويمتاز ضريحه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للاضواء أن تمر الى الداخل ·· أضواء ليست من صنع مصر

ونكتفى بهذا القـدر من التراب ومن ذكر الموت ، فالتراب قد زكم الانوف وشعر الانسـان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها . فلنختم رحلة يومنا هذا فى فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالى كل كآبة أصابتنا استعدادا لسهرة المساء . وفى الفلوكة ـ عندما تقترب الشمس للمغيب ـ نرى مسـجدا جديدا بالقرب من كبرى يصل بين الروضـة والجيزة ، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألأ ناطقا باحياء العمائر التى تمتد الى السماء على الطراز القوطى

الفصل الثانى عشر

القاهرة..والأمسيات

ان ليل القاهرة يظل عالقا فى الذكر اكثر من نهارها . بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من ليالى أوروبا ، ويرجع بعض ذلك الى الطقس ، فحالما تغيب الشمس خلف الاهرامات ، تهبط درجة حرارة الجو هبوطا سريعا ملحوظا سواء كان ذلك شتاء ـ عندما تكون درجة الحرارة فى النهار حوالى ١٥ درجة ـ أو صيفا عندما تعلو فوق ٤٠ درجة . وتبدو النجوم اكثر عددا واشد لمعانا بسبب جفاف الجو ، بخلاف ماتبدو فى الاجواء الرطبة . اذن فما هى المتعات التى ننتظر من القاهرة أن تقدمها لنا عندما ينتشر آلاف من خفراء الليل الكبار السن ببنادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة ويحرسونها ؟

هناك أولا ستة عشر مطعما تنتشر على طول النيل ، يتخذ بعضها مكانا فى العوامات والباقى على الحدائق فى الهواء الطلق ، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الامطار التى لاتهطل الا دقائق معدودة كل عام ، ولو أن بعض ليالى الشتاء قد تبعث القشعريرة فى الاجسام . أما مطعمى المفضل على النهر فهو كازينو الحمام على الشاطىء الغربى فى الجيزة . والجيزة محافظة منفصلة عن القاهرة لها محافظها الخاص بها ، وهو يحرم بيع

المشروبات الكحولية فى شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين عن الطعام والشراب طول ساعات النهار ، فى حين يسمح بذلك محافظ القاهرة (فى بعض الاماكن التى يرتادها السائحون) . وعلى ذلك فلك الحرية أن تطلب ـ طوال العام خلاف ذلك الشهر ـ ماشئت من البيرة والزبيب (١) والنبيذ المصرى . وعصير الكروم المصرية فى الحقيقة يستحق شهرة خلاف ماهو عليه ، فمزارع جناكليس فى الدلتا تنتج أنواعا متعددة من الانبذة الحمراء والبيضاء بأسعار معتدلة ، وهى بالتأكيد أجود بكثير من الانبذة العادية المنتشرة فى فرنسا . وعمر الخيام هو أحسن الانبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء . والصنف الوحيد الذى تجده فى المطعم ليؤكل بجانب النبيذ هو الحمام المشوى على الفحم ، وقد اتخذه الكازينو اسما له ، فاذا أخذت فى تناول طعامك أحاطتك ـ تراقبك بصبر ـ فرقة من القطط هى حتما نتاج تلك التى كان يقدسها الفراعنة ، ويظللك وأنت جالس حفيف أوراق شجر الكافور ، بينما تنساب بجانبك ـ حتى تكاد تلمسها ـ الفلائك والمراكب ذات الأشرعة تحركها الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع ..

وليست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الاكل وتذوقه ، فمطاعمها ـ خاصة تلك الملحقة بالفنادق الحديثة ـ تقدم الطعام الغربى المعتاد الذى تتفاوت درجة جودته من جيد الى متوسط ، ثم انها تقدم لك

(١) الزبيب هو الانتاج المصرى للسائل عديم اللون الذى يتحول الى لون أبيض عند خلطه بالماء . وهو معروف باسم أوزو فى اليونان . وراكت فى تركيا . ويسمى فى البلاد الاخرى بالعرقى

الاطباق باردة حتى طبق الاومليت ، فاذا اصررت ـ كما افعل دائما ـ على تقديمها ساخنة فأغلب الظن فانها ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطرك للانتظار حتى يمكنك الاكل . والحد من استيراد الكماليات يعني اختفاء بعض الانواع مثل الجبن الفرنساوى او الايطالى . ولكن اللحوم المصرية جيدة خصوصا لحم الضأن الصغير كما أن هناك أنواعا ممتازة من الاسماك تأتى من البحرين المتوسط والاحمر ويقال أن كمية الفسفور العالية فى البحر الاحمر هى السبب فى ضخامة حجم الجنبرى السويسى

ويمكن معرفة بعض الطرق الشرقية فى تحضير الاطعمة بتناولها فى المطاعم البلدية . واذا كانت باريس مركزا تجتمع فيه مدارس الطهى الغربى فان استنبول هى الاخرى تعد مركز تجمع للطهى الشرقى لايقتصر عليها فقط بل تمتد فروعه الى كل الولايات التى كانت تابعة للامبراطورية العثمانية السابقة ، أعنى اليونان وسوريا ومصر ، وانى شخصيا اضع الطعام المصرى فوق اليونانى واقل قليلا من اللبنانى ، فتجد فى المطاعم البلدية الكفتة والكباب وهما أشهى أصناف اللحوم ويحضر كل منهما من لحم الضأن ، أما الكفتة فتحضر بفرم اللحم ثم شيه فوق شواية ، أما الكباب فيشوى اللحم فى قطع صغيرة منفردة ، وتجد أيضا الملوخية وهى جديرة بأن يتذوقها المرء وهى نوع من الخضروات الغروية التى سبق أن ذكرنا أن الحاكم ـ ذلك الخليفة المجنون ـ قد حرم أكلها . وصنف آخر هو طبق المخ والكبد المقليين وتجده فى مطعم صغير بالقرب من باب اللوق ، أما الكوارع وهى تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتى ولذلك

لا استطيع أن أحكم عليها ..

وتوجد مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التى يقبل عليها القاهريون ، وهى مطاعم الفول المدمس والطعمية . وتصنع الطعمية على هيئة كرات صغيرة من خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل وبعض الاعشاب العطرية وتضاف اليه الخميرة ليصير هشا ناعما ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلى فى الزيت . وفى هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته من الطعام بما فى ذلك رغيف بلدى مستدير وسلاطة بما تعادل قيمته أقل من شلن (خمسة قروش)

ها نحن الان قد فرغنا من تناول العشاء ، والمعتاد فى القاهرة أن تعوض كمية الطعام ماينقصه من الجودة . فماذا بعد ذلك ؟

يجيب القاهريون على هذا السؤال بطرق مختلفة ولكن الامر المعتاد هو أن يقضى النساء أوقاتهن فى البيوت فى حياكة بعض الملابس الخاصة أو فى مشاهدة التليفزيون أو الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء . أما الرجال فيتوجه كل منهم الى مقهاه من ضمن ستة آلاف مقهى منتشرة فى المدينة ليشرب الشاى ويقطع الوقت مع غيره فى لعب الطاولة أو فى مشاهدة التليفزيون او مجرد الحديث ، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق بهم . غير أن الشبان صاروا ينتمون الى الاندية الرياضية ليمارسوا بعض الالعاب ، والا فانهم يزحمون الارصفة عند مداخل دور السينما

وامسية الخميس هى أمسية السينما بلا منازع لان الجمعة هو يوم الراحة . وفى القاهرة اثنتان وتسعون دارا للسينما يختار المرء منها مايحلو له ، وجمهور

السينما فى العواصم العربية لايقل حماسا لها أبدا عن أمثاله فى البلاد الاخرى . والقاهرة هى المدينة العربية الوحيدة التى توجد فيها صناعة سينمائية ضخمة فقد انتجت استوديوهاتها التى تقع على طريق الاهرام أفلاما منذ العشرينات . وكان الانتاج فى بعض السنين يزيد على مثيله فى بريطانيا ، الامر الذى جعل بعض المخرجين الرواد مثل يوسف شاهين يبدى أسفه لان الكثرة طفت على الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها . ويأخذ الفن السينمائى المصرى أسلوبا واحدا لايغيره . ولى تجربة شخصية مع هذه الصناعة عندما كانت تحت السيطرة الرأسمالية ، فقد دعتنى صديقة لتناول الغداء مع أحد المنتجين الكبار وهو من أصل شامى بدأ حياته فى تصميم زينات لشعور السيدات (وربما كانت جوستين احدى عميلاته ـ البطلة الروائية فى رباعية لورنس دوربل) ثم خصص نفسه لتصميم الافلام لملايين العرب.

وطلب منى قائلا « أريد قصة يامستر ستيوارت تليق بنجمتينا الكبيرتين فاتن حمامة وشادية ، وستكلفانى معا نصف ميزانية الفيلم ، فلذلك أطلب أن تحتوى القصة على شىء جديد مبتكر » . وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين ، احداهما ـ فاتن ـ متزوجة من عمر الشريف الذى لعب دور الشيخ فى فيلم لورنس ، وهى فيما أعتقد أشد الممثلات اخلاصا لعملها ، والاخرى ـ شادية ـ فتاة ظريفة تبدو مرحة ولها صوت رفيع

سألت « أتطلب شيئا واقعيا ؟ »

فرفع يديه بأظافرهما الملمعة فزعا وقال « أعوذ بك يامستر ستيوارت . ارجوك ان جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم مايكفيهم من الواقعية ، انما أريد لهم

أن ينطلق بهم خيالهم بعيدا منها »

وهذا لايطابق الواقع كما شاهدت فى الافلام المصرية ، ولكننى كنت فى ذلك الوقت محتاجا الى المال — كما تعلم بذلك صديقتى — وكان ما عرضه على — مقابل عشرين صفحة — ما أقنعنى . الا أن صديقا حذرنى ناصحا : « خذ حذرك فانهم سيدفعون لك أجرتك عن كل مرحلة من العمل الا الاخيرة منها » وقد تبين صدق قوله فكنت لا أنال ما استحقه الا على اقساط ضئيلة وبعد الحاح وكلما اتصلت بالمنتج تليفونيا فاما أن يكون « نائما » أو « متغيبا فى سوريا » . ولما انتهيت من القصة وبقى لى ثلث ما أستحقه قيل لى فى نبرة استياء « كان يمكن لابنى أن يسطر فى صفحتين ماملأت به عشرين صفحة ، اما عن لغتك الانجليزية فان ابنتى وهى طالبة فى الجامعة الامريكية تقول ان المستر ستيوارت يكتب لغة انجليزية جيدة ولكنها ليست بالانجليزية الخالصة »

وماذا كان فى مقدورى أن أفعل . لقد كنت غير فخور عن هذا السيناريو غير الواقعى . ألم اظهر شادية فى أحد المناظر وهى محرومة من الاولاد تبكى وفى يدها كتاب مفتوح من كتب الاطفال جالسة على اريكة من طراز لويس السادس عشر ، فاذا انتهى هذا المشهد المرسوم تجف الدموع وتتحول الى بسمات ونرى شبانا فى سياراتهم وطائراتهم ثم تنتهى بهم حبكة القصة بغسل الدموع بالغناء والرقص . وقد مثلت كل من فاتن وشادية دورها جيدا

وقد مثلت فاتن أيضا فى فيلم « دعاء الكروان » وهى تراجيديا تدور وقائعها فى الصعيد ألفها الاديب الكبير الدكتور طه حسين . واخت فاتن فى القصة يغويها محام

فتنهض هي للانتقام منه ، وكان النصف الاول من الفيلم واقعيا الى درجة تظهر فيــه الاقدام حافية تحــوطها الخلاخيل . الامر الذى لم نسمع به من قبل . وهبط النصف الثانى ، وفيه نرى المحامى يصـــطحب فاتن ــ التى نراها فى زى سيدات الزمالك ــ الى نزهة على شاطىء البركة ، وهو مالايخطر مطلقا على بال أحد فى الصعيد المحافظ

ولعبت شادية بعد ذلك دور فتاة من بنات الليل فى احسن فيلم ــ فى رايى ــ أنتج الى الان ، هو فيــلم « اللص والكلاب » كتب قصــته نجيب محفوظ حول شرير تطارده الصحافة ، وهو سفاح أصيب بلوثة وانتهى به الامر بأن حوصر وقتل بالرصاص تماما مثل ماحدث للمجرم الامريكى ويللنجر . وقد رمز نجيب محفوظ بهذا القاتل عن الشخص الحــديث الحائر الذى خانه مرشده وتخلى عن مبادئه . ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصــطنع والفقرات الخطابية الجــوفاء ، فجـاء السيناريو سريع الحــركة قاســيا مثيرا قليل الحوار ... ولم يكن سبب انحراف البطل تافها فقد دفعه اليه ــ اثناء عمله كخادم فى بيت الطلبة ــ طالب يسارى لايقيم وزنا للقيم الروحية . وكان هذا الطالب يعتقد أن المبادىء الاخلاقية قد بليت وعفى عليها ، وأن اللص فى البلاد الراســمالية حينما يسرق انما هو شـــخص تقدمى ، وهى افكار قد عفى عليها فى الغرب ولكنها لاتزال تاخذ بقلوب بعض الاشخاص . الا ان هذا الطالب يغدو صحفيا ناجحا ويتزعم حركة مطاردة تلميذه الذى طبق دروسه بحسن نية ، ثم ينشرح صدره عندما يبلغه نبأ مقتل المجرم . صرعه رجال الشرطة برصاص

المدافع الرشاشة بجوار جدران جامع الجيوشى . ولم يبكه أحد سوى بائعة الهوى

وهناك علامات توحى بأن الاسلوب المعتاد الذى يسيطر على قصة الفيلم المصرى لم يعد له مجال كبير ، وظهرت مناقشات فى الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على أسماء النجوم فقط لما تبين ـ كما أخبرنى صديقى المخرج ـ أن ذلك كان يستغرق الجزء الاكبر من ميزانية الفيلم الضئيلة (حوالى ٢٥٫٠٠٠ جنيها) فلا يبقى الا القليل لكاتب السيناريو وبقية الفنيين المتخصصين ، كما أن اكثر النجوم ليست لهم قدرة فنية كبيرة ، لان خبرتهم فى التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصى ، ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة فى دور التمثيل التعليمية . وقد يقفز أجر الوجه الجديد المبتدىء ... اذا لقى حظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيها فى الفيلم الاول الى ألفين من الجنيهات فى الفيلم الثانى ، ثم يملأه الاطراء بالغرور طول حياته ، مالم يكن ـ مثل عمر الشريف ـ صاحب موهبة حقيقية

ويمكن القول بأنه لن يتم انقاذ الفن السينمائى المصرى والنهوض به الى المستوى الذى يجعله جديرا بالتقدير فى الدوائر السينمائية العالمية الا عن طريق النهضة المسرحية التى تعد الظاهرة الثقافية الكبرى فىمصر والتى استمرت قوية منذ ظهورها فى أوائل الستينات

وقد ظهر التمثيل المسرحى فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر واستمر بشكل أو بآخر حتى سنة ١٩٥٢ فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط ، أما الآن فهناك ما لا يقل عن ثمانى عشرة فرقة مسرحية تعمل على أربع عشرة دارا مشيدة للتمثيل ، وهذه الفرق قابلة للزيادة . وتختلف المسرحيات التى تقدم على مدى واسع ابتداء

من الكوميديات المحلية التي تتخذ فيها عناوين مثل « بابا مايعرفش » الى ترجمات من بيكت ويونسكو . ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذى أنشىء ليعرض المسرحيات العالمية الطليعية ، كما أنشىء مسرح توفيق الحكيم ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحى الاول فى مصر ، وكذلك أنشىء معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه ممثلون شبان يجد كل منهم عملا — بضمان من الحكومة — حال تخرجه . وقد أجريت حديثا مع الوزير المسئول عن الثقافة فى مكتبه فى أحد الادوار العليا من مبنى التليفزيون العربى على النيل مندوبا عن هيئة الاذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

« منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم فى أيد مصرية صميمة ، وذلك لاول مرة منذ العصور الوسطى . وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعا ، ولا تبرر اقامة شخص فى اسوان أو حتى فى واحة سيوة أن يكون بعيدا عما يجرى حولنا فى العالم الحديث ، بل يجب أن يكون على بينة من ذلك ، اما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون ، ونحن سنوجه مجهودنا الاكبر — بدون أن نستحيى من ذكر ذلك — الى الجمهور الكبير لاننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يعمهم جميعا حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبنى فوقها الى أن ينتهى بنا البناء الى قمة هرمية من الكفاءة العالية »

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزا للاشعاع الثقافى لجميع انحاء البلاد يظهر واضحا فى الموسيقى ، وبشكل أوضح فى الغنــاء . وقد كانت الكلمة طوع فصاحة العرب دائما ، وفى نفس الوقت تؤثر بسهولة

على عواطفهم . وكان الشعر هو الفن الصحراوى الفذ ، وفى مصر المثقفة الان تغلغلت اغانى احمد شوقى واحمد رامى الشعرية فى الجماهير المريضة باستماعها الى صوت سيدة فريدة هى السيدة ام كلثوم ، وهى الان فى الخمسينات من عمرها ، ولها معجبون فى العالم العربى كله . ومن عادتها أن تقيم حفلاتها فى الخميس الاول من كل شهر فتمتلىء المقاهى من بغداد الى مراكش انتظار لاغنيتها الجديدة . ويوجد فى القاهرة بالقرب من ميدان التوفيقية مقهى أم كلثوم ، وهو من ثلاثة طوابق ، الأرضى منها مفتوح على الشارع وهو مقهى عادى بأنواره وضوضائه ، والطابق الثانى خافت النور وبه مسجل للصوت ينساب منه صوت أم كلثوم قويا يستمع اليه شباب من الطليعة وموظفى الحكومة والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون القهوة فى هدوء ، أما الطابق العلوى فالنور فيه اشد خفوتا يجلس فيه المدمنون على الاستماع فى خشوع تام حيث تعتبر مجرد الهمسة بخسا فى محراب الفن

اما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع الدولة لها نحو التهذيب دون البتر او الحجر اى ــ على حسب التعبير الفرويدى ــ ان الدولة اخذت وظيفة الأنا (السوبر ايجو) اى النفس الحكيمة التى تضبط وتنظم « الاد » أو الغرائز اللاشعورية التى تهيمن على الجماهير . وقد طبق هذا التهذيب على الرقص

ولكى ندرك هذا الموقف يجدر بنا أن نرجع الى أوائل القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات المصريين . ففى ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين كانوا صنفين : الاول منهما يتكون من الغوازى وهن نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات

التركيات الانيقات فى ذلك المهد ، وهو عبـــارة عن سراويل واسعة وصديرية وحزام يغطيها كلها قفطان ذو اكمام مدلاة مشـــقوقة ، ويضعن فوف رءوسهن قلنسوة منبسطة . وقد تتبع لين أصولهن حتى العصر الرومانى . وكن مطلوبات للرقص أمام الضيوف الرجال فى حفلات الزفاف . وكتب لين‌الوقور « أما عن رقصهن فيكاد يكون خاليـــا من الاناقة ، وأهم ما يميزه هو هز الارداف هزا سريعا من جانب الى آخر »

وحيث أن التقاليد المحافظة النابعة من الدين فى‌ذلك المهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين ، فما بالك برقص النساء أمام الرجال حتى ولو كن من طائفـة احترفت هذه المهنـــة من قديم الزمان . فان ذلك استدعى ظهور الصنف الثـــانى من محترفى الرقص للتغلب على هذا الاعتراض واعتبره بعض الفيـــورين افضل قليلا من الاختلاط . وهذا الصنف يتكون من رجال من أهل البلاد يتزيون بزى النساء وينتحلون شخصيتهن ، وعلى ذلك يؤدون نفس الحركات التى وصفناها عند ذكر رقص الفوازى ، وعلى نغمـــات الصاجات مثلهن تماما ، وحتى لا يشتبه على البعض فيعتقد أنهم من‌النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباسا يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية ، يخلط بين ملبس الرجال وملبس النســـاء ، ويتـكون عادة من صديرية ضيقة وحزام مع نوع من « الجـونلات » .. الا أن منظرهم العام يوحى بانه نسائى أكثر مما هو رجالى لانهم يطلقون شعورهم ويجدلونها ـ كما تفعل النساء ـ على شكل ضفائر نسائية ، وينتفون شـعر الوجه عندما يبدأ فى الظهور ، وكانوا يقلدون النساء أيضا فى تكحيل العيون وصبغ الأكف بالحنة ، ثم انهم

بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم ، يتحجبون أثناء سيرهم فى الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل احكاما فى تقليد النساء . وكثيرا ما كانوا يفضلون على الغوازى للرقص امام الدور أو فى أفنيتها الواسعة فى مناسبات الزواج او انجاب الاولاد أو الختان ، وكثيرا أيضا ما كانوا يزاولون مهنتهم فى المهرجانات الشعبية العامة

أما رقص البطن المنتشر فى النوادى الليلية الحديثة (وفى القاهرة منها خمس وعشرون ناديا ليليا) فهو آخر مرحلة من تطور رقص الغوازى ، وبدلة الرقص ليست من تقاليد البلاد فى شىء ، انما هى اعتقادات خاطئة فى أذهان بعض مصممى الازياء الاوروبيين ابتدأت عندهم عند عرض منظر الرقص فى أوبرا « عايدة » . وهذه البدلة تبدى جزءا عاريا من الجسم بين غطاء الصدر النحاسي اللون وبين الجزء السفلي الشفاف . وفى عهد فاروق كان كل معجب براقصة يرمى تحت اقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتاخذ كل راقصة ما يلقى عليها من عملات وتثبتها فى بدلة رقصها كالترتر

وكانت المنطقة العارية من البطن أول ضحايا « التهذيب » الحديث ، فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطيه هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل . وحاول عبثا بعض ذوى الافكار النظرية خلق نوع من الفن « الخالص » من هذه الرقصة المثيرة للغرائز والتى تأخذ فى أسوأ حالاتها شكل هزات كأنها الرعاشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة على الطبول . وكثيرا ما نجد عازفا كفيفا فى الفرقة الموسيقية ، ولا يقتصر أداء رقص البطن على النوادى الليلية مثل الموجود فى فندق هيلتون ، بل يمكن مشاهدته فى أى

حفل زفاف فى المدينة حيث تهتز البطون العارية مع نفس الحركات والايماءات المتوارثة كما كانت من قبل على الدوام . ولا يزال فى الامكان استخدام الراقصين الرجال المتزيين بزى النساء ، وقد تركوا شواربهم تكبر وشعورهم تنمو الى جدائل طويلة وينتفون حواجبهم وصاروا يعرفون الان باسم « ابو الفيط » بدل اللقب الذى كان يطلق عليهم سابقا لانه صار الان نوعا من الشتائم والاهانات ذلك انه أصبح يطلق على المخنثين من أصحاب الشذوذ الجنسى

واذا كانت الفوازى والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر « الاد » أو الفريزة فان فرقة رضا للفنــون الشعبية تحظى بالقبول لدى « السوبرايجو» أو « الأنا » وكان السبب فى تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية مباشرة ، وعند وجودها فى القاهرة قدم السفير الصينى دعوة « لفرقة مصرية راقصة » أن تزور بلاده . وسببت هذه الدعوة حرجا حيث لا يمكن التفكير مطلقا أن ترد الزيارة فرقة من الفوازى أو المتشبهين بالنساء ، ومن ناحية اخرى لا توجد فرقة اخرى صالحة ، ولكن لم يلبث هذا الحرج طويلا حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة اخيه فريدة فهمى وكونا فرقة راقصة بسرعة تستحق الاعجاب ، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجمــاهير نتيجة لحبهم اياها . وقد تكونت هذه الفرقة فى مبدأ أمرها من طلبة جامعيين (وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عــام في باريس مع فرقة الفريدو الاريا الارجنتينية الراقصة) وتعرف الفرقة الان « بفــرقة الجمهورية العربية المتحدة لفنون الرقص الشــعبى » وكما جاء فى جريدة « الاراب اوبزرفر » عنها فان الفرقة

« قدمت فى السنة الماضية باليه كاملا باسم « عروسة النيل » تحكى قصة عاشقين قرويين ـ على غرار روميو وجولييت ـ ولكنها تنتهى نهاية سعيدة . وصار هذا الباليه محور عروض الفرقة فى تجوالها فى المانيـــا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفييتى حيث قدمت سبعة وعشرين عرضا ، واشتركت الفرقة فى يوغوسلافيا فى مهرجان للرقص الشعبى وحازت على الجائزة الاولى »

أما الفن الشعبى الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو ايضا تغييرا شاملا مماثلا لما حصل للرقص وهو يشبه عروض بانش وجودى فى بريطانيا ، وكلمة قرة جوز ـ وهى كلمة تركية تعنى «العيون السود» ـ كانت اسما لاحد مهندسى صلاح الدين ، ولكن لا نعرف كيف اطلقت على هذا الفن الذى تتوه بنا أصوله الاولى عند السهول الصحراوية على مشارف الصين . وكان القــراجوز يعرض على طريقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام الا ليلا كما ذكر لين فى كتابه المذكور . وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز فى حفريات فى الفيوم (على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة) وهى الان موجودة فى برلين ، وقد صنعت فى القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك . وتمتاز بيريه فى اليونان الان بعروض القراجوز فى شكل خيال الظــل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة اذا رغبنا فى مشاهدة هذا العرض فنشاهد اشكالا شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهى تلعب كوميديات غالبا ما تكون مخلة بالاداب . أما فى القاهرة فلا يزال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل « بانش وجودى » تصاحبه جلبة عالية ، ويطوف فى شــوارع المدينــة بصــحبة بعض البهــلوانات وعازفى الصندوق الموسيقى ـ البيانولا ـ الذى تزينه صــور

سيدات على الطريقة النابولية . وأعرف شخصيا اثنين ممن يحترفون هذا الفن من العرائس القفازية اللذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتهما ذات النبرات العالية نحو كشكيهما ذوى الالوان المبهرجة ، ويندمج الاطفال فى بعض الاحيان مع هذه العرائس الى درجة أن يقفز من بينهم طفل يحاول أن يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد أثارته ، الامر الذى يبعث السرور عند مرتشفى القهوة الجالسين على شرفات المقاهى

وكما أمكن تهذيب رقص الغوازى والمتشبهين بالنساء الى فن من الرقص الشعبى، كذلك أمكن تطوير القراجوز الى مسرح للعرائس تحت اشراف وزارة الثقافة . وكانت فرصته التى ساعدته على الظهور انشاء مسرح خاص بأنواره التى يمكن التحكم فيها . وفى يناير سنة ١٩٦٣ ألف صلاح جاهين ـ أحسن رسام كاريكاتورى وأضخمهم أيضا ـ رواية « حمار شهاب الدين » لهذا المسرح وهى قصة خرافية وقعت حوادثها فى بغداد ولكن على أحدث التقاليد . وكانت الاضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعا . ولكن بالرغم من براعة صلاح شاهين كزجال وليس كرسام كاريكاتورى فقط فان من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشترطوا عليه ألا يأتى بأى فحش فى القول أو عنف أو نكات ذات تورية . فكان هذا الوقار سببا فى فقدان كثير من المميزات الخاصة بهذا النوع من الفن والتى نجدها فى العروض الشارعية . وهذه الاخيرة التى لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر ـ أو هى تعرف بالغريزة ـ بديهية دورانتى أستاذ فن العرائس العظيم فى القرن التاسع عشر الذى يقول فيها «ماتؤديه العرائس هو أهم الف مرة مما تنطق به »

الفصل الثالث عشر

العلم والتعليم

ظلت القاهرة طوال ألف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم فى أفريقية ، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة ، ذلك لانها صدارة على عدد قليل جدا من معاهد العلم فى تلك القارة . ولكن هذه الميزة زادته جدارة فى المائة السنة الاخيرة

ويأتى تفوق القاهرة فى مضمار نشر العلم نتيجة لانشاء الأزهر فى السنة التالية لدخول الفاطميين الى مصر ، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والاسلام وافريقية ، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل فى قيام الازهر ونذكر اسمه كاملا فهو جوهر الكاتب الصقلى (١) ، وينطق المصريون الجيم فى اسمه جامدة ولا يعطشونها كما تعطش فى كثير من البلاد العربية

وقد اتسع الأزهر (جامع الازهر) كثيرا على مدى الأعوام والقرون ، أما الجامع فيحتوى على تعويذة عجيبة ، هى عبارة عن رسم لطيور موجودة فى أعلى أعمدة ثلاثة من أعمدته ، وذلك من أجل منع الطيور

---

(١) معروف فى كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلى لا بجوهر الكاتب . (المترجم) فهو صاحب السيف الذى فتح مصر للفاطميين

الحية من اتخاذ اعشاش لها داخل مبانيه . وكما بنيت كليات اكسفورد أصلا حول الكنائس والمحاريب (ولم تخطر فكرة انشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة الا فيما بعد) فكذلك كان المسجد هو النواة التى امتد الازهر حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبح لا شىء يحول دون زقزقة العصافير ان تنازع انصراف الاساتذة الى القاء محاضراتهم . ولكن على حين أن اكسفورد ــ التى قامت بعد الازهر ــ أخذت تتقدم وتتطور سريعا بعد القرن السادس عشر فقد بدا أن الازهر ظل راكدا ، كبلته التقاليد الموروثة وان اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة ، ولا يزال العلم فى الازهر يروع زائره الى اليوم حين يرى أستاذا مبجلا مهيبا يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الابسطة فى الجامع الكبير . ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلفيا ، فهى مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الاسلامى

أما الطلبة أنفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم ، ولكل قسم مكانه الخاص به ، للاقامة والدرس داخل الازهر ، وتسمى أمكنة الاقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة . والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة . واليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر :

رواق الصعايدة (مصر العليا) ــ رواق المجاورين (مكة والمدينة) ــ رواق أبناء السودان ودارفور ــ رواق الشوام ــ رواق أبناء جاوة ــ رواق أبناء الافغان ، رواق المغاربة (شمال افريقية) ــ رواق أبناء الصومال ــ رواق الاتراك ــ رواق الاكراد ــ رواق أبناء الهند ــ رواق أبناء بغداد ــ رواق أبناء النوبة ــ رواق أبناء

الواحات والفيوم . أما الايرانيون فلم يكن يفــد منهم احد لتمسكهم بالمذهب الشيعى ، فالازهر وان نشــأ على مذهب الشيعة قد تحول الى مذهب أهل الســنة بعد زوال حكم الفاطميين . حقا هيهات أن نجد فى الماضى أو الحاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (كالكاثوليكية فى المسيحية) تضم مثل هذا الحشــد الهائل من الطلبة الذين يضمهم الازهر من بلاد مختلفة .

أما تأثير الازهر ــ حتى فى أيام تخلفه ــ فعظيم ، لأن أئمة الدين فى المجتمعات الاسلامية المختلفة فى أنحاء العــالم اتخذوه منارا وعدوه ينبوعا لأصول الدين قبل تفرق المذاهب (كالارثوذكسية فى المسيحية)

وهناك مرحلتان رئيسيتان مر بهما الازهر فى محاولة تجديده ليلائم العصر ، الاولى بتأثير من الشيخ محمد عبده فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، اذ جعل للأساتذة مرتبات ثابتة دائمة ، وأضــاف بمجهوداته كليات جديدة . أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر ، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الازهر يعودون الى كل ركن من أركان أفريقية وآسيا غير مؤهلين الا لتدريس الدين واللغة العربية ، ورأى الرئيس جمال عبــد الناصر ومستشاروه أن فى استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة ــ كل واحد منهم فى موطنه ــ لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها ، بل كذلك بتــدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية

.. اذن يجب على الازهر ان يكون معهدا تقدميا يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية ، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الأسلامى . فكان

أن ظهرت حركة تشابه تلك التى أنتجت القسيس العامل خارج كنيسته للخدمة العامة عند الكاثوليك . والان نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الازهر ، كما سمح للبنات بالالتحاق به ، وهو أمر لم يكن يتصوره أحد حتى فى الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر

وفى سنة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جديدة جذرية وهى مشروع اقامة جامعة جديدة للازهر على مساحة ٥٠٠ فدان فى مدينة نصر ، وهى ضاحية سريعة النمو لها ادارتها الذاتية وتقع شمال العباسية ، كما ستخصص ١٥٠ فدانا أخرى فى القبة لانشاء كلية اسلامية للبنات تابعة للازهر

ان تطور الازهر وهو يضم ٤٠ الف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا انما هو — من احد الجوانب — نتيجة تحد من نظام تعليمى آخر فى مصر ، نظام علمانى صرف ، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة ، ويدرسون وفقا لمنهج سلفى لم يتبدل الا قليلا منذ القرون الوسطى ، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الافرنجية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسى ، ولم يكن بين التيارين الا اتصال قليل أو قل لم يكن بينهما اتصال على الاطلاق

وترجع هذه الثنائية فى نظام التعليم الى المدارس العسكرية التى انشأها محمد على ، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر ، منذ انشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ الى اقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧ ، وامداد هذه المعاهد العليا بالطلبة يستند الى نظام تعليمى بين

ابتدائى وثانوى .. هو الآن اجبارى وبالمجان . ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية هى أكبر من مثيلتها فى بريطانيا اليوم ، ولكن هذا لايعنى أن المستوى يرتفع الى نفس الدرجة أبدا ، ولكن احصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣ ــ ١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلا بلغ عدد الطلبة فى المدارس ٦٠٨ الف طالب منهم ٢٦٢ ألفا من الطالبات ، ويبلغ مجموع عدد الطلبة الملتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا فى جامعتين فى القاهرة من أربع جامعات (جامعة القاهرة التى حل اسمها محل جامعة فؤاد ، وجامعة عين شمس) ٧٢ر٩١٣ طالبا منهم ١٦ الف طالبة أو أكثر قليلا ، وهذه الارقام وان بينت أن النساء لم يأخذن قسطهن فى مجال التعليم كاملا ، الا انه يبين فى نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات . وكل النساء اللاتى يقمن بدورهن المتزايد الفعال فى الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات ، وخير مثل منهن هى حكمت ابوزيد الوزيرة (السابقة) للشئون الاجتماعية التى كان من اعبائها أن تنشىء ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل فى جميع انحاء الجمهورية

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزا تعليميا لافريقية ، فانها ــ فضلا عن منح عشرات الالوف من الشبان والشابات الافريقيين منحا دراسية فى معاهدها ــ تستغل قوة الاذاعة التعليمية فتذيع من محطة الاذاعة المصرية « برنامج صوت أفريقية » يوميا باللغات الامهرية والسواحلية ، واللنجالا والسيسوتو ، والنيانجا ، والصومالية ، والفولانية ، والهوسا ، واخيرا باللغتين الانجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته احدى هذه اللغات

الفصل الرابع عشر

القاهرة .. والفراعنة

يمكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبيا ، فليست القاهرة فرعونية فى شىء ولكنها تحوى المتحف المصرى فى ميدان التحرير ، ويضم أفخر مجموعة من الاثار المصرية فى العالم . ويمكنك فى مقابل قرشين التجول فى أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدات منذ عرف الانسان معيشة المدن . ويمر سيل لاينقطع من الزوار من كل أنحاء العالم أمام أثاث توت عنخ آمون المتين او يواجه موميات رمسيس الثاني وسيتى الاول (وكانت الموميات فى عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح ، فقد اعتبر هذا الملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن تضفى عليهم جلالة الملوك ، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت ـ نظير رسم قدره ٢٥ قرشا ـ بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض الموميات حاليا) . ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسى لحضور ٤٠٠،٠٠٠ زائر سنويا للبلاد . ولكن الاسماء التى أشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد أنشاه أوجست مارييت الفرنسى وصمم مبانيه مارسل بورجنون عالم المصريات ، والدراسات التى بدات بأوروبيين أمثال شامبليون وماريت لم تشمل المصريين باعداد كبيرة الا أخيرا ..

واذا كانت القاهرة مدينة اسلامية وليست فرعونية ، فانها فى نفس الوقت مركز باهر للدراسات الفرعونية . وترجع جاذبيتها العظمى فى هذا المجال – حتى للسائح الخالى البال – الى قربها من الجيزة وسقارة . وهناك عرض بالصوت والضوء عند الاهرام يقام كل ليلة يسترجع الوف السنين التى سبقت البطالسة . ويستقبل ابوالهول – وقد تجلى بعد ازالة الرمال من حوله – أشعة الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المدينة . ويمكنك أن تشاهد – وأنت واقف على جبل المقطم عند الضاحية الجديدة – سلسلة من الاهرامات تمتد جنوبا حتى نهاية البصر . واذا وصلت الى محطة القاهرة قادما من الاسكندرية أو بورسعيد فستشاهد خارجها تمثالا ضخما لرمسيس الثانى – الذى اكتشف قريبا فى سقارة – واقفا وحيدا مديدا تخرج من أقدامه نافورات من المياه

ولكن التاثير الواضح للفراعنة على القاهرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المطاعم أو ترسم على بعض الاقمشة

ولعلى اكون مخطئا فى ذلك . فهناك تأثير ايجابى فرعونى واضح ، ذلك أن الشابات يضعن الكحل حول عيونهن التى هى واسعة أصلا . كما أنهن – بحيلة فنية – يتوصلن الى ارسال شعورهن السوداء على نمط شعر نوفرت الجالسة على الدوام بجوار زوجها الامير رع حتب فى الغرفة رقم ٣٢ بالدور الارضى فى المتحف .

فهرس

صفحة

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

هذا الكتاب نموذج شائق وطريف لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الاجانب هواة المدن الذين يحاولون بذكاء ان يستقطروا روح امة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية . ان المؤلف لا يقدم للقارىء – فى صورة مختصرة – معلومات كثيرة استقاها من المراجع ، وانما يحكى باسلوب ادبى ما احس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض أحاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية .. انه رأى الالوان واطياف الالوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والاسطح والجدران واكوام القمامة . فالكتاب اذن – كما يقول الدكتور جمال حمدان الذى قدم للكتاب ببحث قيم ممتع بعنوان ((القاهرة الكبرى .. دراسة فى جغرافية المدن)) – الكتاب قصة رحلة فى الزمان والمكان طولها مدينة وعرضها زيارة ولكنها قصة مدهشة ثرية مع ذلك وممتعة وجذابة الى ذلك . وأحيانا يكون الكاتب الاجنبى أقدر من ابن البلد على الرؤية لانه ليس مثله ضحية الالفة والعادة . وسيجد ((ابن القاهرة)) فى الكتاب أشياء كان يقع عليها بصره من قبل ولا ينتبه اليها .. !

١٠ قروش

كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

تاريخ الفكر المصرى الحديث

الفكر السياسى والاجتماعى

دكتور لويس عوض

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

٢١٧ ــ محــرم ١٣٨٩ ــ ابريل ١٩٦٩

No. 217 - Avril 1969

مركز الادارة

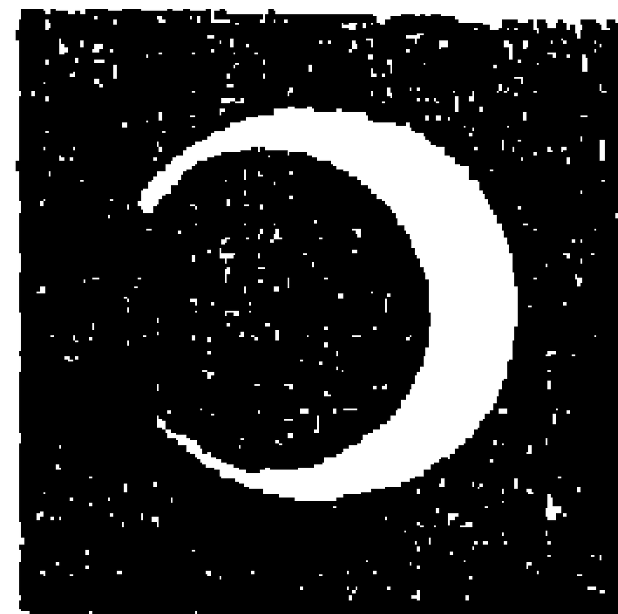
دار الهــلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ــ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ــ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخــارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ــ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ــ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحــددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان حلمي التوني

دكتور لويس عوض

تاريخ الفكر المصري الحديث

الفكر السياسي والاجتماعي

(٢)

دار الهلال

الطبعة الثالثة

الباب الأول

عبد الرحمن الجبرتي

١ ــ عبد الرحمن الجبرتى

منذ ان دخلنا امتحان ٥ يونيو بدأ عديد من الكتاب فى استقصاء الاسباب والنتائج . وفى اعتقادى ان من أهم ما كتب فى باب التفتيش فى أعماق النفس ، دعوة بعض الكتاب الى اعادة النظر فى وضعنا الحضارى والى اقامة كياننا بمقومات الدولة الحديثة ، وقد كان جوهر رأيهم ان سر ضعفنا هو عدم استكمالنا لادوات الحياة الحديثة .. فليس منا من يجهل ان مصر لم تخرج من ظلمات العصور الوسطى التى نشرتها الامبراطورية العثمانية فى كل ما ملكت من الامصار ، الا منذ مائة وسبعين عاما ، حين دخلت مصر لاول مرة فى علاقات مباشرة مع اوربا . وهى فترة وجيزة فى تاريخ الشعوب والحضارات . فأوربا نفسها قد بدأت عصر نهضتها نحو عام ١٥٠٠ ، أى منذ نحو خمسة قرون ،واذا كانت حضارتها قد تجاوزتنا نضجا فما ذلك الا لانها سبقتنا الى بناء الدولة الحديثة بنحو خمسمائة عام ..

وهذه محاولة متواضعة لرصد تاريخ الفكر المصرى الحديث ومكوناته .. متى احتكت مصر بأوربا ؟ وكيف احتكت ؟ وما اثر هذا الاحتكاك فى حياتنا ؟ ان من يريد ان يدعم بناء الدولة الحديثة فى مصر لا مناص له من استقصاء مقوماتها فى تاريخنا ليعرف اى شوط قطعنا

فيعرف ما بقى امامنا لبلوغ الهدف . ولنبدأ حديثنا بالعلم الحديث وفتوحاته . ومن خلال مفكرينا وكتابنا عبر القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين ندرس كيف عرف المصريون لاول مرة بالعلوم الوضعية والتكنولوجيا وكيف استجابوا لهابعد ان كانوا لايعرفون الا الروحانيات .. وهذا هو شيخ المؤرخين ، عبد الرحمن الجبرتى ، منه نتعلم شيئا كثيرا

كانوا ثلاثة من جيل واحد ، هم عبد الرحمن الجبرتى وحسن العطار واسماعيل الخشاب،قدر لهم ان يجاوروا وان يتجاوروا فى الازهر فى ذلك العصر الغريب العجيب الرهيب عصر الثورة الفرنسية ، وان يعاصروا مجىء نابليون بونابرت الى مصر ، وان يتقلدوا ارفع المناصب فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر والشرق العربى جميعا ، فالاول عين وزيرا فى عهد عبد الله مينو ، او عضوا فى الديوان كما كان يسمى فى ذلك العهد . والثانى عين شيخا للازهر فيما تلا ذلك من سنوات . والثالث كان سكرتيرا لمجلس الوزراء فى عهد الحملة الفرنسية أيام ولاية عبد الله مينو . ولكن قدر لهم فوق كل شىء ان تقترن اسماؤهم بوصفهم واضعى اسس الفكر المصرى الحديث ، والممهدين الحقيقيين لانتقال العقل المصرى من ظلام العصور الوسطى الى نور العصر الحديث، الجبرتى بتاريخه العظيم « عجائب الاثار فى التراجم والاخبار » والعطار والخشاب بدعوتهما الى ضرورة الاخذ بالعلوم العقلية والوضعية حيث كان يكتفى بالعلوم النقلية وبعلوم الدين . باختصار كان هؤلاء الثلاثة هم أول من وضعوا اساس الفكر الانسانى والعلوم الانسانية فى مصر والعالم العربى ، وعلموا المصريين والعرب عامة ان

الدنيا ليست مجرد معبر للآخرة لان للانسان قيمة في ذاته . وان من اهمل شئون دنياه اهمل في ابتغاء آخرته ايضا ، وان العلم والفن والفكر هي سبل الانسان لتصحيح دينه ولتصفية معتقداته الدينية من الخرافات ومن كل ما يشل فيه قدراته الخلاقة . وقد آلت اليهم قيادة المثقفين في ذلك العصر الغريب العجيب الرهيب، فقادوهم الى بناء الدولة الحديثة وكانوا بمثابة التمهيد العظيم لظهور ذلك العبقرى العظيم رفاعة الطهطاوى ، ابى الفكر المصرى الحديث . ولقد كانت مهمتهم أشق من مهمته لان الرواد يرتادون المجاهل اما البناة فينشئون في ارض واضحة الانقاض

ولد عبد الرحمن الجبرتى عام ١٧٥٤ وتوفى عام ١٨٢٥ ، فهو قد عاش اذن واحدا وسبعين عاما عاصر خلالها عصر الترك والمماليك ثم عصر الحملة الفرنسية على مصر ثم عصر محمد على ، وكان له موقف معروف من كل عصر من هذه العصور . اما تنديده بعصر الترك والمماليك فتفيض به كل صفحة من صفحات تاريخه « عجائب الآثار » ، واما رأيه في الحكم الفرنسى وفى الحضارة الفرنسية فقد اختلط فيه السلب والايجاب بسبب موضوعيته واستقلاله في الرأى عن عواطف الغوغاء وعن ترهيب الحكام وترغيبهم ، حتى وصفه الفرنسيون بانه شيخ متعصب ووصفه ابناء جنسه بانه نصير الفرنسيين — واما موقفه من محمد على باشا فقد كان واضحا وقاطعا . كان يعتقد ويجاهر بالقول والقلم منذ ولاية محمد على ١٨٠٥ حتى وفاته هو في ١٨٢٥ ان محمد على مجرد مغتصب لحكم مصر من امرائها الشرعيين وهم المماليك المصريون ، وان عهده رغم كل ما

كان فيه من انشاءات واصلاحات كان عهدا يقوم على الظلم والجور حتى لقد قيل ان محمد على ارسل اليه من قتله عام ١٨٢٢ ، وهى رواية غير ثابتة . وليس معنى هذا ان الجبرتي كان يناصر المماليك فتنديده بمفاسدهم يتفجر فى كل صفحة من صفحات تاريخه ، وقد حملهم مسئولية دخول الفرنسيين مصر فى مقدمة كتابه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » حيث يقول ان الدولة « استنامت الى المماليك اتكالا على شجاعتهم فخربوا الثغور وشادوا القصور » اى ان المماليك خربوا البلد ، فى سبيل حياة البذخ والملذات التى كانوا يحيونها ، كما حملهم هذه المسئولية لتحرشهم بتجارة فرنسا وتجارها ولاسيما فى ثغور مصر ، لحساب الانجليز

وقد ظلت اعمال الجبرتي مصادرة ومحظورا طبعها وتداولها طوال عصر محمد على واخلافه حتى رفع عنها الحظر فى عهد الخديو توفيق ، حين نشر الجزءان الثالث والرابع من « عجائب الآثار » ثم نشر الجزءان الاول والثانى فى عهد الخديو عباس حلمي . وقد ظهرت ترجمة فرنسية كاملة لهذا الكتاب العظيم ، نشرت فى تسعة اجزاء بين ١٨٨٨ و ١٨٩٦ وهى بقلم شفيق منصور بك «يكن» وعبد العزيز كحيل بك وجبرائيل نقولا كحيل بك واسكندر عمون افندى . وفى مقدمة هذه الترجمة الفرنسية ان الجبرتي خنق فى طريق شبرا فى ١٨ يونيو ١٨٢٢ وهو عائد من قصر محمد على ، ارسل اليه محمد على من خنقه وربطه بحبل الى رجل حماره .. وربما كان هذا الكلام ترديدا لاشاعة قديمة مختلقة سرت عند موت خليل بن الجبرتي بأن محمد بك الدفتردار صهر محمد على اغرى بعض الاشقياء بالجبرتي نفسه

بعد ان اطلع على اجزاء من تاريخه واستأذن محمد على في الفتك به ، ولما لم يظفر بالوالد فتك بالولد . وفي رواية أن قاتل خليل الجبرتي هو سليمان أغا السلحدار . وأيا كان الامر ففي مدونات القرن التاسع عشر ما يشير الى ان القتيل هو خليل الجبرتى وليس عبدالرحمن الجبرتي .. فالكساندر كردان وهو مترجم القنصلية الفرنسية الذى ترجم الى لغته « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ونشره فصولا فى الجريدة الاسيوية « مارس ١٨٣٤ ويوليو وديسمبر ١٨٣٧ ثم نشره كاملا فى كتاب عام ١٨٣٨ بعد وفاة الجبرتى بثلاث عشرة سنة ، يذكر فى مقدمته ان احد ابناء الجبرتى كان يعمل لدى محمد على باشا وان بعض القتلة هاجموه وفتكوا به فى ١٨٢٣ وهو فى طريقه من شبرا الى القاهرة ، وان الجبرتى نفسه بكاه حتى فقد بصره ولم يعش بعده طويلا

وفى الرحالة الايطالى ج.ب. بروكى أنه زار الجبرتى فى ديسمبر ١٨٢٢ بداره فى بولاق فوجده اعمى قابعا فى داره . وهذا جعل قصة عمى الجبرتى سابقة على موت ولده خليل . وفى لين أن الجبرتى مات فى ١٨٢٥أو١٨٢٦ « بعد وصولى الى القاهرة بفترة وجيزة » . وايا كان القول فانالكلمة الاخيرة فى موت الجبرتى او مقتله لم تكتب بعد لتقلب أهواء السياسة على تاريخ البلاد طوال عهد اسرة محمد على التى حكمت مصر نحو قرن ونصف قرن .اما تاريخ الجبرتى ، فهناك ما يثبت انه كان معروفا او متداولا ولو فى اجزاء منه ، فى عهد محمد على نفسه

ولد عبد الرحمن الجبرتى لاسرة جدها الأعلى لأبيه رجل حبشى الاصل اسمه زينالدين عبدالرحمن الجبرتى من بلدة جبرت فى بلاد الحبشة ينسب نفسه الى

مسلم بن عقيل بن ابى طالب وقد نزح زين الدين الجبرتى هذا الى مصر نحو عام ١٦٠٠ بعد ان اقام فى مكة زمنـــا وجـــاور فيها ، ودخل الازهر وتولى مشـــيخة رواق الجبرتية ثم اعقبه فى مشيخة هذا الرواق ولده شـــمس الدين الجبرتى الذى انجب نور الدين الجبـرتى والد حسن الجبرتى الذى كان مفتى المسلمين وانجب برهان الدين الجبرتى ، وهو ابو حسن الجبرتى والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ، كل هذه الانساب قصها الشيخ حسن الجبرتى على ولده عبد الرحمن وقص معها كثيرا من اخبار هذه الاسرة المجاورة العارفة باصول الدين ، ومن بين افرادها من نسبت اليه كرامات الواصلين . ومع هذه الانساب كان حسن الجبرتى يروى على ولده الصبى عبد الرحمن الجبرتى سير من عرفهم من علماء الازهر او من المماليك والكشاف وغيرهم من رجالات الدولة ورجالها

وكان حسن الجبرتى من ثراة الازهريين اختلطت فيه شخصية العالم بشخصية رجل الاعمال . فكان يملـك ثلاثة مساكن فى القاهرة احدها فى الصنادقية المتاخمـة للازهر والاخر فى بولاق والثالث فى الساحل يطل على شاطىء النيل . وكانت له فى كـــل بيت زوجة واولاد ومماليك وعبيد وجوار ، وقد انجب فى حياته نحـــو اربعين ولدا وبنتا ماتوا جميعا فيمـا خلا عبد الرحمن، وهو ابن جارية بيضاء عرضت عليه فاشترتها بمالها من الحجاز زوجته بنت رمضان شلبى المعروف بالخشاب حين خرجت للحج مع زوجها ، وجاءت بها الى مصر حيث اعتقتها وزوجتها من زوجها . وقد ماتت الزوجة والجارية فى يوم واحد . كذلك كانت لحسن الجبـرتى اطيـان ونظارات على اطيان فى ابيار بالقرب من كفر الزيات وفى

غير آبيار • وكان فى الوقت نفسه أستاذا فى الازهر يعلم الفقه والعلوم الحكمية والرياضية . وكان من تلاميذه المعروفين الشيخ محمد اسماعيل النفراوى والشيخ عبد الرحمن العريشى ، شيخ رواق الشوام الذى غدا فيما بعد شيخا للازهر ، والشيخ محمود الكردى والشيخ عبد الرحمن البشبيشى والشيخ محمد الفرماوى والشيخ محمد الصبان والشيخ موسى الجناجي والشيخ محمد عبد ربه العزيزى والشيخ الهلباوى ، وهم جيل اوسط من العلماء درس الفتى عبد الرحمن الجبرتى على نفر منهم حين جاور فى الازهر بعد ان اتم تعليمه الاول فى مدرسة او كتاب السنانية وهى على ناصية الصنادقية .. وفى الازهر الحق حسن الجبرتى ابنه عبد الرحمن برواق الشوام ليدرس على الشيخ العريشى مذهب الحنفية .. غير هذا نعرف عن حسن الجبرتى ان ثروته فى الصنادقية والفورية ومرجوش جاءته عن طريق جدته لابيه ، وهى مريم بنت محمد المنزلاوى ، ومن زوجته بنت اغاباش حاكم الطور والسويس ، وان ثروته فى بولاق والساحل وغيرهما جاءته من زوجته الاخرى بنت رمضان شلبى المعروف بالخشاب . كذلك نعرف عنه انه كان مهتما بالعلوم الوضعية والهندسية ، فقد كانت فى داره بالصنادقية الى جانب مكتبة فى علوم اللغة والدين بعض الاجهزة الهندسية كالاسطرلاب وبعض أدوات الصناعة ، وانه كان مهتما بضبط الموازين والف فى ذلك كتابا اسمه « العقد الثمين فيما يتعلق بالموازين » ، وانه كان يرشد السباكين والحدادين وقبانى القاهرة الى ماينبغى عمله لضبط الموازين ، ولم يكن فى ذلك مفوضا من احد وانما على نفقته الخاصة . كذلك الف الشيخ حسن الجبرتى

« الدر المختار » و « شرح لقطة العجلان » و « حاشية على شرح الاربعين النووية للشبشيرى »

فى هذا الجو الدينى والعلمى نشـــا عبد الرحمن الجبرتى . نشأ بين علماء الازهر الذين خالطهم فى الازهر او فى بيته وسمع باخبارهم جيلا بعد جيل من ابيه وبين المماليك والكشاف والخشداشية والسناجق ، أو على الاصح بين اشباحهم واخبارهم لكثرة ما كان ابوه يروى عليه من اثارهم . فوجد عبد الرحمن الجبرتى نفســه وهو بعد فى سن العاشرة ، سن التمييز كما يقول ، بين عالمين هائلين متجاورين ، احدهما قوامه العلــم والدين وابطاله مشايخ لا حصر لهم كالزرقانى والملوى والشربينى والصعيدى والدردير والعــدوى والحفنى والادكاوى والدمنهورى الخ ، بعضهم عاشت ذكراه وبعضهم انطوى فى غبار الزمان ، والآخر قوامه الســياسة والحــرب والدسيسة والمال والدم المهراق ، وابطاله المماليــك ومن يلوذ بهم من محمد بك جركس الى اســماعيل ايواظ الى ذى الفقار قنصوه الى عثمان كتخــدا الى محمــد قطامش الى عثمان بك ذى الفقار الى ابراهيم كتخدا بك ورضوان الجلفى بك الى على بك الكبــير ومحمد بك أبى الدهب الى اسماعيل بك بارم ديله الى يوسف بك القرد الى أبو مناخير فضة ، وكل أولئك الفرسان الاجلاب الظلمة الذين تكونت منهم الطبقة الحاكمة فى مصر فى ظل الامبراطورية العثمانية وشــاءت فطرة هـذا الشـعب العظيم المغلوب على أمره أن تسخر منهم بأمثال هذه الالقاب المضحكة عساها أن تجـد فى هذه السخرية بعض العــزاء . وقد كان واضحا كل الوضوح أنه كان يتحرك فى عالمين منفصلين كل الانفصال كما تدل على ذلك أسماؤهم وأعمــالهم : عالم من المثقفين المصريين المباهين باصلابهم الريفية ولو كانوا من أهل الحضر ،

وعالم من الفرسان الاعاجم الاتراك والشراكسة والقوقازيين والاكراد الخ .. ممن انبتت وشائجهم بهذه الارض الطيبة غيرما كانوا ينهبونه من خيراتها بالسيف وبالقانون وباسم السلطان خليفة المسلمين فى استانبول

وقبل انَ يموت الشيخ حسن الجبرتى زوج ابنه عبد الرحمن ، وهو بعد غلام لم يتجاوز الرابعة عشرة ، ولكن عبد الرحمن الجبرتى لا يذكر لنا شيئا عن زوجته الاولى هذه غير أن الشيخ عبد الله الادكاوى هنأ أباه بهذا الزواج فى بيت سخيف من شعر هذه الفترة السخيف • أما زوجته التى نسمع عنها شيئا ، فقد تزوجها الجبرتى وهو فى نحو السابعة والعشرين من عمره ، وهى ربيبة صديقه على عبد الله درويش الرومى ، قال انه أخذها بعيالها ، وانه أوى صديقه فى بيته لضيق ذات يده . كذلك نعلم ان أباه توفى عام ١٧٧٥ ، أى حين كان الجبرتى فى الحادية والعشرين من عمره ، وانه تخرج فى الازهر وهو فى الثانية والعشرين ، أى عام ١٧٧٦ . فلما مات أبوه قام الجبرتى برحلة فى الوجه البحرى زار فيها كفر الزيات وطنطا وفوه ورشيد وادكو ودمياط والمنصورة ، ويظن انه نزل بابيار لتفقد مزارع الاسرة وانه عرج على أبو قير ، كما يرجح انه قام فى تاريخ ما برحلة فى الوجه القبلى ، وذلك لدقة المامه فى كتاباته ببلاد الصعيد . ولا يذكر الجبرتى صراحة انه أدى فريضة الحج ، ولكنه يذكر عرضا انه اطلع بنفسه على شهادة ميلاد رضوان كتخدا ابراهيم بك الكبير فى مكة ، وهذا يفيد انه زارها

وربما كان أهم شىء وجه الجبرتى الى كتابة التاريخ هو صلته بالسيد محمد مرتضى الزبيدى ، فقيه اللغة فى زمانه وصاحب المعجم المشهور « تاج العروس » . فقد هبط

الزبيدى مصر ، وهو أصلا من اليمن ، عام ١٧٥٤ ، أى عام مولد الجبرتى ، وسكن فى الصاغة ودرس فى الازهر وفى جامع شيخون ولازمه الجبرتى فى شبابه وقرأ عليه مع نفيف من شباب الازهر وشيوخه ، وأجدرهم بالذكر حسين الدرب شمسى ، واحمد يوسف الشنوانى ، واسماعيل وهبى المعروف بالخشاب ، والشيخ السجاعى ، كما تتلمذ عليه بعض الامراء من أمثال أيوب بك الدفتردار ، ومصطفى بك الاسكندرانى . وفى الثمانينات والتسعينات من القرن السابع عشر طوى الموت أكثر من عرف الجبرتى من علماء الازهر الراسخين ، ماتوا الواحد بعد الاخر ، وبقى الزبيدى وحده العلم الفرد والقطب الاكبر ، وذاع صيته فى الامصار فتجبر وتأله فكان يأذن لمريديه من المغاربة أن يسجدوا ويقبلوا الارض بين يديه وكانوا يرون فيه « القطبانية العظمى » . وخلا الازهر من العلماء الراسخين ، ولكن جيلا جديدا من العلماء الشبان كان قد اخذ يتكون فيه ، من أمثال الشيخ ابى الانوار السادات والشيخ الشرقاوى والشيخ محمد الامير والشيخ المهدى والشيخ الفيومى ، وهم ذلك الجيل الخطير الذى تفتح للحضارة الجديدة واضطلع بمسئوليات الحكم حين حطم بونابرت ذلك السور العثمانى العظيم الذى حال دون اتصال مصر بأوروبا ثلاث قرون كاملة ، منذ فتح السلطان سليم مصر فى ١٥١٧ ، وبذلك كانوا أول من وضع أساس الدولة الحديثة فى مصر قبل محمد على باشا بسنوات

وقد عرض الزبيدى على تلميذه ومريده الجبرتى نحو عام ١٧٩٠ أن يعاونه فى وضع كتاب عن أعلام القرن الثامن عشر من مصريين وحجازيين ، فدهش الجبرتى لهذا الطلب وأخذه زهو عظيم لانه رأى ان هذا العمل الكبير سوف

يقرن اسمه باسم أستاذه ويخلد أسمه فى التاريخ . وهكذا أخذ الجبرتى يعد البطاقات بالاعلام والحوادث الجسام ، وكان يسميها « طيارات » ويحشد فيها كل ما تذكره من أحاديث ابيه عن العلماء والحكام . ثم أخذ يستوفى مراجعه على طريقة أقرب الى المنهج العلمى فعثر فى مكتبته على كتاب فى التاريخ بقلم مؤرخ مغمور هو أحمد عبد الغنى شلبى ، وعلى كتاب « الخلاصة » للاميني ، وعلى رسالة « شرح الصدر فى غزوة بدر » لعبد الله الشرقاوى ، وكانت فى ذيلها نبذة عن تاريخ ولاة مصر الى أيام الوالى على باشا الحكيم . ثم أخذ يجمع سير شيوخ الازهر وعلمائه وسير الادباء والشعراء وسير الولاة والمماليك والسناجق « أى المحافظين » واتسع عليه الامر واختلط . ثم استعان بالشيخ اسماعيل الخشاب ، وكان قاضيا ، وطلب اليه ان يحقق له تواريخ الاعلام وأعمارهم من الصكوك وحجج الملكية ، فقبل الشيخ الخشاب . وظل الجبرتى يعد البطاقات أو الطيارات ويدون الكراريس ويعرضها على مرتضى الزبيدى حتى توفى الزبيدى بالطاعون بعد عامين من بدء العمل . وبعد موت الزبيدى اكتشف الجبرتى سر هذا العرض السخى الذى عرضه عليه أستاذه باسم العلم . فقد جاءت الجبرتى رسالة من مفتى دمشق يطلب فيها اليه أن يوافيه بكل ما قد أعد هو وأستاذه من أوراق وجمع من وقائع . فادرك أن الزبيدى انما كان يعد معجم الاعلام هذا بتكليف من محمد خليل المرادى الحسينى قاضى دمشق ، وان هذا القاضى انما ندب الزبيدى للقيام بهذا العمل لانه من غير أهل مصر ، وبالتالى فهو كفيل بأن يثبت رأيه فى الناس وفى الاحداث بلا تحفظ . وكانت مشكلة الجبرتى هى كيف يحصل على أوراق

الزبيدى وكيف يسترد اوراقه الخاصة من مكتبته بعد وفاته . وحين باعت ارملة الزبيدى مكتبته اشترى الجبرتى « الكتب والدشتات » وكان بينها عشر كراريس من التراجم مدونة بقلم الزبيدى ، ولما تصفحها الجبرتى وجدها عديمة القيمة ، لانها كانت تتناول سير أفاقين من المغرب والشام والحجاز والسودان . أما المفتى فقد أتم كتابه بعنوان « سلك الدرر فى أعيان القرن الثامن عشر » قبل موته فى أوائل التسعينات . وهكذا انتهت قصة هذا الكتاب ، ولكن فكرة التأريخ لرجالات مصر وأيامها لازمت الجبرتى بعد ذلك

حين دخل بونابرت القاهرة بعد انتصاره فى معركة امبابة فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ كان الجبرتى فى الرابعة والاربعين من عمره . وكان قد زامل حسن العطار واسماعيل الخشاب فى حلقات الدراسة فقرأوا معا على الشيخ محمد الصبان وعلى الشيخ مرتضى الزبيدى وعلى الشيخ محمد الامير النحو وفقه اللغة ، ونشأت بينهم صداقة حميمة رغم اختلافهم فى المشارب والتكوين من بعض الوجوه

فلما أصدر بونابرت مرسومه فى ٢٥ يوليو ١٧٩٨ بتشكيل أول مجلس للوزراء عرفته مصر من علماء الازهر ، كانت قائمة الوزراء بحسب ما ورد فى الجبرتى الذين اختارهم العلماء لتقلد السلطة فى البلاد تشمل تسعة أعضاء هم الشيخ عبد الله الشرقاوى « رئيسا للديوان والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ احمد العريشى والشيخ يوسف الشبراخيتى والشيخ محمد الدواخلى ، أما الشيخ محمد المهدى فقد اختير سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء

فأين كان الجبرتي في تلك الفترة العصيبة ؟
روى اهل الجبرتي بعد وفاته لالكساندر كردان ان الجبرتي غادر القاهرة عند دخول الفرنسيين وقصد الى ابيار ، وان بونابرت استدعاه وعينه عضوا في الديوان . وهذه الرواية صحيحة في شطرها الاول غريبة في شطرها الثاني . فقد هرب الجبرتي من القاهرة بين العلماء الهاربين ، وعاد من ابيار بعد غيبة عشرة أيام بناء على طلب بونابرت الذي كلف الشيخ الصاوي والشيخ الفيومي بان يكتبا الى العلماء الهاربين بالعودة الى القاهرة مقابل عهود كتبها بونابرت لهم بالامان . ولكن مرسوم ٢٥ يوليو والقائمة الواردة في الجبرتي نفسه لا يرد فيها اسم الجبرتي بين اسماء الوزراء . والمرة الاولى التي يرد فيها اسم الجبرتي وزيرا ، هي في تشكيل الديوان بعد مقتل كليبر ؟ أي في عهد عبد الله مينو . كذلك لم يرد للجبرتي اسم في تشكيل البرلمان الاول الذى أنشاه بونابرت لا في صورته الموسعة قبل ثورة القاهرة الاولى ولا في صورته المختزلة بعد ثورة القاهرة الاولى . فهل كان الجبرتي يعيش في عزلة عن السياسة في عصره ؟ وهل يستخلص من عدم مشاركته في السلطة ابان المرحلة الأولى من الحملة الفرنسية انه كان من المقاطعين للحكم الفرنسي حتى ولاية عبد الله مينو ثم جد ما أقنعه بجواز التعاون مع الفرنسيين بعد مقتل كليبر.

الحق أن هذه حلقة غامضة في سيرة الجبرتي . ولكن موقفه وسلوكه ايام بونابرت وكليبر كما حددهما لنا بنفسه في « عجائب الاثار » ، يدلان على انه لم يكن له موقف معين معاد للحكم الفرنسي أكثر من سواه من العلماء سواء في الفكر أو في الحياة . فهو حسب ما روى لنا وكما يتجلى

فى كتابه كان شديد الاهتمام منذ اللحظة الاولى باستقصاء كافة اخبار هذا العهد الجديد وجمع كافة الوثائق الخاصة به ما استطاع الى ذلك سبيلا بروح المؤرخ الموضوعى، الراغب فى المعرفة وبروح المتامل اليقظ المحلل لما يدور حوله من احداث ، وليس بروح الوطنى الملتهب الرافض لكل ما حوله من افكار وافعال ، ولا بروح الثائر المتعصب للخلافة العثمانية لا يرى غير حكمها حكما شرعيا للبلاد . وهو منذ اللحظة الاولى يعلن لنا انه خالط علماءهم وبعض رجالاتهم وانه يحدثنا عنهم حديث العارف بأفعالهم المطلع على افكارهم

فمنذ اللحظة الاولى أحس الجبرتى انه بازاء حضارة جديدة أرقى من حضارة الترك والمماليك ، لا فى مقوماتها المادية فحسب ، ولكن فى كثير من قيمها الاجتماعية ونظمها السياسية . ولاشك أن الجبرتى قد اثبت تحفظاته العنيفة بالنسبة الى بعض القيم الاخلاقية والروحية والاجتماعية التى جاءت بها الحملة الفرنسية سواء كما رآها فى الفرنسيين أنفسهم او كما رآها فى المصريين المتأثرين بهم ، ولكن هذا لم يحل دون وقوفه موقف المبهور بعديد من المقومات المادية والفكرية والاخلاقية لهذه الحضارة الجديدة سواء على المستوى الاجتماعى أو على المستوى الفردى ، ولم يخش ملامة معاصريه بعقد المقارنات بين فضائل الفرنسيين ورذائل الترك والمماليك فى عديد من الوجوه

انظر مثلا الى الجبرتى وموقفه من المجمع العلمى المصرى الذى انشاه بونابرت بمرسومه المؤرخ ٢٢ اغسطس ١٧٩٨ من ثمانية واربعين عضوا ، منهم اثنا عشر عضوا فى قسم الرياضيات ، واثنا عشر عضوا فى قسم العلوم الطبيعية ، واثنا عشر عضوا فى قسم الاقتصاد واثنا عشر عضوا فى

قسم الاداب والفنون ، وهو أول أكاديمية للعلوم والفنون والاداب عرفتها مصر الحديثة ، وقد ضمت صفوة العلماء والفنانين والادباء الـذين جـاءوا الى مصر مع الحملة الفرنسية لمسحها ودراستها ، وكانت ثمـرة عملهم ذلك الكتاب الجليل « وصف مصر » « فى عشرة مجلدات من الابحاث وأربعة عشر مجلدا من اللوحات » وقد تم نشره بين ١٨٠٩ و ١٨٢٨

وهذه قصة المجمع المصرى كما رواها الجبرتى عن خبرة شخصية ، فقد كان احد علماء الازهر الذين كانوا يترددون على مكتبته للاطلاع ، وعلى معامله ومراصده ومتـاحفه للوقوف على العلوم الحديثة ، وعلى ندواته للاستماع الى ما يقرؤه فيها علماؤه من بحوث ولمناقشة هذه البحوث

« (ومنها) أنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية ابنية وكرانك وابراجا ووضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين فيه وهدمـوا عدة دور من دور الامراء وأخذوا أنقاضها ورخامها لابنيتهم وأفردوا للمدبرين (يقصد المديرين) والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشـات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت مثل بيت قاسم بيك وأمير الحاج المعروف بأبى يوسف وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذى أنشأه وشيـده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد ، وعند تمـام بياضه وفرشه حدثت هذه الحـادثة (يقصد الحمـلة الفرنسية) ففر مع الفارين وتركه : فيـه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان (يقصد أمناء مكتبـة) ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة (يقصد

الاطلاع) ، فيراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون فى فسحة المكان (يقصد القاعة) المقابلة لمخازن الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة (يقصد منضدة كبيرة) ، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها فيحضرها لهم الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون ، حتى أسافلهم من العساكر . واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له انواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد والاقاليم (يقصد الخرائط) والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء وسير الامم وقصص الانبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الافكار . ولقد ذهبت اليهم مرارا واطلعونى على ذلك ، فمن جملة ما رأيته كتاب كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظر الى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف وفى صفحة اخرى صورة الخلفاء الراشدين وفى الاخرى صورة المعراج والبراق ، وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى وكذلك صورة الائمة المجتهدين وبقية الخلفاء والسلاطين ، ومثال أسلامبول (يقصد ماكيت أو نموذج مصغر لها) وما بها من المساجد العظام كأيا صوفيه وجامع السلطان

محمد وهيئة المولد النبوى وجمعية أصناف لفئات الفرق المختلفة وأرباب الحرف والصناعات التى كانت تشترك فى موكب المولد النبوى ، وكذلك السلطان سليمان وهيئة صلاة الجمعة فيه ، وأبى أيوب الانصاوى وهيئة صلاة الجنازة فيه ، وصور البلدان والسواحل والبحار والاهرام وبرابى الصعيد (يقصد المقابر الاثرية) والصور والاشكال والاقلام المرسومة بها ، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والاعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الاثقال ، وكثير من الكتب الاسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ، ويعبرون عنه بقولهم شفاه شريف ، والبردة للبوصيرى ، ويحفظون جملة من أبياتها (ربما يقصد مخطوطة قديمة لبعض أبياتها) وترجموها بلغتهم . ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن ، ولهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار . وعندهم كتب مفردة (يقصد مخصصة) لانواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل مايريدون من أى لغة كانت الى لغتهم فى أقرب وقت

« وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه ، وهى تركيب ببراريم (يقصد مسامير قلاووظ) مصنوعة محكمة كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة (يقصد دقيقة) بحيث اذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدرا من الفراغ وبها نظارات وثقوب

ينفذ النظر منها الى المرئى واذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير (يقصد بهذا وصف الميكروسكوب) . وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها واجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها (يقصد بهذا وصف التليسكوب) وانواع المنكابات والساعات التى تسير بثوانى الدقائق الغريبة الشكل الغالية الثمن وغير ذلك

«وافردوا لجماعة منهم بيت ابراهيم كتخدا السنارى، وهم المصورون لكل شيء ، ومنهم ريجو المصور Rigo وهو يصور صور الادميين تصويرا يظن من يراه انه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق ، حتى انه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دائرة ، وكذلك غيرهم من الاعيان ، وعلقوا ذلك فى بعض مجالس سارى عسكر (يقصد بونابرت) .

«وآخر مكان يصور الحيوانات والحشرات وآخر يصور الأسماك والحيتان بانواعها واسمائها ، ويأخذون الحيوان أو الحوت الغريب الذى لايوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لايتغير ولا يبلى ولو بقى زمنا طويلا

« وكذلك افردوا اماكن للمهندسين وصناع الدقائق، وسكن الحكيم رويا « يقصد الصيدلى Royer » ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحيقه واهوانه فى ناحية وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والادهان واستخراج الاملاح وقدورا عظيمة وبرامات وجعل له مكانا أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة ، وبها كذلك عدة من الاطباء والجرايحية (يقصد الجراحين)

« وافردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الارواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الارمدة المستخرجة من الاعشاب والنباتات ، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة ، وحول المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الاشكال والهيئات على الرفوف والسدلات وبداخلها انواع المستخرجات . (ومن أغرب مارأيته فى ذلك المكان) أن بعض المتقيدين لذلك اخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجه فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرا أصفر فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بايدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وباخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة (يقصد البندقية) انزعجنا منه ، فضحكوا منا . وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح فى الداخل بالرصاص وأدخل معها أخرى على غير هيئتها وانزلهما فى الماء وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء فى أحدهما ، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة ، وابرز ذلك فم الزجاجة من الماء ، وقرب الاخر الشعلة اليها فى الحال ، فخرج مافيها من الهواء المحبوس وفرقع بصوت هائل أيضا ، وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع

«ومثل الفلكة المستديرةالتى يديرون بها الزجاجةفيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا مسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الاخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام اكتافه وسواعده فى الحال برجة ذلك ولو كانوا ألفا أو أكثر (يقصد بقـوة التيار الكهربائى) . ولهم فيـه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا

«وافردوا أيضا مكاناللنجارين وصناع الآلات والاخشاب وطواحين الهواء والعـربات واللوازم لهـم فى اشـغالهم وهندساتهم وأرباب صنائعهم . ومكان آخر للحـدادين وبنوا فيه كوانين عظاما وعليها منافيخ كبار يخرج منها الهواء متصلا كثيرا بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة . وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصـناعات الآلات من الحديد والمخـارط ، وركبوا مخارط عظيمة لخرط القـلوزات الحـديد العظيمة ، ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم الخراطللحديد بالاقلامالمتينةالجافية وعليها حق صفير معلق مثقوب وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النار الحادثة من الاصطكاك ، وبأعلى هذه الامكنة صناع الامور الدقيقة مثـل البركارات (يقصـد الفرجارات أو البراجل) وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة وغير ذلك » « (عجائب الآثار ج٣/٣٤ ــ ٣٦)

فالجبرتى اذن يصف لنا كيف كان يتردد على المجمع المصرى يقرأ فى مكتبته أو يتأمل متحف التـاريخ الطبيعى الملحق به أو يتمعن ما فيه من صور ولوحات رسـمها الفنانون الوافدون مع الحملة الفرنسية من امثال دينون

وريجو Redouté وريدوتيه Dutertre ودوتيرتر Denon
Rigo ، أو يدرس الفلك في مرصـــده تحت اشراف الفلكي نوويه Nouet ، أو يزور معامل الطبيعة والكيمياء فيه ليقف بنفسـه على كيفية توليد الكهرباء أو ليقف بنفسه على ما تفعله الاحماض بالاحماض . وفى ردهات المجمع المصرى وقاعاته ومعامله كان الجبرتى يلتقى بعلماء الطبيعة من أمثال برتوليه Bertollet وكونتيه Conté أو دولوميو Dolomieu ، وجوفروا سانت هيلير ، Geoffroy Saint-Hilaire والدكتور ديجنيت Degenettes أو يلتقى بالجراح ديبوا Dubois وبالجراح لارى Larrey أو يلتقى بعالم الحشرات سافينى Savigny أو بالكيميائى ديكوتيل Decotils أو بعالم النبات ديليل Delille أو بالمهندس شامبى Champy كان الجبرتى يتردد على المجمع المصرى آنا بمفرده وآنا بصحبة الشيخ الســـادات وآنا بصحبة صديقه الشيخ حسن العطار أو صديقه اسماعيل الخشاب . وقد نشأت بينهم وبين بعض العلماء والفنانين الفة أو نوع من الصداقة المشوبة بالاعجاب ، حتى أن الخشاب قال فى المصور ريجو شعرا ، وفى الحديث الذى أجراه الرحالة الايطالى بروكى مع الجبرتى الشيخ فى أول ديسمبر ١٨٢٢ استفسر الجبرتى من زائره الايطالى عن الفلكى نوويه الذى لم يكن احدهما يعلم انه كان قد مات فى ١٨١١ ، كما ذكر لبروكى أن نوويه كان يتقــاضى ريالين يوميا عن عمله مما كان يتيح له التفرغ والتوافر على البحث العلمى ، واشتكى له من انقراض علم الفلك فى مصر لان الحاكم لا يريد ان ينفق على العلماء . وكل هذا يدل على ان الجبرتى كان يعرف نوويه معرفة شخصية حميمة . وفى هذا ما يدل على أن محمد على كان شديد الســــخاء فى

الانفاق على العلوم والفنون التطبيقية ، اما العلوم والفنون النظرية التى ليس لها نفع مباشر فقد قبض يده عنها

وواضح من هذا الوصف المشبع بروح التقدير لاحترام الفرنسيين للعلم والراغبين فيه حتى ولو كانوا من غير جنسهم وملتهم أو من بسطاء الناس كجنود الجيش الفرنسي ، والمشبع بروح الانبهار بفتوحات العلم الحديث ، ان الجبرتى سار مسيرة حسن العطار واسماعيل الخشاب فى التنبه الى اهمية العلوم الوضعية والانسانية وضرورتها لترقية الامم والافراد . والجبرتى لم يكتب هذا الكلام فى عهد الحملة الفرنسية ، حتى يقال انه وقع تحت تاثير الترغيب أو الترهيب،وانما كتبه بعد ان أصبح الفرنسيون فى خبر كان ، فقد بدأ الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » عام ١٨٠٥ ، وهو عام تولى محمد على حكم مصر ، وظل يدون تاريخه حتى وفاته فى عام ١٨٢٥

وقد كانت حلقات البحث والندوات العلمية التى يقيمها اعضاء المجمع المصرى ويقرءون فيها تقاريرهم العلمية ويطرحونها للمناقشة مفتوحة للمصريين ، أو على الاقل للمثقفين منهم ، كما كانت قاعات معامله ومتاحفه ومكتباته مفتوحة لهم . وقد كان بونابرت وهو عضو فى المجمع المصرى حريصا على اطلاع مشايخ الديوان على معجزات العلم الحديث فدعاهم الى اجتماع اشترك فيه العلامة الرياضى Monge والكيميائى برتوليه Bertollet ليروا كيف تستخرج المفرقعات وكيف تتفاعل الاحماض وكيف تستولد الكهرباء وكيف يسرى تيارها فى الأجسام مهما بعدت . ويذكر ان الشيخ خليل البكرى سأل برتوليه تعقيبا على ما رآه اذا كان يستطيع ان يكون فى مراكش وفى القاهرة فى وقت واحد ،

فصمت برتوليه ولم يعرف بماذا يجيب ، غالبا لانه لم يفهم بالضبط ما المراد من هذا السؤال الغريب الخبيث . وهنا قال له الشيخ خليل البكرى : الا ترى انك لست ساحرا ؟ ولعل الشيخ خليل البكرى أراد ان يقول للفرنسيين متهكما : لا تبتهجوا بذكائكم . أنتم أتيتم الينا بكل هذه العلوم المادية الرائعة ، ولكنكم نسيتم انها مجرد الاعيب صبيانية بالقياس الى رياضتنا الروحانية التى جعلت سيدنا الخضر وغيره من أولياء الله يملكون القدرة

على الوجود فى أكثر من مكان فى وقت واحد . لقد كان فى هذا الموقف حضارة كاملة تواجه حضارة كاملة . وفى مناسبة أخرى ذكرها العالم جومار Jomard ان سانت هيلير ، بعد أن فرغ من قراءة بحث له امام المجمع المصرى فى موضوع اسماك النيل وقف أحد المشايخ الحاضرين وطلب الكلمة ثم أخذ يشرح بطلان كل هذه الابحاث التى يتباهى بها العلم الحديث لان الدين قد حسم الامر حين علم الناس ان الله خلق ٣٠٫٠٠٠ نوع من أنواع الاحياء ، منها ١٠٫٠٠٠ نوع تسكن الارض والجو ومنها ٢٠٫٠٠٠ نوع تسكن الماء . مرة أخرى : لقد كانت حضارة كاملة فى مواجهة حضارة كاملة

أما الجبرتى والعطار والخشاب ، فلم يكونوا من هذا الفريق المحافظ الذى لا يريد الخروج من مدار العلوم النقلية ، بل كانوا كما نقول اليوم طليعة المثقفين المصريين فى ذلك العصر الغريب العجيب الرهيب الذى تصدعت فيه حضارة العصور الوسطى وتشققت اطرها المتحجرة تشقق البيضة لتخرج من قشرتها شرنقة العنقاء الجديدة . ولم ير الجبرتى رغم محافظته فى بعض الوجوه ان العلوم الزمنية من نظرية وتجريبية ووصفية لازمة لبناء الامم لحسب ، بل تجاوز ذلك الى الوقوف فى احترام أمام بعض

الفنون المرفوضة فى بيئته المحافظة والتى ظلت مرفوضة فى مصر والشرق القريب بعامة منذ ان ظهرت ديانات التوحيد ، خشية الفتنة الوثنية ، مثل فن التصوير وفن النحت . واهم ما يلاحظ على موقفه ازاء ما عرض عليه من لوحات دينية تمثل الرسول والصحابة والخلفاء الراشدين انه لم يقشعر لرؤيتها ويندد بها كما كان ينبغى أن يفعل بل اخذها مأخذ الفن وقبلها قبول الفن ولم ير فيها ملامح وثنية او آيات تفسدبها عقائد الناس أو حتى تطاولا على المعتقدات الدينية ، بل هو يصفها بانها صور رسمت « على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم » ، اى على قدر مبلغ تصورهم وتخيلهم استنادا الى ما ورد فى السير من أوصاف ، لا شك على غرار ما يفعلون بصورة المسيح ومريم والحواريين والقديسين

هذا العقل المتفتح كان احد طلائع الفكر التقدمى المصرى نحو ١٨٠٠ المتمثل فى ثلاثة من اجلاء علماء الازهر ، وهم الجبرتى والعطار والخشاب . اما قبول اسس الحياة المادية الجديدة من علوم بحتة او تجريبية او تكنولوجية ، فقد كان يسيرا امره حتى على الرجعيين والسلفيين والمحافظين . فقد أثبت تاريخ الحضارات ان الناس أكثر مبادرة الى الاخذ بما فيه تقدمهم المادى ورخاؤهم الدنيوى منهم الى الاخذ بما فيه رقيهم الفكرى والاخلاقى والوجدانى وعامة ما اصطلحنا على تسميته بالقيم الانسانية ، وهذا الصدع الحضارى المتمثل فى قبول التجدد بالمادة ورفض التجدد بالفكر هو من مظاهر التمزق الحضارى الذى كثيرا ما يودى بالمجتمعات والافراد فى عصور الانتقال . فاذا رأينا بيننا رجالا كعبد الرحمن الجبرتى قبلوا تجدد الكيان الاجتماعى بالمادة وبالفكر جميعا فقد وجب أن نقف امامهم فى احترام عظيم

٢ ـ تحرير المرأة ١٨٠٠

فى بعض تواريخ الحملة الفرنسية انالنساء فى رشيد قمن بمظاهرة طالبن فيها حاكم رشيد ، الجنرال عبد الله مينو ، بان يتدخل حتى يسمح لهن رجالهن بالتردد على الحمامات العامة فى المدينة ، وان تخصص بعض هـذه الحمامات للنساء . وهذه فيما نعلم أول مظاهرة نسائية قامت فى مصر على الاقل فى العصر الحديث . أما كيف نشأت هذه المظاهرة ، فربما نبتت فكرتها فى اسرة الشيخ على الرشيدى الذى تزوج عبد الله مينو ابنته بعد أن اشهر اسلامه ، ثم جعله وزيرا عندما تولى حكم مصر بعد مقتل كليبر . وقد ورد فى تاريخ الحملة الفرنسية لجونكيير ان صهر عبد الله مينو هذا كانصاحب حمامات فى مدينة رشيد ، وربما كان أميرا فى دولة الحمامات . وبهذا يبدو فى الظاهر أن هذه المظاهرة النسائية قد قصد بها الى ترويج بضاعته وملء خزانته . ولكـن ايا كانت أسبابها وملابساتها ، فالذى لاشك فيه ان خروج نساء رشيد فى مظاهرة عامة يجب ان يعد حدثا هاما فى تاريخ المرأة المصرية وفى تاريخ الدعوة لتحرير المرأة فى مصر

وفى تاريخ الجبرتى لعام ١٨٠٠ (تحت شهر ذىالحجة سنة ١٢١٥ هـ) وصف لبدايات حركة السفور فى مصر، ووصف لبدايات حركة تحرير المرأة ، ووصف لما أصاب

بعض نساء القاهرة من الانطلاق نتيجة لمخالطة المصريين للفرنسيين ومحاكاتهم في الزى وفي السلوك وقد كان الجبرتي رغم تفتحه لبعض وجوه الحضارة الفرنسية ، كالاهتمام بالعلوم والاداب، وكالتنظيم السياسي والاجتماعي والمدني وكالنظام القضائي ، وكالتقدم التكنولوجي ، وكالاهتمام بالتعمير والعمران الخ .. محافظا اشد ما تكون المحافظة في كل ما يتصل بتغيير اوضاع المرأة الشخصية والاجتماعية ، رافضا كل الرفض لما كان يراه حوله من مظاهر الخروج على التقاليد والاخلاق الجنسية المستقرة .. فهو يقول في امتعاض شديد :

« ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء وهو أنه لما حضر الفرنسيس الى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والزركشات المصبوغة ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقا عنيفا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت اليهم نفوس اهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الاموال لهن

« وكان ذلك التداخل اولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفائه فلما وقعت الفتنة الاخيرة بمصر ، وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في اهلها وغنموا اموالها واخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات ، صرن مأسورات عندهم فزيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن في كامل الاحوال ، فخلع اكثرهن نقاب الحياء بالكلية ..

« وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر ، ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الاموال واجتماع الخيرات فى حوز الفرنسيس ومن والاهم ، وشدة رغبتهم فى النساء وخضوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ، ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها (يقصد جزمتها) ، فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار ، واستملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات ، وخصوصا عقول القاصرات «وخطب الكثير منهم بنات الاعيان وتزوجوهن رغبة في سلطانهم ونوالهم ، (غير واضح ان كان المقصود رغبة الفرنسيين في الظفر بسلطان الاعيان المصريين ونوالهم كما يدل النحو أو رغبة المصريين فى الظفر بسلطان الفرنسيين ونوالهم كما يدل السياق) فيظهر حالة لعقد الاسلام وينطق بالشهادتين لانه ليس له عقيدة يخشى فسادها ، وصار مع حكام الاخطاط منهم النساء المسلمات متزيات بزيهم ، ومشوا معهم فى الاخطاط للنظر فى أمور الرعية والاحكام العادية والامر والنهى والمناداة ، وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها ، وامامها القواسة والخدم بايديهم العصي يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ، ويأمرن وينتهين فى الاحكام ..

«ومنها انه لما اوفى النيل اذرعه ودخل الماء الى الخليج وجرت فيه السفن ، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيين ومصاحبتهن لهم فى المراكب ، والرقص والغناء والشرب فى النهار والليل فى الفوانيس والشموع الموقدة ، وعليهن الملابس الفاخرة والحلى والجواهر المرصعة ، وبصحبتهم آلات الطرب وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع

الصوت في تحريك المجاديف بسخيف موضوعاتهم وكثائف مطبوعاتهم ، وخصوصا اذا دبت الحشيشة فى رءوسهم وتحكمت في عقـــولهم ، فيصرخون ويطلبون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة الفاظ الفرنساوية فيغنائهم وتقليد كلامهم شيء كثير

« واما الجواري السود فانهن لما علمن رغبة القوم فى مطلق الانثى ذهبن اليهم افواجـــا فرادى وازواجا ، فنطعن الحيطان وتسلقن اليهم من الطيقان ودلوهم على مخبآت اسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك » .(« عجائب الاثار » ٣ــ ١٦١ ــ ١٦٢)

هذا الوصف الحى لحالة شرائح من المجتمع المصرى عام ١٨٠٠ يستحق ان نقف عنده طويلا فى تأمل وتحليل. فبصرف النظر عن تعليقات الجبـرتى المعبرة عن آرائه الخاصة فى الموقف ، وبصرف النظر عما يستخـدمه من نعوت وصفات لاظهار سخطه على ما كان يجرى أمامه من مظاهر التغير الاجتماعى ، فان ما كان يجـرى بالفعل فى بعض قطاعات المجتمع المصرى نحو ١٨٠٠ يمكن استخلاصه بعد استبعاد عبارات التنديد التى يترجم بها الجبرتى عن مشاعره كمصرى عاصر تلك التحولات

فالواضح من كلام الجبرتى انه لا يحدثنا عن مجرد طبقة النساء الساقطات (الفواحش بلغته) اللواتي يماشين الجنود عادة فى كل جيوش الاحتلال فى كل مكان فى الدنيا ، وانما يحدثنا عن فئات عديدة من مختلف الطبقـات من أسفل السلم الاجتماعى الى اعلاه ، أو هو على الاصح يحدثنا عن ظاهرة اجتماعية ظهرت وتفشت فى عصره ولا يحدثنا عن مجرد حالات فردية من السلوك الفردى

والذى يفهم من كلام الجبرتى اذا قبلناه بحذافيره ، هو:

انه كانت هناك « ثورة نساء » أو « ثورة حريم » فى مصر ، او على الاقل فى القاهرة ، عام ١٨٠٠ ، فقوله أن من الحوادث الجسام « تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء » كلام خطير اذا كان الجبرتى لا يلقى الكلام جزافا ، لان كلمة « غالبهن » مهما حملناها معنى المبالغة الناجمة عن الانفعال ، فهى بغير شك تدل على وفرة عدد النساء اللواتي خرجن على التقاليد حول عام ١٨٠٠ الى حد جعل من خروج النساء على التقاليد سمة واضحة من سمات ذلك العصر ، دون أن تكون الثائرات بالضرورة « غالبية » النساء بالمعنى الاحصائى الدقيق

ويتحليل كلام الجبرتى عن أسباب هذا الذى يسميه « التبرج » و « الخروج عن الحشمة والحياء » نجد أنه ينسبه الى سبب واحد وهو اختلاط المصريين بالفرنسيين، أو بكلمات أدق اختلاط المصريات مع الفرنسيين فى تلك الفترة على حد وصف الجبرتى ، وهو وصف يغض من قيمته التاريخية ان الجبرتى لا يشير بتاتا الى موقف الرجال من هذا الاختلاط ، كأن مصر لم يكن بها رجال لهم ولاية على النساء فى ذلك العصر ، وهو مستحيل التصديق ما دمنا نتحدث عن انطلاق « غالبية » النساء او الكثرة الكثيرة منهن . فما دام الجبرتى لم يقصر كلامه على مجتمع الساقطات ، وانما تجاوز به حدود هذا المجتمع المحدود ، لم يكن هناك مناص من استخلاص ان هذا « التداخل » كما يسميه و « الاختلاط » بلغة اليوم ، كان اختلاط أسر او اختلاطا اجتماعيا بالمعنى الكامل ، وانه كان يتم بعلم الرجال الاولياء على النساء وفى حدود النطاق الذى رسموه، ان لم يكن بالفعل فعلى الاقل من ناحية الشكل . اذ لا يعقل أن نتصور حرائر مصر فى ذلك العهد من زوجات

وبنات قد خرجن لمخالطة الفرنسيين أو محاكاة الفرنسيات فى الزى وفى السلوك بغير رضا القوامين عليهن من الرجال. وهذا يدل على أن عبارة « فمالت اليهم نفوس اهل الاهواء من النساء الاسافل والفواحش ، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الاموال لهن » لا تشير الى طبقة سفلى أو الى مهنة الفواحش ، وانما اليسفالة والفحشاء هنا مدلولات وأحكام اخلاقية تعبر عن موقف الجبرتى مما كان يراه حوله من مظاهر التحرر فى المظهر والسلوك بين نساء مصر . والدليل على ذلك أن الجبرتى يضيف : « وكان ذلك التداخل اولا مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة فى اخفائه » فلو انه كان يتحدث عن مجتمع الساقطات والفواحش بالمعنى الاجتماعى ، لما كان هناك مجال للكلام عن الاحتشام واتقاء العار والحرص على التستر، لان بنات هذه المهنة لسن بحاجة الى الاحتشام ولا قادرات عليه ، ولسن مسئولات حتى يبتغين الحرص على التستر واتقاء العار . فهو اذن يتحدث عن الحرائر من ربات البيوت وبناتها ومن سيدات المجتمع ، وهؤلاء ما كان يمكن أن يخالطن الفرنسيات والفرنسيين الا برضا الأولياء عليهن

ويستفاد من وصف الجبرتى أن تحرر المرأة المصرية فى عصر الحملة الفرنسية قد تم درجة درجة : بدأ تلقائيا وفى حدود ضيقة ثم تفشى بعد ثورة القاهرة الثانية حين سبى الفرنسيون أجمل نساء بولاق وبناتها و « زيوهن بزى نسائهم وأجروهن على طريقتهن فى كامل الاحوال » اى ألبسوهن « الفستانات » والشيلان الكشمير المزركشة والمناديل الملونة وأبرزوهن سافرات وعلموهن ركوب الخيل وغير ذلك من العادات وأساليب السلوك وربما الأفكار التى كانت تتميز بها المرأة الفرنسية يومئذ . هؤلاء النسوة والبنات

السبايا لا شك من الحرائر ، لان الفواحش لسن بحاجة الى سبى أو أسر للانتقال من المجتمع المصرى الى مجتمع الفرنسيين . وما تم ذلك ــ ويبدو أنه تم بسرعة مذهلة ــ حتى « تداخل مع هؤلاء المأسورات غيرهن من النســـاء الفواجر » اللواتى « استملن نظراءهن واختلسن عقولهن لميل النفوس الى الشهوات وخصوصا عقول القاصرات » و « الفواجر » هنا نعت اخلاقى وتعليق شخصى من عنــد الجبرتى وليس وصفا لطبقة او فئة او مهنة . وهكذا اتسعت طبقات النساء اللواتى حاكين المتفرنسات والعادات الفرنسية « فطرحن الحشمة والوقار والمبالاة والاعتبار » بتاثير سبايا الفرنسيين المتحررات من بنات بولاق . وهو ايضا اجتهاد من الجبرتى غير معقول فى تفسير هـــــذه الظاهرة ، لان العقائل والحرائر وصاحبات الحشـــمة والوقار لا يحاكين السبايا الا اذا كانت السبايا من العقائل والحرائر وصاحبات الحشمة والوقار ، اى الا اذا كــن زوجات لاسبايا اى كان لهن وضع اجتماعى شرعى معترف بشرعيته

ومفتاح هذا الموقف موجود فى الجبرتى نفسه ، فهــو يحدثنا عن اقبال الكثير من الفرنسيين (والارجح انهم كانوا من طبقة الضباط والفنيين) الى اعتناق الاســـلام والزواج من بنات اعيان المصريين اســـتغلالا لنفوذهم واستفادة بمالهم أو العكس . فما ان كانت المرأة المصرية تتزوج من الفرنسى المسلم حتى تتزيى بزى المرأة الفرنسية وتتخلق بخلقها وتتطبع بسلوكها الاجتماعى . وما دام الجبرتى لا يشير الى عامل القهر فلا احسب ان اعيـــان المصريين كانوا ليقبلوا الفرنسيين ازواجا لبناتهم مهمـا أشهروا اسلامهم الا اذا كانت هناك شريحة كبـــيرة من

الارستقراطية المصرية لا تجد غضاضة من مصاهرة الحكام ما دامت تجرى فى حدود الشرعية ، وهذا لا يتأتى مع المحافظة الشديدة ، وانما يدعو الى افتراض مجتمع من الاعيان متفتح لحضارة الفرنسيين قابل لقيمهم الاجتماعية والفكرية والسياسية واحسب ان الجبرتى الذى قبل ان يكون وزيرا فى عهد عبد الله جاك مينو ، بكل تحفظاته الاخلاقية هذه على تحرير المراة ما كان ليقبل ان يزوج بنته من ضابط فرنسى اعتنق الاسلام الا اذا اطمأن الى ان هذا الزوج سيحجب زوجته ويرعى فيها تقاليد البلاد فى ذلك العصر.

فالواضح اذن أن المجتمع المصرى نحو ١٨٠٠ قد تبلورت فيه فئات اجتماعية على مستويات مختلفة كانت لا ترى بأسا من مخالطة الاوروبيين عامة والفرنسيين خاصة ، ولا ترى بأسا من تفهم وجهة نظرهم عن المراة سواء فى موضوع السفور والحجاب او فى موضوع وضع المراة فى الاسرة وفى المجتمع ، ولا سيما بالنسبة لوليها أبا كان او زوجا أو اخا . ووصف الجبرتى لما أصابته بنات الارستقراطية المصرية أو بنات « الاعيان » يومئذ يدل على انهن بلغن من الشوط مداه فى تحرير المرأة المصرية حيث خرجت المرأة المصرية الى دواوين الحكومة وأقدمت على مشاركة زوجها فى تصريف امور الناس وربما كان هذا المدى مقصورا على فئة اجتماعية محدودة العدد ، ولكنه كان ظاهرة اجتماعية غير مألوفة فى عهد الترك والمماليك .

اما وصف الجبرتى لما كان يجرى من اشتراك المصريات فى مهرجانات وفاء النيل وفى حفلات الرقص والغناء والحفلات الساهرة بوجه عام ، فهو لا يوحى بأن المشاركات فى هذا الاختلاط كن من نفايات المجتمع ، فقد

كن يظهرن فى « الملابس الفاخرة » و « الحلى والجواهر المرصعة » مما يوحى بأنهن كن من نساء الطبقات الميسورة

والجبرتى يرى ان اهم سبب من أسباب انجذاب المصريات الى هذا النهج الفرنسى من الحياة القائم على السفور وعلى اختلاط الجنسين هو ما لمسه من « خضوع » الرجل للمرأة فى المجتمع الفرنسى ، « ولو ضربته بتاسومتها » . ولا شك أن المساواة النسبية بين المرأة والرجل فى المجتمع الفرنسى يومئذ وتقاليد الفروسية التى توارثها الرجل الفرنسى فى معاملته للمرأة الفرنسية أو ما يسمونه «الكورتوازية» كانت بمثابة صدمة اجتماعية قوية للمجتمع المصرى الذى امسى يومئذ ولقرون سلفت على سيادة الرجل المطلقة على المرأة ، وخضوع المرأة المطلق للرجل « ولو ضربها بتاسومته » . وليس عسيرا أن نتصور الجبرتى أو أى مصرى عادى عام ١٨٠٠ يقف فاغرا فاه من فرط الدهشة وهو يشاهد ضابطا فرنسيا يقبل يد سيدة فرنسية أو يحيطها بمختلف مظاهر الرعاية والاحتشاد ، ويحسب تقاليد الفروسية هذه عبودية مطلقة . وهذه النظرة فى الجبرتى الى العلاقة بين الجنسين فى المجتمع الاوروبى عامة والفرنسى خاصة تستحق التسجيل ، لاننا سنجدها فيما بعد ـ بعد ثلاثين سنة كاملة ـ فى رفاعة الطهطاوى ، ربما بصورة مخففة لا انفعال فيها ، ولكن الجوهر واحد على كل حال ، مما يدل على ان تحرير المرأة كان مرير المذاق للمصريين المستمسكين بالثقافة التقليدية وبالقيم التقليدية ، حتى لمن بادروا منهم الى اعتناق ضرورة الاخذ بأسس الدولة الحديثة

وربما كان أهم ما ورد فى الجبرتى من موضوع تحرير المرأة هو تلك الفقرة التى تصور هرب « الجوارى السود »

من بيوت أسيادهن والتجائهن الى الفرنسيين طلبا للحرية، «لما علمن رغبة القوم في مطلق الانثى» ، اى فى تحرير المراة كما نقول اليوم ، او اطلاقها من عقالها . ويبدو ان هذه الانطلاقة المفاجئة كانت مقترنة بالوان من المغامرة العنيفة ، لأن الجوارى كن يلجأن الى نط الحيطان والخروج والدخول من النوافذ شأن السجناء لكي يصلن الى منازل الفرنسيين بل لقد بلغ من بغضهن لسادتهن انهن كن يرشدن الفرنسيين الى المخابىء التى يكنز فيهـا أولئك السادة أموالهم كي يصادرها الفرنسيون. وواضح من كلام الجبرتي عن رغبة الفرنسيين في « مطلق الانثى » ، أن الحملة الفرنسية حين جاءت الى مصر جاءت ومعها أفكار الثورة الفرنسـية عن تحرير المراة ، وانها روجت بين المصريين لهذه المبادىء ما استطاعت الى ذلك سبيلا

كانت هناك اذن فئات عديدة من المجتمع المصرى نحـو ١٨٠٠ فى كافة المستويات قد خالطت الفرنسيين اجتماعيا وتشبهت بهم أو حاولت أن تتشبه بهم وقبلت دعوتهم الى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل نظريا وعمليـا . ومن العبث العابث أن نتصور بناء على ما قاله الجبرتي أن هذه الدعوة ما جرت الا بين النساء الفاسـقات فلا شك أن المتفرنجات ، وهن بكل هذه الوفرة التى يصفها الجبرتي الى حد استخدام تعبير « غالب » النساء ، كن نساء يعشن في كنف رجال ، وانها لتكون صورة كاريكاتورية للعصر حقا أن نتصور « غالب » نساء مصر وقد هجـرن دورهن وفررن من رجالهن ولذن بمعسكرات الفرنسيين . وانما الذى يريد الجبرتي أن يصفه هو صورة فئـات عديدة لا شبهة فى كثرتها على كل المستويات فى المجتمع المصرى، ما أن رفع عنهـا نير الترك والممـاليك ولبسنت نير

الفرنسيين ، حتى وجدت بين النيرين فرقا كبيرا وهو الفرق بين المستعمر الجاهل المتخلف الذى يعيش فى حضارة العصور الوسطى وفى ثقافة العصور الوسطى والمستعمر المتعلم المتقدم الذى يعيش فى حضارة العصر الحديث وفى ثقافة العصر الحديث . وقد كان الفرق بين النيرين واضحا أمام جميع المصريين ، ولكن الذى اختلفوا فيه هو أى النيرين أثقل وأى الغلين أحكم وأهلك . ولقد كانت هناك فئات فى المجتمع المصرى حنت الى نير الترك والمماليك لاسباب مختلفة وكانت هناك فئات فى المجتمع المصرى قبلت نير الفرنسيين لاسباب مختلفة . وهذه الفئات وتلك كانت فيما يبدو قليلة العدد . أما الكثرة الغالبة من المصريين فهناك من شواهد التاريخ ما يدل على انها قبلت حضارة الغرب جزئيا أو كليا ولكنها رفضت نير الفرنسيين كما رفضت نير العثمانين

وليس هناك ما يدعو الى الظن بأن كل من خالط الفرنسيين أو حاكاهم أو قبل وجوها من حضارتهم قد فعل ذلك عن مجرد افتتان بأسلوب الحكام فى الحياة (وهو ظاهرة اجتماعية وانسانية) أو عن مصلحة ذاتية او رغبة فى التزلف الى الحكام ، رغم أن استشراء المنتفعين سمة من سمات عصور الانتقال . ولا شك أن تحرير المرأة على النحو العملى هذا الذى وصفه الجبرتى كان « حركة » اجتماعية بالمعنى المألوف ، وتعبيرا عن رأى عام بين المثقفين وفى شرائح معينة من مختلف مستويات المجتمع المصرى بضرورة الانفتاح لهذه الحضارة الحديثة والقيم الاجتماعية الحديثة التى جاء بها الفرنسيون من أوروبا وأدركت بعض فئات المصريين انها السبيل الى نهضتهم والى خروجهم من ظلام العصور الوسطى

انظر مثلا الى مأساة زينب البكرية ، بنت الشيخ خليل البكرى نقيب الاشراف أيام الحملة الفرنسية ، والى مأساة سيدة أخرى من سيدات ذلك العصر اسمها هوى ، والى مآسى نساء أخر ، قد رواها الجبرتى فى تسعة سطور ولكن من يتأملها يجدها تمثل مأساة عصر كامل سقط بين حضارتين فدفع ثمنا رهيبا لاجترائه على تحدى القديم قبل انتصار الجديد . يقول الجبرتى عن شهر يوليو ١٨٠١ تحت تاريخ شهر ربيع الاول سنة ١٢١٦ فى وصف الاحداث الرهيبة التى وقعت فى مصر أثر خروج الفرنسيين وعودة الاتراك العثمانيين الى احتلال البلاد :

« (وفى الثلاثاء رابع عشرينه) طلبت ابنة الشيخ البكرى ، وكانت ممن تبرجن مع الفرنسيس ، بمعينين (يقصد بمندوبين) من طرف الوزير (يقصد الوزير العثمانى أو الصدر الاعظم) فحضروا الى دار أمها بالجودرية بعد المغرب وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله فقالت : انى تبت من ذلك ، فقالوا لوالدها ما تقول أنت ، فقال : أقول انى برىء منها ، فكسروا رقبتها . وكذلك المرأة التى تسمى هوى التى كانت تزوجت نقولا القبطان ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها وطلبها الفرنساوية وفتش عليها عبد العال وهجم بسببها عدة أماكن كما تقدم ذكر ذلك فلما دخل المسلمون (يقصد العثمانيين) وحضر زوجها مع من حضر ، وهو اسماعيل كاشف المعروف بالشامى ، امنها وطمنها وأقامت معه أياما فاستأذن الوزير فى قتلها فأذنه ، فخنقها فى ذلك اليوم أيضا ومعها جاريتها البيضاء أم ولده ، وقتلوا أيضا امرأتين من أشباههن » (« عجائب الاثار » ١٩٢/٣)

أما هذه البنت المسكينة ، زينب البكرية ، فقد جرت

الشائعات يومئذ بأنها كانت على صلة ببونابرت ، ولكن ليس هناك اى دليل أو سند تاريخي يثبت أنها كانت حقا عشيقته ، وربما كان كل ذنبها أنهـا « تبرجت » بلغـة الجبرتى ، أى سفرت ولبست الفستانات والمناديل الملونة والطـرح الـكشمير وخالطت المجتمع الفـرنسى المختلط وتشبهت بالفرنسيات ، وربما كان كل ذنب هـذه الفتاة المسكينة التى كانت لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها حين جاء بونابرت الى مصر ، ان مظاهر الحضارة الاوربية خلبت لبها وجعلتها تتمرد على تقاليد بيئتها المحافظة ، فاتخذوا منها بعد رحيل الفرنسيين وعودة العثمانيين كبش فداء انتقاما من تعاون أبيها مع الفرنسيين وقبوله أن يقوم نقيبا للاشراف فى ظلهم بعد فرار السيد عمر مكرم . ولعل من المهم أن نلاحظ ان الذى ساق زينب البكرية الى نهايتها الاسيفة كان الوزير العثمانى ورجاله كما ذكر الجبرتى وليس المصريين

وهذا الاب البائس المذعور الذى قدر عليه ان يسلم ابنته لمدية الجزار لم ينس يومئذ ما حل به وبآله أيام ثورة القاهرة الثانية ، حين حكم القاهرة من الشارع معسكر العثمانيين والغوغاء لفترة وجيزة وصفها الجبرتى وصفا مثيرا :

« واتهم الشيخ خليل البـكرى بأنه يوالى الفرنسيين ويرسل اليهم الاطعمة فهجم عليه طائفـة من العسكر مع بعض أوباش العـامة ونهبـوا داره وسـحبوه مع اولاده وحريمه واحضروه الى الجمـالية وهو ماش على اقدامه وراسه مكشوفة وحصلت له اهانة بالغة وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هاله ذلك واغتم غما شديدا ووعده بخير وطيب خاطره واخذه

سيدى احمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه الى داره واكرمهم وكساهم واقاموا عنده حتى انقضت الحادثة »
(« عجائب الآثار » ٩٤/٣)

ولسنا هنا بسبيل محاكمة رجالات العصر وتحديد مدى مسئوليتهم عن التعاون مع الفرنسيين او مع العثمانيين . وتحديد دوافعهم الى ذلك ، وانما نحن امام مآس انسانية من افظع طراز . فالذى لا شك فيه ان الشيخ خليل البكرى الذى عينه بونابرت نقيبا للاشراف من بعد فرار السيد عمر مكرم مع المماليك الى بر الشام ، كان يخالط كبار الفرنسيين ، ليس فقط سياسيا ، ولكن اجتماعيا كذلك ، كما جرت كتب التاريخ انه كان محبا للحياة ، وكان شرابه المفضل مزيجا من الكونياك والنبيذ البورجونى المعتق يشربه حتى الغيبوبة . وقد كانت تربطه ببونابرت ، شأنه فى ذلك شأن الشيخ أبى الانوار السادات والشيخ عبد الله الشرقاوى وغيرهما من كبار العلماء رابطة ألفة من نوع ما ورابطة احترام متبادل ، ومجاملات اجتماعية كالتزاور وما اليه . بل انه فى حالة الشيخ خليل البكرى ، فانه تجاوز المجاملات الاجتماعية الى المجاملات الشخصية، فقد أثر عنه انه أهدى مملوكه الخاص رستم زاده الى بونابرت ، وقد لازم هذا المملوك نابليون بقية حياته حتى منفاه فى سانت هيلانة . واذا كان الشيخ خليل البكرى مخالطا لصفوة المجتمع الفرنسى فى أيامه يومئذ ، فليس هناك شك فى أنه كان على علم بأن بنته زينب البكرية ، وحريمه بوجه عام ، كن يخالطن نظائرهن من الفرنسيات مخالطة اجتماعية ويتشبهن بهن ، ولم يكن خافيا عليه أن المجتمع الفرنسى مجتمع مختلط ليس فيه « حريم » . ففرنجة بنته وحريمه اذن كانت بعلمه ورضاه . وليس

يبعد انه قد ترامت اليه الشائعات عن علاقة زينب البكرية ببونابرت .

أما الفتاة البائسة الاخرى ، هوى ، وهى زوجة اسماعيل كاشف المعروف بالشامى ، فقد كانت محنتها لا تقل عن محنة زينب البكرية فظاعة . وقد روى الجبرتى مأساتها على النحو التالى تحت تاريخ مايو سنة ١٨٠١ (محرم ١٢١٦ هـ)

« (وفى ثانى عشره) نزلت امراة من القلعة بمتاعها واختفت بمصر فاحضر الفرنسيس حكام الشرطة والزموهم باحضارها وهذه المراة اسمها هوى ، كانت زوجة لبعض الامراء الكشاف ، ثم انها خرجت عن طورها وتزوجت تقولا واقامت معه مدة ، فلما حدثت هذه الحوادث (يقصد هزيمة الفرنسيين أمام العثمانيين فى مشارف القاهرة برا وأمام الانجليز فى الاسكندرية بحرا) جمعت ثيابها واحتالت حتى نزلت من القلعة وهى على حمار ، ومتاعها محمول على حمار آخر ، فنزلت عند بعض العطف وأعطت المكارية الاجرة وصرفتهم واختفت . فلما وقع عليها التفتيش واحضروا المكارية قالوا : لا نعلم غير المكان الذى انزلناها به وأعطتنا الاجرة عنده .

فشددوا على المكارية ومنعوهم من السروح وقبضوا على أهل الحارة وحبسوهم . ثم احضروا مشايخ الحارات وشددوا عليهم وعلى سكان الدور ، واعلموهم انه ان وجدت المراة فى حارة من الحارات ولم يخبروا عنها نهبوا جميع دور الحارة وعاقبوا سكانها . فحصل للناس غاية الضجر والقلق بسبب اختفائها وتفتيش أصحاب الشرطة ، وخصوصا عبد العال ، فانه كان يتنكر ويلبس زى النساء ويدخل البيوت بحجة التفتيش عليها ، فيزعج أرباب

البيوت والنساء ، ويأخذ منهن مصالح ومصاغا ويفعل ما لا خير فيه ولا يخشى خالقا ولا مخلوقا » . (« عجائب الآثار » ٣/١٧٧ — ١٧٨)

وقد فشلت شرطة الفرنسيين فى العثور عليها ، فلما دخلت عسكر العثمانيين القاهرة بعد ذلك بأسابيع ،وكان معهم زوج هوى السابق ، الذى كانت قد هجرته ، وهو احد الامراء المماليك ، واسمه اسماعيل كاشف ، اهتدى هذا الزوج الى مكانها وطمأنها على حياتها واستدرجها بالحيلة الى الاقامة فى داره أياما ، واستأذن الوزير العثمانى فى قتلها فأذن له ، فخنقها فى نفس اليوم الذى قتلت فيه زينب البكرية ، وخنق معها جاريتها البيضاء التى كان قد أنجب منها بحسب ما روى الجبرتى. ويبدو ان هذا التاريخ كان مخصصا لاعدام النساء « المتبرجات» اذ يذكر امرأتين أخريين « من اشباههن » قد أعدمتا أيضا فى ذلك اليوم

ولا شك أن هذه الحوادث الدموية القت الرعب فى قلوب عديد من النساء المتفرنجات . نفهم هذا من قول الجبرتى انه بعد انسحاب الفرنسيين واستتباب الامر فى أيدى الاتراك العثمانيين والمماليك لجأ كثير من هؤلاء النساء الى لبس الحجاب من جديد والزواج من الجنود العثمانيين اتقاء بطشهم وتأمينا لحياتهم . فالجبرتى يقول فى تاريخ اغسطس ١٨٠١ (ربيع الثانى ١٢١٦ هـ) :

« (وفى يوم الاثنين رابع عشره) ، نودى على أن اهل البلدة لا يصاهرون العساكر العثمانية ولا يزوجونهم النساء . وكان هذا الامر كثر بينهم وبين أهل البلد ، وأكثرهم النساء اللاتى درن مع الفرنساوية ، ولما حضر العثمانية تحجبن وتنقبن وتوسط لهن اشباههن من

الرجال والنساء وحسنوهن للطلاب ورغبوا فيهن الخطاب ، فأمهروهن المهور الغالية وانزلوهن المناصب العالية »

(« عجائب الآثار » ٣ / ١٩٤)

وواضح من هذا ان السلطات العثمانية ما كانت لتحرم هذه الزيجات لو انها كانت مجرد حالات فردية ، وانما تفشيها هو الذى دعا الى التدخل • وواضح أيضا ان أعمال العنف التى ارتكبت مع زينب البكرية وهوى زوجة اسماعيل الكاشف ، وهما من علية القوم ، ومع غيرهما من النساء المتفرنجات ، هى التى اثارت الذعر فى نفوس النساء المتفرنجات ، وفى نفوس الرجال الاولياء عليهن ، فبادرن وبادروا الى التخلى عن الفرنجة والتظاهر بالمحافظة ، بل وطلب الامان بالزواج من العثمانلية ، اللهم الا اذا افترضنا انه كانت هناك بين المصريين وقتئذ تجارة منظمة واسعة للرقيق الابيض فى خدمة جيوش الاحتلال من اى جنس كانت . والوصف الذى نجده فى الجبرتى لا يوحى بذلك ، وانما يوحى اصرار الجبرتى على تصوير حياة اليسر أو الثراء أو الترف التى كانت تحيط بهذه الزيجات المختلطة ، انها كانت تتم بين الطبقات الموسرة بوجه عام ، من « الاعيان » وغير الأعيان ، وليس بين نفايات المجتمع

وأيا كان الامر فالخلاصة العامة لكلّ هذا هو انه من المحقق ان بدايات حركة السفور فى مصر ، وحركة تحرير المرأة بوجه عام ، يمكن تأريخها بعام ١٧٩٨ ، وهو عام تشقق سور الترك العظيم الذى ضرب سياجا من حول العالم العربى كله وحال دون اتصاله بالحضارة الاوروبية اتصالا مباشرا ثلاثة قرون كاملة ، أى منذ أسس سليم

الاول امبراطورية العثمانيين ، فما ان اتصلت مصر وغيرها من بلاد المشرق العربي بالحضارة الاوروبية اتصالا مباشرا بمجيء بونابرت حتى بدات تتلاطم فيها مختلف تيارات الفكر الحديث والنظم الاجتماعية الحديثة ، وكان فى مقدمة هذه التيارات تيار السفور وتحرير المرأة . ولقد اندفق هذا التيار عنيفا اول الامر كما وصف الجبرتى بسبب وجود الفرنسيين فى مصر بين ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، فادى الى هذا التمرد الجماعى على حياة الحريم المتوارثة عن العثمانلية ، ذلك التمرد الجماعى الذى جعل الجبرتى يتأفف من « تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء » بتأثير الفرنسيين

ومن يقرأ كتاب الأديب الفرنسى جيرار دى نرفال « رحلة فى الشرق » (١٨٤٠ ـ ١٨٤١) ، يجد فى الفصل المسمى « نساء القاهرة » وصفا لحالة المرأة المصرية نحو ١٨٤٠ ، وفيه صورة لمجتمع رواد مسرح فى الموسكى «تياترو ديل كايرو » أى تياترو القاهرة بالايطالية شاهد فيه جيرار دى نرفال كوميديا فرنسية خفيفة أو فودفيل اسمها « مرسم الفنانين » . وكان جمهور الصالة قوامه بعض الاجانب المحليين من ايطاليين واروام لابسين الطرابيش وبعض « موظفى الباشا » أو بعض « ضباط الباشا » (النص هنا يحتمل التاويلين) جالسين فى المقاعد الأمامية ، أما اللوجات فكانت تغص بالنساء وكلهن فى زى نساء الشرق وفى أفخر ثياب وعليهن أنفس الجواهر ، ولم تكن بينهن واحدة محجبة . ولم يرقه فى ماكياج هؤلاء السيدات ان أجفانهن وخدودهن كانت مثقلة باصباغ هجرتها أوروبا منذ مائة عام ، كما ان أيديهن كانت مصبوغة بالحناء . ولم يكن هناك ما يميز اليونانية

عن الارمنية عن اليهودية الا غطاء رأسها وطريقة تصفيف شعرها . يقول دى نرفال :

« واخيرا ، فلم تكن بين الحاضرات امرأة واحدة تلبس حجابا ، وبالتالى فلم تشهد العرض امرأة مسلمة بالمعنى الحقيقى ...

« وعند انصرافى من المسرح لبست كل هؤلاء النساء الرافلات فى أفخر ثياب كساءهن الموحد ، وهو الحبرة المصنوعة من التافتا السوداء ، وغطين ملامحهن بالبرقع الابيض ، وركبن حميرا على طريقة المسلمات الطيبات ، تضيىء طريقهن مشاعل يحملها السياس » .

أما طريقة « المسلمات الطيبات » التى يشير اليها جيرار دى نرفال ، فهى تعنى طريقة المصريات الطيبات ، فهو فى مكان آخر يقول ان نساء الاقباط فى ذلك العصر كن يتحجبن كالمسلمات . ولكن الذى يسترعى النظر فى وصفه لهذا المجتمع من رواد المسرح أن قوامه كان من الاجانب المحليين ، ولكن كانت بينهم فئات من المصريين من كبار الموظفين ، وان الاجانب المحليين رجالا ونساء كانوا يتزيون بالزى المصرى الرسمى أو الزى التركى يومئذ ، فالرجال لبسوا الطربوش والنساء لبسن الحبرة والبرقع ، لا مجاملة للمصريين ولكن خضوعا للبروتوكول العثمانى الذى كان سائدا فى بلاط الخديوى أو الوالى ممثل الباب العالى غير ان عبارة جيرار دى نرفال التى تقول بأن النساء اللواتى رآهن فى تياترو ديل كايرو لم يكن بينهن « امراة مسلمة بالمعنى الحقيقى » ، عبارة غامضة ، فلقد يكون معناها ان كل الحاضرات كن من الاجنبيات المحليات ، ولقد يكون معناها ان الحاضرات من المصريات كن لا يمثلن المصريات فى شىء ، لخروجهن على تقاليد

المجتمع المصرى وانفصالهن فى صورة مجتمع صغير متفرنج مبتوت الصلة بمجتمع الشارع الذى وصف دى نرفال فيه النساء المتحجبات فى ملابسهن السوداء وكأنهن مجتمع من الراهبات . والتخريج الاخير هو الارجح فى نظرى لان جيرار دى نرفال يذكر لنا ان روادالمسرح كن من الزوجات المترفات أو من سيدات المجتمع اللواتى تحمل كل منها ثروة زوجها حول جيدها أو على صدرها أو فى يدها ، ماسا وأحجارا كريمة من عقود وبروشات وخواتم يخطف بريقها الابصار . وهو مايوحى بأن موظفى الباشا قد اصطحبوا عقائلهم وأجلسوهن فى اللوجات على عادة ذلك العصر

ولكن أيا كان الأمر فهذه الصورة التى رسمها جيرار دى نرفال لنساء مصر نحو عام ١٨٤٠ ، قوامها بلفتـــه « ان القاهرة ، بين مدن الشرق الادنى ، هى المدينة التى لاتزال فيها النساء أصرم تحجبا من ســـواها . ففى استانبول أو ازمير يسمح الموسلين الابيض أو الاســود احيانا بالتكهن بملامح المسلمات الجميلات ، وقلما تؤدى الاوامر المشـــددة الى حملهن على تكثيف هذا النسيج الشفاف . فهن أشبه شىء براهبات رشيقات ذوات دلال وهبن حياتهن لزوج واحد ، ومع هذا فليس يشقيهن أن يحزن الرجال لذلك . أما مصر الوقورة التقية فهى دائما بلد الالغاز والاسرار : فالجمال فيها يحيط نفسه ، كما كان يفعل فى القديم ، بالاحجبة والانقبة ، وهـــذه النظرة الحزينة للحياة تصد الاوربى العابث فى غير عناء » . هذه الصورة المحافظة التى رســـمها جيرار دى نرفال لنساء القاهرة فى ١٨٤٠ تختلف تمام الاختلاف عن الصورة المعربدة أو المنطلقة على اقل تقدير ، التى رسمها الجبرتى

لنساء القاهرة فى ١٨٠٠ . ولكن يبدو أيضا من كلام دى ترفال ان القاهرة لم تكن دائما على هـذه الدرجة من المحافظة والاحتشام . فهو يسجل ان الحياة فى القاهرة كانت اكثر بهجة وبهرجا قبل مجيئه بسنوات قليلة ، واقل التزاما بمكارم الاخلاق :

« اقول الجد : ان الاخلاقيات المصرية شيء ذو طابع خاص . فمن سنوات قليلة كانت الراقصات تتجول بحرية فى المدينة ويملأن الاحتفالات العامة حيوية وينشرن المتعة فى الكازينوهات والقهاوى . اما الآن فهن لايستطعن الظهور الا فى البيوت وفى الاحتفالات الخاصة ، والحريصون من الناس يجدون اقرب الى الاحتشام رقص هؤلاء الرجال ذوى الملامح الانثوية والشـعر الطويل الذين يحاكون باذرعتهم وقوامهم ورقابهم العارية مفاتن الراقصات نصف المستورة فيحدثون أسوأ الاثر »

وهذا يوحى بأن نهاية عهد محمد على وهزيمة مصر أمام الاستعمار العثمانى والاوربى فى اواخر الثلاثينات من القرن الماضى قد صاحبها انتقاض رجعى على حرية المراة وصاحبته عودة عنيفة الى « مجتمع الرجال » والى « مجتمع الغلمان » الذى ورثته مصر عن العصر التركى المملوكى قبل اتصال مصر بحضارة أوربا مباشرة سواء أيام الحكم الفرنسى أو فى عهد محمد على

فاذا رجعنا الى المؤرخ الآخر لعهد الحملة الفرنسية ، نقولا ترك (١٧٦٣ ـ ١٨٢٨) ، وهو أديب شامى ولد فى دير القمر بجبل الدروز وعمل فى خدمة الامير بشير الشهابى ، وكان أجداده من اروام استانبول وانتقلوا الى الشام ، فان الصورة التى يرسمها للحياة الاجتماعية تحت الحكم الفرنسى لاتختلف كثيرا عن الصـورة التى

رسمها الجبرتى ، أن لم تكن أشد منها محافظة لا من الناحية الاخلاقية ولكن من الناحية الطبقية ، فهو يقول :

« فلهذا السبب صعب جدا دخول الافرنج على المصريين فى هذه الديار ولاسيما اذ كانوا يروا نساءهم وبناتهم مكشوفين الوجوه مملوكين من الافرنج جهارا ماشيين معهم فى الطريق . نايمين قايمين فى بيوتهم ، فكانوا يكادوا أن يموتوا من هذه المناظر ، وناهيك تلك الخمامير التى اشتهرت فى كامل أسواق المدينة جهارا ، حتى وفى بعض الجوامع أيضا هذه الروية والمنظر كانت تجعل الاسلام يتنفسوا الصعداء ويطلبوا الموت فى كل ساعة . ولكن فى مدة الفرنساوية كانت الناس الدون فى أحسن حال ، من بياعين وشياليين وارباب صنايع وحمير وسياس وقوادين ونسا خوارج ، وبالنتيجة الاناس الادنيا (يقصد الطبقات الشعبية) كانوا منشرحين وسببه كان اطلاق الحرية . واما الشطر الثانى الأعلى والأوسط (يقصد الطبقة العالية والطبقة المتوسطة) شديد التعب جدا من كامل الملل لسبب وقوف الحال من عدم الداخل والخارج . ولكن مع هذا جميعه ان هذه المملكة العظيمة ما افتقرت الى شيء ، بل وفى كل هذه المدة كان موجود بها مايكفيها . » (« مذكرات نقولا ترك » ص ٣١)

هذه النظرة الطبقية الصريحة توحى بأن الطبقات الشعبية كانت أشد الطبقات مخالطة للفرنسيين ، ويليها بحسب ماروى الجبرتى ، طبقة «الاعيان» من المصريين .

أما الطبقات الشعبية (« الاناس الادنيا » بالمعنى الطبقى لا بالمعنى الاخلاقى ، أى الطبقة الدنيا) فيفهم من كلام نقولا ترك ان دافعها الى هذا الاختلاط « اطلاق الحرية » . واما طبقة الاعيان فيفهم من كلام الجبرتى ان دافعها الى

هذا الاختلاط كان تبادل المصالح . والحصيلة العامة لكل هذا ان مركز المحافظة والاحتجاج على بلبلة القيم المتوارثة نتيجة الحكم الفرنسي ، كان محوره الاساسي أبناء الطبقة المتوسطة . فاذا نحن فهمنا قاموس الجبرتي الاجتماعي على ضوء قاموس نقولا ترك الاجتماعي ، أدركنا ان مايردده الجبرتي من مفردات مثل « الاسافل » ، انما يراد به شيء قريب جدا مما نسميه اليوم « الفوغاء » و « الدهماء » وهم قوام الطبقات الفقيرة في المجتمع ، ان كانت على حال سوية من العقل والوعي سميناها « الشعب » و « الجماهير » وان كانت على حال مضطربة من العربدة والانفلات سميناها «الفوغاء» و «الدهماء» . وليس هناك من سبيل الى معرفة وضع هذه الطبقات الدنيا نحو ١٨٠٠ ، أكانت من جماهير الشعب أم من الفوغاء والدهماء الا بدراسة موضوعية للرأى العام المصرى يومئذ وموقفه من الاستعمار التركى المملوكى ومن الاستعمار الفرنسى جميعا

٣ ـ الجبرتي وحكم القانون

الجبرتي اذن هو أول مفكر فى مصر الحديثة نستطيع أن نستخلص من آثاره موقفه من حضارة الغرب بصفة عامة ومن الفلسفات السياسية والاجتماعية التى كانت تتصارع فى عصره ، ولا سيما كما شـــاهدها معلنة فى بيانات الحملة الفرنســـية أو مطبقـــة فى التنظيمـــات السياسية والاجتماعية التي استحدثتها هذه الحملة

وللجبرتي أهمية خاصة لانه وقف من أحداث هذه الفترة وتياراتها موقفين : موقف المؤرخ المفكر ، وموقف الوزير المسئول ، لانه اشترك فى عضوية الديوان الذى أنشأه عبد الله مينو

أما استقبال الجبرتي للحملة الفرنسية وما جاءت به من نظم وأفكار سياسية واجتماعية جديدة ، فيمكن أن نتتبعه من خلال وصفه لأحداث أوائل القرن التاسع عشر وتعليقاته عليها ، وهى لاتتخذ صورة تحليل منظم وانما تتخذ صورة تلوين الاحداث بآرائه ومعتقداته أو بآراء معاصريه ومعتقداتهم وهو يبدأ كلامه عن ســـنة ١٧٩٨ (١٢١٣ هـ) عام نزول الفرنسيين أرض مصر فى بداية الجزء الثالث « من عجائب الآثار » بقوله :

« وهى أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضـــاعف الشرور

وترادف الامور وتوالى المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضـــوع وتتابع الاهوال واختلاف الاحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الاسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »

واللافت للنظر هو استدراك الجبرتي الاخير على وقوع الكارثة ، ففيه معنى استحقاق أهل مصر لما نزل بهم من محنة الغزو الاجنبى . غير أنه من الصعب أن نحكم ان كان الجبرتى بهذه العبارة يشير الى فســـــاد المجتمع المصرى قبل الحملة الفرنسية والى ما أشـاعه الاتراك والمماليك بالذات فى عهد مراد بك وابراهيم بك من طغيان وظلم وسلب ونهب واستباحة لأرواح البشر وكرامتهم ، بما جعل حكم الفرنسيين فى نظره أقل ظلما وأقرب الى فكرة العدالة من حكم الاتراك والمماليك ، أم أن كلامه قصد به أن يكون شاهدا على قبر الامبراطورية التركية المملوكية معبرا عن فلسفة فى التاريخ مشـــابهة لفلسفة المؤرخ أوروسيوس مسطر نعى الامبراطورية الرومانية من قبل ، وهى فلسفة ترى فى انهيار الامبراطوريات نوعا من القصـــــاص الالهى الذى ترتبه العناية الالهية للامم والشعوب حين يشتد بغيها ويستشرى فسادها وتكثر آثامها ويضيع ايمانها فتبتعد كثيرا عن مدينة الله . وكلا الفرضين جائز لأن الصفحات الســـــود التى خصصها الجبرتى فى الجزء الثـانى لحكم مراد بك وابراهيم بك لاتترك مجالا للشك فى أن الجبرتى كان يكن لذلك العهد مقتا لا مزيد عليه ، فلا يذكر فيه أثرا واحدا لبـارقة بيضاء أو لوميض خير حل بمصر والمصريين ، كمـا ان نظرية القصاص الالهى على فساد الامم جزء لايتجزأ من

كل تفكير ديني أصيل ، وهو المرادف الروحي لما نسميه اليوم الحتمية التاريخية

وإذا أردنا أن نعرف مدى تأثر الجبرتي بالفكر السياسي والاجتماعي الذي دخل مصر أو نشأ منها نتيجة للحملة الفرنسية فيمكننا استقاء ذلك من جملة أمور في كتاباته ، وأهمها موقفه من الفرنسيين عامة ومن التنظيمات والقوانين والعادات والعلوم والفنون والاصلاحات التي استحدثوها ، ثم موقفه من الفرنسيين كبلاء وطني بالقياس الى موقفه من الترك والمماليك كبلاء وطني . ويخيل الى أننا نستطيع أن نطمئن الى أقواله نظرا لما نلمسه فيه من الاجتهاد للموضوعية في أحكامه . ومنه أيضا نستطيع أن نستخلص موقف المصريين من كل هذه الاشياء ، في حدود تصور الجبرتي وعلمه ، وهو يمثل على الاقل وجها من وجوه هذه الصورة المعقدة

وبوجه عام نستطيع أن نحكم أن الجبرتي المفكر كان يجنح الى جملة معتقدات في مقدمتها :

(١) ان الحكم الفرنسي رغم شروره الكثيرة وضرورة رفضه كان في كثير من وجوهه أفضل للمصريين من الحكم المملوكي ومن الارهاب التركي وقد نص على هذا صراحة في مواضع قليلة ، ولكنه أوحى به ضمنا في المقارنات الضمنية الكثيرة التي ساقها في « عجائب الآثار »

(٢) أنه بوجه عام كان يبغض الثورات التي تحكمها الغوغاء والمهيجون المحترفون وتشيع فيها أعمال العنف وسفك الدماء والسلب والنهب حتى ولو كانت باسم الوطنية أو الجهاد الديني

(٣) انه كما كان يقظا الى أعمال الارهاب والاستغلال التي قام بها الفرنسيون كان أيضا يقظا الى اجتهادهم في

اقامة العدالة تشريعا وتنفيذا بطريقة لم يألفها المجتمع المصرى فى عهد المماليك ، ولعل هذا الجانب فى الجبرتى من أوضح جوانبه

(٤) من صفحات الجبرتى نستطيع ان نستخلص موقف الرأى العام ، أو شرائح كبيرة منه فى نظام الحكم الذى اقامه الفرنسيون ، ولاسيما التنظيمات السياسية والادارية والقضائية

(٥) من صفحات الجبرتى نستطيع ان نستخلص مااستحدثه الفرنسيون فى نظام الحكم بمصر ، ومدى السلطة التى كان يتمتع بها الوزراء والحكام المصريون ، وما هو صورى منها وما هو حقيقى ، ومدى مسئولية السلطات العسكرية الفرنسية امام المجالس النيابية المصرية التى انشأوها

اما بالنسبة لرأى الجبرتى فى المفاضلة بين الطبقات الحاكمة فى البلاد ، فهو يذكر ان الكشاف او السناجق اى حكام الاقاليم الذين انتقلوا من خدمة المماليك الى خدمة الفرنسيين كانوا أشد ظلما من سادتهم الجدد فبعد ثورة طنطا والمحلة الكبرى وفرض الغرامات على أهلها يحدثنا الجبرتى عن « التعنت عليهم وتسلط طوائف الكشوفية التابعين لهم الذين هم اقبح فى الظلم من الفرنسيس ، بل ومن العرب فانهم معظم البلاء ايضا . فانهم هم الذين يعرفون دسائس أهل البلاد ويشيعون أحوالهم ويتجسسون على عوراتهم ويغرون بهم » . (١١٢/٣) . ويذكر الجبرتى انه بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية فر كثير من القاهريين الى القرى فقطع العرب عليهم الطريق وجردوهم من كل شىء حتى من ثيابهم ، فاضطر اكثرهم الى العودة الى القاهرة ، وفى هذا يقول

الجبرتى : « واذا اراد الانسان ان يفر الى أبعد مكان وينجو بنفسه ويرضى بغير ابناء جنسه لا يجد طريقا للذهاب وخصوصا من الملاعين الاعراب الذين هم أقبح الاجناس وأعظم بلاء محيط بالناس وبالجملة فالامرعظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم » . (۳/۱۱۰-۱۱۱) فأعراب مصر كانوا فى أيام الجبرتى كما كانوا فى أيام فولنى ، جماعات مسلحة لا عمل لها الا النهب والسلب تعيش بغير رابط يربطهابالحركاتالوطنية التى كانت تجتاح مدن مصر وريفها

اما الوجه الاخر من الصورة ، وهو سلوك الفرنسيين السياسى والادارى فالجبرتى ينص بوضوح على انه كان ذا طابعين : طابع الارهاب الفظيع والتنكيل كلما شبت ثورة او اضطراب ، وطابع العدالة وسيادة القانون ،وهذا يسود فى فترات الاستقرار السياسى . امثلة هذا كثيرة الى درجة تلفت النظر وتوحى بأن الجبرتى انما كان يتوخى أن يعقد مقارنات ضمنية بين هذا الاسلوب فى الحكم وبين ما الفه المصريون تحت الحكم التركى المملوكى من حكم القوة الغاشمة السافرة التى لم تتسرب اليها فكرة القانون

ومن الامثلة التى لفتت نظر الجبرتى ان الفرنسيين لم يعملوا بنظام السخرة الذى كان شائعا فى العهد التركى المملوكى .. ففى قيامهم باقامة منشآتهم يذكر الجبرتى نموذجا لذلك ، وهو بناء الطريق الكبير المحفوف بالاشجار « بحيث صارت طريقا ممتدة من الازبكية الى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العرب جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين وقيدوا بذلك أنفارا منهم يتعهدون تلك الطريق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس

وحوافر الخيول والبغال والحمير وفعلوا كلّ هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى اقرب زمن ولم يسخروا أحدا فى العمل بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهر ويستعينون فى الاشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكفاية » .. كاستعمال العربات ذات العجل لنقل التراب بدلاً من النقل اليدوى البحت فى الغلقان والقصاع الخ

ومن الامثلة التى يسوقها الجبرتى على توخى الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من اعدام بعض جنودهم بسبب قيامهم بأعمال السطو ، او بتعبير الجبرتى : « استهل شهر شعبان ١٣١٣ هـ (١٧٩٨) بيوم الثلاثاء فيه قتلوا ثلاثة انفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل انهم من المتسلقين على الدور » ـ (٣/٣٩) ومنها أيضا ماذكره ، وهو من نص بيان الديوان أو مجلس الوزراء الوارد فى الجبرتى ، تنويها بعقاب بونابرت للخارجين عن القانون حتى ولو كانوا من جنسه أو من ملته : «وقد اقتص من عسكره الذين اساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهرى وقتل منهم اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم عن مقامهم العالى الى أدنى مقام لان الخيانة ليست من عادة الفرنسيس خصوصا مع النساء الارامل فان ذلك قبيح عندهم لايفعله الا كل خسيس ووضع القبض بالقلعة على رجل نصرانى مكاس لانه بلغه انه زاد المظالم فى الجمرك بمصر القديمة على الناس ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمنع غيره من الظلم» (٣/٤٢) ومثله أيضا قول الجبرتى أن الفرنسيين عاقبوا بعض جواسيسهم لنقلهم أخبارا غير صحيحة : « (فى

يوم الثلاثاء) سابعه انتدب للنميمة ثلاث من النصارى الشوام وعرفوهم ان المسلمين قاصدون الوثوب على الفرنسيس في يوم الخميس تاسعه فأرسل قائمقام خلف المهدى والاغا فاحضرهما وذكر لهما تلك فقالا له هذا كذب لا أصل له وانما هي نميمة من النصارى الشوام فقبضوا عليهم وسجنوهم بالقلعة حتى مضى يوم الخميس فلم يظهر صحة ما نقلوه فابقاهم فى الاعتقال » (٣/٤٥) او قوله : « ونبهوا ايضا بالمناداة فى أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عادتهم مع المسلمين اولا ولا يتجاهرون بالاكل والشرب في الاسواق ولا يشربون الدخان ولاشيئا من ذلك بمرأى منهم كل ذلك للاستجلاب لخواطر الرعية» (٣/٤٥) والجبرتى اليقظ الى مغزى هذا السلوك السياسى يطنب فى وصف دوافعه الحقيقية ، وهى تظاهر الفرنسيين باحترام شعور المصريين دينيا كان او اجتماعيا كسبا لودهم وتقربا الى نفوسهم حتى يسلس قيادهم سياسيا. ولكن هذا لا يمنع ان الفرنسيين نقلوا مع ما نقلوا معهم الى مصر فكرة مساواة الناس امام القانون : ومن أمثلة ذلك القانون الذى أصدروه، وهو انه « تحتم ويلزم صاحب كل خمارة او وكالة او بيت الذى يدخل فى محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة او اقليم ان يعرف عنه حالا حاكم البلد ولا يتأخر عن الاخبار الا مدة اربعة وعشرين ساعة يعرفه عن مكانه الذى قدم منه وعن سبب قدومه وعن مدة سفره ومن أى طائفة او ضيفا أو تاجرا أو زائرا او غريما مخاصما لابد لصاحب المكان من ايضاح البيان والحذر ثم الحذر من التلبيس والخيانة واذا لم يقع تعريف عن كامل ما ذكر فى شأن القادم بعد الاربعة وعشرين ساعة باظهار اسمه وبلده وسبب قدومه يكون

صاحب المكان متعديا ومذنبا وخائنا وموالسا مع المماليك. ونخبركم معاشر الرعايا وارباب الخمامير والوكائل ان تكونوا ملزومين بغرامة عشرين ريالا فرانسه فى المرة الاولى واما فى المرة الثانية فان الغرامة تضاعف ثلاث مرات . ونخبركم ان الامر بهذه الاحكام مشتركة بينكم وبين الفرنسيين الفاتحين للخمامير والبيوت والوكائل والسلام » (٣/٥٢ - ٥٣)

ويلاحظ ان كثيرا من القوانين التى اصدرها الفرنسيون فى مصر لم تكن مجرد قوانين طوارىء ، بل كانت قوانين معمولا بها فى فرنسا ذاتها ، ومنها هذا القانون الخاص بتسجيل نزلاء الفنادق والبنسيونات والاخطار عنهم ، ومنها قوانين الكارنتينة (٣/٥٢) وقوانين الشهر العقارى وتسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج (٣/١٤٣) ، ودفن الموتى خارج المدينة بدلا من الحيشان او الخرابات بداخل المدينة (٣/٢٠) ومنها قوانين اقتضتها الحضارة الحديثة ، كاضاءة المصابيح امام البيوت والدكاكين ، وكنس الشوارع وتبخير المنازل وتهوية المفروشات والابلاغ عن المرضى الخ .. واهم من كل هذا مبدأ «نشر» القوانين والاحكام كشرط لنفاذها باستعمال الملصقات فى الميادين وعلى رؤوس الشوارع والحوارى ، لعدم وجود « جريدة رسمية » وقتئذ وكبديل لنظام المنادى الذى لم تكن العصور الوسطى تعرف سواه فقارىء الجبرتى يرى بكل وضوح ان عملية النشر هذه لم تكن قاصرة على البيانات او الانذارات السياسية أو العسكرية ، بل كانت تشمل ايضا ، وبصفة اساسية ، القوانين واللوائح والاحكام سواء أكانت صادرة من السلطات الفرنسية مباشرة أم من اجهزة الحكم المصرية كمجلس الوزراء

(الديوان الخصوصي) او البرلمان (الديوان العمومي)

وأهم من كل هذا الوقفة الطويلة التى وقفها الجبرتى امام محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر واظهر فيهما دهشته واعجابه من الطريقة التى يجرى بها الفرنسيون محاكماتهم . وقد أورد الجبرتى كافة وثائق القضية بنصها : « وقد كنت اعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تراكيبها لقصورهم فى اللغة ثم رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل أفاقى اهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من اخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة واحضر القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم احضروا من اخبرهم وسالوهم على انفراد ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم واطلقوا مصطفى افندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من افعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » (١١٧/٣) .

وأهم ما لفت نظر الجبرتى فى محاكمة سليمان الحلبى هو احاطة المحاكمة بكافة ضمانات العدالة ، واكتشافه أن الاجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها وقد اورد النص

الخاص بتشكيل محكمة عسكرية كل اعضائها من الجنرالات للنظر فى هذه القضية وتعيين مدع عام ومحام للمتهمين يسميه الجبرتى « الوكيل » (وكيل الجمهور)

كما أورد تقرير الطبيب الشرعي (الباش حكيم) والجراح (الجرايحى) عن اصابات كليبر وسبب وفاته ، وشهادة الشهود وكل ما ورد بملف القضية من استجوابات فى محضر التحقيق (س و ج) للفاعل الاصلى ولشركائه وكل ما ورد على لسانهم فى التحقيق فرادى وعند اجراء « المواجهة » واجراء توقيع « المتهمين » كل على أقواله فى التحقيق ، ومداولة القضاة ، والنطق بالحكم ، وتنفيذ الحكم وطريقته ، وأسباب تبرئة مصطفى افندى البورصلى كل هذا مع تدوين لكافة ما اشتمله ملف القضية ونشره فى خمسمائة نسخة باللغات الثلاث الفرنسية والعربية والتركية

ومن الامور الهامة التى اهتم الجبرتى بابرازها « علنية المحاكمة » : ومنها ايضا انه بعد قراءة قرار الاتهام « امر ساري عسكر رينيه بحضور المتهمين المذكورين قدام القضاة وهم من غير قيد ولا رباط بحضور وكيلهم والابواب مفتحة قدام كامل الموجودين » (١٣٢/٣) لمناقشة المتهمين: ومما ابرزه الجبرتى ان استجواب سليمان الحلبى ظل يأخذ الطريق القانوني رغم اصراره على الانكار فلما لم تجد معه الوسائل القانونية جرى ضربه « علي عادة أهل البلاد » ليعترف فاعترف . وواضح من السياق أن العرف فى مصر أيام الترك المماليك كان يقوم على تعذيب المتهمين لاستخلاص الاعترافات منهم

واهتمام كثير من الناس بالاطلاع على وثائق محاكمة سليمان الحلبى ، ذلك الاهتمام الذى دعا الجبرتى كما ذكر

الى اثبات نصها فى « عجائب الاثار » يدل على أن الجبرتى لم يكن وحده فى العجب والاعجاب بنظام القضاء الجديد الذى لم يألفه المصريون ، بل كان هناك رأى عام قد بدا يتكون فى أيامه ، بتأثير هذا الاحتكاك بأجهزة الدولةالحديثة التى دخلت مصر مع الحملة الفرنسية ، رأى عام يستنكر اعدام الناس بلا محاكمة ولو كانوا من الاعداء السياسيين ، ويندد كما ندد الجبرتى بما يسميه « أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجـــرد شهواتهم الحيوانية مما سيتلى عليك بعضه بعد » . وأفعال الاوباش هذه ـ كانت اعمال الانتقام الفوغائية التى نفذها الترك والمماليك فى آلاف من المصريين بعد خروج الفرنسيين بشبهة التعاون معهم دون محاكمة من كل ما فصلهالجبرتى فى « عنجائب الاثار »

ولا يقل اهمية عن محاكمة سليمان الحلبى موقف بونابرت من تعيين قاضى مصر بعد انحياز القاضى الى معسكر الاتراك والمماليك . وكان منصب « قاضى العسكر» هذا اكبر سلطة قضائية فى البلاد وكان قبل بونابرت من تعيينات سلطان تركيا ، فولى بونابرت ابنه ملا زاده مكانه مؤقتا ثم عزله وقبض عليه بسبب تأزم الموقف بينه وبين الترك والمماليك فى حملته على سوريا . وكتب بونابرت الى أعضاء الديوان بهذا العزل « وانه وجه اليكم أنتقترعوا وتختاروا شيخا من العلماء يكون من أهل مصر ومولودا بها يتولى القضاء ويقضى بالاحكام الشرعية كما كانت الملوك المصرية يولون القضاء برأى العلماء للعلماء » (٣/٧٢)

ويلاحظ من هذا اصرار بونابرت على تمصير وظيفة قاضى القضاة من ناحية وعلى أن يكون شغل الوظيفة

بالانتخاب من كبار العلماء . وقد حاول اعضاء الديوان ان يتوسطوا للافراج عن ابن القاضي المعزول ولرده الى منصبه بحجة انه « انسان غريب ومن أولاد الناس الصدور وان كان والده وافق كتخدا الباشا فى فعله فولده مقيم فى أمانكم والمرجو انطلاقه وعوده الى مكانه » . كذلك توسط له الشيخ السادات ، ولكن بونابرت أصر على موقفه من عزل ملا زادهواكتفى بالافراج عنه وانتخب العلماء المصريون الشيخ أحمد العريشى تنفيـــذاً لامر بونابرت وحاولوا من جديد اقناع بونابرت شخصيا بذلك فلـم يتزحزح عــن موقفه ، وكتب بونابرت الى الديوان الرسالة التاليـــة ونشرت على الناس فى الملصقات كالمعتاد .

« الى محفل الديوان من حضرة سارى عسكر الكبــير بونابرتة أمير الجيوش الفرنساوية محب أهل الملة المحمدية خطابا الى السادات العلماء انه وصل الينا مكتوبكم من شأن القاضى نخبركم ان القاضى لم أعزله وانما هو هرب من اقليـم مصر وترك أهله وأولاده وخان صحبتنـا من المعروف والاحسان الذى فعلناه معه وكنت استحسنت ان ابنه يكون عوضا عنه فى محل الحكم فى مدة غيبته ويحكم بدله ولم يكن ابنه قاضيا متوليا للاحكام على الدوام لانه صغير السن ليس هو اهلا للقضاء فقلتم ان محل حــكم الشريعة خال الان من قاض شرعى يحكم بالشريعة واعلموا انى لا أحب مصر خالية من حاكم شرعى يحكم بين المؤمنين فاستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيا شرعيا من علماء مصر وعقلائهم لاجل موافقة القرآن العظيم باتباع سبيل المؤمنين وكذلك مرادى أن حضرة الشيخ العريشى الذى اخترتموه جميعا أن يكون لابسا من عندى وجالسا فى المحكمة وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر

الاول باختيار جميع المؤمنين .. وانتم يا أهل الديوان تهدون الناس الى الصواب والنور من جنابكم لاهل العقول وعرفوا أهل مصر انه انقضت وفرغت دولة العثملى من اقاليم مصر وبطلت أحكامها منها وأخبروهم ان حكم العثملى أشد تعبا من حكم الملوك واكثر ظلما والعاقل يعرف أن علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية وأهلية للاحكام الشرعية يصلحون للقضاء اكثر من غيرهم فى سائر الاقاليم وأنتم يا أهل الديوان عرفونى عن المنافقين المخالفين أخرج من حقهم لان الله تعالى أعطانى القوة العظيمة لاجل ما أعاقبهم فان سيفنا طويل ليس فيه ضعف ومرادى أن تعرفوا أهل مصر ان قصدى بكل قلبى حصول الخير والسعادة لهم مثل ما هو بحر النيل أفضل الانهار وأسعدها كذلك أهل مصر يكونون أسعد الخلائق جميعا باذن رب العالمين والسلام » (٣/٧٣)

ورغم لغة الترغيب والترهيب التى استعملها بونابرت، نستطيع أن نجد مبدأين جديدين استقرا فى النظام القضائى المصرى فى عهد الحملة الفرنسية أولهما تمصير أكبر منصب قضائى فى البلاد وأعلى سلطة مدنية وروحية فيها وثانيهما مبدأ انتخاب رئيس السلطة القضائية بدلا من تعيينه ، وهو منصب شبيه بمنصب مفتى الديار المصرية ، ولكن بسلطات كاملة على كل ما يتصل بشئون الشريعة والقضاء فى زمن كانت كل القوانين فيه مستمدة من احكام الشريعة . وقد أثار بونابرت بقوله « وهكذا كان فعل الخلفاء فى العصر الاول باختيار جميع المؤمنين » مبدأ خطيرا فى أصول الحكم لم يكن المصريون يجترئون على التفكير فيه ، أو على الاقل على المجاهرة به ، وهو أن نظام الحكم فى الاسلام كان نظاما جمهوريا يقوم على الانتخاب

اما قول بونابرت انه يرى أن يكون قاضي القضاة « لابسا من عنده » فهو يقصد أنه لا يكون « لابسا » من عند الباب العالى . و « اللبس » هو الرمز لقرار تقليد السلطة الذى يسمى فى العرف الدستورى الاوروبى Investiture ، وهى كلمة فى اشتقاقها معنى اللبس كما فى العربيـــة ، وصورته المادية فى طقوس تقليد السلطة نجدها فى الجبرتى حين يقول عن الشيخ العريشى « فلما اصبح يوم الجمعة عمـــلوا جمعيـــة (يقصـــد اجتمـــاعا) فى منزل دوجا قائمقام وركبوا صحبته الى بيت سارى عسكر (يقصـــد بونابرت) ومعهم الشـــيخ احمـــد العريشى فألبســـه فروة مثمنة وركبوا جميعا الى المحكمـــة الكبيـرة بين القصرين » (٧٣/٣) . وقـــد ذكر الجبرتى لبـــونابرت سابقة أخرى فى « تلبيس » زعماء المصريين ، أنه بعـــد انتخاب الشيخ الشرقاوى رئيسا للديوان (أى رئيســـا لمجلس الوزراء) ألبسه بونابرت الطيلسان المثلث الالوان ، فما كان من الشيخ الشرقاوى الا أن خلعه وقذف به على الارض متأففا . واصرار بونابرت على البـــاس الرؤساء المصريين هو بمثابة توكيد لوضعه بوصفه السلطة العليا فى البلاد بدلا من سلطان تركيا الذى كان أيضـــا خليفة المسلمين ، وقبول اللبس من بونابرت يتضمن اعترافا بانه صاحب السلطة العليا لا سلطان تركيا . ولاشك أن الزعماء المصريين كانوا يدركون مغزى هذه الرموز والا لما احســوا بكل هذا الحرج الذى وصفه الجبرتى حين فرض عليهم لبس الكوكارد ، رمز الثورة الفرنسية (١)

---

(١) « (وقبه) طلب سارى عســـكر بونابارته المشايخ فلما اســـتقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ورجع وبيده طيلســـانات ملونة بثلاثة

اما موقف الجبرتي من الثورة وأعمال العنف فواضح من وصفه لثورتي القاهرة ، ولمختلف الفتن التي نشبت بمصر ابان الحكم الفرنسي . فهو دائما يقرن قيام الثورات بانحرافها عن اهدافها الاصلية وتحولها الى السلب والنهب وسفك دماء الابرياء . ففي ثورة القاهرة الاولى يقول الجبرتي « وخرجت العامة عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى

الوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض واحمر وكحلي فوضع منها واحدا على كتف الشيخ الشرقاوي فرمى به الى الارض واستعفى وتغير لونه واحتد طبعه فقال الترجمان يامشايخ انتم صرتم احبابا لسارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فان تميزتم بذلك عظمتكم العساكر وصار لكم منزلة في قلوبهم فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند اخواننا من المسلمين فاغتاظ لذلك وتكلم بلسانه وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي أنه لايصلح للرياسة ونحو ذلك فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك فقال أن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار (يقصد الكوكارد) في صدوركم وهي العلامة التي يقال لها الوردة (يقصد الروزيت) فقالوا امهلونا حتى نتروى في ذلك واتفقوا على اثني عشر يوما (وفي ذلك) الوقت حضر الشيخ السادات باستدعاء انصادفهم منصرفين فلما استقر به الجلوس بش له وضاحكه سارى عسكر ولاطفه في القول الذي يعربه الترجمان وأهدى له خاتم الماس وكلفه الحضور في الغد عنده واحضر له جوكار أوثقه بفراجته فسكت وسايره وقام وانصرف فلما خرج من عنده رفعه على أن ذلك لايخل بالدين (وفي ذلك اليوم) نادي جماعة القلقات على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة وهي اشارة الطاعة والمحبة فأنف غالب الناس من وضعها وبعضهم رأى أن ذلك لايخل بالدين اذ هو مكره وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر لوضعها ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بابطالها من العامة والزموا بعض الاعيان ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها فكانوا يضعونها اذا حضروا عندهم ويرفعونها اذا انفصلوا عنهم وذلك أيام قليلة وحصل مايأتي ذكره فتركت » . (١٧/٣)

الشوام والاروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام وأخذوا الودائع والامانات وسبوا النساء والبنات» (٣/٢٥) وأسهب الجبرتى فى وصف دور الزعر والحرافيش فى اشاعة الفوضى.

ولكن ما حدث فى ثورة القاهرة الاولى لا يقاس فى شيء الى ما حدث فى ثورة القاهرة الثانية ، لان ثورة القاهرة الاولى كانت فيما يبدو ثورة وطنية خالصة قامت احتجاجا على نظام الضرائب ورسوم التسجيل الذى وضعه الفرنسيون وكان زمام الموقف فيها الى حد كبير فى يد المصريين وزعمائهم كالشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان والشيخ أحمد الشرقاوى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ اسماعيل البراوى فلا تسمع فيها عن اى اذى نزل بالاقباط . وانما اقتصر اعتداء الغوغاء على « نصارى الشوام والاروام »

والجبرتى هنا مخطىء لان الكوكارد هى ألوان الثورة الفرنسية فى ثلاث دوائر احداها داخل الاخرى ، أما الروزيت أو الوردة فهى نيشان اللجيون دونير والكوكارد قد تكون من رموز الولاء لمبادىء الثورة الفرنسية ولكنها ليست من رموز السلطة . أما الطيلسان فهو من رموز السلطة ، وهو المقابل لبدلة التشريفة التى يلبسها الوزراء فى النظام العثمانى عند زيارة السلطان أو نائبه ، وخلعها عليهم أو الباسهم اياها فيه معنى أن السلطان هو مصدر سلطتهم ، ومصدر قرار تعيينهم ، واعداد بونابرت الطيلسانات لاعضاء الديوان يؤيد ماذهبت اليه من أن قصده أن يكون الديوان مجلس وزراء بالمعنى الكامل.
والتاريخ يذكر ان بونابرت نفسه مر بتجربة مشابهة وتصرف كما تصرف الشيخ الشرقاوى ، وذلك فى حفل تتويجه « امبراطورا » باسم « نابوليون الاول » فى كاتدرائية نوتردام بباريس ، فقد رفض نابوليون أن يلبسه البابا تاج الامبراطورية فأخذ التاج من يده والبسه لنفسه رمزا لان السلطة الزمنية غير مستمدة من السلطة الدينية كما كان الحال مع أباطرة العصور الوسطى وملوك فرنسا حتى الثورة الفرنسية

الذين تحزبوا للفرنسيين ولا سيما بعد ما نزل بهم من تنكيل . إما ثورة القاهرة الثانية فقد كان واضحا منذ البداية حتى النهاية أن قيادتها كانت بيد الاتراك والمماليك المسكرين بمشارف القاهرة والمتسللين اليها وبيد عملائهم من المغاربة والغرباء ، ولذا انحرفت عن هدفها الوطنى وتحولت الى حرب دينية صريحة جعلت من الاقباط هدفا لها ، وكانت من الاسباب المباشرة لتكتل الاقباط وانشاء الفيلق القبطى بقيادة المعلم الجنرال يعقوب الذى لم ينشا الا فى ٥ محرم ١٢١٥ هـ (١٨٠٠) أى قبل مقتل كليبر باسبوعين

وقد اثبت التحقيق مع سليمان الحلبى وشركائه عبد القادر الغزى ومحمد الغزى وعبد الله الغزى واحمد الوالى أن مقتل كليبر كان بتدبير الاتراك وتمويلهم . اما تكوين الفيلق القبطى فقد قال فيه الجبرتى: « (وفيه) طلبوا عسكرا من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وارسلوا الى الصعيد فجمعوا من شبانهم نحو الالفين واحضروهم الى مصر واضافوهم الى العسكر » (٣/١١٥) وفى وصف ثورة القاهرة الثانية يقول الجبرتى:

« وخرج السيد عمر أفندى نقيب الاشراف والسيد احمد المحروقى وانضم اليهما اتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وكذلك حسين اغاشنن أخو أيوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة أهل البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العامة والاوباش والحشرات .. الى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة

على الشرح المتقدم وخلفهم ابراهيم بيك ثم أخرى وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ثم نصوح باشا (يقصد القائد التركى) وعدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بيك الجداوى وعثمان بك المرادى وعثمان بيك الاشقر وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان اغا الخازندار وابراهيم بيك المعروف بالسنارى وصحبتهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا الى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم عندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة الى حارات النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين لهم فتحزبت النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ماقدر عليه من العسكر الفرنساوى والاروام وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الاسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الامر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمي بالبندق والقرابين من طبقات الدور على المجتمعين بالازقة من العامة والعسكر ويحامون عن انفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها »"(٣/٩١-٩٢)

وسط هذا الاضطراب الدموى وقنابل الفرنسيين انتاب الذعر بعض الاهالى الوادعين فأرادوا الخروج من القاهرة ليلا الى الريف طلبا

للامان ، فتجمهر عليهم أتراك خان الخليلي من «الالداشات» ومفاربة الفحامين والفورية وعساكر الانكشارية ومنعوهم من مغادرة العاصمة ، ونشروا فى القاهرة لونا من الارهاب الفظيع . واستمر القتال ليلا ونهارا ، « وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنساوى أخذه وذهب به الى الجمالية حيث عثمان كتخدا ويأخذ عليه البقشيش فيحبس البعض حتى يظهر أمره ويقتل البعض ظلما وربما قتل العامة من قتلوه وأتوا براسه لاجل البقشيش وكذلك كل من قطع رأسا من رؤوس الفرنساوية يذهب بها اما لنصوح باشا بالازبكية واما لعثمان كتخدا بالجمالية ويأخذ فى مقابلة ذلك الدرهم » (٩٣/٣) وسرعان ما امتدت الحرب الدينية الى بولاق « واستطالوا على من كان ساكنا ببولاق من نصارى القبط والشوام فأوقعوا بهم بعض النهب وربما قتل منهم أشخاص » (٩٦/٣) . وحاصروا زعماء الاقباط « واما أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتيوس وملطى فانهم طلبوا الامان من المتكلمين من المسلمين لكونهم انحصروا فى دورهم وهم فى وسطهم وخافوا على نهب دورهم اذا خرجوا فارين فأرسلوا اليهم الامان فحضروا وقابلوا الباشا والكتخدا والامراء واعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقوب فانه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهة الرويعى واستعد استعدادا كبيرا بالسلاح والعسكر المحاربين وتحصن بقلعته التى كان شيدها بعد الواقعة الاولى فكان معظم حرب حسن بيك الجداوى معه هذا والمناداة فى كل وقت بالعربى والتركى على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس » (٩٦/٣)

وفى وسط هذه الفوضى الشاملة برز آفاق مغربى وتزعم غوغاء القاهرة وسيطر على الجماهير حتى اصبح

السلطة العليا للثورة او ملكا غير متوج فى القاهرة ، وأفلت زمام الحركة الوطنية من أيدى زعماء الشعب الحقيقيين . وفيه يقول الجبرتى : « وحضر ايضا رجل مغربى يقال انه الذى كان يحارب الفرنسيين بجهة البحيرة سابقا والتف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قد صحبه الجيلانى الذى تقدم ذكره ولعل ذلك الرجل المغربى أمورا تنكر عليه لان غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه فكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العامة والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب ومنهم من قطع راس البنية الصغيرة طمعا فيما على راسها وشعرها من الذهب وتتبع الناس عورات بعضهم البعض وما دعتهم اليه حظوظ انفسهم وحقدهم وضغائنهم » (٩٤/٣)

وهكذا تحولت ثورة القاهرة الثانية الى مسرح للمذابح الدينية ومرجل للضغائن الشخصية ، فاستبيح فيها كل شيء . ولم يسلم بعض زعماء البلاد كالسيد خليل البكرى فاهين ابلغ اهانة وساقه الفوغاء عارى الراس ذليلا فى الشوارع ، وضرب الانكشارية الشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى وسبوهما بأقذع الالفاظ ورموا عمامتيهما ، لانهما كانا يتوسطان مع الفرنسيين لحقن الدماء ومعهما الشيخ المهدى والشيخ الفيومى وغيرهما . وأصبح زعماء البلاد الحقيقيون المسلمون منهم قبل الاقباط، شبه أسرى فى أيدى المغربى وغوغائه ونصوح باشا القائد التركى وانكشاريته والبكوات المماليك وجيشهم . واضطروا على مضض منهم الى تمويل الفتنة « فالزموا الشيخ السادات بكلفة الذى

عنـد قناطر السبـاع وهم مصطفى بيك ومن معه من العساكر » (٩٦/٣) والزموا جرجس الجوهرى ان يمول بالمال واللوازم الباشا والكتخدا والمماليك . ويذكر الجبرتي نموذجا رائعا لتضامن المصريين فى هذا البلاء بمناسبة حديثه عن محنة السيد خليل البكرى فيقول : « واخذه سيدى أحمد بن محمود التاجر مع حريمـه الى داره واكرمهم وكساهم واقاموا عنـده حتى انقضت الحادثة وباشر السيد احمد المحروقى وباقى التجار ومساتير الناس الكلف والنفقات والمآكل والمشارب وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه وأعان بعضهم بعضا وفعلوا ما فى وسعهم وطاقتهم من المعونة » (٩٤/٣)

وقد ساد الارهاب المدينة حتى أن زعماء البلاد وعقلاءها كانوا يتهمون بالارتداد عن الدين وبالتآمر على الاسلام وبالارتشاء من الفرنسيين ، ومن هؤلاء الزعماء من ماشى الغوغاء والانكشارية لحظة خشية على حياته ، أو كما جاء فى الصورة الرهيبة التى رسمها الجبرتى للموقف :

« فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ، ورموا عمائمهم واسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم اخذوا دراهم من الفرنسيين وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول وتشدد فى ذلك الرجل المغربى الملتف عليه اخلاط العالم ونادى من عند نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه وكان السادات ببيت الصاوى فتحير واحتال بأن خرج وأمامه شخص ينادى

بقوله الزموا المتاريس ليقي بذلك نفسه من العامة ووافق ذلك اغراض العامة لعدم ادراكهم لعواقب الامور فالتفوا عليه وتعضد كل بالاخر وان غرضه هو (يقصد المغربى) فى دوام الفتنة فان بها يتوصل لمايريده من النهب والسلب والتصور بصورة الامارة باجتماع الاوغاد

عليه وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم اليه واشتطاط من المآكل مع فقد الناس لها دون مايؤكل حتى انه كان اذا نزل جهة من جهات المدينة لاظهار انه يريد المونة او الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول لا آكل الا الفراخ ويظهر انه صائم فيكلف أهل تلك الجهة انواع

المشقات والتكلفات بتعنته فى هذه الشدة بطلب افحش الماكولات وماهو مفقود ثم هو مع ذلك لايغنى شيئا اذا دهم العدو تلك الجهة التى هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسبحه ثم هو ليس ممن له فى مصر مايخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك بل

قيل لا ناقتى فيها ولاجملى فاذا قدز ماقدر تخلص مع حزبه الى بعض الجهات والتحق بالريف أو غيره وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الاولى وتبطل الهيئة الاجتماعية التى جعلها لجلب الدنيا فخا منصوبا ومخرق بها على سخاف العقول واخفاء الاحلام وهكذا الفتن تكثر فيها الدجاجلة ولو أن نيته ممحضة لخصوص الجهاد

لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علم أو اقتحم كغيره ممن سمعنا من المخلصين فى الجهاد وفى بيع انفسهم فى مرضاة رب العباد لظا الهيجاء .. ولم يتعنت على الفقراء ولم يجعل همته فى السلب مصروفة وحال سلوكه عند الناس ليست معروفة .. وبالجملة فكان هذا الرجل سببا فى تهدم أغلب المنازل بالازبكية ومن جملة

مارميت به مصر من البلاء وكان مما ينادي به عليه حين اشيع أمر الصلح وتكلم به الاشياخ الصلح منقـــوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضرب عنقه وهذا منه افتيات وفضول ودخول فيما لايعنى حيث كان فى البلد مثـل الباشا والكتخدا والامراء المصرية فما قدر هذا الاهوج حتى ينقض صلحا أو يبرمه وأى شيء يكون هو حتى ينادى أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك لكنها الفتن يستنسر بها البغاث ســـيما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والغوغاء اذ كان ذلك مما يوافق أغراضهم .» (٣/٩٩ - ١٠٠)

هذه هى الصورة الكاملة لثورة القاهرة الثانية كمـــا رسمها الجبرتى وبعد اخمادها تلتها صور من التنكيل لاتقل عنها شناعة ، وفى هذه الصورة نبحث عن المصريين وقادتهم من العلماء فلا نجدهم بل نجد اكثرهم قد وقع بين شقى الرحى ، بين الاستعمار التركى والاســـتعمار الفرنسى محاولين انقاذ ما يمكن انقاذه وسط هذه الزعازع . فى هذه الصورة لانسمع عن المصريين كطلائع للثورة ولكن نسمع عن ذلك الأفاق المغربى زعيم الرعاع بعصـــاباته المسلحة من المغاربة والحجازية ، ونســـمع عن مغاربة الفحامين وطولون والفورية من عمـــلاء الباب العالى ، ونسمع عن أتراك خان الخليلى ونسمع عن نصوح باشا القائد التركى وعن عثمـــان كتخدا وعن الانكشارية وعن ابراهيم بك والبـــكوات المماليك ولاســـيما حسن بك الجداوى وحسين أغا شنن . أما السيد عمر مكرم نقيب الاشراف والسـيد احمد المحروقى كبير تجار القـــاهرة فرغم وجودهما فى الصورة لا نحس من صفحات الجبرتى انهما كانا يلعبان دورا قياديا حاسما فى هذه الثورة التى

تدفقت فيها الاموال التركية والمملوكية ، بل والانجليزية ايضا ، وسلمت قيادتها لاعوان الباب العالى ولاصدقائه ولعملائه فلم تجد سندا تستثير به الفوغاء والحرافيش الا اثارة النعرة الدينية وارهاب البسطاء للجهاد فى سبيل الدين واتهام الزعماء المصريين بالخيانة والارتشاء من الفرنسيين ، وماهؤلاء الزعماء الا أمثال الشيخ الشرقاوى الذى تحدى بونابرت وجها لوجه والقى بطيلسانه المثلث الالوان على الارض ، والشيخ المهدى الذى كان بونابرت يقول عنه وعن زميله الشيخ الصاوى أنهما ليسا (بوتو) بلغة الجبرتى (٧٧/٣) وعامة أعضاء مجلس الوزراء الذين اعتقلوا واحدا واحدا فى فترات مختلفة بسبب مواقفهم الوطنية . ولو أن كل هذا التطرف والغلو كان لحساب مصر ومن أجل استقلالها لاختلف الامر ولبدا الرؤساء المصريون فى موقف الانهزاميين المهادنين حقا للاستعمار الفرنسى ، ولكنه كان لحساب الاتراك والمماليك وبقصد اعادة مصر الى حظيرة الامبراطورية العثمانية . والجبرتى الذى تابع أحداث ذلك العهد وما قبله وما بعده يوما بيوم وعرف رجالات مصر معرفة شخصية كان رغم محافظته من بعض النواحى من طليعة العلماء الذين يمثلون الازهر الجديد ، الازهر الثائر ، الازهر المتمرد على قيم العصور الوسطى ، الازهر الذى انجب حسن العطار ثم رفاعة الطهطاوى ثم محمد عبده ، باختصار الازهر الذى أراد أن يواجه مسئوليات الدولة الحديثة بمنطق الحضارة الحديثة وبادوات العلم الحديث . فشهادة الجبرتى فى « عجائب الآثار » اذن ينبغى أن تؤخذ بلا تحفظ على أنها تمثل وجهة نظر الطليعة الوطنية المثقفة فى البلاد . ولعل الخطاب التالى الذى ارسله الشيخ

السادات مع السيد أحمد المحروقي الى عثمان كتخدا خير معبر عن سخط المصريين وخيبة أمل زعمائهم ، حتى من تعاون منهم مع الاتراك والمماليك بقصد استخدامهم أعوانا يطردون بهم الفرنسيين ، نتيجة للفظائع التي ارتكبها الاتراك والمماليك والمغاربة باسم الجهاد الديني ثم مبادرتهم الى الفرار حين سحق كليبر ثورة القاهرة ، وهذا الخطاب يوضح أن الاتراك والمماليك والمغاربة كانوا السبب فى انحراف ثورة القاهرة الوطنية

ويثبت أن شرهم لم يكتو به الاقباط وحدهم وانما اكتوى به المسلمون كذلك . قال الجبرتي :

« وقد كان لما حصل ماتقدم من نقض الصلح ودخول العثمانية وعساكرهم الي المدينة ووقع ماتقدم وكلفوا الناس الامور الغير اللائقة حضر السيد أحمد المحروقي الى الشيخ أبى الانوار السادات بجواب عن لسان عثمان كتخدا الدولة فكتب له الشيخ تذكرة وصورتها :

« حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وما هى من الظالمين ببعيد

ظننت أنك عدتي أسطو بها
ويدى اذا اشتد الزمان وساعدى .

فرميت منك بغير ما أملته
والمرء يشرق بالزلال البارد

« اما بعد لقد خنت عهدى وتركت مودة آل بيت جدى وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة فأعنتهم على البغى والجور وسارعت فى تنجيز مرامهم الفاسد على الفور من الزامكم الكبير والصغير والغنى والفقير اطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات فكان جهادهم فى

اماكن الموبقات والملاهي حتى نزل بالمسلمين اعظم المصائب والدواهي فاستحكم الدمار والخراب ومنعت الاقوات وانقطعت الاسباب فبذلك كان عسكركم مخذولا وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا كيف لا واكابركم اضمرت السوء للمرتزقة في تضييق معايشهم وأخذ مرتباتهم واتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم وقد اخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها ثم فررتم فرار الفيران من السنور وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الامور فواغوثاه واغوثاه أغثنا ياغياث المستغيثين واحكم بعدلك ياحاكم الحاكمين وانصرنا وانتصر لنا فاننا عبيدك الضعفاء المظلومين يا أرحم الراحمين » (٣/١٠٣)

هذا عن موقف الجبرتي من ثورة القاهرة الاولى وثورتها الثانية . واذا كان السيد عمر مكرم والسيد احمد المحروقي وكثير من المصريين قد تبعوا الجيش

التركي وجيوش المماليك عند انسحابها من مصر بعد هزيمتها واخماد الثورة ، فان الزعماء المسئولين ، ومنهم الشيخ السادات ، ثبتوا في القاهرة ليواجهوا مصير الثوار الفاشلين مع بقية ابناء الشعب . ولقد كان القصاص فظيعا ..

٤ ـ الجبرتي ونظام الحكم

ومن اهم المواضيع التي ينبغي دراستها في الجبرتي موقف الجبرتي وموقف الشعب المصري من التنظيمات السياسية التي أدخلها بونابرت في مصر ، ولا سيما الديوان العمومي المكون من ستين عضوا ، وهو أول مجلس نيابي عرفته مصر في العصر الحديث ، والديوان الخصوصي المختار من بين أعضائه والمكون من أربعة عشر عضوا ، وهو أول مجلس وزراء عرفته مصر ، ثم طريقة العمل بهذه الدواوين واختصاصاتها ومدى مسئوليتها أمام الشعب وأمام القائد العام الفرنسي ووضعها « الدستوري » أن جاز هذا التعبير في اطار الحكم الفرنسي . أما عن موقف الشعب المصري من الحكم النيابي ، فقد بين الجبرتي فرح الشعب بعودة الديوان بعد تعطيله ، بما يدل على أنه برغم وجود رأى عام متطرف يرى في هذه الواجهة من الحكم المصري مجرد أدوات يمارس بها الفرنسيون السلطة المدنية في البلاد ، فقد كان هناك أيضا رأى عام لايقل عنه تبلورا يؤمن بأن الحكم النيابي مجن يقي المصريين الكثير من بلايا الاستعمار الفرنسي ويحاول تقليم أظافره والحد من سلطته المطلقة . وصفحات الجبرتي تترى بأخبار المساعي الحميدة التي كان يقوم بها أعضاء الديوان فرادى ومجتمعين طوال

فترة الحملة الفرنسية للافراج عن المعتقلين السياسيين بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية ، بما يدل على أنه كان الملاذ الطبيعي للشعب المصرى فى كل نازلة تنزل به . وفى الغالبية المطلقة من الحالات كانت وساطة أعضاء الديوان تكلل بالنجاح ، فينزل صارى عسكر أو قائمقامه على رغبة زعماء البلاد ويأمر بالافراج عن المعتقلين ، أو بالعفو الفردى او بالعفو العام بعد الثورات أو الاضطرابات . كذلك تترى صحائف الجبرتى بأنباء الضغط الذى كان يباشره أعضاء الديوان على الحكم الفرنسى لالغاء المصادرات ، ولتخفيف الضرائب أو الغرامات ولتقسيطها . وقارىء الجبرتى يستطيع أن يرى بوضوح أن الامر لم يكن عملية املاء من جانب واحد ، وأنه حتى فى البيانات التى كان يصدرها الديوان لتهدئة الخواطر الثائرة ، كانت هناك اسس للحكم استخلصها الزعماء المصريون من بونابرت وخلفائه . ففى البيان الذى أصدره الديوان الى الشعب المصرى بتاريخ ٨ جمادى الثانية ١٢١٣ (١٧٩٨) لتهدئة الخواطر : « نصيحة من علماء الاسلام بمصر المحروسة نخبركم يا اهل المدائن والامصار من المؤمنين ويا سكان الارياف من العربان والفلاحين ... بان حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لاينازع أحدا فى دين الاسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الاحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على اخذ الخراج ويزيل ما احدثه الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بابراهيم ومراد » (٣١/٣ ــ ٣٢) ، وهذا يدل على أن العلماء قبل اصدار هذا البيان قد اشترطوا العمل بجملة مبادىء أساسية للحكم واستخلصوا من بونابرت تعهدا بها ، وهى احترام

الدين ، وعدم المساس بأحكام الشريعة واقامة العدل والغاء مظالم المماليك واقتصار واجبات المصريين ازاء الدولة على دفع الضرائب

ولمعرفة الاوضاع الدستورية فى تلك الفترة ينبغى تتبع (الملصقات) الكثيرة التى كانت اجهزة الحكم (تنشر) بها البيانات والمراسيم والقوانين والقرارات وعامة ما تنظم به العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وبتأمل هذه الملصقات نجد انها من ثلاثة انواع (١) ملصقات موجهة من السلطات الفرنسية الى الشعب المصرى مباشرة (٢) ملصقات موجهة من السلطات الفرنسية الى مجلس الوزراء (الديوان الخصوصى) او الى البرلمان (الديوان العمومى) (٣) ملصقات موجهة من مجلس الوزراء او البرلمان الى الشعب المصرى . وبتحليل نصوص هذه الملصقات نخرج بنتيجتين على غاية قصوى من الاهمية : أولاهما ان هذه المجالس النيابية والتنفيذية المصرية كانت لها سلطة اصدار القوانين فيما لا يمس السياسة العليا ، وثانيهما ان بونابرت كان يعد نفسه (شكليا) مسئولا أمام (محفل الديوان) المصرى بمثل ماكان مسئولا فعليا امام حكومة الادارة أو المؤتمر الوطنى فى بلاده ، فكان يقدم التقارير للديوان اولا بأول عن اعماله وتحركاته وانتصاراته وانسحاباته العسكرية بتفصيل شديد ، بل لقد سمى فى تقرير مشهور له جيشه المحارب فى سوريا باسم (جيش مصر) . وتحدث عن انتصار هذا الجيش تحدثه عن انتصار الجيش المصرى . ولا شك أن مراعاة بونابرت أن يحافظ على هذه المسئولية الشكلية أمر يلفت النظر حقا : ويبدو من كلام الجبرتى ان بيانات السلطات الفرنسية الموجهة الى الشعب المصرى رأسا نفسها كانت تقسرأ فى

البرلمان قبل نشرها في الملصقات ، ففى الجبرتى أنه :

« ولما اخذوا غزة ارسلوا طومارا بصورة الواقعة وبصموه نسخا وقرىء بالديوان والصقوا نسخه المطبوعة بالاسواق وصورته :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ولا عدوان الا على الظالمين نخبر أهل مصر وأقاليمها أنه حضر فرمان مكتوب من غزة من حضرة الجنرال اسكندر برتييه خطابا الى حضرة سارى عسكر دوجا وكيل الجيوش بمصر يخبره فيه بأن العساكر الفرنساوية .. الخ » (٣–٤٧)

وفى ثانى يوم من السنة الهجرية ١٢١٤ (١٨٩٩) جاء خطاب :

« من بونابارته سارى عسكر امير الجيوش الفرنساوية الى محفل ديوان مصر نخبركم عن سفره من بر الشام الى مصر فانى بغاية العجلة بحضورى لطرفكم نسافر بعد ثلاثة ايام تمضى من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوما وجائب معى جملة محابيس بكثرة وبيارق ومحقت سراية الجزار وسور عكا .. الخ » (٣/٦٧ – ٦٨)

ومثل هذا :

« (وفى سابع عشرينه) لخص الفرنساوية طومارا قرى بالديوان وطبع منه عدة نسخ وألصقت بالاسواق على العادة .. وصورتها من محفل الديوان الكبير بمصر بسم الله الرحمن الرحيم ولا عدوان الا على الظالمين نخبر أهل مصر اجمعين انه حضر جواب من عكا من حضرة سارى عسكر الكبير خطابا الى حضرة سارى عسكرى الوكيل بثغر دمياط .. » الى آخر مافصله من

وبهذا يكون قد استجد في مصر تقليد دستورى أساسه ان يقدم القائد العام مباشرة او عن طريق نائبه تقاريرعن نتائج اعماله العسكرية الى « محفل الديوان » قبل نشرها على الناس . ومن العبث ان نظن ان هذه التقارير كانت تقدم سواء لمجرد «العلم» أو «للتصديق» عليها ، فكلا الفرضين يقوم على التعسف ، وانما كانت تقدم كعرف دستورى شكلى يتضمن اعترافا شكليا بشخصية الديوان العمومى على أنه سلطة نيابية شرعية وانه حلقة وصل بين السلطة العسكرية والشعب المصرى . وفى كثير من الاحوال كانت هذه التقارير المقدمة الى البرلمان لا تنشر مباشرة ولكن تصدر فى صورة بيان يصدره (محفل الديوان الكبير) للشعب المصرى

أما اختصاص المجلس النيابى باصدار القوانين فواضح من الامثلة التى ساقها الجبرتى وهذا نموذج منها خاص بفرض عقوبة الاعدام فى احوال معينة منعا لانتشار مرض السفلس :

« من محفل الديوان العمومى الى جميع سكان مصر وبولاق ومصر القديمة اننا قد تأملنا وميزنا ان الواسطة الاقرب والايمن لتلطيف او لمنع الخطر الضرورى وهو تشويش الطاعون عدم المخالطة مع النساء المشهورات لانهن الواسطة الأولى للتشويش المذكور فلأجل ذلك حتمنا ورتبنا ومنعنا الى مدة ثلاثين يوما من تاريخه اعلاه لجميع الناس ان كان فرنساويا أو مسلما أو روميا او نصرانيا أو يهوديا من اى ملة كان كل من ادخل الى مصر او بولاق أو مصر القديمة من النساء المشهورات ان كان فى بيوت العسكر او كل من كان داخل المدينة فيكون قصاصه

بالموت كذلك من قبل النساء والبنات المشهورات بالعسكر ان دخلن من انفسهن أيضا يقاصصن بالموت » (٥٧/٣)

وهذه الوثيقة ذات أهمية عظمى لانها تثبت ان ولاية البرلمان المصرى فيما يتصل بسن القوانين المدنية كانت نافذة لا على الرعايا المصريين فحسب ، ولكن على الاجانب أيضا بما فيهم جنود جيش الاحتلال . ونظيرها القانون الخاص بتسجيل نزلاء الفنادق وابلاغ الاقسام عنهم . ففيه نص يدل على سريانة على الفرنسيين مثل المصريين .

وهي ونظائرها تثبت ان سلطة اصدار القوانين فيما لايمس السياسة العليا كانت من اختصاص الديوان العمومي ، او محفل الديوان الكبير كما كان يسمى احيانا او(الديوان الديمومي) كما سمى فى مرسوم انشائه (٣٧/٣) ويفسره الرافعي بالديوان الدائم ولكن لا يبعد ان تكون تسميته الاصلية من (ديموس) اى (الشعب) بمعنى:ديوان الشعب . والمعنى محفوظ فى كلمة العمومى ، كما فى اصطلاح (مجلس العموم) البريطانى

ومن الممكن بناء عليه للمشتغلين بتاريخ القانون والفقه الدستورى أن يجمعوا من صفحات الجبرتي مجموعة التشريعات التى أصدرها البرلمان المصرى الاول . كما أن هناك عدة نماذج من قرارات مجلس الوزراء (الديوان الخصوصى) يمكن ايضا جمعها من الجبرتى

ومن التقارير المؤكدة للصفة النيابية للديوان العمومي التقرير الوارد من السلطات الفرنسية الى هذا الديوان بشأن الاعمال الحربية فى ابو قير ، حيث يقول الجبرتى :

« وصورتها لا اله الا الله صلى الله عليه وسلم نخبركم محفل الديوان بمصر المنتخب من احسن الناس واكملهم

بالعقل والتدبير عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الاشواق الزائدة اليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام لهذا المكتوب اننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا الى اقليم البحيرة الخ .. » (٣/٧٥-٧٦)

وهذا النص يؤكد ايضا مسئولية الجيش أمام البرلمان من ناحية الشكل والتنظيم الدستورى ، وهو وضع مشابه للاوضاع فى فرنسا ذاتها بعد الثورة الفرنسية. وقد كان آخر عمل عمله بونابرت بمصر هو ابلاغ المصريين بعودته الى فرنسا وبيان أسباب هذه العودة واصدار مرسوم بتعيين كليبر قائدا عاما مكانه . وقد قرأ الجنرال دوجا هذه الوثيقة على اعضاء الديوان أو (الرؤساء المصرية) كما يسميهم الجبرتى (٣/٧٩)

كل هذه التنظيمات السياسية والتقاليد الدستورية التى أستجدت فى مصر خلال الحملة الفرنسية ، وفصل الجبرتى ذكرها تفصيلا وافيا ، بالاضافة الى النظريات الأساسية الواردة فى بيانات بونابرت الأولى الداعية ضد فلسفة الحق الالهى والنظام الاقطاعى والامتيازات الطبقية الوراثية والمنادية بالمساواة أمام القانون وبتكافؤ الفرص وبكافة حقوق الانسان وبتمجيد القومية المصرية ، كانت بغير شك الدعائم الاولى للفكر السياسى والاجتماعى الجديد فى مصر الحديثة . واذا كان من العسير العثور فى الجبرتى على افكار سياسية واجتماعية بالمعنى المنظم المبلور فى فلسفةنظريةفان تدوينه لكل هذه الاحداث فى موضوعية كافية قد جعل من مدونته العظيمة مصدرا هاما من مصادر تكون الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر وما طرأ عليه من تاثيرات

ثورية خطيرة ما كانت لتطرأ عليه الا نتيجة لاحتكاك المصريين بنظم الحكم وأساليبه ونظرياته الواردة عليهم من الغرب مع الحملة الفرنسية وما تلاها من اتصال مستمر بعد قرون من العزلة الكاملة داخل أسوار الامبراطورية العثمانية

هذه اذن كانت بدايات الديمقراطية المصرية ، فكرة وتنظيما ، بل وبدايات الحكم الجمهورى ، واذا كان من حقنا ان نستنتج شيئا من شروط (الرؤساء المصرية) لقبول حكم بونابرت والحكم تحت بونابرت ، فان اشتراطهم عدم المساس بأحكام الشريعة الاسلامية كشرط للقبول يوحى بأن بونابرت كان يحاول جادا ادخال القانون المدنى والجنائى الوضعى فى مصر ليقوم مقام الشريعة ثم عدل عن ذلك .. والجبرتى يذكر لنا ان بونابرت عرض للمناقشة فى اول جمعية تأسيسية انشأها موضوع نظام الملكية ونظام التوريث وعرض وجهة نظر القانون الفرنسى فيهما فرفضه أعضاء الديوان بالاجماع ، بما فيهم الاقباط ونصارى الشوام الذين قالوا : المسلمون يقسمون لنا . ومعنى هذا ان المصريين قبلوا من فلسفة الحكم الجديد النظام النيابى ، ولكنهم فى هذه المرحلة رفضوا مبدأ فصل الدين عن الدولة (١)

---

(١) النص المستعمل هو : « عجائب الآثار فى التراجم والاخبار لمحقق زمانه ونادرة اوانه الرافل فى حلل العلوم المتوشح بنفائس منطوقها والمفهوم السابق فى حلبة الرهان اللوذعى العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الحنفى امطره الله تعالى بواسع احسانه وبره المخفى » (طبعة بولاق ٤ أجزاء)

الباب الثانى

رفاعة الطهطاوى

١ ـ رفاعة الطهطاوى

فى عام جلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، قيل بل وفى يوم خروج الفرنسيين وهو ١٥ أكتوبر ١٨٠١ ، ولد أبو الفكر المصرى الحديث ، ومؤسس نهضة مصر الثقافية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى رفاعة رافع الطهطاوى ، الذى استطاع بفكره وقلمه ونفـوذه فيما تقـلد من وظائف رسمية ، أن يرسى الاساس العظيم الذى بني عليه الفكر المصرى الحديث ونهضت عليه الثقافة المصرية الحديثة

وقد عاش رفاعة الطهطاوى الى أن بلغ الثالثة والسبعين من عمره ، فقد توفى فى ٢٧ مايو ١٨٧٣ ، وبذلك يكون قد عاصر محمد على وابراهيم باشا وعباس الاول وسعيد باشا والخديو اسماعيل وبدايات حكم الخديو توفيق . وقد ظل يعمل ويكتب الى آخر أيام فى حياته ، وهو بفضل هذه الحياة المديدة فى قلب حياتنا الفكرية والثقافية قـد استطاع أن يؤثر فى مجرى التفكير المصرى والثقافة المصرية تأثيرا عميقا متصلا جعـل من أعسر العسير على أصحاب الفكر السلفى والثقافة السلفية أن يعودوا بمصر القهقرى الى ظلام العصور الوسطى الذى نشره الاستعمار العثمانى باسم الدولة الدينيـة أو ما يسمى فى لغـة المذاهب السياسية بالثيوقراطية . فرفاعة الطهطاوى اذن أبو الفكر الثورى الحديث ، فى كل مجال من مجالات الثقافة والفكر

السياسى والاجتماعى ، وفى التربية والتعليم ، وفى علوم الدين والدنيا ، فلا عجب أن خرج من عباءة هذا الشيخ العظيم أعلام الفكر التقدمى فى مصر الحديثة ، من محمد عبده وقاسم أمين وعثمان جلال الى لطفى السيد وطه حسين وعلى عبد الرازق الى محمود عزمى ومحمد مندور ولا عجب ان كانت ثورة ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ مدينة له بالشيء الكثير ، فهو الذى بذر بذور الفكرة الديموقراطية فى أول كتاب أصدره فى صدر حياته ، وهو « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » (١٨٣٤) ، وهو الذى بذر بذور الفكرة الراديكالية ، بل والفكرة الاشتراكية المعتدلة فى آخر كتاب عظيم أصدره فى أخريات حياته وهو « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » (١٨٦٩) . وهو الذى ثبت الفكرة القومية المصرية فى زمن كانت المصرية فيه رداء من أردية العار يميز به السادة الترك رعاياهم من « الفلاحين » . وهو الذى وضع الاساس المكين لتحرير المرأة ودعا لحقها فى العلم والعمل قبل قاسم أمين بخمسين عاما ، وهو الذى علم المصريين أن علوم الدين لا تغنى عن علوم الدنيا ان هم أرادوا أن يلحقوا بركب الحضارة ، وهو الذى بشر فى أرض مصر بالحرية والمساواة والاخاء أساسا للمجتمع الانسانى

وقد ولد رفاعة الطهطاوى وقضى طفولته الاولى وصباه الاول فى طهطا ، حيث تلقى علومه الاولى ، ثم تنقل غلاما بين منشاة النبدة (بجوار جرجا) ومدينة قنا وفرشوط ، ثم انتقل الى القاهرة عام ١٨١٧ ، بعد موت أبيه ليدرس فى الازهر ، وكان قد بلغ السادسة عشرة من عمره ، وفى الازهر تلقى الطهطاوى ما كان يتلقاه زملاؤه من علوم الدين واللغة والادب ، ولكنه تتلمذ على ذلك الشيخ الثائر الذى

كان له أكبر أثر فى توجيه رفاعة الطهطاوى كما كان له أكبر فضل عليه ، الا وهو الشـــيخ حسن العطار • وكان حسن العطار من اولئك العلماء الذين تفتحـوا للعـــلوم والفنون الحديثة أيام الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨- ١٨٠١) ، وكان يختلف الى المجمع العـــلمى المصرى الذى أسسه بونابرت ويستمع الى ما يلقى فيه من محـاضرات ويطلع فى مكتبته العـــامرة بالذخائر والنفائس • فألهب العطار تلميذه رفاعة الطهطاوى شوقا الى دراسة العـــلوم العصرية • ودرس رفاعة الطهطاوى فى الازهر حتى بـلغ الحادية والعشرين من عمره ثم علم فى الازهـــر عامين أو نحوهما ، حتى كان عام ١٨٢٤ ، فعينه محمد على اماما فى فرقة من فرق جيشه الجديد الذى عكف محمد على على بنائه منذ ١٨٢١ • فلما قرر محمد على ايفاد اول بعثة من شـــــباب ذلك العصر الى باريس عام ١٨٢٦ لتلقى العلوم الحديثة فيها ، من علوم طبيعية وتكنولوجيـــــة وعسكرية ، اختار رفاعة الطهطاوى ليكون اماما لهـــذه البعثة الاولى

ولم تكن لرفاعة الطهطاوى فى باريس بحكم منصـــبه وظيفة الا وظيفته الدينية ، ولكن هكذا شاءت ارادة هــذا الرجل العظيم وشاءت سعة أفقه ، أن يكون أكثر اقبالا على دراسة العـــلوم من الطلاب الذين أوفد معهم ليكون مثقفهم الدينى • وتركهم يتعلمون ما أوفدوا لتعلمــــه من علوم طبيعية ، وعكف على دراسة الاداب والفنـــون وعامة ما نسميه اليوم بالعلوم الانسانية • فبدأ باتقان اللغـــة الفرنسية وفيها قرأ التاريخ والجغرافيـــا والادب • ولما شاع أمر هذا الامام المقبل على الدرس والتحصيل ضـــمه محمد على الى عضوية البعثة ليستغل درايته باللغـــات وليجعل منه مترجما ينقل الى العربية ما تحتـــاج اليــه

العسكرية المصرية من علوم عسكرية وهندسية وطبيعية وكيميائية وطبية وجغرافية وتاريخية • ولكن رفاعة الطهطاوى درس الى جانب هذه العلوم الفلسفة وعلم الاجتماع والعلوم السياسية والميثولوجيا • وبذلك اجتمعت له تلك المعرفة الموسوعية التي لا غناء عنها لتكامل المعرفة • وأهم من هذا وذاك فقد كان رفاعة الطهطاوى يدرس بعقل متأمل كل ما كان يجرى حوله فى باريس من أحداث سياسية واجتماعية ، ويتأمل بعقل متفتح تكوين المجتمع الفرنسي وعاداته وسلوكه وأفكاره ومعتقداته الاساسية • بل ويشارك بفكره ووجدانه فى الثورة التحررية التي اجتاحت فرنسا عام ١٨٣٠ ، فأطاحت بالملكية المطلقة وبشارل العاشر ، آخر البوربون ، وجاءت بلويس فيليب وبنظام الملكية المقيدة·

وبعد أن عاد رفاعة الطهطاوى الى مصر عام ١٨٣١ ، بدأ جهاده العظيم فى وضع أسس الثقافة المصرية الحديثة • فأنشأ فى ١٨٣٦ « مدرسة الالسن » وكان ناظرا لها ، وكان الهدف من آنشاء هذه المدرسة تخريج أفواج من المترجمين الذين ينقلون الى العربية أمهات الكتب فى العلوم والفنون والاداب ، وبفضل رفاعة الطهطاوى أمكن لمدرسة الالسن أن تخرج أكثر من مائة مترجم مثقف خلال عشر سنوات • وكان رفاعة الطهطاوى يراجع بنفسه ما يترجم من الكتب وينقحها ويشرف على طبعها ، وقد كان ثمرة ذلك الجهد العظيم أن أكثر من ألفى كتاب ترجم الى اللغة العربية فى تلك الفترة بفضل تفانى هذا الرجل العظيم وتلاميذه الاوفياء ••

ولكن رفاعة الطهطاوى حتى قبل انشاء مدرسة الالسن قد شغل عدة وظائف تتصل بثقافته وخبرته فى اللغتين

العربية والفرنسية ، وكان موضع تقـــدير من محمد على وابنه ابراهيم باشا • فما أن وصل الى الاسكندرية عـــام ١٨٣١ حتى استقبله ابراهيم باشا وأكرم وفادته ، وكان ابراهيم باشا قد سمع بجده وذكائه أثناء زيارته لباريس ، وأقطعه ٣٦ فدانا فى الخانكة • ولما وصـــل الطهطاوى الى القاهرة استقبله محمد على كما يستقبل العـــالم الكريم .،

فقد كان محمد على يتلقى عنه أطيب التقـــارير من المسيو جومار Jomard مدير البعثة التعليمية المصرية فى باريس • وعين محمد على رفاعة الطهطاوى مدرسا فى مدرسة الطب بأبى زعبل ، حيث كانت العلوم تدرس باللغة الفرنسية ، وكان يلقيها الاساتذة الاجانب على الطلاب فيقوم المترجمون بترجمتها وقراءتها عليهم بالعربية • وكانت هيئة المترجمين قوامها من الشوام يترأسهم رجل يدعى عنجورى ، وكانوا يتقنون الفرنسية ولكن عربيتهم لم تكن ســـــائغة ، فلما انضم رفاعة الطهطاوى الى هذه الهيئة لم يلبث ان خلف عنجورى رئيسا لهيئة المترجمين ، وكان ذلك أيام أن كان كلوت بك مديرا لمدرسة الطب

ثم نقل رفاعة الطهطاوى مترجما فى مدرسة الطوبجية (المدفعية) فى طره • وقد خلف فى هذا المنصب المستشرق الشاب كونيج Kœnig ، وفى أثناء عمله فى هذه المدرســـة ترجم رفاعة الطهطاوى بعض المؤلفـــــات فى الهندســـة والجغرافيا مما يحتاج اليه طلاب المدارس العسـكرية فى دراستهم •وكان رفاعة الطهطاوى يميل بطبعه الى الجغرافيا أكثر من ميله الى الهندسة • وكان مدير مدرسة المدفعية ، واسمه دون أنطونيو دى سيجويرا بك Don Antonio de Seguera Bey قد اعتمدطبع كتاب فى الجغرافيا مؤلف بالعربية فى جزيرة مالطه ، ولكن رفاعة الطهطاوى وجد لغة هـــذا

الكتاب سقيمة وعبارته ركيكة فنقحها تنقيحا شديداً حتى خرجت الطبعة الثانية أكمل بمراحل من الطبعة الاولى • ولم يكتف الطهطاوى بذلك فترجم للطلاب كتابا آخر فى الجغرافيا مما كان قد درسه فى باريس • وفى عام ١٨٣٤ تفشى فى القاهرة وباء الكوليرا ، فنزح رفاعة الطهطاوى الى بلدته طهطا ، وهناك عكف على ترجمة كتاب فى الجغرافيا لمالت بران Malte Brun ثم عاد الى القاهرة وقدم كتابه الى محمد على فمنحه رتبة « صاغ » فى الجيش

ولم يكن رفاعة الطهطاوى سعيداً بعمله فى مدرسة المدفعية ، غالبا بسبب غلبة العلوم الهندسية فى دراستها ، فوافق محمد على على نقله الى مدرسة اخرى • وكان محمد على قد أنشأ فى ١٨٣٤ « مدرسة الادارة » لتخريج أفواج من الموظفين الذين تحتاج أليهم دواوين الحكومة ، وجعل قوامها ثلاثين من الطلاب المثقفين ، يدرسون على أستاذين هما أرتين شكرى افندى واسطفان رسمى أفندى ، وهما عضوا البعثة المصرية الاولى التى أوفدها محمد على الى باريس ، وكان الطلاب يدرسون فى مدرسة الادارة هذه اللغة الفرنسية والمحاسبة والهندسة والجغرافيا وفنون الادارة المدنية • وقد انضم رفاعة الطهطاوى الى هيئة التدريس فى هذه المدرسة التى كان الهدف من انشائها تخريج الموظفين ، وقد كانت أكثر مناهج الدراسة فى هذه المدرسة قائمة على الترجمة • فما أن كان الطلاب يتقنون اللغة الفرنسية اتقانا كافيا حتى كانوا يكلفون بترجمة كتاب من كتب التاريخ ينقلونه الى العربية فصلا فصلا ثم يدفع بالكتاب الى المطبعة • ولكن مدرسة الادارة هذه كانت قصيرة العمر ، فلم تلبث أن الغيت عام ١٨٣٦ وأنشئت مكانها « مدرسة الالسن » الشهيرة ، التى نقل اليها كل

طلاب مدرسة الادارة . كذلك أدمجت فى مدرسة الالسن « مدرسة التاريخ والجغرافيا » التى كان محمد على قد انشأها عام ١٨٣٥ ملحقة بمدرسة المدفعية وجعل رفاعة الطهطاوى مديرا لها والاستاذ الوحيد بها ربما ارضاء له لضيقه بالعلوم الهندسية والرياضية ، وقد كان الغرض من انشاء « مدرسة التاريخ والجغرافيا » هذه امداد المدارس العسكرية العديدة التى أنشأها محمد على بمدرسين للتاريخ والجغرافيا • وقد أنشئت مدرسة الالسن بناء على اقتراح من رفاعة رافع الطهطاوى ، وقد شابهت هذه المدرسة عند انشائها خليطا من كلية الاداب وكلية الحقوق فى آن واحد ، وكانت اللغات التى تدرس فيها الى جانب العربية هى الفرنسية والتركية والفارسية والايطالية والانجليزية ، أما بقية مواد الدراسة فكانت التاريخ والجغرافيا والادب والشريعة الاسلامية والقانون، وكان طلابها يعلمون الترجمة بطريقة عملية ، فكانوا يشتركون فى ترجمة الكتب المقررة بمساعدة الاستاذ ، ثم تعرض ترجماتهم على أستاذ العربية لتنقيحها وتحسين صياغتها . ولذا فقد كانت هذه المدرسة فى أول عهدها تسمى « بمدرسة الترجمة »ثم سميت بعد ذلك « بمدرسة الالسن » وعين رفاعة الطهطاوى ناظرا أو مديرا لها بعد عام من انشائها . وكان يختار تلاميذه من قرى الصعيد ومن طلاب الازهر . وقد عين الفوج الاول من خريجى هذه المدرسة فى مختلف الوظائف بدواوين الحكومة ، كما توافر الكثيرون من خريجيها على ترجمة روائع الادب الفرنسى • وكان رفاعة الطهطاوى نفسه يقوم بتدريس اللغات والادارة والشريعة والقانون الفرنسى

ولكن الكتب الاولى التى قام طلاب مدرسة الالسن

وخريجوها بترجمتها لم تـــكن كتب الادب ، بل كتب العلوم والفنون والصناعات واخصها كتب العلوم العسكرية، ثم كتب الطب والرياضة والهندسة . فلما انقضى عصر محمد على ، عصر الفتوحات العظيمة ، حول عام ١٨٤٠، وجاء عصر عباس الاول ، وكان عصر اضمحلال وانكماش اتجه خريجو مدرسة الالسن الى ترجمة الاثار الادبية . وقد عاشت مدرسة الالسن خمسة عشر عاما من ١٨٣٥ الى نوفمبر ١٨٤٩ حين اغلقها عبـاس الاول الذى كان يضيق بالعلوم والفنون والاداب جميعا ، بل وبكل بارقة من نور يمكن أن تشع فى العقول أو تضىء القلوب . ولم يبطش عباس الاول بمدرسة الالسن دفعة واحدة ، وانما بدأ بتشتيت اساتذتها الذين خدموا فى ظل محمد على وابراهيم باشا ، وكان فى مقدمة من شتتهم رفاعة رافـع الطهطاوى بطبيعة الحـال . ثم أمر عبـاس الاول بنقل المدرسة الى مدرسة المبتديان بالناصرية فى اكتوبر١٨٤٩، وكانت هذه المدرسة صغيرة البناء فلم تتســـع لمكتبة مدرسة الالسن ولا لمتحفها ، فنقلت المكتبة والمتحف الى مدرسة المهندسخانة ببولاق ، ثم لم يلبث عباس الاول ان الغى مدرسة الالسن جملة فى نوفمبر ١٨٤٩ . وقبل ان ينصرم العام نقل رفاعة الطهطاوى منفيا الى الســـودان وعين ناظرا على مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ونفى معـه زميله وصديقه محمد بيومى أســـتاذ الرياضة الذى لم يحتمل الصدمة فمات فى السودان . وبابعاد الرأس تفرق الاعضاء . لقد كان من سخرية القدر ان عباس الاول الذى اقترن أسمه باغلاق المدارس فى مصر يرسل الى الخرطوم اكبر رأس مفكر فى البلاد ليعلم السودانيين !

واستبد الحزن برفاعة الطهطاوى فى منفاه ، ولكن هذا

لم يشغله عن عمله ، فترجم رواية « وقائع تليماك »
Les Aventures de Télémaque لفنيلون Fénélon
وقد نشرت فى بيروت وانصرف الى تنشئة شـــباب السودان الذين عاش الطهطاوى ليراهم يعلمون فى مدارس السودان فى عهد الخديوى اسماعيل

ولما مات عباس الاول عام ١٨٥٨ وخلفه سعيد باشا ، عاد رفاعة الطهطاوى الى مصر حيث استرد بعض مكانته الضائعة . فقد عين فى مختلف الوظائف الرفيعة : عين اولا مديرا للقسم الاوربى فى محافظة القاهرة ، ثم وكيــلا للمدرسة الحربية بالحوض المرصود ، ثم مديرا للمدرسة الحربية بالقلعة ، وكان يشرف على أقسام الترجمـــة والمحاسبة وغيرها . ورقى الى رتبة « المتمايز » . ولـكن كل هذه الاقسام او الادارات التى كان يشرف عليها رفاعة الطهطاوى الغيت عام ١٨٦٠ بما فى ذلك ادارة الترجمة . فظل بلا وظيفة محددة حتى عهد الخديو اسماعيل الذى عرف كيف ينتفع من خدماته فى نشر التعليم

وفى ١٨٦٣ اعاد الخديو اسماعيل ادارة الترجمة مرة اخرى ، وعين رفاعه الطهطـاوى مديرا لها ، وعينـــه فى الوقت نفسه عضوا فى لجنة المدارس ، التى كانت تشرف على تنظيم التعليم فى مصر فكان خير معاون لعلى باشـــا مبارك . وحين انشأ على مبارك مجلة « روضة المدارس » عام ١٨٧٠ ، جعل رفاعه الطهطاوى رئيس تحريرها . وقد ظل رئيسا لتحرير هذه المجلة ثلاث سنوات حتى مات فى ١٨٧٣ . ولقد كانت هذه المجلة الادبية الاجتماعية نصف الشهرية منبرا لصفوة مثقفى عصر اسماعيل ، فكان بين محرريها على باشا مبارك وعبد الله باشا فكرى ومحمد قدرى باشا واسماعيل باشا الفلكى ، وصالح بك مجدى ،

وهو انجب تلاميذ رفاعة الطهطاوى ، والشيخ حمزة فتح الله ، واسماعيل افندى صبرى (الشاعر اسماعيل باشا صبرى) ، ومعهم كان على فهمى رفاعة باشا ابن رفاعة الطهطاوى ، وكان من كبار رجال التعليم . وكانت هـذه المجلة توزع بالمجان على تلاميذ المدارس لنشر الثقـافة بين الطلاب . وفى عام ١٨٦٨ اعيدت مدرسة الالسن الى الحياة بعد ضمهـا لمدرسة الادارة وكانت هذه مركزا للدراسات القانونية ، وقد اصبحت النواة التى خرجت منها مدرسة الحقوق ، او كلية الحقوق كما نسميها منذ تأميم الجامعة عام ١٩٢٥ . وقد كانت السنوات العشر الاخيرة من اخصب السنوات فى حياة رفاعة الطهطاوى .

واذا كان الطهطاوى قد بهر العقول فى صدر حياته بكتابه العظيم « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، الذى صدر عام ١٨٣٤ ، وهو وصف وتحليل للمجتمع الفرنسى من كافة جوانبه ايام اقامة الطهطاوى فى فرنسا اماما للبعثة المصرية وعضوا بها ، فان « مناهج الالباب المصرية » الذى صدر عام ١٨٦٩ يعد فى نظرى اخطر كتاب فى فلسفة الاجتماع والسياسة والتشريع صدر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وليس فى عصر اسماعيل وحده . وحين قرر الخديوى اسماعيل ــ كجزء من خطته لجعل مصر دولة عصرية ، او « قطعة من اوربا » كما كان يقول ــ وضع اسس القانون المصرى على اساس القانون الفرنسى الذى يسمى عادة « كود نابوليون » (اى مدونة نابوليون او قانون نابوليون) لجأ الى رفاعة الطهطاوى وتلاميذه لكى يحققوا له ما اراد . فاشترك رفاعة الطهطاوى وعبد الله بك السيد فى ترجمة القانون المدنى الفرنسى . واشترك عبد الله ابو السعد افندى وحسن فهمى فى ترجمة قانون

الاجراءات تحت اشراف رفاعة الطهطاوى . وترجم محمد قدرى باشا قانون العقوبات ، أما صالح مجدى بك فقد ترجم قانون الاحكام الجنائية ٤ وكانت هذه الموسوعة القانونية هي الاساس الذى بنى عليه القانون المصرى الحديث . وقد كتب الطهطاوى بحوثا عديدة تشتمل على دراسات مقارنة بين الشريعة الاسلامية والتشريع الفرنسى

كذلك لعب رفاعة الطهطاوى دورا خطيرا فى حياة الصحافة المصرية ، دورا يجعل من واجبنا أن نسميه « أبا الصحافة المصرية » . فالصحيفة الاولى التى عرفتها مصر ٤ وهي الكوريه ديجيبت » ، Courier d'Egypte (أى « بريد مصر ») صدرت لاول مرة فى ٢٩ اغسطس ١٧٩٨ بأمر بونابرت ، واختفت بانتهاء الحملة الفرنسية ، وكانت تصدر باللغة الفرنسية لتخاطب جنود الحملة ونفرا قليلا من الاجانب المحليين القارئين بالفرنسية ، والصحيفة الثانية كانت «لاديكاد ايجبسيين » («العشرية المصرية») وهى بالفرنسية أيضا وقد صدرت بأمر بونابرت فى أول أكتوبر لنشر أبحاث المجمع العلمى المصرى

وبعد أكثر من ربع قرن من سنوات الفوضى السياسية والصراع من أجل السلطة ، اسس محمد على ، بعد أن استتب له الحكم فى البلاد ، الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » عام ١٨٢٨ أثناء بعثة رفاعة الطهطاوى وزملائه فى فرنسا . وكانت هذه الجريدة تظهر فى لغتين : التركية والعربية . ولما كانت لغة البلاد الرسمية يومئذ هى اللغة التركية ، فقد كانت «الوقائع المصرية» تكتب اصلا باللغة التركية ثم تترجم بعربية ركيكة مما كان فى طاقة جاهلية ذلك العصر . أما موضوعات هذه الجريدة الرسمية فلم

تكن تخرج عن الاخبار الرسمية وبعض الوقائع المتفرقة ، ثم دخلتها الاخبار الواردة من الخارج ابتداء من العدد ١٥ وقد ظل الحال على هذا المنوال فى « الوقائع المصرية » حتى عين رفاعة الطهطاوى رئيسا لتحريرها فى ١١ يناير عام ١٨٤٢ أيام حكم ابراهيم باشا ، وقد شغل الطهطاوى هذا المنصب حتى نفاه عباس الاول الى السودان عام ١٨٤٩ . وحين تقلد رفاعة الطهطاوى رئاسة تحرير « الوقائع المصرية » ، كانت المواد التركية تشغل النصف الايمن من صفحات الجريدة باعتبار أن التركية كانت لغة البلاد الرسمية ، بينما كانت العربية تشغل النصف الايسر باعتبار أنها الفرع لا الاصل . فلما رأس رفاعة الطهطاوى تحرير «الوقائع» عكس الوضع وخصص العمود الايمن للمادة العربية والعمود الايسر للمادة التركية . كذلك خطا الخطوة الباسلة التالية ، وهى أنه جعل المادة الاصلية تكتب أولا باللغة العربية ثم تترجم الى اللغة التركية ، وقد استطاع ان يحصل على ترخيص بذلك من ديوان المدارس الذى كان يشرف على اصدار « الوقائع المصرية» وكذلك خطا رفاعة الطهطاوى الخطوة الباسلة الثالثة فجعل أخبار مصر تتقدم كل الأخبار ثم تأتى بعد ذلك الاخبار الواردة من الخارج ، بما فى ذلك اخبار تركيا صاحبة السيادة على البلاد . وقد استطاع رفاعة الطهطاوى أن يثبت هذا النظام عاما كاملا ، ولكن الطبقة الحاكمة التركية لم تلبث أن تألبت عليه وأرغمته على التراجع فيما أجرى من اصلاحات ، فعاد كل شىء الى سيرته الاولى . ومع ذلك فقد استطاع رفاعة الطهطاوى أن يسجل للغة العربية والقومية المصرية نصرا أدبيا عظيما فى زمن كان نفوذ الترك فيه يسيطر على كل شىء فى البلاد

أو يكاد . اما بقية القصة فيما فعله هذا الرجل العظيم « بالوقائع المصرية » فهى أنه أفسح صفحاتهـــا للمواد الادبية والثقافية بوجه عام . فكان ينشر فيهامقتطفات من « مقدمة » ابن خلدون أو غيره من نصوص الادب العربى، أو ينشر فيها موادا فى الاقتصاد أو فى التجـــارة أو فى التعريف بثروات السودان ووسط افريقيا . كذلك كانت افتتاحية « الوقائع المصرية » لا تخرج عن مقال فى مدح الوالى والتسبيح بحمده ، فجعل الطهطاوى من افتتاحية « الوقائع » مقالا تحليليا عميقا فى موضوع من الموضوعات السياسية والاجتماعية . اما عهده القصير فى رياســـة تحرير « روضة المدارس » الذى صدر العدد الاول منهـا فى ١٧ ابريل ١٨٧٠ ، فكان اهم ما يميزه اهتمامه المتصل بشئون المرأة واخبارها فلم يخل عدد من اعـداد هـذه المجلة من شىء يتصل بالمــــرأة • بل لقد دعا الطهطاوى ناظرات مدارس البنات ومدرساتها لموافاة مجلته بالمقالات والموضوعات • ويبدو أن مدارس البنات القائمة يومئـــذ كانت كلها مدارس اهلية ، فبعض من كتبوا عن تاريخ هذه الفترة يقول أن أول مدرسة للبنات ذات صفة رسـمية انشئت عام ١٨٧٣ بالسيوفية ، انشأتها احدى زوجـات الخديوى اسماعيل ، ثم تعددت من بعدهـــا مدارس البنات ..

هذه صورة موجزة لسيرة ذلك المفكر العملاق الذى وضع أساس الفكر المصرى الحديث والثقـــافة المصرية الحديثة ، منذ أن لمع نجمه نحو عام ١٨٣٤ الى أن انطفأ سراجه عام ١٨٧٣ • ومما يؤثر عنه فى حياته الشخصية أنه اعتق من كان يملك من العبيد والجوارى ، لاشــك عملا بمبادىء الحرية والمساواه والاخاء التى كان يعتنقها .

وقد مات عن ثروة تقترب من الالفى فدان ، ومكتبة تحوى نحو ٤٥٠٠ كتاب وفى رواية نحو ٨٤٠٠كتاب من بينهـــا نحو ١٠٦٤ مخطوطا . وقد جمع أكثر هذا المال من عمله على طريقة ذلك الزمان ، فكان كلما ترجم كتـابا قيمـا اقطعه الوالى نحو مائتى فدان . اما اعمال الطهطاوى التى نشرت ، بين مؤلفة ومترجمة ، فقد بلغت ستة عشر مجلدا بحسب ما ورد ، فى كتاب حفيده الاستاذ فتحى الطهطاوى عن سيرته وآثاره الصادر فى ١٩٥٨ بمناسبة احتفـــال المجلس الاعلى لرعـــاية الفنـــون والاداب بمـــــرور ٨٥ عاما على وفاته ، وهى : « القـــــول الســـديد فى الاجتهـــاد والتجديد » و « البـــــدع المتقـــررة فى الشـــــيع المتبررة » و « متن الأجـــــرومية » و « التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية » و « منظوم فى مصطلح الحديث » و « نهاية الايجاز فى سيرة ســـاكن الحجاز » و « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » و «مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » و « المرشد الامين للبنات والبنين » و « التعريبـــات الثقافية لمـريد الجغرافية للطبرون» و«الكواكب المنيرة فى ليالى افراح العزيز المقمرة » و « قلائد المفاخر فى غـــريب عوائد الاوائل والاواخر » و « كتاب مبادىء الهندسة » و « القانون الفرنساوى المدنى » و « نظم العقود فى كسر العود » و « مواقع الافلاك فى وقائع تليماك » . وأما مخطوطات رفاعة الطهطاوى التى لم تنشر بعد فهى اربعـــة عشر مخطوطا ، بيانها :

« ارجوزة فى علم الكلام » و « بحث فى المذاهب الدينية لطلبة مدرسة الالسن » وموجز « معاهد التنصيص على شواهد التخصيص لبدر الدين القزوينى » و « انوار توفيق

الجليل » و « نبذة فى تاريخ اسكندر الاكبر »و«نبذة فى الميتولوجيا » و «مقدمة تاريخ مصر» و «دستور فرنسا» و « كتاب وصول القوى الطبية » و « نبذة فى العلم والسياسة والصحة » و « قطعة من عمليات ضباط عظام » و « المعادن النافعة لتدبير معايش الخلائق » و « تعريب الامثال فى تاديب الاطفال » و « ترجمة رثاء فولتير للويس الرابع عشر » ، هذا عدا عشرات من الكتب اشرف الطهطاوى على ترجمتها فى الطب والتشريع والزراعة والجغرافية الطبيعية والرحلات والفلسفة والمنطق والتاريخ ، ومن أهمها « قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون » (عن تاريخ العصور الوسطى) ، و « نظم اللالىء فى السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك » و «كتاب فى تاريخ فرنسا ترجمة حسن قاسم»و«كتاب فى تاريخ الامبراطور شرلكان» و «كتاب الروض المزهرفىتاريخ بطرس الاكبر » و « كتاب تاريخ كرلوس الثانى عشر ملك السويد للباشجاويش محمد مصطفى » (تاريخ « شارل الثانى عشر » وهو من أهم مؤلفات فولتير) و «كتاب برهان البيان فى استكمال واختلال دولة الزمان تأليف منتسكيو وترجمة حسن الجبيلى » الخ ..

وهذه العناوين والموضوعات تعطى صورة واضحة لما كان يقرؤه المثقفون فى القرن التاسع عشر حتى قبل عصر اسماعيل . ومن يتأملها يجد ان مدرسة الالسن قد غذت المثقفين المصريين بمكتبة وافية تشتمل على اهم المراجع الاساسية فى التاريخ والادب والعلوم السياسية واوليات العلوم وبذلك وفرت الحد الادنى من الثقافة للمثقفين ، ورسخت فى نفوس المثقفين أهم المبادىء

التقدمية التى بنيت عليها الحضارة الحديثة

واذا اردت ان تعرف ثقافة مثقف او ان تعرف شيئا من فكره وسلوكه فادخل مكتبته . وقد جاء فى كتابات من عنوا بجمع اثار رفاعة الطهطاوى او التعريف بها ان مكتبته كانت تتميز بظاهرتين ، احداهما ارتفاع نسبة الكتب الموضوعة فى « العلوم المعاشية » كالتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والعلوم السياسية والطب والكيمياء الخ ثم ارتفاع نسبة الكتب الفرنسية عما هو مألوف عند امثاله من علماء الازهر الذين لم تشغلهم علوم الدين عن الاقبال على علوم الدنيا . ولكن رفاعة الطهطاوى نفسه لايتركنا بحاجة الى استقصاء مصادر ثقافته الاوروبية ، فهو يكتب فى كتابه الشهير « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » الذى صدر عام ١٨٣٤ متحدثا عن دراساته ايام اقامته بباريس بين ١٨٢٧ و ١٨٣١ فيقول :

« وقد قرات كثيرا من كتب الادب فمنها مجموعة نويل ، ومنها عدة مواضع من ديوان ولتير (يقصد اعمال فولتير)، وديوان رسين وديوان روسو (وديوان مونتسكيو) خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين اداب الافرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان بين الآداب الغربية والشرقية وقرأت أيضا وحدى مراسلات انكليزية صنفها القونتة شيسترفيلد « يقصد الكونت او اللورد تشسترفيلد » لتربية ولده وتعريفه ، وكثيرا من المقامات (يقصد القصص ؟ او المقالات ؟) الفرنساوية . وبالجملة فقد اطلعت فى اداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة

« وقرات فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتاب برلماكى وترجمته وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عن التحسين والتقبيح العقليين (يقصد النقد العقلى)

يجعله الافرنج اساسا لاحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية .. وقرات ايضا مع مسيو شواليه جزءين من كتاب يسمى روح الشرائع ، مؤلفه شهير بين الفرنساوية يقال له منتسكيو ، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجي ، كما ان ابن خلدون يقال له عندهم منتسكيو الشرق ، اى منتسكيو الاسلام . وقرات ايضا فى هذا المعنى كتابا يسمى : عقد التانس والاجتماع الانسانى (يقصد العقد الاجتماعى) ، مؤلفه يقال له روسو ، وهو عظيم فى معناه

« وقرات فى الفلسفة تاريخ الفلاسفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم . وقرات عدة محال نفيسة فى معظم الفلسفة للخواجه ولتير . وعدة محال فى كتب قندلياق (يقصد كوندياك) ..

هذا اذن مفتاحنا الى المكونات الفكرية لعقل رفاعة الطهطاوى فى شبابه : درس الطهطاوى اعمال فلاسفة الثورةالفرنسية : فولتير ومونتسكيو وروسو وكوندياك كما درس بعض اثار حركة التنوير الاوروبية كخطابات اللورد تشستر فيلد لولده فيليب ستانهوب . ولو اننا بحثنا فى جولة فكرية عما كان يقرؤه ثوار ذلك العصر ، عصرالثورات الفرنسية ، بين ١٧٨٩ و ١٨٣٠ ، لوجدنا ان الغذاء العقلى الرئيسى لثائر مثل جفرسون أو وليم جودوين أو توماس بين او اللورد بيرون او شلى او جوته الشاب لم يكن يخرج فى صميمه عن اعمال فولتير وروسو ومونتسكيو وكوندياك ، وربما اضافوا اليهم شيئا من ديدرو وكوندورسيه وفولنى فرفاعة الطهطاوى اذن كان يعيش فى عصره مع اكثر العقول

تقدمية واشدها ثورية ورفاعة الطهطاوى أذن قد تلقى بفكره ووجدانه من منابعها الاولى كل تلك الفلسفات الخطيرة العميقة الرهيبة ، العقلانية منها والوجدانية ،المادية منها والمثالية على السواء ، المتضاربة منها والمنسجمة فى وقت واحد ، الملتقية ، رغم ما يفصلها من هوة عميقة ، على شىء واحد ، وهو ضرورة زلزلة الملكية المستبدة القائمة على الحق الالهى والنظام الاقطاعي الارستقراطى بامتيازاته الطبقية وطغيانه المادى والروحى ، وضرورة تقويض دعائمها واعادة بناء المجتمع الانسانى على أسس جديدة من الحرية والمساواة والاخاء كما كان الناس يقولون أيام الثورة الفرنسية ..

هذه كانت الافكار الاساسية التى تعرض لها رفاعة الطهطاوي اثناء اقامته في باريس وعاش فى مناخها خمس سنوات كاملة وكلها تقوم على الدعوة للحرية والمساواة والاخاء بين البشر ، وقد كانت مبادىء الثورة الفرنسية هذه هى الحل السياسى الاجتماعى والفلسفى الذى قدمه مفكرو البورجوازية الثائرة علىالارستقراطية ، ومثقفو الطبقة الوسطى الثائرة على الاقطاع . ومنهم من وصل اليه عن طريق الايمان بالعقل والحق الطبيعي ومنهم من وصل اليه بارتعاشة الوجدان او بحق الفطرة ، ولكن الفريقين التقيا عند مبدأ واحد هو تقديس الحريةوالمساواة امام الله والقانون وفرص الحياة وتعديل العقد الاجتماعى بين البشر بحيث يتحول من عقد اذعان الى عقد قائم على الاخاء بين الناس وعلى الاختيار الحر الذى لاشبهة فيه للاكراه . وجماع هذا هو مايسمونه بالديمقراطية الليبرالية أو حكم الشعب القائم على الحرية المطلقة فى الفكر والفعل والشعور والسلوك والتعبير فى أى شكل من الاشكال

ولاشك أن رفاعة الطهطاوى كان حتى قبل سفره الى فرنسا قد سمع من استاذه الشيخ حسن العطار ومن غير الشيخ حسن العطار ذكريات عن الفرنسيين وتقدمهم فى العلوم والفنون ، وما كان الفرنسيون يعرضونه فى المجمع العلمى المصرى من تجارب فى الفيزياء والكيمياء او ماكانوا يعرضونه فى متحفهم ومرصدهم من ايات تدل على طول باعهم فى علوم النبات والحيوان والفلك وما الى ذلك كله . وقد رأينا كيف وقف الجبرتى مبهورا امام ما رآه فى المجمع العلمى المصرى من فتوحات العلم الحديث . كذلك نلمس من صفحات الجبرتى انه وقف وقفة المبهور من تقـدم الفرنسيين الالى والتكنولوجى ومهارتهم ونظامهم فى انجاز الاعمال . فهو مثلا يحدثنا عن الطريقة الى شق بهـا المهندسون طريقا مستقيما طويلا

« من الازبكية الى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين . وقيدوا بذلك انفارا منهم يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون مايخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافر الخيول والبغال والحمير ، وفعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى اقرب زمن ، ولم يسخروا احدا فى العمل ، بل كانوا يعطـون الرجال زيادة عن اجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهيرة ، ويستعينون فى الاشغال وسرعة العمل بالالات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة : كانوايجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف ، يملؤها الفاعل ترابا او طينا او احجارا من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى على

عجلتها بأدني مساعدة الى محل العمل ، فيميلها باحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة . و لذلك لهم فؤوس وفزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ، وغالب الصناع من جنسهم ، ولا يقطعون الاحجار والاخشاب الا بالطرق الهندسية على الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة » .
(« عجائب الاثار » ٣/٣٣)

وفي هذا الوصف واشباهه يتجلى اعجاب الجبرتي بما رآه عند الفرنسيين من تقدم آلى وحسن تنظيم ومهارة في استخدام الذكاء العملي . كذلك يتجلى اعجاب الجبرتي ببعض القوانين التي سنها الفرنسيون صيانة للصحة العامة او للامن العام : « وفيه نادوا بوقود قناديل سهارى بالطرق والاسواق وان يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وان يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات » (٣/١٩) أو « وفيه نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الازبكية والرويعى ، ولا يدفنون الموتى الا في القرافات البعيدة ، والذى ليس له تربة يدفن ميته في ترب المماليك ، واذا دفنوا يبالغون في تسفيل الحفر . ونادوا ايضا بنشر الثياب والامتعة والفرش بالاسطحة عدة ايام وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة ، كل ذلك للخوف من حصول الطاعون » (٣/٢١)

ولكن رغم كل هذا الاعجاب الواضح في الجبرتي نجده لا يتجاوب مع عادات الفرنسيين وتقاليدهم ومعتقداتهم الا فيما ندر . فالجبرتي شديد الهجاء لما رآه من سفور المرأة الفرنسية وتحررها وتفاني الرجل الفرنسي في احترامها و « الخضوع » لها على حد قوله ، وهو شديد التنديد بما تجسم له من انه انحلال اخلاقي نتيجة لاختلاط

الجنسين وانحراف عن الفضيلة . ولعل من المواضع القليلة التى خرج فيها الجبرتي عن تحفظه في وصف ذلك المجتمع الاوروبي الغريب المحيط وأعلن فيها اعجابه بنظم الفرنسيين كان حيث تعرض لوصف محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، فهو يتوسع في سرد كل ماجرى من اجراءات وينقل كل مادون من محاضر : « لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين ، وكيف قد تجارى على كبيرهم يعسو بهم رجل افاقى أهوج وغدره وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله من اخبر منهم بمجرد الاقرار ، بعد ان عثروا عليه ووجدوا معه الة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم واميرهم ، بل رتبوا حكومة ومحاكمة واحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام ، مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا من اخبر عنهم وسالوهم على انفرادهم ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم ، واطلقوا مصطفى افندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى المسطور بخلاف مارأيناه بعد ذلك من افعال أوباش العساكر (يقصد العثمانية في ثورة القاهرة الثانية) الذين يدعون الاسلام ويزعمون انهم مجاهدون وقتلهم الانفس وتجاريهم على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » (١١٧/٣)

ولاشك أن موقف الجبرتي كان يختلف تماما عن موقف رفاعة الطهطاوى فالجبرتى كان مصريا لم ير في الفرنسيين الا جيش احتلال غزا بلاده واغتصبها ، ومهما كان هو ومعاصروه قد لمسوا الفرق بين الغاصب الجاهل كالترك

والمماليك والغاصب المستنير كالفرنسيين ، فالغاصب غاصب مهما علا كعبه فى مدارج الحضارة ، والشعب الصريع لا يرى منه الا نواجذه ، بل وربما لا ينبغى ان يرى منه الا نواجذه . اما رفاعة الطهطاوى ، فقد رأى الفرنسيين فى بلادهم وخالط مجتمعهم المدنى على طبيعته وبذلك أتيح له أن يدرس كيانهم الاجتماعى وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم بفكر مفتوح واضح الحياد . ولعل ربع قرن من حكم محمد على وتعاظم بأس مصر فى الشرق الاوسط واندفاع مصر الى الاخذ بالاسباب المادية فى الحضارة الاوروبية قد يسر مهمة رفاعة الطهطاوى وجعله يركز انتباهه على الجوانب الفكرية والروحية والانسانية فى المجتمع الفرنسى . لقد انتهى عصر الصدمة الاولى التى ايقظت المصريين الى ضرورة الاخذ بالعلوم الحديثة لتجديد حياتهم المادية ، وغدت هذه ، بفضل محمد على سياسة البلاد الرسمية . ولكن بقيت مهمة اشد عسرا وهى ضرورة الدعوة الى الاخذ بالفلسفات الحديثة لتجديد الحياة الفكرية على ارض مصر ، فليس بالمادة وحدها يحيا المجتمع ولقد تصدى رفاعة الطهطاوى لهذه المهمة فكان نعم المفكر ونعم البشير

٢ ـ تحرير المرأة : ١٨٣٠

عندما وطئت قدما رفاعة الطهطاوى ارض فرنسا لاول مرة عام ١٨٢٦ ، كان اول مااستوقف نظره الحرية التى لتمتع بها المراة الفرنسية ووضعها الممتاز فى المجتمع الفرنسى بالنسبة الى ما الفه الطهطاوى فى تقاليد بلاده . وكان اول مظهر من مظاهر هذه الحرية هو السفور الذى سبق ان لاحظه الجبرتى فى نساء الفرنسيين . اما الجبرتى فقد رأى فى سفور النساء واختلاطهن بمجتمع الرجال الذين رآهم ايام الحملة الفرنسية ومشاركتهن فى الحياة العامة مظهرا من مظاهر الانحطاط الخلقى الذى يستوجب التنديد وأما الطهطاوى فقد اتاحت له ظروفه ان يقيم سنوات فى هذا المجتمع السافر النساء ويدرسه عن كثب ولذا جاءت احكامه عليه مختلفة كل الاختلاف عن احكام الجبرتى . فهو اولا ينفى ان للسفور او الحجاب صلة بفساد الخلق او بالفضيلة . وهو يقول فى « تخليص الابريز » :

« وحيث ان كثيرا مايقع السؤال من جميع الناس عن حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء . وملخص ذلك أيضا ان وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا ياتى من كشفهن او سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والالتئام بين الزوجين . وقد جرب فى

بلاد فرنسا ان العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الاعيان والرعاع . فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيرا ويتهمون فى الغالب »

وواضح من كلام رفاعة الطهطاوى انه يشير الى حالة الرأى العام فى مصر وشدة اهتمامه بأن يعرف شيئا عن وضع المرأة فى أوروبا ومدى ماتتمتع به من حريات ومدى اثر هذه الحريات فى افسادها . فيقول ان هذه الاسئلة وامثالها تقع من « جميع الناس » وهذا يدل على انه يعالج هنا مشكلة اجتماعية حقيقية ، نجد أصداءها أولا فى الجبرتى وجيله ، ولاشك ان هذه المشكلة تفاقمت مع الايام بسبب الانفتاح الشديد للحضارة الاوروبية فى عهد محمد على وازدياد مخالطة المصريين للاوروبيين . اما ثورة الحريم ايام الحملة الفرنسية ، فقد سبق ان جاء وصفها فى مشاهدات الجبرتى . وهاهو ذا كلوت بك يصف لنا فى ١٨٤٠ وجها من وجوه هذه الثورة :

« أوزد نابليون بونابرته حكاية مؤامرة دبرت فى أحد الحمامات العامة يلذ لى ايرادها فى هذا المقام لما احتوته من الدليل على ان اقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد أدهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء ، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الاحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال . قال :

« تزوج الجنرال منو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات ، اذ كان يمد اليها يده كلما هم بالدخول معها الى غرفة الطعام ، ويتحرى لها اوفق المجالس ويقدم اليها خير الاطعمة واشهاها . وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه

واعادته الى مكانه . فلما روت تلك المراة هذه الامور على صاحباتها في احمد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الامل فى تغير احوالهن وعاداتهن ، وحررن عرضـا قدمنه الى السلطان الكبير ـ بونابرته ـ ليحمل ازواجهن على معاملتهن بمثل مايعامل منو زوجته الرشيدية به . »
(« لمحة عامة الى مصر » ج ١/٦٢٤ ـ ٦٢٥)

فبدايات هذا القلق الاجتماعى التى بدأت نحو ١٨٠٠ لاشك نمت في الجيل التالي مباشرة ، جيل محمد على ، ولم يعد هذا القلق الاجتماعى مقصورا علىالنساء ، بل تجاوزه الى شرائح من مجتمع الرجال الذين اتيح لهم أن يخالطوا الاوروبيين سواء في بلادهم او فى مصر ، حيث استقدمهم محمد على بغزارة حتى اشتهر عصره بانه عصر البعثات والخبراء الاجانب . ولاشك ان الجسم الاكبر من الراى العام فى الطبقات الميسورة والمستورة ، حتى نحـو ١٨٣١ ايام ان كتب رفاعة الطهطاوى « تخليص الابريز » كان محافظا ينفر من سفور المراة ومن تعليمها ومن مزاولتها اى عمل من الاعمال ومن اختلاطها بمجتمع الرجال او مشاركتها فى الحياة العامة على اى وجه من الوجوه . اقول فى الطبقات الميسورة والمستورة فقط ، لان قارىء كلوت بك وغير كلوت بك يستطيع ان يعرف دونما اى لبس أن المشكلة لم تكن قائمة فى اية صورة من الصور بالنسـبة لنساء الطبقة العاملة سواء من الفلاحين او العمال . فكلوت بك يقول : « اما نساء الفلاحين فيرحن ويجئن طليقـات من غير قيد ، وكثيرا مايتفق ان يبعث ازواجهن بهن الى الاسواق لبيع الحاصلات المختلفة او غـيرها » (كلوت بك ١/٦٢٢ ـ ٦٢٣)

فالقضية الكبرى التى كانت مطروحة على اوسع نطاق

فى الطبقتين الوسطى والعليا من المجتمع المصرى : الى اى مدى يمكن للتشبه بالاوروبيين ان يتجاوز الاخذ بما لديهم من علوم متقدمة ومهارات تكنولوجية الى الاخذ بما لديهم من قيم ومعتقدات واخلاق وقواعد فى السلوك ، ولاسـيما فيما يتصل بنصف المجتمع وهو جنس النساء . ويبدو من كلام رفاعة الطهطاوى أن المصرى العادى كان الى نحـو ١٨٣٠ يجيب بالرفض ، الرفض المسبباو الرفض الانفعالى وانه كان يربط بين تحرير المراة ومساواتها بالرجل وبين الفساد الخلقى وانهيار الكيان الاجتماعى. نفهم منههذاالأز دعوة الطهطاوى بأن « وقوع اللخبطة بالنسبة لعفةالنسـاء لاياتى منكشفهن او سترهن بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة » هى بمثابة رد على اعتراض قائم بالفعل فى اذهان الناس ، وقد راى الطهطاوى فيه وهما يجبازالته، مستندا الى مارآه فى فرنسا من سفور النساء وتحررهن ومساواتهن بالرجال ، دون ان يؤدى ذلك الى تدهـور الاخلاق عند نساء الطبقة المتوسطة . ولاشك انالطهطاوى كان من أبناء الطبقة المتوسطة ، وهى أشد الطبقات محافظة فى جميع بلاد العالم ، وانه كان حريصا على طمأنة ابنـاء الطبقة المتوسطة ، من دونبقية الطبقات ، على شرفهم ان هم أذنوا لنسائهم ان تسفر واعطوهن القدر الكافى من الحرية والمساواة الحافظ لكرامة الانسان ولحقوق الانسان المشكلة ليست فى سفور المراة أو حجابها ولكنها فى التربية الصالحة والتربية الفاسدة . وقد دلت التجربة بحسـب مايستنتج من كلماته ، ان نساء الطبقة الوسطى يملـكن فرص التربية الصالحة اكثر مما تملكها نساء الطبقـة الارستقراطية والطبقة العاملة . ان قاسم امين لم يضـف كثيرا الى دفاع الطهطاوى عن حقوق المراة وحرياتها ، ولكنه

عبر عنه بنبرة اجهر وباصرار اقوى . قال الطهطــاوى فى « تخليص الابريز » :

« وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه والراس والنحر وماتحته والقفا وماتحته واليدين الى قرب المنـكبين . والعادة أيضا ان البيع والشراء بالاصالة للنســاء ، واما الاشغال فهى للرجال فكان لنا بالدكاكين والقهــاوى ونحوها فرجة عليها وعلى مايعمرها . وكان اول ماوقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها فرأينــاها عجيبة الشكل والترتيب والقهوجية امراة جالسة على صفة عظيمة وقدامها دواة وريش وقائمة »

وهذه ايضا من الملاحظات التي نجدها ايضا فى قاســم امين بعد خمسين سنة ويزيد : الا وهى استعداد المرأة للاشتغال بالتجارة . والطهطاوى فى حديثه عن اشـتغال المرأة بالتجارة ، وادارة الاعمال لايبدو عليه الاسـتهجان وانما يبدو عليه انبهار من وقف على كشف عظيم او على طريفة من الطرائف الكبرى ، أما اختلاط النساء بالرجال فقد لاحظه الطهطاوى وسجله ووقف منه موقفه من سفور المرأة ، فلم ير ان فيه مايشين الخلق أو يؤدى الى الفساد فالاختلاط تمارسه الحرائر وغيرهن : « ونساء الفرنساوى بارعات الجمال واللطافة حسان المسايرة والملاطفة يتبرجن دائما بالزينة ويختلطن مع الرجال فى المتنزهات ، وربمــا حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال فى تلك المحــال سواء الاحرار وغيرهن ، خصوصا يوم الاحد الذى هو عيد النصارى ، ويوم بطالتهم ، وليلة الاثنين فى البــارات والمراقص الاتى ذكرها .. » الاختلاط بين الجنسين اذن لاغبار عليه ، وهو ليس من صفات الطبقة الســفلى فى المجتمع بل من صفات العقائل والحرائر والارجح انه يقصد

بكلمة « الاحرار » مانسميه نحن ببنات الناس او ببنات العائلات

ويصف لنا رفاعة الطهطاوى وجها من وجوه هذا الاختلاط بين الجنسين في المراقص او « البالات » كما يسميها (والكلمة فرنسية) فلا نحس فى كلامه امتعاضا من امتعاض الشرقيين المحافظين من مراقصة الرجل للمراة ، بل نحس منه ، على العكس من ذلك اعجابا شديدا بالرقص الافرنجي والسمو به الى مستوى الفن الجميل ، والارتفاع به عن الشهوانية الفاسقة التى يتميز بها الرقص الشرقي فى نظره

« وقد قلنا ان الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد اشار اليه المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب ، فهو نظير المصارعة في موازنة الاعضاء ، ودفع قوى بعضها الى بعض . فليس كل قوي يعرف المصارمة ، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم . وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الاعضاء . وظهر ان الرقص والمصارعة مرجعها شيء يعرف بالتامل ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس ، وكانه نوع من اللياقة والشلبنة ، لا من الفسق ، فلذلك كان دائما خارجا عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى ارض مصر ، فانه من خصوصيات النساء لانه لتهييج الشهوات . واما فى باريس فانه نط مخصوص لايشم منه العهر ابدا وكل انسان يعزم بامراة يرقص معها . فاذا فرغ الرقص عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا وسواء كان يعرفها او لا . وتفرح النساء بكثرة الراغبين فى الرقص معهن ، ولا يكفيهن واحد او اثنان ، بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة انفسهن من التعلق بشيء واحد . . .

وقد يقع ان من الرقص رقصة مخصوصة : يرقص الانسان ويده فى خاصر من ترقص معه ، واغلب الاوقات يمسكها بيده . فمس المرأة أيما كانت فى الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء النصارى وكلما حسن خطاب الرجل مع النساء ومدحهن ، عد هذا من الادب .. وصاحبة البيت تحيي اهل المجلس »

هذه المقارنة التى يعقدها رفاعة الطهطاوى بين الرقص الافرنجي والرقص الشرقي مقارنة هامة ، لانه تحمل فيها مسئولية التنديد برقص الفوازى ورقص العوالم فى مصر ووسمه بالانحطاط والشهوانية بينما رفع الرقص الافرنجي الى مرتبة الرياضة والفن الجميل ، فهو بهذا يقول اننا اقرب الى الفسق فى لهونا من الاوربيين ، وهذا عكس الفكرة التى صورها الجبرتى من المجتمع الفرنسي والمصرى المختلط الذى رآه يحتفل بالرقص والغناء فى عيد وفاء النيل رجاله مع نسائه . وقد أخطأ الطهطاوى فى تفسير ظاهرة مراقصة المرأة الفرنسية لرجال متعددين ونسبها الى سأم النساء ورغبتهن فى التغيير . وحقيقة الامر هى أن تقاليد المجتمع الفرنسي المحافظ تمنع المرأة من مراقصة رجل واحد باستمرار أثناء الحفلات لان فى ذلك معنى « الاهتمام الخاص » من الرجل بالمرأة ، فان كانت متزوجة عد هذا أمرا معيبا ، وان كانت آنسة كان ذلك من مقدمات تقدم الشاب لخطبة الفتاة . وقد اهتم الطهطاوى بشرح آداب السلوك فى حفلات الرقص التى شاهدها ، فهو يقول فى « تخليص الابريز » :

« ومن المنتزهات محال الرقص المسماة البال وفيه الغناء والرقص . وقل ان دخلت ليلا فى بيت من بيوت الاكابر الا وسمعت به الموسيقى والمغنى . ولقد مكثنا مدة

لا نفهم لغنائهم اصلا لعدم معرفتنا بلسانهم ..

« والبال قسمان : بال عام ، ويدخله سائر الناس ، كالبال فى القهاوى والبساتين ، والبال الخاص ، وهو أن يدعو الانسان جماعة للرقص والغناء والنزهة ونحو ذلك ، كالفرح فى مصر .. والبال دائما مشتمل على الرجال والنساء وفيه وقدات عظيمة وكراسى للجلوس .. والغالب أن الجلوس للنساء ، ولا يجلس احد من الرجال الا اذا اكتفت النساء . واذا دخلت امرأة على أهل المجلس ولم يكن كرسى خاليا ، قام رجل واجلسها ، ولا تقوم لها امرأة لتجلسها . فالانثى دائما فى المجالس معظمة أكثرمن الرجال ثم أن الانسان اذا دخل بيت صاحبه فانه يجب عليه أن يحيى صاحبة البيت قبل صاحبه ، ولو كبر مقامه ، ما أمكن ، فدرجته بعد درجة زوجته او نساء البيت . ومن المنتزهات جمعية الناس كخيمة مصر ، الا ان فيها دائما الات الموسيقى والغناء والرقص ، وبين كل نوبةمن الموسيقى والغناء يقسم على الحاضرين بعض مطعومات ومشروبات خفيفة . وبالجملة فالموسيقى بالاصالة والشراب الخفيف بالتبعية »

فرفاعة الطهطاوى يصر دائما على ابراز فكرة هامة فى نظره ، وهى احترام المجتمع الاوربى للمرأة ، وربما كان مصدر اصراره على ابراز هذه الفكرة هو رغبته فى تلقين المصريين ضرورة تغيير نظرتهم للمرأة ومعاملتها بما تستحقه من الاعتبار بدلا من اعتبارها مجرد متاع . وواضح من كلام الطهطاوى انه كان يخالط اكرم العائلات الفرنسية ويرصد آداب السلوك بينها . غير أن فى كلامه مايدل على انه كان يضيق احيانا بما كان يراه فى باريس من اسراف اهلها فى مجاملة النساء ، فهو يقول : « ثم أن الرجالعندهم

عبيد النساء وتحت امرهم سواء كن جميلات ام لا . قال بعضهم ان النساء عند الهمج معدات للذبح ، وعند بلاد الشرق كأمتعة البيوت ، وعند الافرنج كالصغار المدلعين». والطهطاوى هنا يضع يده على روح « الكورتوازية » او « الفروسية » التى ورثتها اوربا الحديثة ولا سيما فى البلاد الكاثوليكية ، من العصور الوسطى ، وهى تقوم على لون من تقديس المراة بالمعنى المجازى طبعا ، تقديسا لا علاقة له بالرغبة الجنسية وليس له تفسير انثروبولوجى عندى الا انه من رواسب المعتقدات الدينية الكاثوليكية التى تفرد لمريم العذراء منزلة خاصة فى الديانة المسيحية تكاد ان تسمو على منزلة المسيح . ولاشك ان الطهطاوى انتقد اسراف الرجل الفرنسي فى تقديس المراة وخدمتها ، قائلا ان اسلام الرجل قياده للمرأة شر وبيل

كذلك يهتم رفاعة الطهطاوى بابراز فكرة اخرى ابرازا قويا ، والاغلب انه يريد بذلك ان يزيل فكرة شائعة عن الاوربيين بين المصريين فى زمانه ، وهى ان الرجل الاوربى خال من « الغيرة » على زوجته ، بارد لا يحرك ساكنا اذا عرف بسوء سلوكها . والطهطاوى يحاول ان يشرح لقرائه ان هناك فرقا بين الخلو من الغيرة العطيلية القائمة على العقل المسمم بالشكوك وبين رفض الانحراف ، فهو يقول: « ولا يظن الافرنج بنسائهم ظنا سيئا اصلا مع ان هفواتهن كثيرة معهم » . فالاصل ان الرجل الاوروبى « يثق » فى زوجته ويفترض مسبقا انها مستقيمة السلوك تخلص له ، ولا يفترض مسبقا ان المراة من حيث هى امرأة جنس خوان تحت أية ظروف . فهو اذا أباح لها مخالطة الرجال او الانتقال بمفردها او الرقص مع سواه لا يفعل ذلك من باب الانحلال الخلقى وعدم المبالاة وانما يفعله من باب الثقة

فيها وفى وفائها . وفى هذا يقول الطهطاوى : « ولا يظن بهم انهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم فى ذلك ، حيث ان العرض يظهر فى هذا المعنى اكثر من غيره لانهم وان فقدوا الغيرة لكنهم ان علموا عليهن شيئا كانوا اشر الناس عليهن وعلى انفسهم وعلى من خانهم فى نسائهم . غاية الامر انهم يخطئون فى تسليم القيادة للنساء ، وان كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء » فالفرنسى اذن ، رغم انه لا « يغار » على زوجته ، كفيل بأن يدمرها ويدمـــر عشيقها ويدمر نفسه لو عرف عنها سوءالسلوك ، وهو اكثر مما يفعله المصرى فهو عادة يدمر زوجته ويدمر عشيقها ثم يقضى بقية حياته ـ غالبا بين جدران السجون ـ راضـيا عن نفسه لانه غسل بالدماء شرفه المثلوم

٣ ـ أبو الديمقراطية المصرية

كفاح الشعب المصرى فى سبيل الديمقراطية قديم ، وقد كان لمصر برلمان اسمه « البولا » قبل الفتح الرومانى وكان مقره مدينة الاسكندرية ، فعصف به الرومان . وقد حاول المصريون استخلاصه من اباطرة الرومان ولكنهم عجزوا لانهم تمسكوا بمبادىء الحرية والمساواة غير أنهم فقدوا القدرة على التنظيم السياسى ، او على الاصح افقدهم اياها غزاتهم . وبعد الفى عام أو نحوها من الحكم الاوتوقراطى ، ظهر فيهم رفاعة رافع الطهطاوى لينادى بسيادة الشعب على الملوك وليفتح أعينهم على تجارب الامم الاخرى فى ممارسة الحرية والمساواة من خلال الدساتير والنظم النيابية

(١) « سلطان الملوك على أجسام الرعايا لا على قلوبهم »
« رفاعة الطهطاوى »

(٢) « أما الشعب المصرى فلم يساهم قط فى شىء ما من التصميمات التى اقرها ولا فى اختيار الوسائل التى استحسنها لتنفيذها . بل القى فى طريقه كل ما استطاع أن ينثره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها ، واقام فى وجهه الاعتراضات الجمة عليه . ولقد رأى محمد على عندئذ انه ، لايلاف ذلك الشعب وتعويده الانس بتلك الانظمة الجديدة ينبغى العمل لازالة ما ران على قلبه من الشكوك ومكافحة ميله الى التشبث والعناد

« ولا يأخذن المصريين احد بجريرة هذه النزعات ، فان الروسيين لم يشدوا ازر بطرس الاكبر فيما تصدى لاجرائه من جلائل الاعمال وادخاله على شئونهم من نافع الاصلاحات . وتلك شنشنة معروفة عن الامم فى ادوار ارتكاسها وتنكسها . كلما ظهر من بينها مصلح يريد الاخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها الى الغايات العالية فى الحضارة والرفاهية ، تعرضت له بالعمل على احباط مساعيه . والقت فى طريقه العقبات والمصاعب

« لم يذكر التاريخ مثلا لامة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية واقامة معالمه . وانما الذين تعرضوا لذلك افراد امتازوا بذاتية متينة وعبقرية عالية فدعوا الى مشاركتهم فى عملهم ابناء وطنهم . وكثيرا ما لجأوا فى تنفيذ مقاصدهم ، اذا ارهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم ، الى وسائل العنف والشدة . وتعليل هذه الحالة ليس بعازب على الفطن اللبيب لامكان تطبيق المنطق عليه . فقد جبل الانسان على أن لا يهتم الا بما يشعر بضرورة قضائه من الحاجات لنفسه ، وأن لا يتحرى المزايا والفوائد الا بنسبة اهميتها وضرورتها لشخصه . ولما كانت الشعوب التى على فطرة التوحش والهمجية لا تشعر بشيء من الحاجات عادة ، فانها تجهل طبعا فوائد المدنية ومزاياها ، ولا يتاح لها تقدير أهميتهما الا اذا رضخت لارادة رجل تأججت فى صدره نار المطامع الشريفة وجمع عزيمته على نيلها مستعينا فى ذلك بتلك الشعوب ذاتها ، وانما عبقرية الرجل العظيم فى تقديره اهمية ما يراه من الوسائل محققا لمراده . ولقد كان محمد على ذلك الرجل فيما يتعلق بمصر » « كلوت بك »

هذان منهجان فى أصول الحكـــم للفكر البورجوازى الثورى ، كان من نقائض الحياة ان يكونا ثمرتين من ثمار الثورة البورجوازية العظمى ، الا وهى الثورة الفرنسية: المنهج الاول ، منهج رفاعة الطهطاوى ، وقـــد ادى الى تعميق تيار الديموقراطية وتتويج الدساتير وانتصـــار الشعوب . اما المنهج الثانى ، منهج كلوت بك ، فقـــد ادى الى تعميق فكرة المستبد المستنير او الدكتـــاتور المصلح . الاول خرجت منه الملكيات المقيدة والنظـــم الجمهورية البرلمانية ونظرية فصل السلطات ومبـــدأ سيادة القانون ، والثانى خرجت منه الانظمـــة الشـورية الفردية والشمولية معا وانظمة الطغاة بالمعنى الاغـــريقى الاصلى القديم « الطاغية » بمعنى الـــدوتشى الايطالى او الفوهرر الالمانى او الاب التركى كما كان « أتا تورك » يحب ان يسمى نفسه « أبا الاتراك » او « الاخ الاكبر » كمـــا فى كتابات جورج أورويل ، فالطاغيـــة أو « التـيرانوس Tyrannos بالمعنى اليونانى القديم لم يكن معناه مجرد الحاكم المستبد ولكن « الملك المنتخب » ببيعة الجمـــاهير لأنه انقذ البلاد من شر وبيل كما فعل اوديب بطيبة واهلهـــا فأعلنوه « تيرانوس » أو « ملكا » عليها

والحق ان كلوت بك لم يكن يفكر فى الدفاع عن الحاكم المستبد من حيث هو حاكم مستبد . فتاريخ فرنســـا كتاريخ كل بلاد متحضرة عرف من الحكام المســـتبدين طائفة عظيمة ملأت بلاده جهلا وظلما وفاقة واضمحلالا ، وانما كان كلوت بك يفكر فى اصحاب الحكم المطلـــق من الملوك المستنيرين أو من زعماء الثورات التقـــدمية الذين

غيروا معالم الحياة فى بلادهم وربما فى العالم اجمع بالعنف العنيف ، من الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر ولويس الرابع عشر وبطرس الاكبر ، الى بزيستراتوس وكرومويل ونابوليون . وهو لذلك يستدرك قائلا :

« ولست ادعو احدا الى اعتبار والى مصر واحدا من رسل الحضارة والمدنية بل ادعو الى وجوب اعتباره من فحول الرجال والعبقريين ، وانه ، مع كونه لم يعلم شيئا من شئون الامة التى ظهر بينها أمره ولم يجد منها تشجيعا ولا مؤازرة على العمل ، قد سلكه مسلكا مبنيا على الحذق وحسن التدبير ورام به الاستيلاء على زمام الحكم اولا ثم الاحتفاظ به بعد ذلك

« وعلى اثر تنظيم الجيش والدونتمة (اى الاسطول) بمعاونة جماعة من الفرنسيين من ضباط الجيش السابقين والمهندسين ، وبانوار عرفانهم وسعة مداركهم وقوة عارضتهم ، اقيمت معاهد التعليم العام والمدارس العالية وشيدت المستشفيات وسلم زمام ادارتها والخدمة فيها الى فريق من الفرنسيين . ومن ثم يرى ان الجيش وما يرتبط به من الفروع العديدة هما اللذان دفعا بمصر فى تيار حركة المدنية التى ما برحت تسوقها الى الامام حتى اليوم » (٣/٢٦٥)

هذا الرأى الصريح من اكبر مدافع عن محمد على فى القرن التاسع عشر يوضح بجلاء رأى كلوت بك فى محمد على . ان محمد على لم يكن رسولا من رسل الحضارة والعمران ، وانما رجل سياسة وحرب ، استهدف الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها بدهاء السياسة وبقوة العسكرية وهما ما يسميه ماكيافللى مكر الثعلب وقوة الاسد ويقول انهما أخص صفات

« الأمير » . وانما كان كل ما استحدثه محمد على فى مصر من ادوات الدولة الحديثة سواء فى باب التنظيم والادارة او فى باب العلوم والتكنولوجيا مجرد وسائل لخدمة مطامعه العسكرية . ان اخر ما كان محمد على يفكر فيه هو بناء « الانسان » على ارض مصر. ومن أجل هذا ما أن دالت دولة محمد على حتى زال الصرح العمرانى الكبير الذى شيده على الرمال ، وغاصت مصر من جديد فى ظلمات العصر الوسيط زمن عباس الاول، ظلمات لم يخترقها الا قبس من نور ذلك العقل الوضاء الذى اشتعل بلهب الحرية والتهب بحب الانسان ، عقل رفاعة رافع الطهطاوى ومدرسته

لم يكن محمد على اذن ، حتى بمنطق كلوت بك وبنص مقاله ، ذلك المستبد المستنير ، شأن بيزيستراتوس عاهل اثينا أو الاسكندر ناشر حضارة اليونان على الامصار او يوليوس قيصر محضر برابرة الشمال بقيم الرومان او لويس الرابع عشر راعى الفنون والاداب ، أو نابوليون محطم اغلال الاقطاع ومنظم قوانين المجتمع المدنى الجديد ، القائم على قيم الثورة البورجوازية الكبرى ، بل كان أشبه شيء بمملوك عظيم خرج من اطاره وتجاوز حجمه الطبيعى ، بل وليس يجمعه ببطرس الاكبر او اتاتورك أو اى مستبد مستنير رغم ذكائه العملى الشديد الا صفة الاستبداد . أما الاستنارة فلا ..

شهد رفاعة الطهطاوى اثناء اقامته فى باريس ثورة الشعب الفرنسى عام ١٨٣٠ التى انتهت بعزل شارل العاشر اخر ملوك البوربون ، وتولية لويس فيليب ، دوق اورليان ملكا على الفرنسيين ، وسجل وقائع هذه الثورة واسبابها ونتائجها ، وكان اهم ماابرزه منها فى كتابه « تخليص

الابريز » هو ماجرته ثورة ١٨٣٠ من تعديلات على الدستور الفرنسي الرجعي ، دستور ١٨١٨ ، الذى وضعه لويس الثامن عشر بحيث صفته من كثير من مواده الرجعية وجعلته اوفى باسس الديمقراطية . ولم يكتف الطهطاوى بالرصد والتسجيل بل عمد الى ترجمة نصوص دستور ١٨١٨ المعروف بالشرطة La Charte او « الميثاق » ، والى ترجمة مواد الدستور الجديد ، دستور ١٨٣١ ، والى تحليل التعديلات التى ادخلت على الدستور القديم وشرح معانيها واهدافها السياسية . وقد اورد هذه التحليلات فى الفصل الثالث : « عن تدبير الدولة الفرنساوية » (يقصد نظام الحكم فى فرنسا) وما تلاه من فصول ، وقد أوضح الطهطاوى هدفه من التعرض لنظام الحكم فى فرنسا وماطرأ عليه من تعديلات ثورية بقوله : « ولنكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية ، ونستوفى غالب احكامهم ، وليكون فى تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر » . فهو يقصد بذلك صراحة ان يضع امام المصريين نموذجا حيا لكفاح الشعوب فى سبيل الديمقراطية لعلهم يجدون فيه مثلا يحتذونه

وقد كان من اهم ما اثار حماسة رفاعة الطهطاوى هو مالاحظه من ان الدستور الفرنسى يقوم على نظرية فصل الدين عن الدولة ، فهو يقول فى « تخليص الابريز » :

« والكتاب المذكور الذى فيه هذا القانون يسمى الشرطة ، ومعناه في اللغة اللاطينية ورقة ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الاحكام المقيدة ، فلنذكره لك ، وان كان غالب ما فيه ليس من كتاب الله تعالى ، ولا من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لنعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام

والرعايا للملك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا ، والعدل اساس العمران »

وقارىء الجبرتي (٣/١١٧ وما يليها) يذكر كيف وقف الجبرتي كالمشدوه أمام ضمانات العدالة من ناحية اجراءات التحقيق فى محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر التى اوردها الجبرتي بنصها « لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الاحكام اى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة »

ويشرح رفاعة الطهطاوى للمصريين اسباب ثورة ١٨٣٠ فى فرنسا ، ويصف لهم حالة الراى العام بين الفرنسيين موضحا عقائدهم السياسية الاساسية ، وذلك فى الفصل المسمى « فى ذكر مقدمة يتوقف عليها ادراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم » . قال :

« اعلم ان هذه الطائفة (يقصد الفرنسيين) متفرقة فى الراى الى فرقتين اصليتين ، وهما الملكية والحرية . والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بانه ينبغى تسليم الامر لولى الامر ، من غير ان يعارض فيه من طرف الرعية بشىء . والاخرى تميل الى الحرية ، بمعنى انهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين ، فكانه عبارة عن آله . ولا شك أن الرأيين متباينان . فلذلك كان لا اتحاد بين اهل فرنسا ، لفقد الاتفاق فى الراى .. والملكية اكثرهم من القسوس واتباعهم ، واكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء واغلب الرعية .. فالفرقة الاولى تحاول اعانة الملك ، والاخرى ضعفه

واعانة الرعية .. ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد ان يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة لملك اصـــلا . ولكن لما كانت الرعية لا تصلح ان تكون حاكمة ومحكومة ، وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية ، ويقال للكبار مشايخ (وللصـــغار) جمهور . (وهذا مثل مصر فى زمن حكم الهمامية ، لكانت امارة الصعيد جمهورية التزامية)

« (وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تاملها وعرف مصادرها ومواردها) . فعلم من هذا أن بعض الفرنساوية يريد المملكة المطلقة ، وبعضهم يريد المملكة المقيدة بالعمـــل بما فى القوانين ، وبعضهم يريد الجمهورية . وقد سبق للفرنساوية انهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ،ثم صنعوا جمهورية ،واخرجوا العائلة السلطانية المسماة البربون من باريس واشـــهروهم مثل الاعداء ، ولا تزال الفتنة باقية الاثر »

فى هذا الوصف الدقيق والتحليل المحكم للاوضـــاع السياسية فى فرنسا ولحالة الراى العام فيهـــا نحـــو ١٨٣٠ لم ينقل رفاعة الطهطاوى للمثقفين المصريين صورة للمجتمع الفرنسي فحسب وانما القى عليهم أول دروس منظمة فى النظم والمذاهب السياسية والاجتماعية . لاول مرة تعلم المثقفون المصريون فى تاريخهم الحديث ان «الرعية» يمكن ان تتكتل حول مبادىء سياسية واقتصادية عامة ، ويمكن ان تنقسم الى احزاب متصارعة رايا وعملا حول هذه المبادىء السياسية والاقتصادية العامة . فصـــورة المجتمع المصرى يومئذ لم تكن تخـــرج عن أن مصر كانت « باشلكية » تابعة للسلطان العثمانى ويحكمها وال تركى

نائبا عن السلطان العثماني ويديرهـــا مماليك شركس مفوضون من الحاكم التركي وولاء « الرعية » والمماليك والوالي جميعا للسلطان العثماني ولاء غير مشروط بشرط لان السلطان لم يكن يمثل السلطة الزمنية وحدهـــا بوصفه سلطانا أو ملكابل كان يمثل السلطة الدينية كذلك بوصفه خليفة المسلمين . وفي كفاح مصر الســـياسي ضد الطغيان التركي المملوكي استطاع المصريون في ثورة ١٧٩٥ ، عام « الحجة » التي استكتبوها للباشا التركي ولمراد بك وابراهيم بك ، وفي ثورة ١٨٠٤، عام خلع الباشا التركي وتنصيب الباشا الالباني محمد علي ، أن يرسوا اساسا هاما في السياسة المصرية وهو ان سلطة الوالي وسلطة المماليك يمكن ان تقيد بقيود وان تعلـــق على شروط ، وهي الحكم بالعدل والكف عن المظالم واحترام اموال الناس والكف عن فـــرض الضرائب والمكوس الاستثنائية . وكان اقصى ما وصل اليه المصريون عـــام ١٨٠٤ في كفاحهم السياسي هو ارساؤهم ذلك المبـــدأ الخطير وهو جواز عزل الوالي اذا حكم بالظلم في الرعية مستندين في ذلك الى حكم الشرع في الحاكم الظالم .. ولقد كان يمكن لهذا المبدأ الخطير ان يكون حجر الاساس في الفقة الدستوري المصري لولا انه كان مشـــوبا بفكرة الفصل بين ذات السلطان وذات ولاته وحكامه في الامصار .. أما ذات السلطان فقد كانت وظلت مصـــونة لا تمس بحكم انه كان الخليفة وفيه تمثلت السلطة الدينيـــة الى جانب السلطة الدنيوية . وامنا ذات الولاة والحكام فقد كانت خاضعة للمسئولية ونتائجها لانهم كانوا في عرف ذلك الزمان ممثلين للسلطة الدنيوية وحدها ، او ما الف المفكرون ان يسموه « بالسلطة الزمنية » . وقد ظـــل

هذا الوضـــع شائعا فى أوربا نفسها طالما كانت فلسفة الحكم الشائعة فيها هى نظرية حق الملوك الالهى ، فلما عصفت ثورة كروميل فى انجلترا «١٦٤٠ ــ ١٦٤٥ » والثورة الفرنسية « ١٧٨٩ » بهذا الحق الالهى تبلورت فلسفتان جديدتان الى جانب فلسفة الملكية المطلقة وهمـا فلسفة الملكية المقيدة من ناحية وفلسفة الجمهورية التى لا مكان فيها للملوك او سلاطين من ناحية اخرى . وهذا بالضبط ماعلمه رفاعة الطهطاوى لجيلهمنذ مائة وخمسين عاما . قال لهم باختصار : فى هــــذه البــــلاد ينقسم الناس الى اقلية هم الملكيون المؤمنون بالملكية المطلقـــة و « اكثرهم من القسوس واتباعهم » اى من رجـــال الكنيسة والمواطنين الخاضعين لنفوذ الكهنـوت ، والى اغلبية وهم الاحرار « الحريون » او من يسمون فىتاريخ الفكر السياسى بالليبراليين وهؤلاء اما من انصار الملكية المقيدة التى تتوج القانون مكان الملك وتجعل من الملـك مجرد « بصمجى » كما نقول أو « آلة » تطبق القوانين كما يقول رفاعة الطهطاوى او مجرد رمز«يملك ولايحكم» كما يقول الانجليز ، واما من انصار الجمهورية الذين لا يرون « حاجة للملك أصلا » ، ويطالبون بسيادة الشعب على نفسه من خلال وكلائه المنتخبين سواء فى مجلس الشيوخ او فى مجلس النواب ، واكثر الاحرار من قادة الفكر والمثقفينواغلب ابناء الشعب . فالاحرار المعتدلون من انصار الملكية المقيدة اذن كانوا ينادون بان الملك فوق القانون لانه يملك ولا يحكم واما المحافظون المتطرفون من انصار الملكية المطلقة فقد كانوا ينادون بان الملك يملك بموجب حق الملوك الالهى فهو ظل الله على الارض وفيه تمثلت الارادةالالهية التى تسير البشر وفيهتجســـدت

الشريعة السماوية التى بها تصرف امور البشر . وهذا معنى قول رفاعة الطهطاوى ان انصار الملكية المطلقة هم رجال الكهنوت وكل من خضع لنفوذهم وقال بأن المسيحية « دين ودنيا »

الجديد والخطير اذن فى هذا الكلام لم يكن انه مهد الطريق لاعادة النظر فى مبدأ الولاء لمحمد على ، فمحمد على رغم جسامة حجمه ، لم يخرج عن كونه واليا من ولاة مصر ، وسلطة محمد على لم تتجاوز فى يوم من الايام أن تكون سلطة زمنية دنيوية ، وعزله اذن كان جائزا اذا توفرت الارادة والقدرة على عزله . وانما الجديد والخطير فى هذا الكلام انه مهد الطريق للتخلص من الولاء لسلطان تركيا الذى وضعته الخلافة فى موضع العصـــــمة عند المصريين وعند كافة ابناء العالم الاســـلامى ، حتى أن محمد على وهو فى اوج انتصاره لم يجترىء على سحب ولائه الرسمى او انكار تبعيته الشكلية له . وقد بلـغ من هيلمانه الدينى رغم ضعف شـــــوكته الزمنية امام مماليك مصر ، من على بك الكبير الى مراد بك ، انبونابرت نفسه حين جاء الى مصر بحملته الفرنسية ، ادعى امـــام المصريين انه صديق السلطان المدافع عن حقوقه ، وانه ما اتى الا لتأديب المماليك ، ولم ينتقض عليه صراحة الا حين انضم الباب العالى الى المماليك والانجليز فى مقاومة بونابرت عسكريا . هذا هو المعنى الخطير فى كـــــلام الطهطاوى : الولاء لسلطانتركيا ليس قدرا على المصريين، فغيرهم من الامم المتحضرة وقد وجد سبيله الى الحرية برفع نير ملوكهمعنكواهلهم . وهذا معنى قول الطهطاوى: « وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية،

واخرجوا العائلة السلطانية المسماة البربون من باريس واشهروهم مثل الاعداء ، ولا تزال الفتنة باقية الاثر »

ان الطهطاوى لم يكن يدعو المصريين الى التخلص من نير محمد على ، فكتابات الطهطاوى تدل على انه كان شديد الاعجاب بشخصية المصلح فى محمد على ، بل كان يوحى الى المصريين والى محمد على نفسه بالتخلص من نير السلطان العثمانى . وهو حين يتحدث عن النظم الثلاثة : نظام الملكية المطلقة ونظام الملكية المقيدة ونظام الجمهورية ، يقول : « وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها » . بعبارة اخرى هو يقول للمصريين : فى استطاعتكم ان تشقوا عصا الطاعة على الخليفة العثمانى دون ان يغض ذلك من اسلامكم ؛ بل اكثر من هذا ، ففى استطاعتكم ان تقيموا جمهورية مستقلة عن تركيا برياسة محمد على او غير محمد على ، دون أن يغض ذلك من اسلامكم ، ولا شك أن هذا كان بمثابة رد على الرأى العام التقليدى وقياداته من المثقفين المصريين المحافظين الذين كانوا يومئذ يجدون غضاضة فى الثورة على الخليفة العثمانى ، وقد كانوا بالفعل يضعون العراقيل لهذا السبب فى طريق محمد على حين تمرد على سلطان تركيا . اما رفاعة الطهطاوى فقد كان طريقه غير هذا الطريق . لم يكن طريقه التماس حق الثورة فى الشريعة لاثبات شرعية أو وجوب الخروج عن طاعة الخليفة العثمانى ، وانما كان طريقه تحقيق استقلال مصر بفصل الدين عن الدولة . وهذا معنى قوله : « فلنقل ان أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية ، وانما هى مأخوذة من قوانين اخرى

غالبها سياسى ، وهى مخالفة بالكلية للشرائع وليست قارة الفروع » ويقال لها : الحقوق الفرنساوية ،اى حقوق الفرنساوية بعضهم على بعض ، وذلك لان الحقوق عند الافرنج مختلفة » . هو اذن يريد ان يحرر المصريين بموجب حقوق الانسان وليس بموجب سنن السلف الصالح . ثم ترتفع نبرته العقلانية فيكاد يحض الناس حضا على العقلانية أساسا للعدل ولحضارة الانسان . ان العدل والحضارة مترابطان . فالعدل سبيل الحضارة .

وقيم الدين جوهرها العدل ، ولكن العقل أيضا يمكن أن يؤدى الى العدل ، ومن ثم الحضارة . فهو يقول فى دستور ١٨١٨ المعروف فى فرنسا « بالشرطة » أى الميثاق ، ان غالب ما فيه ليس من تعاليم الدين ولكنه من املاء العقل : لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم،

وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم » فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما ابدا ، والعدل اساس العمران » . وهو شبيه بتأملات الجبرتى حينما وقف مشدوها أمام عدالة القانون الفرنسى فى محاكمة سليمان الحلبى فقد أذهله توفر هذه العدالة فى قوم عقلانيين لا دين لهم ، وقد كان الفرنسيون يتباهون بهذه العقلانية أيام الثورة الفرنسية حتى نهاية حكم نابليون بسبب مؤازرة الكنيسة لحكم البوربون وتأييدها حق الملوك الالهى . وقد بلغ مد العقلانية والثورة على الكهنوت اقصى مداه حين توج هيبير « العقل » فى كاتدرائية نوتردام ، ثم عزل روبسبيير « العقل » وتوج مكانه « الكائن الاسمى » ..

فالقضية اذن كما طرحها رفاعة الطهطاوى خلاصتها

كالاتى : كل نظم الحكم السائدة فى أوروبا من الملكية المطلقة الى الملكية المقيدة الى الجمهورية لها سند فى الشريعة الاسلامية . فليعلم المصريون ـ والعرب بعامة ـ اذن أن خروجهم عن طاعة السلطان العثمانى لا يغض من اسلامهم فى شيء . وهو قد وجد بدراسته للمجتمعات الاوروبية ،

ولا سيما للمجتمع الفرنسى أن رجال الكهنوت واتباعهم هم الذين كانوا يوطدون لحق الملوك الالهى بين مواطنيهم ، وهو ما يجافى العدالة والمدنية ، وقد وجد الاوروبيون الحل فى نظرية فصل الدين عن الدولة واقامة الدساتير والقوانين الوضعية النابعة من العقل ومن احتياجات المجتمع ومن الفلسفات السياسية والاجتماعية الزمنية القائمة على ما يسمى بحقوق الانسان فكانوا بذلك أقرب الى تحقيق العدالة والى نشر المدنية بين دعاة الثيوقراطية وحق الملوك الالهى

وبعد أن شرح رفاعة الطهطاوى للمثقفين المصريين نظم الحكم الثلاثة التى كانت تتصارع من أجلها الجماهير والقيادات السياسية فى فرنسا فى زمن شارل العاشر نحو ١٨٣٠ ، وبعد أن حلل لهم الفلسفات الاجتماعية المختلفة التى كان يستند اليها كل نظام من هذه النظم الثلاثة : الملكية المطلقة والملكية المقيدة والجمهورية ،

تعرض لشرح الأزمة الدستورية التى أفضت الى عزل شارل العاشر واعلان لويس فيليب ملكا على الفرنسيين . قال الطهطاوى فى « تخليص الابريز » :

(١) « وقد قلنا فيما سبق أن ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية (يقصد مجلس النواب) يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية . فلما اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير (يقصد بولنياك ،

ومن معه من الوزراء الستة ، فلم يصغ لكلامهم أصلا . وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الاشياء بمقالة أكثر اربابه (يقصد يقرر فيه كل شيء بحسب راى الاغلبية) ، وكان المجتمع من هذا الديوان للمشورة فى قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفسا ، منها ثلثمائة لا يرضون بابقاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون ابقاءهم ، فكان العدد الاكثر عليهم ، والعدد الأقل لهم ، فتيقنوا عزلهم . وكان الملك يحب ابقاءهم لاستعانته بهم على تنفيذ ما أضمره فى نفسه فابقاهم ، ثم حرم القانون (يقصد عطل الدستور) بعدة أوامر ملكية ، فكانت عاقبتها خروجهم واخراجهم له من بلادهم معزولا »

(٢) « وقد سبق لنا من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى المادة الثامنة انه لا يمنع انسان فى فرنسا من أن يظهر رأيه ويكتبه ويطبعه ، بشرط أن لا يضر ما فى القوانين ، فان أضر به أزيل (يقصد صودر اذا خالف القانون) . فلما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالمالك قد أظهر (يقصد أصدر) عدة أوامر ، منها : النهى عن أن يظهر الانسان رأيه ، وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة ، خصوصا للكازيتات اليومية (يقصد الجرائد اليومية) ، فانه لا بد فى طبعها من أن يطلع عليها أحدا من طرف الدولة (يقصد الرقيب) ، فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره ، ومع أن ذلك ليس حق الملك وحده (يقصد ليس من سلطة الملك وحده) ــ فكان لا يمكن عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجتماع آراء ثلاثة : راى الملك وراى ديوانى المشورة ، يعنى ديوان البير (يقصد مجلس الشيوخ) .

وديوان رسل العمالات (يقصد مجلس النـــواب) . فصنع وحده ما لا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره . وغير أيضا فى هذه الاوامر شيئا فى مجمع اختيار رسل العمالات ليبعثوها فى باريس (يقصد ان الملك عدل قانون الانتخاب) ، وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع ، مع انه كان من حقه الا يفتحه الا بعد اجتماعهم كما فعله فى المرة السابقة (يقصد ان الملك عقد البرلمان قبل الموعد المحدد لانعقاده) . وهذا كله على خلاف القوانين . ثم ان الملك لما اظهر كل هذه الاوامر ، كانه أحس فى نفســه بحصول مخالفة ، فاعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بانهم اعداء الحرية ، التى هى مقصد الرعية الفرنساوية . وقد ظهرت هذه الاوامر بغتة حتى ظهر ان الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها . وبمجرد حصول هذه الاوامر قال غالب العارفين بالسياسات : انه يحصل فى المدينة محنة عظيمة (يقصد ثورة عظيمة) يترتب عليها ما يترتب ، كما قال الشاعر :

ارى بين الرمـــاد وميض نار
ويوشـــك أن يكون له ضرام

فان النـــــار بالعيـــدان تزكو
وان الحرب أولهـــــا الكلام

« ... وقامت أنفس الناس على ملكهم ، لاعتقادهم انه أمر بالقتال . فما مررت بهذا الوقت بحارة الا وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ! أدام الله الشرطة (يقصـــد يعيش الميثاق أو الدستور) ، وقطع دابر الملك ! (يقصد وليسقط الملك) فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، وأخذت الرعية الاسلحة من السيوفية بشراء أو غصب . الخ .. »

هذه هى ثورة ١٨٣٠ التى عاشها رفاعة الطهطاوى

يوما بيوم ومسه منها لهيب اشعل قلبه وأضاء عقله وعلمه أن الحرية جوهر مرادف لانسانية الانسان . وفى هذا الوصف المثير صور رفاعة الطهطاوى كيف استولى الشعب فى باريس على الاوتيل دى فيل ، وهى دار البلدية ، وكيف خرج الحرس الوطنى للدفاع عن الشعب ،

وكيف رفع الفرنسيون من جديد التريكولور أى العلم المثلث الالوان على الكنائس ، والمباني العامة ، وهو علم الثورة الفرنسية الذى كانت الملكية قد الغته بعد سقوط نابليون وعودة الحكم الى البوربون) وكيف انضم الجيش الى الثوار ، وكيف انتهى الامر بعزل شارل العاشر

وطرد ولى العهد الى انجلترا ، وبتولى لافاييت رياسة الحكومة المؤقتة وبدعوة لويس فيليب ، دوق أورليان ، ليكون وصيا على العرش ثم اعلانه «ملكا على الفرنسيين» بعد أن اقسم يمين الولاء للدستور

فاسباب ثورة ١٨٣٠ كما شرحها رفاعة الطهطاوى لمثقفى جيله تتلخص فى شىء واحد وهو الاوتوقراطية أو الحكم المطلق . وقد تجلت أوتوقراطية شارل العاشر فى خرقه دستور سنة ١٨١٨ مرتين : مرة بتمسكه بوزارة بولينياك التى اقالتها الاغلبية البرلمانية ولجوئه الى اصدار سلسلة من القوانين غير الدستورية دون رجوع الى البرلمان ، وأمره بفرض الرقابة على المطبوعات وبمصادرة حرية الصحافة وحرية التعبير بوجه عام .

وقد أورد رفاعة الطهطاوى فى « تخليص الابريز » نص اليمين الدستورية التى حلفها دوق أورليان قبل اعلانه « ملك الفرنسيين » : وهذا نص اليمين :

« رضيت من غير شرط ولا تعليق بجميع الشروط المذكورة فى الخلاصة ، وبتلقيبى ملك الفرنسيس الذى

اعطيتموه لى ، وها انا حاضر مستعد للحلف والمبايعة على انى احفظ ذلك . ثم قام الملك مكشوف الراس ورفع يده اليمنى وشرع يقول هذه الصيغة المترجمة : اشهد الله سبحانه وتعالى على ان احفظ مع الامانة الشرطة المتضمنة لقوانين المملكة ، مع ما اشتملت عليه من الاصلاح الجديد المذكور فى الخلاصة ، وعلى انى لا احكم الا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها ، وان اعطى كل ذى حق حقه بما هو ثابت فى القوانين ، وان اعمــل دائما على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها »

لقد ازيلت من « الشرطة » او الدستور الفرنسى كافة النصوص التى تضع الملك فوق الدستور ، واذا كان دستور ١٨٣٠ قد اكد سـيادة الشعب فان اليمـين الدستورية لا تخرج عن كونها تاكيدا لمعنى واحد وهو ان الامة هى مصدر السلطات وان الدستور فوق الملك . فالملك يستمد صـفته الملكية لا بالحق الالهى ولا بحق الوراثة ولكن باختيار الشعب وهذا معنى اعلان لويس فيليب بانه رضى دون قيد او شرط بتقلد لقبه الجديد « ملك الفرنسيس الذى اعطيتمـوه لى » . وقد فسر رفاعة الطهطاوى معنى هذا التغيير الثورى الذى ادخلته ثورة ١٨٣٠ على دستور ١٨١٨ بقـوله : « وان يلقب بملك الفرنساوية ، لا بملك فرنسا ، والفرق بينهما ان ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الاشخاص بجعلهم له ملكا (يقصد انه ينقل السيادة الى المواطنين الذين اصبح بيدهم ان يختاروا ملوكهم) ، بخلاف ملك فرنسا، فان معناه ان ارض فرنسا ما دامت باقية فهو سيدها وملكها ، ولا منازع له من اهل البلاد فيها » . باختصار:

الملكية الوراثية تجعل من البلاد اشبه شيء بضيعة خاصة يملكها الملك ، وأما الملكية المنتخبة فهى تقيم الملك بارادة شعبية ، فهى أشبه شيء بجمهورية رياسية مدى الحياة أو هي مرحلة متوسطة بين الملكية والجمهورية فى عرف الفقه الدستورى . أو بلغة رفاعة الطهطاوى : « وسبب ذلك ان الملوك السابقين كانوا يلقبون ملك فرنسا . وكان اذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته : (انا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا ونوار (يقصد نافار) .. قد أمرنا ونامر بما سيأتى هنا ..) وأما ملك الفرنساوية فانه يقول فى كتابته : (أنا فلان ملك الفرنساوية .. قد امرنا ونامر) . ففرق بين عبارة الاول والثانى : فان الاول جعل نفسه ملك مجموع فرنسا ونوار بانعام الله سبحانه وتعالى عليه ، ولقد تحاشى عن أن يقول ذلك لارضـــاء الفرنساوية ، فانهم يقولون أن ملك الفرنسيس بارادة ملته (يقصد أمته أو شعبه) وتمليكهم له ، لا ان هــذه خصوصية خص الله سبحانه وتعالى بها عائلته ، من غير أن يكون لرعيته مدخلية . فظهر من هذا قوله : بفضل الله ، معناه عندهم باستحقاقه لذلك بولادته ونسبه ، كما أن قوله ملك فرنسا معناه صاحب الارض والسلطنة عليها . والا فلو كانت عندنا لاستوت العبارتان : فان كون الملك ملكا باختيار رعيته له لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والاحسان . ولا فرق عندنا مثلا بين ملك العجم وملك أرض العجم » . بمعنى آخر ان كل ملكية وراثية تتضمن فى فهم الاوروبيين درجة من درجات حق الملوك الالهى مهما اتخذت الصورة الوضعية أو بدا انها تلزم الملك بارادة شعبه ، لان من ولاه الله لا يعزله الا الله فى عرفهم . أما عندنا فلا تعارض بين المبدأين .

وايا كان الامر فقد طرح رفاعة الطهطاوى على مثقفى جيله لاول مرة فى تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى فى مصر قضية الحق الالهى والحق الطبيعى كما يسمونها فى الفكر الاوروبى وصور لهم الصراعات الدامية التى اكتنفت تاريخ هذه القضية بغية الوصول الى حل لها

لقد ترجم رفاعة الطهطاوى فى « تخليص الابريز » نص دستور ١٨١٨ «الشرطة» أو «الميثاق» أو «الاشارت» كما كان يسميه الفرنسيون) كما ترجم نصوص المواد المعدلة التى ادخلتها عليه ثورة ١٨٣٠ لاصلاحه ، وهى ما اشار اليه لويس فيليب عند حلفانه اليمين الدستورية بقوله انه يقسم على أن يحترم « الشرطة » « مع ما اشتملت عليه من الاصلاح الجديد المذكور فى الخلاصة » • فقدم لمواطنيه بحثا رائعا فى تطور الفكر السياسى والاجتماعى . وقال الطهطاوى فى « تخليص الابريز » معلقا على مواد الدستور :

« ثم ان هذه الشرطة قد حصل فيها تغيير وتبديل منذ الفتنة الاخيرة الحاصلة فى سـنة احدى وثلاثين وثمانمائة والف ، بتاريخ الميلاد ، فراجعها فى باب (قيامة الفرنساوية وطلبهم للحرية والمساواة) انتهى . فاذا تأملت رأيت اغلب ما فى هذه الشرطة نفيسا ، وعلى كل حال فأمره نافذ عند الفرنساوية ، ولنذكر هنا بعض الملاحظات فنقول :

« قوله فى المادة الاولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة (يقصد أمام القانون) ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الاحكام المذكورة فى القانون ، حتى أن الدعوى الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره . فانظر

الى هذه المادة الاولى ، فانها لها تسلط (يقصد اثر) عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظرا الى اجراء الاحكام

« ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية ، وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم الى درجة عالية وتقـــدمهم فى الاداب الحضرية

« وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه ، هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف . وذلك لان معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوى فى الاحكام والقوانين ، بحيث لا يجور الحاكم على انسان ، بل القوانين هى المحـكمة والمعتبرة » .

« وأما المادة الثانية (سائر الفرنســاوية يعطون من اموالهم بغير امتياز شيئا معينا لبيت المال ، كل انسان حسب ثروته) فهى محض سياسة ، ويمكن أن يقـــال ان الفرد (يقصد الضرائب) ونحوها لو كانت مرتبة فى بلاد الاسلام كما هى فى تلك البـــلاد لطابت النفس ، خصوصا اذا كانت الزكوات والفيء والغنيمة لا تفي بحاجة بيت المال ، أو كانت ممنوعة بالكلية وربما كان لها اصل فى الشريعة على بعض اقوال مذهب الامام الاعظم . ومن الحكم المقررة عند قدماء الحـــكماء : الخراج عمود الملك ...

« وأما المادة الثالثة (كل واحـــد متأهل لأخـــذ أى منصب كان وأى رتبة كانت) ، فلا ضرر فيها أبدا ، بل من مزاياها أنها تحمل كل انسان على تعهد تعليمه ، حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه ، وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة مثل اهل

الصين والهند ، ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه

« وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال ، فان شريعة قدماء القبطة (يقصد قدماء المصريين) كانت تعين لكل انسان صنعته ، ثم يجعلونها متوارثة عنه لاولاده . قيل سبب ذلك أن جميع الصنايع والحرف كانت عندهم شريفة ، فكانت هذه العادة عندهم من مقتضيات الاحوال لانها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع .

« ويرد عليه أنه ليس فى كل انسان قابلية لتعلم صنعة أبيه ، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا فى هذه الصنعة ، والحال انه لو اشتغل بغيرها لصلح حاله وبلغ آماله »

« وأما المادة الرابعة والخامسة ... (الرابعة : ذات كل واحد من الفرنساوية مستقل بها ، ويضمن له حريتها ، فلا يتعرض له انسان الا ببعض حقوق مذكورة فى الشريعة (يقصد الا وفقا لاحكام القانون) . وبالصورة المعينة التى يطلبه بها الحاكم . الخامسة : كل انسان فى بلاد الفرنسيس يتبع دينه كما يحب لا يشاركه أحد فى ذلك ، بل يعان على ذلك ويمنع من يتعرض له فى عباداته) فانها نافعة لاهل البلاد والغرباء فلذلك كثر أهل هذه البلاد وعمرت بكثير من الغرباء »

أما بالنسبة للمادة السادسة من دستور ١٨١٨ القائلة: « يشترط ان تكون الدولة على الملة القاثوليقية الحوارية الرومانية» ، وبالنسبة للمادة السابعة فيه القائلة: «تعمير كنائس القاثوليقية وغيرهم من النصرانية يدفع له شى من

بيت مال النصرانية ، ولا يخرج منه شيء لتعمير معابد غير هذا الدين » ، فقد اوضح الطهطاوى فى الفصل المسمى « خلاصة حقوق الفرنساوية الان بعد ١٨٣١ من الميلاد وتصليح الشرطة » ان من التعديلات التى جرت على دستور ١٨١٨ الغاء النص القائل بأن دين الدولة هو المسيحية وتحريم وقف شيء على الكنائس أو اعطاء هبة لها الا باذن صريح من الدولة . كذلك أوضح الطهطاوى ان من أهم التعديلات التي أدخلتها ثورة ١٨٣٠ على دستور ١٨١٨ النص على عدم جواز عزل القضاة وعلى علانية المحاكمات وعلى حق أى مواطن فى الشكوى لاعضاء البرلمان وحقه فى تقديم الاقتراحات اليهم . كذلك من أهم التعديلات التى ادخلتها ثورة ١٨٣٠ على دستور ١٨١٨ نص واضح يؤكد ضمان الحرية الشخصية وينص على معاقبة من يقبض على اى انسان الا وفقا لاحكام القانون معاقبة صارمة . وكذلك أضيف نص « بمعاقبة » كل من يتعرض لعابد فى عبادته بدلا من النص القديم الغامض القائل بأن من واجب الدولة اعانة الناس على اقامة عباداتهم فى حرية و « منع » من يتعرض لهم . وكذلك اضيفت مواد خاصة بتنظيم الخدمة العسكرية ومواد بتنظيم مجلسى البرلمان ومواد تنص على سرية الانتخابات وغير ذلك من النصوص التى تعمق فلسفة الديمقراطية وتوسيع قاعدتها

اما بالنسبة للمادة الثامنة من دستور ١٨١٨ (ومنطوقها) : «لا يمنع انسان فى فرنسا أن يظهر رأيه وان يكتبه ويطبعه بشرط ان لا يضر ما فى القانون ، فاذا اضر ازيل ») فقد علق عليها الطهطاوى بقوله :

« فانها تقوى كل انسان على ان يظهر رأيه وعلمه وسائر

ما يخطر بباله مما لا يضر غيره . فيعلم الانسان سائر ما فى نفس صاحبه ، خصوصا الورقات اليومية المسماة بالجورنالات والكازيطات ، الاولى جمع جورنال والثانيه جمع كازيطة . فان الانسان يعرف منها سائر الاخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية او خارجية ، اى داخل المملكة او خارجها . وان كان قد يوجد فيها من الكذب مالا يحصى ، الا انها قد تتضمن اخبارا تشوق نفس الانسان الى العلم بها ، على انها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة التحقيق ، او تنبيهات مفيدة او نصائح نافعة سواء كانت صادرة من الجليل او الحقير ، لانه قد يخطر ببال الحقير مالا يخطر ببال العظيم

« ومن فوائدها ان الانسان اذا فعل فعلا عظيما او رديئا وكان من الامور المهمة كتبه أهل الجورنال ليكون معلوما للخاص والعام لترغيب صاحب العمل الطيب وردع صاحب الفعلة الخبيثة . وكذلك اذا كان الانسان مظلوما من انسان ، كتب مظلمته فى هذه الورقات ، فيطلع عليها الخاص والعام ، فيعرف قصة المظلوم والظالم من غير عدول عما وقع فيها ولا تبديل ، وتصل الى محل الحكم ويحكم فيها بحسب القوانين المقررة فيكون مثل هذا الامر عبرة لمن يعتبر »

هذا عرض موجز لاهم ما كتبه الطهطاوى ، أبو الديمقراطية المصرية فى كتابه الخطير « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ايام ان كان المصريون لا يعرفون شيئا عن اسس الديمقراطية او حقوق الانسان غير بعض ذكرياتهم البعيدة عن دعاوى بونابرت التى تداخل فيها ختل الغازى باحلام الثائر عن الحرية والمساواة والاخاء على ارض مصر ، وغير ذكرياتهم البعيدة عن تجربتهم البرلمانية المبتورة فى

زمن الحملة الفرنسية ، وقد كانت غصة فى حلق الفرنسيين والمصريين على السواء . ثم جمع محمد على كل الاعنة فى يديه قرابة ثلث قرن واقام حكمه الاوتوقراطى المطلق الذى لا مكان فيه لشعب ولا دستور ، ولا مجال فيه لشورى ولا لحقوق . ولا شك ان تمرد محمد على على ولاية السلطان العثمانى الحاكم بحق الملوك الالهى قد جعلت منه فى نظر رفاعة الطهطاوى عاهلا شـــــبيها بلويس فيليب « ملك الفرنسيين » يحكم بالحق الطبيعى ، وقد كانت هناك بالفعل مودة عظيمة بين الرجلين ، ولكن هذا اللغم الخطير الذى بثه رفاعة الطهطاوى تحت عرش محمد على كان فى الوقت نفسه الاساس الاول والاكبر لمناقشة شرعيته وشرعيـة ذريته كحاكم مطلق لا تربطه او تربطهم بالشعب المصرى مواثيق ولا دساتير . فكأنى به يقول للمصريين اجل ان محمد على يحكم حقا بالحق الطبيعى ولكنه حق السيف والمال ، او كما يقول القدماء سيف المعز وذهبه ، ويفرض الولاء بالاكراه او يشتريه بالثمن . وقد كان اجدر به ان يجعل سلطانه على قلوب الرعية لا على أجسادهم

٤ — من الليبرالية الى الراديكالية

بعد « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » الذى صدر عام ١٨٣٤ ، كان أهم كتاب وضعه رفاعة الطهطاوى فى تحليل النظم والمذاهب هو كتابه الخطير « مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية » الذى صدر عام ١٨٦٩ . وخطورة « مناهج الالباب » ناشئة من ان هذا الكتاب يعد استكمالا للنظريات السياسية والاجتماعية التى كان رفاعة الطهطاوى قد طرحها فى صدر حياته ايام « تخليص الابريز » ، وهو ليس مجرد استكمال بل هو تطوير وتعديل ومراجعة : استكمال لبحث رفاعة الطهطاوى عن الديمقراطية وحكم الشعب ، وتعديل لنظرياته فى الحرية وسيادة القانون ، ومراجعة لافكاره الاساسية عن العدالة السياسية ، على ضوء الثورة الراديكالية الكبرى التى اجتاحت اوروبا طوال القرن التاسع عشر وجعلت من الديمقراطية والحرية والقانون والعدالة وحقوق الانسان لا مجرد اشكال سياسية فارغة بل نظما لها مضمون اجتماعى واقتصادى المعالم ، وجنحت بالفكر البورجوازى الثورى من مجرد تقديس الحريات الليبرالية الى اعتبارها ضمانات لتحقيق غايات لا تقل عنها قداسة وهى التقريب الفعلى بين البشر فى فرص الحياة وفى فرص التقدم والتعو وفى المشاركة فى خيرات العمل والطبيعة . باختصار : نما

فكر رفاعة الطهطاوى كما نما الفكر البورجوازى الثورى الاوربى من الفكرة الديموقراطية الى الفكرة الاشتراكية ، أو على الاصح وقف مثله فى تلك المرحلة المتوسطة بين الديموقراطية والاشتراكية التى عرفت فى ثورات أوروبا المتعاقبة ، ثورة ١٨٣٠ وثورة ١٨٤٨ وثورة ١٨٧٠ بالراديكالية ، أو حركة الاصلاح الجذرى

اذا كان « تخليص الابريز » بمثابة حجر الاساس فى الفكر السياسى والاجتماعى المصرى ابان القرن التاسع عشر ، فان « مناهج الالباب المصرية من مباهج الآداب العصرية » هو بمثابة البناء العلوى الذى قامت عليه حركة الفكر المصرى فى تلك الفترة وما بعدها

ويمكن أن نقول ان « مناهج الالباب » هو أول كتاب ظهر فى البلاد فى الفكر السياسى والاقتصادى المصرى نظريا وتطبيقيا ، فهو كتاب فى الاقتصاد السياسى أو فى الاقتصاد والسياسة ويشتمل كذلك على فصول تاريخية دعت الضرورة الى ادماجها لتوضيح الفلسفة الاجتماعية التى كان رفاعة الطهطاوى يعتنقها ويدعو اليها . واذا كان « تخليص الأبريز » فى أساسه كتابا عن الحضارة الفرنسية بقلم مفكر كان يعتقد أن بعث مصر لا طريق اليه الا الاخذ بأهم مقومات الحضارة الثورية الاوروبية فى زمنه ، فان « مناهج الالباب » فى أساسه محاولة مصرية لبناء المجتمع المصرى على أسس الديموقراطية البورجوازية التى كان رفاعة الطهطاوى يؤمن بها مع جنوح شديد الى اليسار الليبرالى أو الى اليمين البروليتارى أى الى الراديكالية . ولا شك أن قارىء «مناهج الالباب» يحس أن عشرات السنين من الاضطهاد والتشريد قد خففت من ثورية رفاعة الطهطاوى ومن ليبراليته « السياسية » التى

كانت تتفجر في « تخليص الابريز » ، ولكن « منـــــاهج الالباب » برغم ذلك كان محـــاولة لتطوير أهم مبـــادىء الفلسفة البورجوازية التى استجدت فى مصر مع الحملة الفرنسية ثم أقام محمد على أركانها ثم انهارت بعد نكسة ١٨٤٠ نحو ربع قرن كامل حتى بدأ الجو يتهيأ لاحيائهـا بعد تولى اسماعيل عام ١٨٦٣ • وقد كان هذا التطـــوير نحو الراديكالية، أو عدم الاكتفاء بالديموقراطية السياسية والالتفات الشديد الى الديموقراطية الاقتصادية • بل ان « مناهج الالباب » يعد تقدما من بعض الوجوه على « تخليص الابريز » من حيث أنه تصدى لمشكلة تصـــفية الاقطاع اقتصاديا بينما اقتصر « تخليص الابريز » على مناجـــزة الاقطاع كنظام سياسى أولا وقبل كل شىء

أما الافكار السياسية التى بشر بها رفاعة الطهطاوى فى « مناهج الالباب » فيمكن تلخيصها فيما يلى :

أولا : تثبيت فكرة القومية المصرية

ثانيا : تثبيت فكرة الدولة الزمنية أو العلمانية

ثالثا : تثبيت مقومات المجتمع البورجوازى «التقدمى» سياسيا واقتصاديا

أما تثبيت فكرة القـــومية المصرية ، فقـــد رأينا فى « تخليص الابريز » كيف أن رفاعة الطهطاوى اهتم بابراز معنيين هامين :

امجاد مصر القديمة وحضارتها الشاهقة فى العـــلوم والفنون والآداب منوها بآثار الفراعنة ودلالتها التاريخية ثم التشابه القوى بين العرب الاوائل والفرنسيين فى أهم الفضائل الاجتماعية والفردية كالعدالة وحب الحـــرية والشجاعة فى الحق ، حتى فى احتـــرام حـــرية المرأة وحقوقها • ولعل من أخطر الفقرات فى « تخليص الابريز»

قول الطهطاوى فى نهـــاية رحلته ملخصـــــا موقفه من الحضارات المختلفة :

« هذا حاصل ما كان لخصـــته ، حسب الامكان ، فلم يبق علينا الا ذكر خلاصة هذه الرحلة ، وما دققت فيـــه النظر وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شـبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الاجناس ، وأقوى مظنة القرب بأمور كالعرض والحرية والافتخار ، ويســــمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عليه وفوا بعهودهم ، الخ .. »

ولا شك أن المحـاولات المتـــكررة لســـلخ مصر من الامبراطورية التركية مع القضاء على حكم المماليك ، تلك المحاولات التى بدأت بانشاء جمهورية همام وقويت فى عهد على بك الكبير وبلغت قمتها فى عهد الحملة الفرنسية ثم فى عهد محمد على ، كانت تهيىء الجو السياسى الذى يتيح للطهطاوى أن يعبر عن هذه الدعـوة بمثـــل هـــذه الصراحة . ولكن دور الطهطاوى فى تحدى الايديولوجيـة القائمة على الجامعة العثمانية باسم الجامعة الاسلامية وفى توكيد الفوارق بين خصائص المصريين والعرب عامة أفرادا ومجتمعات وخصائص الترك ، أى باختصار : توكيـــد القومية المصرية والقومية العربية ، كان سلاحا قويا فى حرب العقائد شنها المفكرون المصريون والمفكرون العـرب عامة على فكرة الجامعة الاسلامية التى كان الاتراك يحكمون الشعوب العربية تحت لوائها

يقول الطهطاوى فى « مناهج الإلباب » :

« فقد أجمع المؤرخون على أن مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا فى الفنون والمنافـــع العمومية فكيف لا وان آثار التمـــدن وأماراته وعـلاماته

مكثت بمصر نحو ثلاثة واربعين قرنا يشـــاهدها الوارد والمتردد ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع ، فجميع المبانى التى تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هى من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها فانظر الى آثار منف وأبنيتها وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يحكيه المؤرخون عنها وأنها كانت ثلاثين ميلا بيوتا متصلة ومنها بيت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الاخضر وكان لها ســبعون بابا وهى مدينة المملكة المصرية وكانت منزل الملوك من القبط الاولى والعماليق ومسكن الفراعنة وما زال الملك بها الى أن ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسى المملكة منها الى الاسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة الى أن جاء الاسلام ثم خربت وفيها كانت الانهار تجرى من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار

« ويقال ان ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقــوا على أن يصنعوا مثلها لما أمكنهم ذلك » (مناهج الالباب ص ١٧٧)

هذه الوقفة الجميلة عند مجد مصر الغابر وحضارتها الاولى لها عشرات من نظـــــائرها . ويلاحظ أن رفاعة الطهطاوى بسبب اختلاط مراجعه التاريخية بين عربيــة وأوروبية يتحدث عن « ملوك من القبط الاولى » كأنمــا الملوك القبط شىء والفراعنة شىء آخر ، وهما فى الواقع شىء واحد وهو الملوك المصريون أو ملوك Aegyptus وقد كانت العرب حتى ابن خلدون (نحو ١٤٠٠) تسمى المصريين جميعا القبط بغض النظر عن ديانتهم ، فلا شك أن اكثرية المصريين كانت قد اعتنقت الاسلام حين كتب ابن خلدون مقدمته التى يعرف فيها القبط بأنهم ســكان مصر . كذلك من الالفاظ التاريخية التى ظلت تستعمل

حتى عصر الجبرتي ثم الطهطاوى بغزارة كلمة « الروم » بمعنى « الترك » لا بمعنى « الجريج » كما تنصرف في الاصطلاح المصرى العامى . والطهطاوى يميز اليونان بقوله « الروم اليونان » باعتبار أن هناك « الروم الترك » . و « الروم » حتى ابن زنبل الذى وصف فتح السلطان سليم لمصر تعنى بصورة محددة « الترك »

وفى ظنى أن « الروم » هى الصيغة العـــربية لكلمة « اليوم » Ilium وهى طروادة المشـــهورة ، حاضرة آسيا الصغرى فى العالم القديم ، وبذلك يكون « بحـــر الروم » أو ما نسميه اليوم « البحر الابيض المتوســـط » هو بحر « اليوم » أو بحر طروادة

بل ان اسم « طروادة » Troy ومنها Trojan فيها كل عناصر كلمة « ترك » أو « تركيا » . وقد بدأ اختلاط معنى « الروم » بتأثير الاستعمال الشعبى فى الجبرتى الذى يستعملها آنا بمعنى « الترك » بصراحة ودون لبس وأحيانا بمعنى اليونان ، فهو يقول فى ٣/١٧ « حضر أغا رومى » وزار المشهد الحسينى فاعتقد الناس انـــه رسول أوفده سلطان تركيا جاء يدعوهم للثـــورة على بونابرت . وهو فى ٣/١٤٥ يقول ان على باشا الطرابلسى عاد الى « الديار الرومية » وكان يراسل الثوار المصريين على جيش الاحتلال الفرنسى من خلال السيد أحمد المحروقى وهو يقول فى ٣/١١٥ أن كليبر سافر من القاهرة ، حين جاءت أنباء بوصول « مراكب وغلايين من ناحية الروم الى ثغر الاسكندرية » ، استعدادا لمواجهة الاسطول الفرنسى ، ثم رجع حين تبين عدم صحة هذا النبأ

ولكن الجبرتى فى مواضع متعددة يحدثنا عن « النصارى الشوام والاروام » بوصفهم عناصر موالية للفرنسيين ، ولا

سيما نقولا الرومى وبرطلمان الرومى رئيس البوليس أو فرط الرمان كما كان المصريون يسمونه ، وهما من عتاة من سلطهم الفرنسيون على المصريين ، والجبرتى يقصد بكل هؤلاء « الاروام » أو « الجريج » بمعنى اليونانيين • كذلك من الكلمات الهامة التى يستعملها رفاعة الطهطاوى وتحتاج الى تفسير كلمة « العماليق » بوصفهم أسرة من أسر الملوك الذين حكموا منفيس بين ملوك القبط والفراعنة واسم العماليق يتردد كثيرا فى تواريخ العرب التى تتناول تاريخ مصر القديمة ، دون أن يجد من المحققين من يتصدى لتفسيره • ولا يبعد أنه مرادف لملوك الهكسوس الذين حكموا من منفيس « ميت رهينة » فعلا قبل تأسيسهم عاصمتهم أواريس قرب بلبيس أو « هوارة » كما اشتبهنت فيما سبق • فاذا صح ما ذهبت اليه من أن الغز أى المماليك قد يكونون فلولا من « خزو » ، أى الهكسوس بلغة مصر القديمة ، أو موجات متأخرة منهم ، فربما كان اسم « العماليق » هو الاساس الاشتقاقى الذى خرجت منه كلمة « المماليك »

وفى الديباجة التقليدية نجد أن رفاعة الطهطاوى يقول « انه قد عاد لمصر عزها القديم وبهوها الفخيم ومجدها المؤثل وسعدها الاول » منذ عهد محمد على وورثائه حتى اسماعيل • ويخيل الينا أن الطهطاوى المحرج فى كتابة هذه الديباجة التقليدية ، غلف تهكمه الخفى بلباقة العبارة حين أردف « فكل منهم أبدى فى مصر من المحسنات بقدر طاقته وجهده وعلى حسن نيته وخلوص قصده » (ص ٢) وليفهم القارىء ما يريد أن يفهم من هذا التحفظ فى الكلام عن الطاقة والجهد وخلوص النية .

وبعد أن يحدثنا الطهطاوى بأن مصر « أم الدنيا »

ويفضلها على الشام والعراق يقول انها « روضة الدنيا »، « ولم يكن في الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع الارضين يحتاجون الى مصر .. وهذا عين التمدن اذ لا يكون ذلك الا بتقدم الصنائع والفنون ويؤيده بقايا الاثار المشاهدة التي لا كان مثلها في غير مصر ولا يكون مع ما انمحى منها بشهادة قوله تعالى (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وقد قنع المأمون بهذه الاية حين استصغر مصر في عينه وذهل عن حقيقة الدراية والرواية فادرك بها من الحكمة والغاية » (« مناهج » ١٨)

والطهطاوى لا يمل من تذكيرنا بهذه الامجاد الغابرة : « وقدماء المصريين من الازمان الحالية والقرون البالية يعانون الاعمال العجيبة ويجتهدون في انجاز الاشغال الغريبة كالاهرام والمسلات العظيمة والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمة » («مناهج» ١٢٠) . وهو يرى أن مصر القديمة ما بلغت كل هذا المجد وهذه المدنية الا بواسطتين : « (احداهما) تهذيب الاخلاق بالاداب الدينية والفضائل الانسانية .. (والواسطة الثانية) هي المنافع العمومية التي تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية (يقصد المجتمع) وتبعدها عن الحالة الاولية الطبيعية (يقصد البدائية وحياة الفطرة) » («مناهج» ٧ — ٨) : وهو يعلمنا أن الوطنية هي قمة الفضائل وأن حب الوطن ركن من أركان الدين ، وأن دليل الوطنية هو الرغبة في تمدين الوطن والعمل على تجديد شبابه بالعمران . والطهطاوى الذى يصف نفسه بأنه « عاشق لجمال العمران » يقول ان غايته وغاية كل وطنى هو بعث مجد مصر القديم بالأخذ بأسباب الحضارة الحديثة ، وأن دوره كمفكر ودور كل

المثقفين هو خدمة المجتمع بفكرهم وعلمهم

هذه هي اليقظة القومية المصرية والعربية التي بدأت احساساتها الغامضة المذوبة في محيط الجامعة الدينية تتبلور منذ الحملة الفرنسية حتى غدت في أدب رفاعة الطهطاوي وتلاميذه تيارا فكريا كبيرا ثم عميقا ثم عارما حتى اكتسح كل ما أمامه من ولاءات

اما موقف رفاعة الطهطاوي من المماليك فواضح وقاطع، وهو أنهم المسئولون عن خراب مصر

« وعند فتوح الاسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاة بقدر استطاعتهم في هذا السلوك (يقصد دأب الفراعنة على المحافظة على مرافق البلاد) وانما لما صارت مملكة مصر في قبضة الكوليمان وصار لهم عليها الرياسة واختلت احوالهم وضعفت عندهم السياسة ولم يبق لهم من شهامة الحكام الا مجرد احسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة أهملوا عمليات النيل فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المعنوي ولا الحسي منجدا ولا معينا فتبدد شملهم بالكلية وصارت مصر في يد الفرنساوية تعد اقليما من أقاليم الجمهورية ولم تعد للدولة العلية الا بعد التي واللتيا فزحف عليها المماليك وبالهمة المحمدية العلية لم يلبثوا بها مليا ثم بتوطن هذا الامير وتوطيد هذا السرير أدرك أنه لم يستول من الاراضي الا على موات ولم يسترع الا احياء ضعفاء الهمة وهم في الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية في حيز الاموات »

« ....

« فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون الى عمارتها وانما يأخذون ما بدا لهم وراج في كل عام حتى صارت

يبابا وازدادت خرابا فقد كان أهملها المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية نيلية فكانت الاراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الاقاليم حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل الصالح للزراعة فتكون من الرمال على شواطىء النيل تلال وأكوام ولو بقى حكم ابراهيم بك عشرين من الاعوام لفسدت جميع أراضى مصر الزراعية

« قال نابليون حين تأمله فى أراضى مصر لو حكمت هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرنسا وايطاليا وانكلترا والنمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاث اضعاف ما كانت عليه فى أيام المماليك » (« مناهج الالباب » ص ٢٢٤ — ٢٢٥)

وفى موضع آخر يشرح رفاعة الطهطاوى سبب فساد الادارة المملوكية فيقول :

« فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم أقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافة القرى والنواحى وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطيع آلا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة

والاتفاق فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط فكان فى ايامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقى منها الا اهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية فكان اصحاب الاراضى والمزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الرى والسقى ويختلسون من المياه

ما هو قريب منهم ويمنعون الاراضى البعيدة من ذلك مع كونها لها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان فكان ينشأ من هذا مالا مزيد عليه من عداوة قرية لاخرى وربما ترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فلهذه الحوادث

الجارية فى أيام حكمهم تقهقرت العمليـــات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين (« مناهج الالباب » ٢٣٥ ـ ٢٣٦)

وفى « مناهج الالباب » فصول عديدة كاملة تتناول ما اجراه محمد على من اصلاحات بعد تطهير البلاد من المماليك وأكثرها مخصص لما أجراه من اصلاحات زراعيـــة كشـق الترع وانشاء القناطر وتنظيم الرى واستحداث المحاصيل ثم ما انشأه من مصانع وترسانات ومدارس تكنولوجيـة وطبية وعسكرية وما بناه من سفن وما حسن من وسائل النقل وما جيش من جيوش وما فتح من فتوح وما أوفد من بعثات علمية وبعثات استكشافية وما أنعش من اقتصاد فى كل قطاع من القطاعات الخ

كتب الطهطاوى « مناهج الالباب » بعد ربع قرن من الظلام التام الذى ساد مصر فى عهد عباس الاول ، ومن الظلام النسبى الذى ساد مصر فى عهد سعيد باشا. وكانت اظهر مظاهر هذا الظلام اغلاق كافة المدارس التى انشاها محمد على وعزل رفاعة الطهطاوى من رياسة تحـــرير « الوقائع المصرية » ونفيه الى السودان وتشتيت القيادات الفكرية التى تخرجت فى مدرسة الالسن ايام محمد على وابراهيم . وقد كان محمد على شديد الحرص على ان تصل « الوقائع المصرية » الى ايدى اكبر عدد من المثقفين والموظفين والطلاب . فكانت الجريدة الرسمية توزع بصفة هدايا على كبار رجال الدولة والعلماء كما كانت توزع بالمجان على الطلاب ، الا القادرين منهم على شرائها . وكذلك اكره محمد على سائر الموظفين لتحصيل الاشتراكات من أعيـان البلاد، وبذلك اصبحت « الوقائع المصرية » فى عهده جريدة يقرؤها كافة المتعلمين فى مصر . وكانت جهود محمد على

لنشر « الوقائع المصرية » على أوسع نطاق ممكن « جريا على أصول اوروبا » . وكذلك كان الامر بتجديد « الوقائع المصرية » طبقا لخطة مدروسة تستهدف الرقي بالصحافة الاوروبية : « فالجناب العالى ظل شديد الرغبة فى وضع خطة سديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الاكمل كما هو الحال فى صحافة الممالك الاخرى» .وقد كان أهم مافى التجديد الذى استحدثه الطهطاوى هو الافتتاحية السياسية التى ادخلها علي مواد الجريدة وكان من خلالها يعلم قراءه النظم السياسية واصول الحكم ويناقش من خلالها السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . فهو آنا يقول لقرائه ان نظم الحكم « منقسمة الى اربعة اقسام : ديمقراطية وارستقراطية ومونرخية (يقصد ملكية) ومختلطة او مركبة » . وهو آنا يرد على منتسكيو القائل باستبداد ملوك الشرق وامرائه وحكامه

فلما انتكست البلاد فى عهد عباس الاول أمر هذا الوالى الرجعي بالا ينشر فى « الوقائع المصرية » شيء يختص بالسياسة« بل يجب انحصارها فى اخبار مايحفر من الترع وما ينشأ من الجسور والقناطر وفى أنباء العزل والنصب وكذلك انباء السفن التى من الخارج » . ولم يكتف عباس الاول بمنع « الوقائع المصرية » من التعرض للسياسة وللفكر السياسى ، بل حدد تداولها فى « الحائزين على رتبة فريق ورتبة ميرميران ورتبة ميرلوا ورتبة ميرالاى فقط » بعد أن تبين له ان الجريدة ترسل « لجماعة أمية وسفله ، مثل حسن اغا وكيل الخراج وفيض الله اغا الطاهى وموسى اليهودى الالاتى »

لقد أحس عباس الاول بدور الصحافة فى تكوين الرأى العام فحال دون وصول « الوقائع المصرية » الى صغار

الموظفين وغيرهم من أبناء الطبقات الشعبية كما أمر بعدم تدخلها فى السياسة • وتمت محنة « الوقائع المصرية » فاحتجبت تماما فى اواخر عهد سعيد باشا واهدى سعيد باشا مطبعة بولاق الى أحد موظفيه وهو عبد الرحمن بك رشدى مدير الوابورات الميرية فى البحر الاحمر « ليكون ذلك سببا لاتساع معاشه كما اقتضت ارادتنا » . وحين تولى الخديو اسماعيل الحكم اصدر عبد الرحمن رشدى « الوقائع المصرية » لحسابه باذن من الخديو من فبراير ١٨٦٣ الى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٥ ، ولكن الخديو اسماعيل لم يلبث أن تبنى « الوقائع المصرية » من جديد وأعاد تنظيمها بقرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٥ ، وتوسع فى الانفاق عليها لتعود الى مجدها الاول ايام محمد علي . وقد كان الخديو اسماعيل عاهلا مستنيرا يؤمن برسالة الصحافة فى تنوير الراى العام فتعددت الصحف المصرية الصادرة فى عهده بتشجيع منه حتى بلغت أربعين صحيفة تصدر بلغات متعددة . وفى هذا الجو المستنير وفى هذا التفتح الجديد أمكن لرفاعه الطهطاوى أن يصدر « مناهج الالباب » فيجدد به ما سبق أن بدأه من كفاح فى قيادة المثقفين المصريين فى سبيل النضج السياسى

كان أوضح معالم عصر عباس الأول وسعيد عزل الشعب المصرى عن السياسة ، ونظر الحاكم الى السياسة على أنها مهنة خاصة بطبقة خاصة هى الطبقة الحاكمة • ولذا فقد كان من أهم ما طالب به الطهطاوى فى « مناهج الالباب » هو نشر الثقافة السياسية على أوسع نطاق ممكن بين المواطنين . قال الطهطاوى :

« ثم ان الاصول والاحكام التى بها ادارة المملكة تسمى فن السيادة الملكية (يقصد المدنية) وتسمى فن الادارة

وتسمى ايضا علم تدبير المملكة ونحو ذلك والبحث فى هذا العلم ودوران الالسن فيه والتحدث به والمنادمة عليه فى المجالس والمحافل والخوض فيه فى الغازيتات ، وكل ذلك يسمى بوليتيقة أى سياسة ، وينسب اليه فيقال بوليتيقى أو سياسى . فالبوليتيقة هى كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها

« لقد جرت العادة فى البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف فى البلاد الاسلامية وكتب الاديان فى غيرها قبل تعليم الصنائع ، وهذا لا بأس به فى حد ذاته ، ومع ذلك فمبادىء العلوم الملكية (يقصد المدنية) السياسية هى قوة حاكمة عمومية وفروعها فى الممالك والقرى

بالنسبة لابناء الأهالى ، مع أن تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية . فما المانع من أن يكون فى كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادىء العربية مبادىء الامور

السياسية والادارية ويوقفهم على نتائجها ، وهو فهم أسرار المنافع العمومية التى تعود على الجمعية (يقصد المجتمع) وعلى سائر الرعية من حسن الادارة والسياسة والرعاية فى مقابلة ما تعطيه الرعية من الاموال والرجال للحكومة ، ويفيدهم اسباب ايجاب الحكومة على الاهالى

(يقصد الزام الحكومة للأهالى) ان تخدم وطنها بنفسها خدمة شخصية فى العسكرية وأسباب الزام الاهالى بدفع حصة مخصصة من أموالهم بوصف خراج أو ويركو أو عوائد أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة فى الدول

الاسلامية مكان الزكاة المعطلة . وكذلك ليعرف الأهالى أسباب ايجاب الحكومة عليهم ان يتنازلوا عن شىء من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة

للدلك للمصلحة العمومية كتوسيع الطرق وما اشبه ذلك من العمليات التنظيمية

« فاذا ارتكز فى اذهان الصبيان فى زمن شبوبيتهم اصول هذه السياسات الشرعية وفروعها وفهموا الاسباب والمسببات سهل عليهم عند بلوغ الرشد والوصول الى كمال الرجولية اجراء مفعولها . وهل هذا التعليم الا وقف اهل الوطن على معرفة حقوقهم وواجباتهم بالنسبة لاملاكهم وأموالهم ومنافعهم ومالهم وما عليهم ، محافظة على حقوقهم ودفعا للتعدى عليها . فاللائق أن يكون بكل ناحية معلم لمبادىء الادارة (يقصد أصول الحكم) ومنافع الجمعية العمومية (يقصد المجتمع) فى مقابلةماتدفعهالجمعية للحكومة . فانهذا التعليم مع تقديمهالشخص المتعلم له تأثير معنوى فى تهذيب الأخلاق ، ومنه تفهم الاهالى انمصالحهم الخصوصية الشخصية لا تتم ولا تتنجـــز الا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الحكومة وهي مصلحة الوطن ، فتنذعن نفوسهم بأن القواعد الخصوصية (يقصد المنفعة الخاصة) ليست فى حد ذاتها مضمونة الحصول الا فى ضمن الفوائد العمومية المذكورة (يقصد المنفعــة العامة) . وأيضا مما يقتضى لياقة تعليم مبـــادىء الادارة بالنواحى (يقصد تعليم مبادىء السياسة فى القرى واحياء المدن) كون قانون الحكومة لا يمنع من جواز استخدام أحد من الاهالى ، فاستخدامه فى الملكية (يقصد فى خدمة الحكومة المدنية) لا سيما منصب المشيخة البلدية كمــا سيأتى ذكره ، يستدعى سبق معرفة بأصولها ، وآلا ترتب على استخدام الجاهل لها من السقامة بالحكم (؟) ، لا سيما أيضا مع تجديد الجمعيات المنتخبة (؟) ، وانمــا العلم بالانتخاب ومجالس النواب

« وكان المانع لتعلم البوليتيقة والسياسة فى الأزمان السابقة ما تشـــتد به رؤساء الحكومات من قولهم أن السياسة من أسرار الحكومة الملكية (يقصد المدنية) ، لا ينبغى علمها الا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين مع كون لفظ البوليتيقة كان معروفا أيضا بمعنى آخر وهو الحيلة والخداع والتدبير مما لايليق الابالمملكة الجائرة ٠وفىهذه الايام جميع الاحكام الملكية (يقصد المدنية) مؤسسة على العدل والامانة وخلوص النية المتقوم منهـــا الحق وهو ابيض أبلج لا ينبنى الا على الاخلاص فى القـــول والعمل وحسن العلاقات بين الراعى والرعية ، مما يفرس المحبة والمودة فى قلب الملك ورعاياه بسبب اتباعه الاصول المربوطة وسيره على السنن القويم حسب أحكام المملكة المشروطة وهى غير مكتومة » (« مناهج الالباب » ص ٣٥٠ ـ ٣٥٢)

فالذى يطالب رفاعة الطهطاوى له باختصار ، هو رفع الحجاب السياسى عن الشعب المصرى ، بعد أن دام هذا الحجاب طوال عهد عباس الاول وسـعيد . هو يطالب بتعميم تدريس مبادىء الســـياسة فى المدارس المصرية ليعرف المصريون حقوقهم وواجباتهم السياسية والمدنية ، بعد أن ظلت « البولتيقـــا » حكرا على دائرة مغلقة من الحكام . وواضح أن العرف المتبع يومئذ كان : التربية الدينية لابناء العامة والتربية السياسية لابناء الخاصة . وقد كان هذا هو الوضع السائد فى أوروبا نفســها حتى الثورة الفرنسية التى حطمت ، فيما حطمت ، احتكار الارستقراطية للتربية السياسية وعممت التربيةالسياسية على أبناء الشعب كجزء لا يتجزأ من عملية نقل السلطة الى الارادة الشعبية فى كل نظام ديمقراطى . والطهطاوى يعلن ان الاكتفاء بالتربية الدينية لا يؤدى الى مشاركة

الشعب فى حكم بلاده لسبب خطير ، وهو أن قوانين الدولة الحديثة غير نابعة من الشرائع السماوية، فالضرائب العامة قد حلت محل الزكاة المعطلة والخدمة العسكرية الاجبارية وحروب الدولة الحديثة قد تجاوزا اغراض الجهاد الدينى بالمعنى المحدد . وبالتالى فان من حق كل مواطن ومن واجبه أن يعرف فى أى وجه تتصرف الدولة فى ماله وفى شخصه سواء بالزامه بالمشاركة فى الضرائب العامة أو بالمشاركة فى الخدمة العسكرية ، واخفاء هذه الحقوق والواجبات من المواطنين يتضمن قيام حالة من الاغتصاب تمارسها السلطة مع الشعب وتتنافى مع فكرة قيام المجتمع المدنى ، وبالتالى فهو يغض من شرعية السلطة

الحق أن « مناهج الالباب » كتاب محير الى درجة مقلقة لكل من درس أفكار الطهطاوى الاساسية فى « تخليص الابريز » ، وهو كتاب محير لانه يتضمن تطورا لاراء الطهطاوى فى اتجاهين متضادين : أحدهما النكوص من الليبرالية المطلقة التي تميزت بها ثورية ثوار فرنسا واوروبا عامة نحو ١٨٣٠ ، ومن الايمان العميق بالاشكال الديمقراطية الكلاسيكية ومن تقديس الشعب والارادة الشعبية ، الى لون من الاعتدال السياسى يكتفي بنظام الملكية المقيدة شكلا للحكم ولا يرى ان الجمهورية كنظام سياسى تتضمن بالضرورة أية ضمانات للحرية . أى النكوص من جمهورية جان جاك روسو الديمقراطية الثورية الى الملكية المقيدة عند مونتسكيو صاحب « روح القوانين » وعند فلاسفة عصر التنوير فى القرن الثامن عشر . اما الاتجاه الثانى فى « مناهج الالباب » ، فهو نحو عدم الاكتفاء بأشكال الديمقراطية السياسية كما تتجلى

فى النظام النيـــابى والاصرار على أهمية الديمقـراطية الاقتصادية . وقد حاول رفاعة الطهطاوى الخروج من هذا المأزق الحرج ، وهو الحلم بالملكية المقيدة التى تعفى البلاد من اوتوقراطية الولاة الرجعيين من أمثال عبـاس الاول ، والحلم فى الوقت نفسـه باصلاح راديكالى يجدد الثورة الاقتصادية فى البلاد ، بالاستسلام لحلم كبير يجب الحلمين معا ويقوم على تأليه الدولة مجسدة فى صورة مصلح عظيم من طراز محمد على

يقول رفاعة الطهطاوى فى «مناهج الالباب» (ص٣٤٩) :

« فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمرانى الى قوتين عظيمتين ، احداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد ، وثانيهمـا القوة المحكومة وهى القوة الاهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الانسان فىمعاشه ووجوه كسبه وتحصيل سعادته دنيا وأخرى . فالقوة الحاكمة العمومية ، وما يتفرع عليها ، تسمى ايضا بالحكومة وبالملكية ، هى أمر مركزى تنبعث منه ثلاثة اشعة قوية تسمى اركان الحكومة وقواها . (يقصد سلطاتها) ، فالقوة الاولى (يقصـد السلطة الاولى) ، قوة تقنين القوانين وتنظيمهـا وترجيح ما يجرى عليه العمل من احكام الشريعة أو السـياسة الشرعيـة (يقصـد السـلطة التشريعيـة) . الثـانية قوة القضاء (يقصد السلطة القضائية) ، وفصـل الحكم . الثالثة قوة التنفيذ للاحكام ، بعـد حـكم القضـاة بها (يقصد السلطة التنفيذية) . فهذه القوى الثلاث ترجع الىقوة واحدة ، وهىالقوة الملوكية المشروطة بالقوانين »

هذه القوة الملوكية التى يحدثنا عنها رفاعة الطهطاوى

ويقول أنها منبع السلطات الثلاث : السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية ، ليست الا سيادة « الدولة » أو ما يسمى فى الفقه الدستورى Sovereignty of the State ، وهى ليست بالضرورة ملكية ، فقد تكون جمهورية أو ارستقراطية . والسلطات الثلاث السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية تنبثق من شخصية الدولة وهذه الشخصية المعنوية عند الطهطاوى كما هي عند مونتسكيو أكبر من مجموع أجزائها ، وهى مجسدة فى « الملك » أو « الامير » أو صاحب السيادة فى المجتمع . أما ما يسميه الطهطاوى القوة الملوكيــة » بمعنى Souverainté وليس بمعنى المونارخية Monarchie هذه القوة الملكية هى عند الطهطاوى « واحدة » وهى فى الوقت نفسه « مشروطة بالقوانين » ، وهذا بالضبط موقف مونتسكيو . سلطة الدولة ، أو « القوة الملوكية » اذن لها مقياسان لشرعيتها : انها واحدة ، أى مجسدة لارادة واحدة ، فهى غير قابلة للتجزئة ولا للتعدد ، كالتعدد النابع من تعدد الارادات كما فى دول المماليك أو أمراء الاقطاع ، وانها خاضعة لسيادة القانون ، والا كانت هذه الارادة الواحدة خاضعة لنزوات الحاكم المستبد . وانبثاق السلطات الثلاث : التشريعية والقضائية والتنفيذية من هذا الكيان الواحد ليس معناه تجزئة هذا الكيان الى ثلاثة كيانات مستقلة معبرة عن ثلاث ارادات مستقلة ، فالسلطات الثلاث أشبه شيء بثلاثة أشعة منبعثة من مركز واحد . ومن هنا كان فى نظرية الطهطاوى السياسية كما بسطها فى « مناهج الالبـــاب » درجة من درجات « تأليه » الدولة ، على الطريقة الهيجيلية التى تعد « الدولة » تجسيداً للروح

المطلق . وقد دعاه تأليه الدولة الى اتخاذ موقف شـبيه بموقف فلاسفة الرجعية من نظرية حق الملوك الالهى ، فعاد بالفكر السـياسى الى ما قبل مونتسـكيو : كتب الطهطاوى فى « مناهج » الالباب » (ص ٣٥٤) يقول :

« ثم ان للملوك فى ممالكهم حقوقا تسمى بالمزايا وعليهم واجبات فى حق الرعايا . فمن مزايا الملك أنه خليفة الله فى أرضـه وان حسابه على ربه ، فليس عليه فى فعله مسئولية لاحد من رعاياه ، وانما يذكر للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السـياسات برفق ولين لاخطاره بما عسى أن يكون قد غفل عنه مع حسن الظن به لقوله صلى الله عليه وسلم : الدين النصيحة . فقلنا : لمن يا رسول الله قال : لله ولكتابه ولرسله ولأئمة المسلمين وعامتهم . وايضا للانسان فى نفسه محكمة تجرى الاحكام على صاحبها ، وهى الذمة التى هى النفس اللوامة أو المطمئنة ، فهى قاض لا يقبل الرشوة . فاذا فعل الملك كفير ما لا يوافق لامته عاقبته نفسه لان نور الحق يسطع فى القلب . واذا فعل الملك ما لا ينبغى فعله لا تطمئن نفسه الى ذلك ولا يسكن قلبه اليه ولا يفرح به . وأما فعل الخير فتطمئن اليه النفس ويركن اليه القلب وينشرح له الصدر »

رفاعة الطهطاوى اذن فى « مناهج الالباب » يسـقط المسئولية عن رئيس الدولة ويجعل محكمته فى ضميره وأمام ربه وأمام الرأى العام وأمام التاريخ ويجعل مدى تقييد ارادته مقصورا على اسداء النصح له بالحسنى .

فلننظر الان أن كان رفاعة الطهطاوى قد انتقل بفكره السياسى فى أواخر أيامه الى معسكر الرجعية وتبرير الملكيات المطلقة ، بل والى احياء نظرية حق الملوك الالهى ، أم أنه ظل يتحرك داخل الاطار الديمقراطى الذى اختاره

لنفسه فى صدر حياته مع بعض الميل إلى المحافظة والاعتدال المتمثلين فى نظرية الملكية المقيدة بدلا من الدعوة الجمهورية الواضحة التى لازمت تفكيره الاول . يقول الطهطاوى فى « مناهج الالباب » (ص ٣٥٥) :

« فذمة (يقصد ضمير) الملوك كذمة غيرهم تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر ، فالذمة حكم عدل تنفر غالبا من الظلم والجور ، فهى عنوان الخوف من الله تعالى فى كونها تحمل الملوك على العدل . ومما يحماهم على العدل أيضا ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العمومى ، أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك . فان الملوك يستحون من اللوم العمومى ، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والاكابر ، لا يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه . فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب »

ان هذا الكلام يتمم سابقه وجوهره كلمتان : مسئولية الملوك معنوية لا قانونية . الملوك لا يحاكمون ولكن يثار عليهم ويخلعون . ان محكمة الملوك الكبرى هى الرأى العام ، والرأى العام سلطان قاهر لا يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه . فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب . الرأى العام هو الذى يقلب العروش ويغير نظم الحكم . هذا المنطق هو نفس المنطق الذى استخدمه الثائر سان جوست أيام الثورة الفرنسية حين كثر الحديث عن محاكمة الملك لويس السادس عشر ، ولكن سان جوست عبر عنه بعبارات دموية حين قال : الملوك لا يحاكمون ، وهذا الرجل اما أن يحكم واما أن يموت . ومن يتأمل موقف الطهطاوى يجد أنه شديد الشبه بالفقه الثورى الذى اشار به سان جوست : حيث

ترتفع المسئولية القانونية تحل محلهـا المسئولية الشاملة التى لا تجدى معها جزئيات القـــانون . وهذا منطق الثورات

وقد واجه مونتسكيو هذه المشـكلة فى كتابه « روح القوانين » ، فأفتى بعدم مسئولية الملك رغم انه على راس السلطة التنفيذية ولكنه أفتى بمسئولية ناصحيه ووزرائه قال مونتسكيو :

« ولكن رغم ان السلطة التشريعية فى دولة حرة لا حق لها فى ابطال أعمال السلطة التنفيذية ، فان من حقها ، بل ويجب أن تملك وسائل بحث الطريقة التى يطبق بها ما تصدره من قوانين ، وهىمزية تتفوق بها هذه الحكومة على حكومة كريت واسبرطه ، حيث الحكام لا يقدمون حسابا عن أعمالهم فى ادارة الدولة

« ولكن أيا كانت نتيجة هذا البحث ، فلا يجوز للسلطة التشريعية أن تمثل سلطة محاكمة من أودعت فيه السلطة التنفيذية سواء شخصه أو أعماله بطبيعة الحال . اذ يجب أن يكون شخصا مقدسا ، لان من الضرورى لخير الدولة أن تمنع السلطة التشريعية من التحول الى قـوة تحكمية ، فان اتهام رئيس الدولة أو محاكمته معنـاه انتهاء الحرية على الفور

« ففى هذه الحالة ، لا تصبح الدولة ملكية بل تصبح نوعا من الجمهورية ، وتكون مع ذلك خالية من الحـرية ولكن بما أن الشخص الذى أودعت فيه السلطة التنفيذية لا يمكنه أن يسىء استعمالها بغير ناصحين فاسدين ومن بيدهم القانون كالوزراء مثلا ، فان هؤلاء الناس تمكن محاكمتهم ومعاقبتهم برغم حماية القوانين لهم بوصـفهم مواطنين .. الخ »

. وهذه الفتوى ترفع المسئولية عن الملك أو رئيس الدولة مع جواز محاسبة وزرائه ومشيريه وهى متمشية مع نظرية مونتسكيو العامة فى الملكية المقيدة بالقوانين التى بموجبها يصبح الملك أو رئيس الدولة فوق القانون ، وبالتالى فهو يملك ولا يحكم . أما نظرية الطهطاوى التى جمع فيها النقيضين : رفع المسئولية القانونية تماما عن كاهل ولى الامر وصاحب السيادة مع تحميله المسئولية

الشاملة أمام الرأى العام واجازة خلعه بقوة الثورة فهى بمثابة قوله أن « القوة الملوكية » ليست مسئولة قانونا ولكنها مسئولة سياسيا . وهى وجهة نظر فى نظم الحكم ، ولكنها بغير جدال لا تنبع من المقومات التى قدمها مونتسكيو وقبلها رفاعة الطهطاوى أساسا لفكرته عن الملكية المقيدة كنظام أمثل للحكم . يقول الطهطاوى فى « مناهج الالباب » (٣٥٣ ـ ٣٥٤) :

« ثم ان الحكومة التى عبرنا عنها فيما سبق بالقوة الحاكمة ، هى من مقولة النسب والاضافات ، تقتضى حاكما ومحكوما ، يعنى ملكا ورعية ، فلا يفهم الملك الا بالرعية ولا تفهم الرعية الا بالملك كالابوة والبنوة . فلهذا وجب أن نتبين كلا منهما مع ما يتعلق به ، ونبتدىء بولاة الامور فنقول :

« ولى الامر هو رئيس امته ، وصاحب النفوذ الاول فى دولته ، وحاكم متصرف بالاصول المرعية فى مملكته ، ولا توجد رعية فى مملكة منتظمة بدون راع ، والا ضعفت واختلت وشقى أهلها لعدم من يسعى فى اسعادهم بتحسين شئونهم

« وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الاحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض على

موجب احكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية ، فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين

« ولما كانت السياسة جسيمة لا يقوم بها واحد ، اختص الملك بمعالي الاحكام وكلياتها وخلع نفوذه فى جزئيات الاحكام على المحاكم والمجالس وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية ترشد أفعالهم ولا يتعدونها قال بعضهم : ليست فى الدنيا جمعية منتظمة (يقصد مجتمع منظم) ولا مملكة معتدلة الاحكام الا وتكون القوة فيها بالاصول العدلية . فالاصول العادلة تصون ناموس الدولة عن الملامة . ولهذا كان جميع ما أمضاه الملك السالف من الاحكام وأجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز ، ولا يسوغ لمن جاء بعده أن يخدشه ويبطل أحكامه التى جرى مقتضاها . وهذه القاعدة جارية فى سائر الممالك . فحرمة الاصول الملكية بصونها عن نقض ما جرياتها راجعة فى الحقيقة لحفظ حرمة الملك فان بت (يقصد اصدار) الحكم فى عهد الملك أثر نتائج أفكاره أو ثمرة أوامره ونواهيه وتصديقه عليه ، فهو منسوب الى المنصب الملوكى فلا يسوغ نقضه . وقد كان المنصب الملوكى فى أول الامر فى أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الاعظم واجماع الامة . ولكن لما ترتب على أصل الانتخابات ما لا يحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات ، اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح اختيار التوارث فى الابناء وولاية العهد على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها ، فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنا لحسن انتظام الممالك »

فرفاعة الطهطاوى هنا يبلور فى احكام نظرية الملكية المقيدة كما أخذها عن مونتسكيو وأضاف إليها . أول

شرط من شروط قيام الدولة عنده وجود قوة حاكمة تهيمن على الرعية كما يهيمن الاب على بنيه . وأول شرط من شروط شرعية السلطة صاحبة السيادة فى الدولة هى أن « الملك يتقلد الحكومة لسـياسة رعاياه على موجب القوانين » . وهذا ما جرى العرف على تسميته بالملك الدستورى . ومعنى هذا أن السلطة صاحبة السيادة فى الدولة لو تحللت من حكم القـانون أهدرت شرعيتها .

وقد كان رفاعة الطهطاوى الشـاب صاحب « تخليص الابريز » يرى أن الشعب هو صاحب السـيادة ومصدر السلطات ، متأثرا فى ذلك بالفقه الثورى الذى تركه جان جاك روسو ويعاقبة الثورة الفرنسية فى الفكر الفرنسى خاصة وفى الفكر الاوروبى بوجه عام . ولكنه فى « مناهج الالباب » أصـبح يرى أن رئيس الدولة هو صاحب السيادة ومصدر السلطات . وجوهر السيادة فيه غير قابل للتجزئة ولكنه قابل للتفويض . ومن هنا فرئيس الدولة يختص « بمعالى الاحكام وكلياتها » اى باصدار القوانين الاساسية ، وفى مقدمتها الدستور أبو القوانين . ثم يفوض سلطاته الى المجالس التشريعية والمحاكم للنظر فى الجزئيات ولتطبيق القوانين . فرئيس الدولة اذن عند الطهطاوى هو مصدر القوانين بالاصالة واذا كانت شرعيته ترتكز على خضوعه لحكم القانون ، فمعنى هذا أن رئيس الدولة مغلول اليد بما يسنه هو من قوانين اى بالقوانين المتوارثة ، أو ما يسميه الطهطاوى « الاصول المرعية فى مملكته » ويدخل فيها التقاليـد التى تجـرى مجـرى « الاصول » ، فان ابطال قوانين السلف يغض من « القـوة الملوكية » أو من مبدأ سيادة الدولة . والاصل فى رئيس الدولة انه منتخب ولكن المجتمعات البشرية لجأت الى

الملكية الوراثية لا لقيمتها الذاتية أو لقدرتها على تحقيق الخير العام ولكن اتقاء لشرور التنــازع على السلطـة فى الملكيات أو الرياسات المنتخبة

ومعنى كل هذا ان رفاعه الطهطاوى تراجع من ديمقراطية روسو واليعاقبة الى قانونية مونتسكيو . بل لقد نقل سلطة السيادة من الشعب ومن رئيس الدولة الى طرف ثالث معنوى هو « القانون » : وجعل من القانون سيدا على الشعب والملك جميعــــا . وهــــذا هو الموقف الارسطاليسى الذى لا يفهم للديمقراطية معنى الا فى ظل سيادة القانون ويعتبر كل ارادة عامة لا يعبر عنهــا بالقانون نوعا من البليبوقراطية أو حكم الرعاع لا نوعا من الديمقراطية أو حكم الشعب . ولكن من المهم أن نذكر أن رفاعة الطهطاوى ، رغم اتجاهه الى الديمقراطية المعتدلة المثلة فى زمانه فى مبدأ الملكية المقيدة ، لا يفرغ الوجود الاجتماعى من مضمونه الديمقراطى الثورى ، فهو يعلن الغاية من كل وجود اجتماعى وسياسى فى قوله : « وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الاحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض على موجب أحكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية » . ان الغاية الاولى من تأسيس المجتمع المدنى عند رفاعة الطهطاوى هى حــماية حقوق الانسان وفى مقدمتها الحقوق المدنية ، وهى الحرية والمساواة ، وكفالة الحقوق الشخصية . فرفاعه الطهطاوى لم يبعد كثيرا فى فهمه لمضمون الوجود الاجتماعى والسياسى عن موقفه الثورى الاول الذى أخذه شابا عن الفــكر الثورى الاوروبى والحرية والمساواة لاتزالان فى وجــدانه أولى غايات الوجود الاجتماعى . فهو اذن بهذا المعنى غدا معتدلا فى الشكل ولكنه حافظ على ثورية المضمون

انظر الى مونتسكيو وما قاله عن غاية الحكومة فى «روح القوانين » (الكتاب ١٦ ، المطلب ٥ ، ٦)

« ورغم ان كل الخدمات لها غاية واحدة ، وهي المحافظة على المجتمع ، الا أن لكل منها غاية أخرى معينة بالاضافة الى ذلك : فاتساع التخوم كان غاية روما ، والحرب كانت غاية اسبرطة ، والدين غاية القوانين اليهودية والتجارة غاية مرسيليا ، والاستقرار العام غاية قوانين الصين ، والملاحة غاية قوانين رودس ، والحرية الطبيعية غاية الهمج . وبوجه عام فان لذات الامير هى غاية دولة الطغيان ، وغاية الملكيات مجد الامير ومجد المملكة ، وغاية بولندا هى حرية الافراد ، ومن هنا نتج كبت المجموع

« وهناك أمة واحدة فى العالم لدستورها غاية مباشرة هى الحرية السياسية . وسوف نبحث فيما يلى المبادىء التى تقوم عليها هذه الحرية ، فاذا تبينت سلامتها كانت الحرية فى اكمل حالتها

« وفي كل حكومة هناك ثلاثة أنواع من السلطة : التشريعية والتنفيذية فيما يتصل بالامور القائمة على قانون الامم ، والقضائية فيما يتصل بالأمور القائمة على القانون المدنى »

والحكومة المثلى فى نظر مونتسكيو هي حكومة انجلترا لان غايتها هي تحقيق الحرية السياسية ، ووسيلتها الى تحقيق هذه الغاية العمل بمبدأ « فصل السلطات » : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، وهو جوهر الدستور البريطانى الذى يعد المثل الاعلى لنظام « الملكية المقيدة » فى العالم . وقد أشاد مونتسكيو فى « روح القوانين » بالدستور البريطانى وبنظرية فصل السلطات وبنظام الملكية المقيدة ودعا الفرنسيين أيام البوربون والملكية

المستبدة الى الاخذ بنظام الحكم فى انجلترا ، وقد اخذ رفاعه الطهطاوى عن مونتسكيو هذا الاعجاب بالدستور البريطانى وبنظرية فصل السلطات التى غدت فى زمنه النظرية السائدة فى كافة الدساتير الديمقراطية سواء فى الملكيات المقيدة او فى الجمهوريات . كذلك أخذ الطهطاوى

عن مونتسكيو نظريته فى أن رئيس الدولة (الملك) هو راس السلطة التنفيذية ، وانه يحكم من خلال وزرائه وبالتالى فهو يملك ولا يحكم ، وهو وضع يجعله فوق القانون ويعفيه من المسئولية القانونية ويجعله غير قابل للمحاسبة الا معنويا فاذا بحثنا عن السند الفقهى الذى استند اليه مونتسكيو فى نظريته بأن الملك ينبغى أن يكون على رأس السلطة التنفيذية ، وجدنا مونتسكيو يقول فى « روح القوانين » (الكتاب ١١ ، المطلب ٦) : « ان السلطة التنفيذية يجب أن تكون فى يد الملك ، لان هذا الفرع من فروع الحكومة يحتاج الى سرعة فى الانجاز ، وبالتالى فاداؤه بمعرفة شخص واحد أفضل من ادائه بمعرفة اشخاص متعددين . وعلى العكس من ذلك : كل مايتوقف على السلطة التشريعية غالبا ما تؤديه الكثرة خيرا مما

يؤديه فرد واحد » نفس هذا المنطق نجده فى رفاعه الطهطاوى الذى يقول فى « مناهج الالباب » : « ومن مزايا ولاة الامور ايضا ان النفوذ الملكى بيدهم خاصة لايشاركهم فيه مشارك ، وهذه المزية العظمى تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة ، حيث ان اجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهى بالسرعة لكونه منوطا بارادة واحدة بخلاف ما اذا نيط بارادات متعددة بيد كثيرين ، فانه يكون بطيئا » .

هذا الرأى فى وضع « القوة الملوكية » أو رئيس الدولة على رأس السلطة التنفيذية قد أدى بمونتسكيو ثم برفاعه

الطهطاوى من بعده الى اعتبار السلطة التشريعية مجرد غرفة للمشورة تشير على رئيس الدولة دون أن يكون فى مشورتها أية درجة من درجات الالزام ، أو بلغة الطهطاوى: « فليس من خصائصها الا المذاكرات والمداولات وعمل القرارات على ما تستقر عليه اراء الاغلبية ، وتقديم ذلك لولى الامر » أى أن سلطات السيادة أصلا مودعة فى رئيس الدولة بوصفه ولى الامر ورأس السلطة التنفيذية . واحترام رئيس الدولة لقرارات السلطة التشريعية ليس من صفات سيادة ذاتية مودعة فيها ، ولكن من احترام رئيس الدولة لقراره أن يغوض بعض سلطاته أو « يخلعها » على هذه السلطة المعاونة له . وهذا هو المبدأ الأساسى فى النظرية الدستورية القائلة بأن « الدستور منحة من الملك » أو « خلعة » منه بلغة رفاعه الطهطاوى وحين واجه مونتسكيو نفس الموضوع وهو طبيعة العلاقة بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، أعلن « ان السلطة التشريعية فى دولة حرة لا حق لها فى ابطال أعمال السلطة التنفيذية » . وهو يقصد بذلك الملك أو رئيس الدولة ، لان مونتسكيو أجاز محاكمة الوزراء والاعتراض على أعمالهم وفصل فصلا باتا بين شخصية رئيس الدولة وبين من يستخدمهم من وزراء ، فجعل من رئيس الدولة « شخصا مقدسا » أو « رمزا » كما يقول الفقه الدستورى الانجليزى بينما جعل من الوزراء أشخاصا ماديين قد يجنحون الى الانحراف بالرأى أو بالفعل ، أو بلغة مونتسكيو : « لان من الضرورى لخير الدولة أن تمنع السلطة التشريعية من التحول الى قوة تحكمية ، فان اتهام رئيس الدولة أو محاكمته معناه انتهاء الحرية على الفور »

فسيادة السلطة التشريعية على الملك أو رئيس الدولة

عند مونتسكيو ثم عند الطهطاوى من بعده دلالة انتهاء الحرية فى الدولة ، ومظهر من مظاهر قيام الجمهورية ؛ ومنه نفهم ان قيام الجمهورية رغم استناده الى سيادة الشعب أو ما يسمى عادة بالديمقراطية ، يتضمن اختفاء الحرية . وهو رأى يبدو غريبا فى ظاهره ، ولا سبيل الى فهمه الا بالرجوع الى كتاب « السياسة » لارسطو حيث

يقول ارسطو ان الخطر الحقيقى على الحرية فى الدولة ليس فى طغيان الحاكم أو ولى الامر وانما هو فى طغيان الرعاع وزعماء الرعاع الممثلين للجماهير فى السلطة التشريعية . فسيادة زعماء الرعاع على ولى الامر هى فى نظر أرسطو سيادة الرعاع على « القانون » وعلى حكم القانون المجسد فى الملك أو رئيس الدولة ، وحيث يختفى القانون تختفى الحرية

فليس من شك اذن فى أن رفاعة الطهطاوى بعودته فى « منهج الالباب » الى مونتسكيو بل والى ارسطو من قبله قد اتجه الى المحافظة متمثلة فى نظرية الملكية المقيدة بالقانون او الملكية الدستورية ، وانه قد تخلى عن كثير من ثوريته وليبراليته المطلقة التى تجلت أوضح ما يكون

فى « تخليص الابريز » . هذه الرجعة الى أرسطو وتاليه القانون والديمقراطية القانونية مباشرة وعن طريق مونتسكيو ليست غريبة فى الطهطاوى الشيخ ، وقد أفضت اليها جملة عوامل ربما كان أحدها ما نزل بالطهطاوى

من عنت شديد بين حكم محمد على واسماعيل على أيدى الولاة الرجعيين وربما كان ثانيها أن رفاعة الطهطاوى الشيخ الذى توفى عن ألفى فدان قد أصبح نفسه أحد ابناء الطبقة الحاكمة وقطبا من اقطاب الارستقراطية المصرية التى تكونت فى القرن التاسع عشر بفضل محمد على

وابراهيم ثم بفضل سعيد واسماعيل وحلت درجة درجة محل الارستقراطية التركية والارستقراطية المملوكية

ولكن قد يكون من الظلم لرفاعة الطهطاوى أن ننسب اتجاهه للاعتدال والمحافظة الى مجرد تغير وضعه الطبقى . فقد كان رفاعه الطهطاوى طيلة حياته ينظر الى محمد على نظرة بطل منقذ انتشل مصر من ظلمات الجهل والظلم المملوكى وأرسى فيها قواعد الدولة الحديثة . وفى «مناهج الالباب» فصول عديدة تتناول ما اجراه محمد على من اصلاحات بعد تطهير البلاد من المماليك وشقه عصا الطاعة على السلطان العثمانى . وقد شبه رفاعة الطهطاوى محمد على فى كل مناسبة بالاسكندر الاكبر فى فتوحاته وفى اصلاحاته ، بل هو يصفه بأنه « ثانى فحول أمراء مقدونيا محمد الاسم على الشأن » باعتبار ان الاسكندر الاكبر كان أول فحول أمراء مقدونيا . (« مناهج الالباب » ص ٢٠٦) وقد كان أرسطو مؤدب الاسكندر الاكبر ومفلسف نظامه ، فلا عجب أن تكون عبادة البطولة قد دفعت الطهطاوى الى تقمص شخصية المعلم الاول وجعلت منه الداعية الاكبر لتأليه الدولة على غرار ما فعل هيجل بنابوليون ، فتبنى نظرية « حق الدولة الالهى » وأحلها محل نظرية « حق الملوك الالهى » . ولكن ثقافة الطهطاوى اللاتينية وتربيته الاولى على أيدى ثوار الفكر الفرنسى البورجوازى كانا وقاء له من أن يتوه فى متاهات الفكر المثالى الميتافيزيقى الالمانى وجعلاه يلتمس تأليه الدولة فى تأليه « القانون » على غرار ما فعل ارسطو ثم مونتسكيو ، فلم يخرج الطهطاوى فى شىء مما كتب عن اطار الديموقراطية المعتدلة التى كان أشيع نظام يمثلها فى القرن التاسع عشر هو نظام « الملكية المقيدة » . ولا شك اننا لو حاولنا

أن نبحث في شخصية محمد على وعصره عن سيادة القانون أو عن الديمقراطية المعتدلة لما وجدنا من هذه المعانى معنى واحدا ، رغم تعدد صفات البطولة التى يمكن أن نلمسها فى شخصية محمد على وفى شخصية عصره • ولكننا لا ينبغى لنا أن ننسى أن رفاعه الطهطاوى كتب « مناهج الالباب » فى عصر اسماعيل ولعصر اسماعيل حين أخذت بدايات الفكرة الدستورية وسيادة القانون تتبلوران فى مصر وتطرحان قضية الشرعية القانونية أساسا لنظام الحكم مكان فلسفة سيف المعز وذهبه التى بنى عليها نظام محمد على . واذا كان عصر اسماعيل قد خلا من معالم البطولة الرومانتيكية التى قام عليها عصر محمد على ، فليس من شك انه كان البداية الحقيقية فى بلادنا للبحث المنظم عن شرعية الحكام وشرعية نظم الحكم ، أى البداية الحقيقية لكفاح الشعب المصرى من أجل الدستور

ولعل اهم ما يلاحظ على تطور الفكر السياسى والاجتماعى والاقتصادى عند رفاعة الطهطاوى من مرحله الشباب و « تخليص الابريز » الى مرحلة الشيخوخة و «مناهج الالباب » ان الطهطاوى رغم اتجاهه الى الاعتدال بل وربما الى المحافظة في الفكر السياسى وفى نظرية الحكم فقد اتجه نحو الراديكالية فى فكره الاجتماعى والاقتصادى ، بل اكاد أقول انه اتجه نحو الاشتراكية المعتدلة . ولم يكن الطهطاوى نسيج وحده فى هذا التحول من الايمان بالاقتصاد الليبرالى القائم على نظرية حرية التجارة وحرية الصناعة وحرية العمل ، والممثل فى فلسفة « دعه يعمل ، ودعه يمر » وما يسمى عادة بنظرية « الحد الادنى من تدخل الدولة » فى قطاعى الانتاج والخدمات ، الى الايمان بتدخل الدولة لتنظيم العلاقات بين العمل ورأس

المال فان عددا كبيرا من مفكرى البورجوازية الثوار الذين تبنوا الفلسفة الليبرالية المطلقة فى مطلع القرن التاسع عشر قد عدلوا عنها بتقدم القرن بعد ما لمسوا بأنفسهم الاثار الاجتماعية والاقتصادية الوخيمة المترتبة على عربدة النظام الرأسمالى فى ظل الحرية المطلقة التى أقرها النظام الليبرالى فى المجتمعات الاوروبية ، واتجهوا الى الوان مختلفة من الاشتراكية بعضها مسرف للغاية (ماركس وانجلز) وبعضها معتدل واضح الاعتدال (ستيوارت ميل وبرودون) للحد من استغلال الانسان للانسان ودعوا لتدخل الدولة لتنظيم العلاقة بين العمال ورؤوس الاموال : بعضها دينى المنابع(سان سيمون وف.ب.موريس وتشارلز كنجزلى) وبعضها مثالى طوبوى (روبرت أوين وفورييه والايكاريون) وبعضها مادى نابع من فلسفة المنفعة التى وضع أساسها الفيلسوف بنثام وتلميذه النجيب جيمس ميل

وقد ظهر هذا التحول من الليبرالية الى الراديكالية والى الاشتراكية المختلفة اول ما ظهر واكثر ما ظهر بقيام ذلك الجدل الخطير الذى هز الفكر السياسي والاجتماعى والاقتصادى حول ما يسمى بنظرية القيمة . وقد تجمع الفكر الاقتصادى الليبرالى الكلاسيكى حول لواء امامه ريكاردو الذى نادى بأن رأس المال هو أهم عنصر من عناصر « القيمة » فى الانتاج ، فتصدى فلاسفة الراديكالية وفلاسفة الاشتراكيات المتعددة لنقض هذه النظرية والمناداة بأن « العمل » هو اساس القيمة الاول ، وان لم يكن الاساس الوحيد ، وقد ظلت هذه الحرب العقائدية مستعرة حتى قبل أن يبلور كارل ماركس نظريته فى « رأس المال » بأن « العمل أساس القيمة » بل وأساسها الوحيد

ولقد كان رفاعة الطهطاوى يعيش أولا باول مع آخر تطورات الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي فى أوروبا ويتابع عن كثب ما يكتبه فوربيه وبرودون وعامة الراديكاليين والاشتراكيين المعتدلين فى موضوع « القيمة » . وقد انعكس كل هذا فى كتابه « مناهج الالباب » الذى تصدى فيه لمناقشة العلاقة بين العمل ورأس المال ونقل مشكلة « القيمة » الى أرض مصر محاولا تطبيقها على علاقة الفلاح بالمالك وعلى علاقة العامل بالراسمالية الجديدة التى أخذت تترعرع فى البلاد . قال الطهطاوى :

« ثم اختلف : هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الارض وانما الشغل مجرد الة وواسطة لاقيمة له الا بتطبيقه على الفلاحة ، او أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الاموال المستفادة ، وانه هو الاصل الاولى للملة والامة ، يعنى أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون اليه لمنفعتهم من الارض أو لراحة المعيشة ، فالفضل للعمل ، وأما فضل الارض فهو (ثانوى) » .

(« مناهج الالباب » ص ٨٤)

هكذا بسط الطهطاوى قضية القيمة بمنتهى الوضوح والتحديد . وبعد أن طرح قضية القيمة فى الانتاج بكل هذا الوضوح والتحديد ، أدلى برأيه فى عبارات قاطعة لا تقل وضوحا أو تحديدا ، وهذا الرأى فى ايجاز هو أن القيمة فى الانتاج لها مصدران : العمل وهو يأتى فى المقام الاول ورأس المال وهو يأتى فى المقام الثانى :

« فميسرة الزارع ، أى صاحب الزرع واقتداره على البذر والاجرة ثروة له ، فهى منبع الايراد بعد الشغل . والشغل وهو العمل ، منبع الايراد قبل تحصيل البذر وأجرة الحارث . وهذا ينتج ان منبع السعادة الاولى هو

العمل والكد ومزاولة الخدمة ، ومع أن كد العمل مصدر السعادة الاصلي ، فهو أيضا يعين صاحب الميسرة على تكثير ميسرته بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة ازيد مما تساعد خصوبة الارض عليه لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن أن ينسب من ايرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدته ، وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة

« ودليل ذلك أن الامة المتقدمة في ممارسة الاعمال والحركات الكدية ذات الكمالات العملية المستكملة للادوات الكاملة والالات الفاضلة والحركة الدائمة قد ارتفعت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها بخلاف غيرها من الامم ذات الاراضي الخصبة الواسعة الفاترة الحركة . فان أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج . فاذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وافريقية ظهر لك حقيقة ذلك

« فمن هذا يظهر ان أساس الغنى مبني على كثرة الاشغال والاعمال ، فهي مصادر وموارد للاموال ومنابع لاسعد الاقبال » . (« مناهج الالباب » ص ٨٧ — ٨٨) .

وبعد ان يطرح رفاعة الطهطاوي مشكلة القيمة في عمومها ويقرر ان نصيب العمل في القيمة أكثر من نصيب رأس المال (المجسد في الارض وفي الاجور وفي تكاليف الأنتاج ، نراه ينتقل الى وصف الحالة كما رآها في مصر في زمنه فيقول :

« ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية المجتني لفوائد هذه الاصلاحيات الفلاحية الناتجة في الغالب عن العمل واستعمال القوى الالية والمحتكر لمحصولاتها الايرادية ، انما هو طائفة الملاك . فهم من دون

أهل الخدمة الزراعية متمتعون باعظم مزية . فأرباب الاراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية والمتحصلون على فوائدها ، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولها له وقع ، فلا يعطون للاهالى الا بقدر الخدمة والعمل وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة . يعنى ان الملاك فى العادة يتمتعون بالمتحصل من العمل . ولا تدفع فى نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافىء العمل ، كما ان ما يصل الى العمال نظير عملهم فى المزارع أو الى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك . فان المالك يستوفى بعد تصفية حساب مصاريف الزراعة وجميع كلفها ، يأخذ محصولها بتمامه بوصف ايراد للارض وعلف للمواشى واجرة للالات ، ولا يعطى لارباب الاعمال والاشغال منها الا قدرا يسيرا ، ولا ينظر الى كون بعض هؤلاء العمال هو الذى حسن الزراعة بشغله واخترع لها طرائق منتجة واستكشف استكشافات عظيمة بتنمية الزراعة وتكثير أشكالها ، فان حق التمليك ووضع اليد على المزارع مسوغ للملاك ولواضعى الايدى ان يتصرفوا فى عمليات املاكهم التصرف التام وان يعطوا للعمال بقدر ما يظنون انه من لياقتهم . ويعتقد المالكون انهم ارباب استحقاق عظيم بسبب التملك وانهم اولى بالسعادة والغنى مما يتحصل من عمليات الزراعة ، وان عداهم من اهل المملكة لا يستحق من محصول الارض شيئا الا فى مقابلة خدمته ومنفعته المأمور باجرائها فى حق ارضهم . فيترتب على هذا ان كل من يريد من الاهالى ان يتعيش من الخدمة التى هى العمل ، يصير مضطرا لان يخدم بالمقدار الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب

.. ولا شك أن راديكالية رفاعة الطهطاوى فى أواخر حياته ، بتركيزها على ضرورة تغيير العلاقات الاقتصادية فى الريف المصرى وبتركيزها على ما كان يصيب الريف المصرى يومئذ من مكننة يبدو انها كانت تجرى على نطاق واسع نجم عنه اختلال فى التوازن بين العرض والطلب فى سوق العمالة الزراعية ، انما كانت من الناحية التاريخية، لو جاز لنا أن نقيس تطور الفكر المصرى على تطور الفكر الاوروبى ، بمثابة فلسفة الطليعة البورجوازية التقدمية الثائرة على الاقطاع وعلى كبار الملاك اكثر منها فلسفة بروليتارية بحتة فلست أحسب أن الطهطاوى كتب ماكتب لتقرؤه البروليتاريا المصرية ريفية كانت أو مدنية ، وانما كتبه لاشاعة الوعى بين مثقفى الطبقة الوسطى لتأليبهم على العلاقات شبه الاقطاعية التى كانت تسود الاقتصاد الريفى المصرى بغية دفع عجلة الثورة الصناعية بكافة علاقاتها المدنية الى الامام . فمن تجربة الفكر البورجوازى الثائر فى أوروبا منذ الثورة الفرنسية نجد أن تركيز البورجوازية الثائرة على الظلم الاجتماعى اتخذ أول ما اتخذ هدفا له التشهير بالاستغلال الاقتصادى بين البشر فى مجال الزراعة قبل أن يتجه الى تطبيق هذه الافكار الراديكالية على الاستغلال الاقتصادى فى مجال الصناعة أو التجارة . وبالفعل أفضى تحرير الفلاحين فى الريف الى التوسع فى الاستثمار المدنى ، سواء بهجرة رءوس الاموال من الريف الى المدينة . وقد كان عصر اسماعيل هو البعث الحقيقى لمصر محمد على بعد توقف الحياة فى مصر نحو عشرين سنة تحت حكم عباس الاول وسعيد ، مع فارق واحد ، وهو أن البورجوازية المصرية التى نشأت أيام محمد على انما نشأت فى كنف الدولة ونظام ملكية الدولة لوسائل

لرتفع نبرة رفاعة الطهطاوى فى التنديد باستغلال الملاك للفلاحين الى درجة التحذير من القلق الاجتماعى الذى قد يتبلور فى « ثورة الفلاحين »

« فحديث الزرع للزراع لا يدل على شيء من جواز استحواذ المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل ، ولا يستند فى غبن الاجير الى أن المالك دفع رأس ماله فى مصرف الزراعة والتزم الانفاق عليها ، فهو الاحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة ، وانه الاولى بربح امواله العظيمة ، فهو الاصل فى التربيح ، وان عملية الفلاح انما هى فرعية انتجها وحسنها رأس المال . فان هذه التعليلات محض مغالطة .. فمواكسة المالك له فى تقليل اجرته محض اجحاف به ووصف استملاك الاراضى والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضى كونه يستوعب جل المحصولات ويجحف بالاجير نظرا الى ازدحام أهل الفلاحة وتنقيصهم للأجر وسومهم على بعضهم بالمزايدات التنقيصية وهذا لا يثمر محبة الاجير للمالك (من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا) ، فان هذا فيه ايذاء بعضهم لبعض وهو ممنوع شرعا » (« مناهج الالباب » ص ٩٥ ـ ٩٦)

لو استعرضنا تاريخ الفكر المصرى الحديث منذ الحملة الفرنسية لوجدنا ان « مناهج الالباب » لرفاعة الطهطاوى هو اول محاولة للدفع عن اصحاب الجلاليب الزرقاء وعن الطبقة العاملة المصرية بوجه عام . فالكتاب اذن كتاب خطير من حيث انه عمق كفاح الفكر المصرى فى سبيل الديمقراطية من مجرد البحث عن اشكال الحكم والعلاقات السياسية بين الحاكم والمحكوم الى البحث عن اركان الديمقراطية الاقتصادية وعن اسس العدالة الاجتماعية

رضائهم ، ولو كان هذا القدر يسيرا جـدا لا يسـاوى العمل ، لا سيما اذا وجد بالجهة كثير من الشغالين فانهم يتناقصون فى الاجر ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الارض مع أن الارض انما يتحسن محصولها بالعمـل ، فلا يمـكن ان يكون ذلك التحسـن والزيادة والخصب الا بالعمليات الفلاحية الصـادرة من هؤلاء الاجرية الذين تناقصت اجرتهم . كما ان ارباب الاملاك يحتكرون جميع الصنائع لان الصنائع كلها تسعى وتنهض فى الاشـغال والعمليات التى تستدعيهاحاجةالزراعة كالحدادةوالنجارة وجميع صنائع اهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة » .

(« مناهج الالباب » ص ٩٣ ـ ٩٤)

بعبارة أخرى فان رفاعة الطهطاوى يحتج احتجـاجا صارخا على قيام حالة الاستغلال البين من جانب الملاك للفلاحين وعامة العمال الزراعيين ويرفض الاسـاس الاقتصادى الكلاسيكى الذى يقوم عليه توزيع حاصـل الزراعة فى النظام الاقطاعى وفى النظام الرأسمالى وهـو اعتبار ان الملكية او رأس المال اساس القيمة فى الانتـاج ، ويطالب باعتبار العمل أساسا للقيمة وتوزيع غلة الارض بناء على ذلك . وهو يحتج على حرية « التصرف التام » التى يتركها المجتمع للملاك واصحاب رؤوس الاموال فى املاكهم وفى عائد هذه الاملاك . وهو اخيرا يحتـج على الاعتماد التام على قانون العرض والطلب فى تحديد أجور الفلاحين والعمال . باختصار هو ينقض الاركان الاساسية التى يقوم عليها الاقتصاد الرأسـمالى الليبرالى ويطالب بتدخل الدولة لحماية العمال من الملاك أو أصحاب رؤوس الاموال وذلك بتحديد حد ادنى للاجور باعتبار العمـل الاساس الاول للقيمة فى الانتاج ثم يليه رأس المال . ثم

الانتاج ، أما فى عصر اسماعيل فقد كانت ازدهارة الطبقة الوسطى ازدهارة فردية بالمعنى الليبرالى المألوف فى أوربا ابان القرن التاسع عشر أى بمعنى انتعاش الاستثمار الخاص فى الاقتصاد المدنى ، الصناعى والتجارى على السواء

لقد عاصر الطهطاوى الشيخ أيضا الى جانب ظهور الرأسمالية فى مصر ، بدايات ظهور الارستقراطية المصرية التى أخذت تحل درجة درجة محل الارستقراطية التركية والارستقراطية المملوكية ، ولا سيما بفضل سعيد باشا « صديق الفلاح » الذى آثر أن يقطع للمصريين بدلاً من الاتراك الاراضى الشاسعة ليخلق لنفسه وقاء قويا يظاهره أمام الباب العالى المتحالف مع الانجليز ، وقد كانت هذه السياسة الاستقلالية سمة من السمات الاساسية لحكم الخديو اسماعيل ولكن ظهور الاقطاع المصرى رغم أنه كان خطوة تقدمية بالقياس الى الاقطاع التركى المملوكى ، كان شأنه فى ذلك شأن الاقطاع التركى المملوكى بحاجة الى فكر بورجوازى ثائر يناوئه ويناجزه لان اقتصاد مصر المدنى ، من صناعى وتجارى ، كان فى صميمه اقتصادا أجنبيا بوجه عام وأوروبيا بصفة خاصة وقد كان وضع العراقيل أمام الارستقراطية المستنيمة الى الاستثمار الريفى الاستاتيكى التقليدى تركية كانت أو مملوكية أو مصرية عملا وطنيا تحرريا الى جانب كونه عملا اجتماعيا تقدميا ، لانه كان من الحوافز التى حفزت كبار الملاك فى مصر الى الاقدام على الاستثمار المدنى أولا بالمشاركة مع رأس المال الاجنبى ، ثم بالحلول محل رأس المال الاجنبى • وقد كان هذا هو الدور التاريخى لرفاعة رافع الطهطاوى ولليبرالية وللراديكالية المصرية التى بلغت أقصى مد لهما فى ثورة

١٩١٩ ، ثورة أصحاب الجلاليب الزرقاء وقادتهم من أبناء الاوليجاركية المصرية

من أجل هذا نجد أن أفكار رفاعة الطهطاوى ، سواء فى مرحلته الليبرالية الباكرة ، أو فى مرحلته الراديكالية المتأخرة ، تتسم بكافة السمات التى لازمت الفكر البورجوازى الثورى فى أعقاب كل ثورة صناعية وتجارية فقد كان رفاعة الطهطاوى رسولا من رسل القومية المصرية التى ظهر نبضها الاول فى « تخليص الابريز » ولكنها ما لبثت بعد ثلاثين سنة أن ارتفعت نبرتها فى « مناهج الالباب » حتى غدت كدق الطبول

كذلك دعا الطهطاوى الى التسامح الدينى والى الاخوة فى الوطن بحرارة واصرار قل أن نجد لهما نظيرا قبل ثورة ١٩١٩

كذلك حمل الطهطاوى فى « مناهج الالباب » حملة شعواء على فلسفة الزهد والقناعة والاعراض عن الدنيا باسم الدين ووصفها بأنها بطالة اختيارية وعدها خطرا اجتماعيا وبيلا ينبغى مقاومته ، ومجد الطهطاوى العمل والادخار وطلب ماللغير واهتم اهتماما بالغا بابراز فكرة رئيسية هى أن الادخار لا يتعارض مع روح الدين ومن أقواله المأثورة فى هذا الصدد :

« وقوله صلى الله عليه وسلم : لا تحاسدوا أى لا يحسد بعضكم بعضا أى لا يتمنى زوال نعمة غيره ، لان الحسد حرام لقبحه عند المسلمين وغيرهم .. وليس من الحسد تمنى الانسان مثل ما للغير لنفسه ، فان هذا هو الغبطة الممدوحة . » (« مناهج الالباب » ص ٩٦) . فرفاعة الطهطاوى عبر فى هذا الكتاب العظيم ، كما عبر من قبل فى « تخليص الابريز » عن خلاصة الفكر الثورى ، من

آرازموس الى برودون الذى ناجز به فلاسفة الطبقة المتوسطة فلاسفة الارستقراطية ونسفوا به معاقل الاقطاع ومهدوا لظهور المجتمع الجديد القائم على حقوق الانسان

فمن أهم المبادىء التى أخـــذها رفاعة الطهطاوى عن فلاسفة التنوير فى أوروبا وعن فلاسفة الثورة الفرنسية فكرة التسامح بوجه عام والتسامح الدينى بوجه خاص • وهو فى « مناهج الالباب » لا يفتأ يحض المصريين على الاخذ بهذه الفضيلة ، الحاكم منهم والمحكوم • أما الحـاكم فهو يوجه اليه الخطاب قائلا بعد الاستشهاد بنصائح فنيـلون لجورج الثانى ملك انجلترا :

« ومن هذا يعلم أن الملوك اذا تعصبوا لدينهم وتداخلوا فى قضايا الاديان وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفـين لهم فانهم يحملون رعاياهم على النفاق ويســتعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته وينزعون الحــرية منه فلا يوافق الباطن الظاهر فمحض تعصب الانسان لدينه لاضرار غيره لا يعد الا مجرد حمية وأما التشبث بحمـاية الدين لتكون كلمة الله هى العليا فهو المحبـــوب المرغوب ولذلك كان الجهاد الصحيح لقمع العدو انمـــا يتحقق اذا كان القصد منه اعلاء كلمة الله عز وجل واعزاز الدين ونصرة المسلمين لا لحيازة الغنيمة واسترقاق العبيد واكتسـاب اسم الشجاعة وتحصيل الصيت وطلب الدنيا ففاعل ذلك تاجر أو طالب وليس بمجاهد » (« مناهج الالبـاب » ص ٤٠٦)

وهذا عكس المبدأ السياسى القائل بأن « الناس على دين ملوكهم » وهو يخاطب الجميع بقوله :

« فلا شك فى جواز مخالطة أهل الكتـاب ومعاملتهم ومعاشرتهم وانما المحظور الموالاة فى الدين ••

« وبالجملة فرخصة تدين أهل الكتاب بدينهم مؤسسة على العهود المأخوذة عليهم عند الفتوح الاسلامية وكل مسلم يحفظ العهد لأن العهد في الحقيقة انما هو لله تعالى وفي المادة أن العهد يلتزمه من يعقده بالطوع والاختيار فبهذا يجب الوفاء به .. » (« مناهج الالباب » ص ٤٠٥)

وفي مكان آخر يقول ان الاخوة في الانسانية تلزم « عباد الله » بالتسامح :

« ثم ان اخوة العبودية التي هي التساوي في الانسانية عامة في حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض التي هي حقوق العباد وهناك حقوق العبودية الخاصة التي هي الاخوة الاسلامية وهي اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق » (« مناهج الالباب » ص ٩٨)

ثم ينتقل الطهطاوي الى الاخوة في الوطن التي تلزم جميع المواطنين بالتسامح :

« ولا مانع أن يعم في مكارم الاخلاق فجميع ما يجب على المؤمن لاخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الاخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناه وثروته لأن الغنى انما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهي تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شمائرها ومآثرها فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله لا يظلمه أي لا يدخل عليه ضررا في نحو نفسه أو دينه أو عرضه أو

ماله لان ذلك قطيعة محرمة تنافى الاخوة.

« قال الامام ابن حجر فى شرحه على الاربعين النووية بل الظلم حرام حتى للذمى فالمسلم أولى انتهى وهذا يؤيد ما قلناه من أن أخوة الوطن لها حقوق لا سيما وأنها يمكن أن تؤخذ من حقوق الجوار مما للجار على جاره خصوصا من يقول بأن أهل الحلة الواحدة كلهم جيران ..

« قال ابن حجر وتخصيص ذلك بالمسلم لمزيد حرمته لا لاختصاص به من كل وجه لان الذمى يشاركه فى حرمة ظلمه وخذلانه بدفع نحو عدوه عنه والكذب عليه واحتقاره الا من حيث مغايرة الدين ثم قال صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا ويشير الى صدره ثلاث مرات » (« مناهج الالباب » ٩٩ — ١٠٠)

وهكذا أدخل رفاعة الطهطاوى نظرية جديدة على الفكر السياسى والاجتماعى المصرى فى القرن التاسع عشر وهى نظرية « الاخوة فى الوطن » وقد كانت هذه الفكرة جزءا لا يتجزأ من فكرة القومية المصرية ومن فكرة القومية العربية ، التى حلت محل فكرة القومية الاسلامية ، تلك الفكرة التى كانت الامبراطورية التركية والمماليك يستغلونها لاجهاض كل انتفاضة استقلالية فى العالم العربى

ومن أقوى المواضع التى بشر فيها رفاعة الطهطاوى بضرورة التسامح قوله أن كل اضطهاد دينى خروج على الدين ، وهو يجعل التسامح الدينى آية التمدن من الناحية المعنوية يقابل فى الاهمية انتعاش الثروة القومية الذى هو آية التمدن من الناحية المادية . وفى هذا يقول :

« ويفهم مما قلناه أن للتمدن أصلين (معنوى) وهو التمدن فى الاخلاق والعوائد والآداب يعنى التمدن فى

الدين والشريعة وبهذا القسم قوام المملكة المتمدنة التى تسمى باسم دينها وجنسها لتتميز عن غيرها فمن أراد أن يقطع عن ملة تدينها بدينها أو يعارضها فى حفظ ملتهـــا المخفـــورة الذمة شرعا فهو فى الحقيقة معترض على مولاه فيما قضاه لها وأولاه حيث قضت حكمتـــه الالهية لهـــا بالاتصاف بهذا الدين فمن ذا الذى يجترى أن يعانده ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة وحسبنا فى هذا المعنى قول الكرار أما وقد اتســـع نطاق الاســـلام فكل امرىء وما يختار فبهذا كانت رخصة التمسك بالاديان المختلفة جارية عند كافة الملل ولو خالف دين المملكة المقيمة بهـــا بشرط أن لا يعود منها على نظام المملكة أدنى خلل كما هو مقرر فى حقوق الدول والملل ..

« (والقسم الثانى) تمدن مادى وهو التقدم فى المنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصـــــناعة ويختلف قوة وضعفا باختلاف البلاد ومداره على ممارسة العمل وصناعة اليد وهو لازم لتقدم العمران ومع لزومه فان أرباب الاخلاق والآداب يخشون صولة تقدم أهل الفنـــون والصـــنائع ويخافون ارتفاع مراتبهم بقوة مكاسبهم فى المنافع وأهل الفلسفة والعلوم الحكيمة النفسية يعتقدون أن الصنائع من المهن والامور الخسيسة وأرباب الاقتصاد فى الاموال والادارة يبالغون فى توسيع دائرة المنافع ووسائل العمارة ويتغالون بتكثيرها فى دوائرهم لجباية فوائدهم منهـــا وتيسيرها ويباشرون جمع متفرقها ونظم منثورها ويبحثون عن نشيد كل شاردة وتقييـــــد كل آبدة لأن مصلحتهم تقتضيها وحاكم أغراضهم يرتضيها . » (مناهج الالباب » ص ٩ ــ ١٠)

والدعوة الى التسامح الدينى فى رفاعة الطهطاوى ليست

جديدة فيه فقد رأينا كيف أن باريس بهرته في ١٨٣٠ بما رآه فيها من حرية العقيدة وحرية الشعائر الدينية ، فذهت يصفها باعجاب في « تخليص الابريز »

ولكن الجديد في هذا الكلام عن المدنية ، والخطير فيه ، هو أننا لاول مرة نواجه في العربية مشكلة الثقافتين التي تؤرق المجتمعات الغربية منذ الانقلاب الصناعي حتى اليوم . ورفاعة الطهطاوى لا يعرضها على وجهها المبتذل الذي تعرض به الان وبعد قرن كامل من التقدم ، على أنها مشكلة التعارض بين الآداب والعلوم أو بين الانسانيات والدراسات العلمية ، ولكن يعرضها على وجهها الحقيقي الذي تعرفه كل بلاد العالم المتقدم وهو مشكلة التعارض بين المعرفة الكلية والمعرفة الجزئية أو بين الآداب والعلوم من ناحية والتكنولوجيا والفنون التطبيقية من ناحية أخرى . وهو يذكرنا ضمنا بموقف فلاسفة اليونان المتعالي من العمل اليدوى ومن الاعمال المنفعية عامة ، وما شاكله في الفلسفات المتعاقبة ، ولكنه أيضا يذكرنا ضمنا بقول ادموند بيرك في كتابة « خواطر عن الثورة الفرنسية » . « أسفاه ! لقد مضى عصر الفروسية وأقبل عصر الاقتصاديين والحاسبين ! » بل أن رفاعة الطهطاوى ينبه الى تخوف أهل الفكر والمثقفين عامة من سيطرة الرأسماليين أو من يسميهم « أرباب الاقتصاد من الاموال والادارة » على مقاليد المجتمع بقوة المال الناشيء عن توسعهم في النشاط الاقتصادى.

فما موقف رفاعة الطهطاوى من هذا الصراع الحضارى الكبير الذى شطر فلاسفة العالم الحديث الى شطرين لا يزالان يتعاديان الى اليوم ؟

ان الحل الذى قدمه الطهطاوى لهذه المشكلة لا يدل على

نزاهته العقلية فحسب : ولكن يدل على أنه وجد الحل التقدمى الوحيد لهذه المشكلة · فهو يقول :

« والفضيلة الثانية تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم : أو علم ينتفع به أى علم علمه الانسان لغيره فصار نافعا والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به فهو ما يوصل الى الصفات العلية والمناقب السنية ويثمر الثمرات الدنيوية والاخروية ويدعو الى المكرمة وينهى عن القبيح وهو المراد بقوله تعالى : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا حيث فسر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة ترجع الى العلم النافع والافعال الحسنة الصائبة فالعلم بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعملية يعنى معرفة الحقائق والاقدام عليها بالعلم فجميع العلوم النافعة عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به . » (« مناهج الالباب » ص ٤٩)

وهذا هو الموقف التقدمى الحقيقى لمفكر وقف كما وقف غيره من المفكرين على أعقاب الثورة الصناعية ، فمنهم من خاف من الآلة وظنها شيطانا خبيثا مريدا خرج على الناس من قاع الجحيم ليفسد على البشر دينهم وأمنهم واستقرارهم الاجتماعى وليزعزع فيهم قيم الاخلاق ويحطم مابنته الاجيال المتعاقبة من حواجز طبقية ، وهؤلاء هم مفكرو الرجعية المتشبثون عن وعى أو غير وعى بالاستقرار الارستقراطى الجزعون أمام زحف الطبقات البورجوازية والطبقات البروليتارية الجديدة لتستولى على مكانها فى المجتمع وقد كان كثير من رجال الدين فى مقدمتهم ، فقاوموا ما استطاعوا كل انواع العلوم العقلية والعلوم التجريبية ، كما كان كثير من الفلاسفة المحافظين فى طليعتهم ، ينعبون كالبوم على خرائب الحضارة الارستقراطية باسم ضياع

التراث الانسانى وامتهان القيم الفكرية . اما فى الطرف الآخر فقد كان هناك مفكرو البـــورجوازية المبتـــذلة من اصحاب نظرية «التقدم» والتفاؤل الرخيص ، الذين رأوا فى الآلة مفتاحا سحريا لباب الجنة الموعودة ، وآمنـوا ، وقد بهرتهم الثورة الصناعية والتقدم التكنولوجى المظيم فى القرن التاسع عشر « ان الانسانية تتقدم بقانون جبرى تقدما مطردا ماديا وعقليا لا رجعة فيه بفضل تقدم العلوم والمخترعات ، بل بدأوا يحلمون بمدن فاضـــلة على الارض عمادها سيطرة الانسان على قوى الطبيعة وبدأوا يحلمون بظهور السوبرمان

وقد وقف رفاعة الطهطاوى بين هـــذين المعسكرين ، معسكر الرجعية الارستقراطية وخـــدمها الفكريين الذى يتمسح فى الماضى وتراثه ويندب انهيار الفنون والآداب وينـــدد بالالة التى مـــكننت حيـــاة الانسان وجعلت من الانسان مجرد آلة جديدة بلا عقل ولا حكمة ولا ميزان للقيم ، ومعسكر التقـــدمية البورجوازية التى احتقرت الماضى وتراثه من الغيبيات والفنون والاداب والفلسفة والحـــكمة والعلم النظـــرى ونادت بأن العلم العملى هو الدين الجديد الذى لا مكان فيه للغيبيات

وقف الطهطاوى بين هذين المعسكرين ورفض كليهما ، رفض أن يجزىء وحدة الانسان الى روح ومادة ، رفض أن يسلم ببناء المجتمع والحياة الانســـانية على أســـاس روحانى بحت ، ورفض أن يسلم ببناء المجتمع والحيـــاة الانســـانية على أســـاس مادى بحت . كذلك رفض أن يفتت وحدة المعرفة الى كلى وجزئى ونظرى وعملى كما رفض أن يفتت وحدة المعرفة الى معرفة انسانية ومعرفة طبيعية . رفض أن يفصل الانسان عن الطبيعة ورفض

أن يفصل الطبيعة عن الانسان . فبنى دعوته على أن كل علم وكل فن وكل فكر وكل نشاط بشرى لا غناء عنه فى بناء الانسان ، لا فرق فى ذلك بين العقلى والنقلى وبين الفكرى والمادى وبين النظرى والعملى وبين الجميل والنافع ، كلها وجوه من المعرفة تحقق التكامل الانساني والسعادة الانسانية

فرفاعة الطهطاوى اذن كان نموذجا راقيا للمفكر البورجوازى الذى وقف فى عناد فى وجه أعداء التقدم العلمى والمادى دون أن يستسلم للاسطورة البورجوازية التى شاعت فى أيامه بأن العلم والمادة هما كل مقومات الحياة . فهو القائل لأبناء جيله : « واعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها أمر محال » (« مناهج » ص ٥٠) . وقد أعلن هذا الرأى فى زمن كانت فيه وجهة النظر الرسمية بين أضرابه من علماء الازهر تحتقر العلوم الوضعية والعلوم الزمنية عامة وتنظر فى تخوف الى تسلل التاريخ والجغرافيا والفيزياء والكيمياء وما اليها الى صحن الازهر . ومع أن الطهطاوى فى ترتيبه للعلوم من حيث الاهمية وضع علوم الدين والاداب فى رأسها الا أنه فى الوقت نفسه حمل حملة عنيفة على عزل أى فرع من فروع المعرفة عن الحياة وعن المجتمع ، أو كما نقول اليوم ، حمل حملة عنيفة على « العلم للعلم » و « الفن للفن » و « الدين للدين » بل و « الاخلاق للاخلاق » ، وأى طلب للمعرفة لذاتها ، فعنده أن المعرفة لا قيمة لها الا اذا كانت فى سبيل الحياة وفى سبيل المجتمع ، وهذا هو الجديد فى الطهطاوى منذ « تخليص الابريز » فهو قد تطور من الليبرالية المطلقة الى مذهب المنفعة الذى استوعبه عن فلاسفة

« المنفعة » من بنشام الى جون ستيوارت مل . وهو يبنى رأيه على أن الوجود المدنى خاصة ملازمة للانسان فيقول :

« وبيان ذلك أن الانسان من بين جميع الحيوان لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته ولا بد له من معاونة قوم كثيرى العدد حتى تتم حياته طيبة ويجرى أمره على السداد ولهذا قال الحكماء ان الانسان مدنى بالطبع أى هو محتاج الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل انسان بالطبع وبالضرورة يحتاج الى غيره فهو لذلك مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ويحبهم المحبة الصادقة لانهم يكملون ذاته ويتممون انسانيته وهو يفعل أيضا بهم مثل ذلك فاذا كان ذلك كذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يؤثر العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلى وتعاطى ما يرى الفضيلة فى غيره فاذن القوم الذين رأوا الفضيلة فى الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات فى الجبال وأما ببناء الصوامع فى المفاوز واما بالسياحة فى البلدان للدروشة لا يحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية المدنية المعهودة التى عددناها وذلك أن من يخالط الناس ويساكنهم فى المدن لا تظهر فيه هذه الفضائلَ من العفة والنجدة والسخاء والعدالة بل تصير قواهم وملكاتهم التى ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة لأنها لا تتوجه الى خير ولا الى شر بالنسبة للعموم فاذا تعطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بالنسبة لقصور صفاتهم عليهم وعدم عودها بالمنفعة على غيرهم بمنزلة الجمادات أو الموتى من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم انهم أعفاء وليسوا بأعفاء . »

(« مناهج الالباب » ، ص ٢٥ ـ ٢٦)

وانك لتحس وانت تقرأ هذا الكلام انك تقرأ صفحات من كتاب ارزاموس الشهير « دليل الجندى المسيحى » ، فهذه الثورة الفكرية على نظرية الزهد والنسك وكافة وجوه الرهبانية أو ما يسمى فى اللغات الاوروبية Monasticism اى حياة الدير ، لم تكن ثورة القرن التاسع عشر بالذات ولا ثورة البورجوازية الصناعية بالذات ، بل كانت معركة رهيبة دارت رحاها فى الانتقال من حضارة الاقطاع السائدة فى العصور الوسطى الى حضارة البورجوازية الناشئة فى عصر الرنيسانس ، فزخرت الاداب الاوربية منذ القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر بالسخرية من الرهبان والرهبانية وبتسفيه علاقة الدين بالرهبانية ، وكانت الحجة الرئيسية فى هذه الحملة المنظمة هى انه لا خير فى دين أو علم أو فن أو أدب أو فضيلة أو أى شىء لا ينفع الناس ، ولم يكن الثوار على مذهب الزهد من البروتستانت أو أعداء الكثلكة وحدهم ، فقد شارك فى هذه الحملة ائمة فلاسفة الكاثوليكية وفى مقدمتهم الفيلسوف ارزاموس والفيلسوف توماس مور فتقدموا الحركة الانسانية ، حركة الهومانزم معلنين ان الدين لا يتعارض مع الدنيا كما كان يزعم النساك طوال العصور الوسطى بل على العكس من ذلك فهو دليل الانسان لكسب الدنيا والآخرة . هذه الثورة الفكرية التى اشتعلت فى أوروبا بين ١٣٠٠ و ١٦٠٠ ، بين تشوسر ورابليه ، واستقرت تعاليمها فى مطلع عصر النهضة الاوروبية ، فكانت من أهم العوامل التى اكتسحت العوائق القائمة أمام التقدم المادى الذى كانت تنادى به البورجوازية ، كانت لا تزال بحاجة الى بشير يبشر بها فى مصر فى القرن التاسع عشر . وقد كان الشيخ حسن

العطار : أستاذ رفاعة الطهطاوى ، أول من بشر بها فى الازهر متأثرا بأفكار الفرنسيين ثم حمل الرسالة عنه تلميذه العظيم

والطهطاوى حين يهاجم نظرية الدين للدين انما يقرنها بالكسل وقعود الهمة وايثار التسول على العمل ، لا بخلوص حقيقى لذات الدين ، وهو يهاجم الكسل على انه أكبر معطل للانتاج وأكبر معوق لنمو الثروة القومية، فيذكرنا بأن بونابرت وجه اهتماما خاصا لمكافحة هذه البطالة الاختيارية :

« ولهذا لما تغلبت الفرنساوية على الديار المصرية لمحوا ان بها كثيرا من الكسالى القادرين على الاشتغال الذين يؤثرون السؤال على الاعمال ويلحون فى الطلب فحنق حاكمهم من ذلك ونشر قانونا مشتملا على خمسة بنود :

« البند الاول : جميع الناس الذين يسألون فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم امام ضابط مصر ثم يتوجهون الى سجن القلعة ما لم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الاشغال

« البند الثانى : كل ملة من الاسلام والنصارى من أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضا تعمل من الان فصاعدا حانوتا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدا لهم

« البند الثالث : كل رئيس ملة يلزم بلوازم حانوته وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الاكل والشرب وخلافه تفرد على أهالى الملة المذكورة

« البند الرابع : فى مدة تدبير الحوانيت وترتيبها يأمر

كل كبير ملة بجمع كافة فقراء ملته ويرضيهم ويعطيهم لوازم الاكل والشرب والسكنى الى حد انتهاء تدبير الحوانيت المذكورة واستكمالها

« البند الخامس : يجب على كبير كل ملة أن يتبصر فى أمر تدبير الحانوت لملته ويأخذ الامر اللازم لذلك من شيخ البلد ويسعى فى اتمامه • » (« مناهج الالباب » ص ٤٨)

والحانوت المشار اليه فى قانون منع التسول الذى أصدره بونابرت هذا هو ما نسميه اليوم ملجأ العجزة . وهذه ليست أول مرة يتصدى فيها رفاعة الطهطاوى لامثال هذه الاصلاحات الاجتماعية ، ففى « تخليص الابريز » أكثر من فصل عما رآه الطهطاوى فى فرنسا من مؤسسات خيرية لايواء العجزة بجميع أنواعهم • ولكن الطهطاوى بسوق هذا القانون لاظهار الخطر الاجتماعى الناجم عن البطالة الاختيارية أيا كان نوعها • وهو يعد العمل كما يعد العلم شرفا وضرورة اجتماعية وعاملا اقتصاديا لازما لزيادة الانتاج والثروة القومية

وجزء لا يتجزأ من فلسفة الزهد التى قاومها رفاعة الطهطاوى النظر الى الدنيا على أنها مجرد معبر الى الاخرة ، وبالتالى النظر الى المال على أنه رمز للدار الفانية والى جمعه والتمتع به على أنه اقبال على الدنيويات يتعارض مع غاية الدين الاولى • وقد كانت هذه الفلسفة الروحانية من أكبر المعوقات لنمو الاقتصاد البورجوازى فى مصر كما كانت من قبل من اكبر المعوقات لنمو الاقتصاد البورجوازى فى اوروبا • ومن هنا نجد اهتمام رفاعة الطهطاوى بابراز معنى هام وهو أن الاقبال على المال والدنيا لا يتعارض مع الدين بل على العكس من ذلك يقوى دعائمه لانه يقوى دعائم المجتمع كما ينمى شخصية

الفرد ويوطد فيه الاحساس بالكرامة والاستقلال . وهو يخاطب أصحاب فلسفة الزهد باللغة الوحيدة التي يفهمونها فيقول :

« قال مجاهد : الخير في القرآن كله المال ، فقوله تعالى : وانه لحب الخير لشديد ، يعني المال ، وأحببت حب الخير عن ذكر ربي يعني المال ، وقوله تعالى فكاتبوهم أن علمتهم فيهم خيرا ، يعني مالا ، وقال تعالى عن شعيب اني أراكم بخير ، أي بمال وغنى ، وانما سمى الله المال في القرآن خيرا اذا كان في الخير مصروفا لان ما أدى الى الخير فهو في نفسه خير » : (« مناهج الالباب » ص ٢٧)

ويضيف الطهطاوي الى ذلك ان كل ما ورد في نصوص الدين من ذم المال قصد به الاكتناز أو الادخار في غير طائل ، فالمال اذن لا دنس فيه كما يزعم الزهاد والنساك ورجال الدين الذين ينشرون القناعة ومعها قعود الهمة بين الناس ليمكنوا للسادة من الاستمرار في استغلال المواطنين وهذه الحجج التي يسوقها الطهطاوي دفاعا عن المال وعن الدنيا تذكرنا بكافة ما قاله ارازموس في «دليل الجندي المسيحي » في اعتاب الرنيسانس وأصبح من بعده جزءا لا يتجزأ من الفكر البورجوازي الغربي . فارازموس قبل الطهطاوي استخدم الحجج الدينية ليثبت للعالم المسيحي ان الدنيا لا تتعارض مع الدين ، وأن المال لا دنس فيه بشرط أن ينفق في وجوه « البر » و « العلم » و « تربية البنين » كما يقول الطهطاوي

ومن اراد ان يتتبع معارك هذه الحرب الضارية التي نشبت بين مفكري الكنيسة وكهنوتها المظاهرين للاستقرار الاقطاعي في العصور الوسطى الاوروبية وبين مفكري البورجوازية النامية حول موقف الدين من المال ومن

الاستثمار ، فليقرأ كتاب الاستاذ تونى « الدين ونشأة الرأسمالية » ، ففيه يرى الصراع سافرا بين القوى المحافظة التى كانت تخشى أن يؤدى نمو الطبقات البورجوازية الى زلزلة النظام الاقطاعى فحاربت مبدأ الادخار ومبدأ الاستثمار بل وحاربت « المادة » عامة ، وبين القوى الرأسمالية التى كانت يومئذ قوة تقدمية تدافع عن حق الانسان فى الحياة والتقدم

من كل ما تقدم يتبين أن رفاعة الطهطاوى كان اماما من أئمة الفكر البورجوازى المستنير فى القرن التاسع عشر ، ولا سيما حيث يهاجم نظريات « الكفاف » التى تحول دون تراكم رأس المال اللازم لعمليات الاستثمار ولكن المتأمل لبقية أركان فلسفته الاقتصادية والاجتماعية لا يسعه الا أن يشتبه فى أن رفاعة الطهطاوى كان على صلة بالتيارات الفكرية الثائرة على الليبرالية البورجوازية المطلقة ، وانه كان مطلعا على مختلف المذاهب الاشتراكية المثالية التى كان يعج بها القرن التاسع عشر (١)

---

(١) النصان المستعملان هما :

(أ) « كتاب تخليص الابريز الى تلخيص باريز او الديوان النفيس بايوان باريس رحلة العالم العلامة المشاركة النحرير الفهامة المرحوم رفاعة بك بدوى رافع الطهطاوى رحمه الله آمين آمين طبع على ذمة مصطفى فهمى الكتبى بجوار الازهر سنة ١٣٢٣ هـ و ١٩٠٥ م دار التقدم بشارع محمد على بمصر . » (٢٦٣ صفحة من القطع المتوسط)

(ب) « كتاب مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية تاليف أوحد زمانه ونادرة عصره واوانه المجد فى نفع وطنه بنشر المنافع المرحوم الامير المعظم رفاعة بك رافع ناظر قلم ترجمة واعضاء مجلس القومسيون طبعة ثانية منى بتصحيحها طبقا للنسخة المطبوعة بدار الطباعة الاميرية الكبرى حقوق الطبع محفوظة لحفيد المؤلف السيد محمد رفاعة مطبعة الرغائب بشارع المنجلة بالقرب من الحمزاوى بمصر ١٣٣٠ - ١٩١٢ » (٤٥٠ صفحة من القطع الكبير)

الباب الثالث

أحمد فارس الشدياق

١ ـ أحمد فارس الشدياق

كانت حياة أحمد فارس الشدياق (١٨٠٥ ـ ١٨٨٧) حياة عاصفة : وكان مصدر القلق فيها شخصية الشدياق نفسه ، فقد كان رجلا فياض الحيوية ، كثير التنقل ، لاذع السخرية الى حد المرارة ، كثير الصدام بالناس ، ولكن قلقه الفردي ، لم يخالطه قلق سياسي أو اجتماعي ملحوظ يمكن أن تخرج منه فلسفة سياسية أو اجتماعية متماسكة ، ولذا فقد تركزت قدرته فى مراجعة القيم الاخلاقية والدينية الشائعة فى عصره كما تركزت فى هجائه لكل سلوك شخصي او اجتماعى شاذ أو حكم عليه الشدياق بالشذوذ ، وكان أول هدف لهجائه الرهبان والمنافقين من رجال الدين ، ولا سيما المسيحيين منهم ، ولكن سخريته المريرة تجاوزت الرهبنة والنفاق الدينى وامتدت الى غير ذلك من وجوه الحياة فى مختلف البلاد

وقد ولد الشدياق بقرية عشقوت بلبنان (١) لوالدين من فقراء الموارنة ، وانتقلت به أسرته الى قرية الحدث بالقرب من بيروت فى ١٨٠٩ وكانت علة فقر أبيه كما شرحها هو اسراف أبيه فى الجود من ناحية واشتراكه

---

(١) الدكتور محمد احمد خلف الله : « احمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والادبية » ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٥

فى فتنة فاشلة لخلع احـــد امراء الـــدروز من ناحية اخــرى ، ممــا جر عليه النكبــات ، ففــر الى دمشــق حيث مات ، تاركا فارس الشـدياق فى ضـنك شـديد وقـد توقف تعـليم فارس الشـدياق السـمى عنـد المرحلة الاولى ، واشتغل « بالنسـاخة » فى حياة أبيه أولا عن هـواية ، ثم من باب الاحتراف بعـد وفاته . ولكن الشدياق لم يلبث أن ضاق بهذه الحرفة لقلة ما كانت تدر عليه فانصرف عنها الى التجارة ، فكان يجول بالاقمشـة على حمار ، ثم ما لبث أن ضـــاق بالتجارة فعــاد الى النسـاخة ، ثم ضجر منها واشتغل بتدريس التلاميذ فى بيوتهم ، ولكنه فشل فيها ، فعاد الى النساخة مرة اخرى . ثم نزح الى مصر فرارا من الضنك والظلم بعد أن فســد مابينه وبين قومه من علاقات . فقد كان له اخ يدعى أسعد تحول من ملة الموارنة الى المذهب الانجيلى فوجد فى بلاده عنتا شديدا انتهى بزجه فى السجن حيث مات ، فجاهر فارس الشدياق بالتنديد بهم وأعلن عليهم الحرب عوانا فطاردوه ، فاحتمى بالارسالية الامريكية فى بيروت ، فأجاره المبشرون الامريكيون وأوفدوه الى مصر ليعلم فى مدارسهم بها ، وهكذا هبط فارس الشدياق القاهرة فى عهد محمد على

وفى مصر انتظمت أمور الشدياق على نحو ما بما باشر من أعمال ، فقد ترك « خرج » البائع الجوال ، واشتغـل كاتبا شاعرا فى حاشية أحد السراة ، واشتغل بالصحافة فشارك فى تحرير « الوقائع المصرية » التى كان يشرف عليها رفاعة الطهطاوى ، ويرى الدكتور ابراهيم عبده فى « أعلام الصحافة العربية » ان الطهطاوى هو الذى اجتذبه الى هذا الميدان ، وان الشدياق تتلمذ على الطهطاوى ، وفى

« أعيان البيان » للسندوبي أنه تتلمذ أيضا على الشيخ محمد شهاب الدين أيام تعاونه فى تحـــرير « الوقائع المصرية » . كذلك علم الشدياق اللغة العـربية للتلاميذ وللاجانب فى بيوتهم .وفى مصر تزوج الشدياق من أسرة سورية تقيم بمصر تعرف بأسرة الصـــولى على ما روى جـورجى زيدان فى « مشـــاهير الشرق » وانجب فائزا وسليما ، اما فائز فقد مات أثناء اقامة الشدياق فى لندن واستقر سليم فى انجلترا

وفى ١٨٣٤ سافر الشـــدياق الى مالطة تحت رعاية المبشرين الامريكان ، وكان مرتبه منهم فى مالطة يتجـاوز مرتبه منهـم أثناء اقامتـه فى مصر . وفى مالطة اقام مع زوجته أربع عشرة سنة ، يبدو أنه لم يكن فيها سعيدا . وفى مالطة كان عمله الرئيسى ما يسميه « تعبير الاحلام » اى تفسير الاحلام ويقصد بذلك تفسير الدين المسيحى وما ورد فى الكتاب المقدس من قصص الانبياء ومن رؤى المرسلين . ويبدو أنه كان يخالف المبشرين فى تفســيراتهم مهما دعا أحدهم أن يصارحه قائلا : ـ « اذا كان تعبـير الاحلام غامضا مبهما كالاحلام ، فلا موجب لاستخـــدام معبرين ، وتكليف الناس قراءة مالا يفهم » ، وهنا يسخر منه الشدياق مذكرا اياه أن بلادنا هى « معدن الاحـلام ومنبت التعبير » ، ولولا الشرق لما كان للغرب من أمـر دينهم شىء . كذلك درس الشدياق اللغة العربيـــة فى « المدرسة جامعة يعلم فيها الفنون واللغات » وكان يصحح أيضا تجارب الطبع ، ويؤلف ويصنف ، واذا صـــدقنا جورجى زيدان ، لا يكاد يوجد كتاب مطبوع فى مطبعـة مالطة الا كان هو مؤلفه أو مترجمه أو مصححه . واهـم من كل هذا أن الشدياق وهو فى مالطة بدأ فى ترجمـــة

الكتاب المقدس من الانجليزية الى العربية . وهنا تدخل أحد المطارنة من الشام هو اثناسيوس الحلبي التتونجي ، صاحب كتاب « الحكاكة في الركاكة » وأوعز الى اللجنة الانجليزية القائمة بهذا المشروع أن تصدى الشدياق لهذا العمل مفسد للدين ، ففوضوا الى المطران هذا العمل بدلا من الشدياق ، فلما علم الشدياق بما كان أعلن عليه حربا عوانا وشكك في علمه حتى نحته اللجنة عن القيام بالترجمة . واستدعى الشدياق الى انجلترا لاتمام ما كان قد بدأه

وفي انجلترا أقام الشدياق في قرية صغيرة اقامة الكادح، أو اقامة الراهب او المنفى ، يترجم «الكتاب المقدس» ويراجع وراءه رجل يسمى الدكتور لى ، فلما ضاق بهذه القرية المعزولة عن الحياة حيث لا بهجة ولا لهو ، انتقل الى كامبريدج ومشارفها ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها أيضا . ويبدو من كلامه في « الساق على الساق » أنه كره كامبريدج لمشاحنات نسائية كانت تقوم بينه وبين طلاب الجامعة ، وهو يستعمل الاصطلاح الانجليزي في وصف البنات الوافدات على مدينة الجامعة لارضاء طلابها من أبناء اللوردات . فيقول : « فلهذا كانت مشايخنا الطلبة ينظرون من زاوية عدد أهل البلد نظر الهرة التي يؤخذ منهما جراؤها . فمن ثم ترحل الفارياق عن هؤلاء السنانير وهراتهم » فانتقل الشدياق الى لندن وأقام فيها شهرا ، ثم لحق بزوجته في مالطة ، وكانت الهيئة التبشيرية التي يعمل لحسابها قد اشترطت الا تصحبه أثناء اقامته في

---

(١) الطبعة التي استخدمها هي: « الساق على الساق في ما هو الفارياق » أو « شهور واعوام في عجم العرب والاعجام تأليف أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب الجزء الاول والجزء الثاني عنى بطبعه مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر القاهرة مطبعة الفنون الوطنية بشارع كوبرى قصر النيل ٤٢ »

انجلترا لترجمة « الكتاب المقدس » وفى مالطة عاد الشدياق على مضض الى تدريس اللغة العربية فى جامعة الجزيرة ثم عاد الى انجلترا لاستئناف الترجمة بعد أن اشترط على الهيئة التبشيرية أن يصطحب معه زوجته وحصل من الهيئة على اذن بذلك

وفى أثناء هذه الاقامة الاخيرة بمالطة زار الشدياق تونس للمرة الثانية قبل عودته الى انجلترا ، وصحبته فى تلك الزيارة زوجته .. اما الزيارة الاولى فقد كانت أثناء عطلة من عطلات الصيف ايام اشتغاله فى مالطة ، ونظم فى أحمد باشا والى تونس بعد عودته الى مالطة قصيدة يمدحه فيها فجاءه العطاء ، وفى المرة الثانية أنشأ أيضا قصيدة مماثلة وبعث بها الى الوالى فجاءته دعوة الوالى لزيارة بلاده ، وهناك كافأه على شعره خير مكافأة

وفى انجلترا عاد الشدياق الى قريته الاولى ولكنه لم يلبث أن ضاق بها وضاقت بها زوجته . وفيها فقد ولده فائزا الذى مات كما يقول لعدم وجود الاطباء الاكفاء فى بلدة الفلاحين ، فطالب بالانتقال الى كامبريدج فأقرته اللجنة على ذلك . وفى كامبريدج أتم ترجمة التوراة ، ثم زار اكسفورد راجيا أن يجد فيها عملا فلم يوفق الى شيء لان الانجليز فى جامعاتهم كما ذكر فى « الساق على الساق » يقدمون ابن البلاد مهما كان جاهلا على الاجنبى مهما كان عالما فى تدريس اللغات . فلم يبق أمام الشدياق الا أن يعود بزوجته الى مالطة ، وكانا راغبين عن ذلك ، فقرر تقديم استقالته الى سكرتير حاكم الجزيرة

وجاءه الفرج ، فقد وافقت جمعية ترجمة التوراة أن يقوم الشدياق بتصحيح تجارب الطبع ، ووافقت على اشتراطه أن يقيم فى باريس أثناء أدائه لهذا العمل . فقد

كان من ناحية يبغى تعلم الفرنسية ، ومن ناحية اخرى « لما شاع عند الناس أن هواء باريس أصح من هواء لندرة، وان المعيشة فيها أرخص والحظ أوفر وأن الفرنسيين أبش من الانكليز وأبر . وان لغة العرب عندهم أكثر نفعا وأشهر، وغير ذلك من الاوهام التى تدخل احيانا فى رؤوس الناس ولا تعود تخرج الا مع خروج الروح» (١) . وفى باريس أقام الشدياق وزوجته سنتين ونصف سنة ، كثرت أثناءها زياراته للندن حتى ذكر انه تمم العشرين زيارة . ولا يعلم كيف عاش الشدياق وزوجته فى باريس رغم ضـــآلة موارده فهو يذكر لنا أنه كان يدرس العربية مقابل تعلمه الفرنسية وهو يذكر لنا انه نظم القصائد فى مدح اشراف المسلمين والنصارى ، فى « السلطان الانى » وفى ولى باشا سفير تركيا فى باريس وفى نامق باشا وفى محمد على باشا، « ولم تنتج احداها سلبا ولا ايجابا » (٢) وضاقت زوجته ذرعا بالحياة فى باريس فاصرت على العودة الى مصر أو الشام أو تونس ، فأرسلها الشدياق الى استانبــول مع أصغر أبنائها بخطاب توصية الى سامى باشا هنالك فاكرم ابنه صبحى بك وفادتها ، وبقى الشدياق وحده فى باريس. ويبدو أنه عاش فى هذه الفترة حياة الافاقين المغامرين . لانه تعلم لعب الورق « وصار الى زمرة المقامرين » كما ورد فى « الساق على الساق »

---

(١) « الساق على الساق »

(٢) « كشف المخبا » . الطبعـــة التى استخدمها : « الواسطة فى معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا تأليف العــــلامة الرحـــالة امام الادب محيى لغـــة العـــرب . النحرير المحقق . الجهبذ المدقق . الشاعر المفلق . ســـحاب الفضل المغدق . احمد افنــدى فارس صاحب التاليف المأثورة . صاحب الجـــوائب المشـــهورة . الطبعة الثانيـــة طبع فى مطبعــــة الجوائب قسطنطينية سنة ١٢٩٩».

ولم يجد الشدياق مخرجا من هذه الحياة المضجرة الا بالرحيل الى استانبول فى ١٨٥٥ ، وقد كان على صلة بالوزير سامي باشا ، تعرف اليه فى مالطة ، ورافقه هنا وهنالك . وفى طريقه الى استانبول طلبت لجنة ترجمة الكتاب المقدس الى الشدياق العودة الى انجلترا لاستئناف عمله فى ترجمة الكتاب فى انجلترا ذاتها ، فمر بباريس وأقام فيها أياما ثلاثة قابل فيها الوزيرين رشيد باشا وسامى باشا . وفى لندن نظم قصيدة مدح فيها الخليفة السلطان عبد المجيد وبعث بها الى رشيد باشا فرفعها هذا الى السلطان عبد المجيد فنالت القبول ، وعين السلطان الشدياق فى ديوان الترجمة السلطانى ، وبذلك سافر الى استانبول حيث استقرت أموره نهائيا . وفى استانبول اشتغل الشدياق بالترجمة وبالتصحيح فى المطبعة السلطانية ، وبنشر الآثار الادبية القديمة ، كما اشتغل بالصحافة وأنشأ جريدة الجوائب فى ١٨٦٢ للدفاع عن الباب العالى والعالم الاسلامى عامة . وكانت جريدته تطبع اولا فى المطبعة السلطانية ثم أنشأ لها مطبعةخاصة بها نبعت منها دار نشر ، واشتهرت « الجوائب » فى العالم الاسلامى كله واهتمت بها صحافة باريس ولندن أيضا . وقد ربطت « الجوائب » بين الشدياق وبين بعض الولاة ورجال السياسة فكانوا يصلونه بالهدايا والعطايا مقابل خدماته ، ومنهم السلطان عبد العزيز الذى اتخذ من « الجوائب » داعية للسياسة العثمانية ، ومحمد الصادق باشا باى تونس واسماعيل باشا خديو مصر . فلما عزل الخديوى اسماعيل وقف الشدياق بجانبه ودافع عنه رغم ضغط الحكومة التركية عليه ليهاجمه . فعطلت الجوائب ستة شهور بسبب موقف الشدياق من الخديوى المعزول .

كذلك وقف الشدياق بجانب الخديو توفيق ابان الثورة العرابية فهاجم تلك الثورة وأذاع منشور الباب العالى ضد العرابيين

وقد اعتنق فارس الشدياق الاسلام على الاقل نتيجة لعلاقاته المضطربة مع رجال الدين المسيحيين وما كان من اضطهاد الموارنة لاخيه ثم له ، وسمى نفسه « أحمد فارس الشدياق » . واتخذ فارس الشدياق لنفسه اسما مستعارا هو « الفارياق » ، مكونا من بعض اسم « فارس » ومن بعض اسم « الشدياق » ، وكان يسمى زوجته بناء عليه « الفارياقية » أما أهم اعماله فهى « الساق على الساق فيما هو الفارياق » ، وقد صدرت الطبعة الاولى فى باريس عام ١٨٥٢ . والثانية فى مصر ، طبعتها المكتبة التجارية والثالثة فى مصر عام ١٩١٩ . وله أيضا «الواسطة فى معرفة أحوال مالطة » و « كشف المخبأ عن فنون أوروبا» وقد طبع عام ١٨٥٤ على نفقة أحد وزراء تونس ، وقد نشر هذان الكتابان معاً فى استانبول عام ١٧٨٢ (١٢٩٩هـ)وهى الطبعة الثانية ، بمطبعة الجوائب . وله أيضا «الجاسوس على القاموس » و « سر الليال فى القلب والابدال » ، وقد طبع منه الجزء الاول فى سنة ١٨٦٦ على نفقة أحد وزراء تونس أيضا . وله ايضا « منتهى العجب فى خصائص لغة العرب » وقد احترق أكثره ، فنشر مابقى منه فى فصول فى « الجوائب » وهذا موجز عن حياة « صقر لبنان » كما يسميه مارون عبون فى كتابه عنه الصادر بهذا الاسم . ومن اهم المراجع عنه « مشاهير الشرق »لجورجى زيدان . « أعيان البيان » للسندوبى ، و «فارس الشدياق» لبولس مسعد ، و « أعلام الصحافة العربية » للدكتور ابراهيم عبده « و « رواد النهضة الادبية » لمارون عبود ،

و « الاداب العربية فى القرن التاسع عشر » للاب لويس شيخو اليسوعى ، واحدث ما كتب منه كتاب الدكتــور محمد احمد خلف الله « احمد فارس الشدياق » وآراؤه اللغوية والادبية » (١٩٥٥) ، وهو سلسلة من المحاضرات ألقاها المؤلف على طلبة معهد الدراسات العربية العاليــة بالقاهرة

٢ ـ الثورة على الكهنوت ونظام الأسرة

كان طبيعيا فى كاتب من طراز فارس الشـدياق تعرف على الحضارة الاوروبية بفضل اقامته المديدة فى انجلترا ، ثم فى باريس ، أن يدون لنا ملاحظاته من الحضارة الاوروبية كما شاهدها وكما فهمها من قراءاته . والحق أن « الساق على الساق » و « كشف المخبا عن فنون أوروبا » فيهما كل ما يمكن أن نلتمسه من آراء وملاحظات فى هذا السبيل ، ومنها نستطيع أن نستخلص وجهة نظره فى مختلف وجوه الحضارة الاوروبية

واذا ما تاملنا هذين الكتابين وجدنا أنفسنا بازاء نفسية وعقلية تختلف كل الاختلاف عن نفسية رفاعة الطهطاوى وعقليته ، بل وجدنا أنفسنا بازاء نفسية وعقلية تناقض نفسية الطهطاوى وعقليته على خط مستقيم ، رغم أن كليهما ثائر على ما وجده من قيم سائدة فى بيئته الاولى . فالطهطاوى جاد كل الجد والشدياق ماجن كل المجون ، والطهطاوى متفتح لكل جديد رآه لا يصدر عليه حكما الا ما يشير به العقل والمنطق ، والشدياق يحمل معه أينما انتقل مشاكله الخاصة وآراءه ومعتقداته الشخصية ومسلماته الموروثة وغير الموروثة ويلون كل ما وقعت عليه عينه أو انتهى الى اذنه بأحكامه الذاتية قبل أن يعرضه عرضا موضوعيا ، والطهطاوى شديد الاهتمام بالقيم الانسانية والاجتماعية والسياسية ، أما الشدياق فاهم ما يشغله

المشاكل الفردية والسلوك الفردى ولا يتنبه الى شيء كثير من المشاكل العامة الا مشكلة الاخلاق الدينية . كذلك نستطيع أن نلمس أن كلا من هذين الكاتبين الكبيرين كان يتحرك فى بيئة تختلف تماما عن البيئة التى تحرك فيها الاخر . فبينما نجد الطهطاوى لا يخالط الا أهل العلم والفضل نجد الشدياق يعرض نفسه لمعاشرة مستويات مختلفة لا نستبعد منها حثالة المجتمع

لم يكن غريبا اذن أن تكون انطباعات فارس الشدياق عن الحضارة الاوروبية مختلفة كل الاختلاف عن انطباعات رفاعة الطهطاوى ، فالشدياق مثلا يحدثنا فى فاتحة «الساق على الساق » أن من موضوعات كتابه وصف أحوال النساء :

« والامر الثانى ذكر محامد النساء وغرامهن فمن هذه المحامد ترقى المرأة فى الدراية والمعارف بحسب اختلاف الاحوال عليها كما يظهر مما أثر عن الفارياقية . فانها بعد أن كانت لا تفرق بين الامرد والمحلوق اللحية وبين البحر الملح وبحر النيل تدرجت فى المعارف بحيث صارت تجادل أهل النظر والخبرة وتنتقد الامور السياسية والاحوال المعاشية والمعادية فى البلاد التى رأتها أحسن انتقاد . فان قيل انه قد نقل عنها ألفاظا غريبة غير مشهورة لا فى التخاطب ولا فى الكتب فلا يمكن أن تكون قد نطقت بها . قلت ان النقل لا يلزم أن يكون بحروفه وانما المدار على المعنى . ومن تلك المحامد أيضا حركات النساء الشائعة وضروب محاسنهن المتنوعة التى لم يتصور منها شيء الا وذكرته فى هذا الكتاب لا بل قد أودعته أيضا معظم خواطرهن وأفكارهن وكل ما اختص بهن . » (« الساق على الساق » ج ١/٣)

وحكاية لغة زوجته « الفارياقية » هذه التى يشير اليها ، انما تشير الى أسلوب المقامات الساخرة الذى ابتدعه الشدياق وتفرد به ، فهو يعرض أفكار زوجته واقوالها بلغته الفارياقية الخاصة . وهو هنا يمزح على حساب زوجته على طريقة بيرم التونسى فى كتابه « السيد ومراته فى باريس » . وسرعان ما نكتشف أن أهم هذه المحامد والمحاسن التى لفتت نظر الشدياق يدور أكثرها حول موضوع الجنس والحياة الجنسية والافكار الجنسية . فكتاب « الساق على الساق » مستودع للدعارات والخواطر الماجنة ، حتى ليخيل الى قارئه ان فارس الشدياق لم ير فى بلاد الغرب والشرق الا الفجار . ولا يخفف من وقع هذه الدعارات الا روح الدعابة العبقرية التى تميز بها أسلوب فارس الشدياق وروح السخرية النادرة التى جعلته الى اليوم اعظم كاتب ساخر فى الادب العربى قديمه وحديثه

ولكن بين كل هذه الدعارات والخواطر الماجنة نستطيع من حين الى حين أن نهتدى الى بعض التأملات التى تدلنا على رأى فارس الشدياق فى المرأة ونفسيتها وعقليتها وأسس علاقتها بالرجل . فهو مثلا يقول :

« وقد يظهر لى أن كثيرا من الصفات المحمودة فى الرجال تكون مذمومة فى النساء كالكرم مثلا فان كرم الرجل يغطى جميع عيوبه وهو مذموم فى المرأة . وقس على ذلك الفكر والدهاء والاطراء والفروسية والشجاعة والحماسة والصلابة والخشونة والهمة الى المراتب السامية والامور الشاقة والاسفار البعيدة والنيات النائية والمطامع المتعذرة وغير ذلك . والعلة فى ذلك كون المرأة تميل بالطبع الى الشطط ومجاوزة الحد . ودليله فى من تميل الى العبادة والنسك

فانها لا تقف فى ذلك على أمد بل تتمادى فيه حتى لتتهوس وتخبل فتدعى المعجزات والكرامات وتعمــد الى الرؤى والاحلام ويخيل لها أن ملكا يناجيها . وهاتفا يناغيها . وانها تقيم بدعائها الاموات وتحيى الرفات . وربما قتلت اولادها على صغر ابتغاء دخولهم الجنة بغير حساب . أو ولدت توأمين فادعت أنهما من غير أب . وفى من مالت الى الهوى فانها تترك اباها وأمها اللذين ولداها وربياها وتقبل تجرى فى اثر رجل لا تعرف من صفاته شيئا سوى كونه ذكرا . فكل ما كلفت به المرأة كانت فيه أكثر تماديا من الرجل . فكلفهن بالقراءة لا أدرى اين يكون مصـــيره . والحامل لها على هذا الغلو والشطط انما هو معرفتها من نفسها انها اقوى على اللذات من الرجل . فزيادة اطاقتها لذلك زادت فى تماديها فيه . ومنه سرى فى غيره من الاطوار والشؤون والاحوال الطارئة وفى بعض الغريزية ايضا ».
(« الساق على الساق » ج ١/٦٤ ــ ٦٥)

وهو يعابث النساء بقوله انه يعرف طبائعهن وسرائرهن حتى « لكاني عشت برهة من الدهر امرأة » ثم مسخه الله رجلا . ولعل فى هذه النظرة بعض الصواب ، حيث يصف طرف عواطف النساء ، ولكن وقوفه عند هذا الحد يدل على أن تصوره للمرأة لم يخرج عن الاطار الذى وصفه قاسم أمين فيما بعد بخصال المرأة الشرقية التى ركزت تربيتها فى الحياة الجنسية . واستخلاصات الشدياق من هذه المقدمات التى قد تكون صحيحة تدل على أنه لم يخرج من معسكر المحافظين ولم يحاول أن يراجع أفكاره التقليدية عن طبيعة المرأة ووظيفتها فى الحياة . فهو يقفل باب « الهمة الى المراتب السامية » وباب الحماسة والصلابة والشجاعة والدهاء ، بل وباب الدراسة العميقة ، أمام المرأة ، لانه لم

يتصور ان هـذه الصفات قد تتجاوز الحسيـات الى المعنويات . وليس معنى هذا أن فارس الشدياق كان ضد تعليم المراة ، فرأيه فى ذلك واضح وهـو انه يوافق على تعليمها ولكن فى حدود ضيقة . فهو يقول فى « الساق على الساق » (ص ٦٣) :

« فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندى انه محمدة بشرط استعماله على شروطه . وهو مطالعة الكتب التى تهذب الاخلاق وتحسن الاملاء . فان المراة اذا اشتغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكايد واختـراع الحيل كما سيأتى ذكر ذلك . ولا بأس للمتزوجات بقراءة كتابى هذا وامثاله . لانه كما ان من الوان الطعام ما يباح للمتزوجين دون غيرهم فكذلك هى الوان الكلام »

وهذا الموقف من قضية تحرير المراة ، اذا تجاوزنا عما أثبت فيه من روح الدعابة ، لا يختلف فى شىءبوجهعامعن موقف الثورة السلفية الكبرى التى اجتاحت الفكر العربى فى اواخر القرن التاسع عشر وتبلورت فى فلسفة جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وتجسدت فى شخص مصطفى كامل ولكنه يختلف اختلافاجوهريا عنموقف الثورةالزمنية الكبرى التى وضع اساسها العطـار ورفاعه الطهطاوى وتبلورت بعد قرن كامل فى فلسفة قاسم أمين وأحمدلطفى السيد ثم تجسدت فى شخص سعد زغلول . وهو ايضا يختلف اختلافا جوهريا عن موقف المدرسة المحافظة التى كانت سائدة طوال القرن التاسع عشر ولا تزال لها آثار فى العالم العربى حتى اليوم ، ولعلها كانت أقوى مدرسة بين هذه المدارس لانها تبلورت فى الضمير العام وان لم يكن لها رواد متفلسفون لهم شأن يذكر

اذ يجب فى كل تحليل علمى للفكر العربى الحـديث

منذ اتصال العالم العربى بالغرب أن نميز تمييزا تاما بين ثلاث مدارس ساعدت فى تكوين المجتمعات العربية الحديثة وحكمتها فى فترة من الفترات . وأول هذه المدارس هى المدرسة المحافظة التى كانت تؤمن بالمحافظة على أسس الفكر والمجتمع القائمة بالفعل ، وقد سميناها بالمدرسة المحافظة لان أساسها كان المحافظة على « الوضع القائم » بخيره وشره . وثانى هذه المدارس هى مدرسة الثورة الزمنية التى تمردت نتيجة تعرض المجتمعات العربية لمؤثرات الحضارة الغربية على أسس الحياة السائدة فى المجتمع الاسلامى ، ودعت لتغييرها بالتخلى عن القيم الفكرية والاجتماعية الشائعة والتمست الخلاص فى اقامة الحياة الجديدة على أسس زمنية دنيوية وثالث هذه المدارس هى مدرسة الثورة السلفية التى تمردت كذلك ، نتيجة تعرض المجتمعات العربية لمؤثرات الحضارة الغربية ، على أسس الحياة السائدة فى المجتمع الاسلامى ، ودعت لتغييرها بالتخلى عن القيم الفردية والاجتماعية الشائعة ، ولكنها التمست الخلاص فى بعث القيم الفردية والاجتماعية الاصيلة واقامة الحياة الجديدة على الاسس الروحية الدينية التى تركها لنا السلف الصالح ايام مجد العروبة والاسلام . فبين هذه المدارس الثلاث اذن مدرسة محافظة على الدنيا والدين ومدرستان ثوريتان ، احداهما تجدد الدنيا والاخرى تجدد الدين . ونحن ، وان كنا مدينين « لسلامه موسى » بنحته كلمة « السلفية » ، الا اننا نختلف معه فى وصفه السلفيين بالرجعية دون تحفظ ، لان الثورة العربية والاسلامية فى القرن التاسع عشر ولا سيما كما تبلورت فى فلسفة الافغانى ومحمد عبده كانت بالمعنى التاريخى العلمى الدقيق قوة تقدمية رهيبة لا تقل تقدمية عن الثورة الزمنية التى استحدثها الطهطاوى

وأخلافه وقد اشتركت الثورة السلفية والثورة الزمنية فى شيء واحد وهو مهاجمة المحافظين على « الوضع القـــائم » والقيم السائدة التى تمثل التخلف فى عقائدهم ، أما فيما عدا هذا فقد كانت بين هاتين القوتين الثوريتين حرب عوان لا تزال تدور رحاها حتى الان

وقد كان فارس الشدياق أحد الينابيع التى نبعت منها الثورية السلفية فى القرن التاسع عشر . وموقفه من تعليم المرأة مثلا يوضح ثوريته وسلفيته معا . فدعوته لتعليـم المرأة فى مجتمع لا يعترف للمرأة بحق التعليم جملة فضلا عن سائر حقوقها الانسانية والمدنية ، يعد خطوة تقدمية على موقف المحافظين وفى الوقت نفسه نجد أن وقوفـه فى تعليم المرأة عند هذه الحدود الضيقة التى رسمها يدل على انه لم يخرج فى فهمه لوظيفة المرأة ومجالها الحيـوى عن اطار القيم المتوارثة عن « السلف الصالح » الذى حدد كل ذلك بمجال الاسرة والسهر على الزوج والاطفال . ومن هنا كان السلفيون فى القـرن التاسع عشر أكثر تقـدما من المحافظين من أنصار تجميد « الوضع القائم » لانهم قبلوا مبدأ تعليم المرأة ولكن فى الحدود التى قد تدعم بناء الاسرة على القيم التقليدية

ورأى الشدياق فى المرأة واضح فى اكثر ما كتب . وهو رغم سخريته المستمرة التى تتراوح بين درجات الدعـابة والهجاء ، لا يكن للمرأة أى احتقار ولا يضمر لها أى بغض ، بل على العكس من ذلك يصفها وصفا موضوعيا بأنها قد تكون خيرا ورحمة وقد تكون شرا وبؤسا . ولكنه رغم ذلك الاعتدال لا يخرج عن دائرة القيم السلفية التى تصور الرجل على أنه مركز الخليفة وتصور المرأة تصويرها لكائن خلق من أجل الرجل :

« ثم ان المراة هى من الاشياء التى لكثرة تكرر النظر اليها كالشمس والقمر لم يؤد العقل حق اعتبارها . وبيانه أن الله عز وجل خلق المراة من الرجل لتكون بمنزلة معين له فى مصالحه المعاشية ومؤنس له فى وحشته وهمومه . الا أنا نرى ان هذه العلة الاصيلة كثيرا ما تستحيل عن صيغتها الاولوية حتى أن بلاء الرجل وهمه ووحشته ونحسه وشقاوته وحرمانه بل هلاكه يكون من هذه المراة . فتنقلب تلك الاعانة احانة . وتلخيصه أن الانسان ولد فى هذه الدنيا محتاجا الى أشياء كثيرة لازمة لحفظ حياته ، وذلك كالاكل والشرب والنور والدفء ، والى أشياء اخرى غير لازمة للحياة وانما هى لتقويم طبعه حتى لا يختل ، وذلك كالضحك والكلام واللهو وسماع الغناء واتخاذ المراة . الا أن هذا الاخير مع كونه جعل فى الاصل لتقويم الطبيعة اذ يمكن للرجل أن يعيش حينا ما من دونه، فقد غلب على سائر اللوازم المعاشية التى لابد منها »
(« الساق على الساق » ١/١١٩)

والحق أن من أعسر العسير علينا أن نعرف فى جو الهذر المستمر المحيط بعامة ما كتب الشدياق ان كان حقا يؤمن بأن وظيفة المراة فى الحياة ثانوية فى الاصل فهى ليست حفظ الحياة ولكن تقويمها . والراجح ان هذا رأيه الاصيل لان اكثر تعليقاته على موضوع المراة تتناولها من حيث هى مصدر سعادة حسية للرجل ، واكثر أوصافه لها تدور حول مفاتنها الجسدية . أما نظرته السوية لاثر المراة فى الرجل فنجدها مثلا فى عبارته :

« قال بعض العلماء اذا أراد الله أن يقضى خيرا على الارض قيض له امرأة فكانت الوسيلة الى اجرائه . واذا اراد الشيطان أن يقضى شرا توسل اليه ايضا بامرأة وقد

اختلفوا فى تأويل هذا القول ، فالخرجيون (يصرون) على ان دخول المرأة فى قضية ملك الانكليز كان للخير المحض والسوقيون على أنه كان للشر الجهنمي • وكذلك قضية ملكتي الانكليز وقضية ايرين زوجة ليو الرابع وثيودورة زوجة ثاوفيليوس . وغير ذلك مما لا يحصى . (« الساق على الساق » ٢٧٢/١)

وبعد أن طرح الشدياق القضية على هذا النحو أضاف فى مكان آخر فى (« الساق على الساق » ٣٠٧/١) « قال بعض معاتيه العلماء المرأة كلها شر . وشر ما فيها أنه لابد منها . قلت وهو كحلم جحى نصفه صدق ونصفه كذب . فالصادق منه قوله انه لابد منها » ووصف الشدياق لاعداء المرأة من العلماء بأنهم من « المعاتيه » يساعدنا على تبين موضعه فى هذا الشأن • فهو وان كان خاليا من الفكرة الرومانسية التى تؤله المرأة وخاليا من النظرة العلمية التى تسوى المرأة بالرجل ، الا انه يرفض رأى المحافظين بان المرأة تمثل عنصر الهدم فى الحياة ، وهو الرأى الذى استند اليه المحافظون فى سلب المرأة كافة حقوقها . باعتبار أن المرأة هى المسئولة عن « سقوط الانسان » كما جاء فى رواية سفر التكوين فى التوراه

وليس هناك موضع تناول فيه الشدياق المرأة الا ووجد فيها مادة للدعابة ، فهو يفتعل عرض آراء « العلماء » فى المرأة ليجد فى هذا مناسبة للمعابثة والمجون :

« قال بعض الفحول من العلماء ان المرأة أشرف من الرجل وأفخم وانبل وأحلم وافضل واكرم . اما وجه كونها اشرف من (الرجل) فلأن شاهدى تأنيثها واقفان فى محل مرفوع . بحيث يمكن لها أن تراهما أو تريهما ايان شاءت من دون تطاطى (طاطأة ؟) راس وانحناء . وفى ذلك من

العز والشرف مالا يخفى .. اما شاهدا الرجل فهما منكوسان فى محل منخفض بحيث لا يقدر ان يراهما الا اذا تطاطأ وانحنى . واما كونها أفخم فلأن ساقيها اللتين هما عمودان لهيكل الجسم وبطنها الذى هو منبت لتكون النسمة ، وعجزها الذى هو مورد للانجاز ، تكون أفخم من ساقى الرجل وبطنه وعجزه . وأما وجه كونها أنبل فلأنها تنبل بما يلقى اليها مدة تسعة أشهر . واما وجه كونها أحلم فلأن تتمة الحلم ترى فى شاهدى تأنيثها . واما وجه كونها (افضل فلانها) خلقت من الرجل وعقبه وهو خلق من تراب . لكنها اذا ماتت (معاذ الله من ذلك) تستحيل الى تراب كالرجل لا الى أصلها الذى خلقت منه اى لا تصير رجلا أو ضلعا . وأما وجه كونها اكرم فلأنها أرق فؤادا وارحم قلبا والين طبعا .. الخ (« الساق على الساق » ٢٧٤/١)

وفى هذا الجو المازح الماجن الذى أوشك أن يدانى مزاح بوكاشيو وتشوسر ورابليه ومجونهم ، كل ما نستطيع أن نخرج به هو أن الشدياق كان شديد الالتفات الى ما فى تكوين المرأة وأثرها من متناقضات ، فهو يصف « البلبلة عن ذات المرأة » و « السر الذى أودعه الله فيها . من جهة انها اول الاسباب فى عمران الكون وخرابه . اذ لا يكاد يحدث فى العالم خطب جليل الا وتراها من خلله (خلاله؟) واقفة وراءه أو بالحرى مضطجعة » ! (« الساق على الساق » ٢٧٢/١) ثم تراه وهو المنوه برقة فؤاد المرأة ورحمتها ، ينوه بقسوتها واستبدادها (ص ٢٧٣) :

« واعلم هنا انه لم تجر العادة بأن يتخذ من النساء بابا او مطران او رئيس جيش أو رئيس سفينة او قاض . وذلك لاتقاء بأسهن وسطوتهن . فان الرجال مستعبدون

للنساء بالطبع (وقد) خلون من هذه المراتب لعلية فكيف بهن اذا ولينها . فان قيل أن الافرنج يتخـــذون منهن ملكات ويفلحون قلت قد تقرر عندهم أنه اذا كان رئيس الدولة انثى كانت ادارة الاحكام والعمل كله للذكر »

وهكذا ينتقل بنا فارس الشدياق من فكاهة الى فكاهة ومن سخرية الى سخرية فى وصـف المرأة وأحوالهـــا ، وأكثر ما كتب فى هذا الباب يدور حول الجنس ، ولـكن الصورة العـامة هى أن موقفه موقف الرجل الواقعى الذى يقبل المرأة على علاتها ، وبفضائلها ، وكاتب ساخر مثـله أشد التفاتا الى العلات منه الى الفضائل سواء فى الرجال أو في النساء • ورغم هذا ففي امكاننا أن نقف على رأيه في قضية هامة هي قضية الطلاق • فهو يعرض « فى مقـــامة مقعدة » (« السـاق على السـاق » ٢٢٢/١ وما بعدها) مختلف الاراء في مبدأ الطلاق على لسان أربعة من المتناظرين أحدهم مؤمن والثانى نصرانى والثـالث يهودى والرابع أمعة لا رأى له

(١) « أما النصرانى فانه يزعم أن طلاق المرأة مفسدة من أعظم المفاسد . ومندمة تمنى المطلق بالنفص والمكايد ووجه فسادها على مقتضى زعمه . وقدر فهمـــه . أن الزوجة اذا علمت انها تكون عند زوجها كالمتاع المتنقل . وكثوب المبتذل • موقوفة على بادرة تفرط منها أو هفـوة تنقل عنها . لم تخلص له سريرتهـــا . ولن تمحض له مودتها . بل تعيش معه ما عاشت فى انقباض وايحاس . ووحشـة وابتئاس . ونكد ويأس . وتدليس والباس . واذا أنزلته منزل مبتاعها . واعتقدت أن متاعه غير متاعها . وأنه لا يلبث أن يلاعنها أو يبادئها . أو يخالعها او يكسوها ثياب النحمة . ويقول لها الحقى بأهلك . أو اسـتفلحى

بامرك او انت علي كظهر أمي او حبلك على غاربك ، وعودي الى كفاسك ، عند اهلك وناسك ، فما أنت لي بأهل ، ومنا انا لك ببعل ، لم تحرص له على حاجة ولا على سر ، ولم يهمها ماينزل به من الشر : وربما خانته فى عرضه وماله وكادت له مكيدة فضحته بين أقرانه وأمثاله . وهنــاك محذور اخر . أدهى وانكر . وأنكى وأضر : وأمض وأمر : وهو ان المرأة اذا فركت زوجها بأن رأت منــه ما تخاف غائلته : لم يهمها أن تربى عيله أو تســتكفى عائلته ، فان المرأة لاتحب ولدها الا اذا احبت بعلها : ولا تحب بعلها الا اذا أدام وصلها وأتاها سؤلها » (« الساق على الساق » ١/٢٢٣/٢٢٤) .

(٢) ويعلق المسلم على ذلك بقوله :

« الا انى أعترض على مذهب من حظر الطلاق ، وتقيد بزوجته دون اطلاق ، بأن الزوجة اذا علمت أن جسم زوجها قد ادغم فيها ، وأصبح سرة فى فيها ، فصار فردا لا زوجا . سواء هبطا أو صعدا أوجا • وأنه لا يفك هذا الالتحام الا (بمقراد ؟) الحمام • لاتحل عقدة هذه الكينة • الا بانحلال جميع أجزاء الطينة . وانها اذا مرضت مرض هو معها . واذا رأت رأيا فلابد له من أن يواطئها عليه ويجامعها . نشزت عليه وتنمرت . وطفت وتجبرت .. فأما شــأن الاولاد ، وهو الداعى لتحمل هذا الكباد ، فان الزوجين اذا كانا على حالة النفور والعناد ، والخلاف واللحاد ، لم تكن تربيتهما لولدهما الا اغراء بالاقتداء بهما . وتدريبا على الفســاد بسببهما ، فيكون اهمــالهم من غير تربيــة عند طلاق أمهم أولى ، وان الوفاق هو المصــــلحة الاولى ، على أننا نعلم من التجربة .. ان المرأة اذا علمت أن لزوجها استطاعة على طلاقها . وتملصا من وثاقها .

حرصت على أن تتحبب اليه وتلاينه . وتياسره وتخاوفه وتداريه » (١/٢٤٤ – ٢٤٥)

(٣) « ورأى صاحبنا هذا اليهودي قريب مما رأيت فلا يخالف الا في اسبـــــاب الطلاق وهي كيت وكيت » (٢٢٥/١)

(٤) فأما صاحبنا الامعه ، فانه متردد في هذه القضية المنكمة . فتارة يقول ان الطلاق ادعى الى الراحة . وتارة انه موجب لنكد العيش وصفق الراحة . » (٢٢٥/١) .

ويلاحظ ان الشدياق رغم روح الدعابة في هـــــذه « المقامة المقعدة » قد انصف ايما انصاف في عرض أهم وجهات النظر في هذا الموضوع ، فلم يتحيز لاحداها أثناء العرض . اما رأيه الخاص فقد علقه حتى انتهى من الكلام . وقد أجمله في هذه الأبيات التي ارتجلها الفارياق :

مسألة الزواج كانت ثم لا تزال طول الدهر أمرا عضلا
ان يكن الطـــلاق يوما حللا للزوج ايان ابتغــاه فعــلا
فليس عندي رشدا ان تخطلا زوجته منه ولا ان تعضــلا
ان لم يصيبا للوفاق سبــلا فدعهما فليفعــلا ما اعتدلا
ايان شـــاءا طلقا وانفصـــلا

فهو اذن مع اباحة الطلاق رغم اعترافه بدقة هـــذه المشكلة العويصة ورغم اعتقاده الواضح أن شهوات الانسان من جهة الجنس لاضابط لها ولا رابط وان الانســـان يفقد عقله أمام الاغراء : « والحاصل ان للانسان عقــلا في يافوخه يدله على ما ينقصه ويضره ويســـوءه ويسره » الا فيما يختص بالمرأة فميزانه فيها مختل : « فأما في أمر المرأة فالقانع العزوف يغدو شرها رغيبا . والرشيد غويا . والحليم سفيها ، والمهتدي ضالا .. الخ » وازاء هـــذا التحذير تملكنا الحيرة لأنه لا يرتب على هـذا التحذير شيئا

فى أمر الزواج والطلاق . ثم ان فكرة الشدياق عن الزواج فكرة مدنية توشك ان تكون عرفية بغير قيود ولا طقوس ولا قواعد ولا قوانين . فهي عنده اتفاق رجل وامرأة على العيش معا دون تدخل من المجتمع أو من رجال الدين ، فهي اشبه بالزواج الطبيعى منها بالزواج فى صوره المعروفة :

« انه اذا كان المراد من الزواج أن كلا من الزوجين يزاوج صاحبه لنفسه لا لأهل البلد وللمعارف والاصحاب .. لم يكن من المعقول ان يدقق عليها ذو قبعة فيقول للمرأة لا تتزوجى هذا لكونه لم يسم بطرس . ثم يقول للرجل لا تتزوج هذه لأنها لم تسم مريم . أو أن يقول هذا يوم الاحد لا يصح فيه الزواج . وهذه حجرة لايحل فيها البعال ، والا لصح أن يقول لهما أريانى الميل فى المكحلة ومثل هذا الكلام لعمرى لا يليق بأحد أن يقوله أو يكتبه . » (« الساق على الساق » ٢٢٩/١)

وهو يذكرنا بأن الأصل فى الزواج هو الاقتران « من دون قيد مكان ولا زمان » ولا يشترط فيه أن يجرى فى سهل أو على قمة جبل أو فى كهف او فى يوم احد او اثنين او سبت ، كل ما يشترط فيه التراضي اوكتابة صك او شهادة الشهود . بل هو يذكرنا بأن المتقدمين من الانبياء بحسب ما ورد فى تواريخهم لم يتقيدوا حتى بهذه الشكليات . فانكار « النصارى » لهذا المنهج فى الزواج لا محل له لثبوته واستقراره وورووده فى عامة الفقهاء وفى احكام الدين الاسلامي . و « ذو القبعة » عند الشدياق هو القسيس الذى يتدخل فى تنظيم الزواج بين المسيحيين واحاطته بأعباء الطقوس . ويبدو ان الشدياق كان يميل الى اطلاق الزواج من قيود الدين ايا كانت هذه

القيود ، ولو كانت الاختلاف التام كزواج المسيحية من المسلم والمسيحى من المسلمة

وأهمية هذا الموقف من الزواج والطلاق ان فيه خروجا على التقاليد الاسلامية والمسيحية جميعا . فزواج بطرس ممن لا تسمى مريم عنده يتمشى مع العقل كزواج مريم ممن لا يسمى بطرس ، وهذا مجاف للدينين معا وتبسيط فكرة الزواج بحيث تصبح رباطا عرفيا أو مدنيا مجاف قطعا للتقاليد المسيحية اما اباحة الطلاق ففيها خروج على التقاليد شبه الكاثوليكية التى يجرى عليها موارنة لبنان ، وان كانت مما تجيزه البروتستانتية التى تأثر الشدياق بها تأثرا واضحا أثناء عمله مع المبشرين البروتستانت

والدعوة لاباحة الطلاق أو التوسع فيها تعد بالنسبة لمسيحيى العالم العربى دعوة ثورية غريبة على المذاهب المسيحية المنتشرة فى البلاد العربية،وهى اما الارثوذكسية القبطية أو الارثوذكسية اليونانية ، وهى لا تبيح الطلاق الا فى اضيق الحدود ، واما الكاثوليكية بأنواعها كالكاثوليكية القبطية والكاثوليكية اليونانية ومذهب الموارنة ، وهى لا تجيز الطلاق ولكن تجيز الانفصال الجسدى • ولا شك ان هذه الافكار الجديدة عن نظام الاسرة ما كانت لتتغلغل فى العالم العربى الا لدخول التفكير البروتستانتى فيه نتيجة لاتصاله بالعالم الانجلوسكسونى بوجه خاص • ولعل تأثر فارس الشدياق بالبروتستانتية تأثرا عميقا كان المقدمة الطبيعية لدخوله فى الدين الاسلامى . لان العقيدة البروتستانتية هى أقرب المذاهب المسيحية الى روح الاسلام

وفى « كشف المخبأ عن فنون أوروبا » نجد تغييرا واضحا وخطيرا معا فى أسلوب فارس الشدياق ، فهو

هنا يتخلى عن اسلوب المقامة الساخرة الذى استخدمه فى « الساق على الساق » ويعمد الى الاسلوب التقريرى البسيط الخالى من كل عناصر البلاغة ومن كل عناصر السخرية والهجاء . فهو بمثابة انتقال تام من بيان الفنان الى بيان الرحالة والمؤرخ وعالم الاجتماع وهذا الاسلوب التقريرى الذى التزمه فى « كشف المخبأ » يذكرنا بأسلوب رفاعة الطهطاوى الذى التزمه فى « تخليص الابريز » رغم ان اربعين سنة أو نحوها تفصل مابين الكتابين بل ان منهج الشدياق فى « كشف المخبأ » شديد الشبه بمنهج الطهطاوى فى « تخليص الابريز » فهو لا يعتمد على سرد الملاحظات فحسب ، بل يعتمد على ايراد الاحصاءات كلما دعت الضرورة الى ذلك ، وان كان الشدياق يتوسع فى السرد التاريخى اكثر مما يفعل الطهطاوى . وليس معنى هذا ان روح هذين المفكرين روح واحدة ، فشتان الفرق بينهما . ففارس الشدياق مشتت فى التفاصيل والجزئيات ، كثير العناية بالسفاسف والثانويات على حين أن رفاعة الطهطاوى يركز دائما على الجوهريات ، وفارس الشدياق ناقص فى العطف والاعجاب اللذين نلمسهما فيما كتب رفاعة الطهطاوى ، وفارس الشدياق شديد الاهتمام بجمع الارقام بينما يصف كل شىء من الظاهر اما رفاعة الطهطاوى فينفذ الى بواطن الامور ، ولكن للشدياق مزية وهو حديثه المقارن باستمرار عن أحوال الانجليز والفرنسيين بوصف انه أقام فى انجلترا وفرنسا معا ، أما الطهطاوى فلم ير من أوروبا الا جانبها الفرنسى

يرى الشدياق « ان رجال الفرنسيس اجمل من نسائهم ومن رجال الانكليز وان نساء هؤلاء اجمل من

رجالهم ومن نساء أولئك» (كشف المخبأ ص ١٠٤ ـ ١٠٥).
ويمضي الشدياق في وصف ما شاهده من أحوال النساء في انجلترا وفرنسا . فيلاحظ مثلا على الانجليزيات في الريف « أنهن يشرقن بنخامتهن » وعلى الفرنسيات « لحسهن اصابعهن بعد اكل الحلواء ونحوها » (ص١٠٦) وان « مايكره في نساء الافرنج تربية أظافرهن حتى تأخذ حدها في الطول » ، اما ما يحمد « من نساء الافرنج عموما ومن نساء الانكليز خصوصا انهن لايستعملن الصبغ ولا التزجيج فكما خلقهن الله يبدون ولا يتباهين بكثرة الحلي والجواهر » (ص ١٠٧) ، وهو يوازن بين احتفاء الرجل الانجليزى بالمرأة الانجليزية ، وبين احترام المرأة الانجليزية للرجل الانجليزى وخضوعها له وبين زهو المرأة الفرنسية على الرجل الفرنسي ودلالها عليه . ويقف الشدياق مبهوتا امام اجمل الجميلات وهن يقمن بشاق الاعمال في الفلاحة والحصد مقابل أجر يومي زهيد لا يتجاوز ستة بنسات « فكنت أقول في نفسي ما أرخص الجمال في هذه البلاد ، وما أقسى قلوب الرجال الذين يحوجونهن الى هذا الابتذال » (ص ١٠٨). ومن الملاحظات الهامة في الشدياق تفشي الامية بين نساء الانجليز وانتشار التعليم بين نساء الفرنسيين ، وهو يورد في ذلك : ان الاحصاء الرسمي في ١٨٥٥ يدل على أن من بين عدد المتزوجين في انجلترا وهو ٣٠١٥٠٤٧٠ شخصا توجد ٤٠ ٪ بين النساء و ٢٩ ٪ بين الرجال وقعوا وثيقة زواجهم بعلامة الصليب لجهلهم القراءة والكتابة . ويقول الشدياق في ذلك أن رجال الانجليز يتعمدون ابقاء الانجليزيات على جهلهن حتى لا يشمخن عليهم كما تفعل الفرنسيات بالرجال في فرنسا ، وهو يفهم الجهل في الفلاحات ولكنه لا يفهمه في نساء المدن الكبيرة :

« فان يكن والحالة هذه لوم على النساء فانما هو على قاطنات المدن والقرى الجامعة بل والرجال فى هذه الاماكن لا يريدون اقبال نسائهم على القراءة والكتابة مخافة ان يشمخن عليهم كداب نساء الفرنسيين وما احسن هنسا ما قيل ان المراة الفاضلة هى التى اذا قرأت خلتهاالاتحسن العمل واذا عملت خلتها لا تحسن القراءة . » « كشف المخبأ ص ١١١ »

وفى تخلف الانجليزيات يقول الشدياق :

« والفرنساوية يصفون نساء الانكليز بأنهن عسر أى يعملن بالشمال تعريضا بكونهن لسن صنعا كنسائهم وهذا القول باعتبار صنعتى القلم والابرة حق فان عامة النساء هنا لا يحسن الخياطة ولا التطريز ولا الكتابة واذا كتبت احداهن رسالة شحنتها بالغلط والخطأ مع ان لغة الانكليز هينة المآتى بالنسبة الى غيرها ولكن هن معذورات فى ذلك اذ ليس فى القرى مكاتب جيدة ، ومعلمون ماهرون وربما اجتزىء عن المكتب بأن يتعلمن فى الكنيسة يوم الاحد شيئا من اصول الدين او شيئا من القراءة مما لا يعبأ به » « كشف المخبأ » ص ١١١ »

واحتفاء الفرنسيين بنسائهم ظاهرة لفتت نظر رفاعة الطهطاوى ، وقد لفتت ايضا نظر فارس الشدياق . وفى اكثر من مناسبة يعقد الشدياق الموازنات بين المراة الانجليزية والمرأة الفرنسية . وعنده أن الانجليز :

« وان لم يكونوا يحتفون بزوجاتهم ويكرمونهن أمام الناس كما يفعل الفرنسيس الا انهم أكثر احصانا منهم لفروجهم وأوفر مودة ووفاء لهن فى الحضرة والغيبة هذا فى حق الازواج فأما فى شأن الرجال والنساء مطلقا فان رجال الفرنسيس ارفق واحفى فان احدهم ليؤثر

راحة المرأة أيا كانت على راحة نفسه فاذا تبوأ مثلا مقعدا في سفينة أو رتل ودخلت امرأة ولم تجد لها محلا فاضطرت الى القيام قام من موضعه وأجلسها فيه وكذا لو وقع منها منديل ونحوه بادر حالا الى مناولتها اياه وعندهم كلمة مخصوصة لمثل هذه الافعال (١) اما الانكليز فلا مبالاة لهم بذلك وكنت كثيرا ما أرى رجالا منهم يضغطون النساء والاولاد حتى يسبقوهن الى موضع يتبوءونه فاذا دخلت النساء ظللن قائمات وحين يسافرون في الارتال أو الحوافل يتخيرون أحسن المقاعد وربما أداروا ظهورهم للنساء غلاظة وسوء أدب ، نعم ان نساء الفرنسيس أكثر تكيسا وتظرفا في الظاهر من نساء الانكليز الا أن هؤلاء جديرات بالاكرام من عدة وجوه وفضلا عن ذلك فقد يقال ان زيادة تكيس اولئك اصلها من زيادة الاكرام لهن وانما هو جفاء غريزى فى طبع الرجال حتى ان النساء اعتدن عليه ولا يرين فيه نكرا الا اذا عاشرن الاجانب وهذا هو ما تمنيه الانكليز بقولهم نحن خير من غيرنا بعولة وغيرنا خير منا عشاقا » (كشف المخبأ » ص ١١٠ — ١١١) .

والشدياق يذكر فى عطف واضح خضوع نساء الانجليز لازواجهن ، على عكس ماراه من نساء الفرنسيين

« والحق يقال ان نساء الانكليز على غاية ما يكون من التقشف والقناعة فان أقل شيء من الملبوس يرضيهن ومن المطاعم يكفيهن ولا يستعملن الدخان ولا النشوق كبعض نساء الفرنسيس ولا هن مثلهن ايضا فى كونهن ينكرن مزية الرجال على النساء فمهما تكن المرأة شريفة من الانكليز تعترف بأن الله تعالى خلق الرجال قوامين

---

(١) يقصد كلمة « جالانترى »

عليهن » (« كشف المخبأ » ص ١٠٧ ـ ١٠٨)

ومن ملاحظات الشدياق أيضا على الانجليزيات أنهن نظيفات مرتبات مدبرات وفيات يفئن على الاسرة جوا من الهناء رغم انهن لايجدن الطهو ولا الحياكةولا التطريز: « وفي الجملة فان الانكليز يحق لهم ان يقولوا ان بلادهم منبت النساء ومعدن الازواج بمعنى ان من تزوج احداهن فقد (عرف) هناءة العيش وقرت عينه بما يراه من نظافة منزله مع الاقتصاد في النفقة وراحة البال من الاسباب الباعثة على الغيرة . » (ص ١١٢) ومن الموازنات الهامة التي عقدها الشدياق بين الفرنسيات والانجليزيات قوله : « ولنساء الفرنسيس نظافة زائدة على الملبوس والمفروش فكل ما كان لونه البياض يبقى كذلك الى ان يبلى ولكن ليس لهن من الطهارة نصيب ولهن ايضا عناية بليغة بتنضيد اثاث البيت وبهن تليق جميع الاعمال وفي الواقع فانهن ازكى والقن من سائر نساء الافرنج وما من امراة في باريس الا وتعرف شيئا عن المداواة ومن طبعهن التبكير في القيام وتنظيف مراقدهن بخلاف نساء لندرة فان الغالب عليهن الكسل والتواني والاضحاء في النوم ولهن ايضا حرص على تربية اولادهن وتنظيفهن فلا تكاد ترى في اسواق المدينة اطفالا يمشون وحدهم او يطوفون في الليل ويعرضون أنفسهن لخطر العجلات وسائر المراكب كما ترى في لندرة وهن اللاتي يتولين الدخل والخرج فلا يمكن لاحد ان يشتري شيئا من المأكول والمشروب ما عدا الخمر الا من ايديهن » (« كشف المخبأ» ص ٢٥١ ـ ٢٥٢)

وايا كانت ملاحظات الشدياق واحكامه على الانجليز والفرنسيين رجالاونساء ،فما من شك فيأنها ،بغض النظر

عن دقتها أو سطحيتها ، تنبىء بموضوعية واضحة ، ومهما اكتشف الانسان من آثار الشدياق ان المؤثرات الكبرى فى أدبه وفكره كانت مؤثرات انجلوسكسونية بحكم ثقافته الانجليزية وبحكم روابطه في العمل وبحكم اقامته المديدة فى انجلترا ؛ فمن الجلى انه لم يكن متحاملا عن عمد على الحضارة الفرنسية رغم اطلاعه المحدود نسبيا على مختلف وجوهها . فقد وصف لنا شوقه الى زيارة باريس فى «كشف المخبأ» (ص ٢١٤) بقوله : « ثم تأهبت للسفر الى باريس وأعددت خيشومى للغنة . وخلدى للفتنة . ودريهماتى للمحنة » . بل ان الصورة العامة التى نجدها فى أدب الشدياق تدل على انه كان أسعد حالا فى فرنسا منه فى انجلترا ولعل هذا راجع الى عمله في انجلترا مع القساوسة الذين يبدو أنه لم يسعد بصحبتهم كثيرا فاذا تجاوزنا عن وضعه الشخصى وجدنا أنه يوازن بين اللغة الانجليزية التى كان يتقنها واللغة الفرنسية التى كان لا يتقنها فضل الثانية على الاولى قائلا فى الانجليز : « وليس للهجتهم مطلقا نغمة مطربة سواء تكلم بها جاهل او عالم او ولد او امرأة اذ ليس فى كلامهم مد ولا حركات طويلة وأصوات الرجال من حناجرهم بخلاف اللغة الفرنساوية فان فيها غنة تستحب من الاولاد والجوارى جدا وربما طرب لها من ليس يعرفها » (« كشف المخبأ » ص ١٤١) ، فاذا وازن الشدياق ايضا بين غناء الانجليز وغناء غيرهم من الاوربيين وجد أغانى الانجليز أقل جمالا ، أو على حد تعبيره : « اما غناؤهم فلا يمكن لذى ذوق سليم أن يطرب به وقد سمعت أغانى الفرنسيس وسائر الافرنج فوجدت بعضها يطرب ويشجى لان فيها مدا وترجيعا

فاما اغاني الانكليز غير التي يتلقونها من الطليانيين والفرنساويين في الملاهي فكلها نبر ودرج » (« كشف المخبأ » ص ١١٦) . وقد رأى الشدياق أن باريس الى جانب بهائها الذي تفضل به كل مدن العالم ، تفضل لندن في اربعة عشر وجها هي (١) ان لندن مدينة الحرائق بينما الحرائق في باريس نادرة الوقوع وهو يذكر انه في ١٨٥٦ وحدها وقعت في لندن وضواحيها ٩٥٧ حريقا بينما لم يقع في باريس طوال مدة اقامته فيها وهي سنتان ونصف الا حريق واحد (٢) ان تزييف العملة شائع في لندن وغير معروف في باريس (٣) ان جرائم القتل شائعة في لندن ونادرة في باريس (٤) أن سرقة البيوت والدكاكين والاختلاس من الاموال العامة والخاصة شائعان في لندن نادران في باريس (٥) ان حوادث القطارات أكثر في انجلترا منها في فرنسا (٦) أن الرقابة على الاغذية والادوية وسائر مواد التموين غير معروفة في لندن بينما نظام التسعيرة والرقابة على الغش التجاري معمول بهما في باريس (٧) ان الوساطة والمحاباة والاتجار في الوظائف العامة وتعيين الجهال فيها امور شائعة في انجلترا اما فرنسا فهي خالية منها (٨) ان الضبط والربط والنظام قواعد مستتبة في باريس بسبب توافر الشرطة وتعود الناس آداب السلوك أما لندن فالامر فيها فوضى والناس خالون من الذوق ولا سيما في المراقص والملاهي ومحطات السكك الحديدية (١) «٩» ان صيانة الدولة لاسباب

---

(١) « فان اكثر هذه الاماكن في لندرة لا يكون فيها شرطي او يكون وراء الباب فترى الناس يضغط بعضهم بعضا عند دخولهم الملهى وغير مرة رأيت نساء يغشى عليهن في الزحام وغير مرة يموت عدة أولاد ومنهم من يستهزئ ومنهم من يضحك ، وفي داخل الملهى ترى الاوباش يصفرون ويزيطون ولا وازع يردهم فاما في باريس فلا يخلو

الصحة العامة ولراحة المواطنين أوضح في باريس منها في لندن ومن أهم مظاهرها نظافة المستشفيات والطــــرقات والمقابر (١٠) ان الحوانيت متوفرة في باريس عنها في لندن (١١) ان مومسات باريس يخضعن للكشــف الطبي المنتظم مرة كل اسبوعين بينما مومسات لندن لا يخضعن لذلك (١٢) أن استعارة الكتب من المكتبات العامة ميسورة في باريس ولكنها غير مباحة في لندن (١٣) ان العلم واكتساب الصنائع ميسوران ومتقدمان في فرنسا بأقل النفقـــات عنهما في انجلترا ، حتى أن الانجليز أنفســـهم يوفدون ابناءهم الى باريس لتلقي العلوم والصــــنائع (١٤) أن المرافق والخدمات العامة كالغاز والبريد ورواتب رجـال الدين مكفولة في فرنسا أكثر منها في انجلترا .(« كشف المخبأ » ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤

ولا نعرف الى اى حد يستطيع المؤرخ الاعتماد على هذه الصورة المقارنة الطريفة للمجتمعين الانجليزي والفرنسي في منتصف القرن التاسع عشر . ولكن الشدياق لا يفوته أن يذكر لنا ان القوانين الفرنسية اعدل من القــوانين الانجليزية ولكن من يطبقون القوانين في انجلترا أعـــدل ممن يطبقونها في فرنسا ، او ان يذكر لنا شيوع الاحقـــاد الطبقية بين الفرنسيين وقبول الانجليز لنظام الطبقـات أو أن يذكر لنا ميل الفرنسيين للثورة والشجار وميل الانجليز الى الهدوء والاستقرار الاجتماعي ، أو أن يذكر لنا تميز الطبقات في انجلترا وتداخلها في فرنسا ، الى غير هذا من الملاحظات الاجتماعية الهامة . وهو ينتهي

مكان من أحد هؤلاء الشرطة وترى الناس في الملاهي ساكنين منصـــتين فكأنما هم في الكنيســــة ومع ذلك فان الانكليز يفتخرون بقولهم ان جون بول لا حاجة له بالشرطة لانه مطبوع على الترتيب وهيهات فـان أوباشــهم أرذل خــــلق الله » (« كشف المخبأ » ص ٢٧٢)

من كل هـــذا الى حكم يســـتوقف النظر وهو قوله « ان الجيد من الانكليز خير من الجيد من الفرنسيس والردىء من هؤلاء خير من الردىء من اولئك ومآل الكلام ان عامة الفرنسيس افضل وان خاصـــة الانكليز اجل وأمثل » (« كشف المخبأ » ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥) ، وهو حكم ليس من ابتكاره بل من ابتكار المثقفين الانجليز انفسهم . ويبدو أن الشدياق كان متأثرا بما كان يسمعه فى انجلترا من أمثال هذه الموازنات التى كلف بها مثقفو انجلتـرا ، فهو ينقل عنهم قولهم أن الصناعة الانجليزية تتميز بالمتـــانة والصناعة الفرنســـية تتميز بالجمـــال ، أو قولهـم أن الفرنسيين اقوى ابتكارا وان الانجليز اشد اتقـــــانا . (« كشف المخبأ » ص ٢٧٦، ــ ٢٧٧)

ومما استوقف نظر الشدياق فى العاملة الفرنسية قبولها القيام بأخس الاعمال مع محافظتها على زهوها واعتـــدادها بشخصيتها : « ومن ذلك ان نساء عامة الفرنسيين مـــع زهوهن واعجابهن اذ الزهو صفة عامة لجميع اناث هذا الجيل تراهن يتعاطين من الاعمال الخسيســـة ما تأنف منه أخس نساء الانكليز كتكنيس الطرق وحمل الاحمال وتنظيف الاحذية وصيد السمك والمناظرة على المراحيض ونحو ذلك ولابد من ان تخاطب كل واحـــدة من هؤلاء الخسيسات المبتذلات بلفظة مادام» . فاذا كان هذا حال العاملات فما بالك بالمترفات من نساء فرنسا ! وهو يصف استعلاءهن وغطرستهن بقوله : « فأما الستات المترفات من هذا الجيل فالعزة للواحد القهار فان ما نقص من مترفية سادة الانكليز وجلالهم ومجدهم تلقاه فيهن وافيا فهن نساء صورة وشكلا ورجال امرا ونهيا » (« كشف المخبأ » ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧)

وتفسير ذلك عند الشدياق ان المرأة الفرنسية داعية مساواة بين الرجل والمراة على عكس المـــرأة الانجليزية التي تقبل سلطان الرجل عليها مهما علت مكانتهـــا او شرف حسبها . وهو يشرح لنا الفلســـفة الاجتماعية السائدة بين نساء فرنسا بقوله : « فانهن يقلن ان الله تعالى لم يختص الرجل بمزية الا وعوض المرأة عنهـــا باخرى فجعل بين ذلك توازنا حتى تستتب الالفة والوفاق بينهما فمما اختص به الرجل القوة والشدة ليمكنه تحمل المشاق في تحصيل اسباب معيشته فعوض المرأة عنهـــا بالصبر والتجلد لمصالح بيتها وتربية اولادهـــا واختص الرجل ببسطة الجسم والمهـــابة فعـــوض المرأة عنها بفتنة الحسن والروع فمهما يكن الرجـــل متسرعا الى السوء تردعه عنه من نظرات المرأة روادع واختص الرجل بطول النظر والفكر في العواقب فعوض المرأة عنه بالبديهة العتيده وسرعة الجواب المقنع واختص الرجل بالشهامة وعزة النفس فعوض المراة عنه بالتصاون والحيـــاء » (« كشف المخبأ » ص ٢٥٧)

وهذه الصور والافكار التي تبدو لنا اليوم من مألوف الصور والكلام عن المراة ، لم تكن كذلك في العالم العربي ابان القرن التاسع عشر ، ولا سيما في اوائله ومنتصـــفه حين كان هناك اجماع او ما يشبه الاجماع على ان الرجل أرقى من المرأة ومسود عليها بالارادة الالهيـــة وبالتقاليـــد الاجتماعية . وعرض هذه الصور والافكار الجديدة على ذلك المجتمع النامي المتفتح للمعرفة كان بغير شـــك من اهم المؤثرات التي ساعدت على اخراج العرب من تلك العزلة الفكرية والحضارية التي فرضتها عليهم الامبراطورية العثمانية .

٣ ـ الاشتراكية الدينية

اذا كان رفاعة الطهطاوى أعظم فيلسوف فى العربية بين عهد محمد على وعهد اسماعيل ، فقد كان فارس الشدياق أعظم أديب فى العربية خلال هذه الفترة ذاتها . وقد تعاصر الرجلان بل توازت حياتهما ، لان الشدياق الذى ولد فى ١٨٠٥ امتد أجله حتى ١٨٨٧ ، أى أنه مات عن اثنتين وثمانين سنة ، وقد امتدت حياة الطهطاوى الى ما يقرب من هذا الاجل المديد . ومن هنا يمكن ان نقول ان الطهطاوى والشدياق كانا اكبر مؤثرين فى توجيه الفكر العربى بين عهد محمد على وعهد اسماعيل ، كل بطريقته الخاصة ، لأن الطهطاوى كان نموذجا للمفكر العميق المشتغل بكليات الفكر ، ولاسيما الفكر السياسى والاجتماعى ، فى حين أن الشدياق كان نموذجا للاديب الفنان القوى الاحساس الذى يرسم من انطباعاته الجزئية صورة الحياة

وقد كان للشدياق اثر ملموس فى تطور الفكر المصرى الحديث في مختلف مراحل حياته نظرا لارتباطه الوثيق بالتيارات الثقافية والسياسية فى مصر من عصر محمد على حتى عصر الخديوى توفيق

وقد قرأت بحثا نافعا كتب عن الشدياق بقلم الاستاذ جورج هارون فى مجلة « حوار » (عدد أكتوبر ١٩٦٣)

بعنوان « الشدياق رائد الحريات فى فكرنا الحديث » ، نوجدت ان هذا البحث رغم نفعه ، يجنح الى الاسراف فى تصوير هذه الريادة الشدياقية فى تحرير الفكر العربي أو فى تحرير المجتمعات العربية . ولا شك ان كل دراسة للشدياق لا تدخل فى الاعتبار ما كتبه فى جريدته « الجوائب » التى بدأ يصدرها فى ١٨٦٢ ، وتقف عند كتبه الكبرى « الساق على الساق » (١٨٥٢) و «كشف المخبأ عن فنون أوربا » (١٩٥٤) و « الجاسوس على القاموس » (١٨٦٦) تعد دراسة ناقصة من هذه الناحية . ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن دراسة آثار الشدياق تجعل من العسير أن نلتمس فيه ما نسميه عادة «بالفكر» من أى نوع كان ، فكل ما هنالك فى أدبه « انطباعات » و « مواقف »

وهذه الانطباعات وهذه المواقف بلا جدال واضحة غاية الوضوح ، وهى فى اكثر الاحوال معبر عنها تعبيرا ناريا او تعبيرا لاذعا ، مما يلزمنا باعتباره قوة مؤثرة ومحركة فى العقل العربى ابان القرن التاسع عشر ،ولكن هذه القوة هى قوةالاديب الفنان لا قوةالمفكر الفيلسوف .. فالفكر لا يسمى فكرا الا اذا بلغ درجة من التجريد والنظر فى الكليات تجعله يتماسك فى نظرية شاملة ، والنظرية الشاملة كالفكر الكلى هى آخر ما نجده فى آثار فارس الشدياق . ويكفى ان نذكر ان فارس الشدياق اسس (الجوائب) فى ١٨٦٢ للدفاع عن سياسة الباب العالى ، أو أنه ناهض الثورة العرابية مناهضة عنيفة وآزر بقلمه الخديو توفيق ونشر منشور الباب العالى ضد العرابيين فى العالم العربى ، لنتبين بوضوح أنه لم يكن رائد حرية فى الشرق العربى ، بل ولم يكن

خادم حرية بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، وانما كان مكانه الطبيعي بين طلائع السلفية الثائرة التي كانت تطالب بتجديد شباب الامة الاسلامية في اطار السيادة العثمانية

والحقيقة ان من الظلم لفارس الشدياق ان نطالبه بنظرية منسجمة متكاملة حتى في هذا الاتجاه كما نطالب جمال الدين الافغاني على سبيل المثال ، لان حياته المضطربة وشخصيته القلقة وطبيعته الادبية والفنية كانت خليقة بالا تجعله يستقر على فكرة شاملة واحدة في اية مرحلة من مراحل حياته . ثم ان تعدد ارتباطاته بالانجليز وبالامريكيين وبالمصريين وبالعثمانيين بل وبالتونسيين ايضا ، وكثرة تنقله بين أيدى المحسنين على اختلاف مللهم ونحلهم ، يجعل من العبث ان نحاول نسبته الى نظرية واحدة في الحرية أو في الفكر السياسى والاجتماعى . بل ان هناك في آثار الشدياق وفي حياته ما يثبت انه كان ينظر الى صناعة الأدب نظره الى «حرفة» للرزق ، فهو نموذج عصرى لشاعر القبيلة المداح الهجاء بالولاء الشخصى لا بالولاء المذهبى

بل ان هناك في حياته مواطن للشبهة في بعض اتصالاته السياسية ودوافعها ، بل وربما مواطن للشبهة في بعض ما كان يقوم به من مهام . لذلك كان من الانصاف للشدياق ان نتحدث عن خواطره وتأملاته وانطباعاته ومواقفه السياسية والاجتماعية لا ان نتحدث عن فكره السياسى والاجتماعى

والشدياق الذى ختم حياته داعية لآل عثمان بدأها كعامة الشباب العربى المثقف في عصره شديد البرم بالترك شديد الضيق بعدوانهم على العرب . فهو يحدثنا في

« الساق على الساق » بمناسبة وصوله الى الاسكندرية عن تجبر الترك واستعلائهم على المصريين كأن الترك صنعوا من طينة غير طينة البشر ، فيقول فى سخرية لاذعة فى الفصل الثانى (١) ::

« عمت صباحا يا فارياق . كيف انت . وكيف رأيت الاسكندرية . هل تبينت نساءها من رجالها فان النساء فى بلدكن لا يتبرقعن . وكيف وجدت مآكلها ومشاربها وملابسها وهواءها وماءها واكرام أهلها للغرباء . .

« فأما رجالها فان للترك سطوة على العرب وتجبرا . حتى ان العربى لا يحل له أن ينظر الى وجه تركى كما لا يحل له أن ينظر الى حرم غيره ؛ واذا اتفق فى نوادر الدهر أن تركيا وعربيا تماشيا أخذ العربى بالسنة المفروضة . وهى أن يمشى عن يسار التركى محتشما خاشعا ناكسا متحاقرا متصاغرا متضائلا قافا متقبضا متقبصا متشمصا متحمصا متحرفصا مكتزا متكاولا متآزحا متقرفعا متقرعفا متقفعا متكنبثا مقعنصرا متقوصرا مستزمرا معرنفطا متجعثما متجعنا مرزئما مرمئزا مقمئنا مكبئنا متحنبلا متقاعسا مراعزا مكردحا متضاما متصعصعا متزازئا مقرنبعا مدنقسا مطمرسا متكرفسا

---

(١) الطبعة التى استعملها هى الطبعة الثانية : « كتاب الساق على الساق فى ما هو الفارياق ، او ايام وشهور واعوام فى عجم العرب والاعجام » تأليف العبد الفقير الى ربه الرزاق فارس ابن يوسف الشدياق

تأليف زيد وهند فى زمانك ذا
اشهى الى الناس من تأليف سفرين
ودرس ثورين قد شدا الى قرن
اقنى وانفسح من تدريس حبرين

عنى بنشره يوسف البستانى ، صاحب مكتبة العرب بمصر » ، القاهرة ١٩١٩) ٤٢٩ صفحة (الم٣٢ صفحة ذلب الكتاب)

هشا معفنفشا متحويا معرنزحا متخشـــلا آزما لازبا
كاتعا كانما متشاجبا مصعنبا مجربزا مجرمزا متدخدخا
.. فاذا عطس التركى قال له العربى رحمك الله . واذا
تنحنح قال حرسك الله . واذا مخط قال وقاك الله . واذا
عثر عثر الاخر معه اجلالا له وقال نعشك الله لانعشنا:
وقد سمعت أن الترك هنا عقدوا مجلس شورى استقر
رايهم فيه لدى المذاكرة على ان يتخذوا لهم مركبـــــا
وطيئا من ظهور العرب فانهم جربوا سروج الخيل وبراذع
الجمال واكفها واقتاب الابل وبواصرها وحصرها ونسائر
أنواع المحامل .. فوجدوها كلها لا تصلح لهم . ورأيت
مرة تركيا يقود جوقة من العرب بخيط من الكاغد وهم
كلهم يقودون له . استغفر الله مرادى ان أقول ينقادون
له . ولم أدر ماسبب تكبر هؤلاء الترك هنا على العرب
.. ان النبى صلعم كان عربيا . والقرآن أنزل باللسان
العربى والائمة والخلفاء الراشـــدون والعلماء كانوا كلهم
عرباء غير انى أظن أكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون أن
النبى صلعم كان يقول شويله بويله او بقالم قبالم او

غطالق قـــاب خى دلهـــا   طفـــالق باق يخ بالهــــــا
صـــفالق ياه خشيت وكرد   فصالق هاب دركلها ...

« لا والله ماهذا كان لسان النبى ولا لسان الصحابة
والتابعين والائمة الراشدين رضى اللهم عنهم اجمعين الى
يوم الدين آمين وبعده آمين » « الساق على الســـاق »
الكتاب الثانى ، ٢ ، ص ١٣ ــ ١٧ »

كان ذلك قبل سفر الشدياق الى مالطة فى ١٨٣٤ ،
أى حين كان فى التاسعة والعشرين من عمره . فالشدياق
اذن فى شبابه كان يشارك الشباب المثقف فى عصره فى
الثورة على الاتراك والتعريض بهم والسخرية منهم ، كما

كان يشاركهم فى توكيد الشخصية العربية وربما القومية العربية ، فهو من هذه الناحية لا يختلف عن رفاعة الطهطاوى أو طليعة جيله . لكن ينبغى فى الوقت نفسه ان نذكر ان الشدياق كان قبل نزوحه الى مصر وقبل رحيله الى مالطة ثم الى انجلترا ليعمل فى خدمة الارسالية الانجليزية على اطيب صلة بالارساليات الامريكية والانجليزية ، وقد وجد من الامريكيين والانجليز ماطلبه من حماية أيام محنة أخيه ومحنته مع الموارنة . وقد كان الانجليز يومئذ فى اوج صراعهم مع الترك ، ذلك الصراع الذى اتخذ صورة سافرة فى حرب تحرير اليونان سنة ١٨٣٠ وصورا متعددة لتأليب الشعوب العربية على الامبراطورية العثمانية واعانتها على تمزيق اوصال « الرجل المريض » . كذلك ينبغى ان نذكر ان تنديد الشدياق بتأله الترك ، لم يبلغ فى ثورته عليهم حتى شبابه مبلغ الثورة السياسية عليهم . فهو فى عرضه لمحنة اخيه اسعد الذى سجنه الموارنة بسبب تحوله الى المذهب البروتستانتى ، فمات فى السجن ، وفى عرضه لما نزل به شخصيا من اضطهادهم ، يتهم الموارنة بالخروج عن ولاية سلطان تركيا وباقامتهم دولة داخل الدولة العلية ، بقوله معددا اعتراضاته :

« واما المدنى فلأن اخى اسعد لم يأت منكرا ولا ارتكب خيانة فى حق جاره او أميره او فى حق الدولة . ولو فعل ذلك لوجب محاكمته لدى حاكم شرعى . فاساءة البطرك اليه انما هى أساءة الى ذات مولانا السلطان . لأننا جميعا عبيد له مستأمنون فى امانه وحكمه . وكلنا فى الحق سواء ، اذ البطرك ليس له حق فى أن يخطف من بيتى درهما واحدا لو شاءه فانى له أن يخطف الارواح . وهب

ان اخي جادل فى الدين وناظر وقال انكم على ضـــلال فليس عليكم ان تميتوه بسبب هذا . » (« الســـاق على الساق » الكتاب الاول ، ١٩ ، ص ١٠٣)

والشدياق هنا يستعدى سلطان تركيا على بطريرك الموارنة ولا يطالب الا بالتسامح الدينى مع اصـحاب العقائد المخالفة ، ويعلن ان جميع رعـايا الامبراطورية العثمانية فى حمى السلطان . ولكن بغض النظر عن قصور ثورية الشدياق السياسية ، فان هذه الصفحات تعـد دفاعا مجيدا عن حرية العقيدة الدينية ، وامثالهـا كثير فى كتاباته وسيذكر التاريخ للشـدياق دائمـا انه كان من اسبق من نادوا فى العالم العربى الحديث بحق الانسان فى حرية العقيدة الدينية ومن اشدهم حملـة على التعصب الدينى وتحـديا لطغيان الكهنوت . بل سيذكر التاريخ له انه كـــان من أوائل من دعوا الى مبدا سيادة السلطة الزمنية على السلطة الدينية ،حيث يقول فى الكلام عن « تجديف » اخيه المزعوم :

« وانما كان يجب عليكم ان تنقضوا ادلته وتدحضوا حجته بالكلام أو الكتابة اذا انزلتموه منزلة عالم تخشون تبعته . والا فكان الاولى لكم ان تنفوه من البلاد كما كان هو يطلب ذلك . بل اصررتم على عتوكم فى تنكيله وزعمتم أن فراره من داركم مرة لنجاة نفسه كان زيادة فى جنايته وجريرته فزدتم تجبرا عليه وظلما وكأنى بكم معـاشر السفهاء تقولون ان اهلاك نفس واحدة لسلامة نفوس كثيرة محمدة يندب اليها . ولكن لو كان لكم بصـيرة ورشد لعلمتم أن الاضطهاد والاجبار على شىء لا يزيد المضطهد وشيعته الا كلفا بما اضطهد عليه . ولا سيما اذا علم من نفسه انه على الحق وان خصمه القاهر له

على ضلال ، او انه متحل بالعلم والفضائل وقرينه عطل عنها . فقد فاتكم على هذا العلم الدينى والسياسى

« ما بال الكنائس الفرنسوية والنمساوية والانجليزية والمسكوبية والرومية الاورثوذكسية والرومية الملكيـــة والقبطية واليعقوبية والنسطورية والدرزية والمتـــوالية والانصارية واليهودية لا تفعل هذه الفظاعة والشـــناعة التى تفعلها الكنيسة المارونية . ام هى وحدها عـــلى الحق والناس اجمعون على الباطل . الستم تزعمون ان ملك فرنسا هو مجير الدين وناصره والناس من اهـــل مملكته الكاثوليكيين مازالوا يطبعون كتبا يندون فيهـــا بعيوب رؤساء كنيستهم وقبائحهم وسـفاهتهم وفحشهم وشراهتهم بل والحادهم . ان كثيرا منهم قد الفوا تواريخ خاصة بما كان عليه الباباوات من الفسق والفجـــور وسوء التصرف ، وبكفرهم بخلود النفس والوحى وبالهية المسيح .. » (« الساق على الساق » ، الكتـاب الاول ٢٩ : ص ١٠٣ ــ ١٠٤)

وينتهز الشدياق هذه المناسبة ليتوسع فى استعراض معارفه عن فساد البابوات وهو يرى ان تعصـــب الموارنة مجاف لروح الدين كما هو مجـاف لكيـــان الدولة . وهو يخاطبهم بقوله : « وما كان لكم عليـــه من سلطان دينى ولا مدنى . اما الدين فان المســيح ورسله لم يأمروا بسجن من كان يخالف كلامهم وانمـا كانوا يعتزلونهم فقط . ولو كان دين النصارى نشـــأ على هذه القساوة الوحشية التى اتصفتم بها الآن انتم رعاة التائهين وهداة الضالين لما آمن به احد . اذ لا احد من الناس يصبؤ الا اذا كان يرى الدين الذى خرج اليه خيرا من الدين الذى خرج منه . وكل انسان فى الدنيا

يعلم أن السجن والتجويع والاذلال والتوغد والتأويق والتشنيع ليس من الخير في شيء . وناهيك ان المسيح ورسله أقروا ذوى السيادة على سيادتهم وأمرتهم .

ولم يكن دأبهم الا الحض على مكارم الاخلاق والامر بالبر والدعة والسلم والاناة والحلم ، فانها هى المراد من كل دين عرف بين الناس » . (« الساق على الساق » . الكتاب الاول ، ١٩ ، ص ١٠٢ ــ ١٠٣ »

والشدياق يقارن مارآه من تعصب الشوام ، مسلمين ونصارى وعنتهم فى أيامه بما رآه من تسامح دينى لمسه فى المصريين اثناء اقامته فى مصر حيث يقول : « ولكل نوع من الناس عندهم اكرام يليق به سواء كان من النصارى او غيرهم وربما خاطبهم بقولهم : ياسيدى ، ولا يستنكفون من زيارتهم ومخالطتهم ومعاشرتهم خلافا لعادة المسلمين فى الديار الشامية . وبذلك لهم الفضل على غيرهم وكأن هذه المزية وهى حسن الخلق ورقة الطبع أمر مركوز فى جميع أهل مصر » (« الساق على الساق » ، الكتاب الثانى ، ٧ ص ٤٢٤) . وهو يلاحظ ان باب الوظائف العامة فى مصر مفتوح امام المسلمين والمسيحيين على قدم المساواة ، وأن تجارة مصر كانت فى يد النصارى الاجانب الذين وصفهم بالجشع وحب الابهة : « ولكن وجود هذه الشراهة انما هو فى الغالب عند النصارى الغرباء . فاما القبط فانهم أشبه بالمسلمين . وقل من تعاطى المتجر منهم . اما دولة مصر اذ ذاك فانها كانت فى الذروة العليا من الابهة والعز والفخر والكرم والمجد . فكان للمتسمين بخدمتها مرتب عظيم من المال والكسى والشجن مما لم يعهد فى دولة غيرها وكان واليها يولى المراتب العلية وسمات

الشرف السنية لكل من المسلمين والنصارى ماعدا اليهود خلافا لدولة تونس فان شرفها عم الجميع » (« الساق على الساق » الكتاب الثانى ٧ ، ص ٤٣)

أما أفكار الشدياق السياسية والاجتماعية ؛ فلا سبيل الى وصفها بأكثر من انها محض انطباعات ،وليس فيها ما يدل على انه حاول ان يتفهم حقيقة ما يجرى فى المجتمعات الاوربية التى زارها أو حقيقة تكون هذه المجتمعات او حقيقة اسس الحكم فيها . وللدافان وصفه لها كان من الظاهر فقط ، وهو اشبه شىء بوصف السائح لما يطوف به من بلدان . وهناك التفاتات اقتصادية فى الشدياق تذكرنا بوصف ديكنز لفقراء انجلترا فى أيامه . وهو يقول فى « الساق على الساق »: (الكتاب الرابع ، ١٢ ، ص ٣٣٨) : « قد كنت احسب ونحن فى الجزيرة (يقصد مالطه) ان الانكليز احسن الناس حالا . وانعم بالا . فلما قدمنا وعاشرناهم اذا فلاحوهم اشقى خلق الله . انظر الى هذه القرى التى حولنا وامعن النظر فيها تجدهم لا فرق بينهم وبين الهمج . يذهب الفلاح منهم فى الغداة الى الكد والتعب ثم يأتى بيته مساء فلا يرى احدا من خلق الله ولا يراه أحد . فيرقد فى العشاء ثم يبكر لما كان فيه وهلم جرا . فهو كالآله التى تدور مدارا محتتنا فلا فى دورانها لها حظ وفوز ولا فى وقفها راحة . فاذا جاء يوم الاحد وهو يوم الفرح واللهو فى جميع الاقطار لم يكن له حظ سوى الذهاب الى الكنيسة فيمكث فيها ساعتين كالصنم يتثائب ساعة ويرقد اخرى ثم يعود الى بيته . فليس عندهم مثابة ولا موضع للسمر والطرب : » ولا فرق بين سراة الريف وفلاحيه الا أن

بيوت السراة مؤثثة بأفخر الاثاث . كذلك لا فرق بين عمال المصانع وفلاحي الارض « فان داب الصانع كداب الفلاح من جهة انه يشقى ويكد النهار كله ولا حظ له في الليل الا أغماض عينيه » (« الساق على الساق » الكتاب الرابع ، ص ٣٣٩)

وهذا الوصف للفقر البشع الذى كانت تعيش فيه الطبقات الفقيرة فى انجلترا رغم الثراء الفاحش المحيط بها وصف صادق وامين . ولكن الشدياق لا يراه الا بعين الاديب الفنان ، لان تشبيه حياة الطبقات الكادحة في انجلترا بحياة الهمج تعبير شعرى يدل على ان صاحبه لم يكن يعرف شيئا عن حياة الفطرة وهى عكس ذلك على خط مستقيم . لان استغلال الانسان للانسان على هذا الوجه المنظم لم يبدأ الا مع بشائر الحضارة وموقف الشدياق طبعا مع الفقراء فى كل مكان ، ولكنه مستوحى من عطف الانسان الفنان لا من فكر الانسان المفكر . وهذه نماذج من تأملاته الاجتماعية فى العلاقات الاقتصادية بين البشر وهى ما يسميه الشدياق « خواطر فلسفية »

«واذا كان الناس عباد الله فى أرضه على اختلاف أحوالهم ومراتبهم هم كالجسم الواحد باختلاف ما فيه من الاعضاء الجليلة والحقيرة فلم لا يجرى العدل بينهم كما يجرى بين الاعضاء . فان الانسان اذا اكل شيئا أو لبس شيئا فانما يفعل ذلك لاصلاح الجسم كله . أم يزعم المثرون اذا وسعوا على هؤلاء الضناك الصعاليك ونفسوا عنهم الكرب الذى يكابدونه من جهد المعيشة ومن عدم قدرتهم على تربية أولادهم انهم يحملونهم على اهمال شغلهم وعلى تركهم الارض بورا فتتعطل وتمحل فيهلكون جوعا .. أم يحسبون أن الله تعالى انما خلق الفقراء لخدمتهم فقط .

لعمرى ان حاجة الغنى الى الفقير أشد من حاجة الفقير الى الغنى . أم يأنفون من النظر من مقامهم الرفيع السامى الى ذوى الضعة والخمول خشية أن يسرى اليهم من بؤسهم ما يسوءهم . . واذا كانوا يخشون منه الفساد لكسله وتعطله فخوفهم من فساد نيته لفقره (يقصد : من الفقير) ومن كراهته اياهم اولى . لان الشقاوة ادعى الى الفساد من السعادة . الا ترى الى هؤلاء الالوف من البنات اللائي يجرين فى أسواق لندن وجميع المدن العامرة باخلاق من الثياب . ولا سيما هؤلاء النواشىء اللائى لم يبلغن بعد من العمر خمس عشرة سنة . فهذا لعمرى الاهتجان بعينه . فكيف يعيبون علينا هذه العادة فى بلادنا وهى مستعملة عندنا على وجه الحلال وعندهم بالحرام . فلو كن مكفيات المؤونة لما فعلن ذلك . لان البنت فى هذا الحد من السن لا تكرع الى الرجال ، ولا تضبع للبعال ، ولا سيما فى البلاد الباردة . ولسلم من كيدهن وتهافتهن جشعا الى المال اناس كثيرون جلب عليهم شرههم اليهن مضار كثيرة . وما عدا ذلك فان هؤلاء البنات الحسان لو كانت الدولة واهل الكنيسة يعنون بتجهيزهن بما يقدرون على الزواج الشرعى بعد تربيتهن وتهذيبهن ، لكن يلدن الاولاد الصباح فيزين المملكة بأثمار ارحامهن كما تقول التوارة . بخلاف ما اذا بقين على حالة السفاح فما يتولد منهن الا الخبائث والرذائل » («الساق على الساق » ، الكتاب الرابع : ١٢ ، ص ٣٣٩ــ٣٤٠) .

ومجمل ما يقوله الشدياق فى موضوع العدالة الاقتصادية ، انها لا تورث الا الحقد الطبقى والانحلال الخلقى ، وان الاستغلال البشع مناف لقوانين « الله والطبيعة » ، وان حل مشاكل الفقراء يكون باستيقاظ

ضمائر الاغنياء ونزولهم عن بعض ترفهم وبتنظيم الخير عن طريق الدولة والكنيسة ، وانه لا يطلب للفقير الا أن ينتشل من الخصاصة المريعة : « الا فليمكنوه من أن يذوق لذة العيش ويرى الدنيا كما هى عليه شهرا واحدا فى عمره على الاقل أو يوما فى العام حتى يموت راضيا قرير العين » وهو لا يعارض فى الفقر الذى لا يؤدى الى « الشره والبطر » ، ولكنه يعترض على « الفقر المدقع الذى يلقى الهموم والاحزان الدائمة فى قلب صاحبه » ويدفعه الى الجريمة او الى الانتحار . وهذا الموقف من مشكلة توزيع الثروة والعلاقات الاقتصادية بين العامل وراس المال نظرة سطحية لا ترقى حتى الى فلسفة التعاطف والاخاء بين البشر بالمعنى الدينى البحت

وقد كانت الاشتراكية المسيحية ، اشتراكية ف . ب . موريس وتشارلز كنجزلى ، فاشية فى انجلترا أيام أن كتب الشدياق هذا الكلام ، ومحور دعوتهما استدرار عطف الاغنياء على الفقراء ، من كل ما نجده فى أدب الفترة السابقة مباشرة على عام ١٨٤٨ ، عام « حركة الميثاق » . فيمكن أن نقول اجمالا أن موقف الشدياق هو بمثابة صدى باهت لموقف الاشتراكية المسيحية فى انجلترا

ونعرف من « كشف المخبأ » أن فارس الشدياق كان فى باريس وقت ثورة ١٨٤٨ التى عزل فيها لويس فيليب وأعلنت فيها الجمهورية حتى آل الامر فيها الى لويس نابوليون الذى أصبح فيما بعد نابوليون الثالث . فهو يقول عن باريس : « ولما وصلنا اليها كانت السياسة بيد الجمهورية اذ كانوا قد خلعوا لويس فيليب عن الملك ففر بنفسه وأهله الى بلاد الانكليز ملجأ الفارين ومأمن القارين . ومهما حصل فيها وقتئذ من الشغب وسفك الدماء فلم

يكد الانسان يميز المغبوط من أهلهـــا من المبتئس، فان منتزهاتها لم تزل حافلة بالناس (١)» (ص ٧١) .

ثم يمضي الشدياق ليذكر بعض النبذ التاريخيـة عن بعض البلاد التي مر بها في طريقه الى انجلترا وهي كاليه وبولوني ، ورغم انه أقام في باريس يومين ابان اشتعال ثورة ١٨٤٨ ، فان هذه الثورة لم تهز فيه وترا ، فلم يحاول ان يستقصي أسبابها أو نتائجها ، وكل ما وجده يستحق الذكر عنها هو أن ما جرى في الثورة من سفك للدماء لم يحل دون اختلاف الباريسيين الى الحدائق العامة كالمعتاد . وقد سبق ان رأينا كيف أن الشدياق عاش في لندن وما جاورها في خلال ازمة من اخطـر الازمات التي مرت بها انجلترا وهي حركة الميثاق في ١٨٤٨ ، ومع ذلك لانجد لهذه الثورة المجهضة أي أثر في كتاباته ، مما يدل على أن اهتمامه بالسياسة في اوروبا كان هامشياً ، ومن باب أولى اهتمامه بالفكر السياسي والاجتماعي

والشدياق لا يجد ما يقوله عن الثورة الفرنسـية الا ما ذكره في « الساق على الساق » (الكتاب الرابع ، ١٧، ص ٣٧٣) ، للتدليل على ميل الفرنسيين الى الملذات الحسية : « وقد تقدم أن الفرنساوية لا يفرقون بين الحرة والبغي وبقي هنا أن نقول انهم أشد الناس شبقا الى البعال . وأقربهم الى السفاح . وناهيك انهم في الفتنـة

(١) النص المستعمل هو الطبعة التونسية الاولى : « كتاب الرحلة ، الموسومة ، بالواسطه الى معرفة مالطة ، وكشف المخبأ في فنون أوربا ، تاليف ، العالم العلامة والشهم الفهامة الناخع البارع وحائز ، خصل السباق بلا منازع فارس ميادين البيان ، ومجلي مخدرات المعاني على منصات العرفان ، من لم تزل صحائف افا داته تجوب الافاق وينعقد على الاقبال عليها ، نطاق الاتفاق أبي العباس ، الشيخ أحمد فارس أفندي ،الشدياق دام ، بحفظ الباري الرزاق ، طبعة أولى . بمطبعة الدولة التونسـية بحاضرتها المحمية ، سنة ١٢٨٣ (هجرية) ٣٨٦ صفحة

الاخيرة التي حدثت سنة ١٧٩٣ ، أقاموا امراة عريانة على مذبح احدى الكنائس وسجدوا لها . فصور لخاطرك أيها القارىء كيف تكون الرجال والنساء في هذه المدينة في ليالي الشتاء الباردة الطويلة » (١) . فان جاء ذكر الماجنا كارتا لم يجد الشدياق ما يقوله فيه اكثر من انه ثبت نظام المحلفين في انجلترا : « واصل الجورى عرف في أيام الصكصونيين وذلك أنه كان حدث مرة نزاع بين انكليزى ووالسى فعين ستة نفر من الانكليز وستة من الوالسيين للنظر في أمرهما . ثم أثبت اقامة الجورى في المجلة التي يسمونها (مكنا كارتا) كأنها من أعظم اسباب العدل والحرية » (« كشف المخبا » ، ص ١٤٠) . وهذه طبعا خرافة من الخرافات التاريخية الكثيرة التي نقلها الشدياق في « كشف المخبا » وفي « الساق على الساق » حول حضارة اوروبا ، أغلب ما يكون نقلا عن قصاصات للصحف الانجليزية ودوائر المعارف الشعبية ولا سيما من جالنياني

---

(١) في «كشف المخبا» يشير الشدياق الى اعدام لويس السادس عشر وماري انطوانيت ، ولكن بمناسبة الحديث عن تاريخ ميدان الكونكورد ، فيقول في ص ٢٥٦ - ٢٥٧ : « وفيها أي في هذه السنة قتل الملك المذكور وزوجته ماري انطوانيت ومدام رولان وشارلت كوردي وغيرهم . قلت كان لويس السادس عشر حفيد لويس الرابع عشر وتزوج بنت ملكة أوستريا المسماه ماريا ترازيا واتهمه الفرنساوية بانه كان ذا ضلع عليهم مع النمسا لتحرب جمهورهم عليه وحكموا عليه بالقتل فلماجيء به الى مقتله قدم غير جزع ولا وجل وكلم الناس بصوت جهير قائلا : (الا يا ايها الفرنسيس اني أموت بريئا من الذنوب التي تجنيتم بها على واني اسامح جميع أعدائي واتضرع الى الله تعالى أن تكون فرنسا العزيزة على) .. لما كاد يتم قوله هذا الا وصرخ رئيس الفتنة ويعرف باسم (صانتر) بان تضرب الطبول ويضرب عنقه فلما صعد المكان الذي اعد لقتله ضج القسيسون وهم يصرخون (يا ابن مار لويس اصعد الى السماء) ثم بعد أن ضربت عنقه حملت جثته ودفنت في قبر ملء جيرا وجعل حرس عند قبره الى ان بليت بالمرة . »

التي يبدو انه كان يتوسع فى الاعتماد عليها

ومن المقارنات الدائمة التى يعقدها الشدياق بين الانجليز والفرنسيين فى زمنه رايه بأن الانجليز قوم يسلمون زمامهم لقادتهم لايحاسبونهم على شيء بعلة ثقتهم فيهم فهم نموذج للاستقرار السياسى بينما الفرنسيون على العكس من ذلك دائمو الثورة كثيرو التبديل للحكام ونظم الحكم ، أو بلغة الشدياق : « ومن ذلك انه لم يزل دابهم تغيير الحكومة وتبديل السياسة وأربابها ولم يخطر ببالهم قط أن يغيروا هذا الاسلوب السمج الشنيع الذى يجرى فى عبارات أهل السياسة والاحكام منهم فان فيه من التكرار والمواربه والحشو ما يشهد عليهم امام الله والناس فانهم لا ذوق لهم ولا المام بشيء من الادب » . (« كشف المخبا » ، ص ٢٧٣)

وهو يقول ايضا فى انصراف كل انجليزى الى عمله وعدم اشتغاله بأمور السياسة : « ويقال ان بهذه الخصلة استتب عز دولة الانكليز وعظمت شوكتها لان الرعية لا تعترض ذوى الامر والنهى فى تدبيرهم ولا يتطاولون الى معرفة ما تقتضيه سادتهم واهل شوارهم فلذلك قلما يحدث عندهم شغب او فتنة بخلاف أهل فرنسا فان كلا منهم يتطفل على أولياء الامر وهذا هو السبب فى كثرة العساكر هناك وقلتها هنا » . (« كشف المخبا » ص ١١٦ — ١١٧)

وليس معنى هذا ان الشدياق لا يتعرض لنظم الحكم ، ولكن ما يورده فى هذا الموضوع أقرب الى الشرح المدرسي منه الى التحليل ، وهو غالبا يسرد الحقائق التاريخية او السياسية دونما تعليق من عنده . فهو مثلا يحدثنا عن مصادر التشريع الانجليزى فيقول : « ويمكن تقسيم

شرعهم الى اربعة اقسام : الاول ما تناقلوه من احكام الرومانيين والنرمانديين والصكصونيين الذين فتحوا بريتانية ، ويدخل فى ذلك أمور من قبيل السنة والعادة وجل عاداتهم من قبيل الفرض والسنة . وما اجدرهم بأن يكون لهم لفظة توافق الدين عندنا فانها بمعنى الديانة والعادة فارى ان اخلعها عليهم سواء قبلوها أم لا : الثانى ما بنى على العدل والانصاف ومراعاة المصالح مما لم يرد فيه نص ولم يجر فيه حكم فاذا حدث أمر من ذلك احيل على محكمة العدل فيحكم فيه القاضى والجورى (يقصد المحلفون) بالرأى بحسبما يترجح عندهم أنه الاصلح : والثالث أحكام مجلس المشورة وهى غير متناهية: والرابع احكام ديوان الكنيسة الا انه ليس فى شىء من هذه الاحكام ذكر الطاهر والنجس وما يؤكل ومالا يؤكل أو ذكر حيض المرأة ونفاسها وحدادها وعدتها وما اشبه ذلك مما لابد من ذكره فى كتب الفقه الاسلامية ومع ذلك فيمكن أن يقال انه ليس أمر من الامور المتعارفة الا وهو مقيد بحكم من هذه الموارد الاربعة » . (« كشف المخبا » ص ١٤٢)

ومجلس المشورة الذى يشير اليه الشدياق هو البرلمان الانجليزى . اما السنة التى يشير اليها فهى التقاليد البريطانية المشهورة التى كثيرا ما تحل فى بريطانيا محل القانون . فكأن مصادر التشريع فى انجلترا بحسب ما ورد فى الشدياق هى ما يسمى بالقانون العام Common law والتقاليد جزء منه لا يتجزأ . ثم الفقه القضائى أو احكام القضاء Jurisprudence . ثم تشريعات البرلمان Legislation ، ثم قوانين الكنيسة Common law ، ولا شك أن عرض الشدياق لهذه المصادر المتعددة على القارىء العربى كان

يتضمن تلقيحا للفكر العربى بمبادىء الحضارة الانجليزية ، ولا سيما فى عصر كان يتلمس طريقه الى بناء الدولة الحديثة القائمة على التمييز فى فلسفة الفقه بين القانون الوضعى والقانون السماوى

وتاكيد الدور الذى تلعبه البرلمانات أو «مجالس المشورة» كما كان الشدياق يسميها ، يعد تعميقا للفكرة الديمقراطية البرلمانية فى العالم العربى الذى كان لا يزال نحو منتصف القرن التاسع عشر فى طريقه الى الاحساس الواضح بضرورة اقامة المجالس النيابية كاجهزة من اجهزة الحكم

ومن هذا القبيل ابراز الشدياق لضرورة فرض الضرائب الجديدة ، ولا سيما لتمويل الحروب ، من خلال البرلمان ، فهو يقول : « واذا شاءت (يقصد الطبقة الحاكمة) ان تضرب على الرعية ضريبة لسد مصاريف الحرب أحالت ذلك على مجلس المشورة النائب عن الجمهور . ومعلوم ان الانسان ليهون عليه أن يؤدى شيئا على يد نائبه أكثر من ان يؤديه على يد غالبة قاهرة » . (كشف المخبأ) ص ١٥٠) . ومعروف فى تاريخ انجلترا الدستورى أن انفراد شارل الاول بفرض الضرائب لتمويل الجيوش ، ولا سيما البحرية البريطانية ، أو ما كان يسمى فرض « ضريبة السفن » ship-money ، كان السبب المباشر فى نشوب الحرب الاهلية فى انجلترا عام ١٦٤٠ واعدام شارل الاول واعلان جمهورية كروميل ، كما كان السبب المباشر فى استقرار المبدأ الدستورى القائل : « لا ضريبة بغير تمثيل » (no taxation without representation) الذى اصبح فيما بعد ركنا من أهم اركان الدستور البريطانى

ويدافع الشدياق عن النظام البرلمانى فى انجلترا بقوله

انه يرسم الحدود بين الحاكم والمحكوم ويعلى كلمة القانون ويجنب البلاد الوعود الجزاف التي يعد بها الحاكم الفرد رعيته ، ورغم ما ينبه اليه الشدياق من بطء الديمقراطية الا انه يفضلها على حكم الفرد . فهو يقول : « ولكن لا ينبغي أن تفهم من هذا ان الامور الخطيرة عندهم تبت فى الحال . فان لها من التوقيت والتعيين ما يعيا به صبر المنتظر اذ لا يبرم عندهم أمر من أول وهلة فعلى قدر ما يهون عليهم ارتجال المقال يصعب عليهم ارتجال الفعال . حتى ان ديوان المشورة لا يبت شيئا فى الحال .

وانما المراد انهم لا يعدون بشيء لانية لهم على وفائه كما يحدث فى بلادنا . فيبقى الموعود رهين الامانى يطعم الملث ويسقى الوعود ثم لا يحصل من ذلك على طائل فينتج منه التكذيب من قبل الموعود والتنكيد من قبل الواعد »

(« كشف المخبا » ص ١٥٣) . فالشدياق باختصار يقول ان سيادة القانون والحكم الديمقراطى يجعلان يد العدالة ويد الاصلاح بطيئة ولكنهما فى الوقت نفسه يصونان الحكم من الارتجال ومن الوعود الجزاف

والغريب فى هذا هو ان الشدياق فى كل حديث له عن الديمقراطية البرلمانية لايقرنها كما كان يفعل الطهطاوى وعامة المشتغلين بالفكر السياسى والاجتماعى بكفاح الشعوب ضد الطغيان من اجل الحرية والمساواة ، ولكن يقرنها بفكرة العدالة بمعناها القانونى البحت ، وبالعلاقات الخلقية السوية بين البشر . بل ان حديثه عن دور ديوان المشورة فى تنظيم حياة الانجليز ، انما ورد بمناسبة كلامه عن استقامة الخلق الانجليزى من حيث الامانة فى الوعد والاحجام عن ارتجال العهود على عكس ما وجد الشرقيين يفعلونه فى زمانه . فحماسة الشدياق ليست حماسة سياسية

اجتماعية فى المقام الاول بل حاسة اخلاقية فردية تتبلور آنا حول فكرة العدالة وضماناتها وتتبلور آنا آخر حول فكرة التعاطف وبر الانسان بالانسان . وهكذا دواليك .

وفارس الشدياق حين يتناول موضوع الحرية لا ينظر اليها تلك النظرة المطلقة التى ورثتها الانسانية عن الثورة الفرنسية واعلان حقوق الانسان ، بل ينظر اليه نظرة بورجوازية سافرة ، فهو يقبل تعريف جولد سميث للحرية بانها مرادفة للغنى والثروة . ولا شك أن الانسانية قد اهتدت منذ ظهور الفكرة الاشتراكية الى العلاقة الحميمة بين الحرية والاستقلال الاقتصادى ، ولكن الربط بين الحرية والثروة فى ظل الفلسفة البورجوازية لم يكن له معنى الا توكيد حرية الطبقات الوسطى وحدها وتوكيد حقها فى الاستقلال الاقتصادى ، مع تجاهل هذا الاستقلال الاقتصادى بالنسبة الى الطبقات الشعبية . وهذا القبول للتركيب الطبقى للمجتمع على انه من صنع الطبيعة واضح فى كل كتابات الشدياق ، فهو يقبل غنى الاغنياء وفقر الفقراء وما بينهما ، كما يقبل العلاقات الاستغلالية بين الانسان والانسان ، ولا يعترض الا على الوان الغنى والفقر التى تهز ضمير الانسان الدينى والاخلاقى . فهو يقول مثلا فى « كشف المخبا » (ص ١٧٤ ــ ١٧٥) : « ثم أن الغنى وان يكن شأنه أن يجتذب اليه قلوب الناس فى جميع الامصار والاعصار وأن التجمل بالباس يورث المرء هيبة وجلالا حيثما كان وعلى ذلك قول بعضهم (لقد اجتهدت فى أن أنظر الى الغنى بالعين التى انظر بها الى الفقير فلم اقدر) ــ أو كما قال العلامة كولدسميث ان الغنى مرادف للحرية فى كل مكان ــ الا أن الغنى عند الانكليز شعار على الجدارة والاستحقاق لكل شىء . فالغنى عندهم يمكن له

ان يرفع دعواه الى مجلس المشورة ، ويطلق امراته لعله الزنا حقيقة او ادعاء والفقير لا يمكنه ــ وله أيضا جدارة بأن يكون ضابط البلد ــ ومن أعضاء لجنة المشورة المؤلف من نواب الاقاليم ــ وأن يشتري وظيفة من الديوان فى العساكر البرية فيكون قائد مائة أو الف او عشرة الاف ــ وان يدخل فى المنتديات أو الاكلبس وهناك يجتمع بالعظماء وذوى الشرف ــ فاذا رأوه على تلك الحالة لم يلبثوا ان يدعوه الى منازلهم ــ فان كان عزبا خطب اليهم احدى بناتهم او اخواتهم أو كان متزوجاً زوج ولده منهم أو من بناتهم .. الخ »

ومن هذا نحس ان الشدياق رغم قبوله لطبقية المجتمع يعترض على الفوارق الطبقية اذا ادت الى الاخــلال بالمساواة امام القانون وبمبدأ تكافؤ الفرص : فهو هنــا يصور المجتمع الانجليزى تصويره لمجتمع بلوتوقراطى المال فيه مفتاح كل شىء ومصدر من مصادر الاخلال بالمساواة امام القانون وبمبدأ تكافؤ الفرص . وهذه بغير شك نظرة تقدمية ورثها الشدياق من مفكرى الاشتراكية المسيحيــة الذين تأثر بهم ، اذا هى قيست بالفلسفــة الرأسماليــة المعربدة التى كانت تتمرغ فيهــا الطبقات البورجوازية الانجليزية بين قانون الاصلاح الاعظم فى ١٨٣٢ . والضيق الاعظم الذى كابدته انجلترا فى ١٨٨٠ ولـكنها بطبيعــة الحال بعيدة كل البعد عن النظرة العلمية او شبه العلمية للمجتمع التى اخذها الطهطاوى عن الراديكاليين الاوربيين الذين أقاموا فلسفتهم على مناقشة « اساس القيمة » فى الانتــاج من حيث علاقة رأس المال والعمل فى انتــاج السلعة . ومع ذلك فلا يسعنا الا أن ننوه بأن الشدياق فى « الساق على الساق » وفى « كشف المخبا » ثار ثورة

واضحة على الليبرالية المطلقة وعلى مذهب حرية التجارة مستهديا مبادىء المدرسة الاشتراكية المسيحية (راجع المناظرة بين « السوقيين والخرجيين » فى « الساق على الساق »)

ومن المواضع التى يتهكم فيها الشدياق على مذهب حرية التجارة قوله بعد أن يعدد حوادث دس السم التي التي شاعت فى زمنه فى انجلترا ويتحدث عن خطر اباحة تداول السموم :

« ومن العجيب حقا ان مجلس المشورة بلندرة أصدر امرا بعدم اذى الحيوان غير الناطق وبتاديب من يرتكب ذلك أو تغريمه وبلغ الذين اذوا الحيوانات فى العام الماضى اربعمائة واربعة وستون شخصا وبلغت غرامتهم نحو خمسمائة وأربعة وسبعين ليرة وأرسل منهم عشرة أنفار الى دار التأديب من دون أن تقبل منهم غرامة . ورؤى مرة رجل من نبلاء الفرنساوية يغرى كلبه بمطاردة هرة فغرمه الحاكم عشرين شلنا . ومع ذلك فلم يهمه حظر بيع السم منعا لهذا الشر المتفاقم على الحيوان الناطق . وأن الولد اذا اخذ حاجة ليرهنها وهو دون البلوغ أو دون خمس عشرة سنة لا يقبلها منه المرتهن واذا ذهب الى دوائي ليشترى سما أو مسبتا باعه . على أن بيع السم فى مالطة وفرنسا محظور على اى كان الا باذن من الطبيب فكأن العجماوات انفع للدولة من بنى آدم . وما أدرى لذلك سببا سوى هذا الاصل الفاسد الذى يعبرون عنه بقولهم حرية المتجر او كما قيل لزوم السم للفلاحين فى قتل الهوام كما مر ذكره . الا أن مراعاة الجانب الاقوى فى الامر الذى يكون منه مفسدة ومصلحة الزم واهم . وهذه الحرية فى المتجر هى التى سهلت للناس أن يفشوا

كل شيء من المأكول والمشروب وكل ما يصبح فيه البيع والشراء كما سيأتي بيانه . حتى أن صاحب الذوق السليم يؤثر المقام في بلاد الهمج بحيث يذوق شيئا مما تنبته الارض على حاله على أن يمكث بين قوم يعلمون عدد نجوم السماء ورمل البحر وهم مع ذلك يأكلون ما يضر البهائم فضلا عن البشر . وكل شيء جاوز القدر اضر » .
(« كشف المخبا » ص ١٣٩ — ١٤٠)

فالشدياق اذن يوافق على الحرية ولا يوافق على الاسراف فيها . بل اننا نقف احيانا عند بعض ملاحظات الشدياق فنخلص منها بان ايمانه بالديمقراطية كان مشوبا بكثير من التحفظات التي تدخل في باب الرجعية .

فهو مثلا لا يؤمن بديمقراطية التعليم بل ويدعو الى الاحتياط منها لانها عامل من عوامل عدم الاستقرار السياسي . وهو يقول في « كشف المخبا » (ص ١٤٧ — ١٤٨) :

« وانا أختم هذا الاقرار بان اقول ان عامة الانجليز بالنسبة الى عامة فرنسا في معزل عن المعارف والادب . وكما أن جزيرتهم منقطعة عن جميع بلاد أوربا كذلك هم انقطعوا عن اخلاق أولئك . واقول في الجملة أنه مهما يظن أن دول الافرنج تبغي تعميم المعارف لدى جميع رعاياها فليس هذا الظن سديدا اذ ليس من نفع الدولة والكنيسة أن تكون العامة متكيسة ولا سيما عامة فرنسا فان معارفهم سبب الى انكار فضل الدولة عليهم » . فهو اذن ممن كانوا يخشون تحركات الجماهير والقلق الاجتماعي نتيجة لتعميم العلم والثقافة ، وفي الموازنة بين النظامين الانجليزي والفرنسي ، نراه يؤثر النظام الانجليزي القائم على تقييد التعليم على النظام الفرنسي

القائم على اطلاقه . وقد سبق أن رأينا اعجاب الشدياق بالاستقرار السياسي في انجلترا الحاصل من انصراف كل انجليزى الى عمله وانصرافه عن الاشتغال بسياسة الدولة ، كما رأينا مهاجمة الشدياق لكثرة الثورات السياسية في فرنسا ، وهي حاصلة في نظره من مبالغة الفرنسيين في الاهتمام بالسياسة . ومعروف أن هذا الموقف من ديمقراطية التعليم متمش مع فلسفة الاشتراكية المسيحية التي تعارض الاتجاهات الثورية في الاصلاح وتعارض تجاسر الطبقات الشعبية على الحكومات أو نظم الحكم باثارة الفتن والقلاقل

وكل من يعرف شيئا عن تاريخ انجلترا يعرف الدور التخريبي الذى قام به الاشتراكيون المسيحيون لاحباط حركة الميثاق والزحف العمالي الكبير على لندن في ١٨٤٨ ، اعتمادا على دعوتهم القائلة بأن الصراع الطبقي ليس وسيلة العدالة الاجتماعية أو التقريب بين البشر ، ولكن بث الفضائل الدينية في نفوس الاغنياء والفقراء على السواء

وقد تبلور هذا الموقف الاشتراكي المسيحي عند الشدياق في جملة معتقدات تؤكد روابطه بهذه المدرسة السياسية . فهو في « كشف المخبا » (ص ١٥٥ ــ ١٥٦) يحمد للانجليز سعيهم وايمانهم بالعمل وبالاعتماد على النفس ، ولكنه ينعى عليهم الاسراف في هذا الايمان الى درجة مخلة بالايمان الديني . فمعروف أن الحضارة البورجوازية الاوروبية في القرن التاسع عشر ولا سيما في أوجها الليبرالي ، كانت تقوم على مبدأين يعدان دعامتي الاخلاق البورجوازية الفردية ، وهما نظرية « الواجب » ونظرية « الاعتماد على النفس » بلغة الشدياق أو

self-help كمــــا كان يقول الانجليز ، وهى أعم من الاعتماد على النفس كما نفهم من كتاب ساموبل سمايلز الشهير فى هذا الموضوع اذ هى تشمل تنازع البقاء وبقاء الاصلح وكل ما يصور الحياة على أنها غابة تتصارع فيها وحوش بشرية فلا يبقى فيها الا أجدرها بالحياة أو على الاصح أقدرها على الحياة ، أو بلغــــة الشاعر العظيم تنيسون هى « الطبيعة حمراء الناب والمخلب » . وفى مثل هذه الفلسفة يعد النجاح فضيلة والفشل رذيلة كما يعد الغنى تعبيرا طبيعيا عن الفضائل ويعد الفقر تعبيرا طبيعيا من الرذائل ، وهو ما يظهر الفقير فى مظهر الجانى لا المجنى عليه اجتماعيا واقتصاديا . وطبيعى ان الفلسفة الاشتراكية المسيحية القائمة على الاصلاحية بالتـكافل الاخوى بين بنى الانسان مع التسليم بما رسمته ارادة الله من فوارق بين الافراد والطبقات ومن درجات فى السلم الاجتماعى ، كانت تعد هذا الايمان المطلق بسلامة حياة الفطرة ، وسائل وأهدافا ، فلسفة وحشية ضارية تجافى تعاليم الدين القائمة على التعاطف والتواصل بين البشر لا على التنافس والتقاتل . بل كانت تعد هذه الفردية المطلقة لونا من الزندقة يتضمن اعتماد الانسان الكلى على نفسه من دون الاعتماد على مشيئة الله . وفى هذا يقول الشدياق :

« اتخال أن التمدن معناه أن يكون الناس فى مدينة وفيها ذئاب وسباع . كلا ثم كلا . غير أن اجتماع الخروف والذئب فى مرعى واحد ليوجب على اليهود أن يؤمنوا بمجىء المسيح . ومن ذلك تنشيط أولادهم الى الاشتغال وتمرينهم على ما يكسبهم واياهم الرزق الكافى والمواظبة على الاعمال والصبر على ما يتعاطونه جل أو حقر . فانهم

(يقصد الانجليز) لا يملون من السعى ولا يرون فى الكسل راحة ولا يقول احدهم انى كبرت ما دامت فيهم نسمة تتحرك . ومع كل هذا التجلد والتحمل فمتى ضيم احدهم أو سقط شرفه فأهون شيء عليه نحر عنقه وذلك عندى بعض الافعال المتناقضة فى الطبع البشرى

« وجل سعيهم فى شبابهم هو لتحصيل ما يهنئهم فى شيخوختهم حتى يمكن لهم تربية أولادهم فلا يحتاجوا الى التكفف أو الى ملازمة المستشفيات والملاجيء المعدة للعاجزين ..

« غير أن حب التناهى غلط فان تعليق العبد توفيقه بالكلية على سعيه وكده لا يخلو من ازراء المولى . وفيه وجه آخر تفسية للقلب فان الانسان والحالة هذه يهون عليه أن يفارق وطنه وسكنه لاجل المال .. الخ »
(« كشف المخبا » ص ١٥٥ – ١٥٦)

فالشدياق اذن على غرار الاشتراكيين المسيحيين يرفض أن تكون الحياة الانسانية أو الاجتماعية مرتعا للذئاب والضياع والسباع ، كما يرفض أن يبلغ ايمان الفرد بنفسه المدى الذى يخرج ارادة الانسان على ارادة الله

ومن أسس الاشتراكية المسيحية التى نجدها فى الشدياق واضحة تتخلل كل أعماله حملته على الكهنوت من ناحية وعلى البذخ الذى يعيش فيه رجال الدين من ناحية أخرى . فهو فى مجال الحديث عن كاتدرائية سانت بول وكانتربرى وعمارتهما الباذخة ، يتطرق الى الحديث عن مرتبات رجال الدين وعما يحيط بهم من مظاهر الفخفخة والهيلمان فيقول :

« وفى لندرة كنائس كثيرة منها ثلث عشرة كنيسة يبلغ

مصروفها فى السنة أكثر من عشرين ألفا وايراد رئيس أساقفة كنتربورى فى السنة خمس وعشرون ألف ليرة (يقصد جنيها استرلينيا) وايراد رئيس أســاقفة يورك خمسة عشر ألفا وليس لمطران باريس من الايراد ثلث ما لأسقف لندرة وجملة ما يصرف على الكنائس نحــو ٥٠٠,٠٠٠٠ ليرة وايراد أسقف لندرة فى الســنة خمسة عشر ألف ليرة ولكن خليفته لا يكون له الا عشرة آلاف فقط وايراد باقى الاساقفة من أربعة الاف ليرة فصاعدا فهــم بمثابة وزراء الدولة فان سنوية أول لورد فى ديوان الوزارة البحرية أربعة آلاف وخمســمائة ليرة . ثم انه كما أن هؤلاء الرعاة المتبتلين الى الله تعالى ماثلوا الوزراء والامراء فى أخذ الارزاق والوظائف كذلك ماثلوهم فى الرفعــة والشأن والانفراد عن الرعية فان مواجهة (يقصــد مقابلة) رئيس أساقفة الانجليز أصعب من مواجهــة البرنس البرت زوج الملكة . وقد اضطررت مرة أن أكتب اليه فى أمر ما فورد الجواب منه فى رقعة قدر نصف الكف وكان خطابه بضمير الغائب ونفى فيه ما لم يكن محله النفى احترازا من أن اكلفه بخطاب آخر ولكن اى لوم عليه اذا لم يجاوب أحدا لان رئيس الكنيسة الذى ايراده خمسة وعشرون ألف ليرة فى السنة ليس عليه ان يجاوب من ليس له صلدى واحد من كل ليرة تدخــل خزائنه الرسولية وقد كان الخورى ميخائيل شاهيات حضر الى هذا الطرف وكتب ثلث رسائل احداها الى البرت والثانية الى اللورد بلمرسطون والثالثة الى المطران المشار اليه فجاءه الجواب من الاولين ومن الاخير لم يرد سلب ولا ايجاب واقسم لو أن يهوديا غنيا من امستردام وفد اليه فى عاجلة ورواء لاحتفل به واكرمه غاية الاكرام

ولكن ليت شعري ما معنى كلام ماربولس بقوله : أما الذين يرومون الغنى فانهم يقعون فى المحنة والفخ وفى شهوات كثيرة سفيهة ضـــارة تفرق الناس فى العطب والهلاك لان حب المال أصل كل شر وهو الذى اشـــتهاه قوم فضلوا عن الايمان وطعنوا أنفسهم برزايا كثيرة فأما أنت يا رجل الله فاهرب من هذه الاشـــياء واقتف البر والتقوى والايمان والمحبة الخ . وبقوله : ومن حيث أن لنا القوت والكسوة فلنقتنع بهما . وبقوله : أما التقوى مع القناعة فهى مكسب عظيم . ا هـ . ورب معترض هنا يقـول ان الكنيسة الآن ليست كالكنيسة فى مبـدأ النصرانية اذ لم يكن للنصارى وقتئذ دولة ولا سطوة فأما الآن فان عزها يرجع الى عز الدولة وان رئيس الاساقفة الآن يلزمه أن يكون من اهل مجلس المشورة (يقصد عضوا فى البرلمان أو فى مجلس اللوردات على وجه التحـديد) وأن يزور الوزراء ويكون مزورا منهـــم وأن يصـــنع مآدب للاشراف ويتكلف نفقات كثيرة فلا بد له والحـالة هذه من رزق وافر يجرى عليه ومن صرح وعاجلة وخدم وأوانى فضة ونفيس أثاث . قلت اذا كان الأسقف تزوره أرباب الدولة وتدعوه الى الولائم مع اقتصـــاد حاله أو بالحرى مع تقشفه كان ذلك أدعى الى كرامته وتعظيمه فاما تكلفه للنفقات والولائم وغير ذلك فانه شاغل له عن اداء ما يجب عليه من تعهد الرعية وتفقد احوالهم وهذا هو أصل معنى الأسقف فان قيل ان أمور الكنيسة الان قد استتبت وانتظمت فلم يبق حاجة الى تكليف الاسقف أو رئيس الاساقفة بالنظر فيها والتعهد لها قلت اذن هو اقرار على أنفسهم بعدم لزومهم على انى لا اتعرض لمثل هذه المسائل فان لكل كنيسة اساقفة ومطارنة وحيث

أن مار بولس قد ذكر اسم الاسقف فلا بد من وجود مسماه ولكني أرى شيئا على من يعير غيره شيئا وهو متلبس به فان الانجليز ينسبون الكنائس الشرقية الى العظمة والتبذخ والسرف والشطط مع أن رؤية بطاركة انطاكية ممكنة لكل أحد ولا يخفى أن انطاكية فى الدين أشرف من لندرة » . (« كشف المخبا » ، ص ٣٤٣ — ٣٤٥)

وقد أطلت فى الاستشهاد بآراء الشدياق فيما ينبغى أن يكون عليه الدين ورجاله لان هذا جزء لا يتجزأ من الدعوة الاشتراكية المسيحية التي انتشرت فى الطبقات البورجوازية الصغيرة الانجليزية ، ولا سيما طبقة الأسطوات من ارباب الحرف (طبقة الارتيزان) بين ١٨٤٠ و ١٨٥٠ وكانت من أهم عوامل انحراف الطبقة العاملة الانجليزية فى هذه الفترة الحرجة التى بدأت فيها الراديكالية من ناحية والاشتراكية العلمية من ناحية أخرى تتبلوران . وكان أهم آثار الاشتراكية المسيحية فى انجلترا أنها دقت اسفينا عميقا بين طبقة الاسطوات (أرباب الحرف) وبين البروليتاريا الصناعية الجديدة وأنها سلمت قيادة البروليتاريا الصناعية لطبقةالاسطوات فنشروا من حولها ضباب مثالياتهم وروحانيتهم بما حال دون رؤيتها علاقات الانتاج والتوزيع فى المجتمع الصناعى الآلى رؤية واضحة . وقد كانت هذه الدعوة الاشتراكية المسيحية تهاجم الكنيسة كوجه من وجوه « المؤسسة » أى « المؤسسة الاجتماعية » أو ما يسميه الانجليز Establishment وهو مجموع الاجهزة والقوى الاجتماعية مادية كانت أو روحية تاريخية كانت أو راهنة تتركز فيها القوة المحافظة المعادية للتطور والتغيير فى

المجتمع والتى تستهدف الاستقرار الاجتماعى وتتوسل اليه بكل الوسائل الممكنة . وكان جوهر الدعوة الاشتراكية المسيحية هو أن الكنيسة كوجه من وجوه « المؤسسة الاجتماعية » أو « الاساس الاجتماعى » أن آثرت هذا التعبير ، قد خرجت عن غايات المسيحية الاولى ووسائلها باسرافها فى الدنيوية . وكان المثل الاعلى الذى سعت الاشتراكية المسيحية لاحيائه هو ما يسمى « المسيحية الفطرية » Primitive Christianity أى المسيحية فى عصرها الذهبى أيام نقائها الاول قبل ظهور « الكنيسة » فيها ، اى قبل تحولها من عقيدة الى تنظيم أو منظمة ، أو قبل استفحال الكنيسة فيها على أقل تقدير . وكانت الحجة الاولى فى الدعوة الاشتراكية المسيحية هى أن المسيح كان نموذجا للبساطة ، وان صحابته لم يكونوا من الاشراف أو من السراة أو الفلاسفة بل كانوا جماعة من الصيادين والنجارين وبسطاء الناس بوجه عام ، وأن حياة الرسل كانت آية فى البساطة . فظهور الكنيسة بصولتها الدنيوية وبذخها الدنيوى كان انحرافا بالمسيحية عن بساطتها الاولى وطمسا للمبادىء « الاشتراكية » التى قامت عليها ، حيث الاشتراكية ليست مجرد تقارب مادى بين البشر ولكن تقارب روحى أولا وقبل كل شىء ينتج عنه التقارب المادى . وقد تأثرت كتابات فارس الشدياق بهذه المدرسة كما يتجلى من عدائه لاى مظهر من مظاهر البذخ يحيا فيه رجال الدين ، ومن عدائه للكهنوت بوجه عام ، ولكنه لم يمض فى النظرية الاشتراكية المسيحية الى آخر الطريق ، بل اكتفى منها بخطوطها العامة وعبر عنها بقوة والتهاب . فكانت هذه أول مرة يلقح فيها الفكر العربى بالافكار الآساسية فى

الاشتراكية المسيحية دون رفع لشعار او استعمال للافتة . وقد كان لانتقال هذه المبادىء الى الفكر العربى فى كتابات الشدياق أهمية قصوى ، لانها كانت مصدرا من أهم المصادر التى نبعت منها الاشتراكية الاسلامية التى ارتكزت دعوتها الاساسية على فكرة تجديد شباب المجتمع بتجديد شباب الاسلام من خلال احياء عصره الذهبى ، أيام نقائه الاول ، فى عهد الخلفاء الراشدين ، اى قبل ظهور الخلافة كمنظمة دنيوية أيام العباسيين وقد ظهرت بدايات هذا الاتجاه فى دعوة الشيخ جمال الدين الافغانى ، وفى دعوة الشيخ محمد عبده ، ولكن الفكرة الاشتراكية الاسلامية لم تتبلور ، فى العالم العربى الا فى القرن العشرين ، نظرا لاختلاف درجات التطور الاجتماعى والاقتصادى بيننا وبين اوربا ، فلم يظهر منها فى القرن التاسع عشر الا فكرة البعث الاسلامى وتجديد شباب الاسلام . وقد تبنت هذه الدعوة القيادات السلفية التى كانت يومئذ قوة ثورية ضخمة فى القرن التاسع عشر ، تتعاون دون وعى منها مع القوى التقدمية الزمنية على نسف معاقل المحافظين من أنصار « الوضع الراهن » ، أى الخلافة العثمانية وركائزها الفاسدة المتآكلة فى مختلف أرجاء الامبراطورية العثمانية

والحقيقة أنه من التعسف التاريخى ان نلتمس فى الشدياق او فى غير الشدياق اكثر من بذور هذه الدعوة ، بسبب اختلاف طبيعة المجتمعات وبسبب قلة النضج السياسى واختلاط القيم فى أذهان مفكرى العالم العربى ابان القرن التاسع عشر . فالشدياق مثلا رغم تنديده الشديد بصلف الطبقات الحاكمة ، ولا سيما فى انجلترا ، لا يجد مانعا من أن يتسول بشعره من نابليون الثالث

بعد اعلانه امبراطورا على فرنسا ، على طريقة المتنبي وشعراء العربية عامة ممن اتخذوا من المدح والهجاء وسائل للتكسب من القبائل ومن بلاط الملوك والامراء ومن أعيان الدولة فهو يقول في «كشف المخبأ» (ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥)

« ثم انه فى خلال هذه الاوقات استقل السلطان المشار اليه بولاية الملك ولقب بالامبراطور فنزغني نازغ آخر من ـ وقال يمدح الامير ـ الىّ أن أهنئه بقصيدة وأقدمها على يد رئيس تراجمين بابه الكنت دكرانج الذى مر ذكره فلما فرغت منها و قرأتها عليه قال ليس من هذه الصفات التى نسبتها الى السلطان ما هو مختص به وحده فانه يصلح لان يخاطب به أى ملك كان وهى مع ذلك عويصة لا يمكن ترجمتها ولو قدمتها كما هى لما استحسن منها غير الخط والشكل فقط فلهذا أضربت عن تقديمها وشكرته على نصحه ولكنى لا اضرب عن قيدها هنا حتى ينتفخ بها بطن هذا الكتاب وهى هذه :

« للويس نابليون حق السؤدد والملك اذ هو فى المعالى أوحد »

الى آخر القصيدة التي بلغت واحدا وثلاثين بيتا من أردأ الشعر . ولم تكن هذه محاولة فريدةللتسول بالشعر فالشدياق كان يزاول هذه الحـــرفة مع باى تونس والباشوات الاتراك فى تركيا وفى غير تركيا على طريقـة بعض شعراء عصره وقد استمرت وظيفة الاديب العربى كمداح وهجاء وظيفة مشروعة حتى ثورة ١٩١٩ دون أن يجد فيهـــا احد حرجا ، ثم انتقلت نهائيـــا من الادباء الى الصحفيين . ولكن فى حالة فارس الشدياق بالذات ، باتصـــالاته المتعـــددة بالانجليز والأمريكيين والاتراك والفرنسيين والتونسيين والمصريين والسوريين واللبنانيين ، وبشخصيته الجامحة المعقدة التى اختلط فيها مترجم

التوراة والانجيل برجـل الملذات والبوهيميـة العنيفة واختلط فيها الجد بالهـزل واختلطت فيها الولاءات السياسية والروحية ، وبغموض وسائل تكسبه ، ينبغى أن نذكر أن سـلوكه السياسى لم يكن فوق مستوى الشبهات ، وأن هناك احتمالا أنه لم يكن يبيع شعره فحسب بل كان يبيع اتصالاته كجاسوس ربما لأكثر من مشتر . فهو يروى بنفسه هذه الحادثة ليدلل بها على لباقة الانجليز فى معاملة الناس وصراحة الفرنسيين التى تبلغ مبلغ « الجليطة » :

« ومنَ ذلك أنهم (يقصد الانجليز) لا يتشـبثون بأعقاب الاقاويل ولا يأتون النميمة والغيبة الا قليلا . فاذا سكن بينهم غريب وسمعوا عنه ما يكرهونه منه فلا ينقلون اليه ما سمعوا عنه بل لا يهمهم ماقيل فيه وانما يعاملونه بما يظهر لهم من حسن سيرته خلافا للفرنساوية فانهم مثلنا فى التعلق بقال وقيل . ولما كنت فىَ باريس اجتمعت مرة بالـكونت دكرانج رئيس تراجمين الديوان فصرت اتردد عليه لما كان عنده من البشـاشة بالغريب ولين الجانب وكان هو أيضا يتردد على اذا لزمه ترجمة أو انشاء رسالة بلغتنا . ولما كنت اكلمه ذات يوم فى مصلحة عرضت لى قال لى (انى يعجبنى حسن تصرفك فينـا ونزاهة نفسك وذلك مما يدعونى الى اجابة سـؤالك غير انى اكره منك خلة عرفت عنك فىَ بلدنا) قلت (ما هى حتى اتجنبها) قال (ان الناس يقولون انك قدمت الينا جاسوسا من طرف الانجليز فاذا كان ذلك حقا فلا يسعنى اسعافك بحاجتك) قلت (بودى لو كنت جاسوسا اذن ما كنت لأكلف أحدا بشىء فان جاسوس الانجليز يستغنى برزقه عن أن يتوصل بأحد الى نوال اربه) . ولا شك فىَ

ان الموماً اليه سمع عنى ذلك فان من طبع الفرنساوية ولا سيما شرطة الديوان أن يتجسسوا أحوال الغريب بينهم فاذا رأوا أنه يعيش بلا حرفة يتعاطاها حكموا بأنه اما أن يعيش برزقه أو بسبب آخر . وحيث كانوا يعلمون أني لم أكن أتعاطى حرفة ولست غنيا استنتجوا من هاتين المقدمتين أني جاسوس . ومثل ذلك لا يشغل به أحد من الانكليز باله فغاية ما يرومونه من الغريب هو أن يحسن تصرفه ويقضى دينه » (« كشف المخبأ » ، ص ١٤٩ — ١٥٠)

وواضح من كلام الشدياق أنه كان شائعا عنه وهو فى باريس أنه جاسوس للانجليز ، وواضح أيضا أن مصدر هذه الاشاعة لم يكن مجرد ثرثرة ولكن تقارير المخابرات الفرنسية : ومن المستبعد ان رجلا كالكونت دجرانج الذى كان يشغل منصبا رسميا كبيرا فى ديوان نابليون الثالث، يجسر على مواجهة الشدياق بهذه التهمة الا اذا كانت الشبهة قوية على أقل تقدير ، فاذا راعينا انتقال الشدياق الى تونس ثم الى استانبول نهـــائيا حيث الصراع كان سجالا بين المصالح الانجليزية والمصالح الفرنسية ، واذا راعينا اعتماده على الارساليات الانجليزية فى كسب عيشه — وحملته الشديدة فى « الجوائب » على عرابى وثورته ودفاعه عن الخـديو توفيق ممـا يتفق تماما مع خط السياسة الانجليزية يومئذ تعددت القرائن وقوى الاشتباه فى أن اعتناقه الاسلام كان جزءا من « عدة الشغل » . ولكن فى الوقت نفسه لا ينبغى أن نغفل أن شخصية الشدياق العنيفة القلقة المعقدة قد تكون وحدها مصدر كل هذه التقلبات والتصرفات المريبة

وأيا كان الامر فان الشدياق بوجه عام لا يخفى اعجابه

بالنظام الانجليزى ولا سيما منذ أن تبلورت أسسه الدستورية فى ثورة ١٦٨٨ ، وهو ينقل فى أعماله ، ولا سيما « فى كشف المخبا » ، كثيرا من الحقائق الهامة عن هذا النظام بين عدد لا يحصى من الاحصاءات الخاصة بكل قطاع من قطاعات الحياة ومن أهم مانقله اليمين الدستورية التى يحلفها ملك انجلترا فى حفلة تتويجه :

« والواجب على الملك يوم تتويجه أن يحلف على محافظة ثلثة أمور . الاول سياسته بحسب القوانين والاحكام . الثانى اجراء الحكم بالرحمة . والثالث اقراره مذهب الدولة وهو دين البروتستانط » (« كشف المخبا » ص ٣٦٢) ثم يمضي ليفصل اختصاصات التاج البريطانى كالموافقة على اعلان الحرب وعقد الصلح وحق العفو ومنح الرتب والنياشين وايفاد السفراء وقبول أوراق الاعتماد، وتنصيب كبار رجال الدين وتنصيب القضاة وتعيين العسكريين الخ ... كل ذلك من خلال وزرائه لان ملك انجلترا يملك ولا يحكم « ولهذا يقال ان الملك لا يخطىء » (« كشف المخبا » ص ٣٦٢) وهو يشرح نظام القضاء الانجليزى فى اسهاب (« كشف المخبا » ص ١٤٢ — ١٤٤) وهو يوازن فى اسهاب بين حكم القانون فى انجلترا والحكم الشخصى التعسفى الذى ألفه أبناء المشرق فى القرن التاسع عشر فيقول :

« ومن ذلك ان أصحاب المراتب عندهم لا يقبلون المصانعة والرشا من أحد لتنويل اربه وان علم من أحدهم انه ارتكب ذلك اقتص منه كما يقتص من السارق ولم ينفعه أن يؤدى الرشوة التى أخذها مضاعفة . ولكن يقابل ذلك من المدام أن المراتب هنا تعطى غالبا بالمحاباة والاستحباب لا بالاستحقاق فان الشريف اذا نوه بشخص

من معارفه أو أقاربه عند ذى امرة فلا بد أن تنفذ كلمته عنده . ولو أن شخصا متصفا بحسن الاخلاق والشيم ومتحليا بالعلم والفضل حاول أن ينال تلك الرتبة بنفسه لم يلتفت اليه . ويلحق بذلك أن النفر من العسكر لايمكن أن يرقى فى مرتبة الضابط وان أبدى من المهارة والبراعة ما يقصر عنه قائد الجيش فهو نفر منذ اكتتابه الى زمن خروجه من الخدمة أو الحياة لا يتعداها ولا تتعداه وبعد أن يقضى خمسا وعشرين سنة فى خدمته يعفى منها ويعين له نحو اربعة قروش فى كل يوم . فالرأس لا يزال رأسا . والامير أمير من يوم ينزل من ظهر أبيه الى أن يركب ظهر النعش ثم يدوم ذكره كذلك الى أبد الآبدين . فكان ترتيب اصناف الناس عندهم بمنزلة ترتيب أعضاء الجسد بمعنى أن لكل عضو خاصية فيه الخرف والفند والعور والصمم والدرد . والقدم لا تزال قدما وان هى أنجته وأنجت الجسم كله . وهذا التخصيص من وجه آخر سديد رشيد فان ناظر الامور الخارجية عندهم مثلا ليس له حق فى أن يدمق على ناظر الامور الداخلية فى شىء وناظر مجلس المشورة ليس له جدارة بأن يحكم على أحد الباعة بشىء من محراب صرحه وقس على ذلك . فأما فى بلادنا فان ناظر المدابغ جدير بأن ينظر فى جلود بنى آدم ويصبغها بلون الدرة أو السوط أو يسبر ما هى عليه من الطراوة والنعومة . والمحتسب (يقصد مأمور الضرئب) خليق بأن يزن أعمال العباد وأموالهم فى بيوتهم ويروز ما فى عياب صدورهم من الخواطر والافكار . وللحاكم أن يسقط حق المحق لحرف أسقطه فى الكلام . وللضابط أن يبيت الناس فى مضاجعهم وللشرطى أن يقبض على أى كان . ولضابط

العسكر أن يخترط سيفه على أى عنق سخت له . وللمطران أن يحرم أى شخص كان من رعيته حتى لا يعود لاحد من أقاربه وأهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته . والى من المشتكى وأين النصير . فياليت شعرى متى نصير نحن ولد آدم بشرا كهؤلاء البشر ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا . » (« كشف المخبأ » ص ١٥٤ ـ ١٥٥)

كل هذه كانت دروسا لتدريب أبناء العربية فى الفضائل المدنية . وواضح أن الشدياق مفتتون بالنظام الاجتماعى الانجليزى وبالسياسة الانجليزية ، ولا يجد ما يعترض فيه عليه الا الامتيازات الطبقية التى تتمتع بها الطبقة الحاكمة والارستقراطية بالذات ، وهو يرى أنها نافية لمبدأ تكافؤ الفرص ، وهو ركن من أهم أركان الديموقراطية . وهو شديد الحملة على غطرسة الطبقة الحاكمة الانجليزية ، وفى ذلك يقول : « وحيث قد ترفعت الكبراء من الانجليز عمن هم دونهم من أهل بلادهم وصار ذلك دأبا لهم وطبعا يرثه الولد عن والده والخلف عن سلفه جروا على ذلك ايضا مع الغرباء ما لم يتبين لهم أنهم نظراؤهم فى الهمة والمعالى . فمتى اعتقدوا ذلك منهم لم يأنفوا من معاشرتهم والحق يقال أنه لامناسبة بين علية الانجليز وسفلتهم بخلاف سائر الناس . فان الامير عندنا مثلا لا يفاضل الناس الا بأمارته لا بأخلاقه وآدابه ومعارفه فان جميع الناس فى ذلك متساوون غير أن عامة الانكليز لا خلاق لهم من ذلك رأسا . وأيضا فحيث كانت ألقاب الشرف عندهم قديمة وعزيزة كان لها عندهم اجلال وتعظيم يفوق الحد حتى أن اعظام اللقب هنا أكثر من اعظام الملقب به . » (« كشف المخبأ » ص ١٦٢) . باختصار أن الشدياق

يجد أن الارستقراطية الانجليزية لا تتعارض مع نزاهة الحكم ولكنها تتنافى مع تكافؤ الفرص ، وان كان يلاحظ أيضا ان الانجليز يحترمون اللقب لا حامله . وهو في هذا المجال يرى أن الفرنسيين أقرب منهم الى روح الديموقراطية حيث يقول : « أما الفرنساوية فهم يكرمون اللقب اذا كان يليق بالملقب ومن كان ذا معارف وصفات حميدة عندهم أغناه ذلك عن حلس الجلاء . ولا شك أن الفضل بغير جلاء خير من الجلاء فضل » (ص ١٦٣) . وقد سبق أن رأينا التفات الشدياق الى مرونة الارستقراطية الانجليزية في امتصاص الرأسمالية الجديدة ، أيا كانت مصادر ثروتها حيث بين أن المال في انجلترا هو الطلسم الذى يفتح كل الابواب ، وبه أمكن للارستقراطية القديمة أن تستوعب البورجوازية الكبيرة المحدثة النعمة وتشركها في امتيازات الطبقة الحاكمة ، وهو عكس ما حدث في فرنسا حيث تقوقعت الارستقراطية العريقة رغم عزلها عن الحياة العامة واشهار افلاسها الاجتماعى والمادى منذ الثورة الفرنسية ، متحصنة وراء نبالة الدم والارض ورفضت أن « تلوث » نفسها بدم العصاميين من البورجوازيين الكبار من أبناء الرأسمالية الجديدة ، وهو ما أدى الى تآكلها ثم انقراضها أو شلها كقوة اجتماعية فعالة تشارك مشاركة ايجابية في حكم فرنسا

وشرح الشدياق للتكوين الطبقى في انجلترا يؤيد هذه النظرية القائلة بأن الرأسمالية الانجليزية كانت تلعب دور القنطرة بين الارستقراطية والطبقات الشعبية . فهو يقول :

« فأقول ان هذا الجيل ينقسم الى خمس طبقات . الطبقة الاولى : كالامراء والوزراء والاشراف والنبلاء وذوى

المناصب السامية ويلحق بهم الاساقفة • الطبقة الثانية : الاعيان وهم الذين يعيشـــون من أرزاقهم وأملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة وليس لهم جلاء • الطبقة الثـالثة • العلماء والقضاة : والفقهاء ويلحق بهم القسيسون والتجار ذوو المراسلات • الطبقة الرابعة : التجار أصحاب الدكاكين والكتاب وهم الذين يحتاجون الى تحصـــيل معاشـــهم بالاحتراف والاصطراف ولكن من دون ابتذال ماء الوجه • الطبقة الخامسة : أهل الحرف والصـــنائع والعمـــلة والفلاحون وهم الجمهور الاكبر • فعادات أهل الطبقـــة الاولى مباينة بعض المباينة للثانية ولكن ليس بينها وبـــين الاخيرة مناسبة أصلا كما سيأتى

« وعادات أهل الطبقتين الثالثة والرابعة متســـاوية لا اختلاف فيها الا ما ندر • أما أهل الطبقة الثانية فان بهم من وجه نزوعا الى الاولى بالنظر الى العز والاستبداد ومن وجه آخر ينزعون الى الباقى بالنظر الى الجنسية والالفة • والغالب على جميع هذه الطبقات حب الوطن والمباهاة بمـا عندهم من الصنائع والاحكام والاذعان للقوانين التى بنيت عليها معـــاملات دولتهم ودواوينهم (« كشف المخبـــأ » ص ١١٥ ـ ١١٦)

فالطبقة الثانية ، طبقة « الاعيـــان » كمـا يســـميها الشدياق ، هى فى حقيقتها الطبقة الرأسمالية الكبيرة التى تعيش من الاستثمار دون حاجة آلى العمل سواء أكانت من البورجوازية المدنية أم من أعيان الريف التى يســـميها الانجليز Squirearchy وهـــذه الطبقة رغم ثرائها لا تملك « جلاء » وهو ترجمـــة الشـــدياق لكلمة distinction أى لا تملك ألقاب النبالة أو شيئا من امتيازات الارستقراطية •

ولما كان أبناء هذه الطبقة صاعدين من أصول وأعـــراق

شعبية ، فقد جعلهم هذا معلقين بين الارستقراطية بحكم التطلع الطبقى وبين الشعب بحكم منشئهم • وهـذه هى الطبقه التى حدثنا عنها الشدياق فقال انها بمالها تتغلغل فى الارستقراطية الانجليزية والتى حدثنا عنها المؤرخون الانجليز فقالوا أنها كانت عماد الحكم والاقتصاد البريطانى طوال الحكم الليبرالى فى القرن التاسع عشر ، والمانع الحقيقى بفضل توسطها ومرونتها من قيام الثورات فى انجلترا على غرار ما حدث فى فرنسا

أما الطبقات الشعبية « أهل الحرف والصنائع والعملة والفلاحون » ، ومنهم يتكون سواد الشعب ، فهـذا رأى الشدياق فيهم :

« فان هؤلاء النحل العسالة فى خلية الاجتماع الانسانى انما يعملون كما قال بعضهم لتسمين الزنابير البطالة • وهم أطوع خلق الله لاولياء أمورهم فلو نهوهم عن أن يناموا مع أزواجهم لانتهوا • ويمكن أن يقال أيضا أنهم لعدم اختلاطهم بغيرهم من الناس يحسبون أنفسهم وهم فى هذه الحالة أسعد خلق اللهوأن جميع رسومهم وأحوالهم مستغنية عن التبديل والتغيير • وكيف كان شقاءهم موجب لسعادة الدولة وفقرهم زائد فى غناها » (« كشف المخبأ » ص ١١٧)

وندرك من هذا على الفور أن الشدياق يعرض فى هذا وجهة نظر الاشتراكيين المسيحيين ويعرض معها ما كان يدور فى انجلترا فى زمنه من جدل حول وضع الطبقات العاملة الانجلبزية واستقرارها • فالفكرة الشائعة بين مفكرى الليبرالية أن الطبقات العاملة الانجليزية بطبعها مسالمة منصرفة الى عملها لا تراجع الطبقة الحاكمة فى سياسة البلاد أو فى تكوينها الاقتصادى « بخلاف أهل

فرنسا فان كلا منهم يتطفل على أولياء الامر » . وبهـــذا فسر مفكرو الرأسمالية أن كل مافى انجلترا من «العساكر» لم يكن يزيد على ٢٥٠٠٠ بينما كان عددهم فى فرنسا غفيرا بسبب الحاجة اليهم لحفظ الامن . هـــذا كان الرأى التقليدى بين التورى والهويج (المحافظين والاحرار) فى الفلاحين والعمال الانجليز . أما الشدياق فله رأى آخر يردده عن أقوال الاشتراكيين المسيحيين ، وهو أن حياة الضنك التى كان يحيا فيها العمال والفلاحون فى انجلترا كانت سببا آخر فى انصرافهم التام عن المشاركة فى الحياة العامة الى الانشغال بكسب كفاف يومهم ، أو بلغـــــة الشدياق :

« وأنا أقول أن لذلك سببا آخر وهو فقرهم المـــانع لهم من الاشتغال بغير مايكسبهم القوت الضرورى . » (ص ١١٧) . كذلك كان الشدياق يردد وجهـــة نظر الاشتراكيين المسيحيين فى قوله ان غنى الاغنياء من فقر الفقراء وان (الزنابير البطالة) تعيش من كد (النحل) .

فالاشتراكيون المسيحيون كانوا ملتفتين الى الاستغـــلال الاقتصادى البشع للطبقات العاملة فى ظل النظام الراسمالى الليبرالى ، وقد تقدموا لقيادة البروليتاريا ، ولكن حلولهم المثاليـــــة والروحانية كالتســـــلح الخلقى والعودة الى المبادىء المسيحية الاصيلة كقوة جامعة للطبقات مانعـــة للاستغلال ، انتهت باجهاض الحركة العمالية الانجليزية فى ١٨٤٨ وبعزلها عن تيارات الفكر العمالى فى القـــارة الاوروبية فيما بعد ذلك ، أو كانت من أسباب هذا الاجهاض وهذا العزل على أقل تقدير . واننـــا نحس ونحن نقرأ وصف الشدياق لحالة البطالة فى لندن او لمشكلة الاسكان الرهيبة فى أحياء الفقراء فيها او لانتشار البغاء بها اننا

نقرأ صفحات من « آلتون لوك » لتشارلز كنجزلى او بعض منشورات الاشتراكيين المسيحيين . (« المخبأ » ص ٣٦٧ ــ ٣٧٢)

ومن أهم صفحات فارس الشدياق تلك الصفحات التى تعرض فيها لتاريخ المطبعة والصحافة ولحالة الصحف الاوروبية والامريكية فى زمنه ، وانتهى فيها الى كلمته الرائعة عن المطبعة بقوله «وفى الحقيقة فان جميع مااخترع من الصنائع فى هذا العام هو دون صناعة الطبع . نعم ان الاقدمين بنوا أهراما ونصبوا أعلاما وشادوا هياكل وحصنوا معاقل وحفروا خلجانا وأقنية للماء ومهدوا مسالك للعساكر الا أن صنائعهم تلك بالنسبة الى صنعة الطبع ان هى الا درجة ترق فوق درجات الهمجية فانه بعد اشتهار الطبع لم يبق احتمال لاضاعة المعارف التى ذاعت وشاعت او لفقد الكتب كما كانت الحال حين كانت تكتب بالقلم وقل قيد ان المعرفة مقدرة فان المتصفين بالمعارف وهم الاقل هم الذين يتولون الامور ويؤسسون الجمهور وهم الاكثر . » (« كشف المخبأ » ص ٣٨٢) والشدياق لا يمل من ذكر المعلومات النافعة عن حالة الصحافة فى انجلترا وغيرها فيعرفنا انه فى زمنه بلغ عدد « الجرنالات » ٢٢٠ جرنالا ، وفى اسكتلندة ١١٠ وفى ارلندة ١٠٢ وان اول جريدة ظهرت فى اكسفورد عام ١٦٦٥ وأول جريدة فى فينيسيا ظهرت فى ١٦٢٠ وسميت (كازيتة) على اسم العملة التى تباع بها . وأول جريدة فى فرنسا ظهرت عام ١٦٣١ وفى المانيا عام ١٧١٥ وفى أمريكا عام ١٧١٩ وفى هولندا عام ١٧٣٢ وفى ايرلندا عام ١٧٦٧ ، وان عدد الجرائد والمجلات فى لندن اكثر من ١٦٠ وفى باريس ١٧٠ جريدة الى جانب المجلات ، وان فى أمريكا

٨٠٠ جريدة . ومنه نعلم ان الصحافة فى انجلترا كانت اوسع حرية من الصحافة فى فرنسا ، او هكذا كان رأى الشدياق أو رأى من كان يردد آراءهم ، ويستدل على ذلك بما كان يقرؤه فى الصحف الانجليزية من نقد لمسلك الملكة فكتوريا او من دعوة للاختلاط الجنسي خارج حدود الزواج . وهو أيضا يحدثنا عن بداية الرقابة فى انجلترا فى ١٦٣٧ ثم الغاؤها تماما عام ١٧٩٥ ، الى غير ذلك من الحقائق التاريخية والاحصائيات التى تهم كل مشتغل بتاريخ الصحافة (« كشف المخبأ » ص ٣٧٥ - ٣٨٣) .

هذه أهم الافكار السياسية والاجتماعية فى أدب فارس الشدياق ، وقد كان لها أثر كبير فى تلقيح الفكر العربى فى القرن التاسع عشر ، وهى وان يكن من الصعب تبويبها فى نظام فلسفي واحد ، الا أنه من الواضح أنها تنبع فى جوهرها من الفلسفة الاشتراكية المسيحية التى كانت سائدة فى انجلترا بين قانون الاصلاح الاعظم فى ١٨٣٢ وحركة الميثاق فى ١٨٤٨ . وقد كانت هذه الاصلاحية الدينية فلسفة سلفية رجعية استقرارية فى انجلترا لانها تصدت لقيادة الكفاح العمالى بعقلية البورجوازية الصغيرة وقدمت حلولا اخلاقية بحتة للتناقضات فى المجتمع الراسمالى واعتمدت على شعار واحد هو بعث الدين فى نقائه الاول لازالة استغلال الانسان للانسان استغلالا بشعا مع قبولها للاستغلال نفسه من حيث المبدأ ولطبقية الكيان الاجتماعى . ولكن هذه الفلسفة السلفية ذاتها ، اى فلسفة الرجوع الى السلف الصالح ، كانت فلسفة ثورية تقدمية فى العالم العربى ابان القرن التاسع عشر ، أو على الاصح كانت لها وجوهها الثورية والتقدمية على الاقل بالقياس الى فلسفة

المحافظين من مفكري الامبراطورية التركيـة الذين كانوا يدعون لتجميد الاوضاع على ما كانت عليه • فمثـلا في دعوة تحرير المرأة لعبت السلفية العربية دورا جزئيا ولكن فعالا في تحرير المرأة في العالم العربي باصرارهـا المستمر على ان الاسلام في عصره الذهبي أيام الرسـالة وأيام الخلفاء الراشدين كان يكفل للمرأة كافة حقوقهـا وحرياتها المشروعة ، وان المرأة المسلمة لم تسترق الا بعد فساد الدين عندما تحول الدين الى دولة زمنية ، فكذلك كانت الدعوة في المشرق العربي الى أن الاسلام في عصره الذهبي كفل حقوق الانسان المشروعة وان استرقاق المسلم للمسلم لم يظهر الا بعد تحول الخلافة الى سلطة زمنيـة امبراطورية تشتغل بالحكم أكثر مما تشتغل بتوطيد أركان الدين ، دعوة ثورية تقدمية بالنسبة لدعوى دعاة المحافظة والاستقرار داخل أرجاء الامبراطورية التركية • واذا كانت هذه الدعوة السلفية في العرف العلمي للمذاهب السياسة والاجتماع قوة تخلفية بالنسبة للدعوة الراديكاليـه ، بل وللدعوة الليبرالية ذاتها ، الا انها كانت بالمعنى الشامـل اشد منها فعالية واوسع أثرا لانهـا بذرت بذور القلق الاجتماعي والاحساس بضرورة التغيير بين الاغلبية الجاهلة التي لم تكن هناك وسيلة لتحريكها اجتماعيا الا من طريق تحليل القيم الدينية . اما الليبرالية والراديكاليـة من بعدها فقد اقتصر تأثيرها على الطبقات المثقفة في المقـام الاول . وقد كانت هذه النظرة ذاتها جزءا من برنامـج مدروس فالشدياق حين يهاجم الفلسفة العقلانيـة التي تفشت في فرنسا يقول :

« ومن ذلك انهم لا يزالون ينفرون عن الحقائق ويودون لو يعلمون كل أمر من فصه . وقد حذقوا كل علم وبرعوا

في كل فن ومع ذلك فقد غرب عنهم أهم الحقائق وهو ضرورة وجود الدين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرءوس ولو سلم لهم بأن الكيسي وأهل المعارف والآداب غنيون عنه بما فطروا عليه من حسن الاخلاق أو حسنوا به املاءهم من مطالعة الكتب لم يسلم بأن الرعاع الذين هم الجمهور الاعظم من كل البلاد غير مفتقرين الى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعل الخيرات ولولا ذلك لأكل القوى الضعيف . فان قلت كيف يأكله والحكم من ورائه قلت ليس فى كل الأمور يمكن استحضار الحكم أو الاستغاثة به • ألا ترى انه اذا اجتمع مثلا اثنان فى مكان خال وبطش القوى منهما بالضعيف أفيكون لصاحب الحكم عين باصرة أو أذن سامعه للقصاص • فكم من قضية جرت بين الناس وفاقت اجتهاد أهل السياسة والايالة • ولكن اذا كان الناس يستحضرون خالقهم فى السر والعلن ويخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم بذلك أعظم رادع ووازع • فاتصاف أمة بعدم الدين أعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها . »
(« كشف المخبأ » ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣)

وهذا المنطق الواضح القوى فى حجة الاشتراكيين المسيحيين هو فى نفس الوقت مصدر قوة الاشتراكية الدينية ومصدر ضعفها • هو مصدر قوتها لانها به تستطيع أن تخاطب الجماهير العريضة التى لم يتح لها أن تفتح قلبها وعقلها لفلسفة الفلاسفة ولعلم العلماء وتثير فيها عوامل القلق الاجتماعى وتغرس فيها الايمان بحقها فى حياة أفضل .. وهو مصدر ضعفها لأن نظرتها الى الدين لا تختلف فى قليل او كثير عن نظرة امام الرجعية السياسية الفيلسوف توماس هوبز صاحب « اللفياثان »

او « الوحش » ، الـذى كان يرى أن الدين هو مجـرد مانعة للصواعق الاجتماعية ، ويرى فى الكنيســـــة قوة اخرى من قوات الامن التى تستخـــدمها الدولة لحفظ الاستقرار الاجتماعى لا تختلف عن البوليس والجيش فى وظيفتها ولكنها افعل منها أثرا وأوسع مدى وربما أقــل تكلفة لانها تقيم على كل انسان شرطيا ملازما له من داخله.
وهذه النظرة اللااخلاقيــــة للدين هى التى جعلت من الاشتراكية المسيحية فى القرن العشرين فلسفة سياسية تخلفية لا يرضى بها الدين ولا ترضى بها الدنيا، ولاتستطيع ان تثبت فى وجه العقائد الاجتماعية الجديدة القائمـــة على ادراك موضوعى لتكوين المجتمع البشرى ولطبيعـــة العلاقات الروحية والاقتصادية بين الانسان ونفسه وبين الانسان والانسان ، وبين الانسان والطبيعة ، وبين الانسان ومجهولات الوجود

الباب الرابع

المطبعة الأولى والجريدة الأولى

المطبعة الأولى والجريدة الأولى

من علامات الطريق الهامة فى تاريخ الفكر السياسى والاجتماعى الحديث بداية الصحافة المصرية الذى اقترن بتأسيس « الوقائع المصرية » وتطورها ، ذلك التطور الذى حل بها بفضل رفاعة الطهطاوى حين تولى رئاسة تحريرها بين ١٨٣٥ و ١٨٥٠.

وتاريخ الوقائع المصرية مقترن بانشاء أول مطبعة عربية هى المطبعة الاهلية فى القاهرة ايام الحملة الفرنسية فى ١٤ يناير ١٧٩٩ . وقد ظلت المهمة الاولى لهذه المطبعة طوال عهد الحملة طبع بيانات بونابرت ونداءاته وامراسيمه ، أو باختصار كانت هذه المطبعة اولا وقبل كل شيء اداة من ادوات الاستعمار الفرنسي الذى جلبها لتكون حلقة وصل بينه وبين الجمهور . وقد صدرت عن هذه المطبعة طائفة قليلة من الكتب منها « وصايا لقمان الحكيم » فى ١٢٠ صفحة من تاليف مدير المطبعة جان جوزيف مارسيل وكان ثمنه ٩٠ نصف فضة ، كما نشرت كتابا اخر لمارسيل عن قواعد اللغة العامية المصرية واستعمالها باللغتين العربية والفرنسية ، وكتبا من تاليف ديجنينت كبير أطباء الحملة ، منها كتاب عن الجدرى .. كذلك نشرت كتابا عن حروف الهجاء العربية والتركية والفرنسية وقد صدر عنها هذا الكتاب فى ١٧٩٨ وهى

لاتزال فى الاسكندرية ، وكانت تسمى هنالك « المطبعة الشرقية والفرنسية » ، ولم تحمل اسم المطبعة الاهلية الا بعد نقلها الى القاهرة ، وصدر ايضا عن هذه المطبعة وهى فى الاسكندرية كتاب آخر من تأليف مديرها مارسيل هو « تمارين للقراءة من الادب العربى » وهى منتخبات من الايات القرآنية . وصدر عن المطبعة الاهلية «مجموعة من المستندات الخاصة باجراء محاكمة سليمان الحلبى قاتل القائد العام كليبر » بالفرنسية والعربية والتركية كما ورد فى الجبرتى . ولكن واضح من كلام الجبرتى أن مهمتها الاولى كانت طبع بيانات الاحتلال الفرنسى وملصقاته التى كان الفرنسيون يلصقونها « فى مفارق الطرق ورءوس العطف وأبواب المساجد » او يوزعونها على الاعيان

وبعد انتهاء الحملة الفرنسية فى ١٨٠١ امر بونابرت بنقلها الى فرنسا وضمت الى المطبعة الاهلية بباريس تنفيذا لامر نابليون الى الجنرال برتييه وزير الحربية بذلك . وقد كتب برتييه الى الجنرال بليار فى ١٤ اكتوبر ١٨٠٣ بأن « جميع الالات والمخطوطات العربية والمكتبة وحروف المطبعة العربية ترسل الى باريس وتوضع فى وزارة الداخلية التى سأكلفها بتهيئة الظروف المناسبة لنقلها » وقد اورد الدكتور ابراهيم عبده عن بحث لكانيفيه فى مجلة المجمع المصرى لسنة ١٩٠٩ أن هذه المطبقة نقلت بالفعل الى فرنسا فأعيدت « الحروف العربية التى حملت من باريس وروما الى المطبعة الاهلية بباريس » وهذا ما ينقض قول الكونت فيليب دى طرازى فى كتابه « تاريخ الصحافة العربية » الصادر فى بيروت عام ١٩١٣ أن مطبعة بونابرت ظلت فى القاهرة حتى اشتراها محمد على

وجددها ووسعها وجعل منها نواة مطبعة بولاق . ومعنى هذا أن مصر ظلت جملة اعوام بلا مطبعة ، وهو دليل واضح على أن الاستعمار الفرنسي لم ينظر الى ادخال المطبعة فى مصر الا كأداة من أدوات الاستعمار لا تختلف فى قليل او كثير عن القوات العسكرية او التنظيمات المختلفة التى استحدثها فى البلاد . سواء تمكن الفرنسيون من نقل هذه المطبعة بالفعل ام لم يتمكنوا ، فان أوامر نابليون الصريحة فى حد ذاتها توضح خطط الاستعمار الفرنسى

وتاريخ دخول المطبعة الاولى مقترن بتاريخ ظهور الصحيفة الاولى فى مصر ، وهى جريدة لو كوريبه دى ليجبت (« بريد مصر ») التى كانت تصدر مرة كل خمسة أيام وتشتمل على أخبار مصر الداخلية سواء فى القاهرة أو فى الاقاليم او كما قال الجبرتى « لان القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية فى جميع دواوينهم وأماكن احكامهم » وكانت توزع على وحدات الجيش الفرنسى « فتجد اخبار الامس معلومة للجليل والحقير منهم » كما ذكر الجبرتى . وكانت هذه الجريدة الرسمية تنشر انباء حفلات الجيش وزيارات القائد العام لكبار المصريين الى جانب الوفيات والاعلانات وبعض الشعر والنثر . والى جانب هذه الجريدة أصدر بونابرت فى اول اكتوبر ١٧٩٨ مجلة ثقافية فرنسية باسم « لاديكاد ايجبسين » أو « العشرية المصرية » لنشر بحوث أعضاء المجمع العلمى المصرى فى الزراعة والتعليم والصحة العامة الخ .. وكانت هذه المجلة تصدر كل عشرة أيام ثم تحولت الى مجلة شهرية .. ثم اصدر الجنرال عبد الله مينو فى ٢٦ نوفمبر ١٨٠٠ مرسوما بانشاء جريدة اسمها « لافرنيسمان » (« التنبيه ») لم يتح لها الظهور لاضطراب

الامن والاحوال السياسية . والجديد فى هذه الجريدة هو أن مينو عين لها رئيس تحرير مصرى هو السيد اسماعيل الخشاب ووضعها تحت اشراف أعضاء الديوان أو الحكومة المصرية على ان تتناول اعمال السلطات الفرنسية وأعمال الحكومة المصرية وتحمل انباء أوربا وآسيا (١)

وفى اوائل عهد محمد على عادت البلاد اعواما الى نظام النسخ اليدوى لقوانين الدولة والاوامر الحكومية وكافة الاعمال البيروقراطية ، وكان بطء هذا النظام التقليدى المتوارث وعدم كفايته لمقتضيات الدولة الحديثة هو الحافز الاول لمحمد على لانشاء مطبعة بولاق عام ١٨٢٠ ثم انشاء الوقائع المصرية . وقد تنبه محمد على الى أهمية المطبعة كأداة فى يد الحاكم فأوفد فى ١٨١٥ مبعوثا اسمه نقولا مسابكى افندى البيروتى الى ميلانو لدراسة فن الطباعة وشراء الالات اللازمة فانقطع مسابكى افندى لهذه الدراسة أربع سنوات عاد بعدها ليؤسس مطبعة « صاحب السعادة » أو مطبعة الباشا فكانت عربية افرنجية،

أولا فى الترسانة ثم فى١٨٢٩ انتقلت المطبعة الى بولاق. ومن رأى الدكتور ابراهيم عبده أن لانشاء محمد على للمطبعة الاميرية صلة وثيقة باهتمامه بانشاء الجيش المصرى ، لنشر القوانين والتعليمات العسكرية ولطبع الكتب اللازمة لتعليم أفراد الجيش . وقد دعم رأيه هذا بالتوافق بين تاريخ تكوين الجيش المصرى وتاريخ انشاء مطبعة بولاق (المطبعة الاميرية) وبأن الكتب الاولى التى أخرجتها المطبعة كان أكثرها متصلا بالجيش . ومالبثت المطابع

---

(١) انظر ابراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨ – ١٩٤٢ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٢

أن تعددت حتى بلغت تسعا كان أهمها مطبعة المدفعية بطرة ، ومطبعة مدرسة الطب بأبوزعبل ، ومطبعة مدرسة الفرسان بالجيزة ، ومطبعة القلعة ، كما ورد فى الجزء الثالث من كتاب الرافعي عن « تاريخ الحركة القومية » . فان كان الامر كذلك فنظرة محمد على لانشــاء مطبعة بولاق وغيرها من المطابع لم تكن تختلف كثيرا عن نظرة بونابرت لانشاء المطبعة الاهلية ، أى مجرد وجه من وجوه العمليات العسكرية ومجرد أداة من أدوات الحكم

وتاريخ هذه الفترة هو تاريخ ميلاد الصحف المصرية الاولى ، وهى بالترتيب الزمنى :

١ ــ جرنال الخديوى فى ١٨٢٧
٢ ــ الوقائع المصرية فى ١٨٢٨
٣ ــ لومونيتور ايجيبسيان فى ١٨٣٣

اما جرنال الخديوى فكان يصدر بالتركية والعربية فى مطبعة القلعة ، مائة نسخة من كل عدد ، وكان يصــدر عن جهاز يسمى ديوان الخديو ، وهو أشبه شىء بمكتب رئيس الدولة ، وكان يتولاه موظف كبير يسمى « جرنال ناظرى » أى (ناظر التقارير اليومية)

وكان ديوان الخديوى المركزى هــذا يتلقى التقارير والاخبار من دواوين مماثلة من المدن الــــكبرى ، وكان يرأس هــذه الدواوين ناظران للتقارير احدهمــا جرنال ناظرى للوجه البحــرى وجرنال ناظرى للوجه القبلى ، وكان هــذان الناظران يواليان جرنال ناظرى القــاهرة بالتقارير والاخبار والبيانات تباعا كل فى حدود دائرته فينسق ديوان الجرنال العام ماكان يتلقاه من خلاصات

---

(١) انظر ابراهيم عبده : « تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحمــلة الفرنسية ١٧٩٨ ــ ١٨٠١ » .

أسبوعية ويعرضها على الوالى محمد على كما كان يقوم بالعملية العسكرية وهي ابلاغ قرارات الوالى في هـــذه الامور لكل من يخصه الامر . ولم يكن جرنال الخديو يقوم بمجرد عرض هذه التقارير والبيانات والاخبار على محمد على بل كان ينشرها بالمعنى الصحيح ، فقد كان هذا الجرنال يصدر عن ديوان الخديوى يوميا ويطبع منه مائة نســـخة توزع على كبـــار الموظفين وعلى مأمورى الاقاليم ، وكان هذا الجرنال اليومي يشتمل ، الى جانب الاخبار الرسمية على بعض قصص ألف ليلة لتســـهل قراءته ، فهو أشبه شيء بالجريدة الرسمية . ولكن تداول جرنال الخديوى ظل محدودا فى هذه الدائرة الحكومية كما ظل محدودا فى موضوعاته بهذه البيانات والقرارات الرسمية

ولم يكتف محمد على بجرنال الخديوى فاصدر أمره بانشاء « الوقائع المصرية » واعتبارها الجريدة الرسمية وقد صدر العدد الاول منها فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ وكتب الى المديرين ورؤساء الدواوين يطالبهم بعمل « خلاصة خصوصية عن الوقائع التي تحصل بالجهات وارسالها الى قلم الوقائع الذى صار انشاؤه بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٤٤ هجـرية لطبعها وتوزيعهـــا على الذوات الملكية والجهادية وتحصيل ماتقرر على ذلك من الرسوم » . وكان محمد على شـــديد الحرص على توزيع الوقائع المصرية على كبار رجال الدولة والمتعلمين وكل صـــاحب حيثية وتحصيل الاشتراكات منهم . وكان محمد على يتلقى خمس نسخ وابراهيم باشـــا يتلقى خمس نسخ وكبار الموظفين ثلاثا « جريا على أصول أوروبا » وكانت زوجة محمد على تتلقى نسختين من حصته من نسخ

الوقائع المصرية . وكانت هذه النسخ توزع بصفة هدايا على كبار رجال الدولة والعلماء . ورغبة فى تعميم نفعها وزعت الوقائع المصرية مجانا على الطلاب الا القادرين منهم على دفع اشتراكاتها . كذلك أكره محمد على سائر الموظفين والضباط على الاشتراك فى الوقائع المصرية ثم عدل عن نظام الاشتراكات الجبرية لمن تقل مرتباتهم عن الف قرش شهريا . ولم يعف محمد على موظفى الدولة من الاوروبيين من الاشتراك الاجبارى فى الوقائع المصرية رغم جهلهم بلغتيها التركية والعربية . وكانت قيمة الاشتراك ٧٧ قرشا و ١١ بارة (فضة) . وهناك مايثبت أن الحكومة كانت تستخدم الضغط والاحراج لتحصيل اشتراكات الوقائع المصرية من أعيان البلاد . باختصار كانت الوقائع المصرية جريدة يقرؤها كافة المتعلمين فى البلاد . وكانت هذه الجريدة تصدر باللغتين على عمودين تحرر بالتركية فى العمود الايمن مع الترجمة العربية فى العمود الايسر . وكانت تصدر بغير انتظام ، أحيانا ثلاث مرات فى الاسبوع وأحيانا أسبوعيا وأحيانا مرة كل أسبوعين أو ثلاثة ، كما تفاوت عدد صفحاتها فكان عادة اربع صفحات ولكنه بلغ ثمان وأربع وعشرين فى مناسبات معينة

وقد ذكرت افتتاحية العدد الاول الغرض من انشاء الوقائع المصرية وديوان الجرنال الذى كانت تصدر عنه ، فقالت الافتتاحية :

« ... ومن حيث ان الامور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقى انواع الصنايع التى باستعمالها يتأتى الرخاء والتيسير ، هى أسباب للحصول على الرفاهية وعلى الاجتناب مما ينتج منه الضرر والاذى

خصوصا فى مصر بل هى أساس نظام وتدبير راحة أهلها ففكر حضرة أفندينا ولى النعم فى ترتيب أحوال البــلاد وتمهيدها واعتدال أمور أهلها وتوطيــدها ، وفى نظام القرى والبلدان ورفاهية سكانها وراحتهم ووضع ديوان الجرنال قاصدا من وضعه ان ترد الامور الحادثة الناتج منهــا النفع والضرر الى الديوان المذكور وان ينتخب ويتنقح فيه منها مامنه ينتج النفع والافادة حتى اذا ظهر عند المأمورين نوعا النفــع والضرر ينتخب ما منه تصدر المنفعة ويجتنب عنه مامنه يحصل الضرر وهذه الارادة الصالحة الصادرة من حضرة سعادة ولى النعم وان كانت قد جرت فى ديوان الجرنال الى الآن الا انها لم تكن عمومية انما الآن فاراد ولى النعم ان الاخبار التى ترد الى الديوان المذكور تتنقح وينتخب منها ماهو مفيد وتنتشر عمــوما مع بعض الامور التى ترد من مجلس المذاكرة السامى والامور المنظور بها فى ديوان الخديوى والاخبار التى تأتى من أقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات أخرى .. »

بعبارة أخرى تقول الافتتاحية أن محمد على لم يجد جرنال الخديوى كافيا لأنه محصــــور فى دائرة ضيقة فقرر اصدار الوقائع المصرية لينتفع بها الجميع . والمنهج الذى اتبع هو تجميع الاخبار من مصر والسودان والحجاز وغيرها فى ديوان الجرنال ، وهو مقر الجريدة ، ونشر الصالح منها بعد « تنقيحه » مع نشر الموضوعات المعروضة على «مجلس المذاكرة السامى» وعلى «ديوان الخديوى» . وفى كل هذا كان المأمورون بمثابة مراسلى الصحيفة فى الاقاليم وقد اسند محمد على مهمة الاشراف على الوقائع المصرية الى ديوان المدارس وظل الامر كذلك حتى انتقلت

مسئولية تحريرها الى قلم الترجمة بمدرسة الالسن فى عهد ابراهيم . وكان اول رئيس للتحرير بها يشرف على القسم التركى سامى أفندى ثم درويش أحمد افندى الذى عين ناظراً للوقائع فى ١٨٣١ تحت اشراف سامى بك بعد ترقيته . أما القسم العربى فقد تولى امره من الفترة الاولى الخواجة نصر الله (نصرى) وكيل التحرير بمعاونة المصحح شهاب الدين اسماعيل والشيخ عبد الرحمن الصفتى . وظلت الوقائع المصرية تطبع فى بولاق حتى ١٨٣٣ ثم طبعت فى مطبعة القلعة حتى ١٨٤٥ ثم اعيد طبعها فى بولاق الى أواخر عهد سعيد . وقد لاحظ الدكتور ابراهيم عبده تغير الشعار المرسوم فى راس الصفحة الاولى بجوار العنوان فكان فى الأعداد الاولى يمثل أصيصا به شجرة قطن ولكن ابتداء من العدد ١٨ أصبح يصور الهرم ومن ورائه الشمس تشرق وشجرة نخيل . أما أهم ماكان ينشر فى الوقائع المصرية من موضوعات فى هذه الفترة فكان الاخبار المحلية ولاسيما مايتصل منها بالامن واخبار الحكومة وتمجيد مشروعات محمد على وأعماله وبعض ريبورتاجات عن الجرائم والحوادث الغريبة وأخبار الحكومة وشيء من الاخبار الاوروبية والوفيات الهامة . ومن الافتتاحيات الهامة افتتاحية تصف تخلف أهل السودان وتصفهم بأنهم « خالون من العلم والعمل عارون من معرفة النفع والضرر يضارعون الوحوش حالة (العدد ١٢ سنة ١٢٤٤ هـ) وتمجد محمد على لتمهيده المواصلات بين مصر والسودان وتعليمه السودانيين الحرف والصنايع . واهمية هذه الافتتاحية نابعة من أنها تتحدث عن سياسة مصر السودانية بوصفها سياسة تمدين وتحضير لا كقوة فتح

وغزو . كذلك تناولت بعض الافتتاحيات السياسية الدولية . وبهذا كانت الوقائع المصرية منذ انشائها جريدة بالمعنى الكامل للكلمة لا مجرد صحيفة رسمية تنشر قوانين الدولة وقرارات الحكومة

ومن المهم ان نذكر أن محمد على حين انشأ الوقائع المصرية واهتم بتوزيعها على أوسع نطاق ممكن انما فعل ذلك « جريا على أصول أوربا » . كذلك كان الامر عند تجديد الوقائع المصرية فى ١٨٤٢ استنادا الى قرار الوالى « فالجناب العالى ظل شديد الرغبة فى وضع خطةسديدة تضمن صدور الوقائع على الوجه الأكمل كما هى الحال فى صحافة الممالك الاخرى » كما جاء فى نص خطاب ديوان المدارس الى ديوان المعاونة بتاريخ ١١ يناير ١٨٤٢ ، فقد تألفت لجنة لدراسة الخطة الجديدة بتوجيه من الوالى ، وانتهت الى جملة قرارات هامة فى مقدمتها تدعيم الاخبار الخارجية والتوسع فى المواد المترجمة دون الاخلال بالأخبار المصرية كمادة أساسية ، والقاء رئاسة تحرير الوقائع المصرية الى رفاعة الطهطاوى وتحرير الوقائع المصرية اصلا باللغة العربية ثم ترجمتها الى التركية بعد أن كان العكس هو المتبع قبل ١٨٤٢ ، مع فصل الوقائع بعد أن كانت تابعة لناظر بولاق الذى أصبح فى التنظيم الجديد مكلفا بالترجمة التركية فقط ، وهذا بغير شك تطور خطير فى تاريخ الصحافة المصرية ، وأخيرا تعيين على لبيب أفندى مخبرا صحفيا لأول مرة ، يتنقل لجمع الاخبار من دواوين الحكومة اذا تأخر ورودها بالطريق الطبيعى . وقد كان محمد على منذ البداية شديد الاهتمام بالاطلاع على الصحافة الاوروبية ، وقد كتب مرة فى ١٨٢٨ منذرا الى الخواجة بوغوص فى شبرا

« ليكن بعلمك أنه يلزم أن ترسل الجرائد الواردة لنا من اوروبا .. ومن الآن فصاعدا اذا لم تصل واحدة منها فاعلم انك لاتستطيع الاعتذار مما وقع » . وهذا يدل على مدى ادراكه للدور الذى تؤديه الصحافة فى الدول المتقدمة . ولاشك أن تجارب بونابرت السابقة فى انشاء المطبعة واصدار الصحف فى مصر عمقت هذا الشعور باهمية المطبعة والصحافة معا فى البلاد

وقد انتظمت الوقائع المصرية بعد التنظيم الجديد فصدرت اسبوعيا كل يوم جمعة وحدد ثمن النسخة بقرش وحدد لها مكان تباع فيه وهو دار الطباعة ببولاق . وحددت الجريدة خطتها لقرائها « فتشتمل على الاخبار الملكية داخلية وخارجية صناعية وتجارية ، علمية وادبية » . وفى عهد رفاعة الطهطاوى اتخذت افتتاحيات الوقائع المصرية طابعا جديدا خطيرا ، فلم تعد مجرد دعاية للوالى وسياسته بل بدأت تتناول موضوعات قوامها الثقافة السياسية وتحليل نظم الحكم ، تحت اشراف رفاعة الطهطاوى ، وتحمل وجهة نظر واضحة . وترتب على هذا الاتجاه الجديد فى الوقائع المصرية من صحيفة خبر الى صحيفة رأى ان الوالى بدأينظر شزرا الى هذه الجريدة ويخشى اثرها ويحد من توزيعها

ومن الافتتاحيات الهامة التى اوردها الدكتور ابراهيم عبده افتتاحية العدد ٦٢٣ غرة ربيع آخر ١٢٥٨ هـ التى ظهرت بعنوان « تمهيد » وتناولت تحليل نظم الحكم المختلفة وبحثت فى سياسة الدول فقسمتها الى سياسة خارجية وسياسة داخلية : « وهذا مايسمى بالبوليتيقية والمتكلم فى شأن ذلك يقال له بولوتيقى . فما كان من الدول والملل يقال له بولوتيقة خارجية . وما كان من

دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتدبيرها يقال له بوليتيقة داخلية . والغالب ان الغازتات والوقائع هى التى تتكلم عن كل من البولوتيقة الداخلية والخارجية » . وبهذا نبه رفاعة الطهطاوى الناس لأول مرة بأن رسالة الصحافة ليست مجرد سرد أخبار ولكن مناقشة السياسة داخلية كانت أو خارجية ، ودعا الناس فى مقاله الى الاهتمام بمتابعة الصحف للتعرف على أحوال البلاد أسوة بما يفعله الاوروبيون . ثم ناقش رفاعة الطهطاوى نظم الحكم فقال انها « منقسمة الى أربع اقسام : ديمقراطية وارستقراطية ومونرخية ومختلطة اى مركبة » والمقال يشتمل على تفنيد لما يقوله الاجانب من استبداد ملوك الشرق وأمرائه وحكامه وفيه يقول الطهطاوى : « ظن من لامعرفة له أن مايفعله حكام الاسلام لا وجه له فى الشرع . وقل أن يقدم ملك اسلامى على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله » ولعله كان يرد بهذا على آراء مونتسكيو فى « روح القوانين »

وخطورة هذا الكلام ليست نابعة من جدته فى قاموس الفكر السياسى المصرى ، فدور رفاعة الطهطاوى فى التنوير السياسى ومناقشة نظم الحكم معروف منذ أن كتب « تخليص الابريز » فى ١٨٣٠ . وانما خطورته الحقيقية نابعة من انتقاله من مجال الكتاب المحدود التوزيع الذى يطلع عليه المثقفون الى الصحيفة التى توزع بالآلاف ويتداولها الناس فى كل مكان وبها يتكون مايسمى بالرأى العام ورغم أن ظاهر مقال الطهطاوى ينطوى على دفاع عن ملوك الشرق وأمرائه ، الا أن مجرد طرحه قضية استبداد الحكم على هذا المستوى الجماهيرى كان بمثابة لغم بثه تحت نظام الحكم القائم يومئذ فى مصر ثم

ان رفاعة الطهطاوى حين لم ينف الاستبداد تماما عن ملوك الشرق وحكامه بعبارة « وقل أن يقدم ملك اسلامى على مايخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله » انما كان يوحى لقرائه أن هذا الاستبداد ممكن الوقوع وربما واقع فعلا

ومما يدل على احســـــاس الحاكم بخطورة الوقائع المصرية فى تكوين الرأى العام فى مصر انه سرعان مااتخذت سلسلة من الاجـراءات الرجعية فى تنظيم الجـريدة ، فعادت اللغة التركية بعد ١٢٥٨ هـ كما كانت الى المكان الايمن من الجريدة واللغة العربية الى المكان الايسر ، دلالة على أن التركية هى اللغة الرسمية والعربية هى اللغة الثانوية ، واختفى منها الادب شعرا كان أو نثرا وأمر الوالى بعدم نشر « شىء يختص بالسياسة بل يجب انحصارها فى أخبار مايحفر من الترع ومايِنشـــــأ من الجسور والقناطر وفى أنباء العزل والنصب وكذلك أنباء السفن التى من الخارج » كذلك حدد عباس الاول مجال توزيع الوقائع المصرية فحصرها فى « الحائزين على رتبة فريق ورتبة ميرميران ورتبة ميرلوا ورتبة ميرالاى فقط » وبهذا حرم من قراءتها العلماء والطلاب واعيان المصريين وأوساط الموظفين بعد أن تبين للوالى عباس الاول أن الجريدة ترسل « لجماعة أمية وسفلة مثل حسن أغا وكيل الخراج وفيض الله أغا الطاهى وموسى اليهودى الآلاتى »

وفى خطاب عباس الاول الى مجلس الاحكام يقول :

« فلما رأيت ذلك خجلت من نفسى ورأيت أن ارسال الجريدة الى أمثال فيض الله أغا وحسن أغا من الامية والجهلة لايعرفون معنى الجريدة لاسيما موسى اليهودى

الالاتي . فقد عددت ارسال الجريدة لهم ذلا زائدا »

والمعنى الواضح من هذا ان عباس الاول وجد ان مجرد اعتراف الدولة بصغار الموظفين والطبقات الشعبية امتهانا لمقام الحاكم ، ولكن وراء هذا الموقف الخوف من شيوع الوعى السياسى العام بين الطبقات الشعبية

وبعد اضطراب شديد تمت محنة الوقائع المصرية بل ومطبعة بولاق نفسها فى أواخر عهد سعيد . وقد تعطلت المطبعة تماما عن العمل من يوليو ١٨٦١ الى اغسطس ١٨٦٢ ثم دبت فيها الحياة من جديد فى حدود طبع مايلزم الحكومة من كتب ودفاتر بأمر الوالى سعيد . بل ان سعيد أهدى مطبعة بولاق بكل مافيها هبة لأحد موظفيه وهو عبد الرحمن بك رشدى مدير الوابورات الميرية فى البحر الاحمر ، وكتب الى المالية أن تحرر له حجة نقل الملكية « التى تلزم بامتلاكه العقار ليكون ذلك سببا لاتساع معاشه كما اقتضت ارادتنا » كذلك تعطلت الوقائع المصرية فترة فى اواخر عهد سعيد ، ولكن عبد الرحمن بك رشدى استمر فى اصدارها حين آلت اليه مطبعة بولاق « فى هيئة غير رسمية » باذن من الخديوى اسماعيل الذى تولى فى مستهل ١٨٦٣

وظل عبد الرحمن رشدى يصدرها بانتظام «لحسابه» كما جاء فى منشور الحكومة من فبراير ١٨٦٣ الى نوفمبر ١٨٦٥ ، وكانت قاصرة على نشر الاخبار الرسمية . ثم التفت اليها الخديوى اسماعيل فأمر فى ٢٢ نوفمبر ١٨٦٥ باعادة تنظيمها لتصدر كما كانت جريدة رسمية وعين أحمد خيرى بك مشرفا عليها والشيخ أحمد عبد الرحيم محررا عربيا لها ومعه نفر من المساعدين وتوسع فى الانفاق عليها

وفى ٢٨ اغسطس ١٨٦٨ فصل قلم الوقائع المصرية عن ديوان المدارس فاستقلت ادارتها ، وفى عهدها الجديد عادت الوقائع المصرية مع اهتمامها بأخبار الدولة الرسمية الى نشر الشعر والنثر وغرائب الاخبار والريبورتاجات كحوادث الانتحار بسبب الحب ونشر المواد الثقافية المترجمة ، وتوسعت بأمر شريف باشا فى نشر الاخبار الخارجية فقد وجهها أن « تنقل الحوادث الخارجية من الجرنالات الاورباوية المعتبرة ومن التلغرافات الواردة من أوروبا » الخ

وكان من اهم مهام الوقائع المصرية أيام الخديو اسماعيل التصدى للرد على جريدة « ايجبت » التى كانت تصدر فى الاسكندرية والرد على صحف أوروبا التى تهاجم سياسة اسماعيل وتصرفاته . كذلك اهتمت بنشر أخبار سباق الخيل وبدأت فى نشر الاعلانات التجارية مقابل اجور

فلما اسندت رئاسة تحرير الوقائع المصرية الى الشيخ محمد عبده فى ٩ أكتوبر ١٨٨٠ اقترن هذا بتحول خطير فى خطتها وفى تنظيمها فأخذت تصدر يوميا ما خلا يوم الجمعة ، بعد أن كانت تصدر مرتين فى الاسبوع واستقلت بمطبعتها الخاصة وتحولت الى صحيفة رأى . ولسنا هنا بسبيل كتابة تاريخ الوقائع المصرية أو بسبيل كتابة تاريخ الصحافة المصرية فنحن قد بلغنا فى هذه المرحلة عهد اسماعيل ، مرحلة تعددت فيها الصحف المصرية الصادرة بلغات متعددة بتشجيع من اسماعيل وبتطور البلاد حتى بلغت نحو أربعين صحيفة ومنذ ذلك العهد أصبحت الصحافة ركنا ركينا فى حياة البلاد العامة ، وانما الذى يهمنا هو ميلاد الصحافة المصرية كما تهمنا

ميلاد المطبعة المصرية نتيجة لاتصالنا الثقافى والسياسى بأوروبا . وقد لوحظ أن الفترة التي ضمرت فيها الوقائع المصرية والمطبعة معا هى فترة عزلة مصر عن أوروبا بعد نكسة معاهدة لندن فى ١٨٤٠ أى منذ أواخر حكم محمد على وطوال حكم ابراهيم وعباس الاول وسعيد ، حتى عادت للانتعاش فى عهد اســماعيل المعروف بتعميق الروابط بين مصر وأوروبا

فاذا عدنا الى عصر محمد على وجدنا ان هذا العصر عرف صحيفة ثالثة الى جانب جرنال الخديوى والوقائع المصرية ، وهى صحيفة « المونيتور اجيبسيان » الفرنسية التى كانت تصدر فى الاسكندرية فيما يبدو عن ناد ادبى انشأه بعض الاجانب المثقفين من سكان الاسكندرية فى عام ١٨٣٢ . وقد ذكر جون بورنج فى تقــرير له الى بالمرستون وزير خارجية انجلترا ان «المونيتور اجيبسيان» ظلت تصدر اسبوعيا من اغسطس ١٨٣٣ الى مارس ١٨٣٤ ثم توقفت عن الصدور ، وأن محمد على كان يعينها على الظهور وانها لم تكن عظيمة الانتشار . كذلك نستنتج من أقوال الرحالة سنجون أنها كانت تصــدر عن ذلك النادي الادبى الذى انشأه أجانب اسكندرية وأن محمد على كان وراءها لتكون لسان حاله

ويبدو أن هذه الصحيفة كانت تطبع فى مطبعة رأس التين ، وهى المطبعة الوحيدة التى كانت فى الاسكندرية يومئذ . ومحمــد على لم يؤسس المونيتور اجيبسيان وانما كان يعينها لتدافع عنه وعن سياسته ازاء حملات « المونيتور أوتومان » العثمانية التى كانت تشن عليه حربا شعواء بســبب خلافه مع الباب العالى . وقد اختفت هذه الصحيفة أربعين سنة حتى أعادها اسماعيل

الى الحياة فى ١٨٧٤ ، فظهرت المونيتور اجيبسيان من جديد لتدافع عن الخديو وسـياسته وتنشر قوانينه ولوائحه حتى اتخذت صورة جريدة شبه رسمية تقابل الوقائع المصرية ثم أصبحت بعد الاحتلال البريطانى جريدة رسمية بالمعنى الكامل ابتداء من ١٨٨٣ وتغير اسمها فى ١٨٨٤ فأصبح «جورنال أوفيسييل» «أى الجريدةالرسمية» وقد تطورت الوقائع المصرية والجرنال اوفيسـيل معا على الايام بعد استقرار الصحافةالمصرية واقتصرتا على مهمتهما الرسمية ، وهى نشر قوانين البلاد • وانتهى دورهما فى خدمة الفكر والادب والسياسة والنهضة الاجتماعية

فهرس

صفحة

الباب الاول : عبد الرحمن الجبرتى

الباب الثانى : رفاعة الطهطاوى

الباب الثالث : احمد فارس الشدياق

الباب الرابع : المطبعة الاولى والجريدة الاولى

كتب هلال صدرت منذ سنة ١٩٦٧

المسيح عيسى ابن مريم	: عبد الحميد جودة السحار
الظرفاء	: محمود السعدنى
العلم للمجتمع	: د . مصطفى عبد العزيز
ابليس	: عباس محمود العقاد
صور وظلال من حياة شـــوقى وحـــافظ	: طاهر الطناحى
الشرق والاسلام فى أدب جوته	: عبد الرحمن صدقى
شخصية مصر	: د . جمال حمدان
الادب الثورى عبر التاريخ	: محمد مفيد الشوباشى
ممنوع الهمس	: كامل زهيرى
دراسات النظم والمذاهب	: د . لويس عوض
اسرائيليات وما بعد العدوان	: احمد بهاء الدين
محمد رسول الحرية	: عبد الرحمن الشرقاوى
حياة المسيح	: عباس محمود العقاد
السعلوكى فى بلاد الافريكى	: محمود السعدنى
جيفـــارا	: جورج عزيز

استراتيجية الاستعمار والتحــــرير	: د . جمال حمدان
الاشتراكية والادب	: د . لويس عوض
اللــــــه	: عباس محمود العقاد
سلامة موسى المفكر والانسان	: محمود الشرقاوى
اصوات والحان عربية	: كمال النجمى
المرض والشفاء من الفراعنــة الى الآن	: د . مريد ينى
بصراحة غير مطلقة	: د . يوسف ادريس
الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى	: د . على الراعى
مطلع النور	: عباس محمود العقاد
ابن الرومى	: عباس محمود العقاد
تاريخ الفكر المصرى الحــــديث (١)	: د . لويس عوض
القـــــاهرة	: دبزموند ستيوارت

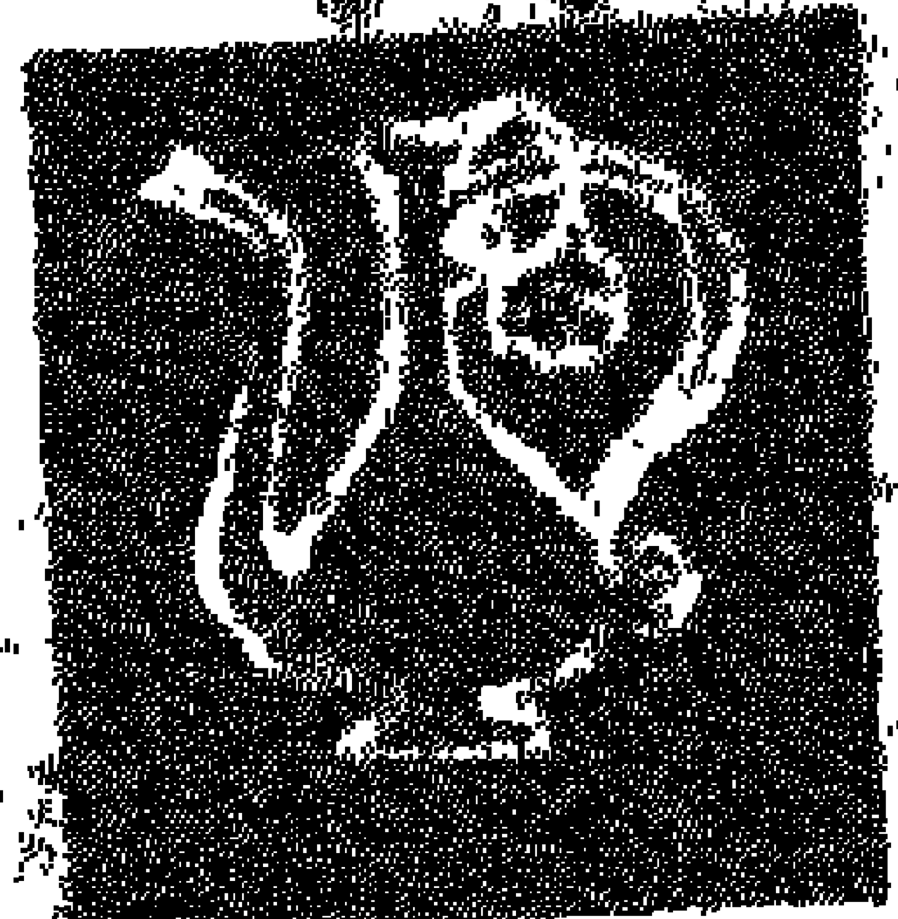
وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هذا الكتاب

هو الجزء الثاني من « تاريخ الفكر المصري الحديث » للأستاذ الدكتور لويس عوض ، وقد صدر الجزء الأول منه منذ شهرين في عدد فبراير من « كتاب الهلال » ، ويتناول الجزء الثاني تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي في مصر من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل .

وفي هذا الجزء يتناول الأستاذ الدكتور لويس عوض أعظم ثلاثة من قادة الفكر في ذلك العصر ، وهم عبد الرحمن الجبرتي ورفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق ، ويجيب على الأسئلة التالية : ماذا كان موقف الجبرتي من الحضارة الأوروبية التي حملها بونابرت إلى مصر في ١٧٩٨ ثم استوردها محمد علي من بعده ، وكيف وقف الجبرتي منبهرا أمام التقدم العلمي والتكنولوجي وأمام النظام القضائي الفرنسي من ناحية ، ووقف من ناحية أخرى متحجرا أمام [illegible] وأول حركة عملية لتحرير المرأة المصرية ؟ ثم كيف اهتز رفاعة الطهطاوي من أعماقه للحضارة الأوروبية أيام إقامته في باريس من ١٨٢٦ إلى ١٨٣٠ ، وكيف [illegible] خطر للحرية السياسية والاجتماعية وكافة ما اصطلح المفكرون على تسميته بالديمقراطية الليبرالية ؟ ثم كيف نما فكره مع الأيام من فكرة الحرية السياسية بمعناها الليبرالي المجرد إلى العدالة الاقتصادية للفلاحين والعمال ، فتحول من الليبرالية إلى الراديكالية ؟ وأخيرا كيف ثار فارس الشدياق على الكهنوت ودعا للاشتراكية الدينية ..

إن « تاريخ الفكر المصري الحديث » يصور مولد الدولة الحديثة في مصر خاصة وفي العالم العربي بوجه عام ، فهو يصور نشأة الفكرة القومية ونشأة الفكرة الديمقراطية ونشأة الفكرة الاشتراكية ، لا من حيث هي نظم سياسية واجتماعية فحسب ولكن من حيث هي مقولات فكرية وايديولوجيات نادى بها أولا صفوة المثقفين ، ثم اندلع لهيبها فأشعل قلوب الجماهير وأنار عقولها ، وأصبح التراث الوطني الذي يمتلكنا بأنه لا رجعة إلى العصور الوسطى أو إلى عزلتنا القديمة عن بقية أرجاء العالم المتحضر مهما تقلبت بنا صروف الدهر .

١٥ قرشا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

مطالعات فى الشئون الأفريقية

جمال محمد أحمد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢١٨ صفر ١٣٨٩ مايو ١٩٦٩

No. 218 - May 1969

مركز الادارة

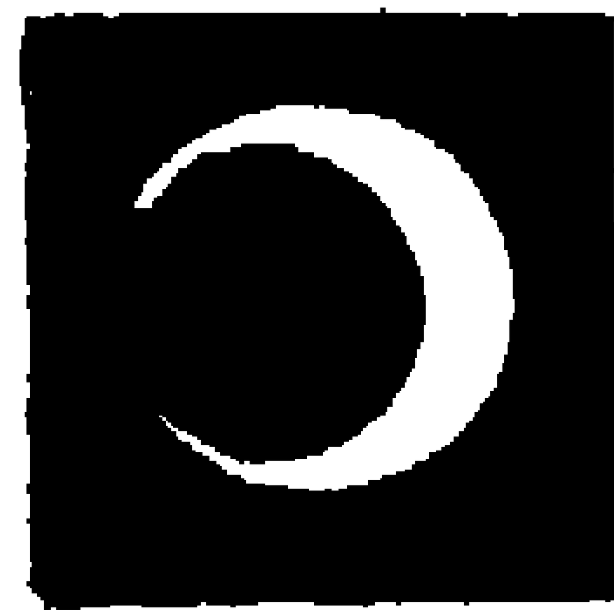
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ــ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ــ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج٠ع٠م) ــ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ــ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان حلمى التونى

جمال محمد أحمد

مطالعات
فى الشئون الأفريقية

دار الهلال

تقديم

هـــذه مطالعات فى الفكر الافريقى ، نشر بعضها فى حوليات عربية ، وقرىء بعضهـــا فى ندوات ، وانشرها كما كتبت حينها فى السنوات الاخيرة القليلة ، لترصد تلكم الفترة ، كما بدت آنذاك . وخوف أن يطـــول الـكتاب أبقيت أخوات لها تتمها لتنشر بعد حين ..

أسارع الى نشر هذه الفصول لأن بعضـــنا يضيق بأفريقيا هذه الايام . منطق هذا البعض ، هو أننا نقف مع قضايا الافريقيين العدة ، ونغالى فنجدع أنوفنا من اجلها أحيانا ، على النحو الذى فعلنا أيام ثارت أزمة روديســـــيا . أحجموا وأقدمت الدول العربيـــــة والاسلامية فى القارة وقطعت علائقها مع المملكة المتحدة . هم لايستجيبون لقضايانا ، وان استجاب بعضهم ، أتى على استحياء . منطق وواقع . من حقنا أن نعجب لمواقف الاكثرية الافريقية من قضـــايانا ، ولـكن ليس لنا ان نيأس من يوم قريب ، يكتشفون الآصرة بيننا وبينهم ، نراها نحن ولا يرونها هم ، الا خلال ضباب كثيف ، تصطنعه القوى القادرة على ما تريد ، وهى قوى بيننا وبينها تاريخ قلق مضـــطرب ، بدأ مع الصليبيين ، ويجدد مرارته ، ساسة اشـــقياء فى أوربا ومبشرون وكتاب . نخطىء انحسبنا ان الانسان الافريقى امتلك كل أمره ، ونخطىء أن نســـينا انه مع عجزه هذا يهم ولا يستطيع .. سمعت أو قرأت ولا ريب ، عن الدموع

التى جرت من محاجر ذلك الشـــاب الذى أخضـعته برقيات عاصمته التى يمثلها فى الامم المتحدة ، ليصوت مع باطل القوة ، ضد حقنــا الذى ابرق به لعاصمته مرات .. يعيش الانســـان الافريقى أزمات عريضة ، ويسير نحو غيرها ، ويعرف اننا بضع من بعض ، طلاب مرة ياباها الانانيون من اوربا وأمريكا ، ويرثيها أهل البصر منهم والبيان ، أمثال « رينر » صاحب « القبيلة وما تلاها » ، الذى يقول فى صدق : « انقشعت سحابة عن سماء القارة الافريقية فى السنوات الاخيرة العشر ، لـكنى ارى سحبا كثيفة أخرى تظلل السماء هنا بعد ، وتنشر الظلام والرعب والقلق .. خرج الاســـتعمار بمعناه القديم من اقطار افريقية كثيرة ، ولكن اقطارا اخرى كثيرة ما زالت تعمل لاخراجه ، واقطارا اخرى كثيرة تعد العدة للقتال والتخريب والذبح ، لأنها لا تجد فى النهاية سبيلا اخرى غير هذه السبيل .. انا ارى النار والذبح ولا ارى سبيلا لغير هـــذا ، ولن يجدى الحياد العقـــلى بعـــدها أو الجسدى .. كل الذين يحترمون ذواتهم ، سيلقون أنفسهم هناك على نحو من الانحاء فلنعرف .. »

***

كلمات يائسات ، ولـكنها لا تبعد كثيرا عن حقـــائق الحياة فى اقليمنا هـــذه الايام ، وفى القارة الافريقية ، ولو كنت اكتب فى السياسة لقلت : ان هذا الذى يقوله « رينر » هو الذى يجمع بيننا فى النهاية . يبكى ذلك الشاب ، يرى الجامعة ، ولا تدعه قوى الشر ان يعمل فى اطارها .. ان اقنعتك هـــذه الفصول حين أخلى سبيلك لتقراها ، بأن فى افريقيا فكرا مزدهرا ، اكن سعيدا ، فهذا بعض ماقصدت اليه ، منعرض الانسان

الافريقى كله ، فى العقد الذى اتحدث عنه ، وكان عقد بطولات وانجاز ، استحال رمادا أغبش بين يوم وليلة ، انقلابات هنا ، وحروب أهلية هناك ، وثورات قبلية ، وقهر وسجون .. ليس من عزمى هنا أن اتصـــدى للعوامل التى أحالت البطـــــولات فجائع ، يبرره الافريقيون يقولون أوجاع ميلادنا ، ويعلله الاوربيون ، يقول الشامتون منهم ، ما كانت رياح تغير تلك التى هبت على القــارة أواســـط الخمسينيــات وأوائل الستينيات ، وانما كانت جراح تغير .. ولتكن التعلة صحيحة ، أو المبرر كذلك .. الذى يعنينى أن ابينه هو أن البطولات فى الفترة التى ارصد ثورتها ، تحمل فى ثناياها وطيات فكرها ، عناصر بقائها ، وان تعقــدت المسالك اليوم ، وتعرت انانية القوى ، لا تستحى أن تبدل وجه القارة ، بالذى تملك من دهاء ومال .. رأى كثيرون بعين بصيرتهم هــذه الفترة الغليظة الخشنة ، وحثوا أهلهم على الاباء ، على الرفض.. استمع لداود ديوب مثلا يقول فى قصيدته « نتحدى القوة » :

انت أيها الذى انحنى ظهرك ..

انت أيها الذى تنوح ..

تموت ، ما تدرى ، لماذا ؟ ..

تكدح ، كى يحيا على كدحك غيرك ..

فعلت فيك الليالى فعلها ..

أنستك ضحكا كان أمس دأبك ..

آض ذعرا ..

وجهك الضاحى ، ألم ..

قم على رجليك ، واصرخ :

لا . . . .

و « لا » هذه هي الجامعة بيننا وبين افريقيا النافرة منا ، الخائفة على قابلها .. لا ياس منها اذن ..

كلمة من هذه الفصول .. دراسات اجتماعية هي أم تاريخية أم أدبية ؟.. كلها معا ، ففروع المعرفة لم تعد حجرات مقفلة بعضها ازاء بعض .. أنا أكتب التاريخ على النحو الذي أراد « فيكو » للنــــاس أن يكتبوه ، وظلت آراؤه حبيسة أوراقها حتى سعى اليها «كروش» ينبشها ويكتب في ضـــوئها عن تاريخ أوربا في القرن الماضي وايطاليـــا ، بلاده ، وذهب أبعد منه ، أوفق في تطبيق تلــكم الافكار « ادمند ولسون » حين كتب عن جذور الاشتراكية في « محطة فنلندا » ، ويرفع علم هذه الافكار في اقتـــــــدار مروع ، ازآيا برلين ، حين يحـــاضر عن الحريين ، ويتعرض للمثقفـــين الروس في السبعينيات من القرن المـــاضي ، ويعرض عليــك في أسلوب مذهل اقتداره ومعرفته ، النحو الذي كيف هؤلاء وأولئك الطريق للثورة الاشتراكية في أوربا .. اريد لأنحو نحو هؤلاء ، لا أخجل ، أرجو أن أوفق .. ذواتهم تتدخل في الذي يكتبون من تاريخ يرونه خلال رواد أحداثه من أهل الفكر والفطنة .. لا يجلسون على السور ، كمـــا يقولون ، ليسوا هنا وليسوا هناك .. يلتزمون التزاما بالحقيقة ، يؤمنون بمكانها المقدس ، ولــكنهم هنــاك جنبها ، كتاب ترفد معرفتهم أحاسيسهم .. سعيت في فصولي هذه أن أكون جنب كل حقيقة أعرف ، أرعاها بحس ، وآمل كما قلت الا تخفق التجربة . التاريخ ، على أية حال ، كائن حي ، يراه كل جيل على أضوائه ، وكل فرد على منازعه ، وأكذبك ان لم أقل لك انى أحب منازعي وأهوى تحيزاتي ..

الخرطوم فبراير ١٩٦٨ — جمال . م . احمد

عصر النهضة فى أفريقيا

« أمض سبيلك ايها الانسان . لن يحدك حد ان اخترت ، او يثقلك ماض . انت رائد نفسك ، سلطانها ، الرب . صغها كيف شئت ، فى اية صورة رايت ، لا يزعك وازع ، تسير وراء اختيارك . انزل بها مسافل الكائنات الصغيرة ، وحشا صغيرا ، وارق بها الاعالى ، الها تكاتف الآلهة . أنظر أعماقك ان شئت ، واقدامك ان أردت . سر على الارض شحاذا ، وسر عليها أميرا ، فالامر كله بين يديك . ابعثها جديدة هذه النفس بين جنحيك ، واقبرها ذليلة ، أنت سلطانها ، الرب .. »

بيكو ولاميراندلا

ما أدرى اية عاصمة من عواصم القارة الكبيرة تعرف . داكار فى الغرب ، دار السلام فى الشرق الجنوب ، اديس فى القرن ، عنتبه فى الوسط الحزام ، أم أكرا ولاقوس ، أم غير هذه التى أعد ؟ اية واحدة منها تمثل اليوم هذه الحيوية الخليط التى عرفتها البندقية ونابلى وغير هاتين من مدن النهضة فى ايطاليا القرن السادس عشر ، عصر النهضة الآخر ، مزيج لا تثبته العين ، نزوع وسقوط : قيثارة وقمل ، حرائر من ديور ، ونتن من أباط ، أغانى ميكامبا وطاعون ، كادحون ذاهلة عيونهم بما يرون فى قراهم وفى

الريف ، جرارات وكاسحات تراب ومداخن مصانع ، وعاظ صفرت وجوههم من الصراخ ، وبقايا بغايا على الطريق وفى « التكل » ، شعراء ما أبقت الخمر منهم الا شفاها مدلاة وشعورا مرسلة وحساسية مبينة ، وعلب ليل تموج أصلابها وأعطافها مع الخنافس والهر ، وأحزاب تقوم فى المنفى ، ونقابات تشتجر ، ومشانق فى الساحة الكبرى ، بطاحين ، وقائد متصوف أتى القيادة عبر السجون والدرس العميق ، وآخر جاءته اعتباطا وعطية ، ولحى غابية ، وفساد فى السياسة مع اقتدار فى الادارة ، ووجوه حليقة ، وكتاب ملأت قصصهم سمع الدنيا وبصر العالم . كل شىء . فى افريقيا القرن العشرين يعيش رجل النهضة الاوربية على الصدر الاخير من تلكم النهضة فى القرن السادس عشر . كل عبقرياته ، كل تطلعاته ، كل خذلانه وكل انجازه . فردية جامحة تجنح نحو لا أخلاقية تامة ، دينه ذاتى ، يرقد قلقا فوق كومة من الحان الجدود ورقصات الاسلاف ، وسحر السحرة ، قرت جميعها فى وجدانه . وهو آخر الامر شكوك ، فما انتهت به دياناته الى الذى قال به القس أو الشيخ ، وهو يحاوره عن دينه الاصلى . يجد كثيرا ويسخر بعض الاحايين ، وهو غاضب أكثر وقته ضائق ، يريد ليعدو القرون ، ليلحق بالركب الحضارى ، آلاته وراحاته المادية من جهة ، وشعره وموسيقاه من جهة ..

تقعده عن اللحاق مقعدات ، على رأسها عمه وخاله وأبوه فى القرية . بينه وبينهم ما بينه هو فى المدينة وبين الانسان الاوربى ، يأخذ عنه ، أو هى فجوة أوسع . كلما هم بوثبة قيل له : وأولئك ، انهم أهلك وذووك ،

مسئوليتك . قالت لهم اوربا المعاصرة ، هونوا عليكم ، سيروا سير ضعفائكم أو كما تقول ، وهي مدفوعة أكثر الاحيان ، بشهوتها لحمل عبء الرجل الابيض ، تغيرت مع الزمان مظاهره ، وبقيت رغم الزمان أصوله فى النفس . اهل القرى والريف فرائس من ناحية وحجة على أهل المدن . فرائس لأنهم من جوعهم وآمالهم المثارة صديقون ، يرسب فى وجدانهم كل الذى يقول الدعاة من شرق وغرب ، على لسان اللصقاء بهم من الافريقيين ، وحجة لأنهم مبرر الوجود الاوربى بعد الاستقلال فى القارة . يقول هذا الوجود ان مواردكم قليلة ، وخبراءكم قليلون ، دعونا نعنكم على تأخر بلادكم . بعض حق وبعض باطل . شق يدخل منه الاوربى ثانية لسابق سلطانه ، وان لم يكن لسابق عزه ، وتذهب نفس القادرين العارفين من أهل افريقيا حسرات . يكرهون هذا العون المقيد ، ويأبون لأهلهم جفاف العيش والضنك . ومن هنا هذا الخليط الذى ذكرت . يعيش الانسان الاسود فى العواصم عين الحياة التى ارادها « بيكو » الشاعر الشاب لأهل العواصم فى ايطاليا على عهده . يريد ليلحق بالآلهة ، سلطانا على كل شيء ، يصور نفسه كيف شاء ، لا كما شاءت الكنيسة للانسان فى العصر الوسيط قبل أن تكتشف أوربا نفسها وكيانها وذكر الاغاريق من قبل وذاتها . كان قبل هذه الذكر أداة فى يد الكاهن والقس ، وفض الاساطير « قاليليو » و « كوبيرنكس » ، وهاجر العلماء من الشرق يرفدون هذا بما يحملون من أسفار « ارسطوفانيس » و « ارسطو » ، يعيدون للانسان مكانه الوسط بين الكائنات ، قطب الرحى ، وينقذونه

من يد الكنيسة غلت يده وعقله طوال «عصور الظلام» ، لله ماله ، ولقيصر ماله وعليه ، وللانسان حقه وعليه التزاماته ، لكل قوم وطن ، لا عالمية ، الامر كله فيهـا لروما : فرنسا وطن ، واسبانيا وانجلترا . انتهت القداسة الا قليلا حين تفتحت الاذهان ، وقويت السواعد على العمل من اجل الوطن المحدد المحدود بالاوتاد والقسمات الخلقية واللغوية ، صنعها «دانتي» و « شوسر » ، وغير هذين ..

وهكذا افريقيا المعاصرة ، خلصت من الاستعمار الاوربى الا اقله الآن ، وكان يؤود عقله ويده على النحو الذي فعل الدين فى العهد الوسيط بالانسان الاوربى . يقظة تكتشف الذى كان من امرها فى الماضى ، الذى اغتاله الاستعمار اغتيالا واسدل الستار عليه لايراه ، والحاضر طريقة الماضى وغايته المستقبل كما نعرف ..

تسعى افريقيا المعاصرة لتعود للطريق وقد اخرجته منها مراكب الاوربيين ، وألهته عنها قوافل الرقيق . اقرت أول ما استطاعت أن تقر فى أول مؤتمر للدول المستقلة عقد فى اكرا سنة ١٩٥٨ ، أن يكون التاريخ الافريقي موضع الرعاية والعناية من اقطار القارة ، وأوقف الدكتور نكروما مليونا من الجنيهات لتصدر عن عاصمته موسوعة أفريقية تعنى برجال القارة وفكر القارة ، كما أنشأ قبلها معهد الدراسات الافريقية ، تشرف عليه حفنة صابرة من العلماء والدارسين ، وسنرى فى قابل ايامنا جهودا اوفر فى هذه السبيل ، فقد قر فى ذهن الأفريقى ــ عن حق ــ ان حاضره سيقوم على فراغ ، ان لم يكن امتدادا لماضيه ، والمستقبل جنين فى بطن هذا الحاضر . آن

صحت صح معها الجنين ، وان هزلت هزل الوليد ..

اتى الاوربيون افريقيا حين ضاقت بآفاقهم الجديدة قارتهم الصغيرة . ما عادت أرضهم القديمة تستطيع أن تحتوى طاقاتهم الجديدة من انتاج زراعى وصناعى وفكرى ، فخرجوا يضربون فى الارض يعمرونها ويستعمرون ، وكانت افريقيا على ذلك العهد نفسه

تسير نحو مستقبل ، أكبر الظن انه كان قريبا من الحاضر الذى رست عنده القارة الاوربية بعلومها وفنونها الجديدة ، مختلفا عنه ، ربما لا أوضح منه ولا أحقر على التأكيد . وكى لا تحسبنى مغاليا ، أشرح :

كانت تمبكتو وجن ومالندى وكلوا وسفالا وعشرات من غير هذه المدن ، تمارس تجارة زاهرة بمقاييس ذلك الزمان وصناعة وعلوما وفنونا طريفة ، والحق الذى يؤكده التاريخ هو ان مراكب البرتقال والاسبان والانجليز والفرنسيين والهولنديين ، شغلت افريقيا عن تقدمها ، أتت تغتال مواردها لنفسها ، فحولت نموها دفاعا عن بقائها . ولعلنا لا نسرف ان قلنا أن النهضة الاوربية قامت على اضعاف التجارة والصناعة والعلوم والفنون فى افريقيا . خرجت أوربا من «عصور الظلام » لتدخلها افريقيا ، ان شئت هذا التعبير .

انقضت أوربا على النهضة الافريقية هذه القرون الاربعة ، حتى كان عقدنا هذا الاخير . خرجت القارة السوداء فى هذه الستينيات من القرن العشرين تتحسس طريقها للأمام ، وقدعشيت عيونها فى الظلام ، والذى يتحسس يخلط بين الغباء والحكمة على النحو الذى وصفت بادىء بدء ، حين قلت ان افريقيا فى قرننا العشرين هذا تعيش عيش أوربا فى قرنها

السادس عشر ، على عصر النهضــــة ، وانا واع حين اقول هذا بأنه لا يصور الحقيقة تصويرا ، وانما هو قريب منه يكاد يلمسه ..

ستقول سبقت عصر النهضـــة الآخر يقظة فى روح الانســـــان وعقله ويده ، راد الطريق لهـــا كوبيرنكس وقاليليو ودانتي ودافنشي وغير هؤلاء فمن فى زعمـك كفاء هؤلاء فى النهضة الافريقيـــة المعاصرة ؟ وانسان النهضة فى أوربا عبر البحار وقاوم التســلط فى قرونه الاربعة بين الصحوة الاوربية الاولى فى القرن الثانىعشر والنهضة الاخرى فى القرن السادس عشر ، فأين من هــذا كله رجلك أنت فى القارة السوداء ؟ وقبل هــذا كله ، أين ســـخاء الطبيعة الاوربيـــة من شح غابات وصحارى هذه القارة ، ذاك الثراء الطبيعى الذى علم الانسان الابيض أن يتقن ادارة المـــال والحكم ، وأن يديرها ادارة مكنت له فى الارض سلطانا على الســود والصفر ؟ لقد قرانا ان تاريخ الانسان الاسود ما عرف الادارة والحكومة والصناعة ، وقرانا انه ماعرف تاريخا قط ، وانه كان بضعا من التاريخ الطبيعى للقــــارة ، كأنهارها ، كأشجارها ، كحيواناتها ، لا يبعد عنها ولا تبعد عنه . الى أن لحقه الاوربى بحضـــــارته . وألحقه الرجل الابيض بتاريخه حين غزاه تاجرا ومبشرا بادىء الامر وحاكما نهاية المطاف ، فصار لصقة صغيرة فى تاريخه.

أنى له اذن أن يعد الآن من القرن العشرين ، انه لو ترك وشأنه قبل أربعة قرون حين اتت مراكب البيض غيلة سواحله ، لمضى ســبيلا فى الحضارة كما قلت ، ما كانت لتشبه الحضارة الاوربية بالطبع ، ولكنها لم تكن لتبعد عن آفاقها هـــذا البعد الذى خلقـــه طمع

الانسان فى أوروبا وغروره ، وهو بعد تعمق شـــقته كل يوم ، كما نعرف ٠٠ يمشى الرجل الابيض أمام والاسود يخطو وراءه وئيدا

لنقف قليلا لنعالج هـذه الاسئلة من وثائق التاريخ نفسـه ، من مدونات الرسل الذين أوفد ملوك البرتقال والاسبان وأهل الثراء والمـال فى الجزيرة البريطانية ، ولن نستطيع فى ورقة كهذه الا القليل من الكثير الذى يملأ صفحات هذا السجل . كانت افريقيا ــ ان كنت مثلى ممن يحبون مقابلة العهود التاريخيـــة فى موكب الانسان ــ تعيش ما يقـــابل عصر النهضـــة الاولى فى اوربا ، حين أتى الرسل يكتشفون ، ومن أبعد هؤلاء بصرا ديوارت باربورسا . طوف الســـاحل الشرقى وســـطه وقرب جنوبه سنة كاملة بين ســـــنة ١٥٠٠ و ١٥٠١ ، ثم أتاها من بعد سنة ١٥١٧ . طوفها قبل أن تمسها يد الاوربى ، وهى تنمو وتزدهر من داخلها ، كما فعلت أوربا فى عصر النهضة الاول ، لا يصرفها عن هذا النشاط الا النضال المحلى على الحكم بين القبائل والقادة ، وهو نضال لايستنزف الروح والمادة ، كما يفعل نضال الاجنبى . كتب ديوارت يصف ســـفالا وكانت قبل أن يأتى البرتقاليون ، فرضة التجارة فى موزمبيق ومدخل أقطار القارة فى الجنوب والوسط .

« التجارة فى سفالا تسير على نحو منسق مرسوم . يأتيهـــا التجار فى قوارب صغيرة آســـمها الزمبوك (لعلها السنابك ، جمع ســـنبوك) من ممالك كلوا وممباسا ومالندى ، يبيعون اقمشة قطنية ، بعضـــها مزوق ذو نقط ، وبعضها الآخر ابيض او ازرق ، كما يبيعون نمـــاذج عدة من الحرير والوانا من الخـــرز والصوميت ، فيها الاحمر والاصفر والرمادى . تجىء

هذه السلع فى مراكب كبيرة عبر المحيـــط من شمال غرب الهنـــد ، من مملـكة كامباى ، يشتريها تجار العرب على الساحل فى مالندى وممباسا ، بمقادير من الذهب ، يزنونها على قدر معلوم لقاء كل سلعة ، يعود بعدها التجار لمصادر هذه السلع مرة أخرى ، ويأتى بها هؤلاء هنا لسفالا ، ينشدون مزيداً من الذهب ، يأتى به الاهلون من مملـكة بينا ميتابا فى الداخل البعيد (فى روديسيا الجنوبية الآن) يعطونه للتجار لا يزنونه ويجمع العرب مقادير من العاج قرب ســفالا يبيعونه لتجار الهند من كامباى لقـــاء خمس أو ست كروزاد للـكنتال .. » ولو كنت هنا بصدد المقابلة بين التجارة العربية الافريقية والتجارة الاوربية الافريقية ، لقلت ان العرب كانوا أحصـــف من الاوربيين واقرب لنفوس الافريقيين ، ولـكنى لن أفعل ، أدعوك لتقرأ معى بعض ما كتب الاوربيون عن أنفسهم ، مائتى سنة بعد هذا اللقاء العربى الافريقى الذى رأيت فى ســفالا ، ولولا هذه الريبة التى تعتمل فى قلوب الصفوة الافريقية من فعل المبشرين ومن ضعف العرب على أيامهم الحالية — لام المخطىء الهبل — لما احتاج الواحد هذه المنافرة .

كلاهما كان غريبا على الافريقى الاسود ، احسن العرب عشرته ، وما كان كذلك الاوربى ، وأن كان قد أذيع غير هذا الآن وصدق . يقول جون نيوتن ، قائد مركب من مراكب الرقيق ، تحول من بعد داعية ضد هذه التجارة الآثمة : « يحسب الافريقيـــون ، الا قلة منهم ، ان الاوربيين أوغاد لا يبارون ، ويبادلهم الاوربيون عاطفة مماثلة » . يقولون ان الافريقى وغد لا يباريه أحد .

كلاهما يحاذر الآخر ، خوف ما قد يأتيه من عمل شقى .

ان صورتنا على الساحل صـــورة غير مستحبة » .
وسجل تاجر اسمه سمث فى مفكرته عام ١٧٥٤ قولة يقول بها العارفون شئون افريقيـــا حتى يومنا هذا . قال : « يعد أهل النظر من الافريقيين لقاء الاوربيين لهم أتعس شيء عرفوه فى حياتهم الطويلة . يقولون اننا نحن المسيحيين ادخلنـــا تجارة الرقيق ، وانهم كانوا يعيشون فى سلام الى أن جئنا نحن ، ويلاحظ هؤلاء القادرون على التفكير ان المسيحية تأتى حين تأتى ، وفى يدها سيف ومدفع وبارود » . أكاد أعتذر من هـــذا الذى أكتب ، فأبغض البغيض التكاثر ، ولا حيـــلة للمستضعف الا أن يلوذ به ، يفاخر ، ولـكن قلة من موظفى الدين ــ لا رجاله ــ البت السود على السمر فى افريقيا ، ممارسة لمهنة تكتسب منهـــا العيش ، وتجد المكان ، وهى ضالة فى هـــذا الذى تفعل ، فان النزاع الذى يثور من حين لحين فى افريقيا المعاصرة ، نزاع الدين فيه عنصر يأتى فى مرتبة ثانية أو ثالثة ، ومرده ــ كما كان فى الماضى ــ لأمور تتصل بالحيـــاة هنا على هذه الارض ، حتى الخشـــــونة فى عـــلاقات الأثيوبيين المسلمين والنصارى حول تلك البلاد ، طوقا لها ، خشونة مردها لعوامل اقتصادية واجتماعية ، لادينية ، كما يحب أن يصورها عابرو السبيل ممن لا يرون من الفيـــل الا خرطومه مثلا أو ذنبه ، ويلحون على انه الفيل . عمى عن عمد أحيانا وعن طيب خاطر جاهل ، بعض الاحايين . هنا أيضا أحب لك ان تقرأ معى هـــذه الفقرة عن علاقات النصارى والمسلمين فى هذه المنطقـــة كما يراها بول مارك هنرى فى كتابه الذى سيطبع بعد حين . يقول صادقا بصيرا :

« لم يكن للصـــدام بين الاسلام والمسيحية فى شرق افريقيا تلك الصبغة التى تميز بها النضال عينه حول حوض البحر الابيض المتوسط . بدا هـذا نزاعا بين عالمين مجربين فى الجذر ، لا آصرة بينهما ولا رحم ، وما كان ذاك كذلك. كان الصراع فى شرق افريقيا بعيدا عن الفلسفات . كان أكثره نزاعا تاريخيا ، ومن بعض نواحيه عنصريا أو قبليـــا • كانت العلاقات بين الجزيرة العربية ، حين أسلم أهلها ، وبين الشعوب السامية ، التى اعتنقت النصرانية من قبل ، وهى تتحكم على مداخل الهضاب الاثيوبية ، كثيرة متعددة الجوانب ، ما تأثرت بفلسفة » ..

ولنترك التجارة والعلاقات البشرية للعلم والثقافة ، لنرى صورة افريقيا على عصر نهضتها الاول ، وأرجو أن تذكر مقابلاتى التاريخية هذه . سنرى الحسن بن محمد الوزان ، ليون الافريقى ، كما يعرفه المؤرخون ، فهم لم يعرفوا آثاره الا فى اللغات الاوربيـــة ، وهكذا أسماه جده المتأرجح •أتعس حظ • قال يصف مقاعد العلم والثقافة على مدن نهر النيجر • يصف تمبكتو وهى تتلوى سنة ١٥٩٠ تحت سياط الجنود من الشمال فى المغرب ، يقودها مرتزق من الاسبان ، يريد تجارتها وثراءها لمن أجره » ..

« يعيش فيهـــا الاطباء والقضاة والفقهاء وغيرهم من سدنة العلم ، لا يخشون مسغبة ولا سلطة ، ينفق عليهم ملك البلاد ويرعى امنهم كل الرعاية ، لينصرفوا لهذه المخطوطات يدرسونها كلما أتتهم من الشمال الافريقى ، يعيدون كتابتها ، يبيعونها فى سوق الكتب وهى نافقة »

فى هـــذا الامان والرفاء كتب محمود كاتى باللغة العربية ـ وكانت لا تينية ذلك العهد فى الاقليم ، يكتب بها المتعلمون ، كتابه الفاجع عن مأساة بلاده • لهـــذا

الامان عينه والعيش الرفيه ، وقف أحمد بابا كريما امام غزاته يأبى عليهم أن يستخدموا مكانه في القلوب ، وسيق فى الاغلال سوقا الى السجن فى الشمال ، لأنه كان يدبر ، فيما قيل عنه ، ثورة تطرد الغزاة ، وهو الذي ما عرف التدبير ولا العنف ، الى أن اضطر اضطرارا أليما ، ينافح عن ترابه . خلف ثلاثة عشر كتابا فى علوم الدين والتاريخ ، ما وجد الباحثون غير كتابين اثنين منها اليوم ، وكان كأخيه كاتى زنجيا خليطا من القارة ، ثقف الثقافة العربية ، وفقه فنونها.

حجة أخرى على الذين يقولون بانفصام العرب والزنج فى القارة ، آية بينة على أن العرب والزنج ما عاشوا الا أكفاء يتزاوجون ويعمرون . وصف ديوارت الذى نقلت عنه قبل قليل ، نموذج التجارة على الساحل الشرقى ، وصف التجار يقول : « انهم عرب سود ، يميل بعضهم للسمرة ، يتحدث بعضهم العربية ، وبعضهم الآخر لغة الاهلين » . ما عرف يميز من فرط ما اختلطوا وعاشوا جنب جنب ..

وما كانت الحضارة الشتيت فى القارة علما صرفا أو تجارة بحتا . كانت فى القارة فلسفات فى الحياة ، يصدر عنها الناس فى فكرهم وفى عملهم ، ولكننا لانعرف الا القليل عنها ، فهى لم تكن مدونة بالطبع ، كانت فى صدور السحرة والكهان ، وكانت أحاديث يتناقلها الاسلاف عن أخلافهم ، وتراها اليوم متناثرة فى كتب علم وصف الانسان . رجل واحد سيذكر له الباحثون بعده يده ، القس تمبل ، صاحب « فلسفة البانتو » لغة الشعوب التى تعيش فى أكثر بقاع وسط افريقيا والجنوب . درس القس الكدود هذه اللغة دراسة

متقنة سنين ، وكتب من خلالها ومن خلال عيشه الطويل فى الكنغو وترحاله فى زامبيا وزمبابوى وجنوب افريقيا ، كثيرا مما ينير للواحد بعض ألغاز السلوك البشرى فى هذه المنطقة ، التى ما زالت ترسل الرسل وتنبت الانبياء ، كما رأيت قبل قليل عقب استقلال زامبيا ، حين هبت هلن شاون ، تناهض العهد الجديد ، رسولة من السماء . ما كان فى وسع كاوندا الا أن يرسل الجيش يقبر سحرها . كتب الأب تمبل يخاطب أوربا وقد شرح مقنعا مكان الانسان فى الكون عند البانتو ، وسلطانه على الاشياء ، قوة الحياة ، سخر له النبات والحيوان والشجر ، والارض وكل شيء ، كما سنبين بعد حين فى حديثنا عن الفلسفة الافريقية ، يقول — وقد رأى بعينيه وأحس بحسه ما لم يره ويحسه الذين أتوا القارة ، غرورا بعض الاحايين لا يعنيهم رأى أهليه ، فقد جاء يعلمهم نعمات الحضارة الاوربية ، وانشغالا عنه بعض الاحايين ، لا يعنيه منه الا أنه أداة تحطب الصمغ وتجمع العاج : « أن اكتشافنا الفلسفة البانتوية ينبغى أن يقلق بالنا نحن الذين نتصدى لتعليم افريقيا ، وتدفعنا دفعا لنظرة جديدة لوسائلنا وأسلوبنا . مضت سنون ونحن نحسب أننا نحمل العلم والفلسفة للقارة السوداء ، فراغا نملؤه نحن . خيل لنا الذين تصدينا لتعليم الافريقى وتحضيره أننا ازاء لوحة سوداء ما عليها من الخبرة حرف ولا من العلم او الفن سطر : نكتب عليها ما نشاء ونختار . ألقى فى روعنا أننا أتينا قارة سوادها فراغها ، نعلم أطفالا كبارا لا قواعد عندهم ولا أسلوب ، نسوقهم سوقا الى حضارتنا نحن وثقافتنا نحن . ثم

نعيش بينهم حينا ، كما عشت ، فاذا الصـــورة غير الصورة . اللوحة ملأى بالرؤى والفلسفات ، وما عليك الا أن تتعلم لغة هذه الرؤى والفلسفات لتقرأ . ستقدر ، تحترم حكمتها وتعرف فلسفتها الكونية . بيننـــا وبين الانسان الاسود صلات ما وعيناها ، وكان من الخير لنا ولهم أن نعيها » ..

ما كانت افريقيا اذن فقيرة في المادة ، كما رأيت عن باربورسا وليون الافريقي ، وما كانت فقيرة في الروح ، كما رأيت عن تمبل . اتت مراكب الاوربيين في هـــذه العصور ، في القرن السادس عشر ، وحولت تقدمهـــا المادى والروحي وجهـــــة غير تلك الوجهة التى كانت تسير ، وهي اليوم تعود مرة ثانية لتبـــــدأ المسار الجديد على أضوائها هي لا أضواء أوربا الغازية وحدها ، وقد عرفت بعض ما كان في تاريخها القديم من شـــان ، ولكني ، وقد عرضت عليـــك عصر النهضـــة الاول في افريقيا ، أحب لنا أن نقف قليلا لنجيب على ســؤالنا الذى قدمنا به بعض هـــذا الحديث . من كفاء انقلو ودافنشي من أهل الفنون والعلوم على عصر النهضـــة الآخر ؟ وقبل أن أشرع في هـــذا الشطر من تجوالنا في عصرى النهضة هنا في القارة السوداء وأوربا ، أريد لك أن تذكر اننا نتحدث عن بيئتين مختلفتين ، لايمكن لهما الا أن تنتجا رجالا مختلفين واتجاهات تتســـق وحاجات من يعتنقونها من الناس . لن تنتج القـــارة الافريقية ، وان أرادت ، دافنشي ، ولن تنتج القـــارة الاوربية ، وان جهدت ، دان فوديو . يسير كلٌ منهما سبيله ، لا عنادا واختيارا ، وانما قسرا وحاجة ملحة . أرض تعرف اللعوت وتنبت المهـــوقني ، وأخـــــرى

تنبت الصنوبر ، لا فضل لهذه على تلك · بينهما اختلاف
خير ما أقدم لك به هـــذا الشطر من بحثنا ، هو
قولة لبازل دافدسن ، تلخص في كلمات قليـــلة مناخ
هذه الفترة ، فترة عصر النهضة الآخر ، في افريقيا .
انه يصف المناخ الذى وقع فيه الغــزو الاوربى فى
اخريات القرن التاسع عشر ومطالع هـــذا القرن ،
ويدلل لك ـ دون أن يقول هذا ـ على صدق ماذهبنا
اليه ، من أن غزو أوربا للقارة انقض على تقدم ونمو
الافريقيين · لن يتاح لنا أن نعرف صورتهما ، فقـــد
ذهبا مع هذا الغزو ، وليست لدينا سبل لنعرف أى
وجهة كانت ستسير افريقيا ، لو لم تكن هذه العلاقة
بينها وبين اوربا ، علاقة السيد والمسود ، لا النـــد
والكفء . قال دافدسن : « أتى الغــزو الاوربى فى
منتصف مجرى موجة من التحول. ضرب الغزو افريقيا
فى لحظـــة من لحظـــات الاضـــطراب الـكبير ، وكان
الاضطراب نفسه نتيجة حوادث أخرى ، سبقته » .
وهنـــا ينبغى أن نقف لنذكر اننـــا نتحدث عن قارة
بأكملها ، وشعوب عديدة خليط ، لا ينطبق على غرب
افريقيا ما قد ينطبق على الشرق أو الوســـط ، وكل
الذى يستطيع واحد أن يقوله عن القارة كلها وشعوبها
كلها ، عاجز من أن يصل لقلب الحقيقة ، ولكن شيئا
واحداً يربط بينها برباط وثيق ، عبرت عنه كل منطقة
بأسلوبها فى التعبير ، وان كان واحداً ما قالوه ، نعنى
غزو القارة ، اغتيـــــال الابيض للاسود ، مهما تنوعت
صنوف هذا الاغتيال ، تجارة ، تبشيرا ، أو حكما مسلطا
على الرقاب . أما وقد قلنا هذا فلنمض مع حديثنا ،
مهما كان قلقا ذاك الحديث ، فغزو الأوربى للقـــارة

الافريقية ، يمكن لك أن تنظر له نظرة أهل المـــال والتجارة لا يعنيك ما يحدث هذا من اثر بعيـــد فى الروح ، ويمكن لك ان تنظر اليه نظرة أهـــل الفكر والروح ، لا تقف عند أثر اقتصاديات اللقـــاء الاوربى الافريقى • نظرتان ان انفردتا تخطئتان • ما انفصـــم الاقتصاد عن الثقافة • ما انفصمت المادة عن الروح • انا أميل للحديث عن الاثر الذى تركه هذا اللقـــاء فى روح أفريقيا ، لأنى ضيق بنظرة اقتصادية حولاء للأمر تلقـــاك انى ذهبت ، وأيا قرأت هـــذه الايام حتى ليخيل اليك أن الناس ــ كل الناس ــ أصبحوا اقتصاديين ، وبقيت وحدك لا تعرف . يخطيء الذى لا يعطى اقتصـــاديات هذا اللقاء بين القـــارتين مكانها الاول ، ولـــكن الآثار الروحية التى ترتبت على هـــذا اللقاء جديرة بأن تجد مكانها الثانى ، فهى وان لم ترق ذاك المـــكان الاول ، معنا اليوم تعتمل فى صدر القـــارة ، وتكيف وجهتها العقلية والوجدانية ، وهى وجهة ذات خطر ، لايخطئه أحد فى تقويمها ، حين يتامل الدوافع والنوازع التى تدفع الدول المعاصرة ، وتزعها . لن اقف قليلا عند الآثار الاقتصادية للقاء القارتين ، وان كنت أدرك أن للاقتصاد مقامه الاول . سـأقف عند الآثار العقليـــة والوجدانية وأنا أعرف ان مكانهما ، لا يبلغ مكان تلك..

عصر النهضة الاخر الذى اشير اليه هو العصر الذى تلا العهد الاستعمارى بأعوام قلائل ، وتبدأ هذه الرحلة العسيرة مع مؤتمر برلين (١٨٨٤ ــ ١٨٨٥) ، المؤتمر الذى شطر القارة أشطارا ، لتنظم اوربا نهبها القـــارة والسلب تنظيما ، وقد ولغت فيه أربعة قرون ، تقتتل بينها تارة ، وبين بعضـــها وبعض الممالك فى القـــارة السوداء تارة أخرى ، لكن الانسان الافريقى ما قهرت روحه •

ذهل حينا عن نفسه ، يتأمل هذه القوة العارية الضارية ، والاستعمار ، بكل ما في الكلمة من شر الفه التاريخ ، ويتأمل هذا الكتاب المقدس جاء معه أو قبله بقليل ، يدعو للرحمة والكفاءة بين الناس ، كل الناس . اضطرب الذكاء الافريقي بين هذين ، لكن اضطرابه لم يطل . ادرك ان نوازع الشر اقوى واقدر من نوازع الخير . والقس دومنقو الذى سأتحدث عنه حين أتصدى عن الفكر الاسلامى والمسيحى فى أفريقيا ، هو الذى صرخ يقول ، ولما تمض الا سنون على دخول الغزاة بلاده ، ان الاوربيين فى صمم عن رسالة المسيح ، يكسرون القواعد منها ، طوال نهارهم منذ الصباح فى السادسة حتى المساء فى الخامسة . ربنا صريح خالص فى رسالة يعقوب ، الاصحاح الخامس « ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة . . . هو ذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المنجوسة ، منكم تصرخ ، وصياح الحصادين ، قد دخل الى اذنى رب الجنود ، قد ترفهتم على الارض . وربيتم قلوبكم كما فى يوم الذبح . حكمتم على البار . قتلتموه » . قيل هذا ولما تمض على تجزئة القارة غير ليلة . تقسمها الساسة خدام الصناعة الفتية المعتدية فى أوربا ، رسل التجارة فاضت على حدودها ، والمال تكاثر بعد الثورة الصناعية ، بين سنتى ١٨٨٤ ، ١٨٩٨ ، وهم الاذكياء الاقوياء . خمسة عشر عاما من الخداع والغزو والختال ابتلعت خمسة عشر قرنا من النمو الحضارى فى القارة . كانت أوربا فى سكرة من دنياها التى تفتقت أمامها فى عصر العلوم والصناعات ، لكن العملاق الافريقى افاق من ذهوله فى أقل من جيل ، فى خمسة عشر عاما . فقط بعد

هزيمته فى نياسالاند مثلا ، تكونت «جمعية رعاية حقوق الاهالي » وغبار الغزاة ، ما زال فى الجو ، عام ١٨٩٧، وكاتبنا هذا الذى نعى على الاوربي ، اعتداءه ، وأبان فى وضوح الفجوة بين دعواه وواقعه ، كتب رسالته هذه التي اشرت اليها ، سنة ١٩١١ . ثقف شارلز دومنقو على يد المبشرين وكانوا أتوا نياسالاند قبل خمسة وثلاثين عاما من رسالته الغاضبة ، اعنى خمسة عشر عاما قبل أن يتبع آثارهم البيض فى نياسالاند ، حكاما ذوى اثرة وسلطان ، وكان شارلز دومنقو يريد نهضة ـ شأن رجال الفكر العاملين فى كل قطر ، لأن « المؤتمر الافريقي الوطنى » تكون بعد رسالته هذه بعام واحد ، سنة ١٩١٢ فى جنوب افريقيا ..

ان صحوة القارة ليست كما يحسب الكثيرون منا بنت أمس. لقد تغيرت لغة السياسة والاقتصاد اليوم ، ولكن روح دومنقو ، ما زالت تحوم فوق أجواء القارة كما تحوم أرواح أشباهه من الذين يقظوا لحالهم البائسة ، ساعة استطاعوا الكلمة ، عرفوا فعلها فى النفوس . لقد مضت على الرسالة خمسون سنة أو تزيد الآن ، ولكنه بقى طابعا للفكر الافريقى حتى أواسط الخمسينيات من هذا القرن . تراه في قصة منقوبتى « المسيح الفقير فى بومبا » . قصة ما أفتأ أعود اليها كل حين ، فهى معلم من معالم الخلق المعاصر فى القارة . يعيش القس عشرين عاما ، يتنقل بين أحراش الكامرون ، ويقف يوما وقد هده الشك والقلق ، يرصد الذى أنجز ، فلا يرى الا التأرجح والضياع بين القديم والحديث عنه قطيعه . كما يعبرون يسأل خدمه ، لم يرفض الاهلون جهده ، فيسمع حديثا عجبا من قوم « فقدوا

المشيتين » كما نعبر نحن ، فيقفل راجعا الى أهله كسيف البال ، لا يمكن له « أن يبحر في قارب واحد مع الاستعمار » . يعزز هذا كثير ، لكنى لا أستطيع أن أقاوم مقالة نكروما الشهيرة ، وقد برم بالتهم تلقى جزافا عن مصادر فكره ومنابع أعماله ، صاح يقول : « أنا اشتراكى ماركسى ، مسيحى ، لا يلتزم بمذهب كنيسة » . أراد ليدفع عن نفسه التبعية ، فانفجر يبين عن ذاته ، ومنابع الهامه . لكنى أحب أن أعود لهذا ، فهو تاريخ معاصر نعيشه ، حين أكتب عن «القومية الافريقية» ، جذورها البعيدة فى أرض القارة ، منظماتها التى احتوتها ، والاشتراكية ، وقودها الدافع . كل الذى أردت قوله الآن هو أن القارة ، ما استخذت تحت أقدام الغزاة . أشعلتها نارا فى السبعينيات من القرن الماضى ، فى كل اقليم ، وأعنى « كل » : حرب الزولو ، حرب الماتابيل ، حرب الاشانتى ، حروب العرب فى نياسالاند ، ثورة الشاقا فى تنجانيقا ، وتجريدات لوقارد ضد أمراء الفلانى فى نيجريا ، وحروب الفرنسيين ضد ساموري على النيجر الاعلى ، ورابح فى اقليم شاد ، ومذابح الالمان فى شرق افريقيا ، وهى التى عرفت من بعد بثورة ماجى ماجى ، وحرب هريرو فى جنوب غرب افريقيا وغير هذه من الحروب التى عبرت عن غضبة الافريقى فى كل مكان ، ولو كنت أتحدث عن شطرنا الشمالى من القارة ، لأشرت لامامنا المهدى ، وعرابى ، وغيرهما من الرواد ، لكنى أتحدث عن أفريقيا السوداء ، التى قادها شاكا (ولد عام ١٧٨٧) الذى اختلطت فى حياته الاسطورة بالحقيقة ، وخلق منه سنقور ملحمة شعرية فى دواوينه الاولى ، على

الاخص في مسرحيته القصيرة « شـاكا » ، « مسرحية شعرية لأصوات عدة ، مهداة للشـعراء في جنـوب افريقيا » ، المسرحيـة التي اثارت عنـاية المؤرخين والكتاب ، فاصبحوا يصـدرون بعدها الـكتاب تلو الكتاب عن هذا المحارب غليظ القلب ، الوطني الشاعر ، الذى ملأ الوديان دماء ، وخشي على وطنيته وطموحه ، أن تجنحا للسلم والهدوء ، فذبح الفتاة التى عشق ، ورثاها بكلمات دامعات ، وهو يفعل ، وانصرف لحروبه ليموت في ميادين القتال » ..

ودان فوديو (توفى عام ١٨١٧) الذى حمل لواء الاسلام والعزة أمام المعتدين ، ومنليك (توفى عام ١٩١٣) الذى استعصى على الغرب ، وخزيت جيوش ايطاليا أمام الحفاة من عسكره فى عدوه ، والمرابط محمد الامين (١٨٨٦ ــ ١٨٨٨) وبطـولاته فى السنغال ، والملك بهانزين (١٨٩٠ ــ ١٨٩٣) فى داهومى ، آلتى ما أسلمت تاريخها العتيد الا بعد أن أعيت الواغلين ، وملك الماتابيل لوبنقولا ، الذى عاش عمره حسرات ، وثار حين ضاق (١٨٩٢ ــ ١٨٩٤) فى روديسيا ، يقاوم ما لايقاوم من جيوش رودس ، ورابح الزبير الذى سـاق الجحافل الفرنسية لجحيم شجاعته ، فى شاد ، وموتسا ، ملك البوقندا (توفى عام ١٨٨٤) الذى صـوره ، فاحسن تصوير النموذج كله ، شـاعر ملاوى الاول دافيـد روباديرى ، وأرجو أن تغفر لى ، نقلى قصـيدته هنا كاملة ، لأنها تصور فى زعمى اللقاء الافريقى الاوربى ، كما لا تصوره صفحات مما يكتب الكاتبون :

ستانلى يلقى موتسا

كانت أوجاما تميت

يومهم قائظ
ليلهم عليل بارد ،
البعوض القاتل في ذيله
في طريقهم لمملكة .
هكذا كانت الايام والليالى
***
خط من الحمالين كده المسار
على ظهورهم ما يحملون من متاع
وخرق بلت . عليها كل ما يملك واحد .
صدورهم نتوؤها تراه
مائلة رؤوسهم
حليقة مدلاة
مجهدة تكاد تسقط
والشمس حارقة من فوقهم
عنيفة .
معها تقوم اجساد قومنا المكدودة
وحين ينتهى بها المسار تختفى
وفى اختفائها الذعر لهم
والهلع اليائس
لا يعنيه ما يعنيك
فكل يوم يجف جسم قومنا مع العرق
ييبس .
فريسة الذباب والبعوض
والمتاع فوق ظهره يؤود .
هكذا كان المسار
والصيف فى الطريق نحوهم
على جباهم تراه
***

وكل يوم يفقدون في الطريق بغلة ،
يتركونها على السهول للصقور ٠
وعند أول المساء
يسقط واحد من قومنا معنى ،
هيكلا ٠ للمساس يتركوه
لكن المسار لا يقف ،
لقد ألف ٠
يناهد الطريق يلهث ،
زفرات ، زفرات اناس والبهم
يلهثون ٠
يحدوهم اللابس خاكيه ، يرود ٠
انه الروح التى تسوق
انه ضوء الامل

***

وفى مقيل يوم ، لا مقيل ، جائع مساره
كالعادة
قيظه ، رهابه ، كثير ،
النيل بان من بعيد
راقدا جنب توأم له عزيز
نيانزا ٠ أزرق اللون على مد البصر
حوله خضرة خضراء ٠

***

افرح الخاكي نطاقه
وحمالنا فاغر الفاه
يكسوه العرق
عيونه تشوف لا ترى
وأسرع المسار يقفز
كأنه غزالة عطشى لقطرة ٠

***

قلوب قومنا تدق
والحمل خف
ألفت الاقدام أجسادها
المعروقة النحيلة
على حواف المـــاء مطروحة
ولم يعد حديث الليل والذئاب والضباع
ذلك الحديث .
آض الحديث بعد نيلنا والمـــاء
عن كل مقدام أتى البقاع
احتوته قصة مما حكى قومى
على الاجيال
وأبصروا لا يعنيهم البعوض ،
نيران قصر يرتعش
قصور موتسا الملك

***

نسوا وخلفوا وراءهم
عناءهم .
الضحك تحمله نيانزا
عبر أمواه سعيدة
والرقص والغناء
والطبول
من أهل موتسا
الملك ..

***

وعند فجرنا الضحوك
أطلت القرى تحملق ،
أدغالها أمامها وراءها ،

أطفالها وراء أسوار القصب
ينظرون ، ينعمون ،

***

ما رحبت طبول موتسا ، زغاريد النساء
للسفير جاء من بعيد
أبيض اللون ، وترحابنا لقومنا
مبين ..
اهتزت الرؤوس الشائخة
بعض من عاشوا طويلا عرفوا ،
ما كان واغلا ما يعرفون
أشباهه أتوا وراحوا
ودقت الطبول كل أنغام النداء ،
وتنادى قوم موتسا
كبارا لقوم ماذا يفعلون ،
كيف يشيرون على سيدهم
فى طارىء
جاء فى أعقابه الرعب المروع
جزعوا ، لا يفقهون

***

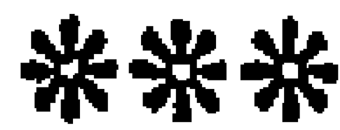
وعلى مصراعه فتح الباب القصب
وتولى الصمت شأن الجالسين
لا حديث ، لا شوار ، لا شغب ..
صمت تقويم وتقدير ..
دخل المليك حالك السواد
فارعا كالشجرة
خطاه اثر بعضها وئيدة
وراءه قدامه ، حراسه
كمنار عالى البنيان ،

طل ..
فوق خاكي اللبس ، لوح
ونحيلا جنب موتسا الجسيم

قال « متو مويب كاريبو »
وكفه العريض تقبض اليد

النحيلة العظام ،
« مرحبا أيها الرجل الابيض ، » قال ..
وأوصد الحراس باب القصب ،

واختلى المقيم بالذى قدم
بعض وقت .
ودخـــل .
اقحم الغرب علينا
ودخـــل



لك أن تمضي مع روباديروا فى خيـــاله ، وأن تدير الحوار الذى دار بين الرجلين فى ذهنـــك ، ولأعينك عليه ، أسوق لك مأساة روديسيا الجنوبية من كتاب فيلب ماسن « ميلاد عقـــدة » . وسأكتفى بها نموذجا لوسائل أوربا ، كيف رست اقدامهـــا فى القـــارة ، اختيالا وخداعا ، وما كان لوبنقولا ملك الماتابيل بعيدا من خيال روباديروا عن موتســـا . كتب عنه احـــد الرحالة وقد هاله ما يرى وراى روباديروا بخياله ، رأيت كثيرا من الملوك هنا وفى أوربا ، ولـــكنى لم ار حاكما للرجال أوقع فى النفس من هـــذا الرجل ، الا القيصر ربما والاسكندر .. « طويل ، قوى البنيـــة ، كل بوصـــة فيه ملك ، يســـير معتدلا كأنه الرمح ، رأسه خلفه أبدا ، وصدره القوى أمامه متفتح ، وبينا

يسير لاهيا قدما ، فى خطى وئيدة ، فى يمينه رمحه الطويل ، يلمع ، ترى رجاله عن يمين وعن يسار ، يغنون امجاده وامجاد آبائه الملوك قبله . انه ملك من قمة الراس لاخمص القدم . وما كان جسدا بحتا الرجل الضارى . كان عقلا ذكيا وسذاجة مبينة .

درب على يد ابيه الملك مزلكازى ، وشهد بعينيه المبشر الابيض يجىء البلاد على النحو الذى وصف ورباديرى ، وما أن يستقر حتى يجىء بعده التاجر يغامر ، والغازى يحتل الارض ، يحمى مصالح ذلك التاجر ، ويعين المبشر ، وربما كان انفع لك واجدى أن تطل على عقله وفهمه معنى اللقاء الاوربى الافريقى خلال حديث قصير قاله فى مارس سنة ١٨٨٩ ، لمبشر اتى مملكته اسمه هلم : « ارايت كيف تقبض الحرباء الذبابة ؟ تزحف خلفها ، حتى اذا اقتربت منها ، كفت عن الزحف والنفس فترة ، واستانفت زحفها بطيئا ، تقدم رجلا أولا وأخرى بعد حين ، وعندما تكاد تلامس الذبابة تنقض عليها بلسانها ، وتختفى الذبابة . انجلترا الحرباء وأنا الذبابة » هكذا راى لوبنقولا الامر . ما أبعد الرجل فى الذى قال ، ولكنه ما عرف كيف يحيى هذه الافكار . امضى مع هلم وثيقة ،

كانت النهاية لحياة ملكا ، ولبلاده وطنا مستقلا ، امضاها لقاء مرتب مقداره مائة جنيه فى الشهر له ولاسلافه والف بندقية ، وباخرة على الزمبيزى ، ولو كنت اكتب تاريخا صرفا ، لنقلت لك الوثيقة ، التى تعطى رودس وشركاته حق التعدين وامتلاك الارض وحماية الملك من الذين يجيئون يطلبون اليه أن يعملوا فى حقول النحاس والزرع ، وعاش يشهد أرضه تبتلعها شركات رودس ميلا بعد ميل ، وهو يقاوم ، ولو قرات معى وصف

ماسن لحاله لذهلت • قال ، وقد انهكته وانهكت أهلــه الحروب وهو يشهد جثة الاسد القديم يكسوها الجدرى الذى قتله عام ١٨٩٤ « قضى الامر ، انتهى – لم تعــد بطاح أرض الماتابيل يختال فوقها المحاربون الســود ، على رؤوسهم الرياش ذات الالوان ، وفى أيديهم الرماح والدروق ، تلمع مع الشمس ، لمعان العافية التى كانت على الوجوه وفى الصدور . اختفى ذاك البهاء المفترس ، واستعاضت بهم البطاح قوما آخرين . ما عدت ترى الا عجوزا مهلهل البدن ، يتدلى جلد ذراعه ، لا يسير الا وئيدا ، وجهه ينظر لتحت أقدامه ، يطاطىء ، يستحى، مذعورا ، لا أمل ، لا ذات • كان نمرا يختال مزهوا يذرع الارض يملــكها والسماء فوقها ، ولم يعد فيه بعد حروب الماتابيل ، من ذاك النمر ، الا شبه بعيد . جلد نمر بهت لونه ، لقاء ذلك الحس المروع » ••

احثك حثا على أن تتم هذه الصورة التاريخية لقهر الماتابيل فى روديسيا الجنوبية ، بالصــورة القصصية الرائعة « الفتح المفترس » لبيتر ابراهام ، وهو وان كتبها قصة ، ما بعد قط عن الحقيقة ، لترى معى ان الفضبة الافريقية التى بدأت بين الحربين بعد ذل وعار طال ، واستحالت ثورة فى أعقــاب بل أثناء الحرب العالمية الثانية ، قامتا على استرداد «هيبة» الانسان الاسود واسترداد رجولته ، التى اذلها الابيض فترة الاستعمار . لعبت العوامل الاقتصــادية والاجتماعية دورا نعم ، لكنه ثانوى ان قيس بهذا النزوع للقصاص •

ان أقدام الغزاة لم تطأ روح افريقيــا ، وان وطئت جسدها • ترى ذلك بينا واضحا حين تستعرض تاريخ المقاومة الافريقية ، سلسلة ما انقطعت حلقــة فيها ، بدأت كما ذكرت قبل قليل مع شاكا ودان فوديو وغير

هذين من رجال عصر النهضة الآخر ، وارجو الا تمل ان أعدت لذاكرتك بعض تأريخ ، لادلل لك بهـــا ، ان موت هؤلاء فى ميادين الصراع ، اتصل بميلاد فئة من القادة ، على أكتافهم قامت الثورة الافريقية ، وتقوم اليوم ، على اختلاف فى النهج تقتضيه حرارة الايمان أو الحكمة نتاج تقدم العمر ، عند كل • أنا معك التأريخ ثقيلة ، لـكن انظر الى بعضها معى لترى ان التنظيم

الادارى الذى جاء به الاوربيون ، فادخلوا به الامان فى حياة الافريقى ، والتعليـــم الاوربى المعـــاصر ، الذى ادخلوه ، وكانوا يحسبون انه ســـيخلق من الافريقى مسخا من الاوربى ، والاقتصاد الذى انقذ الافريقى قليلا من نزوات بيئته العاصفة ، لم تنس الانسان الافريقى انه يحصل على هذه لقاء رجولته ، واختار رجولته على طعامه وشرابه ، وما كان كثيرا على أية حال . أحب مريحات المدنية الآلية وانتفع بها ، ولـكنه رجع لقديمه على ضوء ما أعطته الجامعات الاوربية من نهج للمعرفة ،

فاكتشف نفسه ، وطمح لمكان قريب من مكان معلميه ، فرجا الاوربى أن يفسح له مكانا معه ، أن يفتح له فرجة معه ، ولـكن الاوربى ما فهم عنه ما يقول . فئة قليلة فى أعقاب الحرب العالمية الثـــانية ، رأت فى رجوات الافريقى ، شيئا جديرا بعنـــاية أوربا ، وكانت فئة صالحة لا تملك الا أن تقول ، لتهزأ بها الفئة الكبيرة ،

أقول رجوات ، لأن الافريقى حتى أخريات هذا العقد الذى أرصد لك أفكاره ، ما عدا هذه السبيل . ولنأخذ مثلا ، ما أدرى هل أحسن أصدقاء لوممبا حين نشروا كتابه « الكنغو ، بلادى » بعد وفاته ؟ أنا واثق انهم احسنوا للتاريخ ، لـكنى غير واثق أنهم احسنوا لصورة المجـــاهد التى فى ذهنى وذهنـــك • فى منتصف

الخمسينيات ، كان يكتب في توسل واستجداء ، يطلب للأوربى أن يشرك الافريقى فى الادارة ، أن يبقى ليقوده من يديه لتقدمه • ما كان يطلب استقلالا • وتقابل هذه الرجوات بالفترة العاصفة منحياته التى انقلبت غضبا جامحا ، أخرجه حتى عن حدود اللياقة ، يوم وقف يخطب ، يعلن استقلال بلاده ، ويلعن ضـــيفه الملك • لا يسعك وانت تقرأ تلك الخطبة الا أن تخلص الى ان الافريقى ، أكره اكراها على الثورة والحقد منـذ لقى الاوربى ولقيه . ولنقف قليلا لندلل على أن لوممبا لم يكن الا بضعا من شاكا . يدور الحوار الذى اعربه لك بين « الصوت الابيض » وشاكا فى مشهـــد من بعض مشـــاهد المسرحية التى أشرت اليها ، واحب لك ان تذكر أن مشاهد هـــذه المسرحية وقعت عام ١٨٢٤ ، حين التقى بطل الزولو الدموى بالاوربيين ، وبين الذى يقول وقال لوممبا مائة وثلاثين عاما من بعد ، مشابه :

الصوت الابيض

صوتك احمر من البغض ، شاكا

شـــاكا

أنا ما أبغضت الا الظلم

الصوت الابيض

انه احمر من بغض يحترقمعه قلبك احتراقا ، شاكا
ان ضعف القلب مقدس ، وزوبعة النار فى جوفك نجســـة

شـــاكا

ليس بغضا أن تحب أهلك ، استمع :
لا سلام والسلاح فى يدى يدك
لا سلام والطاغوت ..
لا أخوة ان ضاقت بنا الارض ،

انتم الاعلون ، ونحن فى حسـابكم ،
قذر . . .
سعيت كي نكون كلنا معا ،
اخــــوة . . .

الصوت الابيض

اثرت عامدا كل الجنوب ضدنا
نحن الرجال البيض . . .
أين ســـــعيك ؟ . .

شـــاكا

ارايت ؟ .. هذا هو انت ، صوتك الابيض
شطر صوت ولا صوت
صوت دجال يزيف ..
صوت من يقوى ، ضعيف صارعه ،
وضمير من بعثوا بك عندنا
عبر البحار ، ضمير المالـكين ..
انا لم أكره الاذن الحمرا ..
على النقيـــــض ..
لا ولا أهلى ، تأكد ..
رحبت ارضى بهم رســــــلا
من ســــــماوات عرفنـــاها ..
من آلهة ..
ودفقنا تحت أقدام الرســـــــل
كل أوعية الشراب ، ترحيبا بهم
ومن أفواه أهلى ، سمعت أطيب الـكلام
يزجونه لـكم ، رسل الاله ، أهلا ..
ثم قلتــــم اعطــونا ،
فأعطينا الذى نملك ،
عاجا ، عسلا ، وزهورا من قزح ،

وبهارات عشـــــقتم وذهب ،
وقرودا أضحكتكم ، وأحجارا أثمن
الاحجار فى الدنيا ، وببغاوات
عرضتم عوضا منها هـــــدايا
لا تفيد ، وعبثتم بالخرز ،
ورأينا بعد هذا رصاصا وبنادق
تحصد الاهل ولا تبقى مجادل ..
عرفت بعـــــدها ، عرفت ،
واســـــتحلت عقـــلا
وجرحت ،
ما عاد ما أملك الا الجرح
والاذى والامتهـــــان
فى فؤادى وفؤاد أهلى
وفى الروح الـكسيرة ..

***

ما ذكرت لوممبـــا الا لأنه وصـــل قمة الغضب ، وقابلته بشاكا ، لتدرك معى أن هذا التقليد متصـــــل الحلقات بين الانسان الافريقى والاوربى . أكثر الذين قادوا بلادهم لاســـتقلالها ، كانوا يريدون للأوربى أن يحترمه ، أن يأخذ بيده ، أن يسرع الخطى به ليشترك فى العمل لبلاده . رجوات ماعدت هذا ، ولـكن الاوربى سخر منه فى مجالسه الخاصـــة ، ولجأ للمداورة فى محافله العامة ، غرورا وجهلا . غرورا بقوته ، وجهلا بالقارة . ما عرف أن شـــارلز دومنفو الذى أشرت لـكتاباته عام ١٩١١ ، كان ينقد هذا التحقير لشباب ولدوا فى فترات ، ما كانت بعيدة عن هذا الذى غضب له ، ويقينى ان بعضهم كان يعرف عنها . كيف تفسر الظاهرة الفريدة فى القاهرة ، ان لم يكن هذا هو الواقع ؟

أكثر قادة القارة كتاب من نوع أو آخر ، وتاريخ الفكر الافريقى مثله مثل أى تاريخ يقوم حديثه على قديمه لحد . خرجت كتابات دومنفو ، وكنيساتا فى العشرين من عمره ، اذ ولد عام ١٨٩١ ، وشهد بعينيه ، وأن كان غلاما ، لورد ديلاوير يقتطع أرض الهضاب فى الكيكيو شبرا شبرا لأعوانه من البيض عام ١٩٠٢ ، وولد الازهرى عام ١٨٩٨ ، ويقول لى رفاقه فى الجامعة الامريكية ، انه كان مغرى بجورج واشنطن، يقول لهم ، سيحرر بلاده يوما من الايام ، كما فعل واشنطن ، وقبله باعوام سبعة ولد هيلاسلاسى ليجد بلاده « قطعة شطرنج فى السياسة الدولية » ، وولى بعض شئونها ولما يعد فى التاسعة عشرة من عمره فى هرر ، وفى عام واحد هو عام ١٩٠٦ ، ولد سنقور والزعيم اولو ، هذا فى نيجيريا ذات التاريخ القلق الدموى ، منذ اتت مراكب الاوربيين على النيجر ، وذاك فى السنغال ، وثلاثة أعوام بعدها عام ١٩٠٩ ، ولد نكروما ، الذى شق على أوربا أن ترى فولتير ، كما أسماه بعضهم ، يمزق سلطانها فى القارة ، فاتخذت من بعض أعماله تكأة لتمزيقه ، ولن أقف عند اودنقا الذى ولد عام ١٩١٢ ، وكتب منذ شهور يقول : ان الحرية لم تات بعد ، أريد لأعود بك لدومنفو ، لان موديبو كيتا الرئيس السابق ولد بعد أربعة أعوام بعد ثورته ، عام ١٩١٥ ، وعبرت طريقى فوق هوفت بونيه الذى ولد عام ١٩٠٥ ، وعبر ازكوى الذى ولد بعده بعام ، فقد خمدت فيهما جمرة النضال ، ازاء مالفيا ويلقيان من مشقات وعواصف العمر . اريد لاقفز للجيل الجديد الذى يصنع الحوادث اليوم ، نيريرى وكيوابوى . رأيا النور فى عام واحد ، عام ١٩٢٢ ، واتى بعدهما بعامين كواندا . ثوار ثلاثة

اندر كل واحد منهم نفسه لمثـــل ، تقض مضـــاجع الاوربيين ، يكاد كل واحد منهم أن يكون شجى فى حلق الخصوم ، لأنهم لا يعرفون كيف يأتون منطقهم الكاسح ، تلسع الخصوم لسعا ، لأنه منطق من نموذج ما الفوه. منطق فيه حرارة الايمان واعتـــــدال الواثق من حقه ، لا هياج ، لا ســباب ، واستقامة فى العيش والعمـل تقف صلبة على أرض دين يتمسكون به تمسك العجائز، ومع هذه الفئة القائدة أوبوتى الذى قلب وجه يوقندا ، ويأبى على أحد أن يعرف أين مواهبـــه ، صامت ، بعيد عن الزحام ، وفيها عبد الرحمن بابو ، الذى ولد فى نفس العام ، عام ١٩٢٤ مع أوبوتى وكاوندا وقلب وجه زنجبار بحيويته السياسية والجسدية المروعة ، وسيكوتورى الذى يناضل ليبقى ..

أطلت فى هذه التأريخ لأقول شيئين : اولهما ، ان تاريخ الفكر والعمل الافريقى ليس بالحداثة التى يعد بعض النـــاس ، بدأ مع تمبكتو وجن وسفالا وكلوا ، وســـار نحو دان فوديو وشـــاكا ولوقنبولا ، وما انقطع المسار بعد هؤلاء . حمل الشـــعلة ازكوى ونكروما ، ويحملها اليوم نيريرى وكمبابوى وسيكوتورى ، موكب متحرك لا انفصام فيه ، وان اختلفت الوانه وتعددت وسائل تعبيره عن واقعه ومثاله ، بمر الزمان والاحداث. ثانيهما ، انى اردت أن أوحى اليك بان القارة فى صخب فكرى الآن ، ولن يطول بها الوقت بعد الآن . سترسى مراكبها مكانا ، وان كثرت أصابع الواغلين ..

يكفينى هنا أن عرضت عليك أن الافريقى عاش عصر النهضة الاولى على أيام العلم فى جن وتمبكتو وسفالا الزاهرة بالتجارة والثقافة الخليط ، واختفت نهضـــته فى القرن الخامس عشر ، وكانت فى طريقهـــا لتبنى

امجادها ، على النحو الذى فعلت أوربا ذلك العهد ، ونهضت مرة اخرى فى القرن الماضى ، وقد يقظت بعد ذهول ، ولم تستخدم امام سلاح الاوربى القاهر ، بل خرت صريعة فى الميدان ، حتى كانت القومية الافريقية فى العهد الاخير ، وهى الحركة التى قامت على هاتين النهضتين، واضحة المعالم والسمات ، والماضى البعيد، يتراءى له ، ولا يكاد يمسكه ، وان كان قد شرع فى التعرف على سماته ، كما ترى فى الذى يكتب الشيخ ديوب ، وبعض الباحثين الاوربيين والامريكيين ، يضعون القواعد للقومية التى قاومتها أوربا بكل سلاح ، تحدوها قولة ارسطو المعلم الاول حتى فى هذه ، يسوق النصح للاغريق عند استعمارهم لبرقة وقرطاجنة : « فتتوا القوم قبائل وجماعات ، أزيلوا من على أرضهم السمات التى تتصف بها القومية فى كل مكان تستعمروه ، لتذب على أيديكم عباداتهم وطقوسهم الدينية الخاصة بهم ، الحقوهم بالعقيدة العامة عندنا . بعبارة أوجز : اعملوا ما فى طوقكم ، ليذوب فى كيانكم كيانهم ، ولتنسفوا كل سلطة لعاداتهم القديمة » . وفعلوا ، بل تبعوا النصح خطوة خطوة تعززه تجاربهم منذ أرسطو ، فقد كان العهد الكلاسيكى طفلا بالقياس لعصر التوسع الاوربى الذى بدأ واهنا يتحسس الطريق فى القرن الخامس عشر ، واكتسى عافية وشهوة للرخاء والرفاه على عهد الثورة الصناعية ، وعار ، كما نقول عندنا ، لا يهاب شيئا . قوته المادية الآلية أداته ، يضرب بها حيث شاء ، أنى شاء ، مبرره الشفاف ، عبء الرجل الابيض ..

في الأدب الأفريقي المعاصر

تعيش افريقيا اليوم نهضة شاملة ، ولكن معارك الاستقلال السياسي من ناحية ومعارك الاستقلال الاقتصادي من ناحية أخرى ، تستأثر باهتمامنا اكثر ، وهي حرية بذلك لا شك ، فالقارة قارة الغد في أكثر من معنى واحد . لكننا لن ندرك الحقيقة كلها عن افريقيا ، ان حسبنا ان هذه المعارك الاقتصادية والسياسية تدور في فراغ فكري لا مكان للذكاء فيه أو الخلق ، لا يلعب الرأي دورا فيه ، ولا تحدد الحساسية والوجدان معالمه . ليست القصة كلها قصة طعام وغذاء وكساء . أتت هذه المعارك في أعقاب نهضة فكرية معاصرة ، تستمد جذورها الى أيام الاستعمار الاولى في العشر أو العشرين عاما الاخيرة من القرن التاسع عشر ، كانت حينذاك يقظة فكرية ترود الطريق بالطبع ، تستكشف معارجه ، تعنى بالمقالة المثيرة والخطبة العاطفية ، والمحاضرة التحليلية ، وتنظر تارة الى الزنوج في الولايات المتحدة تستلهم جهاد رجالها الاولين في سبيل الكرامة الانسانية ، وتارة الى الكنيسة تستلهم تعاليمهما البشرية في وحدة الانسان ، اخوته . ثم تغيرت الحال على أيامنا هذه تغييرا جوهريا اقتضته الحياة خارج القارة ، واقتضاه التقدم الذى امتد اليها

من أوربا والولايات المتحدة ، والدور الذى شرعت تلعبه بلاد ما كان لها فى مصائر هذه القارة شان كبير قبل الحرب الكونية الاخيرة ، جمهوريات السوفييت واقطار آسيا ..»

تبدأ النهضة الحديثة فى الآداب والفنون مع خمسينيات هذا القرن ، وان كنت اكره هذا التحديد ، خشية أن يلقى فى روعنا ان ذينك العقدين لم يكونا استمرارا للذى سبقهما وتمهيدا للذى نعيشه . الحق هو ان هذا التحديد يعين على الحديث ، لا يعين على شيء آخر ، لم يعد المفكر الافريقى فى أيامنا هذه ينظر خارج قارته الا بقدر ، اتى مرحلة من النضج يستطيع معها النظر الى تراثه ، وقد ازيح الستار عن كثير منه ذى خطر ، وان لم يكن ذلك الخطر الذى تراه فى بعض ما يكتب الكاتبون منهم الآن ، وينظر الى نفسه ، وقد تعقدت مع اقتحام الاوربى عليه داره وادارته بكل معنى يجىء فى بالك ، وتعقدت نظرته للحياة تبعا لذلك ومضيا مع حاجياته المعنوية والمادية . نطق اليوم جيل من الشباب والكهول ترحل فى أوربا وأمريكا وداخل قارته ، وثقف ثقافة مست حياته الآلية والعاطفية والفكرية أعمق المس وهزتها من القواعد . لم يعد هذا الانسان واحدا فى قبيلة الآن ، يأتمر بأمر زعمائها وكهانها لا يتاح له الا ما يتاح لكل فرد فى القبيلة . المثقفون الآن مواطنون اكثرهم فى بلد متكامل ، يشركون الدولة آراءها وأعمالها ، وبعضهم يصنع هذه الآراء ، يقوم على تنفيذها أحيانا أخر ، ويدرس معقبات هذا كله من بعد ، ليصلح الخطو ويأمن العثار ، وأهل الرؤى سادة المستقبل من هؤلاء المثقفين لا يحسون

بالوطن الواحد الذى نماهم على انعزال ما عرفوا الا ترابه والا سعده ونحسه ، يرونه الآن وطنا فى مجموعة متشابهة من الاوطان . ولاؤهم الاول حقا له فهو الذى عرفوا منذ الصبا ، ويزاحمه ولاؤهم للقارة الافريقيــة اكتشفوها اليوم وحدة متساندة لا يحول دون تحقيقها فى السياسة والاقتصاد الا « آلهة الصفيح » ذوو الاثرة والانانية كما يرى الثائرون الغاضبون ، والا اختــلاف المناهج والسبل ، كما يرى المؤمنون بها من المحافظين .

ما أكثر ما تسمع هذه الايام « انا افريقى » عبارة ما الفها الناس من قبل . كانوا حين يقظ التــاريخ يفتح عينيه ، يروبا ، كيكيو ، بانتو ، ومشــــوا خطــوة مع الزمان الاوربى ، فأصــــبحوا نيجيريين ، كينيين ، وكمرونيين ، ومشـــوا مرة أخرى مع الفجر الجديد فأضحوا افريقيين تجمعهم العاطفة النبيلة ، والمصلحة المستنيرة ، الا الذين يرهبون ما تجىء به الايام ، وقد أوشكت أيامهم على النهاية . يمكنهم الخوف والتردد ، من قابل لايعرفونه ، والحرص على حاضر صــــلد الفوه ..

كان الانتاج الادبى فى القارة مستحيلا بادىء الامر، لأن المواهب كانت تنفى نفسها طوعا أكثر الاحيان وقسرا بعض الاحايين . احتوت باريس مثلا منذ الثلاثينيات شبابا من الزنوج راح بعضه يطلب العلم وبعضه يطلب العمل وبعضه لا يطلب الا الذى يلقاه . أنشأت الطلائع من هذا الشباب مجلات عديدة ، بقى منها على الايام :

« برزانز افريكان » ، صحيفة لن ينصف باحث اجتماعى أو فكرى بحثه ان لم يضع لهـــا مكانا مميزا فى الذى يرصد من مظاهر التقدم الفكرى والسياسى فى القــارة

الافريقية ، والمارتنيك ، وجزر الهند ، وهايتى ، وملاقازى • صدرت عنها ، وقد رسخت اقدامها كصحيفة ادبية سياسية ، مجموعات من الشعر والقصص والبحوث ، هي اليوم نافذة مضيئة على العقل الزنجي ، فانا لا اعرف كاتبا يستحق اسمه أو سياسيا مهما كان لونه ، لم يكتب لهذه المجلة وقتا ما فى حياته . ولعلك تدرك بعض الذى أعنيه ، حين اشيرك الى هذه المجلدات الاربعة الضخمة التى تحمل بين دفتيها بحوثا ومقالات باقلام طائفة من الشباب والكهول بيدهم الآن مقادير بلادهم العدة ، كانوا من قبل كتابا وشعراء وفلاسفة سياسة . اشتركوا فى المؤتمرين اللذين عقدهما الكتاب والفنانون الزنوج فى باريس مرة ، وفى روما مرة ثانية ، بدعوة من مجلة « برازانز افريكان » التى جمعت البحوث فى هذه المجلدات القيمة ، مقالات فى الفكر السياسى ، والفلسفة الافريقية ، والشعر ، والدين ، وكل مظهر من مظاهر العقل الافريقى الحديث ..

ثم جاء العضد لهذه الصحيفة الرائدة فى باريس من الجامعات فى العواصم الافريقية ، داكار ، اكرا ، عبادان ، وكمبالا . اتجهت جامعات هذه العواصم نحو شئون الفكر العامة وكانت يتيمة من قبل ، وأولتها العناية التى تجدها شئون العلم الخالص والبحوث المتصلة بها فى كل لون من الوان المعرفة ، وأعانت بذلك على الميلاد الفكرى فى القارة ، واطلقت المواهب الحبيسة من عقالها ، ووقفت بحوثها جنبا لجنب مع البحوث التى تصدر عن لندن وباريس وموسكو وواشنطن . اتت هذه الجامعات بذلك القدر من الادارة والمال اللذين

لا سبيل الي حياة الفكر الا بهما ، ولن يتم حديث عن صحوة افريقيا الشاملة الا بوقفـــة لدى بعض هـــذه الصحف ..

نشأت فى عبادان (نيجيريا) مثلا دائرة للدراسات التي لا تتصل بعلم بعينه أو فن بذاته ، ولا تتصـــل بدائرة اواخرى من دوائرالجامعة ، ولا تخاطب مستوى من التعليم المدرسي ، انما تخاطب العقـــل الذكى أنى وجد ، فى الحقل أو فى العمل أو فى المصنع ، رصـــد مجلس الجامعة أموالا طيبة لهذه الدراسات ، فاستقدم القائمون على أمرها شبابا من أوربا ، ما عـــرف الاوربى حاكما فى القارة ، شبابا عاش خير أعوامه خلال الحرب ، وتشرب لذلك مبادىء الحرية للنـــاس كل الناس ، والعدالة الاجتماعية للطبقات ، ونذر حياته لهما يشيع دروسهما أينما كان ، لا يحقر ثقـــافة ، وان سذجت ، ويمتع بالافريقى ، لا لأنه عادية من العـــاديات ، بل لأنه يعرف حياة تستأهل الدرس والتعمق ، ففيها ـ وان بدت بلهاء للعابر ـ حكمة وأصول ، فيها فلسفة ترفد الموكب البشرى الذى غفل عنه طوال القرون ، وتخصبه وتثريه . على يد حفنة صـــغيرة من هؤلاء ولدت مجلة « بلاك أورفيوس » فى عبـــادان وعملت فى حياتها القصيرة التى لم تعد عشرة أعـــوام ، عمـــــلا جديرا بالاكبار والاجلال ، لا للمواهب النيجيرية وحدها بل لـــكل المواهب الافريقية ، نشرت القصة القصيرة ، والشعر الحديث ، والمقالة ، وتذيع الفنون الافريقية الاخرى ، كالتصوير ، والنحت ، وتذهب فى كل ركن تبحث عن المواهب ، تعينهـــا على النشر والاتصـــال بالقـــارئين ، واكبر يقيننـــــا الآن ان مجلة « بلاك

اورفيوس » لن تظل وحدها فى الميـــدان ، فقد رايت منذ شهور ، حفنة مماثلة من هـذا الشباب الافريقى والاوربى تعد العدة لاخراج صحيفة فى كمبـالا لتخدم قضايا الادب والفن فى شرق القارة ووسطها ، كما تفعل مجلة « بلاك أورفيوس » فى غرب القارة ، واتتنى من بعد مجلة « ترانزشن » فاذا هى ـ وقد صدرت ثلاثة أعداد منها حتى اليوم ـ تولد مكتملة النضج ، فيهـا شـعر ، وقصـة ، وبحث ، وانباء ادبية ، كلها حقيقة بعنـاية من يريد ليعرف ماذا يدور بخلد القـارة ، ويعتمل فى وجدانها الجديد ..

يجد قارىء هذه المجلات الادبية أسماء غير تلك التى سمع عنها من قبل . لن يجد سنغور ، فقد انصرف للبناء السياسى الا قليلا الآن ، ولن يجد ازكوى ، فقد خلق مدرسة فى الفكر وشرع الآن فى الحقل السياسى الذى هيأ له من قبل ، ولن يجد كنياتا ، فالعمـل الحزبى يستغرق كل الذى بقى فى الرجل الكبير من جهد . وليست السياسـة العلمية وحدها هى التى أخرجت هؤلاء القادة من سبيل العمل الفكرى . حقيقة الامر هو ان هؤلاء وكثيرين غيرهم ممن دخلوا مسرح الحياة العامة قبل اليقظة الشاملة ينتمون لجو فكرى انقضى عهده . كانوا يعيشون ثقافة أوربية وأخـرى افريقية فى آن واحد ، ولكن الشبـاب المعاصر فى القارة لا يعيش ذلك التمزيق المؤلم ، ولم يعد يعتذر عن افريقيته كما كان يفعل بعض الاولين . ملئت نفسه ثقة الآن وعزة ، يأخذ العلوم والآداب والفنون والحرف من أوربا ، ويعنى أكثر العناية بادوات هذه النظم ، ليعمل بها فى بلاده الصغيرة من ناحية وفى قارته من

ناحية أخرى . اقول ادوات هـذه النظم ، لا النظم نفسها ، فهذه بعيدة عن مناخه اكثر الاحيـان ، لا تتفق والتراث الذى تيقظ له الافريقى الحديث ..

لقد هيأ الاولون الارض للشباب المعاصر حتى ليرى بعض الناس مشابه بين نكروما ، وروسو ، وبين سنغور ومنسكيو ، وبين أزكوى ، وفولتير ، مشابة غير دقيقـة ولا شك ، ولـكنها تضع هؤلاء الـكبار مكانهم فى الفكر الافريقى على نحو يقرب لنا هـذا المكان ، لأننا اعرف بالثورة الفرنسية منا بالثورة الافريقية ، هذه نعيش أيامها ونعجز عن الحكم عليها ، وتلك فى ذمة التاريخ ، لا مشقة كبيرة فى معرفة أدوار رجالها . ترى فى الادب الافريقى المعاصر اسماء تصعد كالشهب هذه الايام ، ويخيل الينا مما نراه ان الحقلين : السياسى والفكرى بسبيل أن يتخذ كل منهما سمته ورجاله ، اذ لم تعد حاجة لـكل واحد أن يجمع العالم فى شخصه فيكون الصحفى ، والاديب ، والسياسى ، والثائر ، فى وقت واحد . سينصرف للأدب رجال ، وللسياسة رجال ، فما عادت هذه النظم يسيرة ، كما كانت ، تعقـدت وسـائل السياسة وأهدافها وتعقدت وسـائل الفكر وأهدافه الآن ، والقصة ، فى نهاية التحليل ، قصـة تعمق للنظام الذى يختاره المفكر ، وقصـة وقت يتاح للواحد ايامنا هذه « المضروبة سوط » ـ العجلة ..

المقالة

لم يكن الادب الافريقي ليختلف عن غيره من الآداب في استعانته بالمقال القصير او البحث الموجز للتعبير عن نحواه ، فعند منتصف القرن الماضي اتخذ هذا الاسلوب فئة من الساسة والمصلحين ورجال الدين ، ليبشروا بآرائهم الجديدة في السياسة والاصلاح وليذيعوا تعاليم المسيحية بين الناس . على راس هذه الفئة المناضلة ادوار بلايدن ، اقدم السياسيين في غرب افريقيا التي كان يعدها كلها موطنه ، وان كان مواطنا ليبريا في الاصل . طاف بلايدن غرب القارة وكانت اوربا قد ملكت الامر كله في ذلك العهد وحملت متطوعة « عبء الرجل الابيض » . رأى بلايدن من مصاعب قومه ما دعاه الى الترحال في اوربا والولايات المتحدة ، يدعو الى شراك الاهلين في القارة في نظم الحكم ، اعدادا لهم وتهيئة للاستقلال في النهاية . كتب مقالات في صحف تلك البلاد والقى محاضرات ، جمعت من بعد في كتاب يعد اليوم مرجعا في دراسات القومية الافريقية ، على ذلك العهد الذي تاه فيه الاوربي بقدراته ، يحمل الناس حملا على بلع آثارها ، لا تعنيه نتيجة . والامر الذي لا يشك فيه باحث ، هو ان بلايدن والقس كراونر ، كلاهما كان يستلهم في الذي يكتب

زنوج الولايات المتحدة على ذلك العهد ، وكانوا كما تعرف يعيشون حركة فكرية صاخبة تقتل فيها الآراء السياسية والدينية بين المغالين أنصار العودة للقارة الام والمعتدلين أنصار الكفاح في الولايات من أجل المساواة والعدالة . خير ما يمثل الجدال على ذلك العهد آثار دكتور دى بوا الذى كتب « روح الزنوج » ، مقالات نسجوها بادىء الامر وجمعها فى كتاب لا زال يحتفظ برونقه اليوم ، ويقينى أنه سيبقى واحدا من روائع ما كتب الزنوج ، فالنسخة التى قرأتها منذ شهور طبعت عام ١٩١٨ وهى الطبعة الحادية عشر ، ويجدر بى وأنا أتحدث عن الملهم الاول هذا ان أقول ان الرجل ، وقد أربى على التسعين سافر منذ فترة الى اكرا ليشرف على « السيكلوبيديا افريكانيا »

أما خصمه ماركس جارفس الذى دعا لصهيونية افريقية وعودة للقارة الأم فلم يجد من التقدير والاكبار ما لقيه دى بوا ، وان كان قد اثر ابلغ الاثر على القارة الافريقية أيام كفاحه : يروى مؤرخو القومية الافريقية مثلا ان ملك سوازيلاند فى العشرينيات لم يكن يعرف اسم زنجى خارج اقليمه الا اسم هذا الرجل ، الذى اسمى نفسه فى وقت من الاوقات « رئيس جمهورية افريقيا » . لو عاش على ايامنا هذه لعد مهرجا أكثر منه مصلحا ، وما كان فى الحق كذلك . كان كثير الاحلام ، قضى أخريات عمره يخطب فى هايد بارك ، وكانت رحلة ذهنية طويلة ، بدأت فى جمايكا حيث ولد ، وانتهت على مقاعد تلك الحديقة الرطبة لا يلوذ بها الا الذى عذم الملاذ ، سمت أو سفلت مراغبه ..

ثم انتشرت معاهد العلم ، وعادت حفنة من الشباب

من مدارس الولايات المتحدة واوربا ، فصدرت فى أكثر من ركن فى افريقيا صحف تدعو الى الاصلاح الاجتماعى ، وتطلب الى فرنسا وانجلترا قليلا من التطور السياسى ، روح كسيرة تتهيب الوضوح فى الطلب ، ولا تعرف يقينا كنه هذا الاصلاح السياسى الذى ترجوه ، واحيانا تشحذه . كانت يد الاجنبى

قوية ضارية ، ويد الافريقى رخوة لا تقوى على كثير. ثم هب على القارة اعصار . هب عليها اعصار حينما رجع دكتور أزكوى ورفاق له كثيرون ، وكان أمادا شابا فى زهرة العمر حين عاد من جامعةلنكلن فى طليعة الثلاثينيات، وسيدرك الذين تتبعوا تقدم مصر نحو العصر الحديث والاستقلال ، معنى قولى أن جريدة « رائد غرب أفريقيا »

فى الثلاثينيات من قرننا هذا ، حملت العبء الذى حملته جريدة « اللواء » فى مصر فى العقد الاول من هذا القرن ، وكانت صحيفة مقالة كما كانت أختها تلك . كان مصطفى كامل سوطا لاهبا على الاحتلال ، يخشى قصر الدوبارة أن يستيقظ كي لا يقرأ لهذا الشاب الذى دعا للتطرف ونعى على الاعتداليين استخذاءهم وعقلهم الكسيح . لم يرق أزكوى مرآقى مصطفى كامل لاسباب

لا تشينه ، ولكنه كان سوط عذاب على الاحتلال فىاقليمه ، وان تركها اليوم لتلاميذه ، ولم تعد « رائد غرب أفريقيا » تلك الصحيفة التى كان يتطلع اليها المتعلمون فى الاقليم . أضحت صحيفة عصرية يعنيها الخبر الزاهى والمقال الثائر ، وتعنيها المقالة القصيرة تهدف لفكرة واضحة يقولها الكاتب فى كلمات معدودة تثير التفكير والتأمل، يحذقها اليوم فى الصحافة العربية كثيرون

وكثرت الصحف بعد « رائد غرب افريقيا » وكان

من نتائج هذا أن تيسرت اللغة ، فالكاتب لم يعد يكتب لصفوة من الناس مختارة ، واتسعت آفاق المواضيع التي يعالجها الكتاب . وكان طبيعيـــا لهذا أن يتجه الشباب المعاصر الى المقالة الادبية الانيقة يعبر بها عن عاطفة بذاتها يحلل بها احساســا بعينه أو يصف بها شيئا وقع ، وعلى الذين يريدون مدخلا للعقل الافريقى اليوم والعاطفة الافريقيـــة المعاصرة ، أن يقضوا بعض الوقت مع هـــذه المختارات التى تملأ مكتبات الغرب اليوم . شرعت هذه المختارات صحيفة « درم » التى تصدر فى جوهانسبرج قدى فى عين فيرفود ومدرسته. طلبت الى واحدة من هؤلاء اللواتى وهبن شطرا طيبا من حياتهن الفكرية لقضايا القارة من كل لون ، وما أكثر الوانها اليوم ، أن تجمع شيئا مما يكتب الافريقيـــون ، فطافت أرجاء القارة من زنجبار لقـــابون ، ومن كيب تاون لقندار وجمعت طائفة صالحة ممـــا يكتب النـــاس فى هذه الاقاليم ، وقدمت لها بمقدمة عاطفة حانيـــة ونشرتها عام ١٩٥٨ بعنوان مضيء لطيف هو « الضيـــاء والظلام » . وتوالت المختـــارات بعد بقى روثر فورد ، فأصدرت مجلة القرن العشرين بعـــد عام واحد عددا خاصا بأفريقيا ، دعت له شـــلة صـــغيرة من كتاب افريقيا ، وشلة أخرى من الاوربيين العاملين فى حقـــل الشئون الافريقية ، كتبوا مقالات فى الادب والسياسة والاجتماع ، ما لبثت أن صارت مرجعا للباحثين اليوم ، وفى عام ١٩٦١ ، هيأ الله لهذا اللون من الادب الافريقى زنجيا من الولايات المتحدة اقتعد مكانه منذ زمن بعيد بين شعراء الزنوج خاصة ، وشعراء العالم وروائييه عامة ، فأصدر خير مجموعة فى تقديرنا بعنوان «خزانة

افريقية » ولم يكن بدعا أن يقـــدم لانقســـتون هيوز ، مجموعته هذه من المقالات والقصص والاساطير والشعر المصطفى ، ببحث قصـــير يلقي على الفكر الافـــريقى اضواء باحثة تدفع قارئها للتطلع الى مزيد من هـــذا الادب الشيق . كتب لهذه الخزانة الافريقية ايموس

تتوالا الذى لم يتلق تعليما يذكر فقد ولد فى غابة من غابات نيجريا ، وجاء المدينة ليعمل صبيـــا لصائغ ، وكتب لها ابيوس نـكول ، الطبيب الذى اهل نفشه فى كمبردج ويعمل فى بلاده سيراليون الان ، اما مـاتى ماركوى فما زال طالبا اليوم يعمل لشهادته فى المملكة

المتحدة ، وقد عدا الثلاثين الان ، لان غانا لـم تيســر له امله فى التعليم الا منذ قريب حين استقلت وتلفتت تبحث عن المواهب ، ومن جنوب افريقيـــا كتب لهذه الخزانة حمال يعمل فى ميناء اقليم الكاب ، وليس هذا بالطبع مقاله الاول ، وكتب لها الســـيـــد بنبنقو بلاى الذى كان حين ارسل مقاله للخزانة عضوا فى برلمـــان غانا ، كما كان سنغور فى فرنسا يمثل الســـنغال فى

الجمعية الوطنية هناك : مجموعة من الحرف والاعمار والبلاد والخبرات يجمع بينها انها مواهب حقيقيـــة ، عرفت سر الحرف واتجهت اليه واستعانت به لتعبر عن هذه الصدامات الضـــخمة التى تعيشها النفوس الحســاسة فى القارة ، التى صعب معها هذه الايام أن تتابع أنبـاءها ، والتغييرات التى تطرأ على كل شىء ، حتى على أسماء أقطارها ، على نحو ينبغى عليـك أن تغير خارطة القارة على مكتبك فى أوقات غير متباعدة . .

تتناول هذه المقالات التى أشير اليها مواضيع متفرقة تتصل بالحياة فى جوانبها العدة ، فحزقيل مفاليل ـ

وهو في تقديرنا سيـــد المقالة الافريقيـنـــة ، يكتب عن « أزمة المثقف الافريقى » وابرهامز يكتب عن «السود» وهى من أمتع ما كتب فى أدب الرحـــلات على أيامنا الحاضرة : رجع للقارة وقد أوفدته واحدة من كبريات الصحف فلقى رفاق الصبا والـكفاح الاول ، وقـــد تقدم بهم كلهم العمر . لقيهم يكافحون على نحو جديد : نكروما يعمل للبناء وقد انتهى من التقويض ــ تقويض الاستعمار ، وكنياتا يكافح على صـــعد عدة أشـــقها الصعيد الذاتى . لقيه ابراهامز مشتتا ، بين بعض نفسه تجنح لاوربا ، كتبهـــــا ، مســـــارحها ، فتيـــاتها ، وجدانياتها وكل الذى ألف هناك واحب ســـبعة عشر عاما من حياته الفتية ، وبين قيادة هذا الشتيت الذى لا يفهم منه الا قليــلا ويحتاج لـكثير ، وشبيه بهذه الصورة الحزينة ، صورة رسمها لنفسه ابيوس بيكول فى مقاله « العودة لغرب افريقيا » عاد من كمبردج بعد أن قضى بها « اعوام سعيدة » ليقيم فى سراليون يعمل بين أهله ، ويحيـــا « موزعا الوجود بين غرب أوربا وافريقيـــا » الوجود الروحى ، والوجود الجسدى ، شأنه شأن غيره من شباب قبيل الحرب . ولم يكن ممكنا أن تخلو هذه المختارات من مقال سياسى ، كتبه توم بويا عن « الحرية الافريقية » وهو واحد من هذه الارواح النادرة التى تستطيع العيش على كل صعيد. تكتب هـــذه المقالة التى تحلل نزوع افريقيا الحديثة للاستقلال ، تحليلا ذكيا عارفا يستحق مكانه فى هذه المختارات ، وتستطيع التحدث للجماهير العمـــالية فى مساكنها التعسة حول نيروبى وممباســـا ، يثيرها ان اراد ويسوقها سوقا الى الهدوء ان رغب ، يعينه على هذه الاخيرة وجهه الوسيم الضاحى ، وصوته الودود

الماكر ، وسواحليته التى يتقنها ــ فيما فهمت ــ أدق الاتقان . وفى واحدة من هذه المختارات مقال يصف فيه كاتبه اللقاء بين قادة القارة السوداء فى المؤتمر الاول للشعوب الافريقية عام ١٩٥٨ فى اكرا ، وصف لا يتصل بالسياسة اتصاله بهذا الحس المرهف الرنان يربط بين المكافحين فى كل بقعة فى القارة . يقول الكاتب الحساس يصف الاصرة بين المكافحين عن أوطانهم وعن القارة فيقول : « الساعة العاشرة يصل رئيس الوزراء دكتور نكروما برفقة وزرائه . يقف توم بويا ، الشاب دافق الدم حاره ، أفعل الرجال فى كينيا واقدرهم الآن ، رئيس المؤتمر ، يقدم رئيس الوزراء ، ويقول شيئاً عن مكان المؤتمر فى يقظة القارة . يلمح دكتور نكروما سفير تونس فى لندن جالساً بجانبى . ما أعجب هذه الكهرباء تفتر عنها شفتاه وهو يلوح بيده أهلا يرحب بالسفير التونسي . ويقوده توم نحو المنصة ، ذراعه حوله يلفه بها ، يهمس شيئاً فى أذنه . لايسعني وأنا أرى هذا الذى أراه الا أن أقول لنفسى هذه افريقيا التى تفهم التقاليد فهما يختلف عن فهم الاوربى لها . . . » وهكذا . . ان لم تكن هذه كلمات رابطة بين النفوس واثقة ما بينها ، فأين ؟

القصة الأفريقية

يكتب سنفور مرة عن فن الحكاية فى افريقيا فقال : « الحكاية التقليدية عند الافريقى ، نسيج موشى من حوادث كل يوم ، وليست المسألة هنا مسألة نوادر تحكى أو قصص ، من صميم الحياة تستحيل الحوادث هنا صورا ، يتخيلها القصاص ، يسعى لنقلها للسامع ، وتتخذ هذه الصور من أجل هذا ، قيمة النموذج أو التمثال ، وتشير اشارة أبعد من تلكم اللحظة التى حكيت فيها الحكاية . لن تجد واحدا من اشخاص الحكاية فردا لقاء مجموعة بالمعنى الذى تعرفه أوربا . يمثل كل واحد من هذه الاشخاص نموذجا ندركه أو مثالا نتصوره ، مثله فى هذا مثل النقاب الافريقى » . وأرجو أن تعيد قراءة هذا الذى يقوله الشاعر الرئيس ، فهو واحد من الذين يختارون كلماتهم فى دقة دقيقة ، لانه لايقول الا دقيقا طريفا من الاشياء ، ولن يشق عليك أن تدرك بداهة ، الى أن الحكاية التى يكتب عنها لا تختلف عن الذى ألفناه فى حكايات الاقدمين عندنا والاساطير . الحكاية هنا كما هى هناك صور وأخيلة ، ليست من « صميم الحياة » فى كل حالة . الاشخاص نماذج للعفة والخسة ، والاقدام والجزع ، وما اتصل بهذه الاخلاقيات بسبب . لكن القارىء

العربى لا يعرف كثيرين فى أيامنا هذه يكتبون الحكاية على هذا النحو ، لم يعد أحد يكتب على نمط عيسى بن هشام وعلم الدين، فقد انتهت مقتضيات ذلك الاسلوب عندنا لحد بعيد وقضت القصة بمفهومها الاوربى بعد دانتي وشوسر وغيرهما على هـذا النموذج . ولـكن افريقيا تلجأ من حين لآخر لهـذا النمط ، توضح به فكرة لا سبيل الى توضيحها للعامة كما فعـل جومو كنياتا أول عهده بالجماهير فى حكايته التى ستقرأ بعـد قليل ، وكما يفعل الآن ايموس تتوالا ، لا ليوضح فكرة ، بل ليلقى أضواء كاشفة على الخيال الافريقى وارتبـاطه بالحياة السياسية والاقتصادية ، وليسلى القارىء ويمتعه متعة لا تقتضيه أعمال فكر ..

لن أقف اطول من هـذا عنـد فن الحكاية عنـد الافريقيين فهو لا يختلف فى جـذوره ودوافعه وروحه عن هذا الفن عند غير الافريقيين الا بالقدر الذى تفرضه البيئة على الانسـان فى مختلف اقطـاره . نريد الآن لنمضى قدما فى الحديث عن القصة بمفهومها المعاصر ، ولنقل توا انها اتخذت فى عشر اعوام أو أقل ، مكانة فى الادب العالمى ــ وأقولها وانا أعنى ما أقول ــ المعاصر ، لا من أجل هذا الحرص الذى تراه فى كل مكان اليوم للتعرف على القارة ، وان كان فى الأمر قليل من هذا ، بل لأنه فن جدير بانتباه العالم فى بنائه وفحواه ، لأنه استطاع فى هذه الفترة القصيرة أن يشرح افريقيا للذين يبحثون ويعيشون للبحث ، كما لم تستطع اداة اخرى من أدوات التعبير عن الذات . قال ناقد بريطانى يصف قصة من هذه القصص التى وجدت طريقها لعديد من لغات العالم : « تعطينا صورة عن افريقيا الزنجية ،

ما استطاع رسمها كل المامبو جامبو الذى يسود به السادة البيض صفحات الورق ، كلما عادوا من رحلة للصيد وجمع العاديات » . ولن أنصفك أن لم أبين لك ان هذا التعليق على قصة منقوبيتي ، ماكتبته صحيفة عادية . كتبه الملحق الادبي للتايمز ، ومضى يقول عن كاتب « بعثة الى كالا » : « هذه موهبة أصيلة » ، ولا شك عندى فى أنه ما أبعد أن صاحب « بعثة الى كالا » و « الملك عزرا » موهبة من تلك المواهب التي احتلت مكانها اليوم من كوناكرى ، وايوندا ، وفريتون ، ولاقوس ..

واحب قبل ان امضى فى هذا الحديث لغايته أن أؤكد لك تأكيدا أن الذيوع الذى تلقاه هذه القصص ، لا يتصل من قريب أو بعيد بالمصانعة التي يلقاها الصغار من الكبار ليشبوا عن الطوق ، من شواهد هذا ان « الافريقى » اول قصة طويلة كتبها وليم كتن ، لقيت طريقها الى دار سقنت فى الولايات المتحدة ، واحدة من هذه الدور التي تنشر الكتب ذات المكان الاسمى بأغلفة من الورق تعين الناس — كل الناس — على شرائها ، وتقويمى لهذه الرواية هو انها من أضعف ما كتبه القصاصون الذين أعرف ، لكن قارىء تلك الدار راى فيها غير الذى رايت ، وقومها بمقياس غير الذى استعمل ، ويقيني انه اخذ بالصور السياسية التى أتقن رسمها كتن ، وبالصراع الذى اتقن تصويره المؤلف بين القوى المحافظة فى سيراليون والقوى الناظرة أمام . حقا انها صورة طريفة ، ولكنى حسبتها ساذجة ، لاتصل الى اعماق المصاعب التى لقيها محررو افريقيا ، حين شرعوا فى أعقاب الحرب فى تأليف

الاحزاب السياسية والنقابات ، وما الى هـذين من تجمعات ، قامت وسط علائق بشرية معقدة مؤلمة ، ما اتى حتى على بعضهـا المؤلف ، ولعله كان يكتب عن سماع لا خبر • اقول هذا لأن الشطر الذى يتحدث فيه عن حياته العلمية فى الخارج وعلائقه البشرية هناك ، شطر عميق حساس ، وان لم يكن القسم الاوفر فى القصة ، شطر يبدو لنا انه خبره واختزن بصوره فى وجدانه ، الى اليوم الذى كتب ..

وللرواية الحديثة فى افريقيا « قصة وليم كتن نشرت عام ١٩٦٠ فقط » جذور واصول تعود لعهد كان قد صفى عليه الزمان ، الى أن اتت هذه الفئة القليلة من الروائيين ، ودعت النقاد الى التساؤل عن سر هـذه العبقرية فى القصة . أتى هؤلاء الشباب فذكر النقاد اول افريقى ، فيما نعرف الآن ، عالج القصة فى اسلوبها وبنائها الحديث والطريف فى هذا الرائد توماس موفولو أن بينـه وبين رفاعة الطهطاوى شبه ، اقرأ أن تيسر لك ذلك « رحلة الشرق » التى كتبها موفولو عام ١٩٠٦ فى أعقاب رحلة طويلة خارج جنـوب أفريقيـا ، وقارن بينهـا وبين « تخليص الابريز » الذى كتبه الطهطاوى وقد أثارت الشجون فى نفسه « باريس » ستجد هذه المشابة واضحة • وفى عام ١٩٤٩ كتب موفولو قصـة اشتهرت الآن وأذيعت حتى دخلت الفصول المدرسية ، قصة تصور حياة المحارب الزولوى شاكا ، نشرت على التوالى فى أعوام ١٩٥٢ و ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٥٨ و ١٩٦٠ ، ويغلب على ظنى ان لهذا الرواج سببا آخر غير قيمة القصة الفنية ، وهى قيمة ما فى ذلك شك • لقيت الصـور التى رسـمها موفولو

صدى فى نفوس المبشرين . كان شاكا وثنيا من عبدة الاصنام والاشجار ومظاهر الطبيعة ، وقام فى وهم موفولو الذى تثقف على يد المبشرين منذ كان صبيا وعمل معهم فى مطابعهم شبابه كله الاول ، ان شاكا قتل وسبى واستحل الحريم ، ما وزعه وازع من دين ، ولو تعمد فى الكنائس وتنصر ، ما فعل . لم ير فى هذا المحارب فضيلة ، فطرب المبشرون كمن يقول : « وشهد شاهد من أهله » وأذاعوا الرواية على النحو الذى رأيت ، ولكن هذا لا ينقص من قدرها الفنى ، تحتل فى القصة الافريقية مكانة ، جوزف اندروز التى يعدها الكثيرون بدء القصة الانجليزية . على ان شاكا ـ سيد الزولو ما عدم من يرى فيه غير هذا الذبح والقتل الذى ركز عليه موفولو . أضحى اليوم اسطورة تختلط الحقيقة فيها بالخيال ، لأن افريقيا الناهضة ارادت له ذلك ، وهى تبحث كالمحموم عن أصول لها وأرحام فى الماضى الذى انكره الناس عليها ، ولك ان أردت الشاهد أن تقرأ رائعة سنغور الشعرية عن شاكا ، نابليون افريقيا الذى أبى الفزاة من البوير ، ووقع صريعا وهو يكافح عن ترابه . حقائق غابت عن موفولو ، وهو فى قبضة المثل المسيحية التى تأثر بها فى صباه ، وما رأى ماذا فعل بها الناس ، وهم يصطرعون للحياة . .

تلك كانت اللبنة الاولى فى بناء صرح اتخذ سمته حين نزح الشباب الافريقى لأوربا وبريطانيا ، ولم يكن معدى عن أن يتخذوا وسائل التعبير من العواصم التى خفوا اليها للعلم حينا كما قلنا والعمل حينا آخر وفرارا أحيانا أخرى . كان بيتر ابراهامز شيخ الروائيين الافريقيين ، واحدا من هؤلاء . دخل بريطانيا على

سفينة يعمل فحاما عليها ، وعمـــل بادىء الامر مع صـــديقه كنياتا ونكروما يجمع الشبـــاب ضد النفوذ الاجنبى ، واتجه من بعد للـكتابة ، وقد عرف فى نفسه العجز عن مصارعة المتاعب الســــياسية ، واكتشف موهبة قصصية نادرة بعد ان كتب « ولد فى المنجم » يصف حال النازحين من كيب تاون فى مناجم جوهانسبرج وتوالت بعدها الروايات « الاحتلال الوحشى » قصـة اللقاء الدموى بين الماتابيل والبوير ، و «طريق الرعد» القصـــة التى اوثرها على كل ما كتب اليوم ، قصـة الفتاة الاوربية التى دفعت حيـــاتها ثمنا لحبها الفتى الزنجى ، قال ناقد يصف اسلوبها القصصى انها كتبت « بأسلوب الملائكة » وما أسرف فيما نعد وان كنـــا لـم نقرأ للملائكة شيئا بعد .. ابراهامز روائى جدير برائده موفولو ، ولـكن افريقيا لم تكن لتقف عند حد ، وقد راد الطريق بعض ابنائها أول الامر وكان لباريس ـ مرة اخرى ـ يد لا تنكسر على النازحين اليهـــا والمثقفين ثقافتها الملهمة . احتوت هذا الشباب احتواء ، واعطته الـكثير من مواهبها فى التعبـير عن ادق خلجات بنى الانســان ، ولن ينقضى عجبى من ظاهرة اشرت اليها من قبل .. كلما اقبلت هذه المدينة الساحرة على هـــــذا الشـــباب النابغ ، كلما التفت هؤلاء لتراثهم البعيـــد افريقيا . ما بخلت عليهم بشىء من فنونها الـكثيرة ، ولا أوصدت فى وجوههم نافذة من نوافذها العدة ، ولكن هذا الشباب لم ينصرف اليها كما حسبت هى وأرادت . رأى افريقيـــا خلال باريس المعلمـــة الســخية وكانت عينا جديدة تلك التى رات القارة فى ضوء الذى حذقته من علوم فرنسا ومهارتها الذكية فى الحقل ..

كثيرون هم الذين رأوا القارة بعين جديدة ، لكني أرجو أن تهب ساعة من وقتك لهذه القصة التى قرأتها انا فى صمت مرة وقرأتها بصوت عال مرة ثانية أتملى حسن بيانها الرائع « طفولة زنجى » تثير فيك الرضى الذى أثارته « الايام » على بعد ما بين القصتين والكاتبين ، تجمعهما روعة العمل الفنى المخلص . كتب جيمز كيركب الشاعر الانجليزى العلم يقدم « طفولة زنجى » فقال : « انها قصة واضحة ، دافئة ، تأخذ بيدك وعقلك وقلبك توا لجوهر الامر ، تجمع بين الوضوح البهى الذى تميز الفرنسية فكرا ولغة ، والحرارة التى لايستطيعها الا القلب الافريقى » . ولا عجب أن تقذف هذه القصة بكامرا لى - الى المكانة الاولى بين روائيى افريقيا التى تكتب بالفرنسية ، مكانةلاتنافسها الا مكانة شنوا أشنب الذى يكتب الآن بالانجليزية فى نيجيريا . نفذت نسخ قصتيه الآن ، ولم تنشر أولاهما الا عام ١٩٥٨ ، وأعيد طبعهما عام ١٩٦٢ ، قال انقس ولسن : وهو من تعرف دوره فى الرواية الانجليزية المعاصرة : « أنا أتطلع لقراءة قصته القادمة » قالها بعد أن قرأ « وتداعت الاشياء » وليتنى عرفت الذى قال حين صدرت قصة شنوا اشيب الاخيرة . « واستحال أن نطمئن » ولم تكن الا تتمة لسابقتها فالاشخاص هم هم الا الاقلون ، وهم يحيون الحياة الاوربية التى قاومها الآباء والاخوان ، حين أتت كالمحراث تقلب الارض وجها لقفا ، وتحيل الحياة الوادعة العاجزة الى أخرى ذات اقتدار وقلق ورفاه وضيق ..

وليست هذه هى الميزة التى تميز القصة الافريقية ،

فكل قصة تستحق اسمها تعني بشيء أو آخر يشغل على الكاتب ذهنه وقلبه : كنراد عنـــاه البحر فكتب عنه وعن علائق البشر حين يحيون غليه أو قربه ، والبحر هو البطل في أكثر من حالة ، ودستويوفسكى عنته النفس الانسانية في آلامها فكتب عن نفس المتدين، والمجرم ، والمقامر ، والقاتل . كل قصة تعني بشيء أو آخر ، ولـكن القصـة الافريقية المعاصرة تأسرك على صعيد آخر ، صعيد جرس الـكلمة . ما ادرى سر هذا ، ولـكنى ما قرات لليوم قصة أسلوبها الـكتابى لا يسقك من فقرة لأخرى وصفحة لأختها سوقا تلذه وتمتع له ، يخيل لك بعض الاحايين ان الـكلمة في يد هذا الشاب أطوع منها في يد أهلها ، ومن يدرى لعل مرد هذا الى اللذة التي يجدها الداخل على مهل منطقة ما عرفها من قبل ، فالفرنسـية أو الانجليـزية لدى الافريقي دنيا جديدة يدخلهـا على استحياء وجزع ، ويكتشف مع الوقت قدراتها على التعبير عن كل الذى يثور في نفســه . وليس من عزمى هنا أن اعرب لك شيئا من هذه اللغة الحاذقة التي يكتب بهـا القصاصون الافريقيــون ، فأمتع ما يكتبون هو أشــق ما يمكن تعريبه ، يكاد ان يكون أحدهم شاعرا حين يصــف مناظر القرى ، وصراع الصبيان في ضــوء القمر ، وحفـلات الختــان ، وحرص المبشرين ، وهـدوء الشيوخ ، وعفرتة الشباب ، وكل الذى يعين القصــة لتسير للأمام ، تؤكد نقطتها ، دون أن تمل القــارىء أو تضنيه ..

حكاية من أفريقيا

جوموكينياتا يحكي
عن : سادة الغابة

قال : كان ياما كان فى حديث الزمان ، رجـــل فاضل ، وفيل كبير يعيشان فى غابة ، ونشأت بينهما صداقة . وفى يوم من الايام ، فتحت السماء أبوابها ، فنزل المطر وجرت المياه فى كل مكان ، وقلعت الشجر، ورمت الاكواخ . وخاف الفيل من الشلالات الجارية ، والاشجار الواقعة ، وجرى نحو صـــديقه فى طرف الغابة ، وقال له : « يا اخى العزيز انقذنى . انت هنا فى طرف الغابة ، وكوخك على تل لا تاتيه المياه خلنى اضع خرطومي فى كوخك الى أن تقفل أبواب السماء » كان الفيل مبلولا يرجف من البرد ، وعطف على حاله الرجل ، فقال له : « انت شايف كوخى . انه صغير ، فادخل خرطومك ، ولـكن برفق ، بالتدريج » فقـال الفيـــل : « شكرا يا صـــديقى العزيز . أنا لن أنسى معروفك . وان شاء الله ارد لك الجميل فى يوم من الايام » . ولـكن اسمعوا الذى حصـــل ، واعجبوا يا ناس ..

اطمأن خرطوم الفيل فى الكوخ ، فزحف برأســـه ، ودخل الـكوخ ، واتحكر ، فقال الرجل : « حيلك ، ماذا تعمل ؟ » ولـكن الفيل لم يقل شيئا ، ودفعه للخارج ، ورماه تحت المطر ، وقال له من الداخل :

« ياصديقى العزيز ، انت تعرف ان جلدى رقيق وان جسمى ناعم ، انا لا احتمل المطر ، اما انت فتقدر على المطر . لن يغير الماء جلدك . اقعد حتى ينتهى المطر » فصرخ الرجل واجتمعت كل حيوانات الغابة ، ووقفت تسمع الجدال بين الصديقين ، وجاء الاسد من بعيد يقول ويزأر فى المجتمعين : « ما هذا ؟ الا تعرفون انى لا اسمح لاحد ان يعكر السلام فى المملكة ؟ » وخاف كل واحد وسكت الا الفيل قال : فى صوت بطىء مثل اصوات الكبراء يمضغ الكلمات : « سيدى » وسكت مدة ثم تحدث كلمة كلمة مثل الكبراء تماما : « لا يهمك . الأمن فى المملكة على ما يرام . كنت احاور صديقى هذا فى امر الكوخ الذى ترانى اسكنه» فقال الاسد : « لقد سمعت كلام السيد الفيل ، وهو من وزراء الغابة كما تعرفون ، وقررت تكوين لجنة من الكبراء والوزراء فى الغابة . ستدرس اللجنة هذا الموضوع ، وتعرض نتيجة درسها علينا » . وسكت الجميع ، وتلفت الملك يمينا وشمالا ثم قال للرجل : « انا اهنئك على ذكائك . ان صداقتك لشعبى تسرنى جدا : لاسيما صداقتك مع زميلى السيد الفيل ، وزير الدولة الشريف . ثم اطمئن ان كوخك لم يضع ، واللجنة الامبراطورية ستسمع كلامك كله ، وانا واثق ان قرارنا سيرضيك » ولوح الفيل بخرطومه ينهى الكلام ، والحق بين على كل حال ..

وشرع الفيل فى تكوين اللجنة عملا بأوامر الملك وانتهى الى تكوينها كما يلى :

١ ـ السيد الخرتيت وحيد القرن عضوا ..
٢ ـ السيد الجاموس فرس البحر عضوا ..
٣ ـ السيد التمساح عضوا ..

٤ ـ السيد المحترم الثعلب رئيسا للجنة ..
٥ ـ السيد الفهد ـ سكرتيرا للجنة

وبلغ الرجل الخبر فاحتج على هذه اللجنة . كلها من كبار القوم زملاء الفيل ، وليس فيها واحد من أصدقائه هو . فقال له القوم : « يا رجل . لا تخف على حقوقك . ان هؤلاء الكبراء من أنظف القوم يدا ، عرفوا بالعدل والنزاهة طول حياتهم . وزيادة على هذا فان الله اختارهم واصطفاهم ، ليدافعوا عن حقوق الضعفاء الذين ما منحهم الله بسطة فى الجسم وقوة فى المخالب والانياب ، انهم يا رجل رسل الله رب العالمين، ولا يمكن لهم أن يظلموا ضعيفا ، وخاصة الملك هو الذى يقرر الامر . لا تتكلم كثيرا . ثم اسمع : من تريد ان يكون فى اللجنة من أهلك ؟ كلهم قوم دون هؤلاء فى العلم والخبرة . انهم قوم غير متعلمين ، والعمل فى اللجنة صعب ، يتطلب معرفة بقانون الغابة . اترك الامر فى يد العارفين والقادرين ، ونم هادىء البال » وخاف الرجل وسكت ولم يعرف ماذا يفعل ..

ثم جلست اللجنة تسمع الاقوال ، ودعت السيد الفيل ، ودخل سيادته يختال بأنيابه البيض ، وقد دهنتها له زوجته بدهان لامع . سلم على الجلسة ، وقال فى هدوء الكبراء ، وتكلم كلمة ، كلمة مثل الكبراء : « يا سادة الغابة . القصة بسيطة ، ولا داعى لاضاعة وقتكم فانتم تعرفون كل التفاصيل ، وتعرفون أنى الحامى الاكبر لاصدقائى المساكين . هذا الرجل صديقى ولكنه لم يفهم موقفى كما يجب . خفت على كوخه من الرياح ودخلت فيه لاحميه واحمى كوخه ، والمكان الذى جلست فيه كان خاليا غير مستعمل ، ومن واجبى أن أجعل ذلك المكان الخالى

مفيـــدا ومنتجا . ان صـــديقى لا يعرف التنميـــة الاقتصـــادية ، وهو رجل متخلـــف ، ولا بد لى من مساعدته ، ولـكنه أساء الفهم ، ولو كان أحـــدكم فى مكانى لما فعل الا مثلما فعلت أنا . . . » تأثرت اللجنة بهذا الـكلام الجميـــل ، وهز كل واحد رأســـه من الاعجاب ، ولـكنهم دعوا السادة الآخرين ليســـمعوا رايهم فى القصة ..

دخل السيد الضبع وقال : ان كلام السيد الفيـــل وزير الدولة فى الغابة ، كلام حق وفيه حكمة بالغة . وجاءت الحيوانات الاخرى وقالت مثل هـــذا الكلام ، فنادت اللجنة الرجل ، وسالته رايه فى الموضوع ؟ .. فقال : « أيها السادة . . . » ولـكن رئيس اللجنة قاطعه قائلا : « أيها الرجل ، لا تخرج عن الموضوع ، تكلم فى الجوهر . لقد سمعنا القضية من قوم عديدين كما رأيت ، وكلهم ابن ناس وشريف . كل الذى نريد ان نعرفه منك هو ان كان الفراغ الذى احتله السيـــد الفيل يحتاج للتطوير الاقتصادى أم لا . هذه واحدة ، والثانية أن تخبرنا ان كان الفراغ يسكنه أحـــد قبل مجىء السيد الفيـــل . جاوب بنعم ، أو لا . . . » فأجاب الرجل قائلا : « لا . ولـكن . . » فقاطعه الرئيس قائلا : « لا .. خلاص .. » ثم أعلن أن اللجنة سمعت كلام الجانبين فى القصة وانها ستتداول فيما بينها الآن وتبت فى الامر بكل ذمة وعفة . رفعت الجلسة

وذهبت اللجنة لبيت السيد الفيل ، واكلت هناك اكلة طيبة و « اتدشت » كلها ، ووقف الرئيس يعلن القرار : « أيها الرجل ، ان اللجنة اقتنعت بأن السيـــد الفيـــل قام بكل واجباته المقدســـة نحوك ، وبما أن مصلحتك الاقتصادية تقتضى استعمال الفراغ الموجود

فى الـكوخ ، وبما انك غير راق وغير متعلم الآن ، ولا تعرف أن تستفيد اقتصاديا من الفراغ ، فقد قررنا أن نعمل صلحا بينك وبين السـيد الفيل ، على الا يضر هذا الصلح بمصلحة أحد تحت حمايتنـــا من اليوم . لا تخف شيئا بعد اليوم . وخليك جــدع » . وكان الرجل يسمع هــذا الـكلام ، وينظر الى الانيـــاب والمخالب . وكانت تتحرك أمام عينيـــه وتلمع ، وخرج ساكتا فما فى الامر حيلة . ولـكن المحنة ظلت وراءه . بنى لنفسه كوخا آخر ولـكن الخرتيت راى الـكوخ وسر من موقعه وبنـــائه ، جاء بقرنه السكين واخرج الرجـل ثم جلس مكانه ، واشتكى للجنة الامبراطورية لأنها قالت له انها ستحميـــه وتدافع عنه . ثم قامت اللجنة وقعدت ، وقررت أن يسكن الـكوخ زميـــلهم الخرتيت ، وأن يبنى الرجل كوخا آخر . تماما كما أمروا من قبل . فبنى الرجل كوخا ثالثا ، ونزل فيها السيد الفهد ، وقررت اللجنة نفس القرار .. وهكذا راح يبنى الرجل كل فترة كوخا ويحتله واحــــد من سادة الغابة ، واللجنة الامبراطورية تقرر ما قررته من قبل . وهكذا . . . حتى سكن كل السادة الحيوانات فى أكواخ بناها الرجل بذراعه . وجلس يوما يفكر فى حاله ، فقال فى نفســــه : « لابد من مخرج » ولـكن ما هو المخرج ؟ .. وفجاة تذكر ان جده كان قد قال له : « يابنى ، لا شيء يمشي على الارض يستحيـــل اصطياده » . معنى هــذا الـكلام ، ان الواحد منا يخدع بعض الوقت ، ولـكنه لا يخدع للأبد ، الا اذا كان « بقجة » وفى الصباح شمر عن ساعده وبنى كوخا جميلا قوى البناء اكبر من اى كوخ بناه ، وجلس جنبه ينتظر . لقــد تكسرت اكواخ الســادة الحيوانات من

حوله ، واهتزت قواعدها من الاهمـــال ، وها هو ذا كوخه الجميل القوي ، وفى هذه اللحظة جاء الســيــد الخرتيت وجرى ريقه لما رأى الـكوخ الجديد ، ونظر الى الرجل فى احتقار ودخل الـكوخ الجديد ليمتلـكه كما امتلك الـكوخ الذى يسكنه الآن . ولـكن اسمع وانظر . . . هذه مفاجاة غريبة .. لقد وصل السيد الفيل قبله ودخل الكوخ ورفد واحتل له مكانا وهات يا جدال وكلام بين الســـيدين الـكبيرين . كل منهما يريد الـكوخ لنفسه .. وسمع الســـادة الحيوانات الآخرون بالخبر وجاءوا واحدا وراء الآخر .. الفهـــد يطل من النافذة ، والضبع فوق السقف ، والاســـد يدخل من الباب ، فهو « اجمص » من أن « يدبى » من النوافذ والقدود ، والتمساح متمدد فوق السقف يتشـــمس ، والثعلب يقفز هنا وهناك ، والصيـــاح والصراخ والعويل فى كل جانب ، والانيـــاب طالعة ، والمخالب تدخل وتمرق . وسالت الـــدماء المقدسة لأن المخالب والاضراس تعبت من الجـــدال ولجأت للعض والقرص والرفس والطعن ، وهنا جاءت فرصة الرجل

بينما السادة الحيوانات منهمكون فى الضرب والركل والعض والقرص والخربشة أشعل النـــار فى الـكوخ ، فهوى الجميع رمادا وهوى بهم الكوخ ، وامتدت السنة النار للغابة لا تبقى سيدا ولا بذر شجرة . وجاء الماء والرجل ينظر للسماء حمراء من اللهب ، ويشم رائحة لحم السادة الحيوانات . ثم استلقى على ظهره ينظر للنجوم خلال اللهب وهو يقول : « السلام غالى لـكن ثمنه فيه » ونام فى تبات ونبات حتى الصباح ، لا تقلق نومه أحلام التنمية الاقتصادية ..

الشعر فى أفريقيا

تنشر الصحف فى العواصم الافريقيـــة وفى باريس شعرا يتميز بافريقيته ، وعلى الذين يرتابون فى وجود شخصية افريقية ، أن يقرءوا بعض هذا الشعر ، فهو تعبير عن روح افريقيا الحديثة ، وعن تطلعها الجديد ، وعن الذى ترضاه والذى تأباه ، ولا على القارة ان لم تنجب حتى اليوم شـــوقيها ، فهى كما تعرف بابل الجديدة ، يكتب أهلها بلغات افريقية عديدة ، وثــلاث لغات أوربيـــة هى : الفرنسيـــة ، والانجليـــزية ، والبرتغالية ، وسيظـــل النوابغ من شعرائهم يخاطبون اقوالهم المفردة ، الى أن يتــاح لهم ما أتيح لشـــوقى ونازك من صيرورة ، لانهما كتبا بلغـــة تشـــد أوطان العرب كلهـــا ، أو يتاح لهم ما أتيـــح لأودن ودلان ، لانهما كتبا بلغة تشد طرفى المحيط الاطلسى ، وتنتشر فى بلاد رابطة الشعوب البريطانية ، وما هى بريطانية الا فى هذا اللسان الذى به تنطق . ومن شـــواهد هـــذا الذى نقول ان الشعراء الذين يكتبون بالفرنسية مثلا ــ سنغور وديوب ــ يكاد بعضـــهم أن يجد طريقـــه للمختارات العالمية ، بينما الذين يكتبون بلغات الاقاليم لا تعرفهم الا الاقلية من المهتمين بالشـــعر الافريقى .

وقصة اللغة فى القارة معضلة ما فرغ لها كثيرون بعد..

وشىء آخر لم يتح للشـــعر الافـــريقى أن ينتشر ويزدهر ، هو انه لم يجد طريقـــه للنشر الا على يد الصحف التى ذكرتها وكلها حديثة العهد ، فشـــعر نيجيريا مثلا وهى البلد التى عرفت بعد ذكر وعز مكان فى القارة ، لم ير النور مكتوبا الا عام ١٩٤٩ ! ! جاءها هنرى سنونزى محرر « الشئون الافريقية » يبحث عن آثارها المكتوبة والسارية على الالسن فعثر على شـــعر أثار اهتمامه ، وكان من جمائله أن عرف قراء اللغـــة الانجليزية ــ فيمن عرفوا ــ شاعر نيجيريا الرائد دنس اساديبى ، صاحب المجموعة الشـــعرية الشهيرة الآن « افريقيا تغنى » أول مجموعة نشرت فى ذلك الاقليم ، الذى عرف بعضا من أقوى الشعراء فى القارة بعد أن ظهرت « بلاك اورفيوس » صحيفة الفن الخاص التى تصدر عن دائرة الدراسات العامة فى الجامعة فىمبادان. وكذلك الحال فى الاقاليم الشرقية للقـــارة ، والاقاليم الوسطى . كان شعراؤها يكتبون بالسواحلية وهى لغة افريقية معربة فيما يقول البعض وعربية مؤفرقة فيما يقول الآخرون ، وكان صعبا أن ينشر هذا الشعر ، ولم يزل كذلك ، الا فى ترجمات قليلة لا تنصفها ، فيما يقول الذين يعرفون الاصل ..

لـــكن الحـــال لم تكن كذلك فى الاقاليم التى ثقفت ثقافة فرنسية • عرف الجمهور الفرنسى كثيرا من شعر الزنوج فى المارتنيك وفى غرب افريقيا وملاقازى . يسرت باريس للمهاجرين من أبناء الاقاليم كل سبيل للنشر ، كما يسرت لهم ذلك المنـــاخ الفكرى الذى لا تستطيعه غير باريس ، وتتميز به .. عرف عنها الشباب المهاجر

مكان الشعر فى التعبير عن النفس الانسانية ، وليست صدفة محضة ان المدرسة الشعرية الذائعة الصيت ، كانت وليدة مدارس من الشعر عرفتها أوربا أول ما عرفتها عن باريس فى العصر الحديث . الزنجية ابنة المدرسة الرمزية فى شق ، والمدرسة التعبيرية فى شق ، أذاع خصائصها واقتدارها على التعبير عن الروح الزنجية الطامحة الحانقة برتن ، كاهن المدرسة التعبيرية ، شيخها الاول ، وليس صدفة محضة ان ليوبولد سنغور أوفر الشعراء الافريقيين صيتا ، كتب الشعر ونشره باللسان الفرنسى فى الوطن الفرنسى ، أيام كان يعمل فى التدريس هناك . على ان تفوق الزنوج الفرنسيين فى الشعر على اخوانهم فى بريطانيا لا يعنى أن هناك شيئا فى التربة الفرنسية يعين على الشعر . الله يعلم ان التربة الانجليزية لا تقل خصوبة عن أختها الفرنسية فى هذه السبيل . قلب الحقيقة هو أن فرنسا لم تلق حجابا بينها وبين ذلك الشباب المهاجر ، وما كانت انجلترا كذلك ، كانت تريدهم افريقيين يتعاونون معها في الادارة والتجارة والزراعة لتعيش هى راضية سعيدة ، وتبعد الافريقيين عن بداوتهم الاولى ، بقدر يتيح لهم أن يتعلموا ويعملوا ويكدحوا وهم فى افريقيتهم لا يبرحونها ، الا اذا اقتضت هذه النشاطات ان يتخلوا عن شيء أو آخر يعوق سيرها للأمام . .

لم يهاجر الى العاصمة البريطانية شباب ليحيا ويرتزق بين الانجليز ، وهاجر لباريس شباب ليقيم هناك ويذوب فى الحياة فيها ، لا يذكر الا من حين لحين وطنه الأم واهله هناك ، واثار النوابغ من هؤلاء حب وتقدير الطليعة الفرنسية . قرات هذه الطليعة شعر

ديوب ، واخوانه ، ورأته على ضـوئها الثائر ، ولن يستكمل بحث عن الشعر الزنجي ان لم يذكر معارف سارتر عليه . كتب بحثا يقدم به أول منتخبات للشعر الزنجي ، يعد اليوم بدءا للدراسات الشعرية فى القارة ، ونافذة مشعة يطل الواحد منها على نوازع الشعر عند الشعراء الافريقيين ولا أعرف مقـالة لقيت من الثناء والاعجاب ما لقيته مقالة « اورفيوس الاسود » ولعل خير شاهد على هـذا هو أن الصحيفة الزاهرة التى أشرت اليها من قبل ، اخذت اسمها من هذا المقال ، ولعبت دورا مركزيا بعد هذا فى اذاعة الشعر الزنجي ، حتى أصبح اليوم جزءا متمما للتراث الشـعرى كله فى فرنسا ..

وللقارىء العربى أن يسأل ، ولا عليه ان فعل ، كيف تأتى للافريقي أن يكتب شعرا استحق هذه العناية من كبار أهل القلم فى القارة الاوربية والولايات المتحدة ، والاتحاد السوفييتى ؟ الثقافة الافريقية ، فيما يعرف الناس ، لم تبتدع الكتابة فى الذى ابتدعت من أشياء . لم تعرف الـكلمة مكتوبة ، كانت تنقل ما تشـاء بين القبائل من رسائل بالطبل خلال الغاب والشجر ، كانت تكتب بالصوت لا بالحرف . كيف تأتى لثقـافة هـذا شأنها الاول أن تكتب شعرا حقيقـا بأن يترجمه الكتاب ويردده القراء ؟ ما عرف الافريقى الشـعر كما عرفه الاغريق والعرب وهؤلاء ممن وضعوا الشعر مكانا عليا فى وسائل التعبير عند الانسان . للقـارىء العربى أن يسأل عن تقاليد الشعر فى القارة الافريقية ، وفى البلاد التى ساقهم اليها الناس رقيقا يفلح الارض فى المارتنيك وجزر الهند وهايتى ـ دعك من الولايات المتحدة . له

ان يسأل ولكنه يخطىء كثيرا أن انتهى الى ان الشعر بضاعة ازجاها الاوربيون اليه ، كما ازجوا السيارة والمشط . لا اقصد بهذا الى القول بأن الافريقى كان يغنى قبل أن يلتقى بالاوربى ، والشعر فى جوهره غناء ، لا اقصد هذا ، فغناء الافريقى يكاد أن يكون أول خاطر يجىء فى البال حين يذكر لك اسمه ، لكنى أريد أن تذكر شيئا مما عرفه الباحثون الآن عن « القوة السحرية للكلمة » عند الافريقى ، وأرانى مغرى هنا بأن أشير لكتاب « مونتو » أى الانسان ، كتاب يعده الذين يعملون فى حقل الثقافة الافريقية ، خير كتاب أخرج للناس حتى الآن فى موضوعه ، وفيه فصل كامل عن سحر الكلمة عند الزنجى ..

يحدثك جان فى فصله الخامس عن مكان الكلمة عند الافريقى ويدلل لك بشواهد ما جمعت على هذا النحو من قبل، على ان الحرف سبق الخلق فى هذه الثقافة ، وينتهى الى القول بأن كل انســـان يملك قدرة الاله الذى قال للنور كن فكان ، ولا يعـــوقه عن هــــذه القدرة الا « انسان » آخر ، أقدر منه على خفـــايا السحر فى الكلمة . يقول « انسان » للســـماء اسقطى تسقط ، لا يحول دون هذا الا ان « انسانا » آخر ذى حول أطول وباع أوسع ، قال لها : ظلى حيث أنت ، تظل . « الكلمة هى القدرة والقوة » يقول شــــاعر ســـاحل العـــاج برنارد داري : « أنا أبذر الحب بالحرف » . لا يمكن لها أن تنمو دون عون . البـــذر وحده لايكفى ، فحبة الذرة لا تخمر وحدها وتنمو ، الكلام والغناء يقدران على اعانتها ، لأن الكلمة هى التى تحيل البذرة ذرة يأكلها الناس ، وتعين الفاكهة على

النمو والبقرة على النتاج . الحرف القدرة والحرف الشعر ..

وفيم يكتب الافريقى ؟ يكتب فى كل لون من الوان الشعر يكتب فيه غيره ، فى الطبيعة ، والعلائق البشرية ، ولكن موضوعا يستأثر بوجدان الشاعر الافريقى الحديث ، هو هذا الصدام بين افريقيا الطالعة واوربا ، التى يخالها الشعراء فى طريقهم لا تدعهم . يمثل هذا شعر « البلوز » أو الشجن عند زنوج الولايات المتحدة ، ويمثله شعر فى عهدها الاول حين كان دعاته ينقمون على الحضارة الاوربية كل شىء ، كما فعل ايمى سيزار وسنفور أول الثلاثينيات ، ولعلى ألخص جوهر الامر حين أنقل لك بعض الذى كتبه سارتر فى هذا الصدد فى تقديمه المختار من شعر الزنوج ، قال يخاطب الاوربيين « ماذا كنتم تريدون للزنجى أن يفعل ، وقد أزاح التاريخ عن فمه الكمامة التى كانت تمسكه ؟ أحسبتم ان الشفاه السود ستتغنى بعوارفكم عليها ومآثركم الكثيرة ؟ وتلكم الرءوس التى طحنها آباؤنا طحنا فى التراب ، أحسبتم وقد رفعت الآن وقد نكست طويلا، أن تروا الاعجاب بكم فى أعينها ، وان تقرأوا الحب فى وجوهها ؟ لا ما فعلت هذا » ، وكان سارتر فى هذا يكتب عن معرفة لا تخيل . قرأ فى هذه المختارات التى أشرف عليها سنفور قراءة ذكية ، وخلص الى هذا الذى يقوله ، والى الآراء التى تضمنتها مقدمته . والذين قرأوا هذه المختارات من شعر الزنوج فى غرب افريقيا وملاقازى رأوا ولا شك العنف الذى يتسم به بعض هذا الشعر الثائر ، ورأوا أيضا هذا التمجيد للسواد وكل ما اتصل بالسواد ، لأن اللون كان الفرق

الملموس بين الزنجي وسائر الناس ، ما تميز أحد عليه الا بلونه ، وكان حقا أن يشغل اللون عليه عقله وعاطفته ..

تمثل هذه المختارات الفترة الحانقة الحاقدة من تطور الفكر الافريقى ، ولكن الشعر مشى بعيدا منذ ذلك الحين . هدأت عاصفته الا قليلا ، واتجه لغير الحنق والحقد ، ترك التمجيد الخطابى للقارة وتراثها القديم ، وشرع يكتب اليوم فى هدوء الواثق ، يأخذ على الأوربى أن جهله وان سخر من حياته ، ويشير عليه أن يتحرك ليرى الطمأنينة التى تسود الحياة الافريقية والحيوية الخصبة التى يجدر بالاوربى أن يقتبس منها ان أراد خلاصا لروحه المكدودة المتعبة من فعل الاعوام وسحق الآلة ، ويكتب فى المواضيع الانسانية البحتة التى لا يكون شعر الا بها ان اراد أن يستأهل اسمه ، وسترى قليلا من هذا الذى نقول فى النماذج التى سنضعها الآن بين يديك ..

نماذج شعرية
من أفريقيا

وضحكت ثم ضحكت

شعر : جبريل اوكارا (بنجيريا)

اغنياتي لديك سيارة ..
خنقتها سعلة ..
فهي تدور ،
وضحكت ثم ضحكت ..
وسيرى فوق ارضى قبل ميلادى
كان لا يسمو لادراكك ..
وهو ادراك محيط ..
اذ مسيرى غير انسانى ..
وضحكت ثم ضحكت ثم ضحكت ..
من اغانى ضحكت ..
من مسارى قد ضحكت
فرقصت مع دق الطبول
رقصاتى وهى سحرية ..
وسرت فى الليل انغامى اليك
وهى ترجوك ، تعال ..
اصبع فى اذنيك ..
وعزوف ، ما كفاك ،

رحت تغفو هازلا
وضحكت ثم ضحكت ثم ضحكت ..
لـكن ضحكك كان ثلجا ، فتجمد
فى النهـــــايه ..
كانت أحشاؤك هكذا ،
فانظر اليها تتجمد ،
مثل ضحكاتك ..
وأتى صوتك من بعد ، تجمد ،
ثم أذناك ، وعيناك ،
لم يعد فى الطوق أن تضحك ،
وتدلى خشبا منك اللسان ..
جاء دورى ، هانذا أضحك منك
ضحكاتى ضحكات صاخبات دافقات
حيوية ، قهقهات عاليات
ما رأت ثلجا يجمدها ..
لا ولا أعرف آلة
خنقتها سعلة
فهى تدور ،
لا تســــــير ..

ضحكى نار العيون
قبس الارض ، لهب من سماء
نار بحر أزرق ، نار نهر
يمنح الـكل الحياة ..
من انهرى المداب ، اشجارى الخضر ،
من وحوش الغاب ، أسماك المجارى
ضحكتى منها جميعا ..

وهى ان جئت قريبا ، قد تعين ،
قد تذيب الثلج فيك
فهى حرى ، وهى جمر ..
قد تحيل الصوت صوتا وتعين الاذنين ،
كلها اسرى ثلوجك ..
اقترب تفتح العينين منك
والشفتين واللسان ..

وتواضعت اخيرا ، كان أولى من زمان ،
وهمست ترجو ، همسة العانس الودود ،
« لم هذا ؟ » قد سألت
فأجبناك نقول :
انت لم تنظر اخى ..
لو فعلت يوم رجوناك رايت :
اننا جذوة من ارضنا ،
قطعة لا ننفصم ..
تشدنا اليها هذه الاقدام
عارية ..
لا حجاب بيننا
لا خفـــــــاء

الى نيويورك
(لأوركسترا الجاز : ترمبيت سولا)

شعر : ليوبولد سيدار سنغور

نيويورك ـ رايتك بداهة فاضطربت لهذا الجمال
حرت فى فتياتك ، ارتو لسيقانها الطويلة الذهبية ،
وراعتني عيونك المعدنية بادىء الامر وخجلت

ثم انعمت عيني فى بسمتك ، انها جليد ففهمت ..
الم ممض فى الصدر فى الاعماق يخرق كل شارع ،
والعيون تظللها الـكفوف تراعى الناطحات
بعيدة خفت وراءها شمس السماء
وضوؤك كله فوسفور ، وخلالها أبراج البيوت
حمراء كالغيظ ، كالـكبد المثار ..
رؤوسها طعنت كبد السماء وبجنبها اخواتها
تعلو وتسخر بالزوابع والعواصف
لا تهاب ، عضلاتها حديد ..
واهابها استوى ثم ذبل ، لا تخترقه خارقة ..
راح اسبوع واسبوع يليه ، فيها طرفت مانهاتن
وانقضى ثالث من بعد ..
احتوتنى بعدها رجفة
كانقاض النمر شد الجوع أعصابه
أسبوعان ، لا أنهار ، لا حقول ، لا شجر ،
على النقيض ، تساقط الطيور
موتى فجأة على السطوح المرمدة

لوث الجو الدخان ، سممه ..
أسبوعان ، ما رأيت طفلا ، تزين وجهه ابتسامة
يده فى يدى يرنو الى فى شقاوة ، أرنو اليه
فى حنـــــــان ..
ما رأيت ثدى أم ، كل الذى أراه سيقان من النايلن
الاثداء لا تعرق هنا ولا السيقان ، لا تفوح ،
ما سمعت مذ قدمت لفظة حية عطوفة .
الشفاه ها هنا عدم ،
والقلوب تشترى نقدا وعدا فى الفبارك والمصانع ..
لا كتاب يحمل الحكمة من صدر لآخر ، كلها ذكية..

ليالى الارق ، يا ليالى مانهاتن ..
تتلوين والضوء يلهب ظهرك كالسياط ،
ونفير السير حولنا ، يسوق الليل سواقا ، لا سلام
كلها أصوات جوفاء ، لا معنى لها ، هباء ..
والمياه السود عكرى فى الانابيب خفيه
تحمل الحب عظاما وجلودا وقذاره ،
أول الليل نظيفا كان اذ صنعوه ،
كله صحة ، وفى الصباح
ما أشبه الامواه بالانهار
فاضت بالجثث ، جثث الصغار ،
أولاد الخنا ..

نيويورك اسمعى ،
اسمعى ، أقل لك يا نيويورك
دعى الدم الاسود ينساب انسيابا فى عروقك ،
دعيه ينصب انصبابا فى دمك ، فى كل جارحة ،
صدئت جوارحك ، أصبحت حديدا .. دمنا
زيت الحياة ..
الدم الاسود ان خليته يعطى جسورك
حنية الارداف ، اطرى من زواحف ..
استعيدوا الآن آمادا مضت
وأعيدوا معها العيش الجميع
بين أسد الغاب ، أبقار القرى ، قش الحقول ،
كلها كانت كذلك ..
كنا جميعا واحدا ، لا ترى شقا ولا فصما بها ..
كانت الاعمال شطرا من ذكاء العاملين ،
كل فكر يعمل، كل اذن بفؤاد ، ارتباط الحس بالشارة
هذه أنهارك تهمس همسا

عطر تمساحها ، وخراف البحر اعينها كأمواه السراب
صفارة الانذار من أبدعها ؟ لا اكسروها ..

افتحوا القلب لابريل
انظروا قوس قزح ، انظروا الوانه ، أزهاره
وافتحوا آذانكم ، فوق آذان الجميع ،
تسمعوا صوت الاله ،
خلق الارض وأبعاد السماء من ضحكة
فى ساكسفون ..
ستة أيام وراح
يومه السابع يغفو وينام
نومة عظمى ، كنوم الزنوج ..

يكفيكم ابريل ..

لاعبا الناى

من شعر : جان جوزف رابرفلر (ملاقازى)

نايك
اقتطعته من ظنبوب عجل ذى خوار
وصقلته صقلا على رابية جدباء
ساطعة الشمس حوافيها ..
نايه
صيغ من قصب يرجف فى النسيم
قد القدود فيها قرب ماء جارية
سكرت بالاحلام القمر ..
تلعبان ، كل نايه ، معا ، فى عمق أعماق السماء
وكأنما أمسكتما بيديكما القارب الدائرى
انكفأ عند شطئان السماء
وجهدتما ولعبتما تسعيان

تنقذانه من يومه
مصـــــــيره :
لـكن ،
اتسمع النواح فى الاغانى الآلهة
اتسمعه آلهة الرياح ، آلهة الارض
ربة الشحر ؟
اتسمع الغناء والشجن
آلهة الرمال ؟
نايك
فيه من عجله اثر
تاتيك منه انغام عليها ثورته ،
تجرى الى ارض الخراب
وتعود جارية ،
ملفوحة من ظمأ ، ضامرة من جوع ..
الى أين ؟ لجذع نخلة ؟
لا ظل فيها ، لا ثمر ، لا ورق . ؟
نايه
لدنة كاصلها القصب
تنحنى آدها ثقل عصفور عبر ..
ما نفش الريش عليها ولد .
ما عبث .. لـكنها غريبة
بعيدة عن كنها
ترعى الاطلال ، تبحث عن عزاء ،
لدى المياه الجارية
نايك يأخذنى و نايه .
كل على أصوله ينتحب
ويحملان الندب فى انغامكم
حزنى مريرة ..

الـزنجيـة

كلمات كالدم النازف حارة
كلمات كلها سد الربيع الزاحف
نافض الخنزير ، وجف البرك
ثورة البركان نيران الفسق
لهب اللحم ونيران الدساكر

ايمى سيزار

ألقى الرئيس الشاعر ليوبولد سنغور فى السادس والعشرين من أكتوبر الماضى خطابا فى جامعة اكسفورد ، أوقف أكثره على الزنجية . تحدث طويلا عنها وحولها ، وهو واحد من ابنائها ودعاتها الاولين ، وكاد أن يعجز عن تعريف هذه الحركة فى كلمات واضحات ، ولا لوم عليه ، فقد تشعبت الزنجية واحتوت أكثر من شيء الآن ، بعد ربع قرن وتزيد من نشأتها فى باريس ، لم يعد لها ذلك المعنى المحدد المعروف حين كانت قصائد هنا وهناك تثير قارئها اثارة ، تتحدى ملكاته ولا تحمل اليه معنى بعينه يسكت عنده ، يكتبها شباب من القارة السوداء والمارتنيك لا وشيجة بينها ألا تلك التى تشد طالب العلم لأخيه فى حجرة من حجرات باريس أو لندن ، يقرأ انتاجها القارئون ، على انها جذوة من السريالية التي كانت تشغل الناس ذلك الوقت او قبس من التعبيرية ، وكانت امل الشعر والشعراء آنذاك ، وجهد من هذه الجهود المتنوعة الطريفة لتحديد شكل

الشعر أو مضمونه ، ثم تقدم الزمان بالحركة ، وكثر شعراؤها ، وجاء نقادها في ذيلها يبحثون عن فنونها ، ويخرجون ما تحتمله وما لا تحتمله قصائدها ، وكذلك يفعلون . وما كان عجيبا ان يسترعى هـــذا الشعر الجديد الانتباه ، وان يستقر ويتخذ ركنا في الشعر الاوربي ، اســـلوبا مميزا لاكثر ما يكتب الزنوج فى افريقيا والمارتنيك وجزر الهنـــد ، وكثرت الشروح والتاويل لها حتى قيل ان الـكتاب والشعراء والنقاد كلهم يعرفون الزنجية تعريفا يتفق وما يهـــدفون اليه حين يكتبون ، فقد اتسعت آفاقها اتساعا لم يعد فى الوسع حصرها ، وحاز ــ لذا ــ ان يرى كل واحد ناحية تروق له ، وتقوده لحيث يريد ..

قال سنغور الرئيس الشــاعر فى خطابه هـــذا الذى أشرت اليه « الزنجيـــة ذلك العقـــد الجميـــع من القيم المتحضرة ، التي تميز الشعوب السوداء ، الثقافية منها والاقتصادية والاجتماعية والسياسية. اىعالم الزنجى الافريقي كله » حديث مهلهل يشق عليك أن تدركه ان لم يتح لك أن تقرأ كثيرا من هـــذا الشعر الذى رايت نموذجا عسيرا منه فى صدر هذا البحث ، وسترى غيره ان تقدمت معى فى الذى أقول ، ولعل الرئيس الشاعر اوجز واخل لانه كان يخاطب صفوة من الناس قرات له ، ولغيره من رواد الزنجية الاوائل وشعرائها المعاصرين ، وعرفها على هذا النحو ، الذى لا ينفع الا لقلة تعرف مسبقا هذا الذى يعرفه ، ولـــكن الشـــاعر الملاقاز (المدغشقرى) روبيمانانجارا كتب يخـاطب غـير هذه الصفوة ييسر عليها الصورة المغلقة يقول : « ليس من الســهل ان يلخص الواحـــد منا القيم التى تمثلها

الزنجية ، ولكن لنا أن نقول ولا نسرف فى التعميم ان قلنا ، ان هناك شيئين : هما الوجود الافريقى والثقافة الافريقية ، وعليهما الآن أن ينتفعا ويفيدا من طرائق التعبير الحديث » • كلمات أقرب الى فهمنا نحن الذين لم نبدع الحركة كما فعل الرئيس الشاعر ، ولم نقرأ نتاجها كله فى حياتها هذه الطويلة . تقول لنا دون تعقيد ، ان الزنجية تعبير هذا العصر عن ثقافة الافريقى ، كانت اداة التعبير عند الافريقى فى الزمان الابيد ، الطبل والغناء ، فالزنجى الافريقى لم يخترع كتابة ، كما تعرف كان يعبر عن نفسه بالرقص والغناء ، وتحمل رسائله فى الغاب ، وبين الجماعات المتفرقة فيه الطبول ، وكانت الرسائل بالطبل مهنة لا يتقنها الا القلة التى توفرت عليها ، وكانت تفي بحاجة الناس ، كما تفي الكتابة ، وتعيش فى أعماق القارة حتى يومنا هذا ، فئة من هؤلاء الذين يكتبون الرسائل بأنغام الطبول ، ويقرؤونها ان اتت من بعيد ..

وجاءت اوربا فتعلم الافريقى - فيما تعلم - الكتابة وأضاف بها الى أدواته هذه التى ذكرنا أداة أفعل وأبقى وأيسر ، ويقول لك الشاعر الملاقازى فى تعريف الزنجية انها ثورة فى الشعر الزنجى اداتها طرائق التعبيرالحديثة من لغة وكتابة واسلوب ، وهدفها ان تبعث الوجود الافريقي وقد غفا فى نومة طويلة منذ دوختها الحضارة الاوربية ، وكادت أن تقتلها لولا هذه اليقظة ، وجدير بنا ان نقف طويلا نسترجع الخطى ، عبر الاعوام القليلة الماضية ، لنعرف متى وكيف استيقظ الزنجى ثم ثار ، فقصته هنا طريفة تحيط بها دوما نسية تثير الفضول وتدفع للتطلع ..

العام ، عام ١٩٣٩ ، وأوربا تسير لحتفها فى خطوات عتيدة ، تجر وراءها الناس ، لحرب اخرى من حروبها العدة ، فقد كان لها التصرف والولاية آنذاك ، ولغيرها الطاعة والانقياد ، وفى قطار من هذه القطر العديدة تحمل الجنود هنا وهناك ، لايسالون عما يراد بهم آخر الامر ، كان يجلس ايمي سيزار شـــاب من المـارتنيك فرنسي الا فى لونه ، قرا فى السربون ، وبقى فى باريس التى ازدهته ، لا يفكر الا لماما فى أهله وراء البحر . وجلس جنبه بحار أسود فاذا بنفسه تغثى منه ، وحرج قوى يلفه طول الرحلة ، حرج ما كان ليحسه لو جلس بجانبه بحار أبيض فيما قدر بعد ، وفى داره حين عاد اليهـــا خجل من نفسه هذه التى انكرت لونه وانقلبت فرنسية وما هى فى الحقيقة كذلك ، وجلس لـكراســته يصب تجربته هذه الاسيفة فى قصيـــدة ما خالها وهو يجرى سطورها المحمومة ستكون انجيلا يحتذي بعده . اسم القصيدة « مذكرات عائد للوطن » وليس من زعمى ان اعربها كلها فما فى طوقي ذلك ، لـكنى اريد لك أن تقرأ هذه الشطرات التى تشيد بقومه الذين أنسى فى أعـــوام عيشه الطويلة فى باريس ، وتذكر فى شق ثانية ، وأريد لك أن تتخيل قوتها الاولى ، قبل أن تهـــزل القصيدة فى كلماتى الكسيحة قال :

مرحى للذين ما اخترعوا حاجة قط
مرحى للذين ما كشفوا النقاب عن امر قط
مرحى للذين ما غزوا ولا فتحوا بلدا قط
مرحى لهم
يستسلمون لجوهر الاشياء
يجهلون العرض والصدف

النغم والايقاع فى دمهم
يهزهم يرجهم اللحن القوى ذو الرخم
ما همهم ان يفتحوا أو يقهروا
يلعبون لعبة الحياة حولهم والكون

وينبغى ان اقول هنا للذين يعنون بالنظم وقواعده المألوفة ، انى لم أضع شولة ولا فاصلا كما كان يجدر بى أن أفعل ، لأنى لا أجد شيئا من هذا فى الاصل : كلمات بعضها فوق بعض ، كأنها خرجت دفعة واحدة من فم قائلها ، تمثل هذه اللهفة على قول ما يريد أن يقوله بأسرع خطو يستطيع ، وفى نفس واحد ، يريد ليسمع الصم الذين وصموا جنسه بكل نقيصة وهم لا يفقهون ، يريد ليسوق أهله أمامه : أن أدخلوا التاريخ مرة أخرى وكنتم بضعا منه لا ينفصم ، فهذه مواهبكم ، تختلف عن مواهب غيركم ، ولكنها موجودة ، وأن أنكر الفاتحون



اعتب سيزار ، لكن العالم كان فى شغل عنه وعن توبته ، يجاهد ليحيا الحرب التى جندت كل الذى يملك : عاطفته ، عقله ، وما صنع فى الاعوام ، ومشت قوى الفتك نحو باريس ، يسمع أصداءها الفرنسيون تملؤهم رعبا ويرهب الوجليين كل مكان . وكان اندرى برتن ، امام السرياليين واحد من هؤلاء . خرج للمارتنيك عام ١٩٤١ ، وأقام بها زمنا قصيرا اكتشف فيه « الشاعر الاسود العظيم » سيزار ، واحتضنه يدق له الطبول حاسبا اياه واحدا من حوارييه ، ولا تثريب عليه أن اخطأ ، فبين شعراء الزنجية ، وكان قد تكاثر عددهم وقتها ، وشعراء السريالية مشابه ، على رأسها هذه الفتنة بالكلمة ، ولكنها فتنة تختلف : يعمد اليها

السرياليون ليصوروا بها الاحلام والرؤى ، وكل ما اتصل بعقل الشاعر الخازن ، لا يختارها الواحد منهم اختيارا ، تنثال عليه يضعها كما تجيء من ينابيعهـــا البعيـدة فى الاعماق ، رموزا صادقة للأحلام . أما الزنجى فيعمـد اليها عمدا ليغزو عالم الاشياء ، يستعين بها على تغيير ما حواه ، يغنى بها احنه ، ويعرض خلالها جروحه ، وعيشه الموزع النهب بين الحضـــارة الحديثة ، وتراثه القديم ، وتتحد الـكلمة قوة افعل عند الشاعر الاسود ، لأنه اكثر الاحيان يريد ليكون لسان قومه ، قومه الذين كانوا ، والذين معه اليوم ، وبين هذين فى عقل الزنجى رابط وثيق كما نعرف ، ولنعد لهذا كله فى حينه ..

انتهت الحرب ، وعاد برتن لفرنســـا ليبشر بكشفه المثير ، فنشر مذكرات عائد للوطن ، وقدمها لأهل الفكر والشعر فى عام ١٩٤٧ ، ولم يكن عاما كالاعوام فى حيـاة السود . كانت افريقيا الزنجية قد تحركت نحو حيـاة جديدة ، وقد رات من مقاتل الرجل الابيض فى الميدان اكثر من مقتل ، فضاقت باستعلائه عليه وطغيانه ، أكثر من ذى قبل ، وعرفت عن بعض أفراد مجموعتـــه ، الشيوعيين بعبارة ادق ، كيف تاتيه فى حنـــاياه تمزق درعه ، وقد وهت مع الحرب ولانت مع الحاجة . خرب البرج الحديدى الذى عاش فيه البيض بعيدين كالسراب ، يلوحون من بعيد لعين السود ، وصـــاروا أقرب منـــالا وتعلمت افريقيا وهي تحارب فى صفوف البيض منافع التنظيم واثر الوحدة فى وجه النفوذ الواغل ، فـكانت الحرب لهم ــ كمـا كانت لـكثيرين غيرهم ــ مدرسـة تعلموا فيها فنون صراع الاستـعمار . نشر الحلفاء عام ١٩٤١ ميثاق الاطلنطى وتوالت بعد هذا تلهث لا تلتفت

للوراء صرخات افريقيا ، ممثلة فى مذكرة ازكوى ورفاقه و « اتحاد طلاب غرب افريقيا فى المملكة المتحدة » عين ذلك العام ، وفى ظهور كينياتا ونكروما على مسرح المؤتمر الافريقى الخاص فى مانشستر عام ١٩٤٥ ، وفى ظهور هوفى بونى وسنغور فى باماكو عام ١٩٤٦ ، لينشئوا مع غيرهم حزب التجمع الديمقراطى الافريقى فى الشطر الفرنسى من غرب القارة ، وفى رجوع نكروما من لندن نفس ذلك العام لينشىء مع رفاقه الاولين « ميثاق ساحل الذهب المتحد » وفى رجعة كينياتا لينشىء « الاتحاد الافريقى فى كينيا » ، وفى ظهور اوولو على المسرح ينشىء « عصبة العمل » فى غرب نيجيريا عام ١٩٤٧ ، وفى يقظة روديسيا نفس ذلك العام تنشىء المؤتمر الوطنى الافريقى . ما كان عاما عاديا هذا العام الذى ظهرت فيه القصيدة الانجيل طبعة ثانية ، وافق ميلادها الآخر ميلاد افريقيا وبحثها الجديد عن استقلالها الضائع ، وكانت الوقود لنزوعها الحميم نحو اثبات ذاتيها ، والوعاء لوجودها القديم فى ضمير الزمان وثقافتها التى بقيت فى أعماق أعماقها ، وأن جهد الذين احتقروها على اخفائها ونكران وجودها حتى حين ..

ولزنجية سيزار هذه سلف لا يذكره مؤرخو الادب الافريقى المعاصر ، لأنه فشل ولأم المخطىء الهبل ، كما قيل فى القديم الغابر ، ولعل قراءات سيزار فى الذى أنتج هذا السلف بقيت فى دمه وهو لا يعى ، وخرجت صارخة يوم ثار على كيانه الذى كاد يفسد ، فكتب قصيدته التى فتحت الطريق فيما نزعم الآن ، وكانت فى الحق مطروقة عفا عليها الفشل فى الثلاثينيات من قرننا هذا ، كانت جماعة صغيرة من شباب المارتنيك أيضا ،

تصدر مجلة أدبية فى باريس ، تغذيها روح من تلــكم الارواح التى تعبر الزمان والمكان كالشـــهب ــ اتيــان لبرو • ثار ورفاقه على الرق الثقافى الذى الفوا نفســهم فيه ، وكرهوا معها هذه « اللغة الحيادية » التى كانوا بها يكتبون . ادركوا ان عبقرية اللغة الفرنسية هى قدرتها على وصف المجرد ، والزنجى فيما يعرفون رجل دافق العاطفة يجنح للملموس ، وكان حتما ان تلجـــأ هـــذه العصبة الصغيرة الى سريالية مؤفرقة ان جاز أن نعبر عنها هكذا ، يبعدون بها عن طغيان لغة الاوربى ، يعبرون بها عن نفسية الزنجى . كرهوا هذه الاداة التى نطقت مقابحهم كلهـــــا « أفريقيا الســــوداء » و « الاهالى » و « المتوحشون » و « نعم الحضارة الحديثة » و « عبء الرجل الابيض » ، ولعلك تذهل حين تقرأ معى ســـنغور تلــكم الايام ، يعبر عن ضيقه بطوق اللغة الفرنسية ، وهو الذى ما عده حتى أهلها غريبا عنها • أو دخيلا عليها وعينوه فى يوم من الايام ، عضوا فى لجنة تراجع اجرومية دستور الجمهورية ، لقـــد نزعت ســـخيمته الاعوام والسلطــان الذى اتاه من بعد ، لــكنه أوجز موجــدة الشباب على ذلك العهد ، حين قال فى الــكثير الذى قال :

غريب أنت عنى
فى لباسى ولسانى
أيها القلب المطوق
أذلك الثقل المعار
من أوربا
هذه الاحرف ثلج من فرنسا
تخنق القلب الخفوق الحى

من سنغال

كل ما القاه فى هذا شقاء ووجع

لا رجاء أرتجيه ..

***

ولكننا لن نفهم قضية الزنجية ضد اللغات الاوربية ، ان لم ننظر الى فلسفة الافريقى فى الحياة ، الى فهمه لها وتقويمه اياها ، فالعالم عنده روح بعضه من بعض ، كل نوع من الحياة فيه ، كل شىء فى الوجود « قوة فاعلة » فى الجوهر الاساسى ، وهذه القوة ليست صفة من صفات ذلك الكائن ، بل ذاتها وصميمها . الانسان ، والنمر ، والحجر ، والقشة ، فى كل منها « قوة فعالة » هى من كيانها القائم وذاتها التى نراها ، تتجمع هذه القوى المفردة فى واحد ، لانها ـ فى الحقيقة ـ مظاهر لقوة فعالة للجميع ، تزيد وتنقص وتبلى ولكنها باقية • الجسد والتنفس والكائنات المفردة كلها بخصائصها التى هى بضع منها ، تجسيد لهذه القوة للجميع ، فالوجود لا يعرف الانفصال والاستقلال ، وهو كتلة من هذه القوة الفعالة متماسكة تتأرجح ذراتها المتكاملة ، لانها حية تستجيب لما تستجيب له الذرة المفردة ، والانسان جانب من جوانب هذه الكتلة ، ضلع فى الكون المتكافل ، لكنه التجسيد الاعلى لهذه القوى المتداخلة وهو وحده القادر على التأثير عليها ، لانه يملك موهبة يمس بها هذه الذرات . أوتى التمائم والرقى والتعزيم والسحر والتعاويذ وبها يسترجع الارواح • فتتداعى له القوى ، ولم يكن ليستطيع هذا لو لم يكن ، جنباً فى هذا الكل الواحد المتكامل ، ضلعا فى القوة الفعالة الجميع ، ولعلى أوضح هذا الذى الخصه

لك عن الأب تميل الذى وهب قدرا طيبا من حياته لدراسة فلسفة الزنوج فى الحياة ، أن ننقل لك بضعا من شعر افوا موروقو الشاعرة ، العانية . فمن شعر شعراء القارة واغاني فتياتها واحاجي عجائزها وقصص أمسياتها عرف الباحثون عن فلسفة القارة . توغل هذه الشاعرة المجيدة فى رؤاها عن وحدة الكون ، حتى ليبهم علينا نحن الذين لا نعرف على وجه التحقيق منابع الهامها كلها ، أن نتبين كل خيال وكل صورة فى قصيدتها « المفتدى » لكننا لن نخطىء معالم دنياها التى نمتها لتقول :

من حياة البيض ، تسلبها الحياة
وهى حلوة
وهى لن تفنى
فيك من حوائنا العذراء نسمة
لا فرار ، سلمى .

. . . .

وقفت ، وهى تخطو ، فرأتنى ورأيت ،
روحها ترعى اطارى تخرقه
واطارى من اطار الزاحفات ،
ومضت تخرقه حتى توجعت
تلويت ، تطويت
وغلا سمى الذى اختزن
روحها المفداة لفتنى سناها ..

أما الرئيس سنغور فلا يضرب فى الغاب ، كما يقولون ، يسير قدما لغايته في التعبير عن هذه الوحدة فى الكون ، فيغنى لها فى كلمات واضحات . تملكته فرحة طاغية وهو يقرأ عن هذه « الوحدة التى أعيد اكتشافها »

فطرب وغنى ، وكان من قبل يحسها فى نفسه ، ولا يجد لها الشواهد فى الذى يعرف عن نظرات أهله للحياة ، حتى أتى قوم عكفوا على التراث الافريقى، واللغات الافريقية، فقضوا أعمارا يدرسون ويسجلون ، وخرجوا بذخيرة فى هذا ما كان لتكون لولا بيعهم الحياة للعلم . قال سنغور يعلن عن هذا الاكتشاف الجديد يهلل له ، يبشر به :

وعصور من الزمان الابيد أبت
فى خطاها رأيت كونا جميعا ،
فيه تحيا الاسود ، والاشجار
بضما لبضع ، تتمه الابقار ،

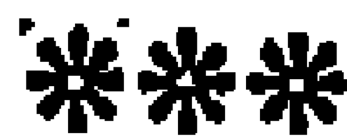
ونرى الفمل محدقا بأخيه
لا انفصال ، كارتباط القلوب بالآذان ،
ارتباط الاشارات بالحس ،
كل جميع ..

ولك أن تقول ان الرئيس يصدر عما يقرأ ، وعن قدرة على تزيين كل الذى كان من قبل ، لأنه يريد لأهله أن يبعثوا جديدا ، ولا بد للبعث من قواعد يقوم عليها وأسس ، وربما كنت على حق فى الذى تقول ، لكنك لن تسوق حجة كهذه ان قرأت هذه القصص التى يكتبها ايموس تتوالا ، الرجل الذى لم يلق تعليما يقال عنه ، ويكاد أن يكون اليوم أشهر الروائيين النيجيريين . يقول فى قصة له : « وعرفنا السيد ضحك شخصيا ذلك المساء ، ذلك لأنه لم يسكت عن الضحك علينا ، وقد وقف الجميع ، ظل يضحك علينا وحده ساعتين . وعندما رأينا السيد ضحك ، يضحك علينا ذلك المساء ، نسينا آلامنا أنا وزوجتى ، بل شرعنا نضحك معه ، لأنه كان يضحك بصوت غريب ما سمعنا مثله من قبل فى

حياتنا . هذا ولم يعرف أحدنا متى شرعنا فى هذا الضحك ، ولكننا كنا نضحك على ضحك السيد ضحك ، ولا يمكن لأحد الا أن يضحك حين يسمعه يضحك ، واذا ما استمر احد فى الضحك مع السيد ضحك نفسه ، مات أو داخ لتوه ، وذلك لطول ما يضحك ، ذلك لأن الضحك مهنة السيد ضحك وعليه يعيش ومنه يقتات ليكون . وشرعوا يسألونه ملحفين أن يوقف الضحك ، ولكنه لم يستطع » ..

لم تستطع الحياة الاوربية التي غيرت كثيرا من بيئة الافريقى الزنجى ، أن تعبر عما فى عقله الخازن وحساسيته من فلسفات قديمة تطفح على السطح فى كثير مما يكتب الشعراء القصاصون حتى على أيامنا هذه ، ذلك لأنها فلسفة شاملة ما أبقت فى الحياة شيئا الا وتحدثت فيه ووضعت قواعده .« اعطت الشكل لحضارة متسقة لأركان كلها متكافلة » وعجزت حتى المسيحية عن أن تصيب ما أراده لها المبشرون من نجاح كامل ، فالافريقيون لم يلقوا بفلسفاتهم ودياناتهم جانبا ليحتضنوا العقيدة التى إتى بها الاوربى ، أو لم يلقوا بها ، كلها على الاقل . استوعب الضمير الزنجى هذه العقيدة الجديدة استيعابا فى ضميره وتمثلها فى خياله فاختلطت بفلسفته اختلاطا لا يبين للباحث أين التقت هذه بتلك وكيف سارت « خاطر الدين الجديد فى طرائق تفكيره ونمط عيشه ، على نحو لا تبين معه الخطوط » ذلك لأن الفلسفة الافريقية اذ تبدأ عند وحدة الكون التى أشرنا اليها ، تمشى فتتضح خطوط الحياة دقيقة ، فى كل الذى يتصل بها من فناء وبقاء ، وموت وبعث ، ودين وفلسفة ، وأسلاف وخلف ، ووالد

وولد ، وفلسفة وأسطورة ، وروح وجسد ، تربط هذه بعضها ربطا محكما فى نظام للفكر دقيق عميق ، شرع العلماء من كل لون يفصلونه للعالم الذى جهله هذا الزمان الطويل ، وهي فلسفة حقيقة بالدرس والتمثيل ، يحتاج لها العصر الحديث وقد فقد قاعه الذى يمسكه ، يحتاج لها لأنها فلسفة « اللقاء الكامل » كما يسميها سيزار ويعرفها العلماء ..



ولم يكن بد من أن يتبع هذه « الوحدة التى أعيد اكتشافها » فى ضمير الزنجى ، منطق جديد . ذلك لأن الفلسفة التى رأيت موجزها ، لم تكن لتحيا على المنطق الاوربى . هذه نظرة للحياة تتشابك أطرافها ، ونظرة الاوربى للحياة تختلف ، تراها أشطارا وتفكر فيها كذلك ، كل شىء على حدة ، وما كذلك العقل الزنجى . شبهه الرئيس سنغور فى بحثه الذى القاه على المؤتمرين فى روما صيف عام ١٩٥٧ لبحث شئون الثقافة الزنجية ، فقال : ان منطق الزنجى يشبه مجرى الدم فى الانسان ، عنده تختلط الاشياء كلها بعد أن تصب فيه ، تسير جمعا الى القلب ، وتخرج منه سائلا واحدا جميعا لا تبين مكوناته ، لكن الخروج على المنطق الاوربى لم يكن كله ذكاء كهذا الذى يقوله سنغور ، وتحليلا يعتمد على معرفة دقيقة بالفلسفة الافريقية ، كان بعضه ، بل أكثره ثورة وضيقا بالمنطق الذى وصمه وقبحه ، كما أشرت . لقد سكن الزنجى طويلا لمنطق الاوربى ، وطرائق تفكيره ، حتى لحقر نفسه وارتضى لها مكانها زريا فى موكب العالم ، قهره العقل الاوربى ، فاستخذى وما أن وجد ذاته ثار ثورة ملتهبة : « أيها العقل ، انا

اذبحك ضحية على محراب نسمة الماء . انك ادعيت لنفسك انك لغة النظام ، انت عندي جلدة السوط ، ولكن آه ، هـــذه ضحكتي الغليظة الخشنة المحظورة ، ذخيرتي من ملح البارود ، لأننا نكرهك انت ومنطقك .

اننا نبتهل الى رؤى السخف واطياف العبث ، ونلوذ بها ، وفينا عناد يزدهر مع أكل لحم البشر . كنزنا اذن هو هذه الجثة بنا والمس ، مس لا يفتأ يذكر ، يصرخ باعلى صوت ، ويرى خلال السجف ، جنون طليـــق جموح ، وأكثر من هذا ، انك تعلم ان اثنين واثنـين خمسة ، الغاب يموء مواء القطط ، والشجرة تستخرج القسطل من النار ، والسماء تمسك بذقنها تمسحه ..»

غضب مغلق وحقد لا يبين ، حين تقرأه بداهة ، لـكنك ان ألفت شعر سيزار ، وهو كثير الآن ، وبعض نثره ادركت انه لا يكره المنطق كله . يكره نموذجا من المنطق، يخطىء الحساب « اثنين واثنين خمسة » يخطىء اذن كل شيء ، رمى الزنوج بكل قبيحة حتى « باكل لحم البشر » ونسى وهو في عزته وخيلائه مواهب الزنجي ، كذاكرته التي تعيش مع الجنون الذى « لا يفتأ يذكر » ماضيه المجيد وحاضره التعس ، ويؤكد بعد هذا كله انه ابن الطبيعة أخوها اللصيق بها « تستخرج القسطل من النار » له

ادرك الزنجي ، وقد يقظ حسه الذى خـدر وعقله الذى غفا ، أن المنطق الغربي ، كان عقل سوط وشتم ، عاش على فهم خاطىء وجهل بعقـائد افريقيا وعاداتها الغالية ، وواجبـه أن يثور عليه ، ويخترع عقـله هو ومنطقه ، بعيدا مما علمه الاوربي ، واكتشف وسـط حنقه هـذا وضيقه انه لن يحتاج الى اختراع ، قدر

احتياجه الى اكتشاف وسائل التفكير لدى أسلافه ، واعانه على ذلك الباحثون فاقتنع ان هذا العقل المشتت الموزع الذى نماه الاوربى عبر القرون ، أعجز من أن يرى الحياة الافريقية ، فهي كل متكامل ، وهو لا يرى الا شيئا معينا فى وقت معين ، ولا يحسن غير رؤية العين ، ومشى خطوة الى امام فاقتنع بأن نجاة الاوربى فى الاخذ بمنطق الافريقى ، هذا المنطق الغريزى الذى يصارع الاشياء يطوعها لنفسه ، يحور الكون لأنه يفهمه بدمه ويعيه بعقله . يفكر الزنجي بعاطفيته ، فيسرى لذلك عقله تحت السطوح لا يقنع بالرؤية وحدها دون البصيرة ، وينفذ لاعماق حقائق الكون . والزنوج المحدثون ورثة هذه الفلسفة ، يريدون ليطبقوا قواعدها ويدللوا للانسان فى كل بقعة على الارض أن القيم الاوربية المعاصرة خويت ، وان الحضارة الغربية بمنطقها هذا القاصر ، وقدرتها الآلية الكثيرة ، واقتصادها التجارى الزاهر ، لن تنقذ الانسان من ذهوله وفراغه ومرارة النجاح فى فمه . عليها ــ فيما ترى الزنجية ــ ان تعد نفسها لتقبل هذه النسمة الجديدة من بلاد الزنوج اين كانوا وتفتح النوافذ لتدخل منها حضارة كونية شاملة ، الحضارة الغربية بدء ، وليست ختاما ، ولا نهاية لما يتمكن للانسان أن يبلغه ..



اتصلت بهذه الثورة على المنطق الغربى ، ثورة أخرى حتم ، هى الثورة على اللغة . وأقول ، ثورة أخرى حتم ، لأن الفلسفة التى أتت بهذا المنطق ، كان حتما عليها أن تبحث عن لغة تعبر عنها ، ولم يكن فى وسع انصار الزنجية أن يخلقوا لغة ، فاللغات لا تخلق ، ولكن السعد

الذى حالف حركتهم ساق اليهم ثورات اخرى على اللغة لأغراض غير اغراضهم ، فالهمت الزنجيين الرواد ، لأن سيزار وسنغور وغيرهما من الاوائل ، بدءوا حيـــاتهم الثرية طلاب أدب فى فرنسا يلتهمون قديمه وحديثــه التهاما ، يفتنهم عن كل شىء ، وكانت الثلاثينيات بين الحربين العالميتين اعوام تكوينهم الفكرى العاطفى ، اعوام مذاهب فى الشعر والادب ، جاء اكثرها نتيجة الحرب الاسبانية ، والهلع الذى لف العالم بعدها ، والجزع الذى أصاب حماة حرية الفكر على مصير الديمقراطية ، وهم يشهدون قلاعها تتهاوى واحـــدة تقود للثانية .

وكانت العاصفة التى لفت أوربا فى ليلها الحالك تقترب رويدا رويدا ، يراها الناس كل الناس . فى هذه الفترة من حياة أوربا الادبية اتخذت السريالية والتعبيرية فى فرنسا ، وهما الثورتان الرئيسيتان اللتـــان اثرتا على الزنجية ، مكانا جديدا فى قلوب أهـــل الفن . كانوا يصارعون عالما يسير للدمار ، يودون لو امسكوا بذيله كى لا يقع ، وراى الزنوج من افريقيـــا والمارتنيك ، وجزر الهند ، وهايتى ، شيئا يجمعهم وهؤلاء الدعاة . كانوا يصارعون الاستعمار وهو عالم محسوس ، عرفوا الذل والهوان منه ، وكان السرياليون يكافحون ليحفظوا على أوربا حياتها الآيلة للسقوط . جمعتهم جامعة الصراع..

لــكن هذه الجامعة لم تمش بعيدا بالفريقين . كان الاوربى تائها يخرب القيم القائمة ما استطاع ، لايعرف ماذا يقيم بعدها لنفسه وأهله ، ولم يكن كذلك الافريقى، كان يعرف ان عدوه الذى أذله على مر الاعوام هو النفوذ الاجنبى ، وكان قد اكتشف من ماضيــه مقدارا ادخل الفرحة فى نفسه ، وأعاد لها الثقة المحـــاربة ، ووجد فى

أعماق ضميره وقارته تقاليد واعراف تشهد بأنه انسان ، وقرأ عن فلسفة القارة وطرائق تفكيرها ، وعرف انه فى حاجة للغة يعبر بها عنهما غير هذه اللغة ، ولكن الفرنسية كانت استهوته وعرف من أنغامها وقدراتها ما لا يجب أن يتخلى عنه ، وصارت شطرا منه لا ينشطر ، وضاق فى حيرته هذه ، فهرع نحو هذه المذاهب الجديدة يستلهمها ، وخاب سعيه ، لأنها كانت فيما تعرف ، مذاهب فرار على الاكثر ، ودعوته دعوة اقتحام وحقد وتكسير وبناء ، وبين المذهبين فروق : على ان الفن فى افريقيا ، وتاريخه قديم قدم القارة ، لا يعرف الفردية التى عرفتها أوربا ، يمارسه « الكل للكل » ، عمل مشترك ، يحوى الجميع ولا شىء فيه خاصا بواحد أو آخر ، وطبيعى ان قاعدة كهذه لا تعرف المفهوم الذى شاع على ذلك العهد فى أوربا « الفن للفن » لأنه مفهوم يقوم على انفصال بين الحياة والفن لا وجود له لدى الافريقى التقليدى ، والزنجى المحدث يتخذ مكانه زنجيا حقيقا بتراثه وتقاليده ، كلما اقترب منهما ونهل من ينابيعها ، كان أقرب لضميره وزنجيته ..

اذن لم تسعف السريالية ولا التعبيرية ذلك الاسعاف الذى توقعه الافريقى ، فهو لايريد أن يصف الطبيعة أو يقلدها كما يريد رفيقه الاوربى . الفنان الافريقى ساحر ، ونبى ، ومعلم ، ومن هنا تنطلق الزنجية ، فترى شاعرها كما رآه الاقدمون ، وتراه يصدر الآن عن حقد على الرجل الابيض ، يسعى ليثبت كيانه رغمه ، فهو وظيفة ـ كما يعبرون ـ لا يقول شعرا ليسلى نفسه أو غيره . يبدع ويثير ليعين نفسه وقومه وهو لسانهم ، فيما يعتقد ، على أن يكونوا هنا ، يجيئون هذا العالم

يشركون غيرهم فيه . والحاضر والواقع عند انصار الزنجية ورماتها مادة يتخذها ليحورها ، لتعينه على خلق المستقبل الذى يرتئيه ، فشعره معنى عناية بالطبيعة لا ليصفها فحسب ، بل ليصل وراءها وينفذ لمساربها الخفية ، ويصير بضعا من قوى الحياة ، فالخيال الفنى لا يقصد به أن يمثل الشىء نفسه ، فهذا مبذول يتاح لكل كدود ، ولكنه يسعى ليمثل حقيقة القوة التى تكمن فى ذلك الشىء ..

طموح وآمال يكاد أن يستحيل تحقيقها ، ولكن الزنجية لم تعجز عجز اخواتها التى انبثقت هى عنها ، واخذتها السبيل للثورة على اللغة وما اتصل بها من خيال . وشهد بهذا سارتر وهو يكتب مقاله الشهير « اورفيوس الاسود » يقدم به مجموعة من شعر الزنجية . قال « كلماتهم تفوق حتى نفسها ، تكاد أن تنفجر مما شحن فيها ، تتجه نحو سماء ارتفاعها بعيد لا يدركه مدرك ، وأرض عمقها سحيق تشق على الرؤية ، ولا سبيل الى آفلاق أى منهما فهما فوق المنال » كلماتهم تنوء بما يريدون حمله الينا ، ولكنها تساق خاضعة لارادتهم القوية الحية . يرمى الشاعر اخليته ، بعضها جنب بعض ، وفق قدرتها على اثارة الحقد والرعب ، لا وفق نظام قائم فى الاشياء ، تستمد الكلمة وظيفتها من القوى التى تكمن فيها ، لا مما تمثل من أشياء ، وكذلك الاخيلة التى يتصيدها هنا وهناك لشعره يخلق دنياه « من السماء والطيور ، من ببغاوات حقلنا ، من النواقيس واقماش الحرير ، من طبولنا ، من لمسة النزيف والشمل ، وهمسة الاخدان لا تخشى ولا ترع ، من زحمة الناس والمرجان ، من أيام الاحد ، والرقص ، من أحرف الصغار

ملثوغة ، ومن الحب الودود ، من حبى العميق الغـور لقبضات الصغار • من هذه سأبنى عالمى ، عالم الاكتاف والجبروت ••• »

ويخيل لك وأنت تقرأ هذا فى أصله ، ان افريقيا الزنجية ، ستطور مع الايام لغة لها ، كما فعلت الولايات المتحدة عندما استقرت عندها اللغة الانجليزية ، ترفدها غيرها من اللغات ، وحياة ما ألفتها اللغة فى وطنها الام •

يجول فى ذهنك هذا حين تقرأ قصص ايموس تتوالا النيجيرى والشعر المعاصر من هايتى والمارتنيك ، ولم يكن مغاليا ثامبا حين كتب يقدم لمختاراته من كتابات الافريقيين ، وهو جدير بأن يعرف : « هنا يخلق الافريقيون لغة خاصة بهم ، يخرجونها من اللغة الانجليزية : لغة تفكر بطريقة فاعلة ، تقفز مفرداتها قفزاً أمام وخلف على أقدام صغيرة خفيفة الوطء ، سريعة ، فحلة ، أرضية ثرثارة • »وأرجو ان تحمل لك النماذج التى أسوقها هنا بين يدى أدلك بها على حيوية الزنجية وتشعب ما تعالج من شئون ، هـذا المعنى الذى يجىء فى البال عن اللغة الزنجية ، لا من الكلمات المفردة فهذا عسير فى التعريب ، لغة لا صلة بينها وبين الاصل ، ولكن فى الصور والاخيلة ، يقطعها الفنان من طبيعة لا يراها غير حية ، من الغاب والنبات والدفء ، وكل ما يجىء فى بالك من هذه الصور التى تتميز بها القارة السوداء

ولن تجد فى أى شعر مقروء تعرفه سحراً كهذا السحر الذى يقوم أول ما يقوم على شىء من التصدع فى الاجزاء والصورة المفردة بعض الاحايين ، وعلى شىء من السخف الظاهر لا الحقيقى • كل حرف عند شعراء الزنجية رمز لفكرة لا يسميها • انه يفترض وراء هذا العالم المتشابك

المرئى ، عوالم أخرى غير مرئية تجاهد لتكون معنا ، وتثبت وجودها ، والحرف فى يد الشاعر كالعصا فى يد الساحر ، تثير في الذهن صورة ما تسميه ، وتثير فيها رؤى القوى الكامنة فيما تسميه ، ولا يضير الشاعر ، وهو ساحر فى الاصل ، ألا تكون للكلمة أو الصورة أو الخيال وجود فى الحقائق الكونية • انه يخلقها ـ يخلق الحقيقة وان لم تكن هناك ، وذلك بأن يلفظها ويكتبها • انه قادر على خلق حقيقة جديدة ما كانت لتكون لولا سحره والحرف ولقسس قبيلة اليوربا وهى قبيلة لها شعرها وتراثها القديم لعالجهما الان شبابه فى صحفه ومجلاته بلغته ـ عقيدة كانوا يبشرون بها على أيامهم ، ولم يرفضها المحدثون من أبنائهم ، وهى أن « كل ما نستطيع أن نسميه باسمه فهو موجود » • ولعلك ادركت معى بعد هذا الذى قلت ان شعراء الزنجية حين يدعون لانفسهم أنهم يستحضرون القابل بشعرهم الحاضر يدعونه على أساس من المنطق الذى املته عليهم الاكتشافات الحديثة فى كنه الحضارة الافريقية والثقافة الزنجية

كلّ نظام سياسى واجتماعى ينكر على شعب من الشعوب حقه فى تقرير مصيره ، يخنق القوى المبدعة فى ذلك الشعب •• من هنا انطلقت الزنجية ، فى البحث عن موضوعها الذى تريد لتكرس له حياتها الفتية .

شرعت كما رأيت ، بمعرفة الماضى ، الذى كان افريقيا ، ومشت منه لطرائق تفكيرها تعيه وتفهمه ، وأتت من بعد الى لغة ، ما كان بد من أن تكون الفرنسية .

حورتها لتتلاءم ورسالتها الجديدة ، وكان طبيعيا أن تسير فى حنق وغضب شديدين نحو « وليمة الكون » تجد عندها مقعدا وقد وقفت حوله دهرا تخدم ولا تسأل . ألقى فى روعه انه غير جدير بالجلوس ، جدير

بالوقوف . هكذا وهم لأن الانسان الابيض أقنعه بأن « الافريقي كتلة من الشمع اللدن ، ستكيفها أصابع الرجل الأبيض ، تصبها فى الشكل الذى يرتضيه » وبعد أربعمائة عام من الاحتكاك بحضارة أوربا ، لم يجد مكانا غير هذا الذى يقف فيه ، وما من له أن يسائل لأنه « كان يتبع خطاه فى ذلة » وان كان يغنى فى سره يسخر :

أنا الاخ الاسود
وهم يبعثون بى هناك
آكل فى المطبخ
كى لا أكون بينهم
ان أتى الرفاق ، رفاق البيض ،
لكنى أضحك الآن
وآكل فى نهم
أقوى من الايام

وحقا قوى مع الايام ، ما وهنت عضلاته ولا روحه ، وجاءت هذه الحركة الشاملة المحيطة لتعبر عن هذه القوة ، تصف هذه الاكتاف من ناحية ، ولتوقظ النائم تدفعه من ناحية أخرى ، التقت بعض السبيل بحركات أوربية ، وأنجزت أكثر مما خرجت بادىء الامر لتنجز ، عاشت واشتد ساعدها ثلاثون عاما الآن ، ونمت واتخذت وجهات جديدة ، وفلسفات تتفق والحال الذى يعيشها الافريقى الزنجى . لم تعد تدمر كالنار كما فعلت أيامها الاولى . لكنك سترى شيئا من هذا الجديد فى الزنجية حين نتحدث من حاضرها بعد قليل . الذى نريد أن نؤكده هنا هو أن الحركة ولدت ومعها عناصر بقائها ، وأقنعت الذين خشوا عليها أن

تكون موقوتة بظروفها التي خلقتها ، انها ليست كذلك . تساءل سارتر ، وسيعرف له تاريخ النقد الاوربي انه رعا هذه الحركة وهي وليدة يزور عنها غيره ، تساءل من امرها حين يتخذ الزنجي مكانه في « وليمة الكون » او يشرف هذا التعس الذي يعيشه على النهاية ، ولعل سيزار كان يخشى خشية هذا الفنان العظيم ، فقد كتب منذ زمن بعيد يقول ان الزنجية التي يرسي قواعدها حركة لن تموت ، يملكها الزنجي وهي في تكوينه ، ان خذلها خذل ذاته ، فغلبتها من غلبته ، واندحارها من اندحاره ، وهي متحركة غير قارة ، لأن الزنجي نفسه كذلك ، غير جامد :

زنجيتي ليست صخرة ، صماء
اقذف به وجه النهار الصاخب ،
وليست غشاء من الماء اسن
فوق عين الارض مائت ،
زنجيتي ليست برجا
ولا كتدرائية
تغوص في الأرض نحو
لحمها الاحمر
تموج في السماء تعلو
لحمها المحروق ،
تخترق كل ما انبطح
بطيئا غير قادر
لأنها صبورة ومستقيمة

ان لم انقل لك في هذه الابيات معالم الزنجية التي ارادت هي أن تنقلها لك فالعيب عيبي . هذه لغة ولا كاللغات واخيلة ما تخطر الا لافريقي زنجيته حياته .

انها عند سيزار فعلة وصيرورة ، يراها تخترق الارض وتعلو للسماء ، تعمل في صبر وعناء ، ليعود للافريقى مكانه . لقد تعبده الرجل الابيض ، ولن يحفل به الآن وبمنطقه الذى ضلله ، سيحمل لواء هـذه الزنجية ، وهي ليست مقيمة فى الارض اقامة البرج أوالكتدرائية حركة عنيفة ، تعجز كلماتها عن ثقل معانيها كما قال سارتر ..

واخشىان اكون القيت فى روعك ان الزنجية طرافتها فى أسلوبها الشعرى ، وفحواها لا يســتأهل الدرس ، مضمونها مما ألف الشعراء والقارئون منذ كان شعر وكانت قراءة . ما قصدت لهـذا ، وأرجو أن تكون النماذج التى رأيت الآن ، قـد أوضحت لك أنها فى جوهرها ليست أسلوبا فحسب ، انها اتجاه فى الحياة ومنحى فى الفن ، التطبيق العملى للفكرة الدائمة التى تقول بأن خير ما ينتجه الفنان هـو ما كان ملتصقا بـه وبتراثه . كانت الزنجية بدء مسار فى رحلة لا نهاية لآفاقها العدة . كانت التحرير لنفس افريقيا الحبيسة كانت اعترافا بافريقيا ، ولم تعد معها أوربا المثال فى كل شيء . صار نهجا بعدها ان يكتب الشعراء شعرا من ضمير افريقيا ، وأن يكتبوه بأخيلة من هنـاك . كانت بعثا استهوى الافئدة ، وعادت معها الثقـافة الزنجية مكانها القديم ، فصارت الوحى والالهام ، وقد استخف بها حتى أهلوها حينـا من الدهر . عادت للافريقى كرامته مع هذا الـكشف الجديد لثقافته ، ولما يميزه ويميزها عن غيرها من الثقافات وغيره من الناس ، فى كل شأن من شئون الفكر والحياة ..

سعت الزنجية لتبين للافريقيين والاوربيين معا ان

الشعر يمكن له أن ينبع من قلب القارة ، وفى أسلوبها هى لا أسلوب غيرها من القارات ، ومضت فترة طويلة انقضت منذ أعوام بقط لم يعد لشـــعر غيره صوت أو مكان ، لا فى افريقيا وحدها التى تكتبه وبلاد الزنوج غيرها ، بل فى أوربا . شرع الناس يسمعون صـــوت افريقيا الجديد ، منبعثا من ماضيه مزهوا به ، مغاليا بعض الاحايين ، لا يلتفت يسمع ما يقال عن هـــذه القارة التى يريد بعثها ، وقد قيل كثير . لم يعد بعد هذه الحركة عارا أن ينتمى المثقفون لافريقيا ، وكانوا يعتذرون عن جلدهم ودينهم وثقافتهم ، وجزع فى هذه الفترة سارتر ، وهو الحادب العاطف عليها ، ان تكون الحركة « تمييزا عنصريا ضد التمييز العنصرى » ، ولم يبعد عن الحق فى وصفه الزنجية هكذا ، وفى جزعه عليها أيامها الاول . لن تجادله ان قرات ولو قليـــلا مما كان يكتب الشعراء حينذاك ، اقرأ معى ان كنت لم تفعل مقطعا من قصيدة شاعر من غانا اسمه ر.ج.ا رماتو ، يصف الهه كما يتراءى لعينه ، وقد اصـــابها غير قليل من الحول ، لفرط ما ثار وحقد وكره وضاق :

الهنا اســـــــود
سواده من ظلام الخلود
شفاهه غليظة ذات شبق
شعره مجعد ، عيونه مذابه
مذابة فى مائها سمراء ..
هذا هو الجمال حقا أن طلبته
لاننا فى ظله خلقنا
ونحن فوق الارض ظله
الهنا اســـــــود

وفى « جنة الزنجي » تغنى « ملائكة سود سواد حبر الهند ، ويرتل معهم قديسون سوادهم أكلح » : « لقد عناه الرجل الابيض أيما عناه وانطقه بما يدين به نفسه يوم يفتح فاه يتكلم ، كما يقول سارتر : « يتعلم الزنجي أن يقول ابيض كالثلج حين يشير للبراءة ، ويصف النظرة التي لا ترضيه فيقول : انها سوداء ، ويصف الروح يقول : انها سوداء أن كانت شريرة ، والفعلة سوداء أن كانت قبيحة . يدين نفسه ، يتهمها أول ما يفتح فاه » يربط السواد بكل مرذول كريه ، لم يكن عجبا اذن أن يقلب الافريقي رأسا على عقب ، كل الذى رسخ فى الاذهان ، ومنها ذهنه قبل أن يفيق ، يحتضن هذا السواد ، يتغنى به رمزا لكل جميل ، يهجو البياض ، رمز السلب والنهب والاستعلاء والشحوب المريض . وأتيح للرئيس الشاعر سنغور فى هذا الصدد ما لم يتح لأحد غيره ، ولعلى محق أن قررت ان « المرأة السوداء » قصيدة فى القمة شعرا وأداء ، لن يكسفها أن يقيسها ناقد بأقسى ما يقاس به شعر الكبار ، والقطعة التى أعربها هنا لا يميزها عن غيرها شيء الا انى اراني أقل عجزا على ادائها هى من أداء غيرها من القطع الرائعة فى القصيدة :

أيتها العارية ، أيتها السوداء
ملتحفة بلونك الذى هو الحياة
فى ظل هذا الجمال نموت
أرعى قواما هو الحسن
وحلاوة يديك أيتها العارية السوداء
أعمتنى ،
هناك فى قلب الصيف ، وسط النهار اللافح

اجدني عند أرضي الموعودة ،
وجمالك يعفد لقلبي يصعقه ،
كما يصعق الرعد الصقور

شعر سذاجته الأسرة تعيد للذهن أغاني نشيد الانشاد الذى لسليمان ، شاعر لن تنساه وانت تقرأ هذا الشعر الافريقى القديم ، وتطوف بمخيلتك « أنا سوداء وجميلة يا بنات أورشليم » الخ ما في النشيد ، من شعر نمته حياة لا تختلف كثيرا عن الحياة الافريقية التي يجهد لاستحضارها شعراء الزنجية :

وجوهنا جميلة جمال القوة الحقيقية
الفعالة الموجودة فى السلبية ..

***

كانت فترة هائجة ولا ريب فى تطور شعر الزنجية ، فترة لا ترى فى البياض محمدة وكانت كلها محامد من قبل ، ولا فى الرجل الابيض الا سفاكا يعيش لبطنه وكان من قبل محل اعجابه .. كان حقا التمييز ضد التمييز ، لم يصارع الافريقي ليكون كفئا لغيره فى هذه المرحلة ، ولكن ليظهر محاسنه وقد اخفاها الهوى والجهل ، وليبين مقابح غزاته حكامه ، وقد أخفاها السلطان والزيف ، يقول دافيد ديوب ، شاعر السنغال يصف اللقاء الاول بين الرجلين : الاسود ، والابيض ويصوره أبشع تصوير :

قتل الرجل الابيض فى المبدا أبى
وانحنى من ثم فوق الوالدة
كان مختالا فخورا والدى
ذل يا ويحه
هتك الرجل الابيض عرضه

ويلها كانت جميلة
امي . . .
حرق الرجل الابيض اخي
تحت شمس النهار المحرقة
كان اقوى ما يكون الاقوياء
يده حمراء من فرط الدم الاسود فيها
وبقيت . . .
قال فى صوت الغزاة الفاتحين :
تعرفه ؟ . . .
« هاى ، بوى ، هات كرسيا ومشروبا وفوطه »

***

يتصل بهذا الشعر الغاضب الحاقد نموذج آخر يعيد للذهنى أحيانا شعر حافظ ابراهيم فى دنشواى ، ولا اعرف اسما لهذا النوع من الشعر الا شعر الحسرة :

تعذب أيها الزنجي الضعيف
هذه دارك اقوت ،
وسعار الجوع فى طفلك الهب ..
وتعذب ايها الزنجي الضعيف
انت فى جلدك أسود
كسواد المضض

هذا دافيد ديوب من السنغال ، وهو يعيد للذهنى حافظا يقول :

وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد
واذا اعوزتكم ذات طوق بين
تلك الربى فصيدوا العبادا

***

أمور تشير جميعها الى أن فرنسية الزنجى لم تنجح

النجاح الذى أرادته فرنسا طول الاعوام ، « ساقنا الفرنسيون سوقا للبحث عن روح الزنجيـــة ، حين أرادوا قسرنا على الذوبان فى فرنسا » كما قال الرئيس الشاعر سنغور فى اكسفورد قبل قليل : « وتعمقت الخيبة فينا تعمقا ، دفع الشـــاعر سيزار الى حافة الجنون ، وهو شاعر من جزر الهند الغربية ، عادت روحه لافريقيا ، مصدرها الاول . اتخذ الافريقيون الزنوج كل الذى أعطته فرنسا من رياضيـات وعلوم ولغات ، وذاب جناح من عقلها فى هذا الذى أخذته ،

فما كان عسيرا ذلك ، أما جلدها الاسود فلم تكن هناك سبيل لنزعه ، وكذا روحها السوداء بقيت كما كانت فى البدء عند الخليقة ، وذكرت الرجل الابيض وفعلته يوم جاء أرضه ، وكان يوما أسود ، جاء يحمل فى يد برجـــلا وفى الاخرى مزولة ، ابيض الجلـــد ، رقيق الشفاه ، سفنه الحربية تقذف الصواعق القواتل .

وحزن على نفسه وتحسر واحس بهذا الحزن وهـذه الحسرة اينما كان ، فى افريقيا ، وفى جزر الهند ، وفى هايتى ، كل مكان ذهب به النخاسون ، وكلما أبعـد الزنجى عن قارته امه عمق حزنه ، ولم أقرا فى شعر الفجيعة هذا ما قرأته لدماس ، شاعر غينا الفرنســية ، واحد من رواد هذه الحركة أيامها الاول ، واحـــد ممن اشرفوا على الجنون من فرط الســـخط والســجن الروحى :

كل أيامى الحواضر
تنظر فى قلب أمسها
جاحظة العينين لا شىء فيهما
هذا الضغن والخزى

واحيا غبيا كما كنت منذ جئت
جثة من بلاها فحمت
اظفار أقدامى التوت
لحمى المائت والوشم عليه
الحديد الاحمر
واذرعى مهشمة
هشمها السوط الجموح

وسيزار رفيقه فى الوطن الغريب يصف أخوانه الذين جاءوا الجزر أرقاء من قديم ، يقول :

يعرفون فى ركنه الاخير الابعد
بلادهم الواطئة العرجاء
بلاد الالم ..

وكان طبيعيـــا ـ كما قلت أن يلتفت القوم للوراء يبحثون عن ماض تقف عليه أقدامهم هذه الدامية ، لم يكونوا ليقتنعوا بجامعة اللون وحدها ، خرجوا ـ وقد ملأ القنوط نفوسهم ـ يبحثون عن روح مشتركة ، واعانتهم أوربا على ذلك ، فقد كان فريق من علماء وصف الانســان ، وأجناسه العدة ، وآخر من علماء قبل التاريخ بصدد ثورة ثقافية لا فى فرنسا وحدها بل فى غيرها من أقطار أوربا وفى بريطانيا . كان هؤلاء قد عكفوا بجد على الدراسات الافريقيـــة والآســيوية ، وشرعوا يهدمون القلاع الجاهلة أحيانا ، المغرضة أحيانا ، التى أقامها أشباه العلماء . جاء هؤلاء يقولون بوحدة الانسان أبيضه وأسوده ، ويقيمون قواعد جديدة لعلم أصول السلالات البشرية أعانهم على اكتشافها ما بلغت الآلات من اتقان ، وما بلغ الاتجاه العلمى الصرف من كفاءات جديدة . وليس من عزمنا هنـــا الحديث عن

الذى اكتشفه هؤلاء ، ولـكننا نوجز ما انطبع فى ذهن طلابهم الافريقيين ، أن قلنـــا ان الثورة التى احدثها العصر الحجرى الجديد فى حياة الانسان على الارض ، لا يمكن لعـــالم ان يفهم دقائقهـــا ، ان لم يدرس الحضارة الافريقية التى ازدهرت فى اشطار عدة من القارة زمان العصر الحجرى المتوسط ، تمهد لهـــذه الثورة التى حوت القارة والعالم ، وكان من ســعد الافريقيين الزنوج ، ان دخل الميدان بعـــد العلمـــاء مفكرون وأدباء وفنانون يلهبون الخيـــال العام ، بمـــا يكتبون عن هذا الماضى الافريقى ، الذى الح على الحياة وان قدم به العهد تحت اقدام الغزاة . تعلم الشباب الافريقى فى اكسفورد وفى السوربون وفى معاهد العلم الاخرى ، ان هــذه الجذور أبقت على الايام حيويتها ، وانها ستنتج يوما من الايام فروعا جـديدة خضراء ، وكثر الحديث بعدها عن افريقيا الحارة القلب ، ذات المراعى والزرع والعشب ، موسيقى القبائل ، ورقص العذارى ، وقصص الاقدمين فى الاكواخ حول نيرانهم ، وطافت فى مخيلة الشباب رؤى عن فردوسهم المفقود ، صوروها فى شعرهم أحزن تصوير :

كانت الشمس على كوخى مضيئة

وحريمى فاتنات لدن

باسقات كالنخيل
يتهادين مع الريح .

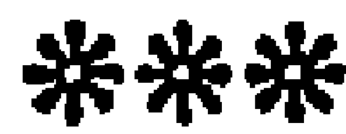
وصغارى لا يهابون يعومون
فوق شلالات نهر ذى هياج وشغب

وقواربى تطارد التمساح تصرعه ،
كصغارى لا تخاف .

والقمر الحنون الام يرعى رقصنا
صخب الالحان من توم تومنا •
توم توم الفرحة والبهجة
حول نيران الحرية
سعدنا لم يكترث •
وذات يوم حل صمت •
وبدا شعاع الشمس يخفت
ثم أطفىء
وخبا كل حجى كان فى كوخى
وأفرغ •
سحقت كل زوجاتى شفاههن الموشمة
فوق أفواه الغزاة ذوى الشفاه الناحلة
ذوى العيون الصلبة •
وصغارى هجروا العرى الحالم
واستعاضوا عنه حلل الحديد والدم •
مات صوتك
مزقت قلبى اصفاد العبودية •
تو تو مات الليل ،
نامت توم تومات الجدود •
راحت •

سترى فى هـــذا الشعر ــ ان نجحت فى نقل جوه اليك وروحه ــ شعر الرافضـــة ، الذين أبوا الرجل الابيض يغزو حيـــاته الآمنـــة الوادعة وعريه المحب للسلام ، شعر الذين امسكوا بتلابيب ماض زينوا كل شيء فيه ، ورأوا السعادة الغامرة التى لا يعنيها شيء فى كل ركن من أركانها الوضيئة البعيدة عن الغل والحقد والدم ، وشعر الزنجية فيه فصل طويل عريض يمثل

هذا البحث المحموم عن ماض بعيـد للزنوج كبرياءهم التي داسها تجار الرقيق فى البدء والمستعمرون من بعد ، وهو شعر ـ كما رأيت من هذا النموذج ـ كله زخم واندفاع ، شيئان نجحت الزنجية فى اثباتهما فى الاذهان حتى لم تعد صورة غيرها تطوف فى الذهن ان ذكر الافريقى ، لأنه يصدر فى اعماله كلها ، عن حنين الى الارض ، الى الطبيعة الطليقة الجامحة لا يؤودها ما يؤود غيرهم من البشر ، ولا يزعها ما الف غيرهم من وازع . ابناء الحياة « يلعبون لعبتها » فى غير ما حرج أو قيد ..



ولعلى لا اعدو الحقائق ان قلت ان هـذا الالتصاق بالارض دون حجاب بينها وبين الانسان ، الذوبان فى الطبيعة ، ولا فصم بينها وبينه ، الانسان ناحية من نواحي القوى العدة ، شطر فى قوى الحياة كلها لا تابع لهما « لحم من لحم هذا الـكون ، تنفتح مسامه لـكل نسمة فيه ونامة » هذه النظرة للحياة والانسان هى التى ميزت الافريقى الزنجى بفحولة تثير حسد الرجل الابيض ، وتثير لعابه بعض الاحايين ، كما تدغدغ كبرياء الزنجى حين يفيق للحقيقة ، يسمع ذكر الناس لها . وأقول حين يفيق لأن الزنجى فى غابه أو حقله او كوخه ، يعيش تقاليده وعاداته القديمة لا يعنيـه من أمرها شيء ، لا يقابلها بغيرها ، ولا يجد فيها نقطة حديث ، فهى عنده كالتنفس ، شيء يقع طالما كان حيا ، ولا يسـائل هو كيف يقع ، لا يكترث . وهكذا الزنجى فى باريس أو لنـدن ، يجد نفسـه ذكرا فحلا مكان الحديث ، بل ويقرأ أن كان قارئا ، ما يثير زهـوه ،

فكاثر الرجل الابيض بانه ابن الطبيعة لا الآلة والصناعة حين قرر سارتر فى « أورفيوس الاسود » : « ويظـل الاسود الذكر الأكبر على الارض ، وجوده ـ صبر النبات في الارض يلقى جذوره ، عمله الاول هو أن يعيد كل عام ويبدىء الجماع المقدس » لا زال رجلا انسانا يستجيب للأوليـات فى الطبيعة ، ما خـدرت جسمه وروحه الآلة والحضـارة الغربية العجلة ، وما كانت روحا عارمة على أية حـال ، ما عرفت ما عرفتـه الحضارات الافريقية من تقديس للذكورة ، معطيـة الحياة على الارض ، تقديسا رآه المنقبون فى الصخور التى نحتت على هيئة عضو الذكر فى الانسان ، ويراه علماء وصف الانسان ، مرسوما على هيئة تخالها أول الامر صليبا على جباه بعض النساء فى القارة ، عادة لا يزال يمارسها قوم عديدون ..

الفحولة اذن نقطة تميز بها الافريقى الزنجى ، وترى آثار مكاثرتهم بها فى كثير من شعر الزنجية ، وان كنت لا ترى عربدة جان جنية وصراخه ، على النقيض تراه حييا خجولا يشير ولا يذكر ، علامة الاطمئنان والهدوء النفسى وقل أن ترى الفحش والمكابرة ، ولعل خير نموذج لهذا الشعر المبين الموحى ، المقاطع التى تتنـاول هذا الجانب الصاخب عند الزنجى فى قصيدة « المرأة السوداء » للشاعر الرئيس سنغور ، يقول :

أوهو ! ! كنفو ! ! مسترخية على سريرها

من صنع غاباتها

سيدة افريقيا الأسيرة

دعى الجبال ترفع عاليا راياتها
جبال شكل الذكر

انى هنا ارصدها
واعرف انها امراة
عرفتها بوجهى ، عرفتها بلسانى
اعرف انك امراة
عرفت عن طريق بطنى

ومقطع آخر ليتنى عرفت كيف ادير كلمـاته على النحو الذى اداره سنغور فى الاصل ، اذن لرايت معى الابانة التى لا تثرثر :

والآن ساركب مرة اخرى بطون الرابية
اغوص فى نعومتها
وارقى لافخاذ النهار الساعرة

ولا يطمع كل شاعر أن يصل الىهذا الذى يصلهالرئيس الشاعر ، وهو يتطـق عن درس عميـق للحضارة الافريقية على ضوء دراسـاته الاوربيـة ، ويعالج دراساته هذه بلغة ملك كلماتها امتلاكا وظلالها المدة فى اطراف أصابعه كما يعبرون . لا يعرف الشـعر كثيرين مثله ، ممن أتوا الشعر عن حاجة قاصمة لقول شيء يريد أن يقوله ، وحساسية ناعمة لذلك الشيء ، تفور وتهدأ وفق وحى السـاعة ، وقدرة على التعبير أتاحت له ما لم يتح لزنجي قبله فى باريس ، التى لا تقنع بما يقنع الناس ، وتطمح للنجوم ، أجلسـته استاذا فى جامعاتها يعلم أبناءها ، يرد لهم بضـاعتهم ويزيدها من عمله الثرى وحسه الخصب . استطردت لهذا اقول ان شعره عن فحولة الزنجي لا يصخب ولا يريد أن يعير ، وشعر غيره يطول ليغيظ ، لا ليمتع أو يثير ، يقول ڤاى تيرولين من جزر الهنـد الغربية ، وكأنه يصيح من مئذنة يقول انظروا جاء الفحل ، جـاء

الرجل المذكر . لكنه شعر حقيق باسمه :

ثدياك تلمعان فى ساتانها الاسود
مليئة تنادى ،
هذه البسمة البيضاء
عينـــــاك ،
فى ظلمة الوجه ، تلوح
تهيج جوف الليل أعماقى
تثير أنغاما بها وقر ،
واخواتى بعدت نواهم
على بعد سحيق
فى قينى
سود عرايا
ينتشين كما يردن ،
يهجن الليل
أهوائى واغوارى
غسقا كثيفا لن تراه وان جهدت
سواده منى ومن ليلى ،
وانا الذى أحيا مع الاسلاف
أرعى روحهم سوداء تغفى
ثم تصحو ليلنا هذا الشبق
وتعانى ، وتصارع ..
قبضة من حقوك المنشور
لا يقوى عليه كل قادر

ولكن القارىء العربى لن يجد هنا ـ وهى من اهتك ما كتب شعراء الزنجية ـ ما يرفع له أهدابه بعجب ، ففى تراثه الشعرى ما هو أبين من هذا وأوضح ، عند امرىء القيس والوضاح وعمر ـ حين كانت الحيـاة

نفسها قوية فحلة ، لا يخجلها ان تعيش مليئة سكرى بما على الارض من لـذة والم ، وما كذلك القـارىء الغربى الذى الف الصـوفية فى الحب الا لدى الذين اتخذوا الحب صنـاعة ، بعد ان ذهبت الحيـوية الاغريقية وانطمست معـالم العصر الوسـيط وزمن النهضة ، وحلت حياة الآلة بقوتها التى استعاضت عن الحيوية بمدنية اساسها التادب والتانق فى الطبقـات الثرية والـكدح والعرق فى غيرها من النـاس . هؤلاء فى قبضة التعس والعرق ، يعملـون يجهدون لا يجد واحدهم الا اليسير من الفراغ يريح فيه جسده المنهوك ليشرع فى الصباح دورة الـكسب للعيش ، واولئك فى قبضـة الترف والحديث المؤنق الناعم عن الصيـد واللباس ، لا يذكرون جانبهم الحيوانى الا وراء أستار غليظة يستحون منه ، ويموت هذا الجانب من عيشـه الطويل فى الظل ، لا يرى الشمس والنور . وما كذلك الزنجى الذى يطلق للحيوان فيه كل عنان ، لايستحى منه ، يحيا مع الشمس والنور يقوى ويشتد ، يراه الغربى تتلمظ شفاهه حسرة على ما سلم ، وهو لا يدرك ما يفعل ..

على ان الزنجى المحدث قد تعرض لمـا تعرض له الاوربى ، ويخشى قادة فكره ان يفقد هـذا الالتصاق بأرضـه ، وهذا الحيوان فيه ، وترى هذه الخشية فى كثير مما يكتبون ، ولعل سيزار ، وهو ما رأيت تعلقا بالقديم فى افريقيا التى كانت موطن اسلافه وعاداته ، كان يقصد لشىء من هذا ، حين قيل له يوما من الايام ان يكبح من جماح شعره فيكتب شيئا منه فى شـكل السوناتا الغربية ، ليفهم عنه غير الـذين وقفوا بعض

حياتهم على درس افريقيا القديمة التي تعيش بيننا الآن في أركانها القصية . قال يجيب : « صدقوني يا رفاق ، ودعونا نضرب التوم توم القديم الطيب » . وسنفور أبين وأفصح كعادته حين يرتاع من حاضره وينظر للوراء يقول على لسان بطله المتوفى شيكا : « من التوم توم هاتوا ، واطلبوا شمس عالم جديد » ..



ومهما كان من أمر هذا الجزع فان سنفور الرئيس وغيره ممن عاشوا الحضارة الاوربية ، ونشأوا على فنون الزنوج في أمريكا وفي جزر الهند وفي هايتي ، لم يجدوا في الذي درسوه وأحسوه شيئا لا يتفق وحب الافريقي للحياة هذا الحب العارم وعشقه لكل ملموس منه محظور . عكف الزنجيون الاوائل على رومانسية الاشجان (البلوز) وصوفية الروحانيات (اسبرتشوالزم) وخرجوا منهما بمفهوم أوجزه الشاعر الرئيس بقوله : انهم يريدون ليبدعوا فيما يكتبون من شعر ونثر « دنيا لا تختلط فيها المتعة بالخطيئة » عالم يدرك الفرق بينهما والحدود ، لا ينسى فيه الافريقي الزنجي انه من قوم يقولون :

نحن الرجال الراقصون ولا حوب ،
أقدامنا تقوى مع الدفء
وتغلظ تحتنا الارض
فلا نعنى ولا نضعف ،
نحن الرجال الراقصون

ويذهب بعيدا سيزار في حساسيته الزنجية ، ويعيد للذهني مثلنا الدارج من « التركي ولا المتورك » مثل كان يتندر به العامة ، حين يرون رسل « الترك »

يلحفون في تنفيذ ما أمر به الاسياد الحافا لا يرونه في الاسياد انفسهم أهل الحل والعقد . كانت وطأة الاسياد اخف عليهم من وطأة الرسل . وسيزار الذى ما رأى افريقيا الا بعد أن تقدمت به الحياة ، هو الذى تعلق بها تعلقا ، انكر معه كل شيء أحبه وعاش له من قبل : وسائل العقل الاوربى ، وطرائقه فى التفكير ، واخيلة الشعراء والفنانين ومصادر الهامهم ، قال يتبرأ من أوربا وما تمثله فى ذهنه : « آه ، أنا اسمع من شقوق جمجمتى · انه الطوفان الاسود يهدر ويرتفع يرتفع ، ينبع من اعماق هذه الارض ، انا اسمع الامواج فى خريرها ، واشم المستنقعات فى رائحة الحيوان ، وزبد العواصف اراها فى الاقدام العارية . اسمع اسمع معى ! هذه أسراب من الاقدام تتجدد كل وقت ، تفرغ فى جبالها » . نثر عسير يقتضيك مشقة فى تصور أهدافه ومعانيه ، كما اقتضاك شعره ، ولكنك لن تخطىء جملة ما يريد أن يحمله اليك من الصور الافريقية الخالصة ، ترى وراءها ان انعمت النظر الزنجى الجديد يخرج هادرا صاخبا من سجنه يقتحم اسواره ، يطل على العالم يراه بعينه لا بعين سجانه · والشاعر ــ فى مفهوم سيزار ــ رجل يخرب ليبنى اساسا حقيقيا بالذات ، وقوة جديدة على الرؤية التى لا تحجبها نعم الانتعاش الاقتصادى أو التحرر السياسى . كلاهما عند الزنجيين فراغ ، يظل آليا ، ان لم ترفدهما معان داخلية ، فالانسان لا يعيش بالخبز وحده ، وما احتقر الاوربى غيره لاتقانه فنون الآلة فحسب ، لقد صرعه بهذه الفنون ، ولكنه فرض عليه ثقافته ، وما كانت خيرا من ثقافة الزنجى ، بل

مختلفة ، كما فرض عليه فلسفاته ، وما كان الزنجي خلوا منها . فى كلمة واحدة ، حجب عقله وقلبه عن النور ، وعلى الافريقى أن يستعيد كل الذى فقد ، حريته العاطفية والفكرية ، مع حرياته الاخرى ، فلا معنى لهذه ان خلت من تلك ..

كان فى صدر الزنجي اذن احنه واستثار دفينها ان استطاع التعبير عنها ، مستعينا بوسائل أهل الشعر والفكر فى أوربا عند جدة الامر ، مبدعا وسائله هو

عندما قفل الى ذلك الافق الذى عرف من بعد بالزنجية ، واستقر به المقام هناك لا مرجع عنه ، ولا مكان للرؤية غيره . عد طابورا خامسا من اتجه غير تلكم الجهة ، ولم يعد من حق أحد بعدها أن يحيا غير هذه الزنجية أو يتحدث بلغة غير لغتها ..

للشعراء والكتاب أن يطوفوا فى مجالاتها ، يجولون ما شاء لهم خيالهم ان يفعلوا ، وما أسعفهم البيان ، اما الخروج عن الرقعة أو عليها فكان زندقة ، لأنه خروج على الذى أوقفت نفسها عليه الزنجية ، لا نمطا فى الشعر وحده ، أو فى النثر ، أو فى الفلسفة ، بل نمطا للحياة كاملا . الذين لايريدونه ارادة ، ويعملون له ، قوم من الناس خبيث قاعد :

مختلف ، لا يكفيهم انهم يحسبون ذواتهم
مسخا من ظل ابليس ، لا ظل ربهم على الارض ،
سماوات بعيدة عليهم لا يعرجون آفاقها
لانهم زنج ، مثلهم مثل الموظف الصغير
فى الديوان ،
يرقب الايام بعدها تحمل فى طياتها الترفيع
تسوق له الفلوس ..

قوم خسيس اسلم نفسه
يدخل مطمورة من هواها
وأحلام عيشها النكد ..

يعجزون عن الغلبة ، فيخدعون ،
داب الصغير ذى العنة ..

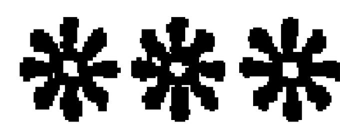
واسعو القياد لينو العريكة ..
انظرى اوربا انا اعرف ما تعرفين
من أداء مفترض الآلاء ،
واعرف ان أقدم فائق الاحترام
لا اختلف عنكم فى الحقيقة

ولا يرو عنكم سواد جلدى ، فالشمس
هى السبب وهى احرقته
كلهم حمار وحش هؤلاء
فيهم الزنجى عبد الراصدين ،
فيهم الزنجى جندى الرقباء ،

حمير وحش يستحون من شريطهم
يرجون لو هزوا جلودهم تساقط
الشرائط تهوى الى
ندى لبن ،
واصيح لا أعنى بهم : « هرا هرا »
جسدى يموت كل لحظة ،
اقول لا اعنى بهم هرا ، هرا ..
الزنجية القديمة تهوى قدما
الى الفناء
هرا ، هرا

وهكذا يريد بناة الزنجية والقائمون عليها اليوم الا تكون لحركة أخرى غير حركتهم حياة ، لأنها هى حركة

البعث الافريقي تشمل كل شـــأن من شئون العيش والفكر وتقدر على التغير مع الظروف « ليست صخرة» ومن العدل ان نقول هنا انهم فى هذا لا يغالون فزنجية الثـــلاثينيات ـ بحقدها وغضبها وثورتها على كل شيء قد استحالت زنجية أخرى اليوم . أبقت على أسلوبها القديم فى الشكل ، وتحركت مع الايام فى المضمون ، كما سنبين بعد حين ، مؤكدة بذلك أن موقعـــة فاصلة فى المعركة قد انتهت ، مهيئة نفســـها لقابل المعارك ، فما مع الحياة سكون . لم تعد هذه الصورة التى ترسمها القصيدة للزنجي حقيقية فى كل مكان فى القارة ، وان كانت هناك فى كثير من الجيوب ، لأن الاستقلال السياسى الذى ناله كثير من الافريقيين ، لن يخلق الزنجي الكبير فى يوم وليلة ، فقد عاش زمنا طويلا يرقب الاشـــارة من غيره ليهرول ، فالسير لم يكن مما يثبت عليه ..



رايت معى ولا شك مما قرات حتى الآن عن الزنجية انها نتاج لاتينى ، فرنسية سدنتها من هناك . ولـــكن الحركة اخذت بقلوب فئـــة من الشـــعراء والـــكتاب والمفكرين الذين ربوا فى الاقاليم البريطانية على اللسان الانجليزى ، فاستجابوا لحداء قافلة الزنجيـــة واحتضنوا فلسفتها واتجاهاتها ومراميهـــا على انها حركة للزنوج فى كل مكان ، ولم يثنهم عن القافلة أن الفجوة اللغوية ، كانت عميقة بين الفريقين ، عمق الفجوة التى يجدها الواحد بين الثقافتين الفرنسية والانجليزية ، ولم يكن عجيبا أن تلتقى الطريقان عند الزنجية ، وقد باعدت بينهما وسائل الحكم واهـــدافه فى كل من البـــلدين فرنسا وانجلترا ، ذلك لأن الحركة لا تخاطب عقـــل

زنجى بعينه أو عاطفة افريقى بعينه ، كانت تخاطب الاسود أين كان ، كما تخاطبه اليوم ، ولم يكن بين الاسود فى الكنغو او السنغال او غانا فرق فى تجربته الجوهرية مع الابيض ، كانت هناك آصرة الهوان والذل بينهم جميعا لا تقوم الا على قاعدة اللون ، وان اختلفت المناهج بين المستعمرين . كلهم يريد ليملأ بطن الاسود خبزا وعقله فراغا وروحه طاعة ..

ولكن فريقا آخر ابى هذه الزنجية وكل الذى تمثلها وتهدف اليها ورأى فيها دعوة الى الرجوع الى وراء لا دعوة الى البعث والنشور ، وكاد أن يدمغها بالتواطؤ مع الاوربيين الذين يرون فى القارة السوداء حديقة العاديات يأتونها هرب الصقيع فى الشتاء ، يتمتعون بالدفء والحيوان والبشرية شبه ذلك الحيوان ، ويعودون مع الحر الى بلادهم يحملون للذين ما استطاعوا الرحلة صور العرايا ورقص البرابرة حول النار ، والافيال فى مستنقعاتها ، والاسد فى جلاله ، ويحملون مع هذا كله قصصا ما وقع منها شىء الا فى خيالهم الواسع .. صورة لجنة يخافون عليها من يد الحضارة أن تمتد اليها فتحرمهم النعيم الذى يشترونه من وقت لآخر ، والمتعة التى يجدونها فى عطفهم الاجوف على « المتوحش اللطيف » . وينعى المنكرون للزنجية هذا ، ويصرخون فى وجه دعاتها :

لا تحفظ على عادى ومألوف
ارجوك ،
سيأنس به ان فعلت
مؤرخ ابيض اللون
به خيفة ،

خيفة تغريه بالشاذ والاثر

انهم يريدون لافريقيا كل جديد نمته عصر الآلة ، ويخشون أن يلعب دعاء الزنجية لعبه طلاب التسلية من الذين انهكتهم عجلة الحياة الاوربية ، ويريدون لها أن تتصنع وان ترقى رقى أوربا ، ويأخذون على الرجل الابيض أنه لم يعطه الا الفتات من حضارته ، وكان أجدر به ان يعطيه كل الذى أتقن وأبدع ، ويعيد لذهنى دنسى أسادبى ، الشاعر النيجيرى الذى أخذت لك عنه ذاك المقطع ، صورة المتنبى يعالج كافور يقول :

وهبت على مقدار كفي زماننا
ونحن على مقدار كفيك نطلب

وذلك حين يتابع قصيدته هذه فيقول فى مقطع آخر يلوم الاوربى على خسته فى عطيته :

أنا لا أجحد العوارف وان كنت
أريد المزيد من طيباتك
كسرة الخبز من يديك قليلة ،

هذه واحدة من مآخذ الناقدين للزنجية ، والاخرى فكرية محضة ، أفصح عنها أستاذ من عبادان (نيجيريا) فى حديث له أجراه مع أحد محررى مجلة « انكاونتر » . قال يتحدث عنها انها « اسطورة » ولم يعترض عليها لأنها كذلك ، فالاساطير تدفع الناس للصراع ضد النفوذ الاجنبى ، لأنها تزين لهم ماضيا من التاريخ يعينهم على الثقة بالنفس ، وتصور لهم مستقبلا زاهيا ، يقوم على الماضى المجيد الذى كان يتخذ المحاربون هذه الاساطير قواعد يهجمون منها على مراكز العدو ، يقولون لأنفسهم انهم أستطاعوا فى فترة من تاريخهم الماضى أن يكونوا شيئا

مذكورا ، وليس هناك ما يمنعهم أن يكونوا كذلك الآن ، ان آلت اليهم الامور من يد الاجنبى . وينتهى الصراع وتؤول أمور الناس لهم ، وتختفى الاساطير معها ، مخلفة أحلاما وأمانى على الذين خلفوا الاساطير ان يحققوها ، وما فى وسعهم ذلك ، لأن الحقائق التى تيسرها الاساطير اعقد كثيرا مما يجىء فى بال العامة ، مستهلكى الاحاجى والقصص . وعرج الاستاذ على الزنجيين ، فقال : « انهم ذميون ، يقولون ما لايفعلون يخيطون ملابسهم الانيقة فى باريس ، وخير الطعام ما اتاهم من هناك ، وخير الخمور والنساء كذلك . لا تمتع نفوسهم الا بمتع الحضارة الفرنسية ، ثم يأتون افريقيا فلا يعيشون الا فرنسيين سود . ويدعو بعضهم الى الثقافة الافريقية ، ولكن قل لى : ارأيت فى دار واحد من الدعاة صورة ما ينتج الفنانون الافريقيون المعاصرون او واحدة مما انتج القدماء ؟ . ارأيت نحتا فى دار واحد من هؤلاء مما أنتجت افريقيا القديمة أو المعاصرة ؟

وليس ظلما ان نقول هنا ان الشاعر النيجيرى والاستاذ النيجيرى ، كلاهما يصدران عن ثقافة سكسونية تجنح الى الجانب العملى فى الحياة ، لا تقف كثيرا لدى المجرد الذى هو سحر الثقافة اللاتينية ، يريدان ـ كغيرهما من المفكرين الذين ثقفوا ثقافة سكسونية ـ أن يتقن الافريقيون شئون الادارة والحكم ، وان ينصرفوا الى الذى ينفع المواطنين فى حياتهم اليومية ، من تعاونيات ونقابات ، يسودها النظام الدقيق ، وتحركها الحريات المدنية الكاملة على النموذج البريطانى ان تأتى ذلك . وما كذلك الافريقى الذى ثقف ثقافة لاتينية .. شئون الفكر والروح عنده

فى المقدمة ، والحياة اليومية العملية فى محل ثان ، ولعل هذا يفسر لنا الرباط الوثيق بين فرنسا وأقاليمها وراء البحار ، رباطا وثيقا يضيــــق به الذين يؤمنون بذلك المفهوم الجديد الذى يدعونه الان ، مفهوم « الشخصية الافريقية » لأن الزنجى فى الاقاليم الفرنسية السابقة ، مسخ من فرنسا فيما يرون ، ويخطىء الواحد منا ان ذهب بعيدا مع هـــذا التيسير ، وحسب ان الثقـــافة الانجليزية ، في صميمها ـ لا تكترث بالروح والفكر ، وان الثقافة الفرنسية فى صميمها لا تكترث بالحيـــاة العملية . هـــذا ابعد ما يكون عن الحق كما تعرف ، والواقع الذى لن يجادل فيــــه الكثيرون ، هو أن النفوذ البريطانى فى القارة الافريقية عجز لحد بعيـــد عن أن يصدر هذا الجانب الروحى من حضارته ، وان النفوذ الفرنسي ضغط على جانب واحد أيضـــا من ثقافته . أولئك باختصار مخـــل صنعوا بيروقراطيين ، وهؤلاء صنعوا شعراء ، وكان فى وســـعهم أن يصنعوا مزيجا كالمزيج الذى تصنعه حضارتهم في بلادهم . من كل هذا بالمناسبة ، نريد أن نخلص الى ان فريقا ممن يأخذون على الزنجية رومانسيتها وافريقيتها الجامحة يصدرون عن عقلية عملية ، همومها الاساسية فى التقدم والرقى على الاسس التى وضعتها الحضارة الآلية ، التى يعيشها هذا الشطر من القرن العشرين ، وعدا هـــذا عندهم تعلق بالخيال والمستحيل لا يليق برجال يريدون ليبنوا بلادهم من جديد ..

وهناك فريق ثالث لا يجد نفعا لهذه الحركة ، ولا يفهم لها معنى الآن ، لا يجادل ضدها كما فعل دنسي أسادبى الذى يرى فيها تعويقا لحركة التفرنج ، ولا كما

فعل اقنشى الذى يراها نفاقا فكريا لا يستحق . هذا فريق ثالث يجادل ضدها وهو فى تراب المعركة لا يقدر شيئا لا يعينه اليـــــوم ، على كسب هذه المعركة . ترف يتحدث به الخالون ، والزنجية عند هذا الفريق شيء من هذا وأكثره « كلام فى الهواء » يقوله المثقفون ، هواء ساخن من اى جانب أتيته : فى فنـــونه وفحواه ، وفى نفعه كعقيدة محاربة . يمثل هـــذه النظرة غير العاطفة حزقيل مقاليل ، كاتب من جنـــوب افريقيـــا طوح به السفر كل مكان ، وقد شقت عليه الحياة فى بلاده التى رعته بادىء الامر ، وقذفته خارجها حين تمتم يطلب العيش الجميع بين أهليها من سود وملونين وبيض ، وليس يشق عليك وقد عرفت هـــذا عنه أن تفهم حين يقول يرفض الزنجية :

اننا نعاظل فى جنوب افريقيا لنخلق ثقافة للكادحين تمزج على سواء بين القديم والحـــديث . كيف لنا أن ننوح هنا على ثقافتنا التقليدية ، وقد هوت قواعدها الا قليلا منها ، تحت أقدام الغزاة ، ومطارق الصناعات الاوربية ، وما يتطلبـــه الاقتصـــاد الاوربى ، وهوت عمدها لا قليلا مع تيار المهاجرين من حولها ، يســـاقون سوق العبيد لبـــلادنا ، يخربون حيـــاة الاسرة عندنا ويخرب تبعا له بناء المجتمع . والقوانين التى نعيش فى ظلها ، هل أبقت لنا ثقافة نتحدث عنها وعادات ؟ انهـــا تنتزع قومنا انتزاعا من أراضيهم وأهليهم ليحيوا بعيدا فى المناجم والمزارع يعرقون ويجفون ، كيما يتخم البيض ونتحل . وهـــذا التعس الذى نلقـــاه من المبشرين الرجعيين وغيرهم من معلمينا الخ . لن نثير معركة فى الخلف لنبحث من جديد عن ثقافة تقليدية خالصـــة ،

فى نفوس خمسة ملايين من غير البيض نزحوا اليوم للمدن وثلاثة ملايين كلهم أجراء على مزارع البيض ، ولن نضيع جهدنا لنبقى على ثلاثة ملايين منا ظلوا فى أماكن اختارها لهم البيض اختيارا ، نبقى عليهم ثقافة تقليدية . هذا شطط فى الخيال ، ان لم يكن نكبة علينا نحن الذين نسعى لهدم البناء السياسى القائم الآن .. »

منطق لن يرفضه الا مكابر ، وان كان كثير الفجوات ، يصدر عن سياسة التكاتف التى يدعو لها المعتدلون من جنود الحرية فى جنوب افريقيا وفى الولايات المتحدة وينبثق من قولهم بأن لاحياة للزنوج أو البيض الا بهذا التكاتف والامتزاج الكامل ، فى الحقول ودور العلم وكل مكان . ولن يسهل على دعاة التكاتف ان يقولوا بالذاتية الثقافية المتميزة ، والذاتية الحضارية ، التى تبشر بهما الزنجية وتدعو لهما فى حرارة وايمان ، يصدران أكثر الاحيان عن عاطفة تيقظت ، وأحيانا عن علم تؤيده الشواهد الصادقة بتاريخ افريقيا ، وما اتصل بالتاريخ من علوم تعين على فهمه وتفسيره . لن يسهل على التكافليين هذا . اذن لتحدثوا بلسانين وقلبين ، فالتكافل يعنى فى شكله وجوهره أن تذوب أشطار المجتمع من كل لون فى وحدة لا تميز ، ويتبع هذا أن يترك كل شطر من هذه الاشطار ، اكثر مميزاته ليلتقى بالآخر ، والا عز اللقاء المنشود ان لم يستحل ، وهو لقاء ينادي به الاهلون المعتدلون فى جنوب افريقيا وينادى به الزنوج الامريكيون ، وقد نتج عن هذا لقاء فكرى بين الفريقين ، لا يتحدث عنه أحد بكلمات معدودة ، ولكنك تراه فى آثارهم المكتوبة وفى نشاطهم

السياسي والثقافي ، ويشير بعضهم في حزن الى استحالة اللقاء بينهم ، يتحدث عن الخيبة التي أصابت الروائي الكبير رتشارد رايت حين زار غانا اول مرة بعد حياة طويلة في الكتابة من أجل الزنوج ، والعمل في حركاتهم السياسية والثقافية ، وكثير من الايمان بوحدة المصير الزنجي في العالم . ما وجد حين تحدث للساسة في غانا ولأهل الفكر هناك أرضا مشتركة بينه وبينهم ..

على ان الخيبة التي احسها رايت ، والاحساسات المماثلة التي يحملها كتاب أصغر قيمة وسنا منه ، لن تطمس الحقيقة التي يعرفها كل الذين عنوا أنفسهم بشئون القومية الافريقية ، وهي ان الزنوج خارج افريقيا وفي مقدمتهم الامريكيون لعبوا دورا مركزيا — ان لم نقل الدور الاول — في يقظة القارة ، واكبر يقيننا ان رابطة اللون بكل ما يحمل هذا التعبير من معان ، ستظل اقوى من اى عنصر من عناصر التباعد التي تفرضها ظروف عيش الزنوج في اقاليم تفصل بينها آلاف الاميال ، وتفرق بينها التواريخ المختلفة ، والوجود الجديد الذى يخلق شخصية زنجية عليها من تعليمها واقتصادها وسياستها آثار لا مفر منها ولا مهرب . ستعوض رابطة اللون عن كل هذا فيما نرى ونقدر ، حتى ينتهي الصراع السياسي الذى نراه في أوجه اليوم ، ولا نخطىء نهاياته المرتقبة . ولعل اصدق الشواهد على هذا هو ما كتبه القصصي والكاتب الامريكي الزنجي جيمس بلدوين ، وهو من هؤلاء الذين اختاروا النفي في فرنسا اختيارا ، ليدعو لقضية الزنوج باسلوبه ، وعاد للولايات المتحدة طائعا وقد أدرك

فى النهاية ، انه امريكى المزاج والثقافة ، لا يفهم الكفاح على النحو الذى يفهمه الافريــقى الزنجى ، وان كان لا ينكر على الافريقى أســلوبه ومرماه . انهم يريدون ليقوضوا نظاما استعماريا ويقيموا مكانه نظاما وطنيا ، وهم غير ذلك فى الولايات ، يريدون ليصــلحوا نظاما اجتماعيا فى الولايات المتحدة ، شقت مظالمه حتى على قوانين الدولة .. دعاة تقويض ودعاة اصــلاح لا يجمع بينهما الا الظلم الابيض . كتب يقول منذ خمسة أعوام

وهذه حياته وآراؤه ، يقول بين السود ، وان اختلفوا فى كثير : « رابطة لا انفصام لها ، هى علاقتهم المتأرجحة ، الاليمة القاسية ، بالانسان الابيض ، يشركون شيئا لا عيش لهم كريم دونه ، هو أن يصنعوا العالم مرة ثانية ، كما يتراءى لهم وأن يفرضوا هــذه الرؤية قسرا على

أهله ، كيلا تكون حياتهم أبدا طوع رؤية أخــرى ارتآها الآخرون لهم وللعالم ، وفى كلمة موجــزة ، الرابطة الوثيقة بين السود هى هذه الوجعة الحميمة للدخول فى العالم رجالا » ..

وبلدوين الذى يقول بهذه الرابطة الحزينة ، يرتاب ارتيابا فى فنون الزنجية وجدواها ، مثله فى ذلك مثل حزقيل • ليست أداة تقتحم الاســوار المنيعة ، التى اقامها الرجل الابيض حول رجولته ، وما على الزنجى ـ اينما كان الا أن يصدر عن واقعه ، واقع يشمل فقر

السود ازاء البيض ، واحساسهم الذى لا ينقضى باللون وفقرهم الذى يدفعهم دفعا الى القســوة حتى على أخيهم الاسود ، فالفقر لا يعرف الفضــيلة ، ويرجو للزنجى أن يكتب غير عابىء بشىء الا الاتقــان فى الذى يصدر عنه . ولن تكون كتابته على أية حال الا افريقية

زنجية ، فذاك مصيره ، وحتم عليه اذن ان يفعل ، ولن تكون للزنجية دخل فى هذا ، ولا لغيرها مما يتحدث الناس من مذاهب ، والمذهبية رق « ان رايت افريقية فى الذى اكتب ، فذاك ما يجب ان يكون ، ان صدقت فى نغمى وفى التعبير عن نفسى » . هكذا يؤازره حزقيل ثم يمضى ويقول ، كانه يقرع الخالين من دعاة الزنجية فى غرب افريقيا « انا لا اشك فى انى زنجى ، واحدة من معطياتى ، وليست مادة للشعارات ، فيما احسب . تصور ان اردت صينيا يستيقظ مع الفجر ، يندفع للطرقات ، يصرخ فى الناس ، ان اسمعوا ، لقد جئتكم بجديد : اكتشفت شيئا صينيا فى نحتى ، وتصويرى ، وموسيقاى » ..



وما عدل حزقيل ..

ظلم الزنجية ، فيما نعتقد ، لانه ممن يعرفون ان هذه الحركة التى لم ير لها فنا يستحق ، ولا فحوى يعين ، حركة بينها وبين الظروف التى نمتها آصرة رحم ، واكثر ، جارحة من جوارحها ، وتراب المعركة هو الذى حجب عن عينيه أيامها الاولى ، واشعارها وآثارها الرائعة ، وحجب عن عينيه تطورها مع الايام. قال الشيخ انتاديوب ، وكانه راى ما قد يقال عن هذه الحركة التى رعاها شبابه كله « لكلمة الزنجية هذه تاريخ كامل ، لا يشركها فيه احد ، فالظروف التاريخية التى كانت هناك تشهد ميلادها ، خلقتها فى عقولنا نطفة ، وينبغى مع هذا ان نسترعى الانتباه الى ان الزمان الذى مر عليها حتى اليوم ، زادها ثراء فى الذى ارادت أن تقوله ، وترتب على هذا ان تجددت مع

الزمان وتغيرت ، كلما مضى عليها الوقت » . كانت اذن كالحياة نفسها ، تاريخ وواقع ، ثم تطورت مع الوقت ومع ما يحدثه الوقت من تغيير ، وانجزت فى كل مراحل تطورها ما لم تنجزه حركة مماثلة ، وهى اصل حركةزنجية دفعت الروح الافريقية دفعات لتصحو تبحث عن تاريخها وتقاليدها ومميزات انسانها بادىء الامر ، وتخرج تعارك من بعد لذاتيتها ومكانها مع الناس ولن يضيرها أن موقفا معينا هنا أو هناك للزنوج عقدته عناصر تاريخية واقتصادية يبدو للذين يصارعونها اليوم ، ان مشكلتهم تلك هى المفتاح ، وان مشاكل غيرها لم تحل ، أو تؤذن بحل . لقد اعتاص والتوى الامر فى مواقع باقية من المعركة ، والجيل الذى راد الحركة يدرك جيدا ، فيما نرى ، ان النهار قد شد ، وان طرائق قد بانت الآن ، وما كانت هناك غير طريقة واحدة ..

ولولا خشيتى الاسراف لقلت ان محاضرة الرئيس الشاعر سنغور فى اكتوبر الماضى ، والتى أشرت اليها غير مرة فى هذا الحديث ، بيان للزنجية الجديدة ، أو المتطورة ، بمعنى أدق ، لا لأنها كلها جديدة ، ولكن لأنها لخصت خواطر كانت هنا وهناك مبعثرة عن الحركة ، ودورها الجديد فى عالم الزنوج الحاضر ، ومن الطريف ان هذا الرجل الكدود الذى ما اشتهر بمفاكهة ، كان يسخر غير قليل من نفسه ومن اخوانه ، حين رجعت به الذكرى ثلاثين عاما ، ورآهم يحسبون انفسهم « كتيبة شعراء ترود الطريق للزنجية » . اثلج صدرهم علماء سلالات البشر ، والاحرار من الشعراء والكتاب ، بالذى قالوا عن الزنوج :

« فسللنا سـيوفنا ، نحن المشـاة السـنغاليون ،
وتصارخنا لنقتحم المعاقل التى عاشت طويلا فيها القيم
الاوربية » سكارى بالذى اهـل عليهم من جـديد ،
نشاوى تعززهم هـذه الاحقـاد التي ظلت زمنا فى
صدورهم تغلي ولا منفس ، فى صمم عن نداء الاوربي
وقد استـيقظ هو بدوره ، يريد ليلقـاهم مكانا فى
الطريق ، يرمون الحضارة الغربية بكل قبيحة تراءت
لهم ، لا يريدون الا المعركة ، والا الموت ، أما المسالمة ،
فقد مات عهدهما وراح :

هذى الطريق عسيرة سرها
الموت وحده سبيلك
لقينى ..
للفروع ، للغاب ، للشجر ..
واصغ للريح مليا يهمس
لغه ليله الخالد لف
هذى الطريق عسيرة ، سرها ..
هذى سبيل قينى ،
لن تجد ان جئتها شيئا حفيا يرتجيك
عند هذا البلد الاسود ، سود الناس اهله ..
ستجد حين تاتيها قرى ، هادئات ، وادمات ،
قرب ماء ،
وستلفى عندها واحدة ،
كالت المساوى لأسلاف وآباء هنالك ،
لا يرعها وهى وسنى غير أصوات الطيور ،
فى سماوات ودخان غزير ،
وتلف الكوخ أشجار لها هدب ، يهدهدها
النهار القادم ،

تصحو لتحيا حول إحداق المياه الجارية ..

وكانت « عنصرية ضد العنصرية » حتى وقعت الحرب ، ورأت هذه « الكتيبة » شيئا مما تفعل الكتائب حين تنقطع برأيها ، تسلم كل قيادها له ، تؤثرها على حياتها وحياة الآخرين ، وكأن للرأى حياة وحده . ورأت فئة من « المشاة السنغاليين » سجون النازية ، فترددت من بعد فى دعوتها العنصرية ، وكانت مبرراتها للعنصرية قوية ، لا تقاس بتلك التى كان يصرخ بها جوبلز عن حق الاوربيين فى التسلط على رقاب الغير ، وأكدت الشواهد على هذا الذى رآه « الكتيبة » الافريقية الزنجية وتغيرت به ، ما يقوله سنغور فى عاطفة لا تبين فى الرجال الكبار الا لدى المحنة ، قال : « هذا التزيد ! فعدنا لعقلنا واحساسنا ، آه ، هذا الحقد والبغض ، ذلك العنف وتلكم القسوة !! وقبل كل شىء ، وفوقه ، هذه الدموع تجرى من المآقى ، وهذا الدم يسيل من العروق . كرهنا الذى رأينا وغثيت نفوسنا منه ، فقد كان كل تعس رأيناه غريبا على عبقرية قارتنا ، غريبا على حاجتنا للحب » . ونظروا حولهم فاذا أوربا فى بحر من الحزن والبغض والكرب ، وما كان ذلك هدفهم حين دعوا للزنجية ..

***

كانت الزنجية تسعى لتذود عن قارة واهلها خارجها يزرعون الود والحب ، وراعهم هذا الذى راوه ، لما انطلقت شياطين البغض والحقد ، فوقف اكثر دعاة الزنجية يتساءلون عن المصير الذى يحتمل ان يلقاه الزنوج ان لم يطهروا دعوتهم من العنصرية الدامية ،

واتجهت فئة عارفة حساسة من « الكتيبة » الى فلسفة أخرى ، تحتفظ للحركة بروحها القدامة وأسلوبها الجديد يطعمها بحب وود يهدفان الى توضيح وتأكيد الثراء النفسي الذى يتمتع به الزنوج ، لا للمباهاة والمكاثرة ، بل لاعانة لحضارة الغربية ، على العودة الى شيء من الهدوء الداخلي . وبدأ البحث عن هذه الفلسفة الجديدة ، والزنجية الاولى ماضية سبيلها لا تنتظر ، ولولا خوفي الاثقال عليك لأوجزت لك بعض القرارات التي اتخذت فى روما فى اجتماع مشترك عقد فى فبراير عام ١٩٦٠ بين جمعية الثقافة الاوربية وجمعية الثقافة الافريقية ، ولكني لن أنصفك ان لم أوجز لك الراى الذى انتهى عنده الآن الدعاة الاول ـ وأقول « الآن » عن عمد فالفلسفات الحية لا نهاية لاحتمالاتها على مقابلة الجديد ـ وخير ما أفعله هو أن انقل لك عبارة الرئيس سنفور فى هذا الصدد « الزنجية اليوم لا تعبر عن نفسها على النحو الذى كنا ننفعل فى القديم ، لم تعد معارضة صرفة للقيم الاوربية وانما هى سعي لاكمال تلكم القيم بما عندنا ، وسيعنى المحاربون من انصارها لا بحرب الذوبان الذى ارادته لنا الثقافة الاوربية فيها ، بل بالعمل على الامتزاج فيها ، ومزجها هى بدورها فى الذى ورثنا من تراث . سيعمدون الى القيم الاوربية يستعملونها اداة لايقاظ قيم الزنجية الناعسة ، سيثرون بها حضارة الكون » حضارة فيها من الغرب سمات ومن الزنجية ومن غيرها ولعلك تحب أن تذكر هنا ان قائل هذا الكلام هو الذى وضع النشيد القومي لاستقلال بلاده ، وهو نشيد يبدأ ، هكذا : « البانتواغ ، والعربى ، والرجل الابيض »

الديمقراطية فى أفريقية

« أبدا آثر الانسان ، كائنا من كان ، وحيث كان ، أن ينزع للعمل وفق اختياره ، لا تعنيـــه منفعته ولا يخيفه عقله . ومن حق الواحد أن يختار ما لا يتفق ومنفعته . له أن يفعل ، وأكثر من هذا اخوتى الاعزاء عليه بعض الاحايين أن يفعل . هـــذا هو رأينا . أنا أؤكد لـكم سادتى ان « اكثر المنافع نفعا » هو أن يختار الواحد منا اختيارا ما يروق له ، ما يجىء فى باله لا يروعه أن يخرج على قاعـــدة أو عرف . لا بديل للاختيار الحر . ولـكن الناس تنكبوا الجادة حين لم يخلوا فى أنظمتهم التى يبتدعونها مكانا لهذا النزوع فينا والخلة وتعالوا نقلب الرأى فى النتيجة . أين وصـل الانسان بذاته ونظمه التى أغفلت هذا النزوع ؟ تتكسر نظمه كلها ذرات فتيتة أمام هذه الصخرة لا تلين ، لانها فى الحق « اكثر المنافع نفعا » كما قلت ، كل شىء دونها عدم ، باطل ، عقيم . من الذى قال لهؤلاء العقلاء ، ان الانسان لايريد لنفسه الا الاختيـار الفاضل ، يألفونه ويعرفونه ؟ ما الذى حملهم على الظن بأن الانسان ينبغى عليه ألا يختار الا السبيل العاقلة النافعة ؟ من أين لهم هذا ؟ الذى يريده الانسان واضح لا ضباب حوله ولا غمام ، تسهل رؤيته ، يريد الاختيار المستقل ، مهما

اقتضاه هذا وحيثما قاده . . . »
* مذكرات من تحت الارض » دستوفيسكى عام ١٨٦٤

« ما اشبه هذا باسطبل اوجين ! اين يبدا الواحد منا ؟ بالجماهير ؟ نبدا بتعليمها ؟ » وهز راسه وهو يتحدث لنفسه « لا أرى فرصة هناك . سيقتضينا هذا قرونا طويلة ، ولا شك . حفنة من الرجال فى القمة . او حتى رجلا واحدا هناك ذو بصر ـ دكتاتور مستنير . كلمة تثير الرعب في النفوس ، هذه الايام . ولكن ايـة ديمقراطية يمكن أن تعيش مع كل هذا الفساد والجهل ؟ اى نوع من الديمقراطية ؟ من يدرى ، لعل شيئا فى منتصف الطريق » ..

شنو اشيب فى « واهتزت الارض تحتنا من بعد » نيجيريا عام ١٩٦٠

ستتعثر الديمقراطية فى افريقيا ، كما هى الحال فى البلاد الآسيوية ، التى استعادت حريتها منذ عهد قريب ، وربما تاخرت اعواما قبل أن تكيف نفسها ، لتتفق وحاجات تلك القارة ، وتبتدع انظمتها التى تحمل مثلها وحاجياتها من أرضها هناك وأخلاق أهلها وامزجتهم وتاريخهم الغابر والمعاصر . هذه دعوى عريضة ، ولكننا نسوقها وفى ذهننا عاملان لا مفر من التفكير فيهما ، ونحن نتحدث عن الديمقراطية فى القارة الافريقية ، أولهما حال الديمقراطية فى البلاد المثلى ، فى شمال غرب اوربا وفى الولايات المتحدة ، وثانيهما هذه الآلام الحادة فى البلاد النموذج ، فى كثير من اقطار افريقيا السوداء ، أوجاع الميلاد او التسنين كما عبر يوثانت قبل شهور . دعنا الآن نستعرض معا

بقليل من التفصيل هـذين العاملين اللذين سيؤخران الديمقراطية فى القارة ، كما نزعم ..

لا يمكن الحديث عن الديمقراطية فى افريقيا ، دون نظرة لحالها فى شمال غرب أوربا وفى الولايات المتحدة ، لأن القارة ورثت كل منظمات حكمها المعاصر عن هـذه البلاد ، وهى تعمل بأكثرها حتى الآن بعد استقلال كثير من اقطارها المختلفة التقاليد ، ولأن الذين يقومون على الحكم فيها ، الا قلة قليلة ، من نتاج التعليم الغـربى والثقافة الغربية فى الادارة والحكم . هذا الشطر من العالم هو الذى جعل لافريقيا المستحدثات من وسـائل الحكم وطرائق الصـناعة ومذاهب الفنون . ألف الافريقيون المحدثون أن يأخذوا المثال من هذه البلاد ، حتى حركاتهم الوطنية أخذت نموذجها من الوسـائل الاوربية التى ابتدعها المقهورون والمحقورون ومن عمل لهم من أهل الثقافة والقلم ، ليستووا بشرا مع غيرهم من الناس ، الا قدرا قليلا أخذته عن البلاد الاشتراكية فى شرق أوربا ومن الصين ، مداورة أول الامر ، عن طريق احزاب ورجال اليسار فى بريطانيـا وفرنسا ، ومباشرة فى الاعوام الاخيرة حين تيسر للشباب الافريقى أن يدرس فى معاهد الشرق وان يتصل برجال من الشرق. أخذت وسائل التنظيم الشـعبى والتركيب الحزبى ، والدعوة للأفكار عن الغرب ، حتى نالت اسـتقلالها وشرعت من بعد تبحث عن طرائق للحكم والادارة فى مرحلة البناء . كانت أوربا المثال وافريقيا النموذج ، منذ رست مراكب البرتغـال وهولنـدا والانجليز والدنمركيين والاسبان ، على شـواطىء القارة قبـل اربعمائة عام ومنذ اقتسمت أوربا أقاليم افريقيا العديدة،

اقتدارا وعنوة فى مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ ، اتوا بحضارة غالبة اكتسحت ثقافات افريقيا وحضاراتها وقطعت الصلة الا قليلا بين ماضيها وحاضرها الذى تعيشه ، واتت هذه الحضارة بكثير من الطيبات فاقبل عليها الناس ، يرسمون صورتهم على مثال الصورة الاوربية فى كل شيء ، لعلهم يبلغون ما بلغه الانسان الاوربى ، رغم الاصوات الفذة التى كانت تقاوم هذا الزحف الشامل من اوربا وترفضه ، تسعى جاهدة ان تذكر الافريقى العادى باجداده الذين ابوا على الاوربى حين اتى اول الامر ان يأخذ منه حياته الحرة الغليظة القاسية يعطيه مكانها اخرى مريحة نعم ، وناعمة ، ولكنها لقاء حريته ، ثمن عبوديته ..

كانت هذه الاصوات تذكرهم بان الافريقى على عهد لقائه الاول بالاوربى ذاد عن آلهته القريبة الودودة وكره آلهة الاوربى هذه البعيدة ، تعده النعيم والرفاهية ، وعن ارضه التى لم تكن تطعمه الا بمقدار ، وعن بيئته التى كانت تفترسه وأهله آن غفل . نافح عن طيبه الغليظ الجائع ، تعينه ارضه وهو يضع منها ، جبالها ، غاباتها ، صحاريها ، امراضها الفاتكة اربعة قرون ، اهتدى خلالها الانسان الاوربى الى كثير من أسرار الكون ، والافريقى فى عناء منه ومن بيئته القاسية . ملك الاوربى ناصية العلوم ، واخترع المدافع والاقراص مانعة الملاريا واستحال معهما على الافريقى ان يدفع عن نفسه وارضه برمحه وخنجره ، لقاء نار هذا وذكائه المعقد الجديد ، حتى كانت الاعوام الاخيرة من القرن الماضى حين ملك الامر كله الرجل الابيض ، وذهل الافريقى بعلمه وقدراته وخدر عن ذاته ، وسلم بالذى

ما لم يكن ليسلم ، لو لم تلق أعوام اللقاء الطويلة مع الاوربى ستارا بين حاضره البشع المهين وماضيه الجائع الانف . يروون عن رجل هنا انه أمر أن يزحف على أربع يحمل سرجا على ظهره . هكذا رأى «جناب المفتش» أن يعلم الناس كيف يرفقون بالحيوان فقد كان الرجل قاسيا على حماره ! ! ويروون عن آخر انه كان يطوف مقاهى المدينة فى رمضان شهر الصوم يحمل سوطه فى يده يهوى به على المفطرين فهو «جناب المفتش» يعالج كل شئون الناس حتى أمور دينهم هم . ذل الناس وان شبعوا قليلا حتى انتصف هذا القرن . رادت الطريق فى القارة ثورة الضباط الشباب فى القاهرة تقول : « ارفع رأسك يا أخى » وقال الذين ثقفوا ثقافة سكسونية فى غانا ، ان بالهم لن يهدأ قبل أن يبعثوا « الشخصية الافريقية » على النحو الذى كانت قبل أن يطمس اللقاء الاوربى كل معالمها ، ليقودها حيث شاءت منفعته ، ويقظ عامة المفكرين الشباب السنغالى لقلة منهم كانت تقول لفرنسا لا لن نكون ظلالكم على القارة ، فقد أدركنا خصائصنا « الزنجية » من دراساتكم انتم لقديمنا واختبارنا نحن لحديثكم ، وامتلأت صفوف هذه القلة بالشباب الذى ثقف ثقافة لاتينية . قالها كل قبيل بلسان ، وردد الشعارات كل شعب وراء زعيمه يؤازره ، وخلصت افريقيا الا قليلا من رق أطعمها قليلا ، وفتح على قلة من أهلها النوافذ على العالم الرحيب فكانت « رياح التغير » كما قيل واستعادت القارة حريتها بمعدل ستة أقطار فى العام بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٣ . معدل يذهل ، ولكنه صحيح ..

ثم فركت القارة عينيها ، تنعم النظر وقد أعشاها غبار معارك الاستقلال . أدارت الرأى تريد لتأخذ عن مثالها نموذج الحكم ، فاذا المثال شبه طيف لا سبيل الى مسكه ، لم يعد صلدا كما كان ، ماع . غير ثابت غير قائم ، يترنح يهز كتفيه ، يقوس ظهره ، يعيده فى عناء مكانه ، يفتح ذراعيه ، يشد صدره ، كمن يستجمع قواه يعدها لتحمل هذه القوى التى أطلق من عقالها ، تكبر عليه وهو المبدع لها ، ينوء بحمل ما ابدع من مراكب فضاء ، والكترونات ، وذرة ، وما جاء معها من قيم وأخلاق تتمثل فى خنافس لفربول وسراة الليل فى سان فرنسسكو ، وزعيق ثقافة الجماهير فى كل مكان . الغرب المثال ينتقل من حال لحال يعيد تركيب منظماته لتستوعب هذه القوى الجديدة والاخطار ، بعد به العهد النفسى ، ان صح مثل هذا التعبير ، عن بناة نظراته الديمقراطية فى الاصل : لوك وبنتام وتوكفيل وسمث . ما عاد ممكنا ان يقولوا بالذى دعوا له : كلما ضاقت دائرة نشاط الدولة ، اتسعت دائرة الحرية للفرد ، وكلما خف ميزانها ثقل ميزان الانسان . ما عاد من يقول مع بروبتكين وبين ، ان الحكومة شر لابد منه . تغير هذا كله لما أتت العشرون عاما الاخيرة فى حياة الانسان على الارض بما لم تات به المئون من قبل. أضحى صبيا يعاظل السير داخل عباءة ، وازدادت حاجته ليد تمينه ، واقرب الايادى واقواها يد الدولة. ان لم تقم على قدراته الجديدة ومتفجراته قدرة أعلى وافعل ، هلك . صغر الانسان وكبرت الدولة ..

هذا هو المنظر العالمى الذى راته افريقيا ، حين استردت مكانتها فى المحيط الدولى : انسان صغير

تحيط به قوات كبيرة ، صنعها ، يخاف ان تقضي عليه. تلفت المسئولون عن الحكم فيها لمعاقل الديمقراطية ، منابتهــا الاولى فى العصر الحديث ، فاذا هى حــال مختلطة ، وبحث لا يهدأ فى المنظمات القديمة ، يتساءل هل تستطيع أن تحتوى هذا الجديد كله ، بحث لاينتهى لاتجاه واحد ، ان انتهى ، وهى التى قامت جميعها على أسس متماثلة وتجارب فى السياســـة والاقتصاد غير متباعدة . فى بريطانيا مثلا يقولون ان النظام البرلمـانى الحالى ، لم يعد قادرا على الحركة السريعـــة التى تقتضيها شئون التجارة والسياســة والدفاع هــذه الايام ، عليه ان أراد أن يعاصر الزمان الذى يعيشه ان يقترب من النظام الرئاسى ، ولعلك قرات مثلى النادرة التى تطوف مجالس الظرفاء فى لنــدن هــذه الايام ، عقب حديث طويل لهارولد ولسن مع أحد كتاب الاذاعـة البريطانية : اتضح ان السيد ولسن سيجمع فى يديه هو أن فاز فى السباق القادم حزبه ، كثيرا من السلطة يبت ويحسم لا يشركه الرأى الا ثلة من المهنيين أهــل الحرف ، فى شئون العلم والدفاع والتجارة ، يختارهم اختيارا فى مكتبه . قال واحد يعلق على اتجاهه هذا « انه يتحرك بنا نحو نظام رئاسى » قال صــاحبه : « صحيح ديجول أم كيندى ؟ » ولخص فى كلمات قليلة معدودة ، الحال الباحثة المتســائلة التى تجتــازها الديمقراطية الغربية فى هذه الاعوام · فديجـول رئيس وكيندى كان رئيسا ، وبينهما فروق كثيرة فى الاسلوب والغاية · كان الرؤساء السابقون فى بريطانيا قبيــــل الانتخابات يعنون اكثر العناية بمن سيشركهم الحكم من الوزراء ، ولــكن الرئيس القادم ان مشت به الريح نحو

الرئاسة لا يفكر هذه الايام فى صفات واسماء وزرائه ، ولـكنه فيما يقول خلصاؤه وتنم احاديثه يخطط لمكتب رئيس وزراء أكثر عددا وأقدر يدا ، كى يستطيع خلاله ان يتخذ القرارات التى يرى هو أو يشير بها الموظفون المهنيون فى مكتـــبه ، مكتب الرئاســـة ، وينصح بها المختصون الذين سيجند هو للعمل معهم ، على النحو الذى فعل كنيدى ، حين أحاط نفســـه بأهل العلم من الجامعات .وأهل الخبرة من الصناعات ، يسألهم ويستنير بآرائهم وان كان هو السيد المطاع ، حين تصطرع الفكر . .

لم يخف السيد ولسن عزمه لانه لا يقول به طمعا فى سلطة وانما يقول به لانه رجل قريب من النـــاس ومن الصفوة ، يحس بالذى يحس به الاولون من حاجـــة لتغيير الاداة الحكومية تغييـرا يتفق وأعبـــاء الدولة الجديدة ، ويعرف ما يقول به الآخرون من تفاصــيل هذا التغيير ، فرئاسة مجلس الوزراء ان أضحت قوية ذكية عارفة تيسرت لها الحركة السريعة مع الحوادث وتيسر لها تنســيق العمـــل بين المصالح المختلفة فى الوزارات العديدة وهيأت لرئيس الوزراء شخصيا كل حقيقـــة ورأى ، فالرئيس كما عبر ولسن فى هـــذه الاذاعة الشهيرة الآن « عليه ان يتخذ المبادرة فى الشئون كما كان يفعل تشرشل فى أعوام الحرب » والا يجلس بعيدا أداة تضميد للجراح بعد ان تقع الجراح . لم يعد كافيا ، وقد تعقدت الشئون التى تعالجها الدولة ان يكون الرئيس واحدا من اكفاء عديدين لا يتميز عنهم الا بالقليـــل « أنا قلق من هؤلاء الهواة الذين يديرون الشئون المركزية فى الحكومة ولا أعرف احدا يستطيع القول بأن داوننج ستريت تقدر القيـــام بأعبائها كاملة »

« اعباء القيادة المسئولة » بهذا النفر الذى لا يعدو خمسين . ينبغى ان يزيد هذا العدد ، ان كان لرئيس الوزراء ان يقف على دقائق الامور « ما ادرى اى عدد من الناس سبعين فى مكتبه ليخدمه خدمة شخصية ان قدم الرئاسة ، ولكن خمسين لن يكفوه ، علاوة على وزرائه » ..

والرئيس البريطانى متواضـــع ان قيس بالرئيس الفرنسى ، الذى أبى الا سلطات أشبه بسلطات بونابرت . يرى هذا الرجل القادر الساحق غيره ، ان الرئيس ينبغى أن يكون مصدر كل سلطة حتى التى تتصـل بالتشريع والقضاء ، سلطة ما عرفتهـا ديمقراطية فى الغرب من قبل ، يذهب الناقدون بعيدا فيقولون انه يرى نفسه الســلطة الرابعة فى الدولة ، الصحافة . يقول هؤلاء انه يرى ان الصحافة ينبغى الا تكون الا اداة تحمل آراءه فى الادارة والحكومة ، ويرتابون فى ان اعوانه يعدون اسئلة معينة لصحافتهم الواقفة جنبهم ، ليرد عليها الرئيس فى ندواته . يكاد أن يقول حين تنتهى « هل من أسئلة لاجوبتى ؟ » . فالصــحافة فى رأى الرئيس الـكبير ، ينبغى أن تكون تعبـيرا عن نواياه وآرائه ، أليس هو تجسيد فرنســا ورمزها ؟ شىء مفزع يعيد للذهن أسماء بعض من عرفنا من طغـاة ، ولكن ديجول فيما يعتقد ويؤمن ليس لحزب أو طبقة وهو « فوق الســياسة » ، يعمل لامجاد فرنسا وثقافتهـا وازدهارها ، من وقفه بجانبه وقف بجانب فرنسا . يذكر الذين رأوه على الشاشـة أيام كفاحه الشجاع ضـد المخربين لسياستـه فى الجزائر ، كيف فتح ذراعيـه يضمهما على صدره العريض تتشابك اصـابعه عندهما

يختم حديثه : « اعينونى أنا » وكأن فرنسا هى صدره هذا ، هى نفسه . وليس اتجاهه هذا ومنحاه صدفة من الصدف أو أثرا من آثار شخصيته الفريدة . انه هذا ، ولا ريب ، ولكنه أيضا وليد الظروف التى اشرنا اليها ..

حسبت فرنسا ، كما كان الناس كلهم يحسبون فى الغرب قبل عشرين عاما ان الازدهار الاقتصادى سينتهى بمزيد من الحرية ، فاذا به يعنى الحكومة الاخطبوط ، تماما كالحرب ، كالفقر ، أذرعتها العديدة تلف كل شىء ، توفق بين الخطط الاقتصادية الحديثة ، والمنظمات السياسية القديمة ، التى رعت الحرية الفردية يوما من الايام ، لعلها تفعل بعض ما فعلته بالامس ، فما فى طوقها وقد تغيرت الحال أن ترعى الحرية ، كل الحرية ..

كانت فرنسا فى حمى مشروع مارشال ، فى طريقها لرخائها هذا الذى نراه اليوم ، وآلت أمورها آنذاك الى الفنيين من رجال الاقتصاد والاعمال من ناحية ، والى الادارة فى الحكومة من ناحية أخرى ، الى التكنقراطية والبيروقراطية ، كما يعبرون هذه الايام ، وكان حلفا خليطا سار فيه الراسماليون والاشتراكيون معا يبنون على حطام الحرب يزيلون الركام ، لا يعنى فريقا من الفريقين مذهب بعينه أو مبدأ ، فقد تركت الحرب بطونا جائعة لا يعنيها كثيرا من يحكم وكيف ان ترتب على حكمته الطعام والغذاء والكساء ، يعينها أن تعيش ورأت الجمعية الوطنية خلال هذه الحاجات ، فرأتها قلقا وقيدا ، لانها كانت تثير العواطف السياسية فى وجه أشياء ، يراها أهل الصناعة والادارة عمليات تقود

فى النهاية لرخاء الجميع ، رخاء فرنسا كلها فى الوقت الذى يدافع فيه الاعضاء عن منافع الطوائف داخلها هى حتى تدهورت أخريات عمرها أيام الجمهورية الرابعة الى « جمعية المناظرة فى البالى بوربون » ، وجاءها ديجول تحمله عواطف الجزائر ساخنة هائجة « ليجمع كل الفرنسيين فى جمهورية قادرة قاعدتها الصلة المباشرة بين الشعب والادارة لا تعوقها العوائق البرلمانية » ونجح على عهده التجمع الصناعى المالى الادارى ، كما لم ينجح من قبل . أسكت هؤلاء ووفر ما يريد الناس من حاجات ، قال وزير العلاقات البرلمانية فى الرئاسة وقد بهره النجاح يعلق على تجمع الاشتراكيين حول قاستن ديفر ، عمدة مرسيليا ، منافسا لديجول على الرئاسة فى الانتخابات القادمة « نسى زعماء المعارضة مشاكلنا العاجلة وشرعوا ينفقون وقتهم كله فى الدعوة لانتخابات الرئاسة المقبلة ، وفى اذاعة الشمارات » يقرعهم على التفكير فى رجل يقود فرنسا الماجدة ، وديجول حى يجوب الآفاق الفرنسية ظله فوق كل شىء ، رجل خلق ليقود . كلام بعضه حق ، ولكنا نخذل معتقداتنا ان ذهبنا مع هذا المفتون بعيدا فى تقويم هذا الرجل الظافر عمره كله . ان خطا الرجل الكبير ، وان بهرت وأشرقت فى اسلوبها ومحتواها الطموح وأسرت الفرنسيين كل الاسر لن تقوم مقام الحوار فى مجلس وطنى . لا بديل لصوت الشعب وان اضطر كل حين وآخر الى تحديد جديد لهذا المفهوم القديم ، وطلاب الحرية الحقيقية فى فرنسا كثيرون جريئون ، ما بهتت أصواتهم وأشخاصهم لان رجلا يحبون ويهابون فى آن واحد ، يقول لهم ، معى ترفهون،

فما بالخبز وحده يحيا الذين يحسون ، ولا بمجد رجل واحد ماجد ، ولا بديل للحرية ..

هـــذه حال الديمقراطيـــة فى بريطانيا التى علمت الافريقيين فى مستعمراتهـــا ، وحال الديمقراطيـــة فى فرنسا التى اخذت بيد النـــاس ، كل النـــاس عبر باستيلها الى الحرية وحكم نواب الشـــعوب . رجلان عظيمان : ديجول ، وولسن ، بأى معنى أخذت العظمة • كلاهما قد ترك آثار اقدامه على ارض بلاده ، وانتهى من كل الذى بلغ فيه الصغار طلاب المكانة ، وكلاهما يعرف طيبا كل الذى انجزته الديمقراطية ، الكلاسيكية فى تاريخ البلدين الـكبيرين ، ولـكنهما نقطتا تحول فى تاريخ الديمقراطية ، ويعرفان عن درس ذكى وخبـرة نشطة ، ان الادارة والحكومة منذ الآن أضحتا فنـــا وعلما لا صخبا أو حديثا يزجى أو مطامع تتصـــالح كى تصل القمة ، أو مرارات تكوم أحقادها لتصل وتنتقم .

انهما رائدان ، أكبر اليقين ، كانا يحبـــان للقديم الذى الفا وتربيا فى ظله أن يعيش فما ديجول بالثائر العادى ، ولا ولسن ، ولـــكن الذى تحب أو تؤثر لا يظل معك لانك تحب وتؤثر ، والســـياسى الحكيم من استجاب لمقتضيات ايامه لايرقه مبدأ بعينه أو مثال لا سبيـــل اليه ، انهما رائدان فى التطور ، وان لم يتضح الوجه الذى يريدان ليرسما فيتبع الناس فى القارة الافريقية . انك لا تنقل من غيرك تجربة لحظة فى التاريخ . تنقـــل المجرب الصلد القائم على قدميه ترى معالمه ..

والقلعة الثالثة من قلاع الديمقراطية الغربية ، هى الولايات المتحدة . انها تعيش فترة انتقال أيضا ، تعالج وجها آخر من ازمة الديمقراطية الـكلاسيكية فى الوقت

الذى ترى البرلمانية البريطانية أن تقترب من البرلمانية الرئاسية ، يقول أهل الفكر والقيـــادة فى الولايات المتحدة : ان البرلمانية الرئاسية ينبغى أن تقترب من أختها تلك ! ! ان نوع الحكم فى بلادنا لا يعين على البت والحسم فيمـــا يقول جورج كنان المفكر السيـــاسى الكبير ، رسول كيندى الراحل الى يوغوسلافيا . لقـد أصاب السلطة التنفيذية فى بلاده « شلل » كما يعبر . ان الرئيس وهو أقرب تمثيلا للشعب من مجلسى برلمانه فى المؤتمر ، تكاد يده أن تكون مغلـــولة الى عنقـــه . للبرلمان فى مجلســـيه رأى وللقوات المســلحة رأى ، ولسلطات الامن فى البلاد رأى « كلهم يقررون شئوننا القومية » وحركة الرئيس تقيدها بعد هذا كله منظمات فى البرلمان على راسها لجنـــة الاعتمادات ، وتغل يده بيروقراطية غيورة على نفوذها أشد الغيرة ، وتقف فى سبيل ممارسته لسلطاته الكثيرة ، تبلغ سلطات ملك ان قرأتها فى الدستور . جماعات فى البلاد ذات ســـلطان تربط بينها منافعها الكثيرة وتحيزاتها الأكثر

ولا ينطق كنان عن هوى ، حين يقول ما يقول عن ازمة الديمقراطية فى بلاده . يســـوق مثلا على نظام « الشلل » الذى يشير اليه ، فيتحدث عما لقى من عنت أيام سفارته لبلاده فى بلغراد . كان الرئيس كيندى عاطفا مثله على محنة الزلازل فى سكبجى ، ولكنهما عجزا رغم ما جاهدا عن أن يدفعا فلســـا يعينـــون به ، وملايين الدولارات فى مصرف يوغوسلافيا الـكبيرة قابعة . ما وافق البرلمان . ثم يمضى الرجل يقول فى روح خفيفة يقول انه كره أن يقف يتفرج على المـأســـاة فدعا الامريكيين فى يوغوسلافيا ليتبرعوا بدمائهم للجرحى ، وتدفق هؤلاء وراءه يتبرعون فقد كان أول من فعـل

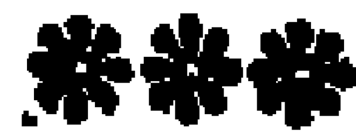
« ما كان لى وسع لجنة من لجان البرلمان ان تحرمنى حقى فى بذل دمى » . لو كان يملك عصبة فى البرلمان تقف بجانبه أو بجانب يوغوسلافيا لما فشل فى قضيـة انسـانية ، ولما ترك خدمة كان يحبها ويقدر من اختاره لها اختيارا ، الرئيس الراحل كيندى . خذلته وخذلت رئيسـه وحدها . لمس مثلها كيندى نفسه وهو القائد الذى ما عرفت بلاده شبيها له منذ جفرسن ولنكلن . كان رغم سلطاته التى زادت على سلطات هذين مع الايام ، يلقى نصبا ، ما لقياه حين يمس المحرمات مقدسـات المحافظين . كانوا يقفون أمام تشريعاته . كل ما هم مثلا بزيادة الاعانات الخارجية وكلمـا اقدم ليزيل عن ارض بلاده وصـمة العنصرية ، وكلما خطا خطوة يخفف بها أوجاع من يمرضون ، وآلام من لا يعملون ، عجز عن هذه الشئون وهو القوى القادر القريب من نفوس اهله فى داره ، ونفوس غيرهم كثيرين ، وأتاه من ينصحه ليخاطب الشعب فوق رأس البرلمان فهو مختاره الاثير ، كما كان يفعل روزفلت ، ويفعل اليوم ديجول ولكن كيندى كان سياسيا يعرف قدر قدراته . كان يدرك انه اتى الرئاسة بأصوات معدودة ، مائة وعشر الفا لا تزيد ، يصعب معها السير الحثيث . اركان حزبه يراسـون أهم اللجان فى البرلمان ، و... سدنة المحافظة التى كان يعمل كيندى على تخفيف غلوائها فى البلاد ، هونا على مهل . كان يعرف تحقيقا اين مكانه من الرجعية وتقاليدها الراسية العنود ، ان خاطب الشعب فوق راسها أقلقته بتحالف قوى مع اضرابهم فى الحزب الاخر ، لان الحـزبين فى الولايات

المتحدة ، كتل عدة متصالحة داخل كل حزب ، لا وحدات تختلف فى كل حزب محافظون معتدلون واحرار يتعايشون ، والحق الحقيق هو انها عاجزة عن قيادة البلاد كما تفعل الاحزاب فى أى مكان ، لفرط التناحر داخلها والتصادم بينها . تقود الرأى والسياسة فى الولايات المتحدة ، صحافة تنتمى فى اكثر الاحيان لطوائف وصناعات وعصبيات وأديان، وتليفزيون تتأرجح معه عواطف العامة ذات اليمين وذات الشمال وفق قدرات وبسمات أو زغرات من يتحدثون وعيونهم النجل ، وجماعات متراصة اكثرها بعيد عن الاعتدال فى الذى يبغيه ، واخرى تقسم لك انها غير سياسية ، وهى حانثة ، وكنائس لا يجرؤ ذراع فى الادارة مهما قوى سلطانه ان يمتد لها فهى حصن حصين . اجهزة ومنظمات تكيف الفرد الا من عصم تعليمه وعصمت خبرته ..

هذه حال الديمقراطية المثال وصف حالها المعنوية وأضاف الى ما نقول عاملا نفسيا ، أحد الدارسين وهو يتحدث عن عبرتها للقارة الافريقية قال : « وفى العالم الغربى بعد هذا كله خدر عميق تجاه القيم التى رافقت رخاءها الجديد وازدهارها الناعس » . حقيقة لاينكرها الا الاقلون ، لا المنظمات قارة ثابتة ولا المضمون مما يسرع له الواحد يأخذ عنه وهو يبنى وطنا جديدا طوبة طوبة من الاساس . أولى للأفريقى أن يثق بنفسه اذن، وأن يبحث عن منظمات مواعين لهذه الثقة ، فما يمكن له أن يعيش مع الخدر ، ومع المنظمات تتأرجح وتتغير ، وهو فى عجلة من أمره . ويجدر بنا ونحن نختم هذا الشطر من الحديث أن نقول ان الاهتزاز الذى أصاب

المنظمات الغربيـة موقوت ، وكذلك الخدر ، فجوهر الامر ما تغير لان الانســـان الغربي ما زال حريصـــا اشد الحرص على حريته ، وهـداته من المصلحين ، يزيدون كل يوم شيئا هناك وينقصون شيئا هنا ليروا ما يمكن لهم أن يعملوه ليبقوا على الانسان المعاصر حريته من التكنقراطيين والبـــيروقراطيين وحيـــاته من الذرة واخواتها المهلـكات وليمضوا فى تخطيطهم للرخاء الذى لم يعد كافيا أو مقنعا ان لم يعم الـكافة ويشـــمل العامة . ولست اقول جديدا حين اقول بانتصار الفرد فى النهـــــــاية ، يقول به كثيرون ممن تعنيهم حال الديمقراطية هذه الايام . قال به حديثا بيتر كالفكرس وقد طوف كما طوفت فى هذه الورقة ينظر للديمقراطية الكلاســـيكية (كلمة ثقيلة غير دقيقة لا تعني كثـــيرا ولكنهـا سرت على الالسن تعني الديمقـراطية الغـربية بنت ديمقراطية الاغريق) . قال صاحبنـــا يلخص كل هذا : « ان فرنسا ألقت بالديموقراطية البرلمانية بعيدا ، ومشت نحو ما يسميه بعض الـكتاب بالتكنقراطية ، ولـكن الطريق لم تنته بالفرنسيين بعد ، سيقفون يوما من الايام غير بعيد ، وهم فى مسارهم هذا الخشن ، وجها لوجه أمام مشكلة تحويل تكنقراطيتهم هـذه الى ديمقراطية عامة . أما الولايات المتحـــدة فتمارس نوعا مغاليا من الديمقراطية الجماهيرية تتعثر معها الحركة ، يخفف من قسوتها على الحاكمين والمحكومين ، فســـاد لا يمكن معه السير الرفيق بالامور ، أو الاحترام الشامل للبرلمان ، أما بريطانيا فقد حلت عقدة الصدام الحتم بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية ، بأن مشت نحو تقوية يد هذه الاخيرة . عززنا ســـلطة رئيس الوزراء

الشخصية تعزيزا ما عهدناه ويقينى اننا سنمضى فى هذه الطريق حتى نهايتها ، واننا سنسعى للابقاء على نظامنا هذا الذى يقتضى رئيس الوزراء ويضطره اضطرارا ، الى أن يصعد قمة الشجرة السياسية خلال البرلمان ، لا محيد عنه » . حقائق تقودنا الى القول بأن لا معدى للأفريقى من أن يبحث عن ديمقراطية أخرى غير هذه كلها فهى فى سبيل أن تبدأ حياة جديدة من صنعها ولها ، كما هى الحال فى البلاد الاقدم ، تعدل فى أساليب حكمها ومنشآتها ، لتقابل حاجة العصر ، تقاوم الخدر



العامل الثانى الذى قلنا انه سيعوق مسار الديمقراطية فى القارة ، يؤخرها ربما أعوام غير قليلة هو حالها هى غير المستقرة ، ولا يلومنى أحد ان أكدت تأكيدا الاضطراب الذى تعيشه القارة الناهضة فأنا اكتب و « أسبوع العار » غير بعيد من أخريات مارس الذى أكتب فيه هذه الكلمات ، الاسبوع الذى تمرد فيه جيش تنجانيقا على السلطة الدستورية والاسبوع الذى « نبل » فيه علينا من ارض سحيقة بعيدة بعد أرض الغول ، جون اوكيلو « الفيلد مارشال » مختار السماء للذبح والقتل فى زنجبار ، جزيرة الخضرة والروائح الجميلة ، واريد أن نستعرض معا القلاقل التى عاشتها القارة فى الشهور القليلة التى مضت من عامنا الحالى لتدرك معى ان القادة الافريقيين وان تجردوا عن الطموح الشخصى ، وكثيرون منهم كذلك ، لن يجدوا الاسس الاولية التى تقوم عليها الديمقراطية فى بلادهم العدة ، قبل أن يمضى زمن طويل . ستأخذ ذكاءهم كله ووقتهم جميعه مقتضيات الامن ، وخلق

قدر من التماسك الوطني ، لا حياة للديمقراطية دونهما فهي تفترض قبل كل شيء مقدارا كبيرا من الوحدة الوطنية ، التي تضع الاساس الذي يعود اليه الناس بعد الخلاف والجدال ، مهما طال هذان ، كما تفترض مقدارا من العمل الاقتصادي البناء يجمع الناس حوله. انظر معي لحصيلة هذا الربع من عامنا الحالي ، اذن تر الذي اراه . الخيار الاليم الذي تواجهه عدد من اقطار القارة ، ليس بين نوع من انواع الديمقراطية في الحكم ونوع من انواع الديكتاتورية الشخصية الحزبية .

الخيار بين الفوضى المدمرة وأي نوع من انواع الحكم ، يرتكز على سلطة مركزية قوية تردع الطوائف والنزعات والاشخاص ذوي الطموح حينا شومبي ، والهوس حينا آخر كالنجي ، والشذوذ حينا ثالثة اوكلو . انظر لما وقع منذ أسابيع فحسب ، على يد هؤلاء ، ويد من بفعلهم ينتفعون ..

ـ بدات في راوندا مذبحة في عيد الميلاد قتل فيها حتى هذه الساعة عشرون الفا من قبيلة والوتسي التي كانت تحكم الاقليم وهي اقلية بالقياس لقبيلة واهوتي التي تحكم البلاد الآن وقد فازت في المعركة الانتخابية الاولى التي جرت قبيل الاستقلال ..

ـ بدأت أول العام في مديرية كويلو على بعد ٢٥٠ ميلا من ليوبولدفيل مذبحة مجنونة يديرها واحد من أتباع الزعيم الراحل لومومبا هو السيد بيير موليلي وزير المعارف السابق ، وما يدري أحد ماذا تكون الحال في الكونغو التعيسة حين ترحل عنها قوات الامم المتحدة في يونيو ، وفي الجو اشاعات ملحة تقول ان عددا من الجنود البيض المرتزقة قد اتخذت مكانا في أقاليم

من انجولا قريبة منها ، لتنقض ان وجدت الفرصة ..
ـ فى الاســـبوع الثالث من يناير هبط على الكون مسخ اسمه جون اوتيلو ، والفت به المقادير فى زنجبار يذبح « العرب » وما ندرى اى درب موحش يسير الآن فقد قذفت به ثورته خارج الجزيرة البائسة ، وان كان قد ترك اقدامه الفليظة هناك ، فى زنجبار هذه اللحظة التى اكتب فيها ألف بائس وبائسة فى السجون يرقبون مجىء مراكب من عرض البحر تحملهم لمسقط وعمان من حيث اتى جدودهم الاولون منذ الف عام فى القرن التاسع ..

ـ فى الاسبوع الثالث نفسه ثار الجنود فى دارالسلام على الساحل وفى طابورا فى الداخل

ـ وتثاءب عمرو اذ تثاءب خالد ، كما يقول شـاعر المعرة ، وكان عمرو هذه المرة معسكر جنجا من أعمال يوغندا . هاج المعسكر يوم ٢٣ يناير ..

ـ فى الاسبوع نفسه « بل » رأسه الرجل العـاقل كنياتا حين رأى نيريرى « يزينوه » واوبوتى ، أسرع بطلب النجدة من الجيش البريطـانى ، واتت فقعـد المسكر حيث ينبغى ان يكونوا ، فى الثكنات ..

ـ وفى الاسبوع الاخير من يناير هاجت الثورة مرة ثانية فى الكنغو برازفيل تريد لتعيد القس فلبيريورو وكان قد راح عن الرئاسة فوق موجة ساخطة ، قبل شهور ..

ـ وهاجت الثورة فى قابون أول الاسبوع من فبراير ولم تعد الحال سيرتها الاولى الا حين اتت جنود فرنسا تعيد الرئيس ليون ميا يحرس لفرنسا الصديقة المعادن الـكثيرة فى البلد الصغير ..

هذه حال القارة فى مطلع عامنا الحالى ، ولو أردت لك وضـــوحا أكثر لرجعت بك قليلا شهرين لتكتمل الصورة فى ذهنى وذهنك . صـــورة لا تكاد أن تتبين وجهها من فرط التشويه . . .

ــ قتـــال فى الحدود الحبشية الصومالية ، ما زال قائما لا يعرف احد متى او كيف ينتهى . .

ــ قتال فى الحدود الـكينية الصومالية ، قائم تتعقد اسبابه بنتائجه كل يوم . .

ــ ثورة فى جيش توقو انتهت بقتل زعيم افريقى كان ذا اثر وخطر ، هو جوليس اوليمبيوس . .

ــ قتال بين الاهالى فى الشمال والاهالى فى جنوب تشـاد لاسباب أكثرها دينى وعنصرى . .

ــ انقلاب عسكرى فى داهومى انتهى بحكومة خليط تعرضت منذ أيام لخطر انقلاب جديد ونجت منه . .

ــ محاولة انقلاب عسكرى فى السنغال انتهى بقائد ذكى شجاع فى السجن ، هو السيد محمدو ضيا . .

ــ مؤامرة فى ساحل العاج على حياة رئيسها هوفى بوانيه ، انتهت بالقاء كثيرين فى السجون . .

ــ دخل اثنان من زعماء المعارضة فى نيجيريا السجن بأحكام طويلة لتدبيرهما مؤامرة على الحكم القائم ، فيما يقال . .

ــ المؤامرة الخامسة على حياة دكتــور كوامى نكروما وقعت منذ اسابيع وانتهت بالقاء مدبريها فى السجن . .

سبع عشرة دولة مستقلة فى الشــطر الاســـود من القارة تعيش حياة تستحيل معها الديمقراطية ، على اى نحو عرفتها وبأية سبيل أردت أن تحقق جوهرها . لا يمكن لبلاد هــذه حالها أن يفكر زعماؤها فى حرية

الـكلام أو سيادة القانون أو تمثيل المصالح والجماهير، ولا لوم عليهم ان هم انفقوا جهدهم كله فى صيانة الامن وخلق الاسس التى تقوم عليها القومية الاقليمية مكان القبلية المحلية ، وفى ابعاد الحرب الباردة التى تلعب دورا غير صغير فى اذكاء هذه النار ، لاسباب لا تتصل من بعيد او قريب بالقارة النامية . ان مراقب هـذه الحال لا يسعه الا أن ينتهى الى القول بأن قادة افريقيا واكثرهم رجال نذروا انفسهم لحرية بلادهم مستنيرون يعرفون ما يعملون ما وجدوا امامهم صبيحة الاستقلال، طرائق فى الديمقراطية يختارونها وجودا الا معدى لهم من حكومة ذات سلطان مركزى قوى يقيم القواعد من بدء . كان الخيار بين الفوضى ، وحكومة اية حكومة ، ولم يكن الخيار بين ديمقراطية ودكتاتورية ، كما قد يخطر على البال ..

وترتب على ظاهرة القلق هذه والاضطراب ، او نتج عنهـا ان شئت ، فكلاهمـا اثر وسبب ، ان الحرية السياسية لم تأت حتي بقدر مما وعد المؤمنون . على النقيض ، أوثق الوثائق ، سجلات اللجنة الاقتصادية الافريقية تحدثنا بأن الانسـان الافريقى خسر المعركة الاقتصادية وهو يكسب السـياسية ، بل لم يخضها . شيء يذهل ، ولـكن احصائيات الاعوام الخمس بين عامى ١٩٥٨ و ١٩٦٣ ، تشير اشـارة واضحة الى ان الناس فى القارة كانوا عالة فى طعامهم اليومى علىغيرهم من المنتجين فى الولايات المتحدة والبلاد الاشتراكية . اننا ندرك ان كثيرا من الجهد الانسانى انفق فى النضال من اجل الاستقلال فى هذه الاعوام . انصرف اليه كل رجل وانصرفت اليه كل امراة كما نعرف ، ولكن هـذا

ترتب عليه واقع اقتصادى كالح الوجه لايمكن لافريقى ان يهرب منه . تتحدث واحدة من هذه الوثائق التى تسجل الحصيلة الاقتصادية فى أعوام العراك ، وتنتهى الى القول بأن « ازدياد المحاصيل الزراعية كان اقل من ازدياد السكان فى هذه الاعوام » وكان حتما أن تستورد افريقيا وهي القارة ذات الارض الوفيرة والماء الغزير ، مقادير كبيرة من غذائها ، وان ترفد هذا الاستيراد ـ بهبات الذرة من الولايات المتحــدة ، وتمضى الوثائق فتدلل لنا بأرقام مخيفة مروعة ، على ان الوســائل القائمة فى التجارة العالمية ، وهى وسائل طليقة لا قيود عليها ولا حدود آذت حصيلة القارة من العملات الصعبة اذية بالغة، لان المواد الاولية التى تنتجها القــارة كانت تباع بأثمان زهيدة فى أسواق العالم ، تزداد هبوطا كل عام ، بينما ترتفع أسعار المصنوعات الاوربية كل عام . نقص متوسط أسعار الحاصلات الزراعية فى عام ١٩٦٢ ، بمقدار خمسة فى المائة ، وترتب على هذا أن انخفضت حصيلة النقد من الصادرات بمقدار اثنين فى المــائة ، وكانت تكون اتعس حالا لو لم يزد الانتــاج ، وتسوء الصورة الى حد مخيف حين ترى ان هــذه النسبــة أعنى نقص متوسط أسعار الحاصلات الزراعية ، ترتفع الى ثمانية عشر فى المائة ان اعتبرت المتوسط فى هــذه الاعوام الخمســة موضع الحديث ، بدلا من خمسة فى المائة فى عام ١٩٦٢ فحسب . ولاضرب لك مثلا عمليا يوضح هذا الذى أقول بمثال من نيجيريا : باعت عام ١٩٥٢ اربعمائة الف طن من الفول السودانى ، ســعر الطن ١٢٠ ريالا امريكيا ، وارتفع مقــدار ما ينتج النيجريون عام ١٩٦٣ الى ثمانمــائة وخمسين الف طن

يبعث بنفس القيمة التي بيع بها محصول العام السابق، ولعل هذا ينطبق على البن والقطن والسايسل والتبغ والشاي والمطاط والكاكاو وما من هذه بسبيل مما تنتج القارة من مواد أولية ولولا الزيادة فى كمية الحاصلات فى هذه الاعوام الخمس ، وقد بلغت ٢٠ فى المائة لتدهورت الحصيلة الى حد يقف معه النمو الاقتصادى الذى بلغ ثلاثة فى المائة فى متوسط هذه الاعوام لقاء اثنين فى المائة فى عام ١٩٦٢ . ولما كانت المصنوعات الاوربية والامريكية ترتفع اسعارها على الدوام ، فان الميزان التجارى فى هذه الفترة كان أبدا فى غير صالح القارة ، الامر الذى ترتب عليه ان القوة الشرائية الحقيقية لصادرات الزراعة انخفضت بمقدار ستة فى المائة ..

انا لا أستعرض الاقتصاد الافريقى لتعرف عنه ، ولكنى اضع هذه الارقام المملة بين يديك لاقول لك ان الحال الاقتصادية فى القارة ستكون عنصرا من عناصر تاخير الديمقراطية فالمعروف الذى لايجادل فيه الكثيرون هو أن مبرر الوجود للحكومات القوية الاخطبوط ، هو انها أقدر على تدبير الحياة الاقتصادية من الحكومات الديمقراطية ، وان كنت أرتاب فى هذا كما ترتاب الكاتبة الكبيرة هندن التى أقدم لها بهذا الحديث ، ولتدرك معك ان وقتا طويلا سيمضى قبل أن تعين الحياة الاقتصادية على ميلاد ديمقراطية أفريقية ، أحب لك ان تتامل فى هذه العبارة التي وردت فى ختام وثيقة اللجنة الاقتصادية الافريقية ، التابعة للأمم المتحدة ، تقول العبارة : « لا يجد الباحث أية اشارة الى اى تغيير فى العوامل بعيدة المدى ، التى تتجه الى تخفيض اسعار المحصولات الزراعية فى التجارة العالمية . لقد ارتفع

الطلب للمواد الغذائية فى كثير من البلاد الصناعية ببطء ملحوظ فى الاعوام الاخيرة ، لان الدخول فى هذه البلاد واستهلاك الطعام بلغا مستوى لا تعنى فيه زيادة الدخل الصرف الا على قليل من المواد الغذائية المستوردة .. اكتفى النـاس او كادوا فيما تقول احصائيات هـذه البلاد المتقدمة ، ما هناك مجال لمزيد ، واضر بالتصدير فى افريقيا انكثيرا منالبلاد الصناعية ، شرع فى توسيع الزراعة على أراضيه ، وتخدمها بالآلة وهى أقدر على الانتاج والوفرة الرخيصة ، ومشت هذه البلاد خطوات واسعة فى المحاصيل التى تستطيع هى انتاجها ، وكانت من قبل أكبر سوق لمحاصيل القارة الافريقية المختلفة ، والحكومات تعين مثل هـذه الزراعة فى أوربا اعانات مالية فعالة ، لانها تملك أن تفعل » . صورة غير مريحة للاقتصاد الافريقى ، يرجو الـكثيرون ممن يعنـون بالشئون الاقتصادية فى القارة الافريقية أن تنتصر فى النهاية صرخة « التجارة لا الاعانة » وقد فشلت الهبات والاعانات حتى الان فى تقوية اقتصاديات القارة الا بقدر ، صرخة تقصد الى تنمية البلاد الفقيرة بالتجارة المسئولة لا الصدقة المبذولة ، وكانت لهذا عنصرا من العنـاصر التى دفعت الامم النامية لاجتماع القاهرة منذ عام الآن واجتماع جنيف العام الذى سينعقـد فى ٢٣ مارس للنظر فى شئون « التجارة والتقدم فى البلاد النامية » . فرجة أمل لتحل التجارة محل الاعانة ويتوفر الخبـز للفقراء مع الكرامة ، ولكن آثار هذا الاجتماع لن تجىء بعد غد قريب ، فالمصاعب التى سيتصدى لها المجتمعون وعددهم الف وخمسمائة ، يمثلون مائة وثلاث وعشرون دولة ينوء بها هرقل ذاته

ولنمض قليلا معها لندلل على نقطتنا التي تقول ان أوضاع افريقيا الاقتصادية ، لا تبشر بيوم قريب تزدهر فيه الديمقراطية ، أية ديمقراطية ، في أقطارها العدة . لو كان الامر بيد افريقيا وحدها لهان الامر الى حد ، ولكن تقدمها الاقتصادي مربوط أوثق الرباط باسلوب التجارة الذى يسود العالم اليوم ، عالم الفقراء وهم الكثرة وعالم الاغنياء وهم القلة ، هؤلاء ينتمون الى ٣٣ دولة من دول اجتماع جنيف ولا يزيدون على بليون من السكان وأولئك ينتمون الى البقية أى ٩٠ دولة ويزيدون على بليونين من الانفس ، وبيد هذه القلة وحدها ان تغير أسلوب التجارة فى العالم ، على ضوء حاجة الفقراء ..

أمام هذا المؤتمر الخطير تقرير من سكرتيره العام ، يقول فيما يقول ان على الدول الغنية أن تغير من وسائل التجارة فى العالم ، وكلها فى يدها ، على نحو تستطيع فيه الدول الفقيرة أن تنمى اقتصادياتها بنسبة خمسة فى المائة فى العام ، لتستطيع اللحاق بمستوى العيش الذى تعيشه اوربا الغربية ، فى الثمانين عاما القادمة ، وبذاك الذى تعيشه الولايات المتحدة الآن فى المائة وعشرين عاما القادمة !! ذلك لان هذا الارتفاع الضئيل فى النمو الاقتصادي لن يعنى الا زيادة أضأل منها فى دخل الفرد الافريقى نحو اثنين ونصف فى المائة ، لأن النصف الآخر يضيع فى بحر تزايد السكان الذى لا يقل عن اثنين ونصف فى المائة . وتمضى هذه الوثيقة الواثقة فتحدثنا ان هذا القدر من النمو ان سمحت به البلاد الغنية والامر كله بيدها الآن ، لن يقرب الفجوة الا قليلا بين شطرى العالم ، شطره الذى يملك وشطره

الذى لا يملك ، ذلك لأن التقدم فى البلاد الفقيرة سيعنى مزيدا من استيراد بضائع الانتاج وسلع الاستهلاك ، ولن تستطيع البلاد الفقيرة هذا الا اذا تغيرت سياسات التجارة التى تخفض من القيمة النقدية لصادرات البلاد الفقيرة كل حين ، وترفع من اسعار وارداتها من البلاد الغنية فى الوقت نفسه . ان نصيب البلاد النامية من حجم التجارة العالمية ينخفض كل عام . كان ثلاثين فى المائة حين بدات خمسينيات هذا القرن ، وانخفض الى عشرين فى المائة حين انتهى العقد ، على ان نصيب الغرب فى هذا العقد نفسه ارتفع من ستين فى المائة الى ستة وستين فى المائة ، وارتفع نصيب البلاد الاشتراكية من حجم التجارة العالمية فى هذه الفترة نفسها من ثمانية فى المائة الى اثنى عشر فى المائة ، وأدعى الى الهلع من كل هذا ان حجم الصادر من البلاد الفقيرة فى هذا العقد ، نزل بمقدار ست وعشرين فى المائة للأسباب التى ذكرتها قبل قليل ، وان البلاد الغنية التى ستجتمع فى جنيف لن تجد الطريق سهلة لمقابلة هذه الصعاب التى تزيد الفقراء فقرا والاغنياء غنى ، وتقترب بهم جميعا الى هاوية الثورة المدمرة ، كما يقول كل الذين تصدوا لهذه المعضلة البائسة ، التى يزيدها التهابا ان الاغنياء بيض وان الفقراء سود وصفر وسمر . انها اكثر من قصة الديمقراطية فى القارة السوداء ، قصة « ١٧٨٩ الرجل الابيض » كما تعبر الباحثة الاجتماعية باربرا وورد ، ثورة الكثرة الملونة الفقيرة على القلة الغنية البيضاء ، ان هى لم تر سبيلا واضحة نحو شىء من العدالة الاجتماعية على نطاق عالمى ، كما وجدته على نطاق اقليمى

لم نسق هذه الارقام ، كما قلنا ، من أجل المعرفة الاكاديمية ، سقناها لنقول ان طريق الديمقراطيــة فى افريقيا غير معبد ، شائك . القلق الذى يسوق اليهــا جنود المستعمرين كرها صخرة ، والاقتصــــاد الذى لا يطعم الاهلين صخرة ، ولــكل من هاتين الظاهرتين آثار تملأ الطريق ظلمة يتسلل خلالها نور مزيف ، هو ضوء الحرب الباردة بين الشرق والغرب للسيطرة على روح افريقيا ووجدانها العميق ومصادرها المــادية فى النهاية توجهها توجيها يتفق وحاجيــاتها هى وبعض حاجيات القارة عرضاً غير عمد . ان افريقيــا تجتــاز مرحلة من حياتها الاولى يصعب فيها التفكير الديمقراطى والتخطيط لمستقبل قريب يصــون الحرية وسيــادة القانون وتمثيل الشعب . هذه اعوام الحكم المركز القوى فى كثير من الاقطار الافريقية لا نفع من تغطية الشـــمس بغربال . اننــا لا نعتقد ان « رياح التغير » استحالت « جراح تغير » كما يقول المسرفون على أنفسهم وعلى الناس ، حين يستعرضون المنظر السياسى القلق المتأرجح والتخلف الاقتصادى ، يشيرون الى مواقفهم الاولى من حركات النزوع للاستقلال ، وكانت مواقف ينقصــها الخيال ، هوت على رؤوس أهلها ، لانها هزلت امام قوة الزحف نحو الحرية . نحن اقرب الى الايمان بما قال به توم مبويا السياسى الكينى . قال وهو يختــم كتابه عن « الحرية وما بعدها » قبــل عام تماما الآن وكأن كان يكشف عن مستقبل يراه فى وضوح ، خلف السجون يرى حوادث اليوم قبل عام « كانت افريقيا فى اعوامنا الخمس الماضية ، تقطع فى الغاب والحرش دربا

جديدا تسير عليه ، ويعرف كل الذين عانوا لجربة الفأس والمسحاة في غاباتنا العتية وأحراشنا الملتفة انها لا تترك الواحد دون خدوش هنا وهناك على الجسم ، وأن الجروح في الساق لا مناص منها ، وهي تسير به الى امام . يلقى الكتاب الذين يعبرون بلادنا عبورا والصحفيون السذج في روع الغربيين ، ان افريقيا قارة العنف والدم . ولا يسعنا الا ان نسخر من هذا ونسير سيرنا الوعر فطريقنا سلمية اخترناها على دربنا هذا الذى نقتطعه اقتطاعا تدمى يدنا مرة وتدمى الساق »

هل تبرر الحقائق الاقتصادية والسياسية والنفسية فى القارة كل هذا الاعتداد بالنفس والثقة بها والتطلع ؟ ربما لا ، الحق الامين هو أن القواعد الاجتماعية التي قامت على عهد الاستعمار تتداعى هنا وهناك فى القارة السوداء ، وقد اثار الاستقلال فى نفوس الناس آمالا عراضا ، أكثرها ما تحقق للان ، على النقيض جر الاستقلال فى اذياله كثيرا من خيبة الامل والمصاعب فى بعض البلاد . كينيا نفسها مثلا ، وهى تنتقل من اقتصاد عالة على البيض الى اقتصاد وطنى مستقل ، قال مواندوا منذ أيام : « ان آلاف الايدى العاطلة فى هذا البلد اصبحت خطرا كبيرا على استتباب الامن » .

بيد ان الباحث لا يسعه الا ان يلمح لقاء هذا كله من معوقات الديمقراطية ، ان هناك عناصر ثلاثة فى الموقف ستحدث أثرها القوى فى عهد البناء . على رأسها هذا العزم الذى تراه فى عبارة الزعيم الشاب وفى كثير مما يقول غيره من القادة ، وثانيها أن الصفوة التى تجلس على قمة الشئون فى القارة صفوة مستنيرة ما ساقتها الظروف للقيادة ، أتتها عن علم ودرس عميقين بدءا فى

الجامعات الفرنسية والبريطانية ، واحساس بالواجب قوى والمسئولية ، صفوة تنتمى للعالم كله ، من ناحية تعرف كيف تنتفع منه ، وللقارة من ناحية أخرى ، تحب أن تخدمه ، وثالث العناصر الثلاثة هو الود الذى تلقاه القومية الافريقية والشئون الافريقية عند صحافة العالم ، رغم ما يقول توم بويا ، ورجال السياسة أكثرهم والصناعة والمال . قس هذا العطف ان شئت ، بالنقد الذى لا تفتأ أن تلقاه مشاريع العرب ، وفى مقدمتها حنينهم الذى لا تخمد ناره للقاء عبر الحدود ، لا كيدا لأحد بل تحقيقا سياسيا لحقيقة ثقافية بادىء الامر ، واقتصادية واجتماعية من بعد . قس — ان شئت — فى كلمة واحدة الفرق بين العطف الذى تلقاه فكرة القومية الافريقية والريب التى تثيرها فكرة القومية العربية الا عند طائفة من المؤرخين والكتاب أخذت الثقافة العربية الاسلامية من مصادرها الاصل تحبها وتحنو عليها ..

ان عناصر الخلاص من هذه المتاعب التى تعيشها الاقاليم فى افريقيا الآن موجودة : العزيمة الافريقية كما قلنا ، والصفوة المسئولة ، والعطف العالمى ، ولعلك تقدر معنا ما نقول عن الادارة الافريقية حين ترى رجلا كسنفور يعلن فى حديث من أحاديثه عن ايمانه بالديمقراطية على هذا النحو « سأعتزل السياسة ان ظننت فى يوم من الايام ان افريقيا غير قادرة على انتاج ديمقراطية » اما أن الصفوة القائدة المستنيرة فسترى حين يتقدم بنا هذا الحديث ، كيف كانت هذه الصفوة تعى مصاعب الاستقلال والحكم حتى قبل أن يكون الاستقلال أو يؤول اليها الحكم ، والصحافة العالمية ، عنصرنا الثالث ليس أدل على ودها الذى ذكرت من ان

السيدة صاحبة هذا الكتاب ، كتبت منذ أسابيع ترجوها الا تغالى وتسرف فى عطفها وتضر من حيث تريد أن تنفع ، وقل مثل هذا عن الرأسمال العالمى الذى هرع يبنى لنكروما مشروعه العظيم على الفولتا والجدال حول شخصه قائم قاعد لا يهدأ . انها افريقيا التى تسحر ، موضع العطف وحسن القصد من كل قبيل..

ولننتقل من عناصر الخلاص هذه الى ظاهرة فى كتابات القادة الافريقيين وآثار المفكرين ، تحملنا على كثير من التفاؤل بالمستقبل رغم هذه الاعوام العجاف فى نواحى حياتها المدة . كانت ظاهرة فى الافق البعيد ترى منذ زمن ، واتت تستقر منذ عام ١٩٦٠ مع تجارب الاستقلال . كان هؤلاء القادة والمفكرون لا يعرفون غير الديمقراطية الكلاسيكية ، ولايحترمون غيرها ، وفجأة وجدوا انفسهم يبتدعون منظمات ومنشآت لا تتصل من قريب بالديمقراطية التى خبروا فى أوربا الغربية ودرسوا فى جامعاتنا العتيقة ، منظمات ومنشآت اقتضتها الضرورات المحلية تحمل عين الاسماء مثل نقابات عمال وجمعيات تعاونية الى آخره ، ولكنها تختلف فى اهدافها وادارتها عن تلك التى يتحدثون عنها فى استحياء لانها لا تطابق ذاك المثال كل المطابقة ، الى أن وثقوا أخيرا من فعاليتها فى بلادهم تمام الوثوق مع الزمن وراوا المثال الذى كانوا يحبون ليحتذوا يهتز ، كما وصفت فى مطلع هذا الحديث ، فشرعوا يقولون انها منشآت افريقية صرفة نمتها حاجيات افريقية وعقول من القارة ، وذهب فلاسفة الحكم أبعد من هذا فقالوا : ان تجارب افريقيا اضافة محترمة لنظريات المجتمع الديمقراطى ، وهى تقوم على تمييز واضح فى اذهانهم

بين الديمقراطية فى جوهرها والمنشآت البرلمانية ، هذه تختلف من بيئة الى اخرى ، وتلك جوهر لا يتأثر بطرائق التعبير عنه . الديمقراطيـــة التى عرفها الاغريق كانت تعنى الحكم عن طريق النقـــاش ، ولـــكنها لم تعن أن يجتمع الناس كلهم ليتحاورا ، وكان الذين يشتركون فى الحـوار اكفـاء متسـاوين ، وهـــذان هما العنصران الجوهريان فى الديمقراطية .. النقاش والمســـاواة ، ولا ديمقراطية بغيرهما ، فيما نقدر ، وكلاهما يحتويان على عنصر ثالث هو الحرية كما يعبر نيريرى فى بحث له عن « الافريقى والديمقراطية » نشره عام ١٩٦٠ قبـل أن يلى تصريف الامور فى تنجانيقا ، وقد طبق هذه النظرة الجديدة للديمقراطية بعد ان ولى الوزارة اولا والرئاسة فى النهاية . كان يعد نفسه عن وعى اذن ، ولنا ان نقول حين نقرأ هذا ونرى كيف يطبق ، ان للديمقراطيـــة فى افريقيا وجها آخر غير الوجه القـــديم ، وانها لم تأت اعتباطا كما يحسب البعض.كان سيكوتورى وهو رجل عرف بعبقرية فى التعبير والتنفيذ ما أوتيهآ الا القليلون ممن صنعوا انفسهم بأيديهم مثله ، يقول بعد عام واحد مناختياره الجرىء ، الخروج علىالمجموعة الفرنسية ، فى وسط متاعب اقتصادية لا حد لها ، أتت اثر غضبة ديجولية قاسية « هناك طريقان للحكم فى أى بلد من البلدان ، أولاهما أن تقوم الدولة بكل ابتكار وابتداع ، وأن تكون هى الضمير والوجدان تقوم مقـام الانسان ، تنكر عليه مواهبـــه وانسانيته ، يعيش فى اطـــارها بشروطها ، لانها القوية القـــاهرة ، تملك كل شىء ولا يملك الواحد من أمره أى شىء ، تعمل فى آن واحـــد على حل المشاكل الـكبيرة فى الدولة وتتصـــدى للتفاصيل

الصغيرة . هذه دولة ضـــد الديمقراطية ، ظالمة ، لم نخترها مثـالا لنا ولن نفعل . اخترنا الطريق ، طريق الديمقراطية » ..

لو شئت ان اسـوق الامثـلة على ايمان القـادة بالديمقراطية لأطلت ولـكنى أحب أن ننتقل الى تعريف نوع الديمقراطية التى هـداهم اليها النظر الطويل فى الذى يستطيعه الناس فى القـارة والذى لا يستطيعون فعوائق الديمقراطية توجـد فى الشعوب نفسها ، كما توجد فى الظروف والقادة . تواضعوا جميعا على اختيار الديمقراطية المركزية التى تتمثل فى حزب او هيئة تتولى هى تنظيم العمل السياسى فى البلاد ، فالمعارضة المنظمة على النسق البريطانى والامريكى ، معارضـة الحكومة البديل ، لا موجب لها الآن فى افريقيا ولا سبيل اليها فى كل قطر . ما تضاربت المصالح الاقتصادية التى تقوم عليها التشكيلات الحزبية ، والمشتغلون بالاعمال العـامة ما زالوا قلة من الناس لا ينفع الاهداف العـــامة أن ينقسموا كتلا متحاربة . ولا يعنى هذا الا تكون معارضة قط ، فمن غير الطبيعى الا يختلف الناس ولعل الزعيم نكروما هو رائد هذا التنظيم السياسى فى القارة السوداء ، كان يتحدث عنه فى أخريات الاربعين وعنه أخذ الاخرون .

قال فى ١٢ يونية عام ١٩٤٩ وكثيرون من قادة افريقيا ، ما احترفوا السياسة بعد ، فى يوم الذكرى العـاشرة لقيام حزب الميثاق الشعبى ، يكاد يخطط للمذهب الذى صار طريقا مطروقة بعده « نحن فى حزبنا أكفـــاء ، لا تفصلنا قبائلنا ولا أجناسنا ، وكلنا أحرار فى التعبير عن آرائنا ، نحاور بعضنا البعض،حتى نصل الى قرارات ترتضيها الاغلبية ، ويسكت بعدها الحوار ، يقف بجانب

القرار من صـــوت له ومن لم يصوت ينفذ ما جاء فيه باخلاص . هذا هو اصدق اشكال الديمقراطية المركزية: قرارات تجيء نتيجة الحوار الحر تعبر عن رغبة كل فرد وحريته وتنفذ باخلاص ، أمر ينطبق على كل مستوى من مستويات الديمقراطية ، وعلى كل صعيد ، على أعلى صعيد (البرلمان) وعلى اصـــغر مراتب الديمقراطية (القرية) لا فضل لأحد من الناس على غيره الا بالاخلاص لهذا الطريق ولا يعفى احدا من الناس مقام عن الاجراء التاديبي » وارجو الا يجيء فى بالك ان نبى الديمقراطية المركزية فى افريقيا قال هذا ، وهو طبيب جميل ولكنـــه عمل بغيره . وضع ابيا صهر السير ستافورد كريس فى السجن ، وصعبت الحياة على الاستاذ الـكبير بوسيا فترك بلاده التى قادها فكريا فى فترة من فترات حياته ، شخصان لا تنى الصحافة الغربيـــة تتحدث عنهما كلما عطس هذا الرجل الـكبير والحق الذى لا ينكره كل من عرف المنظر السياسى فى غانا ان قلة من كبار رجـــال الفكر والسياسة عزلت نفسها عن التنظيم الشعبى ، وقد شمل الـكافة فى غانا ، كما لم يفعل فى أى مكان آخر فى القارة وشرعت تنادى بديمقراطية وستمنستر مستندة فى هذا النداء على أخبث ما يمكن أن يستنـــد عليه رجل دولة . القبلية وعصبة المـكان . بدأت غانا قبل كل لذاتها فى هذا الحقل ، وفى حياتها السياسية عبرة للمثقفين الذين يجمـــدون ازاء وقائع الحيـــاة والسياسة فى البلاد التى يريدون ليخدموا بالذى ثقفوه فى جامعات الغرب والشرق . تجد نفسها قلة فى صحراء ما كان ينبغى لها ، وفى عزلة لا تخفف من وحشتها الا ما تقوله عنهم الصـــحافة الاجنبيـــة من حين لحين ،

تسوقهم شواهد لاستقراءاتها العاجلة ، قصيرة النظر من الذى يقع فى البلاد النامية من احداث ..

والحزب الواحد بعد هذا كله ، هو الطريق الوحيد لبناء ديمقراطية شاملة فى هذه البلاد حديثة العهد بالاستقلال ، فهو سبيلها الوحيد ، فيما يرى الواحد لخلق قومية تقوم مقام القبلية ودولة ولاء المواطنين كلهم لها مهما تغيرت الحكومات . هذه تتغير من حين لحين ، وتلك تبقى تحرسها عيون الجميع على اختلاف نظراتهم الاجتماعية . للحزب الواحد سيئات نعم ، ولكن الواحد فينا يجب أن يظن انها موقوتة ، كما يقول الاستاذ محمد عودة ، فى الندوة الهامة التى عقدتها مجلة « الكاتب » المصرية فى الشهرين الماضيين ، وهو يتحدث عن القيود « التى توضع على الحرية والمصاعب التى تواجه مشكلة الحرية ، بل الاخطاء التى ترتكب احيانا ازاء قضية الحرية ، فى فترة خلق الدولة القوية الثابتة توطئة للديمقراطية الشاملة » . انها « ثمن رخيص ازاء نقل الانسانية » من حال شتيتة فى افريقيا الى اخت لها لميمة ، ويضع نفس المعنى الدكتور لويس عوض فى كلمات أخرى تدلل أيضا على ان هذه الطريق الوعرة ، طريق التنظيم السياسى هى نقطة البدء فى السير نحو وضع الاسس لقيام الديمقراطية اللبرالية ، بأحدث ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، يشمل تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية ، أن حدث عدوان على الشخصية الانسانية « فهو عدوان مؤقت » ثبت بالتجربة والتاريخ انها مرحلة مؤقتة ، وبعدذلك تحاول المجتمعات البشرية أن ترجع مرة اخرى لفكرة احترام الذات . « منطق يستمد قوته لا من النظرة العالمية وحدها ولكن

من تتبع ما نرى بأعيننا أمامنا . لو لم يكن ستالين ، لم يكن خروشوف ، ومن يدري من سيكون بعده،وقد سار هو طريقا تبشر بالكثير للانسان الروسى ، وبعيد ان يرجع زعيم يستحق اسمه لما كان بلغ فيه ستالين فقد وضحت طرائق أوفق بعده لانجازما انجز، دون قسوته والوهيته المصطنعة ، شيىء يقودنا الي القول بأن الواقعية السياسية تتطلب فى أكثر أقطار القارة الافريقية ، ان يرعي المتعلمون والمثقفون هذه التنظيمات الشعبية رعاية ذكية لتقصر المرحلة التى تجمد فيها الحريات الاقتصادية والسياسية ، ذلك لأن الحزب الواحد أو التنظيم العام للقوى الاجتماعية والاقتصادية يقتضى فى كل حالاته رجلا واحدا مصابرا تلتف حوله الجماهير ، سيكوتورى فى قينى ، نيريرى فى تنجانيقا ، نكروما فى غانا ، رجال ارتبطوا بمصير بلادهم ، نذروا أنفسهم لها نذرا ، وبادلهم الناس حبا بحب ، حتى حين يجانبهم التوفيق لا يلومونهم قدر ما يلومون بطانتهم . بعيد على هؤلاء اذن أن يروا صوابا فى جانب أحد ، وان تواضعوا ، وعسير عليهم وهذا مكانهم الاسمى ان يطيقوا معارضة يشتمون فيها ان أهلها لا يقصدون بها الا السلطة والجاه ، ودلت التجربة على انهم يقهرون معارضيهم قهرا لأنهم يحسبونهم ـ صادقين ـ انهم يعوقون بناء الدولة . خير لكل الاطراف ، والحال كما وصفنا ، أن تجد كل الآراء والاتجاهات مكانها داخل التنظيم الشعبى أو الحزب الواحد تعبر عن نفسها بقدر الحرية المتاحة ، كى لا تضيع جهود القادة فى كبتهم وجهود هؤلاء فى المقاومة ، ويتأخر يوم الديمقراطية الهينة التى لا تخاف من أن تتفتت الدولة فى عملية الصراع من أجل الحكومة ..

واخيرا . . .

لن تعرف القارة السوداء ديمقراطيــــة مما تعرف اوربا الغربية والولايات المتحدة لاختلاف ما تعالج هـذه الاقطار من مسائل ، واهتزاز منشآتها وقيمها اهتزازا يصعب الاخذ عنه فهي غير صلدة ، مائعة ، من ناحية ، ولن تأخذ القارة ما تمارســـه الدول الشرقيــــة من ديمقراطية شــعبية لانهـــا تؤمن بجوهر الديمقراطية بالحرية والمساواة والعدل بكل ما في هذه الكلمات من معنى عميق طيب ، من ناحيـــة اخرى . ستسير فيما نرى الآن سيرتها مع الديمقراطية المركزية تضيف لمعنى المفاهيم القديمة اضافات من خبرتها ، ترفدها ان شئت واصدق الدلائل على هـــذا تجارب التنظيم السياسي الذي سينتهي قريبا بمجلس الامة في الجمهورية العربية المتحدة ، تجارب سارت اثني عشر عاما ، تصيب هنـــا وتخطىء هناك ، تصبو في النهاية الى تنظيم علاقة الفرد بالدولة تلك « العـــلاقة التي تسمح له بأن يكون له كيانه » فيما يقول الدكتور حسين خلاف مدير مؤسسة البنوك ، أبصر من تحدث في ندوة مجلة « الكاتب » ، وأعمق من نظر لأمام من حيث هو الآن ، « فالوضع الجديد يحقق للانسان العربي في مصر قطعا الكثير من المراحل ، ولكن لدى الفرد مرحــلة اخيرة وهي أن يحقق ذاتيته والا يذوب في المجتمع بالرغم من الرفاهية الاقتصادية التي قد يتمتع بها ، أو بالرغم من انه لم يعد مستغلا لصالح طبقات معينة . الفرد مشتاق الى أن يحقق كيانه ويحقق ذاتيته ويحقق ملكاته وقوة ابداعه » . ايمان بالانســـان يعيـــد للذهن أســـاطين الديمقراطية الكلاسيكية مما سيحمل القارة السوداء

على المضى فى تجربتها للبناء السياسى والاقتصادى والاجتماعى بأداة ما خذلتها الا قليلا حتى الآن ، أداة الحزب الواحد ، ناظرة أكبر الظن بعين أخرى الى هذه المرحلة الجديدة من تقدم العمل السياسى فى الجمهورية العربية المتحدة ، لا لتأخذ عنها الشكل والمضمون فهذا غير مستطاع وغير حميد ، بل لتستمد الثقة منها بديمقراطيتها المركزية معبرة فى حزبها الواحد ، حتى تصل الغاية المرجوة آخر المطاف . وكل الدلائل تشير الى ان افريقيا ستطور نظاما فريدا فى الحكم ، عبرت عنه فى عبارة شاعرية أخاذة دووس لسنق فى «مذكراتها الذهبية» تقول : « وقفت فى غيمة فى الفضاء ، زرقاء ارقب أمنا الارض تحتى تدور ، تحفها غلالات حمر ، تعمق الوانها حينا ، وتخف حينا آخر ، من اقليم لاقليم فى الشطر الشيوعى ، وغلالات اخرى بقع من الوان مختلفة تحيط بالشطر غير الشيوعى . ثم دارت الارض تحتى أرقبها من غيمتى الزرقاء ، فاذا أنا وجها لوجه أمام افريقيا . انها غير هذين . سوداء تضىء سوادا يثير الحس والخاطر . تمثل لى ليلا قمره فى السبيل الى وسط السماء فى مساره ، ولما يصعد الافق كله ليطل على أرضنا ينير » ..

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

نجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

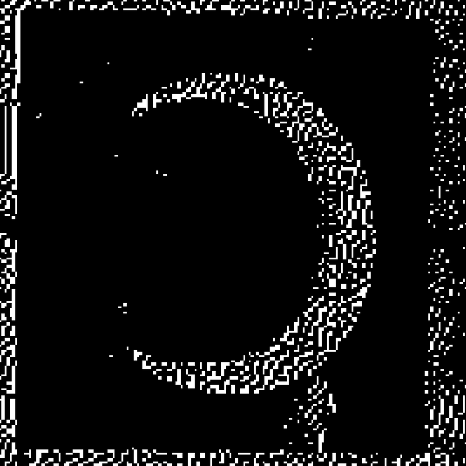
M. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب اديب معروف من ادباء ((السودان)) الشقيق ، له بحوث قيمة ودراسات عديدة في الادب والفكر والفن الافريقي .. فقد اتيح له أن يتابع الحركة الفكرية المعاصرة في كثير من الدول الافريقية، وان يطالع انتاج ابنائها ، وان يناقش آراءهم واتجاهاتهم على صفحات المجلات الادبية وفي محاضرات وندوات عقدتها الهيئات الادبية في بلادنا العربية . انه في هذا الكتاب ـ الذي يتناول موضوعا جديدا على المكتبة العربية ـ يسلط الاضواء على مدى ازدهار الفكر الافريقي في السنوات الاخيرة ، ويعرض مواهب وملكات تبشر بمستقبل رائع وأدب عالمي يستمتع بقراءته ابناء الغرب مثلما يستمتع به شباب الشرق لانه أدب انساني رائع لا زيف فيه ولا تصنع . زادته الازمات التي تمر بها افريقيا روعة وجمالا وعمقا ..

يقول المؤلف في تقديم هذا الكتاب ((هل هذه الفصول دراسات اجتماعية ام تاريخية ام ادبية ؟ .. انها كلها معا . ففروع المعرفة لم تعد حجرات مقفلة بعضها ازاء بعض ..)) ثم يردف قائلا : ((لقد سعيت في فصولي هذه أن أكون جنبا كل حقيقة اعرف ، ارعاها بحس ، وآمل الا تخفق التجربة ..))

١٠ قروش



كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

اليهود والحركة الصهيونية في مصر ١٨٩٧-١٩٤٧

تأليف: أحمد محمد غنيم • أحمد أبو كف • تقديم: أحمد بهاء الدين

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢١٩ ربيع الأول ١٣٨٩ يونيه ١٩٦٩

No. 219 - June 1969

مركز الادارة

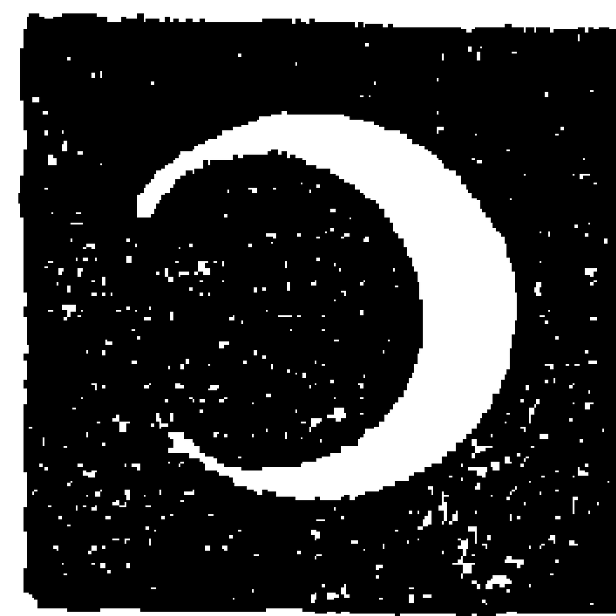
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ره دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج.ع.م) ـ والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال

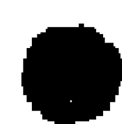


سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــة
الفنان حلمى التونى

اليهود والحركة الصهيونية في مصر

١٨٩٧ - ١٩٤٧

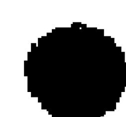


تأليف

أحمد محمد غنيم • أحمد أبو كف

تقديم

أحمد بهاء الدين



دار الهلال

تقديم بقلم: أحمد بهاء الدين

الكتاب.. الوثيقة

● هذا الكتاب ، ليس من المبالغة في شيء ان نقول عنه : انه اول كتاب من نوعه . أو أول دراسة متكاملة في هذا المجال بالذات ، مجال الحياة اليهودية ، والنشاط الصهيوني في مصر أو في سائر انحاء الوطن العربي ، عدا فلسطين بالطبع ..

والواقع أن المرء لا يكف عن الدهشة من قلة المؤلفات العربية حول الموضوعات التي تمس التحدي الصهيوني في الحياة العربية الحديثة .

لدينا بعض الترجمات ، ربما . ولدينا الكتب التي هي اقرب الى ان تكون مقالات سياسية طويلة . وقد بدأ يصبح لدينا عدد لا بأس به من الابحاث والدراسات والكتب عن اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية والصراع العربي الصهيوني ، ربما فقط منذ ظهر

الى الوجود مركز ابحاث منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسسة الدراسات الفلسطينية • على ان المجالات التى لم تطرق بعد مازالت كثيرة جدا •وما يمكن ان يطلق عليه وصف « البحث والدراسة» مما ينشر ، مازال قليلا •• أقصد البحث الذى يرجع الى المراجع وينقب فى المصادر ويستخرج لنا معلومات واستنتاجات جديدة ، وليس قصدى كتابة الآراء والخواطر الذاتية والتعليقات ••

ومن هذه المجالات التى لم تطرق بعد مجالان على درجة كبيرة من الاهمية

المجال الاول هو : الحياة اليهودية فى البلاد العربية المختلفة ، خلال الفترة التى يمكن أن نسميها فترة التاريخ الحديث •

المجال الثانى هو : الحركة الصهيونية ونشاطها فى مختلف الاقطار العربية ، منذ نشأة الحركة الصهيونية فى العصر الحديث ••

ان القارىء العادى يتصور ـ وهو معذور فى تصوره ـ أن الحركة الصهيونية التى ولدت فى اوربا ، آنما انصبت على فلسطين وحدها لا غير • ومن هذا التصور يولد تصور آخر ، تستغله اسرائيل ذاتها ، وهو أن يهود

البلاد العربية فوجئوا بقيام اسرائيل ، وبردود الفعل المترتبة على ذلك ، فأسرعوا الى الفرار من البلاد العربية التى كانوا يعيشون فيها ويحملون هديتها ، الى اسرائيل ٠

وكلا التصورين خاطىء ، كما يثبت لنا هذا البحث الذى بين أيدينا ٠٠

فقد كان طبيعيا ـ والصهيونية تستهدف انتزاع قطر عربى لنفسها ـ أن توجه الكثير من نشاطها الى اليهود المنتشرين فى شتى الاقطار العربية ٠وأن تعمل على نسف انتمائهم الى هذهالاقطار ليصبحوا مع الزمن اما مهاجرين الى اسرائيل واما أعوانا لاسرائيل حيثما كانوا فى اى بلد عربى ٠٠

ونحن لا نقول أن الصهيونية جندت كل يهودى فى كل قطر عربى ٠ ونحن لا نوافق على كل ما حدث من ظروف ادت الى تشجيع ذهاب اليهود العرب الى اسرائيل ٠ ولكن الذى يضيفه هذا البحث هو : ان الصهيونية هى التى بدأت بممارسة النشاط بين اليهود العرب ، وهى التى حفرت عامدة الهوة التى بينهم وبين الاقطار التى كانوا يعيشون فيها وينتمون اليها : لان هذا جزء من تفكيرها العام ونشاطها الذى تمارسه مع يهود العالم كله ٠:

ان هذا الكتاب يرد على هـــــذين التصورين الخاطئين ..

انه يحدثنا عن الحياة اليهـودية فى احد الاقطار العربيـة ، مصر ، وما كان لهذه الحياة من معالم .. صناعة ، تجارة، مدارس ، رياضة ، صحافة ، عضوية فى المجالس النيابية

ثم يحدثنا عن بدايات الحـــــركة الصهيونية فى مصر ، والاساليب التى لجأت اليها ، ابتداء من النشاط الفكرى وجمع التبرعات ، الى ارتكاب جـــرائم الاغتيال

على أن المهم فى الكتاب هو جهـــد البحث والاستقصاء الاصيل الذى بـذله الاستاذان احمد غنيم واحمد أبو كف ، لوضع هذه الصورة فى اطار من الحقائق، والوثائق ، والمستندات

احمد بهاء الدين

الفصل الاول

حياة اليهود

في العقد الثاني من هذا القرن صدر كتاب لمــؤلف فرنسي يهودي هو « نارسيس لفن » بعنوان «خمسون عاما من التاريخ » وصف فيه الطائفة اليهودية في ذلك الوقت بقوله :

« تتألف الطائفة اليهــودية في القــاهرة من ١٥ الف نسمة · وتتشكل من مجموعة من العناصر المتباينة · فهي تضم يهودا من مختلف الجنسيات ، يتكلمون لغات ولهجات متعددة ·· وأبرز العناصر اليهــودية وأهمها هو العنصر المحلي ، فهو أكثر الفئات اليهودية ثراء ، وأكثرها اصالة ، والعنصر المحلي يفخر بأنه صانع الامجـــاد اليهودية في مصر ··

« ومن ناحية المذهب ، كانت غالبية اليهـــــود من العنصر السفاردي بينما كانت طائفة القرائين تبلغ حوالي مائة عائلة وتتمتع بوضع مادي مرتفع

« كما كان أتباع المذهب الاشكنازي يبلغون حـــوالي خمسمائة عائلة · ورغم أن هذه العائلات كانت من أفقر يهود مصر ، نظرا لانها أحدثها اقامة في البلاد ، فان أهم ما يميزها هو نشاطها الجم ، وقدرتها الفائقة على العمل

« وفي الاسكندرية كان تعداد اليهود ١٤ الفا · ومع أن عدد فقراء اليهـــود كان قليلا في بداية الأمر ، الا أنه في

بداية الحرب العالمية الاولى زاد عددهم زيادة كبيرة نتيجة لهجرتهم من فلسطين • وكان الوافدون على الاسكندرية مجموعة من اليهود من روسيا ، ورومانيا ، واليمن ،وتركيا •• ولقد جاءوا جميعا هروبا من الاضطهاد ، ليجدوا ملجأ يكفل لهم امكانية التطور وحرية العمل »

وفى هذه الفقرة التى أوردناها بنصها من كتاب « نارسيس لفن » ما يلقى الضوء ، لاول وهلة على وضع اليهود فى مصر فى أوائل هذا القرن ••

وواضح أنهم كانوا يعيشون فى أمن وطمأنينة ، وكانت مصر فى نظرهم ملجأ أمينا ، يهربون اليه مما يتعرضون له من مخاطر ومظالم ، واضطهاد ، فى غالبية بلاد العالم المتمدين وخاصة فى أوربا الشرقية

وقبل هذا الوقت بعدة سنوات وقع فى تاريخ يهود العالم حادث يعتبر بداية الحركة الصهيونية السياسيةوكان له تأثير كبير على يهود مصر بالذات ، الذين كانوا يجدون فى عصر الخديو عباس حلمى كل رعاية وعطف

ففى أغسطس عام ١٨٩٧ انعقد أول مؤتمر صهيونى عالمى فى مدينة بال السويسرية • ولقد جاء انعقاده نتيجة تدابير سياسية صهيونية عالمية ••

واستطاع الصهيونى العريق تيودور هرتزل أن يبعث الروح فيه وكان مما قاله فى خطبة الافتتاح :

« اننا هنا نضع حجر الأساس فى بناء البيت الذى سوف يؤوى الامة اليهودية »

والبيت الذى كان على المؤتمر الصهيونى أن يضع حجر أساسه ، والذى أشار اليه هرتزل ، هو فلسطين بعد اغتصابها من أهلها العرب وآجلائهم عنها

وفى سبيل تكوين هذا البيت اتفق الصهيونيون على

الاجراءات التالية :

١ ـ تنظيم هجرات يهودية واسعة النطاق الى فلسطين

٢ ـ محاولة الحصول على اعتراف دولى بشرعية التوطن فى فلسطين

٣ ـ ثم محاولة اغراء يهود العالم للانضمام الى الحركة التى عرفت منذ ذلك الوقت بالحركة الصهيونية

٤ ـ اقامة فروع للمنظمات الصهيونية فى بلاد العالم ، تقوم بتجنيد القادرين والصالحين وتجميع الاموال بغية تحقيق هذه الأهداف

وعلى هذه الاسس ، بدأت الحركة الصهيونية العمل ..

ولجأ زعماء الحركة الصهيونية ، والداعون اليها الى حكام البلاد التى لها صلات مباشرة بمنطقة فلسطين :

لجأوا الى القيصر غليوم الثانى ، فقابله هرتزل فى القسطنطينية عام ١٨٩٨ ، وكانت الصهيونية تعرف أن للقيصر أحلاما قدسية فى الشرق

ولكن المقابلة لم تثمر شيئا

بيد أن الحركة الصهيونية لم تقطع الرجاء نهائيا فى استمالة القيصر ، فقابله هرتزل مرة أخرى فى أوروبا . لكنه أصر على رفضه ، بدعوى أن الاشتراك مع الصهيونية فى اتفاق بخصوص فلسطين ستعتبره الامبراطورية العثمانية اعتداء على سيادتها . والقيصر غير مستعد أن يدخل فى صراع مع الامبراطور العثمانى

هرتزل فى مصر

وعلى أثر فشل هرتزل مع القيصر ، قررت الصهيونية أن تتجه الى صاحب الامر مباشرة ٠ الى السلطان العثمانى٠ وتوصل هرتزل الى مقابلته فى عام ١٩٠١ ٠ وفى هـــذه المقابلة حاول الزعيم الصهيونى أن يضرب للســـلطان على وتر حساس هو ، أن يتولى اليهود اصــــلاح ميزانية الامبراطورية العثمانية التى كانت على وشك الانهيار فى ذلك الوقت ، ولكنه فشل فى مساعيه

وازاء هذا الفشل نقلت الصـــــهيونية نشـــاطها الى بريطانيـــا ، والتى كانت لها فى ذلك الوقت تطلعـــات استعمارية واسعة النطاق فى منطقة الشرق الاوســـط ، وكانت تحتل مصر فى ذلك الـــوقت ، وتقبض على زمام الامور فيها ، وتلعب بالحكام كيفما تشاء

ففى عام ١٩٠٢ دخلت الصهيونية العالمية فى مباحثات مع الحكومة الانجليزية ، بقصد اقناعها بالموافقة على منحها جزءا من شبه جزيرة سيناء لتقيم عليه « الوطن القومى » ، ولعلها اختارت ذلك لأن سيناء كانت جزءا من مصر ، التى تحتلها انجلترا ٠ وأن سيناء ـ بالنسبة للصهيونية ـ تعتبر أقرب مكان الى فلسطين يقع تحت النفوذ البريطانى٠ وأقرب نقطة للوثوب على فلسطين حين تأتى الفرصـــــة ٠ وكذلك فان هذا المكان يرتبط فى نفوسهم بذكريات دينية عميقة ٠٠

وكان المسئولون فى بريطانيا مستعدين فى ذلك الوقت لسماع مطالب الصهيونية . فعلى أثر المذابح التى راح ضحيتها الاف اليهود فى أوروبا ، هاجر كثير منهم الى بريطانيا . وأحست بريطانيا بضغط هذا العدد المتزايد من اليهود عليها وما يجره ذلك من مشكلات ، أهمها المشكلات الاقتصادية . ولهذا وجهت اللجنة الملكية البريطانية الخاصة بهجرة الاجانب دعوة فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٢ الى هرتزل باعتباره زعيم الصهيونيين ليعرض عليها ما يراه كفيلا بحل مسألة الهجرة اليهودية المتزايدة الى بريطانيا

وقد وصل هرتزل الى بريطانيا ، وقابل عددا كبيرا من المسئولون البريطانيين ، من بينهم بعض اليهود الانجليز المتعاطفين مع الصهيونية ، والمتتبعين مسيرتها . وقد أسفرت مقابلاته مع جوزيف تشيمبرلين وزير المستعمرات، واللورد لانسيدون وزير الخارجية ، عن مشروع عرف باسم « مشروع العريش » يقضى بمنح اليهود حق امتياز على الاراضى الواقعة فى شبه جزيرة سيناء والتى تحيط بمنطقة العريش ، فى مساحة تبلغ ٦٣٠ ميلا مربعا

ويرجع نجاح هذا الاتفاق أساسا الى النفوذ الواسع الذى كان يتمتع به صهيونى بريطانى هو « ليوبولد جرينبرج » عضو اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية

وكانت بداية محاولة تنفيذ هذا المشروع ، رسالة توصية تسلمها ليوبولد جرينبرج من وزارة الخارجية البريطانية لتقديمها الى اللورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر فى ذلك الوقت ، والتفاهم معه بشأن مفاتحة الخديو فى أمر المشروع

ووصلت الى مصر لجنة عرفت باسم « اللجنة الصهيونية»

كان هرتزل ضمن أعضائها • وقابلت اللورد كرومر ، الذى اتفق معها على تقديم المشروع للخديو

وما أن وافق الخديو عباس حلمى الثانى مبدئيا على المشروع • حتى أرسل اللورد كرومر مندوبا عنه للاشتراك مع اللجنة الصهيونية ، التى ذهبت الى العريش لدراسة المنطقة على الطبيعة والبحث فى مدى أمكانياتها وملاءمتها للاستيطان الجماعى

وكان من المقـــرر اذا ما أســـفرت نتيجة الدراســـة الميدانية عن صلاحية المنطقة أن يحصل الصـــهيونيون على امتياز ادارتها ادارة ذاتية تحت السيادة البريطانية لمدة ٩٩ عاما

وقد سجل تيودور هرتزل ما حدث يوما بيوم خلال هذه الفترة فى مذكراته ، التى تبدو غير مرتبة الافكار ومركزة تركيزا شديدا • وقد جاء فيها :

« **القاهرة فى ٢ ابريل ••**

« كان أمس يوما خاويا • لا أدرى اذا كان ذلك اليوم طيبا أم سيئا بالنسبة لنا • فمشروعى عن حق الامتياز فى منطقة العريش كان جاهزا وموافقا عليه ولكن ماذا سيكون تأثيره على الحكومة المصرية

« أعتقد أنه من الخطأ أننا عهـــدنا الى « مى الوريث » بمشروع جرينبرج ، لانه يحتوى على الكثير من التفاصيل • بينما مشروعى يتضمن القليل من التفاصيل ، وله ملامح وقسمات المشروع غير العدائى • باختصار •• فلننتظر •• »

***

« **القاهرة فى ٣ أبريل •••**

« أمس ، وبعد غروب الشمس ، كنت مع « جولد ساند » لدى « مى الوريث » • واستقبلنا الاخير بملابس التنس ••

وكان عائدا لتوه من نادى الجزيرة الرياضى

« وفى هذه المرة قابلنا وهو يبدو عليه الشك فى أن مشروع الامتياز سيتاح له النجاح • ويبدو لى أن « المستر برنيانت » ذلك الانجليزى الذى كان يرتدى الطربوش قد غير فكره • وعلى أى حال ، فان المسألة لن تكون مسألة مشروع مقابل مباشرة ، وانما سيكون بحثها بواسطة مجلس الوزراء

« ••• ان اتساع رقعة الاقليم الذى طالبنا به هى نقطة الاعتراض الاساسية • انهم يريدون اعطاءنا أراض ، ولكنهم لا يريدون اعطاءنا اقليما •••

« وقد قلت :

« ولكننا لا نقبل الا الحصول على اقليم موحد •• اننا لسنا من المضاربين العقاريين مثل الذين تجدونهم فى مصر

« وقال جولد ساند :

« ان الارض لا قيمة لها • ان علينا أولا أن نفعل شيئا •

وقال مى الوريث : وما هى مدة العقد ؟ : خلال ٩٩عاما ستفقد الحكومة المصرية حقها فى ادارة الارض • ماذا لو أنكم لم تبذلوا الجهود الكافية لضمان النجاح !

« وكان ردى على مى الوريث : انه يمكن النص على ذلك فى العقد • فالامتياز ممكن أن يلغى اذا لم ننجح بعد عشرين سنة فى أن نستخدم مليونين من الجنيهات فى الاستثمارات

« أعود الى موضوع الامن الشرعى

« اذا ما تقرر أن يستمر الاحتلال الانجليزى فى المنطقة ، فليس المطلوب منا أن نعتنى بكل هذه الاجراءات الحذرة ، ولكن على أى حال فان ضميرنا لا يستطيع أن يتحمل — فى

المستقبل ــ رؤية مواطنينا، وهم معرضون للتحكم والسيطرة « ولقد فهم الوريث ما أقصده من الكلام ٠٠ »

***

وفى ربيع عام ١٩٠٣ ، عادت البعثة من منطقة العريش الى القاهرة ، بنتائج مبشرة ٠ وذهب تيودور هرتزل وهو مملوء بالامل ، تشجعه وعود المساعدة ، التى هاه بها عدد ليس بقليل من الماليين اليهود المقيمين فى القطر المصرى ، وخاصة فى الاسكندرية ٠٠

وتحدد الموعد لمقابلة اللورد كرومر ، وذهب هرتزل اليه وهو يفرك يديه من السرور ٠ ولكن فجأة أعلنت الحكومة المصرية أنها سوف تعيد النظر فى الامر

ثم قررت أنها لا تستطيع منح هذا الامتياز للصهيونيين على أساس أن المنطقة المقترح استيطانها جرداء قاحلة ليس بها ماء ، وهى قطعا ستحتاج الى مياه النيـــل ، فى وقت تحتاج فيه البلاد أشد الحاجة الى كل قطرة من قطرات مياهها

على أية حال ٠٠ فلقد أسقط فى يد الصهيونيين عند هذا الامر ، ووقع النبأ على تيودور هرتزل كالصاعقة ، وتناثرت أمانى « نبى » الصهيونية فى الفضاء

المهم أن المباحثات توقفت لان انجلترا لقيت معارضـــة مصرية .. ويمكن القول بأن هذه المعارضة التى نشأت فى مصر بالنسبة لهدف الصهيونية الاساسى كانت فى الواقع أول معارضة عربية فى اقامة وطن قومى صهيونى

***

وقد ابتهجت العائلات الرأسمالية اليهودية الشهيرة فى مصر بوصول هرتزل ٠ فقد كان وصوله ، تفتيحا لأعين

اليهود فى مصر ، وتبشيرا بقيام حركة صهيونية سياسية تهدف الى احتلال فلسطين وازاحة العرب عنها ، واقامة وطن قومى للصهيونية فيها ·· وذلك ببذل مزيد من الجهد للتركيز على امتلاك أرض فلسطين نفسها ، واعداد الهجرات اللازمة للسفر ، وتوفير الاموال والمشرفين والرعاية للمهاجرين ، واقامة المستعمرات اليهودية ···

وشهدت مدينة الاسكندرية بداية النشاط الصهيونى ·· فقد بدأت التحركات الاولى لهذا النشاط عام ١٩٠٨ عندما أسس عدد من يهود المدينة جمعية صغيرة باسم « بنى صهيون » · أعلنت بصراحة كاملة تبنيها لبرنامج مؤتمر بال وترأس هذه الجمعية الدكتور دافيد وضم مجلس ادارتها دافيد ايديلوفيتش ، وليون شفيدر ، وبراونشتين ، وتراجان ، وماركو بيهار

ولم ينقض عام على تأسيس هذه الجمعية ، حتى قامت الى جانبها جمعية ثانية ضمت عددا من يهود المدينة القادمين من روسيا ، عرفت باسم جمعية « زائير زيون » ·

وكان رئيسها سيمون زلوتان · ولم تلبث جمعية « بنى صهيون » أن انضوت تحت لوائها توحيدا للنشاط الصهيونى

وكان نشاط هذه الجمعية محصورا فى بداية الامر فى دائرة ضيقة · ولذلك كانت تعقد اجتماعاتها فى بعض المناسبات مثل الاحتفال بذكرى هرتزل فى منازل أعضائها أو فى معبد طائفة الاشكنازى · غير أن نشاطها سرعان ما امتد واتسع وانضم اليها عدد كبير من يهود المدينة ، فبدأت تنظم المحاضرات والاجتماعات والاحتفالات التى تدعو الى تحقيق أهداف « المنظمة الصهيونية العالمية » · واتخذت من صالة « بنت عاهام » بمعبد « الياهو حنابى » ميدانا لدعوتها

ترحيب .. وأمان

وحينما اندلعت الحرب العالمية الاولى فى عام ١٩١٤ ، وأحست الدولة العثمانية بخطورة الحركة الصهيونية فى فلسطين ، والشام بوجه عام ، أصدر الوالى العثمانى أحمد جمال باشا فى يناير عام ١٩١٥ أمرا بتحريم نشاط العناصر الهدامة التى تسعى لانشاء حكومة صهيونية فى أرض فلسطين ، وأمر باغلاق البنك الانجليزى - الصهيونى ، وحل هيئة « حراس هاشومير » ، وحرم الكتابة بالعبرية على لافتات الحوانيت والشوارع . وهدد باعدام من تسول له نفسه أن يلصق طابع بريد صهيونى على الخطابات . كما قام بتجريد المستعمرات اليهودية من السلاح .

ولقد كان هذا الهجوم على اليهود فى فلسطين ، دافعا لهم على أن يبحثوا عن منطقة يجدون فيها الامن والطمأنينة ولم يكن أمامهم سوى مصر التى استقبلت أعدادا كبيرة من اليهود استقبالا طيبا ، مما حدا بعدة الاف الى الهجرة اليها فرارا من الاضطهاد العثمانى

وحتى يوم ٥ ديسمبر سنة ١٩١٥ بلغ عدد المهاجرين الذين وطئت أقدامهم أرض ميناء الاسكندرية ١١٢٧٧ مهاجرا ، وصفهم « آيلى ليفى أبو عسل » وهو أحد الكتاب اليهود المصريين فى كتابه « يقظة العالم اليهودى » بأنهم :

« وصلوا الى مصر وهم يطوون أحشـــاءهم على الطوى ، ويتقلبون على جمر الغضا .. فرفلوا فى بحبوحة النعيم والسؤدد مدى أربع سنوات متوالية »

وبمجرد أن تدفق هذا السيل من المهاجرين ، تشكلت لجنة من كبار الرأسماليين من أبناء الطائفة اليهودية فى مصر باسم « لجنة اغاثة المهاجرين الفلسطينيين الروس » اشترك فيها حاخام الاسكندرية البروفيسور ديللا بيرجولا ، ونائبه الحاخام ابراهام أبيخزير . وسارع ادجار ساويرس رئيس الطائفة الاسرائيلية بالمدينة بالسفر الى القـــاهرة حيث قابل السلطان حسين كامل الذى أبدى من جانبه عطفا شديدا على اللاجئين ، كما اجتمع بحسين رشـــدى باشا رئيس مجلس الوزراء . وبادرت الحـكومة المصرية بارسال أحد مفتشى وزارة الداخلية لدراسة أحوال اللاجئين واحتيـــاجاتهم واقتراح مدى امكانيـــة مساعدتهم . ولم تتوان الحـكومة بعـــد ذلك عن اتخـــاذ اجراءات حاسمة وسريعة لاستضافتهم ، وتنظيم عمليـــة الغوث لهم ، واعادة الامان الى نفوســـهم . وفتحت لهم مناطق القبارى ، والبلدية فى الشاطبى ومبنى الحجـر الصحى . وحين ازداد عددالمهاجرين وضعت محطـــة الورديان ، ودار المحافظة فى رأس التين ، وغيرهما من الاماكن الحكومية تحت تصرفهم

كما أمر السلطان حسين كامل بأن تصرف لهم اعـــانة يومية قدرها ٨٠ جنيها ، زيدت الى مائة جنيه ، وهـــو مبلغ لم يكن ضئيلا فى ذلك الوقت ، بالاضافة الى ماكان يتبرع به أثرياء المصريين من اليهود وغير اليهود

وهذه صورة ، شاهدها بنفسه صحفى يهودى عاش فى المناطق التى نزلها المهاجرون اليهود ، والتى أطلق عليهـــا

« معسكرات التحرين » وتعتبر أبلغ دلالة على المعاملة التى لاقوها فى مصر :

يقول هـذا الصحفى فى مقـال نشر بمجلة « مصر الاسرائيلية » ، فى عددها الصادر فى ٣١ ينـاير سنة ١٩١٥ :

« يعيش فى منطقة القبارى نحو ١٦٠٠ نسمة ، يتكلمون اربع عشرة لغة مختلفة ، وتستخدم اللغة العبرية وسيلة للتفاهم بينهم ، والمكان يشبه قرية مستديرة الشكل ، وهى مسورة ضمانا للأمن ، وتحتـوى على عـدة منـازل ومطابخ

« وقد اتاح لهم المصريون ان يعيشوا فى امان ، وان يقيموا شعائرهم بحرية • ولذلك فقد بنوا لهم معبـدا ومستشفى . فضلا عن ان المكان نفسه صحى وملائم للمعيشة ، وبه حدائق خضراء وطرقات مرصـوفة ، ونافورات مياه .. »

كذلك ساعدت الحكومة المصرية اللاجئين على اقامـة المدارس لابنائهم ، فأقيمت على الفور مدرسة فى القبارى تضم ٢٥٠ تلميذا ، ومدرسة فى المفروزة تضم ٦٠ تلميذا ، وأخرى فى الورديان بلغ عدد تلاميذها ٣٠٠ تلميذ، وكانت تتولى الاشراف عليها مدام فيلكس منشة

وأقامت مدام ديللا بيرجولا زوجة الحاخام الاكبر ورشة للحياكة والاشغال اليدوية ضمت عـددا من الفتيـات اللاجئات

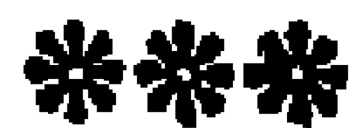
وعندما وصلت الى الاسكندرية الانسة « لاندو » التى كانت تعمل ناظـرة لمدرسة « ايفيلين دى روتشيلد » للبنات بالقدس ، افتتحت فى مايو سنة ١٩١٥ مدرسة فى الورديان بلغ عدد تلاميذها ٤٠٠ تلميذ . وكانت الدراسة

فيها باللغة العبرية .. هذا بالاضافة الى المدرسة العبرية التى أقيمت فى وسط المدينة والتى كانت تضم ٣٢٠ تلميذا ويتولى ادارتها الدكتور بوجراتشوف الذى كان ناظرا للمدرسة العبرية فى يافا

وقد كان موقف الحكومة المصرية من اللاجئين ، موضع تقدير وامتنان من أبناء الطائفة اليهودية ، فأرسل ادجار ساويرس رئيسهم بمدينة الاسكندرية رسالة شكر الى حسين رشدى باشا رئيس مجلس الوزراء جاء فيها :

« .. لقد اثبتم مرة اخرى تحرر هذا البلد وضيافته الكريمة . وان طائفتنا لعلى ثقة فى هذه المناسبة بأنها تعبر عن عرفان يهود العالم للحكومة المصرية على الاجراءات السريعة الفعالة التى اتخذتها لمساعدة هؤلاء المطرودين البؤساء »

والواقع ان هؤلاء اللاجئين عاشوا فى الاسكندرية فى بحبوحة من العيش .. الى أن غادر بعضهم مصر بعد الحرب فى عام ١٩١٨ ، الى المستعمرات التى نزحوا منها فى فلسطين



ومع أن المنظمة الصهيونية العالمية ــ والتى كان يراسها وايزمن بعد وفاة هرتزل فى عام ١٩٠٥ ــ قد أعلنت الوقوف موقف الحياد فى وقت الحرب ، اذ ينتمى اعضاؤها الى دول المعسكرين ، فان فريق اليهود الذى فر من فلسطين ، أعلن بدافع الحقد على الدولة العثمانية ، من رغبته فى الانضمام الى جيوش الحلفاء . وتزعم هذه الفكرة ضابط صهيونى اسمه « يوسف ترومبلدور » وتصور أيضا أن اتخاذ مثل هذا الموقف سيزكى مطالب اليهود بعد الحرب اذا ماانتصر الحلفاء

ففي مارس سنة ١٩١٥ دعت لجنة اللاجئين بالاسكندرية الى اجتماع حضره نحو مائتى شاب . وتناقش الحاضرون بشأن تكوين فرقة يهودية تنضم للقوات البريطانية على شريطة ان تحارب في الجبهة الفلسطينية . وتوجه وفد منهم يضم يوسف ترمبلدور و ز . ليفونتسان ، و ز . جلاسكن ، و م . مارجولى ، وفلاديمير جابوتنسكى ، لمقابلة الجنرال ماكسويل قائد القوات البريطانية فى مصر . وحضر المقابلة موسى قطاوى باشا رئيس الطائفة الاسرائيلية بالقاهرة ، فى ذلك الوقت

واستقبل القائد العام البريطانى فى مصر وفد اليهود اللاجئين بالترحاب ، واقترح عليهم تكوين فرقة لارسالها الى تركيا ، الى أن يتيسر فتح جبهة فى فلسطين .. ولما قبل الوفد اقتراح الجنرال ماكسويل ، أصدر أمرا بتعيين الكولونيل باترسون قائدا لهذه الفرقة . وقد قوبل اختياره باغتباط شديد ، فهو فضلا عن قدرته العسكرية ومهارته الفنية كان نصيرا لليهود يوليهم تقديرا عميقا ومودة صادقة . كما كان صديقا حميما للصهيونى الشهير زانجويل

وتألفت فى الاسكندرية على الفور هذه الفرقة التى كانت تضم ٥٠٠ متطوع من بينهم ٣٥٠ من اللاجئين ، ١٥٠ من يهود الاسكندرية منهم كلود رولو وأخوه ابرام رولو وهما من أعرق الاسر الرأسمالية اليهودية بالمدينة وسميت هذه الفرقة « فرقة راكبى البغال » . ولقد أدت للانجليز اثناء حملة غاليبولى خدمات كثيرة . حتى صدر الامر بتسريحها فى مارس عام ١٩١٦

وكان جنود الفرقة يلبسون قبعات عليها نجمة داود ، ولها علم مرسوم عليه النجمة أيضا . ولقد باركها حاخام

اليهود الاكبر البروفيسور « ديللا برجولا » ، وقام بتوزيع كتيبات باللغة العبرية على جنودها تحتوى على التعـــاليم اليهودية التى تدعو الى الطاعة والنظام والروح العسكرية، والتفانى فى سبيل العقيدة والواجبات الاسرائيلية

وبعد حل هذه الفرقة تكون فى لندن فى ٥ اغسـطس سنة ١٩١٧ الفيلق اليهودى بقيادة الكولونيل باترسـون للمساهمة فى العمليات الحربية فى فلسطين . واشترك فى هذا الفيلق ١٢٠ جنديا من أفراد فرقة راكبى البغال . ومر الفيلق على مدينة الاسكندرية فى شهر مارس سنة ١٩١٨ وهو فى طريقه الى فلسطين ، فاستقبله يهود المدينة استقبالا حافلا

نشاط اليهود الاجتماعى

عاش اليهود فى عهد السلطان حسين كامل عصرا ذهبيا فقد تمتعوا بكافة حقوق المواطنين ، وأنشأوا مؤسساتهم الخاصة سواء لتأدية شعائرهم الدينية أو دعم وضعهم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى

كما واصلوا اقامة محافلهم التى تتولى رعاية شئون الطائفة . والتى ساهمت فى اقامة الكثير من المعابد والمدارس والمستشفيات ومراكز التدريب المهنى وغيرها

وفى عهد السلطان حسين أيضا منحت الحكومة المصرية للطائفة اليهودية قطعة أرض مجانا فى القاهرة لبناء مستشفى ، وتبرع كثير من اليهود والمصريين لعملية البناء وافتتحه فى عام ١٩٢٦ الحاخام الاكبر وكبار رجالات مصر من اليهود والمصريين على السواء

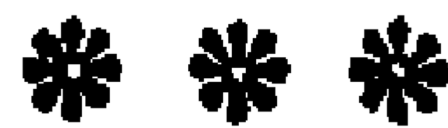
وفى عصر الملك فؤاد « ١٩١٧ — ١٩٣٦ » رسخت اقدام اليهود فى البلاد وتفتحت امامهم الابواب الواسعة فى كل مجالات الحياة حتى انه فى عام ١٩٢٤ عرفت مصر وزيرا يهوديا للمالية ، هو يوسف قطاوى باشا . وكان تعيينه تقديرا أدبيا وتكريما للطائفة اليهودية ، ودليلا على التسامح والمساواة بين كافة المواطنين . وكتب عن هذه الحادثة التاريخية كاتب يهودى يقول :

« انه منذ تعيين يوسف الصديق وزيرا لفرعون مصر ،

لم تعرف مصر وزيرا يهوديا الا فى القرن العشرين اسمه يوسف أيضا .. هو يوسف قطاوى باشا »

كذلك توصل عدد من كبار الراسماليين اليهود الى أن يحتلوا مقاعد فى مجلس النواب والشيوخ . وكان لهم دور كبير فى مجالات المال والاقتصاد فانشاوا كثيرا من الشركات والمؤسسات الصناعية والتجارية . كما كان منهم عدد غير قليل من كبار ملاك الاراضى

وبالرغم من أن الطائفة اليهودية كما سبق أن ذكرنا كانت قليلة العدد ، موزعة بين الاسكندرية والقاهرة ، وبعض عواصم الاقاليم فقد كان لها نشاطها الواسع فى مختلف الميادين الدينية والثقافية والاقتصادية ، بل والسياسية أيضا ..



فمن الناحية الدينية ، وجد اليهود كل مساعدة لاقامة محافلهم الطائفية وبناء معابدهم وكان ذلك هو أول ما اتجهوا اليه حين هاجر اليها عدد كبير منهم منذ نهاية القرن التاسع عشر ، واوائل القرن العشرين . فبعد مرور أربعين عاما على تأسيس محفل « بنى بريت » فى نيويورك عام ١٨٤٣ ، اقيم أول محفل يهودى فى مصر باسم « محفل ابن ميمون » . وقد أسس هذا المحفل عدد من اليهود الاشكنازى من المهاجرين الرومانيين والبولنديين والروس

وأعلنوا عند تأسيسه ان هدفهم الاساسى هو لم شمل الطائفة وتركيز جهودها . وقد تم افتتاح المحفل يوم ١٦ يناير عام ١٨٨٧ ، فى حفل كبير حضره مندوبان عن اللجنة التنفيذية بشيكاغو هما : سيجسموند زيمل ، وسيجسموند برجل

وقد بدأ المحفل فى مباشرة نشاطه ، فأنشأ صندوقا لمساعدة الفقراء والمتعطلين اليهود ، وأنشأ عيادة طبية لعلاجهم بالمجان ، وكذلك أنشأ صندوقا لتسليف المهاجرين

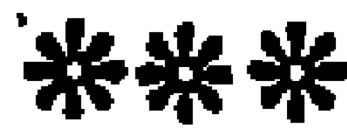
كما قام المحفل بنشاط كبير من أجل تعليم اليهود ، فأقام فى عام ١٨٩٢ مدرسة فى درب البرابرة ، باسم « مدرسة ابن ميمون » • وهى أول مدرسة يهودية انشئت فى مصر • ولقد ضمت المدرسة خمسة صفوف بلغ عدد تلاميذها ١٣٠ تلميذا ، وكانوا يتلقون دروسهم أساسا بالفرنسية ، فضلا عن دراسة العبرية والعربية والانجليزية

وحين بدأت مدارس « الاليانس » اليهودية العالمية ، تقيم لها مدارس فى مصر ، اخذ المحفل يدعم جهودها بالمال ، وتوزيع الملابس والمنح المالية على التلاميذ

وخلال سنتى ١٩١٤ ، ١٩١٥ ساهم المحفل مساهمة فعالة فى ايواء ومساعدة اليهود اللاجئين من فلسطين وسوريا ، فكان يقوم بجمع التبرعات فى البلاد من خلال اقامة الحفلات والسهرات الخيرية

وكان أول من تولى رئاسة هذا المحفل المسيو لويس جرنبرج

وجدير بالذكر انه فى سنة ١٩٤٤ اختار أعضاء المحفل الدكتور حاييم وايزمان رئيس «المنظمة الصهيونية العالمية» رئيسا شرفيا له

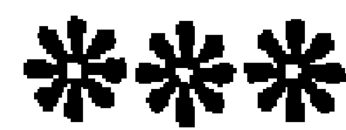


وثانى المحافل اليهودية التى أنشئت فى مصر ، محفل « الياهو حنابى » الذى تأسس بالاسكندرية فى عام ١٨٩٢ وكان موريس رومانوبك أول من تولى رئاسته . وقد أكد هذا المحفل أن هدفه الدفاع عن المصالح العامة لليهود وبث مبادىء الخير فى نفوس أعضائه ، كما أعلن رئيسه

ذلك في خطبة الافتتاح .. التي نشرت مقتطفات منها بعض الجرائد اليهودية في مصر

وفور تأسيس هذا المحفل انشأ مدرسة لابناء الطائفة بالاسكندرية ، كانت الدراسة فيها باللغات الفرنسية والعبرية والعربية . ثم أقام بعد ذلك في سنة ١٩١٤ « ليسيه الاتحاد اليهودى للتعليم »

ومن أبرز من تولى رئاسة محفل الياهو حنابى : ادجار ساويرس ، وفيكتور ناجيار ، وبتشوتو بك ، وفيليكس جرين ، وادوين جعار ، وايلى عاداه ، وهم جميعا من كبار الرأسماليين اليهود .. كما تولى رئاسته فى عام ١٩٤٢ الصحفى اليهودى ايلى بوليتى الذى كان يعمل رئيسا لمكتب جريدة المصرى فى الاسكندرية ، وفى نفس الوقت كان عضواً هاما من أعضاء المنظمة الصهيونية الجديدة وممثلا لها فى الاسكندرية



وثالث المحافل التى تأسست فى مصر ، محفل القاهرة « بنى بريت » الذى اقامه العنصر السفاردى من طائفة الربانيين ، وافتتح رسميا فى ١١ أبريل سنة ١٩١١ ، وكان يعمل تحت نفس الشعارات التى أعلنها محفل ابن ميمون عند تأسيسه

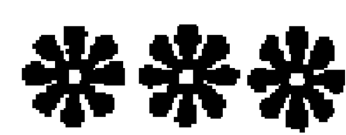
وكان أول من تولى رئاسة هذا المحفل أيلى باروخ . وبلغ عدد أعضائه العاملين فى بداية الامر ٢٧ عضوا، وازداد الى ٥٦ عضوا فى عام ١٩١٣ ، ثم ١١٦ عام ١٩١٧ ، ثم ١٢٠ عضوا فى عام ١٩٣٨ . واذا وضعنا فى الاعتبار ان الانضمام لعضوية هذا المحفل تتم بعد اختبار دقيق ، ووفق شروط عديدة مشددة ، منها الايمان الشديد بالمبادىء الصهيونية ، لاتضح لنا أهمية هذا العدد من

الاعضاء ، في ذلك الوقت

والواقع أن هذا المحفل كان من أخطر المحافل اليهودية تزمتا وكان يولى اهتماما بالغا للمسائل العقائدية والدينية الجامدة . وكانت له وقفة متشـــــــددة من المدارس التبشيرية المسيحية . فقد اشاع في أوساط اليهود ضرورة ابعاد اولادهم عن هذه المدارس ، والحاقهم بمـــدارس اسرائيلية ، « تقوى في نفوسهم الايمان بالدين الاسرائيلى » ومن اجل ذلك نظم حملة واسعة هدفها جمع التبرعات لانشاء مدرسة يهودية في حى العباسية . عرفت باســم « مدرسة السبيل » . وقد بلغت قيمة التبرعات حــوالى أربعين ألف جنيه • وتولى التدريس فيها عدد من خريجى مدرسة المعلمين الاسرائيلية الشرقية ببـــــاريس وكانت الدراسة باللغة الفرنسية اساسا الى جانب اللغة العربية

على أنه بمرور الزمن صار محفل القاهرة ـ بنى بريت ـ واحدا من العمد الرئيسية التى قامت عليها حيـــاة الطائفة الاسرائيلية فى مصر ، نظرا لطبيعة تكوينه واهدافه الصهيونية

والى جانب محافل القاهرة والاسكندرية ،تأســست بعض المحافل فى المحافظات كمحفل ماجن ديفيد بالمنصورة ومحفل أوهيل موشى بطنطا ، ومحفل اسرائيل ببورسعيد



ولقد كان من الطبيعى الى جانب تاسيس المحافل التى ترعى شئونهم العامة أن يقيم اليهود عديدا من المعــابد لكى يؤدوا فيها طقوسهم . ومنذ بداية القرن العشرين انتشرت المعابد اليهودية في مصر والاسكندرية . وقــد ساعد على اقامتها التبرعات الكثيرة ، والاراضى التى كانت تمنحها لهم الحكومة المصرية فى أغلب الاحيان مجانا لاقامتها

ففي مدينه القاهرة ، بلغ عدد المعابد اليهودية خلال النصف الاول من القرن العشرين حوالى ٢٩ معبدا . أهمها « معبد الاسماعيلية الكبير » « شعار هاشاميم » الذى قام بوضع حجر اساسه عام ١٩٠٥ فيتا بك موصيرى في وسط القاهرة ، بشارع عدلى . وقد تكلف هذا المعبد مبالغ هائلة ، ساهم فيها العنصر السفاردى بمبلغ كبير . ويعتبر بنقوشه وتصميمه من أروع المعابد اليهودية وأجملها فى مصر

ومن أكبر المعابد أيضا ، المعبد الاشكنازى فى شارع المنسي ، بحى الظاهر بالقاهرة ، والذى افتتح فى ١٩ مايو سنة ١٩١٢ . وكانت السيدة ربيكا ساسون قد تبرعت لبنائه بألف جنيه

* ومعبد بن عزرا ، بحي مصر القديمة .. ويعتبر من أقدم المعابد اليهودية فى القاهرة ، ومن أكبرها أيضا

* ومعبد اسهايم . الذى أسسه باروخ حنان ، فى حى غمرة عام ١٩٠٠

* ومعبد باعاد اسحق الذى أسسه زكى كرايم فى غمرة ايضا عام ١٩٢٥

* كذلك بنيت المعابد الاتية وهى :

معبد فيتالى حجار بمصر الجديدة ، ومعبد حلوان ، ومعبد راب اسماعيل ، ومعبد راب يعقوب ، ومعبد الاستاذ ، ومعبد ابن ميمون ، ومعبد تركيا ، ومعبد تلمود تواره ، والمعبد البرتغالى ، ومعبد راث حاين كابوسى ومعبد المعادى وغيرها



أما فى الاسكندرية التى كانت تتركز بها عائلات يهودية رأسمالية عديدة فقد أقيم بها عشرون معبدا منها :

* معبد الياهو حنابى الذى يعد من أقدم معابدالمدينة ، والذى أعيد بناؤه عام ١٨٥٠ بعد ان كان نابليون بونابرت قد هدمه اثناء الحملة الفرنسية على مصر

* ومعبد عزوز الذى يرجع تاريخه الى قرون طويلة، وقد أعيد بناؤه بعد سقوطه عام ١٨٥٣

* ومعبد زراديل الذى ظل قائما منذ عام ١٣٩١ بعد أن أنشأته عائلة زراديل فى الاسكندرية حتى آلت جدرانه للسقوط عام ١٨٨٠ فأعيد بناؤه من جديد

* ومعبد منشة الذى أنشأه البارون يعقوب منشه

* ومعبد جرين الذى أقامه أبراهام جرين

* ومعبد يعقوب ساسون الذى دعا الى بنائه جاكوب ساسون وأقيم عام ١٩١٠ فى حى جليمونوبلو

* ومعبد كاسترو الذى اوصى موسى كاسترو بمبلغ أربعة الاف جنيه لبنائه فاقيم عام ١٩٢٠ بحى محرم بك

* ومعبد شعار تافيلا بحى كامب شيزار الذى افتتح عام ١٩٢٢

* ومعبد كورفيوث ، ومعبد أبى قير ، ومعبد جعسار ، ومعبد نساح اسرائيل

***

وانتشرت معابد اليهود فى مختلف المدن التى كان يقطن فيها ابناء الطائفة :

* معبد سيروس بمدينة دمنهور
* معبد كفر الزيات ، بمدينة كفر الزيات

* ثلاثة معابد بمدينة طنطا أقدمها ما يعرف « بكنيس المغاربة » ، اما الاخران فأقام احدهما بخور موتون عام

١٩٠٨ واقامت الثانى لونا بوتون عام ١٩٢٤

* معبد بمدينة الزقازيق اقامه هارون جبـــاى فى العشرينات

* معبدان بمدينة المنصورة اقام احدهمـــا ابراهيم حسان قبيل بداية القرن العشرين ، واقام الثـــانى مخلوف كوهين عام ١٩٠٨

* معبد سوكات شالوم بمدينة بورسعيد ، وهو معبد قديم لا يعرف تاريخ بنائه . وتضم بورسعيد معبـــدا احدث منه اقامته عائلة بينان

* معبد بمدينة المحلة الكبرى يعرف باسم « كنيس الاستاذ »

* معبد بمدينة ميت غمر اقامه كليمان باردو

***

ومنذ بداية الامر ، عنى اليهــود بتعـــليم النشء ... فأقاموا العديد من المدارس لأبناء الطائفة كـــــان اولها المدرسة التى انشأها « محفل ابن ميمـــــون » فى درب البرابرة كما ذكرنا ، والمدارس التى انشأتهـــا المحـــافل الاخرى

وبالاضافة الى ذلك تاتى المدارس التى انشأتها رئاسة الطائفةالاسرائيلية فىمصر . وهىالمدارسالتىكانتتديرها لجنة خاصة تسمى « لجنة المدارس » ، شكلت من ١٢ عضوا . اما مصدر تمويلها فهو الاعانات التى يحددها مجلس الطائفة الاسرائيلية وهذه تقدر بحوالى ٥٠٪ من حصيلة الضريبة الشخصية المعروفة باسم « اريخا »والتى كانت تفرض على اليهود القادرين ، وكذلك ٥٠٪ مـــن الناتج الصافى لدخول المعابد ، وحصـــــيلة التبرعـــات والاكتتابات الاختيارية

والى جانب مدارس الطائفة كانت توجد عدة مدارس خاصة من أهمها مدارس « جمعية نقطة اللبن » التى انشأها ايزاك بناريو وزوجته . وكانت هذه الجمعية قد بدأت بفكرة تقديم وجبة افطار لطلبة المدارس الاسرائيلية الفقراء ، ثم تطورت بحيث لم تعد تقتصر على تقديم الافطار وانما امتدت الى تقديم المعونات المالية والغذائية لفقراء التلاميذ ، واعالة وتبنى التلاميذ اليتامى

وفى عام ١٩١٨ فكر ايزاك بناريو وزوجته فى دعم موقف الجمعية ، فتبرعا بمبلغ خمسة الاف جنيه ، واستطاعا ان يجمعا حوالى تسعة آلاف جنيه أخرى . وعلى أثر ذلك بدآ فى تشييد مقر للجمعية ما زال قائما حتى كتابة هذه السطور بالقرب من ميدان طلعت حرب فى القاهرة

فى هذا المقر اقيمت مدرسة كانت تضم حوالى ٨٠٠ طفل من اليتامى والفقراء كما أقيمت مدرسة فى عام ١٩٢٦ للتدريب المهنى للفتيات الفقيرات

وفضلا عن مدارس « جمعية نقطة اللبن » انشأ الاخوة جاك ورالف واستر جرين عام ١٩٢٤ مدرسة باسم « مدرسة جرين » بحارة اليهود . وقد تولى ادارتها لمدة طويلة « سعد مالكى » الذى كان واحدا من رجال الصحافة اليهودية التى تصدر بالعربية وبلغ تلاميذ هذه المدرسة حوالى ٤٠٠ تلميذ

كما اسست مدام « راشيل يعبيس » فى عام ١٩٣٤ مدرسة بحى عابدين أخذت تنمو وتتسع حتى صار عدد تلاميذها بعد أربع سنوات من انشائها ٣٥٠ تلميذا من أبناء اليهود ، وكانت تعدهم لنيل شهادة اتمام الدراسة الابتدائية

وأسس « فيلكس سماما » عام ١٩٣٦ مدرسة « ليسيه السكاكيني » ، وكانت تضم ١٥٠ تلميـــذا في المرحــلة الابتدائية . كما كانت تضم قسما لدراسة الاختزال والالة الكاتبة وقسما ثالثا للدراسات التجارية وادارة الاعمال

وفي مصر الجديدة تأسست في عام ١٩٢٣ مدرســـة ابراهام بيتش ، التي كان يبلغ عدد تلاميذها حوالي ٦٠٠ يدرسون في القسمين الابتدائي والثانوي . وكان تلاميذها من مختلف جنسيات اليهود ، المصريين والايطاليـــين ، والفرنسيين واليونانيين ، والانجليز ، والاتراك ، والاسبان

كما اقيمت في حارة اليهود بالقاهرة مدرسة للحضانة

وقد كان « محفل بني بريت » يساند هذا النشـــاط التعليمي ويتولى امداد المدارس الخاصة بالمعونات الماليـة والفنية ، ويقدم العون للتلاميذ المحتاجين

فقد أسس المحفل في عام ١٩٣٤ الجماعة الاسرائيلية لمساعدة المدارس المعروفة باسم « ليمود » والتي كـانت تساعد الاطفال الاسرائيليين الفقراء وتأخذ بيدهم لمواصلة الدراسة بدفع المصاريف لهم وشراء الكتب ، والاشراف عليهم وتوجيههم في دراساتهم ، كما كانت تقدم المنح الدراسية للمتفوقين منهم لكي يستكملوا دراساتهم في الخارج

ومن أهم ما حققته « جماعة ليمود » هو سعيها الدائب لتأسيس مدارس جـــديدة لاستيعاب الزيادة المطـــردة في عدد الطلبة والطالبات اليهود

والى جانب المدارس، قامت في القاهرة مراكز للتدريب المهني ساهم في تأسيسها كبار الاثرياء اليهـــود في القاهـــرة والاسكندرية ، وفي بعض عواصم الاقاليم ، وذلك لتدريب العمال اليهود على الحرف الدقيقة ، وخلق المهارات الفنية بينهم

ومن أهم مراكز التدريب هذه ، المركـــز الذى أوصى سالمون شيكوريل فى وصيته المؤرخة فى ٨ أغسطس عام ١٩١٩ بانشائه ، ورصد له مبلغ ألفى جنيه • ولقد نفذت زوجته ما جاء فى الوصية ، وقامت بانشاء مركز للتدريب المهنى يتبع محفل القاهرة • وبلغ عدد المترددين عليه فى عام ١٩٣٨ أكثر من ٦٥٠ صبيا يهوديا ، وكانوا يتدربون على الكثير من الحرف مثل الخياطة ، وصناعة الاحـذية ، وميكانيكا السيارات ، والكهرباء ، والحفر ، واصـــلاح الساعات ، والرسم ، والنحت وغيرها

ولقد كان هؤلاء الصبية يتلقون أثناء تدريبهم مكافآت شهرية . كما كانت ترصد لهم بعض المبالغ يتسلمونهاعند اتمام تدريبهم لتعاونهم على بدء حياتهم العملية

وفى مدينة الاسكندرية افتتحت جماعة الاليانس فى أكتوبر سنة ١٨٩٧ مدرستين احداهما للبنين والاخـــرى للبنات . وقد ظلت هاتان المدرستان تعملان حتى شهــر يوليو سنة ١٩١٩ عندما تأكدت الجماعة بأن الطائفة قد أصبحت قادرة على سد حاجات يهود المدينة من المدارس

ففى عام ١٨٩٢ أقام البارون ج . منشة « مدرســـة شادى يفرور للبنات » ، وعاونته فى ادارتها مدام كحلة ليفى ، والحقت بهذه المدرسة ورشة لتعليم الفتيات حياكة الملابس

وفى سنة ١٩٠٤ اقيمت مدرسة للاطفال عرفت باســم « المأوى » كان تلاميذها من ابناء فقراء الطائفةوقدبدأت برعاية ٣٢٠ طفلا وارتفع هذا العدد فى عام ١٩١١ الى ٦٠٧ اطفال

واقيمت فى عام ١٩١١ مدرسة أخرى بمعبـد زراديل بالقرب من حى اليهود هى مدرسة اتزهايم

وفى سنـة ١٩١٩ بعـد أن أغلقت جماعة الاليـانس مدرستيها ، أقيمت مدرسة بحى رأس التين كانت تسمى مدرسة « هاتيكفاه » ، أى « الامل » ، حتى تغير اسمها الى مدرسة « ديللا بيرجولا » تخليدا لذكرى حاخام الاسكندرية

ويبدأ من سنة ١٩٢٥ توالى انشاء المدارس على نطـاق واسع . فقد تشكلت لجنة برئاسة البارون الفريد منشة جمعت تبـرعات ضخمـة ، واقامت مدرسـة « ليسيه الاتحاد اليهودي للتعليم » بحى محرم بك وهي مدرسـة كانت تتبع مناهج المدارس الفرنسية الابتدائية والثانوية

ثم أقيمت مدرسـة ليسيه الرمل بكامب شيزار ، ومدرسة ليسيه محرم بك ؛ ومدرسة ليسيه اسبورتنج ، ومدرسة بيت الطفولة اليهودية

والى جانب هذه المدارس كانت توجد مدرسة الفنـون والصنائع اليهودية المجانية التى تأسست فى ٢ فبراير سنة ١٨٩٧ بغية خلق جيل من الحرفيين المهرة ، وكانت تضم اقساما للحياكة ، والميكانيكا ، والاحذية ، وتجليد الكتب ، وصياغة المعادن ، والنجارة ، والحدادة ، وصناعة الرخام ، والحفر ، واصلاح الالات الموسيقية

ولم تخل بعض المدن الاخرى من المدارس اليهودية ، ففى مدينة طنطا أقيمت منذ عام ١٩٠٥ مدرسة الاليانس الاسرائيلية العالمية ، والتى ضمت عند انشائها ٢٢٠ تلميذا

وفى مدينة المنصورة انشئت مدرسة « تلمود توراه » ، وفى بور سعيد مدرسة « زيكرون موشى »

***

كما امتد نشاط اليهود الى مجال الثقافة والفن

ففى عام ١٩٢٥ أسس عدد من المثقفين اليهود جمعيـة

عرفت باسم « جمعيـــة مصر للدراســـات التاريخية اليهودية » . وقد كان الفرض منها دراسة العلوم المتصلة بتاريخ اليهود فى الشرق وعلى الاخص دراسة تاريخ واداب اليهود فى مصر

ولقد ضمت هذه الجمعية عددا من المشتركين من كبار اليهود ، كانوا يمدونها بالاموال اللازمة لمباشرة مهمتها فى اجراء البحوث والدراسات ونشرها . وكان على راس هذه الجمعية الحاخام حايم ناحوم افندى الذى كان رئيسا شرفيا لها ، بينما كان رئيسها الفعلى يوسف قطاوى باشا

ودب النشاط فى اوصال هذه الجمعية بمجرد انشائها ؛ فأصدرت الكثير من النشرات ، وكان أعضاؤها يلقون المحاضرات التاريخية فى صالة « حلقة الشبيبة اليهودية الاسبانية » بالقاهرة ، كما شكلت لجنة من المستعربين برئاسة الحاخام حايم ناحوم افندى لدراسة ٤٥٠ مخطوطا ، كان قد جمعها يوسف قطاوى باشا من مختلف المعابد ، وخصوصا من « معبد بن عزرا » بمصر القديمة

وكان ضمن نشاط هذه الجمعية ، تنظيم سلسلة من الاحتفالات فى شهر أبريل سنة ١٩٣٥ بمناسبة مرور ثمانية قرون على ميلاد المفكر اليهودى موسى بن ميمون ، وأصدرت كتابا ضم عدة بحوث عن تاريخه وأفكاره

وكان من أعضاء الجمعية البارزين الدكتور الفريد يلوز الذى كان يعمل مديرا لادارة الترجمة بوزارة الزراعة فى مصر والذى تلقى تعليمه فى مدرسة الحقوق المصرية ثم حصل على الدكتوراه فى الادب من جامعة بروكسل عام ١٩٢٧ . وكان الى جانب عمله الحكومى يتولى الكتابة فى جريدة « البورص اجيبسيان » ثم أصبح سكرتيرا عاما للجمعية فى عام ١٩٣٦ . والدكتور الفريد يلوز ترجم الى

العربيـــة كتاب الدكتور هرتز حاخام انجلتـــرا الاكبر بعنوان « فى الفكر اليهودى »

كما كان أيضا من أعضاء الجمعية جاك هويفلر والاستاذ مراد فرج المحامى الذى وضع كتابا باللغة العربيـــة عن الشعراء اليهود العرب كتب له مقدمته الدكتور اسماعيل أدهم • وقدم فيه دراسة لغوية نقدية للشاعر السموءل • والدكتور اسرائيل ولفنسون أستاذ اللغات السامية بكلية دار العلوم والذى كان ينشر مؤلفاته العربية تحت اسم « ابو ذؤيب » ومنها كتابه عن « موسى بن ميمون » الذى صدر عام ١٩٣٦ • وكتب مقدمته الشـــيخ مصطفى عبد الرازق باشـــا أستاذ الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية فى ذلك الحين



وفى عام ١٩١٢ اسس بعض الفنانين اليهود جمـاعة عرفت باسم « الجماعة الفنية اليهودية » بالقـــاهرة • برئاسة جوزيف وينشتين المحامى ، الذى كان عضـــوا فى مجلس الطائفة الاشكنازية ، وأحد الاعضاء البـارزين فى « محفل بنى بريت » . وقد نمت هذه الجماعة وتطورت انشطتها ، واقامت المعارض للفنانين اليهود

ومن ناحية اخرى كان مجلس الطائفة بالقاهرة ينظم دروسا مجانية فى صالة المكتبة بمعبد الاسماعيلية وفى حى الظاهر للتلاميذ اليهود الذين يدرسون فى المدارس غير اليهودية لتلقينهم اللغة العبرية والتاريخ اليهودى •• وقد شهدت هذه الصالة سلسلة طويلة من المحاضرات القاها ليون باسان الذى كان مندوبا فى مصر للوكالة اليهودية لشئون الهجرة ، وعضو مجلس المدارس الاسرائيلية ،وأحد رؤساء محفل القاهرة بنى بريت • وهى محاضرات تتناول

الدور الذى لعبه اليهود عبر التاريخ ، محبـــــذا للافكار الصهيونية ومروجا لمبادئها

وفى مجال الخدمات الاجتماعية لابناء الطائفة انتشرت الجمعيات التى هيمن عليها كبار الراسماليين اليهـــود ومدوها بالعون المادى والادبى بحيث أصبحت فى أغلبهـــا مراكز لنشر الدعوة الصهيونية ، ولخلق جيل من اليهود المؤمنين بقضية الوطن القومى لليهود

وقد عرفت القاهرة من هذهالجمعيات :

* جمعية بخور حوليـــم التى تاسست عام ١٩٠٩ لتقديم الرعاية الطبية للمرضى اليهود المحتاجين

* الاتحاد الاسرائيلى بهليوبوليس . وقد اقيم عام ١٩٢٢ لخدمة اليهود المقيمين بضاحية مصر الجديدة

* اتحاد الشبيبة اليهودية فى مصر (١٩٣٥) ، وكان يرأس مجلس ادارته الدكتور الفريد يللوز

* جمعية ماتان باسيتر ، والجمعية الاسرائيليةلحماية الفتيات اليهوديات ، وقد تأسستا عام ١٩٣٣ من أجل تقديم التسهيلات المادية والمعنوية لتـزويج الفتيـات اليهوديات الفقيرات وتدبير المهور (الدوطات) لهن

* مركز توزيع الادوية على الفقراء (١٩٤٢) وكانت تشرف عليه مدام فيكتور هرارى باشا وهو يقع بشـــارع الصقالبة بحارة اليهود

* ملجأ ابن ميمون للعجزة (١٩٣٤)

كما شهدت الاسكندرية العديد من هذه الجمعيـات ومنها :

* الجمعية الخيرية الاسرائيلية بالاسكندرية (١٨٨٥)

* المبرة الاسرائيلية للمساعدات المدرسية للغــذاء والكساء (تأسست عام ١٨٩٤) وكانت تقدم وجبــات الغــذاء لألفين ومائتي تلميذ في مدارس الطائفة بالمدينة كما كانت تعمل على نشر اللغة العبرية

* جمعية بخور حوليم ، وهى فرع لجمعية القاهرة وتأسست كذلك عام ١٩٠٩

* مبرة حساء المرضى الاسرائيلية (١٩١١) وكانت توزع اللبن والغذاء على المرضى اليهود

* جمعية سيداكا باسيتر (١٩١٣) لمعاونة الفقراء وتوزيع المساعدات سرا على العائلات المحتاجة

* جمعية الامومة الاسرائيلية (١٩١٤) لمســاعدة الامهات اليهوديات الفقيرات على الوضع

* جمعية نقطة اللبن (١٩١٧) لتقديم وجبة الافطار لتلاميذ مدارس الطائفة

* الجمعية الخيرية لليهود الاشكنازى (١٩٣٠)

* ملجأ المعجزة (١٩٣٠) وقد أقيم بشارع محرم بك

***

كما أبدى زعماء الطائفة الاسرائيلية اهتماما واضــحا بالرياضة البدنية ، من أجل خلق أجيال من الشبيبــة الرياضيةالاصحاء . فمنذ عام ١٩١٠ تشكلت فيالاسكندرية جمعية « المكابى الرياضية » ، التى تحولت بعــد عدة سنوات الى « الاتحاد اليهودى الرياضى والادبى المكابى »

وفى القاهرة ساهم عدد من كبار الرأسماليين فى انشاء نادى المكابى ، ومن بينهم سلفاتور شيــكوريل بك الذى تولى رئاسته لعدة سنوات أعقبه بعــدها من ١٩٣٠ ـ

١٩٣٤ ايزاك اميل الذى تربع على عرش بطولة الملاكمة فى مصر لبضع سنوات ، وكان واحداً من أشد الصهيونيين حماسا

ولم يكن هدف نادى المكابى ، منذ تأسيسه ، مجرد الاهتمام بالرياضة فحسب ، وانما أعلن أن برنامجه هو « ايقاظ الوعى القومى اليهودى ، وتنمية الروح المعنوية ، وتقوية ابدان الشبيبة وخلق احساس التضامن فى نفوسهم »

وقد ساهم نادى المكابى بالاسكندرية مساهمة فعالة فى استقبال المهاجرين اليهود الذين وفدوا على المدينة عام ١٩١٤ . فنظم لجنة من أعضائه الشبان لاستقبال المهاجرين على البواخر فور وصولها والترحيب بهم وتوصيلهم الى محال اقامتهم ، وتوفير الراحة لهم . واستغل القائمون على أمر النادى هذه الفرصة ليعمقوا فى نفوس الاعضاء الشبان الايمان بفلسطين كوطن قومى لليهود ، وليشجعوهم على دراسة اللغة العبرية

وانشا نادى المكابى فى كل من القاهرة والاسكندرية ، جماعة للكشافة ، كان أفرادها يشتركون فى حملات جمع التبرعات من أجل « الكيرين كايميت »

الصحافة .. وحرية الرأى

كان اليهود فى مصر يتمتعون بحرية كاملة فى التعبير، وكانت لهم صحفهم ومجلاتهم الخاصة .. التى بدأوا يصدرونها منذ نهاية القرن التاسع عشر

ويرجع تاريخ الصحافة الصهيونية فى مصر الى عام ١٩١٧، ففى ذلك العام اسست الجالية اليهودية أول جريدة لها باللغة الفرنسية ، لتكون منبرا للتعبير عن أفكارها ومصالحها وهى جريدة « النهضة اليهودية » . والتى استمرت فى الظهور مدة ثلاث سنوات اختفت بعدها لتحل محلها « المجلة الصهيونية » التى كان يشرف عليها ويديرها فى بداية الامر المحامى الصهيونى « ليون كاسترو » ، ثم أدارها من بعده جاك موصيرى

ولقد ظلت « المجلة الصهيونية » تصدر اكثر من خمس سنوات . وفى هذه الفترة ظهرت مجلتان يهوديتان اسبوعيتان ، انتشرتا انتشارا واسعا بين أبناء الطائفة :

أولاهما : « مجلة اسرائيل » التى أصدرها الدكتور البير موصيرى عام ١٩٢٠ بثلاث طبعات هى العبرية والفرنسية والعربية

ولم تستمر الطبعة العبرية لهذه المجلة وقتا طويلا اذ توقفت لعدم الاقبال عليها ، نظرا لقلة الذين يجيدون اللغة العبرية من يهود مصر . أما الطبعة العربية للمجلة

فقد استمرت اكثر من اربعة عشر عاما

وعمرت الطبعة الفرنسية طويلا وظلت تلقى انتشارا واسعا فى الاوساط اليهودية ، وبعد وفاة مؤسسها الدكتور البير موصيرى ، واصلت ارملته اصدارها من بعده ، عدة سنوات

وثانيهما : « مجلة الفجر » التى كان قد اسسها لوسيان سكيوتو فى استامبول بتركيا منذ عام ١٩٠٨ . وظلت تصدر هناك حتى توقفت بعد الحرب العالمية الاولى فى عام ١٩١٩ . وعندما هاجر سكيوتو الى مصر فى عام ١٩٢١ أعاد اصدار المجلة فى القاهرة عام ١٩٢٤ وتولى رئاسة تحريرها وادارتها حتى عام ١٩٣١ ، الى أن عين استاذا بالمدارس الثانوية الحكومية فتنازل عن ادارة المجلة الى جاك مالح زميله القديم

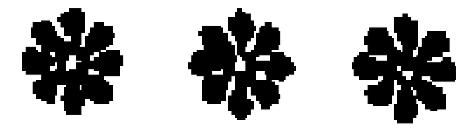
ولقد صادفت هذه المجلة عدة عقبات مالية بعد ذلك وكادت تتوقف عن الصدور ، لولا ان اهتم بها اعضاء « محفل بنى بريت » وشكلوا لجنة برياسة سيمون مانى لدعمها .. ماديا وأدبيا

وخلال الحرب العالمية الثانية ، عندما تأسست فى مصر « العصبة المضادة لاعداء السامية » ، وهى العصبة التى تولى رفاييل صقال امانتها العامة ، اتخذت من مجلة « الفجر » لسانا لحالها ، وأخذت تروج على صفحاتها لمبادىء الحركة الصهيونية ، وتهاجم أعداء السامية

وكان من ابرز كتاب هذه المجلة المحامى اليهودى سالموني يارهى ، الذى كتب عدة دراسات قانونية هامة عن وضع اليهود فى العالم ..

وفى عام ١٩٣٥ ظهرت مجلة اسبوعية بعنوان « كاديما » وكان توزيعها يتراوح بين ثلاثة الاف واربعة الاف نسخة .

غير انه لم يكتب لها البقاء سوى عامين ، اذ توقفت من الصدور فى اغسطس عام ١٩٣٧ ، نتيجة لخسائرها المالية



وفى مدينة الاسكندرية اصدرت الطائفة منذ عام ١٩٠١ اول جريدة لها باللغة الفرنسيه هى «الرسول الصهيونى» التى تعدل اسمها بعد ذلك الى « مباسرت زيون » وكانت هذه الجريدة متأثرة الى حد بعيد بمبادىء الحركة الصهيونية

كما ظهرت فى عام ١٩١٢ « مجلة مصر الاسرائيلية » باللغة الفرنسية وكانت تصدرها « جماعة انصار الثقافة العبرية » . وقد ظلت هذه المجلة التى كان يتولى رئاسة تحريرها « أوجو فرفارا » تصدر بانتظام حتى عام ١٩١٨

وفى عام ١٩٣١ أصدر البيرستراسلسكى رئيس فرع حزب التصحيحيين فى مصر وأحد غلاة الصهيونيين جريدة « الصوت اليهودى » بالفرنسية وكان يقوم بتمويل هذه الجريدة عدد من كبار الرأسماليين اليهود فى الاسكندرية كما كانت تحظى بتشجيع ودعم حاخام الاسكندرية « دافيد براتو »

وفى عام ١٩٣٤ ، أصدر الصحفى اليهودى سعد مالكى مجلة « الشمس » باللغة العربية . وكان لهذه المجلة الأسبوعية اتجاهاتها الصهيونية البارزة

وبعد ذلك بعامين اى فى عام ١٩٣٦ ، أصدر جاك رابان جريدة « المنبر اليهودى » .. وهى الجريدة التى كانت بالفعل منبراً للحركة الصهيونية . وجاك رابان الذى يقيم الآن فى اسرائيل ويعمل فى صحافتها الناطقة باللغة الفرنسية كان من اشد المتحمسين للحركة

الصهيونية ومن المساهمين فى الجمعيات والمنظمات الصهيونية . وقد تعاون فى ذلك مع البير ستراسلسكى كما ساهم بالكتابة فى مجلتى « الفجر » و « اسرائيل » بالاضافة الى انه كان يشترك فى تحرير الجرائد المصرية التى تصدر باللغة الفرنسية كجريدة «البورص اجبسيان» و « جريدة الاحد » و « الفنارة المصرية » و « الوطن » وغيرها . كما كان من مؤسسى « رابطة الصحفيين » فى مصر والسكرتير العام لها

والواقع ان جريدة « المنبر اليهودى » كانت أخطر الجرائد الصهيونية وأعمقها أثرا على يهود مصر . وقد لعبت دورا فعالا فى بث الدعوة الصهيونية بين ابناء الطائفة ، خاصة فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، أى فى مرحلة الاستعداد للانقضاض الكامل على أرض فلسطين واستلابها من أصحابها .. وامتلأت صفحات الجريدة بالدعوة السافرة الى اقامة الوطن القومى اليهودى ، وتجميع كافة القوى والامكانيات من أجل بلوغ الاهداف الصيونية

فتحت عنوان « حل » نشرت فى عددها الصادر فى ١٢ ابريل سنة ١٩٤٢ مقالا « لجاك هويفلر » عضو جمعية مصر للدراسات اليهودية التاريخية « أيد فيه موقف ليون كاسترو رئيس المنظمة الصهيونية بمصر عندما نادى بوجوب تطبيق قرار الاعارة والتاجير Lend-Lease على الشعب اليهودى فى فلسطين ، وهو القرار الذى اصدره الكونجرس الامريكى عام ١٩٤١ وخول بمقتضاه للرئيس الامريكى حق تقديم الاسلحة والمعونات للبلاد التى يرى أن الدفاع عنها يعد أمرا حيويا للولايات المتحدة

وقال هويفلر ان تطبيق هذا القرار اصبح ضرورة واجبة

بالنسبة للشعب اليهودى كى يعيد بناء فلسطين على نحو سريع ونهائى

واضاف ان مشكلة اليهود ، هى انهم ظلوا دائما وفى كل مكان فى العالم اقلية . ومن هنا برزت مآسـاتهم . فوضعهم باعتبارهم اقلية هو الذى يسمح بانتشار ذلك الوباء العنيف من الحقد والهياج والجنون المدمر ضدهم

وفى عدد ١١ اكتوبر سنة ١٩٤٤ كتب جاكوب بن‌زيفى يقول : « ان اليهود ، كل اليهود ، يهتمون الى اقصى مدى بتطور الشرق ، مهد اجدادهم .. وأمل مستقبلهم !! »

وفى نفس العدد كتب (بلعم Balaam) يقول :

« منذ ايام القى المستر هيثكوت سميث الذى يعمل فى هيئة الاغاثة التابعة للامم المتحدة كلمة فى مائة وخمسين من اللاجئين اليهود فى ايطاليا ، طالبهم فيها بالتجنس بالجنسية الايطالية ، واعلن استعداد الحكومة الايطالية تيسير ذلك لهم . وفى محاولة لاقناعهم اخرج منديلا من جيبه وقال : « اتريدون الذهاب الى فلسطين ؟ . لاتفكروا فى ذلك ابدا .. ان فلسطين لاتتسع لكم ، انها ليست اكبر من هذا » .. واشار الى المنديل الذى فى يده

ولا أدرى لماذا ذكرتنى هذه الحادثة بحادثة أخرى ترجع الى ربع قرن مضى .. عام ١٩١٧ ، وعد بلفور . فقد عمت الفرحة يهود الاسكندرية بصدوره ، وخرجت جماهيرهم متجهة الى القنصلية البريطانية ، ومن شرفة القنصلية ظهر رجل استقبل بعاصفة من التصفيق . ثم بدأ يتكلم ، وكنت أنا فى ذلك الوقت صغيرا ولم أفهم ما قاله ، واستطعت فقط ان التقط جملته الاخيرة لانه قالها باللغة العبرية .. نعم اللغة العبرية .. قال : « أرض اسرائيل لشعب اسرائيل »

« لقد نسيت ان أقول لكم ، ان هذه الجملة العبرية قالها المستر هيثكوت سميت نفسه عندما كان قنصلا عاما لبريطانيا في مصر »

وعندما بعث فؤاد أباظة (باشا) بوصفه رئيسا للاتحاد العربي بالقاهرة رسالة الى المستر كورديل هال يعترض فيها على اقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين ، وفي نفس الوقت يعرب عن عطفه على اليهود واستنكاره للاضطهاد المقيت الذى يقعون ضحيته في أوربا . كتبت جريدة « المنبر اليهودي » في عددها الصادر في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤٣ تحت عنوان « الشفقة لا تكفي » تقول :

« ان اليهود اذ يدركون هذه الروح الودية ، انما يصرون على وجوب وضع حل نهائي وفعال بالنسبة لموضوعهم »

وبعد ان قام المحامي فيلكس بنزاقين عضو المنظمة الصهيونية الجديدة بزيارة القدس عام ١٩٤٢ ، كتب في عدد « المنبر اليهودي » الصادر في ٢٥ مارس سنة ١٩٤٢ يقول :

« صعدت هذا الصباح الى جبل « المكبر » الذى يشرف على المدينة المقدسة .. ان جبل المكبر هو المأوى المتأجج الذى تتشكل فيه من جديد روح اسرائيل الخالصة ..

« وفي هذا الصباح كذلك شاهدت هذا البناء العظيم المسمى بالجامعة العبرية ، فدوى قلبي طربا . ولو انكم كنتم هنا لانهمرت دموعكم فرحا ، ولاستطعتم ـ كما استطعت أنا ـ ان تنسوا ما عانيناه من مذلة في القرون الماضية ، وان تنسوا ـ ولو للحظة واحدة ـ أهوال الحاضر

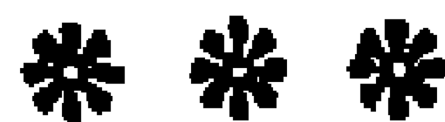
« يا يهود مصر ، ان الشعلة عالية على جبل المكبر ، وقد أضاءت روحى ، ويجب ان تضىء أرواحكم

« ان الجامعة العبرية توجه اليكم نداء عاجلا لمدها بمعونتكم . فلا تترددوا فى تقديم العون لها دون تحفظ . فانتم بهذا انما تقومون بأوجب الواجبات وأعظمها »

النشاط الاقتصادى

ومن الطبيعي والظروف مهياة ، والارض المصرية بكر ، ان يعيش اليهود حياتهم فى طمانينة ، وان يمارسوا نشاطهم فى حرية . ولقد استطاع بعضهم ان يسيطر على جوانب هامة من الاقتصاد المصرى . وان يتملك مساحات شاسعة من الاراضي ويحتكر بعض الصناعات . وساعدت هؤلاء على ذلك طبيعة تكوين المجتمع المصرى فى ذلك الحين . فلقد كان مجتمعا برجوازيا ناشئا يفتح المجال أمام التملك والسيطرة والاستغلال

ومن يبحث فى جوانب الاقتصاد المصرى خلال الفترة التاريخية التي يتناولها هذا الكتاب ، يستطيع ان يضع أصابعه على مجموعة من العائلات اليهودية ، استطاعت ان تتحكم فى توجيه الاقتصاد المصرى مثل «عائلة رولو» و «عائلة موصيرى» و «عائلة عاداه» و « عائلة هندس » و « عائلة قطاوى » و « عائلة شيكوريل »و «عائلة جاتينيو» و « عائلة جرين » و «عائلة منشة» و « عائلة مزراحى » وغيرها



فمثلا عائلة عاداه ، والتى من ابرز اعضائها ابراهام ، وفيكتور ، ويوسف . كانت من أغنى العائلات الراسمالية في الاسكندرية .وكانت لها مؤسسة اقتصادية تملكها

بالاضافة الى ان افرادها كانوا من كبار المساهمين واعضاء مجالس الادارة فى عدة شركات صناعية وتجارية

ومثل آخر هو **أسرة قطاوى**

وهى التى تولى أحد أفرادها يوسف قطاوى باشا وزارة المالية المصرية فى عام ١٩٢٤ وكان ابنه اصلان قطاوى بك الذى ولد فى الاسكندرية عام ١٨٩٠ ، يعمل سكرتيرا عاما لمصلحة الاملاك الاميرية التابعة لوزارة المالية ، ومندوبا عن الحكومة المصرية فى شركة قنال السويس ، ومندوبا للحكومة فى البنك الاهلى المصرى .. فضلا عن انه كان يشغل عضوية مجالس ادارة العديد من الشركات المساهمة ، هذا الى أنه كان عضوا بمجلس الشيوخ

وبالاضافة الى ذلك تولى رئاسة « لجنة مدارس الطائفة الاسرائيلية » فى مصر ، وكان نائبا للجمعية الخيرية الاسرائيلية ، وعضوا فى المحافل اليهودية وغيرها من المؤسسات الدينية اليهودية

وتولى ابنه الثانى رينيه قطاوى بك عدة مناصب فى الشركات ، وكان عضوا فى مجلس النواب من دائرة كوم امبو ، وعضوا بالجمعية الزراعية الملكية ، وعضوا بمجلس الطائفة وبلجنة مدارس الطائفة . كما كان من مؤسسى جمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية

ومثال ثالث ، هو **عائلة موصيرى**

كانت هذه العائلة تملك بنكا عرف باسمها هو « بنك موصيرى » . وكان جوزيف موصيرى وهو من أنشط أفرادها مديرا لهذا البنك . كما أسس شركة للسينما فى عام ١٩١٥ سماها « جوزى فيلم » أقامت وأدارت دور السينما الآتية :

فى القاهرة : سينما كليبر ، ماجيستك ، متروبول ، الاهلى ، البسفور

فى الاسكندرية : سينما ايزيس ، محمد على ، الامباسادور

فى السويس : سينما شانتكلير

فى بور سعيد : سينما باتيه

ومنذ عام ۱۹۲۹ بدات « جوزى فيلم » تحتكر استيراد الافلام الخام وبيعها ، وكذلك طبع الترجمة على الافلام الاجنبية التى كانت تستوردها . ثم توسعت الشركة بعد ذلك واقامت ستوديو للانتاج السينمائى

ومن افراد هذه العائلة فليكس موصيرى الذى كان يملك مع عائلة كوريل جزءا كبيرا من شركة المحاريث والهندسة

كذلك من أفرادها موريس موصيرى ، الذى تولى عضوية عدد كبير من الشركات

ومثل رابع هو عائلة شيكوريل

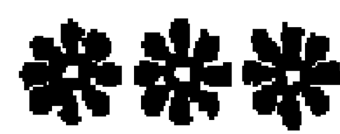
وعميد هذه العائلة هو دافيد شيكوريل الذى ولد فى تركيا ، وجاء الى الاسكندرية منذ عام ۱۹۱۰ . وقد بدأ نشاطه الاقتصادى الفعلى بعد خمس سنوات من وصوله مصر ، فاقام عام ۱۹۱٥ مؤسسة خاصة بتصدير القطن وتسويقه الداخلى

ثم اصبح عضوا فى بورصة البضائع وبورصة مينا البصل ، وعضو مجلس ادارة جمعية المصدرين ، وكان لفترة ما رئيسا شرفيا لاتحاد اليهود الشرقيين بالاسكندرية

ومن أفراد العائلة سلفاتور شيكوريل ، الذى ولد فى القاهرة عام ١٨٩٤ ، وبعد أن حصل على شهادة عليا فى الدراسات التجارية عام ۱۹۱۲ ، عمل بمؤسسة شيكوريل

رئيسا لمجلس ادارتها ، وأصبح فى عام ١٩٢٥ عضوا بمجلس الغرفة التجارية المصرية وحصل على رتبة البكوية عام ١٩٣٧.

كما كان أيضا عضوا ضمن البعثة الاقتصادية المصرية التي سافرت الى السودان ، والتى كان من أعضائها رشوان محفوظ باشا ، عضو حزب الاحرارالدستوريين، وفؤاد اباظة باشا رئيس الجمعية الزراعية . وهذهالبعثة كان الهدف منها فتح مجالات أمام رؤوس الاموال المصرية لاستغلالها في السودان ، كما كان رئيسا لجمعية التدريب المهنى التى أوصى بانشائها سالمون شيكوريل وعضوا بمجلس الطائفة الاسرائيلية ، ومن مؤسسى جماعة أصدقاء الجامعة العبرية



والواقع ان سيطرة كبار الرأسماليين اليهود علىمختلف فروع النشاط الاقتصادى فى مصر كانت سمةمميزةللبناء الاقتصادى المصرى طوال النصف الاول من القرن العشرين

وحتى نقدم صورة صادقة وواضحة لعمق هذا النفوذ وتغلغله وانتشاره فى كافة المجالات الاقتصادية رأينا أن نعرض لواحد من أوجه نشاط الرأسمالية اليهودية ، وهو الشركات المساهمة . وآثرنا ان نختار على سبيل المثال هذا النشاط فى عام ١٩٤٢ مبينين الأرباح التى حصلت عليها تلك الشركات خلاله . ويرجع اختيارنا لعام ١٩٤٢ بالذات الى ان موجة المعاداة للسامية كانت قد بلغت ذروتها فى هذا الوقت فى أوروبا ، واخذت تجتاحها في عنف شديد ، ولاقى اليهود تحت نير الارهاب النازى كل صنوف التعذيب والاستعباد واريقت دماء الملايين منهم على مذبح التعصب العنصري المقيت بينما كان يهود مصر

يرتعون في ظل نظام متســامح بحرية تكوين الثروات واستغلال موارد البلاد الاقتصادية وتوجيهها من أجل الحصول على أقصى حد من الربح

وقبل ان نتناول هذه الشركات ، نعرض في عجـالة لمجموعة من الشخصيات اليهودية من الرأسمـاليين الذين احتلوا مراكز اقتصادية هامة وساهموا مساهمة فعالة في ميادين الصناعة والتجارة وحصلوا على ثروات ضخمة

فيكتور هراري باشا :

من مواليد القاهرة . عمل في بداية أمره موظفـا في المالية المصرية ، ثم صار مديرا للحسابات المركزية ، وبعد ذلك مديرا للخزانة ، ومندوبا عن الحـكومة المصرية في لجنة اصلاح ميزانية الاوقاف

وفضلا عن ذلك فقد تولى هراري باشا رئاسة الجمعية المصرية للدائرة السنية ، وكذلك كان رئيسـا وعضـوا لمجلس ادارة عدد من البنوك والشركات

رالف جرين :

وهو من مواليد القاهرة ومن عائلة جرين المشهورة التي كانت تمتلك مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية . وكانت هذه العائلة تتحكم في الحاصلات الزراعية وتحتكر تجارتها منذ أوائل القرن العشرين في مصر ، وحتى نهاية الثلاثينات

موريس منشه :

من عائلة منشة التي عرفت منذ أواخر القرن المـاضي بنشاطها الربوي ، وحصلت على ثروة هائلة . وقـــد سيطر أفرادها على صناعة الحرير والمنسوجات فترة طويلة من الزمن

رفاييل نحمان :

من مواليد الاسكندرية واشترك فى عضوية مجالس عدد من الشركات الصناعية وكان نائبا لرئيس حلقة الشبيبة اليهودية فى مصر

السير روبير سيمون رولو :

من مواليد القاهرة ، كان من ذوى النفوذ الاقتصادى البارزين فقد ساهم فى انشاء وادارة أكبر المؤسسات المالية والصناعية

السير روبير جاك رولو :

وهو من مواليد الاسكندرية وقد احتل عدة مناصب اقتصادية . وتولى رئاسة الطائفة الاسرائيلية بالاسكندرية لفترة طويلة من الزمن بدأت عام ١٩٣٤

جوزيف سلامة :

من مواليد مدينة زفتى احتكر تجارة القطن فى زفتى وميت غمر وانشأ بعد ذلك المصانع المتحدة للحليج والزيوت التى كان يعمل فيها اكثر من سبعمائة عامل

موريس اشكنازى :

من مواليد الاسكندرية ، برز فى تجارة المنسوجات وصناعتها

الاخوان شافرمان :

وهما دافيد ، وهارى اللذان استطاعا انشاء مؤسسة احتكرت منذ عام ١٩١٩ تجارة الادوات الكهربائية والبطاريات ومنتجات البلاستيك . ثم اقاما عام ١٩٣٠ مصانع لانتاج هذه الادوات محليا . وكانت مصانع شافرمان تضم خلال الاربعينات ثلاثمائة عامل . وكانت

منتجاتها تصدر الى بعض البلاد العربية مثل سوريا والعراق ولبنان

ايزالد ناكامولي :

من مواليد الاسكندرية . من كبار ملاك الاراضى ،من أكبر تجار الورق فى مصر ، فضلا عن انه كان عضوا بمجلس ادارة بعض الشركات

سالمون هـ . ماكبتز :

صاحب مصانع ناردين للمطاط . وكان وكيلا فى الشرقين الاوسط والاقصى لبعض مصانع الكاوتشوك فى بودابست بالاضافة الى انه كان امينا مساعدا لمحفل « ابن ميمون » كما كان عضوا بارزا فى « جمعية توزيع الخبز على الفقراء »

ادوين جعار :

من أكبر المصدرين والمستوردين للحاصلات المصرية . وهو من مواليد الاسكندرية وكان يراس جمعية التجار المصدرين بالاسكندرية ، ولجنة بذرة القطن ، ولجنة بورصة مينا البصل . بالاضافة الى انه كان نائب رئيس الطائفة الاسرائيلية بالاسكندرية ، وتولى أمانة الصندوق الدولى لحماية المرأة والفتاة لمدة ١٥ سنة

موريس جاتينيو :

من الذين ساهموا مساهمة فعلية فى الحركة الصهيونية فى مصر . احتكر تجارة الفحم وأدوات السكك الحديدية فترة من الزمن . شارك فى تأسيس العديد من المنشآت اليهودية والجمعيات الصهيونية مثل « المكابى » . وخلال الحرب العالمية الاولى كرس أمواله لخدمة المهاجرين اليهود

الفريد كوهين :

ولد في تونس ١٨٨١ ، وجاء الى القاهرة عام ١٩٠١ . وبدأ حياته مدرسا فى مدارس الاليانس الاسرائيليــة فى القاهرة لمدة سنة ، ثم اشتغل فى التجارة ، وفى وكالات البورصة . وأسس بالاشتراك مع مؤسسة بريز وشركاه وكالة لتجارة النقد ، كانت من أهم الوكالات في مصر فى العشرينات . كما أسس فى عام ١٩١٤ شركة التسليفات التجارية التى انتشرت انتشارا واسعا ، واصبح لهـــا وكالات فى لندن والسودان ، وغيرهما من المراكز التجارية الرئيسية فى العالم . ومولت عددا كبيرا من المصـــانع والمؤسسات التجـارية وعلى الاخص شركة الســـودان للتصدير والاستيراد التي تأسست عام ١٩١٩

والفريد كوهين يعتبر من قدامى رؤساء محفل بنى بريت فى الاسكندرية ومن أعضاء المنظمة الصهيونية فى مصر وكان عضوا بالاتحاد اليهودى للتدريس ، وعضوا بمجلس الطائفة فى الاسكندرية

حاييم دره :

من كبار رجال المال والصناعة . كان يمتلك مجمـوعة من مصانع النسيج والتريكو فى الاسكندرية يعمـل فيها مئات العمال . الى جانب انه كان أمينا لصندوق الغرفة التجارية بالاسكندرية ، وعضو مجلس الطائفة الاسرائيلية ، ومحفل بنى بريت ، والمجلس الحسبى

ددييه بلوم :

من رجال الاقتصاد اليهود البارزين منذ بداية القرن العشرين . عمل أولا ، مديرا لشركة التامين الاهليــة ، ثم مديرا لفرع شركة التامين على الحياة . ومســتشارا

ماليا لجريدة « الجرنال ديجيبت » كما كان رئيسا لتحرير « البورص » فى الاسكندرية ، وسكرتيرا لتحرير جريدة « الحرية » ١٩٢٥ ، وجريدة « الوطن » ١٩٢٨ . وساهم فى تحرر مجلة « ايماج » و « مصر الاقتصـــادية » و « سافوار » و « مجلتى » التى كانت تصدر فى مدينة الاسكندرية .. وفى غيرها من المجلات

كليمان شملا :

ولد بتونس عام ١٨٧٤ واقام فى مصر منذ ١٩٠٧ وعمل فى التجارة واسس مع شقيقيه دافيد وفيكتور محـلات شملا الكبرى لتجارة الملابس

ايمانويل ابيل :

من رجال الصناعة ولد فى القاهرة عام ١٩٠٢ . وبدأ حياته العملية بمنصب « المفوض المسئول » لبنك «كنتوار ليون الالمانى » من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٣٠ . ثم اسس عدة شركات صناعية ، مثل مصنع انتاج المعادن والمواد الكيماوية . وكان عضوا فى « لجنة الترفيه عن الجنـود اليهود المجندين » ، أيام الحرب العالمية الثانية

بنفنوتو كامبوس :

من مواليد الاسكندرية عام ١٨٧٣ ، ومن كبـار الراسماليين بالمدينة . كان عضوا بمجلس الطائفة . ورئيسا للجنة مدرسة الفنون والصنائع ، ومبرة نقطة اللبن ، وقاضيا بالمجلس الحسبى منذ بداية تاسيسه عام ١٩٢٥

جوزيف بوندى :

من كبار تجار الاسلحة ، اسس محـــلات بوندى التى انتشرت فى مدن مصر . شارك فى تاسيس الرابطـــة الاسرائيلية بهليوبوليس

ماكس اجيون :

ولد فى الاسكندرية عام ١٨٩١ وعمل بعد عودته من الخارج فى عام ١٩٢٢ على تأسيس عدد من الشركات التجارية . وفضلا عن ذلك فقد كان له نشاطه فى جماعة الادباء الفرنسيين وفى العديد من الجرائد الفرنسية ، التى كانت تصدر فى القاهرة

الكسندر ابتكمان :

من مواليد روسيا ، وصل الى مصر عام ١٩٢٤ . عمل منذ وصوله موزعا لافلام شركتى فستى و ى.ف.أ وفى نفس الوقت أسس مكتبا فى مصر وفلسطين وسوريا لاستغلال الافلام الالمانية . ثم توقف عن استغلال هذه الافلام وتوزيعها فى عام ١٩٣٣ بعد وصول هتلر الى الحكم فى المانيا ، وبدأ يعمل فى توزيع الافلام الفرنسية والانجليزية والامريكية

وحين عاد ابنه ايلى الى مصر ، بعد أن أرسله لدراسة الانتاج السينمائى فى ستوديوهات « بيلانكور » ، عمل فى انتاج افلام مصرية ناطقة باللغة العربية مثل « ابن الشعب » ، و « اليد السوداء » ، و «سر الدكتور ابراهيم» و « اله الغابة » ، وهذا الفيلم الاخير طبعت له نسخة عبرية فى ستوديوهات ابتكمان

سمحا امباخ :

من مواليد يافا فى فلسطين عام ١٨٩٢ ، ثم هاجر الى مصر ، ومنها ذهب الى فرنسا ليدرس فى جامعة « نانسى » وبعد عودته باشر نشاطا اقتصاديا واسعا

موريس جريبوعة :

مهندس زراعى من مواليد القاهرة ساهم فى تأسيس

عدد من الشركات الزراعية وكان عضوا في اتحاد الزراعة في مصر وعضو مجلس ادارة « النشرة الزراعية » التى يصدرها الاتحاد ..

ايزاك يعبيس :

من مواليد القاهرة في عام ١٨٧٤ واسس مع والده «بنك حايم يعبيس وولده » وبعد وفاة والده في عام ١٩٠٩ تغير اسم البنك الى « بنك ايزاك ليون واولاد ايلى يعبيس »

اوفاديا سالم :

ولد في سالونيك بتركيا عام ١٨٨٨ ، واقام في مصر منذ عام ١٩٠٣ . وقد بدأ نشاطه موظفافي البنك الانجليزى المصرى ، الذى أصبح فيما بعد « بنك باركليز » ثم ساهم في غرفة المقاصة لوكلاء النقدية . كما أسس وأدار العديد من الشركات . وكان عضوا في مجلس الطائفة الاسرائيلى بالقاهرة ومن أبرز أعضاء محفل بنى بريت

روبير شندلر :

من مواليد استامبول بتركيا عام ١٨٩٩ ، ووصل الى مصر عام ١٩١٣ . ومنذ عام ١٩٢٩ بدأ ينشىء بالتعاون مع أخيه ادوار « مؤسسة شندلر للطباعة » . التى كانت أول من ادخل طباعة الجرافيك الى مصر . وعمل لفترة قوميسيرا « للصندوق القومي اليهودى » ، فرع القاهرة

عبد الله زليخا :

من مواليد بغداد سنة ١٩١٣ درس في انجلترا ، ثم ذهب الى سوريا بعد ان اتم دراسته في عام ١٩٣٠ حيث عين وكيلا لفرع « بنك زليخا » في سوريا الذى يملكه والده . ولما وصل الى مصر عام ١٩٤٠ ، عينه والده مديرا لفرع البنك في مصر

نعود الى نشاط الراسماليين اليهـــود فى الشركات المساهمة عام ١٩٤٢ ، لنجد انهم كانوا يساهمون فى ادارة وتوجيه ١٠٣ شركة من مجموع الشركات البالغ عـــددها وقتئذ ٣٠٨ شركة • فكانوا يستحوذون على جانب ضخم وهام من رءوس اموالها ، ويديرون سياستها من اجـــل تحقيق اكبر الارباح واسرعها

وهذا بالطبع الى جانب نشاطاتهم الاقتصادية الفردية الاخرى سواء فى ميادين المضاربات المالية ، والتجارية ، وامتلاك الاراضى الزراعية والعقارات والمبانى ، أو فى مختلف فروع المهن الحرة



ففى ميدان النشاط المالى ، ساهم الرأسماليون اليهود فى انشاء وادارة وتوجيه البنوك والشركات المالية والائتمانية التى كانت تتولى عمليات الخصم والعمولة وتقديم القروض مقابل التأمينات . وبيع وشراء الاوراق المالية والسنـــدات والاتجار فى العقارات والاراضى الزراعيـــة وامتلاكهـــا واستغلالها وتمويل المشروعات الصناعية والتجارية ، كما ساهموا فى انشاء شركات التامين التى تعتبر اعمالها مكملة لاعمال البنوك

ومن هذه البنوك والشركات :

● **البنك العقـــارى المصرى** : وكان أول من فكر فى تأسيسه ثلاثة من كبار البيوت الرأسمالية اليهـــودية فى مصر ، استطاعت عن طريق ممارسة النشاط الربوى لفترة طويلة ان تحصل على ثروات ضخمة ، وهى بيوت سوارس ورولو وقطاوى . وقد اتفقت هذه البيوت مع ثـــلاثة من كبرى البنوك فى فرنســـا هى بنك الكريدى ليونيـــه ، والسوسييتيه جنرال ، وبنك الكونتوار ناسيونال دى

اسكونت .. على تأسيس البنك في مصر برأسمال قدره ٤٠ مليونا من الفرنكات ، زادت بعد ذلك الى مائتى مليون. وكانت القروض التى قدمها البنك للملاك الزراعيين المصريين من تاريخ انشائه فى أول يناير سنة ١٨٨٠ حتى اخر أكتوبر سنة ١٩١٠ تبلغ ١٤٦٥٣ قرضاً قيمتها ٥ر٥٢ مليون جنيه بتامين ٤٢٣ر١٥١ر١ فدانا . وبلغت ارباحه عام ١٩١٠ رقما ضخما ، هو ٣٣١ر٦٥٥ر١ جنيها

وفى سنة ١٩٤٢ بلغ راسمال البنك ٧١٥٠٠٠ر٧ جنيه وارباحه ٩٥٨ر٨٧١ جنيها . وكان السير روبير رولو واحدا من اهم الذين يقودون سياسته المالية ، اذ كان نائبا لرئيس مجلس ادارته

● **البنك الاهلى المصرى** : وهو أكبر البنوك المالية وارسخها ، اذ كان يتولى بمقتضى الامتياز الممنوح له فى ٢٥ يونيو ١٨٩٨ اصدار أوراق البنكنوت المستحقة الدفع لحامليها ولدى الطلب .. وهذا البنك كان يشترك فى مجلس ادارته فيكتور هرارى باشا ، والسير روبير رولو

● **البنك البلجيكى والدولى بمصر** : من اعضاء مجلس ادارته اميل نسيم عدس ، والسير روبير رولو

● **البنك التجارى المصرى** : من اعضاء مجلس ادارته جاك سوارس

● **بنك موصيرى** : ويكاد يكون مملوكا ملكية تامة لعائلتى كوريل وموصيرى . وبلغ رأسماله ٠٠٠ر١٢٠ جنيه عام ١٩٤٢ ، بينما بلغت أرباحه ٠٣٠ر١٢ جنيها . وكان يراس مجلس ادارته ايلى كوريل ، ويشترك فى المجلس موريس نسيم موصيرى كعضو منتدب ، وفيتا ابراهيم فرحات وفيليكس نسيم موصيرى

● **بنك سوارس** : وهو بدوره يقع تحت سيطرة عائلة سوارس . وقد تأسس عام ١٩٣٦ برأسمال قدره ٥٥٠٫٠٠٠ جنيه ، وحقق عام ١٩٤٢ ارباحا قدرها ٦٤٨٦ جنيهـا . وقد تولى جاك نجار رئاسة مجلس ادارته ، واشترك معه في مجلس الادارة كل من كارلو سوارس ، وفريدى ساكس ، ويوسف قطاوى

● **الشركة المصرية لتوظيف الاموال والتسليف** : كان مجلس ادارتها يضم ايزاك ايمانويل ناكامولى رئيسا ، والبير ناكامولى عضوا منتدبا ، وسلفاتور شيكوريل

● **شركة الشرق الادنى المالية** : تاسست عام ١٩٣٧ برأسمال قدره ٥٠٫٠٠٠ جنيه وبلغت ارباحها الصافية عام ١٩٤٢ ، ١٠٧٢٦ جنيهاً . ويضم مجلس ادارتها جاك يانكوفتش ، وسمحا امباخ

● **الشركة المصرية المالية** : وكان كل أعضاء مجلس ادارتها من اليهود : كليمان عدس ، سيمون رولو ، هنرى فيكتور موصيرى ، موريس نسيم موصيرى ، رالف هرارى ، أصلان قطاوى بك

● **شركة الاسكندرية للتامين** : بلغ راسمالها ٣٦٠٫٠٠٠ جنيه وصافى أرباحها ٢٥٥٤٥ جنيها وكان من أعضاء مجلس ادارتها روبير رولو ، اميل عدس ، جوستاف اجيون ، ادوين جمار ، البير مزراحى

● **شركة الاسكندرية للتامين على الحياة** : بلغ راسمالها ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه وكان يشترك فى منجلس ادارتها روبير رولو ، وادوين جمار

● **شركة التامين الاهلية المصرية** : بفرعيها ، الحريق والحوادث ، والتأمين على الحياة ، وكان رأس مال الفرع

الاول ١٩٥٫٠٠٠ جنيه وحقق ربحا قدره ١٤٧٢٩ جنيها ، بينما كان رأس مال الفرع الثاني مائة الف جنيه . وكان من أعضاء مجلس الادارة روبير رولو ، وأصلان قطاوى بك ، وموريس نسيم موصيرى



وفى مجال الاستغلال الزراعى ، ساهم الراسماليون اليهود فى انشاء عدد من شركات الاراضي الزراعية التى تقوم بامتلاك الاراضي واستغلالها والمضاربة فيها ، وتمويل المشروعات العقارية والصناعية التي تساعد على استغلال الاراضى ، ومن هذه الشركات :

● **شركة اراضى الشيخ فضل العقارية :** كانت تستغل مساحة من الاراضى تبلغ ٨٨٠٥ فدادين وقد بلغ رأسمالها عام ١٩٤٢ ، ٦٢٣٫٦٠٠ جنيه ، وبلغت أرباحها ٤٢٫٩٤٩ جنيها . وكان مجلس ادارتها مشكلاً من يوسف قطاوى باشا رئيسا ، وأصلان قطاوى بك ، وروبير رولو ، وليون سوارس ، وهنرى فيكتور موصيرى أعضاء ، وابرامينو أشير مديرا عاما

● **شركة الاتحاد العقارى المصرى :** بلغ رأسمالها ٣٤١٫٢٥٠ جنيها ، وصافى أرباحها ٣٦٫١٩١ جنيها وكان عضو مجلس ادارتها المنتدب اصلان-قطاوى بك . ومن أعضاء المجلس اميل نسيم عدس ، وشارل شالوم

● **شركة البحيرةالمساهمة :** تاسست عام ١٨٨٦وكانت تملك عام ١٨٩٤ مساحة من الاراضى الزراعية تبلغ ١٢١٫٦٨٢ فدآنا ، ثم اشترت أراضى أخرى حتى بلغت مساحة ما تملكه ١٥٠٫٠٠٠ فدآن . وكان رأسمالها عام ١٩٤٢ ، ٦٣٣٫٧٥٥ جنيهـا وأرباحها ٧١٣٠١ جنيه .

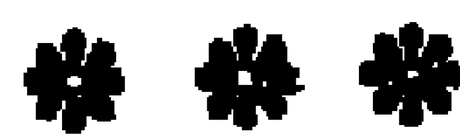
ويشترك فى عضوية مجلس ادارتها أشيل عاداه ،وجوزيف عاداه

● **الشركة المساهمة الزراعية والصناعية بالقطر المصرى** وكان من أعضاء مجلس ادارتها موسى عنتيبى

● **الشركة العربية العقارية** : كان راسمالها ٣٩٦ر٢٨٤ جنيها ، وأرباحها ٤٤ر٦١١ جنيه ، ومن بين أعضاء مجلس ادارتها جوزيف عاداه ، وهنرى موصيرى ، وجويدو ليفى

● **شركة وادى كوم امبـو المساهمة** : التى امتلكت ٣٠,٠٠٠ فدان تولت استصلاحها وزراعتها وبلغ راسمالها ١ر١٧٠,٠٠٠ جنيه وصافى ارباحها ١٤٠ر٨٢٦ جنيها . وكان يتولى رئاسة مجلس ادارتها روبير رولو ، ويشترك فى عضوية المجلس ليون سوارس ، هنرى فيكتور موصيرى ، ورالف هرارى ، ويتولى رينيه قطـاوى بك مهام مديرها العام

● **شركة العربية العقارية** : بلغ راسمالهـا ٣٩٦ر٢٨٤ جنيها ، وأرباحها ٤٤ر٦١١ جنيه• وكان من اعضاء مجلس ادارتها يوسف عاداه ، وهنرى فيكتور موصيرى وجويدو ليفى



ونزل الراسماليون اليهود الى ميدان استغلال اراضى البناء ، فاقاموا وأداروا عدة شركات لتقسيـم الاراضى وبيعها ، وشراء المبانى واستغلالها واعادة بيعها . منها :

● **شركة اسواق الخضر المركزية المصرية المساهمة** : بلغ رأسمالها ٨٠,٠٠٠ جنيه ، وصافى أرباحها ١١ر٦٢٣ جنيها • كان يرأس مجلس أدارتها يوسف قطاوى باشا • وخلفه ابنه رينيه قطاوى بك عام ١٩٤٣ بعد وفاته .ويضم

المجلس اصلان قطاوى بك ، وجويدو موصيرى ، وشارل عاداه ، ويتولى ابراميتو آشير ادارتها

● **الشركة العقارية لحى محطة مصر** : رئيس مجلس ادارتها ايزاك ليفى ، ومن اعضائه جيمى ليفى ، وايزاك يانير

● **الشركة العقارية المالية بالقاهرة** : عضو مجلس ادارتها المنتدب جويدو موصيرى . واعضاء مجلس ادارتها جميعهم من الرأسماليين اليهود وهم : سالمون نحمياس ، أصلان قطاوى بك ، همبرت موصيرى . هنرى فيكتور موصيرى . وكان رأسمالها عام ١٩٤٢ مبلغ ٢٣٫٢٨٨ جنيها ومع ذلك حققت ربحا قدره ١٥٣٥٥ جنيها

● **الشركة المساهمة المصرية المالية والعقارية** : تاسست عام ١٩٣٤ برأسمال قدره ٧٥٫٠٠٠ جنيه ، وبلغت أرباحها عام ١٩٤٢ ، ٦٨٨٣ جنيهـا . وكان كل أعضاء مجلس ادارتها من اليهود : موريس كورييل رئيسا ، ماكس أجيون نائبا للرئيس ، فيتا أبراهيم فـرحات ، رالف هرارى ، هنرى موصيرى .. أعضاء

● **شركة اراضى الدقهلية** : رأسمالها ٨٠٫٨٠٠ جنيـه وصافى أرباحها ١٠٫٠٣٧ جنيها . وكان رئيس مجلس ادارتها ومديرها الفنى موريس جربوعة ، ونائب الرئيس رينيه اسمالوم ، ومن أعضاء مجلس ادارتها أسحق مزراحى

● **الشركة المصرية للاراضى والمبانى** : من اعضاء مجلس ادارتها ايلى عدس ، واميل عدس ، وجاستون عـــدس ، وكليمان عدس

● **الشركة المصرية الجديدة ليمتد** : راسمالها ٣٧٥٫٠٠٠ جنيه وصافى أرباحها ٩٥٫٣٩٩ جنيها ومن اعضاء مجلس ادارتها روبير رولو

● **الشركة الزراعية بمصر :** بلغ رأسمالها ١٢٠ر٢٥٠ جنيه ، وصافى أرباحها ٠٤٣ر١٠ جنيها ومن أعضاء مجلس ادارتها أصلان قطاوي واميل عدس

● **شركة العقارات الشرقية المساهمة :** راسمالها ٠٠٠ر٢٥ جنيه وأرباحها ٤٩١١ جنيه . رئيس مجلس ادارتها فيكتور عاداه ، والعضو المنتدب يوسف عاداه ، وعضو مجلس الادارة فرنان عاداه

● **الشركة المساهمة العقارية لتفتيش السيوف :** راسمالها ١٢٤ر١٧٨ جنيها ، وأرباحها ٣٦٣ر١١ جنيها ، ومديرها المنتدب ايلى فرج شماع

● **شركة الاشغال والمباني المصرية :** من اعضاء مجلس ادارتها فيكتور عاداه وجوزيف عاداه

● **الشركة العقارية العمومية بمصر :** راسمالها ٠٠٠ر٢٥٠ جنيه وارباحها ٥٣٧ر١٩ جنيها ومن اعضاء مجلس ادارتها روبير رولو ، وموريس نسيم موصيرى ، ورالف هرارى واميل نسيم عدس

● **شركة المباحث والاعمال المصرية :** راسمالها ٠٤١ر١٣٧ جنيهات وأرباحها ٢٨٥٧٢ جنيها ، ومن أعضاء مجلس ادارتها جوزيف عاداه وجويدو ليفى

● **شركة مشروعات الاراضى والبناء :** بلغ رأسمالها ٥١٢ر٩٧ جنيها ، وأرباحها ٤٧٣٦ جنيها ومن أعضاء مجلس ادارتها جوستاف أجيون وأرمان موستاكى

***

وفى ميدان النقل البرى والبحرى ، شارك الراسماليون اليهود فى ادارة وتوجيه العديد من الشركات منها :

● **شركة الامنيبوس العمومية المصرية :** كان روبير رولو من اعضاء مجلس ادارتها

● **شركة سكك حديد الفيوم :** بلغ رأسمالها ٩٤٧٨٩ جنيها وحققت ارباحا قدرها ٧٩٩٩ جنيها وكان من أعضاء مجلس ادارتها جويدو موصيري ، وهنري فيكتور موصيري

● **شركة ترام الاسكندرية :** من اعضاء مجلس ادارتها موريس نسيم موصيري

● **شركة سكك حديد الرمل ليمتد :** كان موريس نسيم موصيري من اعضاء مجلس ادارتها

● **شركة سكك حديد قنا ـ اسوان المساهمة :** بلغ رأسمالها ٧٦٫٨١٠ جنيهات ، وصافى أرباحها ٦٥٠٩ جنيهات ومن أعضاء مجلس ادارتها رينيه عاداه

● **الشركة المصرية للنقل بالسيارات :** رأسمالها ١٤٢١٢ جنيها وصافي أرباحها ٢٥١٥ جنيها . كان ج.ج. جاكو دى كومب نائبا لرئيس مجلس ادارتها

● **شركة بواخر البوستة الخديوية :** من اعضاء مجلس ادارتها أصلان قطاوى بك ، وروبير رولو

● **شركة لافلوفيال :** من أعضاء مجلس ادارتها ارمان نحمان

● **شركة الملاحة بالمنزلة :** بلغ رأسمالها ٢٥٫٥٤٥جنيها وصافى أرباحها ٩٫٩٥٢ جنيها . وكان جويدو ليفى عضو مجلس ادارتها المنتدب

* * *

وساهم اليهود فى الصناعات الزراعية الحيوية ، فشاركوا فى عمليات حلج القطن وكبسه ، واستخراج

الزيوت من بذرة القطن ، وصناعة السكر وتكريره ، واقاموا عدة شركات منها :

● **شركة حليج الوجه القبلى** : كان راسمالها ٦٥٫٠٠٠ جنيه ، وبلغت أرباحها ٦٧٥٥ جنيها . وكان رئيس مجلس ادارتها روبير رولو . ويشترك فى عضوية المجلس جوستاف موربورجو ، وجاك رولو ، وأرمان نحمان

● **شركة عموم مصانع السكر والتكرير المصرية** : تاسست عام ١٨٩٧ . وبلغ راسمالها ١٫٣٤١٥٣٤ جنيها وصافى أرباحها عام ١٩٤١ ، ٩٢٠٧٧ جنيها ، وكان رئيسها الفخرى فيكتور هرارى باشا ، ومن أعضاء مجلس ادارتها رينيه قطاوى بك ورالف هرارى

● **شركة الغربية للحلاجة** ، ويبلغ راسمالها ٥٢٫٥٠٠ جنيه وصافى أرباحها ٩٦٨٣ جنيها . وكان من أعضاء مجلس ادارتها ، أمان نحمان ، وجاك رولو

● **شركة مكابس الاسكندرية** : بلغ راسمالها ٢٢٥٫٠٠٠ جنيه ، وأرباحها ٢٢٩١٥ جنيها . وكان من أعضاء مجلس ادارتها دافيد شيكوريل ، وليون شيكوريل ، وارمان نحمان ، وجوزيف باردنا

***

واشترك الراسماليون اليهود كذلك فى شركات صناعة البناء التى تقوم باستغلال المحاجر ، وانتاج مواد البناء ولوازمه ، ومن هذه الشركات :

● **شركة الطوب الابيض الرملى** : من اعضاء مجلس ادارتها ج . ج . جاكودى كومب

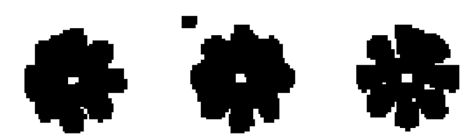
● **شركة كارير ايجبت** : راسمالها ٥١٫٠٠٠ جنيه وصافى أرباحها ٦٣٤٧ جنيها . وكان سلفاتور شيكوريل بك نائبا لرئيس مجلس ادارتها .

● **شركة المباني المصرية المساهمة (ايجيكو)** : من اعضاء مجلس ادارتها المهندس صمويل كوريبل

● **شركة المقاولات الاهلية المصرية** : من اعضاء مجلس ادارتها روبير رولو

● **شركة مصر للمواسير والاعمدة والمصنوعات من الاسمنت المسلح** : راسمالها ٧٥٫٠٠٠ جنيه وصافي أرباحها ٨١٤١ جنيهاً . تولى موريس نسيم موصيري رئاسة مجلس الادارة الذي اشترك فيه فيتا ابراهيم فرحات ، ورالف هراري ، وفيكتور حنان . .

● **شركة التبريدات المصرية** : ويبلغ راسمالها ١٨٠٫٠٠٠ جنيه وصافي ارباحها ٤٥٫٠٠٠ جنيه . من اعضاء مجلس ادارتها أصلان قطاوي بك



وفي مجالات الصناعة الخفيفة ساهم اليهود في انشاء وتوجيه عديد من الشركات :

● **شركة صناعة الطحن بالاسكندرية** : يبلغ راسمالها ٢٥٫٥٠٠ جنيه ، وأرباحها ٢٨٠٥ جنيهات . كان عضوا مجلس ادارتها المنتدبان جيمس كوهين ، وادوارد كوهين

● **شركة مطاحن المحمودية** : رأسمالها ٦٠٫٠٠٠ جنيه وصافي أرباحها ٢٤٥١١ جنيه . ويرأس مجلس ادارتها دافيد ساكس ، ومن أعضاء المجلس فريدي ساكس

● **شركة الملح والصودا المصرية ليمتد** : من اعضاء مجلس ادارتها أصلان قطاوي بك

● **شركة الملح المتحدة ليمتد** : كان أصلان قطاوي عضوا بمجلس ادارتها

● **الشركة المصرية للاضاءة باشعة النيون** : كان رأسمالها ٦٠٠٠ جنيه ومع ذلك بلغ صافي ربحها ٣٣٢١ جنيهاً ،

وكان رئيس مجلس ادارتها شارل عاداه ، ومن أعضـاء المجلس ايزاك ناكامولى ، والدكتور أ.ج. ليفى

● **شركة توريد الكهرباء والثلج** : بلغ رأسمالها ٦٨١٢٠ جنيها ، وصافى أرباحها ٣٠٨٨١ جنيها .وكان نائب رئيس مجلس ادارتها ج.ج. جاكودى كومب ، ومديرها العـام سمحا امباخ

● **شركة نسطور جاناكليس للسجاير** : يبلغ رأسمالها ٩٠٫٠٠٠ جنيه ، وحققت أرباحا قدرها ٢٧٫٠٨٢ جنيها . وكان أصلان قطاوى من اعضاء مجلس ادارتها

● **شركة الشيلان المساهمة المصرية** : رأسمالها ١٤٫٥٠٠ جنيه وصافى ارباحها ٣٥١٨ جنيها . من اعضاء مجلس ادارتها مارك .س. كوهين

● **شركة صباغى البيضا** : كان رأسـمالها ٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ومع ذلك بلغ صافى أرباحها ٤٠٥٫٢٠٨ جنيهات فى عام ١٩٤٢ . ومن أعضاء مجلس ادارتها جوزيف سموحه

● **شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية** : من أعضاء مجلس ادارتها أصلان قطاوى

● **شركة الصـناعات المصرية للكيمائيات والعقاقير الطبية** : من أعضاء المجلس جورج موربورجو

● **الشركة المصرية لصناعة الخردوات** : بلغ رأسمالها ١٠٠٫٠٠٠ جنيه وأرباحها الصافية ٥١٫٧٠٩ جنيهـات . كان جاك دره عضو مجلس ادارتها المنتدب ، ويشترك معـه فى المجلس حاييم دره ، وزكى دره

● **شركة صناعة نسيج الالياف** : من أعضـاء مجلس ادارتها روبير .ج . رولو

● **الشركة الصناعية لخيوط الغزل والمنسوجات** :

ويبلغ رأسمالها ٢٥٫٠٠٠ جنيه أما صافي أرباحها فبلغت ٢١٫٩٧٠ جنيها . وكان نائب رئيس مجلس ادارتها جاك أصلان ليفي ، والعضو المنتدب فيكتور أصلان ليفي

● **الشركة العمومية للكهرباء والميكانيكا** : كان مجلس ادارتها يتشكل من يوسف كامبـــوس رئيسا ، وبنفنتو كامبوس عضوا منتدبا ، ورفاييل نحمـــان ، افينعـــام هوروفيتش واندريه شماع اعضاء

● **شركة كاريا المساهمة المصرية** : ويبلغ رأســمالها ١٦٩٨٠ جنيها وارباحها ٣٠٤٦ جنيها . من اعضاء مجلس ادارتها جوزيف عاداه

● **شركة المحلات الصناعية للحرير والقطن** : ويبلغ راسمالها ٣٠٫٠٠٠ جنيه وارباحها الصافية ٩٨٤٦ جنيها ويضم مجلس ادارتها البير منشه ، وموريس منشه ، وليون مزراحي

● **شركة مصانع النحاس المصرية** : يبلغ راســمالها ٥٣٫٦٤٠ جنيها وأرباحها ١٨٣٥٨ جنيها ومن أعضــاء مجلس ادارتها سيجموند هيرش ، وهنري موصيري وفيلكس نسيم موصيري

● **مصانع نسيج القاهرة** : رأسمالها ٦٣٫٠٠٠ جنيه ، وارباحها ٩٨٢٠ جنيها ومن بين أعضاء مجلس ادارتهـــا نيلوس ليفي

● **شركة مصر للمستحضرات الطبية** : من اعضائها حايم دره

● **شركة المنسوجات المصرية ((ماتكسا))** : رأسمالها ١٥٫٠٠٠ جنيه ، وصافي أرباحها ٦٠٩٠ جنيها . وكيـــل مجلس ادارتها ماكس رولو . ومن أعضائهـــا أرمـــان موستاكي ، وايلي باتينو ، وجوستاف أجيون

● **شركة مضارب الارز برشيد والاسكندرية** :راسمالها ١٢٨٫٠٠٠ جنيه وصافي ارباحها ١٧٥٠٥ جنيهات ، وكان من اعضاء مجلس ادارتها سلفاتور سلامه ، ورفاييل نحمان

● **شركة الملابس والمهمات المصرية** : من بين أعضاء مجلس ادارتها موريس ليبوفتش

● **شركة النسيج والحياكة المصرية** : بلغ راسمالها ٧٥٫٠٠٠ جنيه وارباحها ٦٠٫٧٥٧ جنيها وكان عضو مجلس ادارتها المنتدب رالف هراري ، ويضم المجلس أصلان قطاوي بك ، وموريس نسيم موصيري ، وسيمون رولو ، وكليمان عدس ، واميل نسيم عدس ، وجاستون نسيم عدس ، ومديرها العام سامي ابراهيم ساسون

● **شركة اقطان بنتو** : من أعضائها جوستاف موربورجو

● **الشركة الانجليزية كونتننتال للاقطان** : بلغ رأسمالها ٣٠٫٠٠٠ جنيه وكان من أعضاء مجلس ادارتها موريس ساسون

● **الشركة القطنية « معرض »** : كان روبير رولو رئيسا لمجلس ادارتها

● **شركة البترول المصرية** : بلغ راسمالها ٧٢٫٩٠٠ جنيه وصافي أرباحها ٣٦٫٦٩٦ جنيها . كان ايلي نسيم عدس عضو مجلس ادارتها المنتدب . ومن أعضاء المجلس ج.ج. جاكو دي كومب

● **شركة البترول الوطنية** : بلغ راسمالها ١٠٠٫٠٠٠ جنيه وصافي أرباحها ١٧٧٥٦ جنيها . وكان عضو مجلس ادارتها المنتدب ايلي نسيم عدس

● **الشركة التجارية الاقتصادية** : كان رئيس مجلس

ادارتها ف . هـ . كوهين ، وعضوا مجلس الادارة هارون كوهين ، وايمانويل مزراحي

● **شركة التسليفات التجارية** : راسمالها ٣٥٠٫٠٠٠ جنيه وصافي أرباحها ١٧٧٥٦ جنيها . وكان عضو مجلس أدارتها الفريد كوهين ، ومن أعضاء المجلس أوفاديا سالم

● **شركة التوريد والتصدير السودانية** : رأسمالها ٣٠٫٠٠٠ جنيه ومع ذلك بلغت ارباحها ٦٩٫٧٦٨ جنيها . وكان رئيس مجلس ادارتها الفريد كوهين ، ومن أعضاء المجلس اوفاديا سالم

● **شركة الشرق الادنى للمراجعة** : راسمالها ١٤٫٦٢٥ جنيها ، وبالرغم من ذلك بلغت أرباحها ٢٣٫٣٤٠ جنيها عام ١٩٤٢ . ويضم مجلس ادارتها زكي مواس

● **الشركة المساهمة للمحاريث والهندسة** : كان راسمالها ١٠٠٫٠٠٠ جنيه وبلغت ارباحها الصافية ٤٥٫١٩٥ جنيها ، ومن أعضاء مجلس ادارتها اصلان قطاوي بك ، ورينيه قطاوي بك ، وموريس كوريل ، وفيلكس موصيري ، وهنري موصيري

● **شركة محل الملكة الصغيرة** : رأسمالها ٨٠٠٠ جنيه ، وصافي أرباحها ١١٫٢٦٤ جنيها . وأعضاء مجلس أدارتها جميعا من اليهود ، فيكتور كوهين رئيسا ، اسحق مزراحي عضوا منتدبا ، وماكس مزراحي ، وريمون كوهين ، وهارون كوهين أعضاء

● **شركة محل موبليات بونتريمولي** : راسمالها ١٨٫٠٠٠ جنيها ، وأرباحها ٥٣٠٨ جنيهات . ورئيس مجلس ادارتها هارون كوهين ، ومن أعضائه فيكتور كوهين

● **الشركة المساهمة لمخازن الادوية المصرية** : رأسمالها

٥٠٫٠٠٠ جنيه وصافى أرباحهـــا ١٠٨٤٨ جنيهـــا ومن أعضائها اوفاديا سالم ، وجوزيف يانكوفتش

● **الشركة المصرية للمطاحن وتخزين الغلال** : راسمالها ٧٥٫٠٠٠ جنيه وصافى الارباح ١٤٦٠٦ جنيهات ٠ورئيس مجلس ادارتها ماكس أجيون ، ومن الاعضاء فيتا فرحات ، وفيكتور حنان ، وايفون اجيون

● **شركة فنادق مصر الكبرى** : رأسمالها ١٤٤٫٣٠٠ جنيه وصافى أرباحها ٤٧٫٤٧٦ جنيها ٠ من أعضاء مجلس ادارتها موريس نسيم موصيرى ، وجوستاف أجيـــــون

● **شركة الفنادق المصرية ليمتد** : رأسمالها ٣٦٤٫٧٨٩ جنيها وارباحها ٩٤٫٠٧٠ جنيها من أعضـــــائها فيلكس موصيرى

● **شركة المناجم والبحث المصرية** : من اعضاء مجلس ادارتها روبير رولو وكليمان عدس

● **شركة بلتورس للنقل والسياحة** : من اعضاء مجلس ادارتها بقريون بركاى ، وروبير الفندارى

● **شركة جوزى فيلم** : رأسمالها ٣٤٫١٠٠ جنيـــه ، وارباحها ٦٠٧٧ جنيها . عضو مجلس ادارتها المنتـــدب يوسف فيتا موصيرى ، ومن أعضائها البير فيتا موصيرى

● **الشركة المالية والصناعية المصرية لانتاج الاحمــاض الكيماوية** : رأسمالها ١٨٠٫٠٠٠جنيه وارباحها١١٥٫١٥٢ جنيها . من أعضاء مجلس ادارتها أصلان قطاوى بك

● **شركة نادى سباق الخيل بالاســـــكندرية** : بلغ رأسمالها ٥٤٨٥ جنيها ومع ذلك حققت ربحا صافيا قدره ٦٢٩٧ جنيها ٠ وكان من أعضاء مجلس ادارتها ايلى نسيم عدس

وفضلا من ميدان المال والاقتصاد ، فقد برز عدد كبير من المثقفين اليهود ، ومارسوا نشاطهم في الحياة العامة فكان منهم المحامون أمام المحاكم المختلطة والاهلية وهؤلاء ، دافعوا عن المصالح الاقتصادية اليهودية والاجنبية على السواء . ومن المع هؤلاء المحامين خلال الفترة من عام ١٩٠٠ الى ١٩٤٤ :

فيكتور الفانداري : كان محاميا بالمحاكم المختلطة فى القاهرة منذ عام ١٩١٥

موريس كاسترو : اسس مكتبا للمحاماة فى عام ١٩٣٤ وعمل مستشارا قانونيا لاربع عشرة شركة صناعيةوتجارية من بينها بنك مصر

شارل شالوم : من مواليد القاهرة . محام امام محكمة الاستئناف المختلطة . وكان عضوا بمجلس ادارة نقابة المحامين المختلطة ايضا

رودلف شالوم بك : كان والده نقيبا لمحامى المحاكم المختلطة فى أوائل القرن وقد برز رودلف فى القضايا العقارية ومشاكل الشركات . وكان مستشارا قانونيا لبنك التسليف العقارى المصرى . كما كان من مؤسسى مجلة مصر القضائية . واشترك منذ عام ١٩٠٧ مع جاك موصيرى في تأسيس المدارس الاسرائيلية بالقاهرة والاسكندرية

فيلكس حموى : من مواليد مدينة طنطا . قيد بجداول المحامين امام محاكم الاستئناف الاهلية عام ١٩٣١

ارنست هرارى : تخصص فى القضايا المدنيةوالتجارية وكان من أقدم أعضاء المحكمة الملية فى القاهرة • وقد ساهم مع نسيم جداه فى عمليات مضاربة عقارية واسعة ،

وذلك بشراء واعادة بيع أراضي شبرا ، والتي أقيم فيها تقسيم سمي « حدائق شبرا » فيما بعد

رافاييل موداي : كان في الاربعينات محاميا للطائفة الاسرائيلية بالاسكندرية

نلسون موربورجو : اشهر المحامين في القضايا الجنائية ، وقضايا الاحوال الشخصية في المحاكم المختلطة في الثلاثينات وأوائل الاربعينات . كان من غلاة الصهيونيين

ايزاك باردو : حفيد موسي باردو الحاخام الاكبر بالاسكندرية ..مارس المحاماة امام محكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية في العشرينات

فيتا سونسينو : من مواليد القاهرة عام ١٨٩٥ . محام أمام المحاكم المختلطة والاهلية . تولى عضوية «لجنةاصلاح المجلس الحسبي » بوزارة الحقانية المصرية وكان في العشرينات رئيسا لفرع المنظمة الصهيونية العالمية في القاهرة ، كما كان رئيسا لجمعية الاصلاح الاسرائيلية

سابينو فيفانتي : من مواليد الاسكندرية عام ١٨٩٢ . عمل بالمحاماة بعد ان حصل على ليسانس الحقوق من فرنسا عام ١٩١٥ . واصبح من أبرز المحامين المختلط بالاسكندرية خلال الثلاثينات . وعمل كذلك مستشارا لعدة شركات . واشترك في تأسيس « حلقة الشبيبة اليهودية » بالاسكندرية وكان نائبا لرئيس محفل « الياهو حنابي » فيها خلال العشرينات

***

وبرز عدد آخر من اليهود في ميادين الهندسة والعلوم والطب والزراعة خلال الاربعينات ونالوا شهرة واسعة ، وحصلوا من أعمالهم على أموال طائلة ، ومن هؤلاء :

المهندسون ، رالف هراری ، وهارون جيريمتسكى ، وبوريس كاهانوف ، وبنزيون جولدنبرج ، وجاستون أجيون

والمهندسان الزراعيان ، هنرى موصيرى الذى كان عضوا فى جمعية القاهرة العلمية وسكرتيرا عاما لجماعة أصدقاء الجامعة العبرية . وصمويل افجدور الذى اشترك فى كثير من الجمعيات والمنظمات اليهودية فكان رئيسا للجنة وضع مناهج المدارس الاسرائيلية ، ورئيسا لمحفل بنى بريت . كما كان نائبا لرئيس اتحاد المزارعين المصريين وشارك فى تحرير النشرة التى كان يصدرها هذا الاتحاد



ومن الأطباء لمع عدد كبير مارسوا فى المستشفيات والعيادات الخاصة مختلف التخصصات منهم :

دافيد شنشول طبيب امراض النساء ، وفيكتور كوهين طبيب الأطفال ، وفيكتور الباجلى طبيب الأمراض العقلية والعصبية ، وفاليريو بارديكاس الطبيب الباطنى ، وستانيسلاس روبنلخت للامراض الجلدية ، وبنيامين فنشتين الجراح ، وايلى عطية ، وباروخ ساكس وولديه ايلى ، ورودلف اطباء العيون ، والبروفيستور فريتز مايرز الذى اكتشف فى مصر مرضا فى الرئة اطلق عليه اسم « بلهارسيا الرئة »

وكان الدكتور أشيربلوم ، بالاضافة الى شهرته فى أمراض العظام ، يدرس فى تاريخ العلوم . فوضع بالفرنسية عام ١٩٣٥ كتابا بعنوان « طب العظام عند أبى القاسم وابن سينا وأصله التلمودى » كما أصدر عام ١٩٣٨ كتابا عن « الجذام لدى قدامى اليهود وفى مصر الفرعونية »

ووضع الدكتور ماكس مايرهوف طبيب العيون الشهير عدة مؤلفات من بينها تحقيقه باللغتين العربية والفرنسية لكتاب فى الطب لم يكن معروفا من قبل كتبه المفكر اليهودى موسى بن ميمون

وحظى الدكتوران فريتز كاتز ، وهوجو بيكار وهما من امهر الجراحين بشهرة كبيرة بعد أن نزحا الى مصر من المانيا هربا من الارهاب النازى

ومن العلماء والكيماويين اشتهر هارى كوشمان ، وميشون كاستورياتو



هذا هو تاريخ اليهود فى مصر خلال النصف الاول من القرن العشرين . حياة هادئة مستقرة ، فرص متاحة للجميع بلا استثناء . ممارسة حرة لدياناتهم فى معابدهم التى انتشرت بطول البلاد وعرضها . مدارس تقام فى كل مكان ، اطلاق أيديهم فى الصحافة المصرية فضلا عن الصحافة اليهودية . معاملة أخوية لا تعنت فيها ولا تعصب

وليس أدل على ذلك مما أوردته جريدة « المنبر اليهودى » فى عددها الصادر فى أول يوليو سنة ١٩٤٢ من ان الدكتور ياكير بيهار القى بعد عودته الى فلسطين اثر زيارة قام بها الى مصر ، محاضرة فى نادى « كاديما » يوم ٢٧ يونيو ١٩٤٢ ، عن انطباعاته خلال هذه الزيارة ، أوضح فيها مساهمة يهود مصر فى ميادين الانتاج الزراعي والصناعى ، والتجارة وما يلقونه فى البلاد من حرية مشيرا الى روح التعاون والتفاهم المشترك التى تسود العلاقات بين يهود مصر واخوانهم المواطنين المصريين

الفصل الثانى

الحركة الصهيونية في مصر

ذكرنا من قبل أن النشاط الصهيوني فى مصر ، والدعوة بين ابناء الطائفة لتأييد المنظمة الصهيونية العالمية بدأ يأخذان شكلا جديا منذ عام ١٩٠٨ عندما تأسست جمعية « بني صهيون » . ثم عندما اندمجت فى عام ١٩٠٩ فى جمعية « زئير زيون » بمدينة الأسكندرية

وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى ، واخذ يتدفق على الاسكندرية ذلك السيل الهائل من المهاجرين اليهود من فلسطين ، انتشرت الافكار الصهيونية انتشارا واسعا ، وارتفع عدد المنضمين الى تلك الجمعية الى عدة مئات ، فاتخذت لها مقرا دائما فى المدينة زاودته بقاعة للاجتماعات والاحتفالات واخرى للمطالعة . ونظمت دراسات مسائية لابناء الطائفة لتعليم اللغة العبرية ، واخرى للتاريخ اليهودي

وكان من ابرز أعضائها فى ذلك الوقت : سالمون ليفي، وجون فاينبلات ، وسيمون ماتي ، وليمون نحمياس ، والدكتور شليزنجر ، والبير حسان

وقد شاركت هذه الجمعية بمجهود كبير فى تكوين فرقة « راكبي البغال اليهودية »

ثم وبعد صدور وعد بلفور كان لنشاط المنظمة الصهيونية العالمية تأثير واضح على هذه الجمعية ، فقد

اخذت تعمل سافرة على الدعوة الى اقامة الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وتساهم فى سبيل ذلك بالمال والدعاية

ولعل ابرز اعمالها هو انشاؤها مكتبا للاستعلامات الغرض منه المساهمة فى توطين اليهود فى فلسطين والدعوة الى الهجرة اليهودية اليها ، وتسهيل مهمة المهاجرين الذين يمرون على مصر فى طريقهم الى فلسطين

والى جانب هذه الجمعية ، عقد عدد من كبار الرأسماليين اليهود فى الاسكندرية وعلى رأسهم البارون فيليكس منشه ، وفيكتور ناجيار ، وجوزيف دى بتشوتو بك اجتماعا فى يوم ١٢ اغسطس سنة ١٩١٨ أعلن فيه البارون منشه وجوب تكوين لجنة الهدف منها لم شمل كافة الجمعيات اليهودية من اجل الاهتمام بكل ما له صلة بفلسطين • والقى خطابا ضمنه ما يجب أن تقوم به هذه اللجنة ، وهو تدعيم الجامعة العبرية فى فلسطين ، والمساعدة على توطين اليهود ، وانشاء المستشفيات والجمعيات الخيرية ، والعناية بكل ما يمكن ان يساعد على زيادة التقدم المادى والفكرى ليهود فلسطين

وفى يوم ١٤ اغسطس سنة ١٩١٨ عقدت اللجنة اجتماعا ثانيا بمناسبة مرور الدكتور حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية على مدينة الاسكندرية ، فدعته لحضور هذا الاجتماع حيث القى كلمة شرح فيها المتطلبات العاجلة للقضية الصهيونية ، وعرض عرضا كاملا لموقف المنظمة العالمية من النواحى السياسية والاقتصادية والعقائدية. وكشف عن عدم كفاية التنظيمات القائمة على تحقيق الهدف ، واوضح الوسائل الكفيلة بعلاج ذلك • ولم ينس الدكتور وايزمان ان يوجه لاعضاء اللجنة نصائحه

وتوصياته ودعاهم الى المعـــاونة على اقامة المستعمرات الزراعية ، وتدعيم الجمعيـــات الخـــيرية ، والمدارس والجمعيات التعاونية فى فلسطين ، باعتبـــارها ضرورات ملحة تتطلبها تلك المرحلة

وقد رات هذه اللجنة ـ عقب الاجتماع ـ ان تطـلق على نفسها اسم « اللجنة المشايعة لفلسطين » وتشـــكل مكتبها من البارون فيلكس منشه رئيسـا . وفيكتور ناجيار نائبا للرئيس ، ودافيد ساكس أمينا للصندوق

وبادرت اللجنة الى توجيه نداء الى يهـــود المدينة ، أوضحت فيه أهدافها ، ودعت الى الاكتتاب من أجـــل مراميها . فسارع عدد كبير من يهود الاســـكندرية الى التبرع ، وبلغت الاكتتابات الاولى فى بضعة أيام ١٠ر٠١٩ جنيها

كاسترو والدعوة الصهيونية

وفى نفس الوقت استطاع محام وفد الى مصر من تركيا بعد ان هاجر منها عقب الحرب العالمية الاولى هو « ليون كاسترو » ان يؤسس رسميا أول فرع للمنظمة الصهيونية فى مصر

وليون كاسترو هذا ولد عام ١٨٨٤ فى أزمير وحصل على دبلوم مدرسة المعلمين بباريس سنة ١٩٠٢ ثم عمل مدرسا فى تركيا من سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩٠٦ ثم سافر الى باريس حيث حصل على ليسانس الحقوق سنة ١٩١١ ومنذ حضوره الى مصر عقب ذلك التاريخ مارس مهنة المحاماه .. واصبح اول رئيس للمنظمة الصهيونية فيها ابتداء من عام ١٩١٧

ومنذ اليوم الأول لتوليه رئاسة فرع « المنظمة الصهيونية العالمية » بدأ ليون كاسترو العمل الجدى

وكانت أولى الخطوات التى خطاها فى هذا السبيل هى تجميع الجمعيات الصهيونية وضمها الى حظيرة فرع المنظمة » وأصبحت جمعية « زئير زيون » فى سنة ١٩١٨ فرعا للمنظمة الصهيونية العالمية فى الاسكندرية ، ثم انضم اليها اعضاء اللجنة « المشايعة لفلسطين » ، واتخذت لها مقرا بشارع النبى دانيال رقم ٥٤

وأقامت المنظمة فرعا لها بمدينة بور سعيد كان من

ابرز اعضائه ايزابى لورى ، كما انشأت فرعا آخر بمدينة المنصورة تولى توجيهه سيداكا ليفى المحامى

وفى القاهرة اتخذت المنظمة مقرا لها بشارع ابو السباع رقم ١٧ (جواد حسنى الآن)

واعلنت صراحة ان هدفها هو نشر الدعوة الصهيونية بين جماهير اليهود والمساعدة على تاسيس الوطن القومى اليهودى فى فلسطين

وسارع ليون كاسترو باصدار « المجلة الصهيونية » عام ١٩١٨ لتكون لسان حال هذه المنظمة فى البلاد

وانشأ فرع المنظمة فى مصر ، فرعا للصندوق القومى اليهودى ، « كيرن كايمينت » بمقر المنظمة واختير دانييل سابورتا قوميسيرا له . وكان هدفه جمع تبرعات من يهود مصر لشراء اراضى فى فلسطين ، والمساعدة على توطين العمال اليهود فيها . وكان هذا الفرع المصرى على اتصال دائم بمركز « الكرين كايمت » فى لندن الذى كان رئيسه سالمون رايت يبعث لفرع مصر بتوجيهاته وتوصياته

وكما اقام فرع القاهرة ، فرعا للصندوق القومى اليهودى ، انشأ فرع الاسكندرية بدوره فرعا لهذا الصندوق بمقره سالف الذكر

وكان نشاط هذا الفرع واسعا يتسلل الى مختلف احياء المدينة ، فاقام عدة تنظيمات ، منها جماعة فيلونيا بحى محرم بك ، وجماعة جميلوت حاساديم بحى الميدان، وجماعة الابراهيمية بالرمل . وتشكلت للصندوق لجنة تنفيذية كان يوجهها ويشرف عليها جون فاينبلات ، وبأروخ بنتاتا ، ورفاييل دويك ، ومن بعدهم افينمام هورفيتز . وكانت حصيلة مايجمعه هذا الصندوق من التبرعات

الصغيرة تبلغ مئات الجنيهات سنويا .

كذلك كان للمنظمة فرع للصـــندوق القومى بمدينة المنصورة يشرف عليه سيداكا ليفى

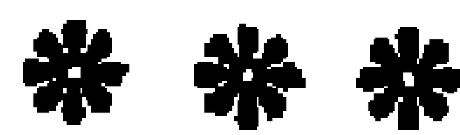
وأسست المنظمة الى جانب ذلك عدة جمعيات تدعـــو كلها الى اقامة الوطن القومى لليهود منها جمعية « أصدقاء المجمع الربانى فى أورشليم » وجماعة « أصـدقاء المجمـع الربانى فى رودس » • وجمـــاعة « موعادون هايفرى للدعاية العبرية . »

كما أسست فى عام ١٩٣٢ الجمعية المصرية لاصدقاء الدراسات العبرية برئاسة رودلف شـالوم بغية تـكوين العناصر القادرة على نشر الثقافة العبرية بين ابناء الطائفة وكانت هذه الجمعية تبعث فى كل عام بعدد من أعضائها الى فلسطين ليتزودوا بالفكر الصـــهيونى ، والثقافة اليهودية -

وقد سيطر زعماء المنظمة الصهيونية فى مصر ، على محافل اليهود كلها ، واقام ليون كاسترو عام ١٩٣٠ المحفل الوطنى الاكبر لمنطقة مصر والسودان « بنى بريت » بشارع مدلى باشا رقم ١٨ الذى كان الغرض منه تجميع المحافل التالية وتوجيهها لخدمة اغراض الصهيونية وهى : محفل القاهرة ، ومحفل ابن ميمون ، ومحفل اليـاهو حنابى ، ومحفل ماجن دافيد فى المنصورة ومحفل اسرائيل فى بور سعيد ومحفل بنزيون كوستى فى الخرطوم .. وقد تولى كاسترو رئاسة هذا المحفل الأكبر يعاونه فى ذلك يعقوب وايزمان ..

واصبحت المحافل بذلك منبرا صريحا للدعوةالصهيونية ففيها كانت تنظم اللقاءات والمحاضرات العلنية التى تدعو الى قضية الوطن القومى اليهودى . وعندما حضرالدكتور

اسحق الكالاي حاخام يوغوسلافيا الاكبر فى زيارة لمصر فى شهر مارس عام ١٩٤٢ دعاه محفل الياهو حنابى ـ بنى بريت ـ بالاسكندرية لالقاء محاضرة عن اليهودية فى يوغوسلافيا . أعقبها ايلى بوليتي ـ الصهيونى العريق ـ بكلمة شكر وجهها اليه نيابة عن المحفل ، وتلاه جوليان جرينبرج نائب رئيس المنظمة الصهيونية بالاسكندرية وقتئذ فوصف الدكتور الكالاى بأنه يعتبر مثلا يحتذى لليهودى الكامل الذى لا يخشى لائمة فى التعبير عن عواطفه الصهيونية . والذى يعد فى الاوساط الصهيونية اليوغوسلافية حجة وثقة ، وصاحب كلمة مسموعة دائما



وخلال الحرب العالمية الثانية شهدت مصر امتدادا واسعا وعميقا للنشاط الصهيونى ، فقد كانت البلاد تعج بالعديد من جنود جيوش الحلفاء اليهود ، وعلى الاخص المتطوعين الفلسطينيين منهم الذين ملأت الافكار الصهيونية المتعصبة عقول غالبيتهم ، فاندفعوا بحماس بالغ الى الدعوة لتاسيس الوطن القومي فى فلسطين . وتلقتهم المنظمة الصهيونية فى مصر فى أحضانها ، ويسرت لهم بمختلف الوسائل سبل الالتقاء بشباب الطائفةالاسرائيلية فى البلاد ، ونظمت لهم اللقاءات لرسم الخطط من أجل التعاون لتحقيق الاهداف الصهيونية

فقد اسست المنظمة عام ١٩٤١ لجنة باسم « اللجنة اليهودية للترفيه عن البحارة والجنود والطيارين » مهمتها اقامة النوادى الترفيهية للجنود اليهود ، وتقديم المعونات والمساعدات الدينية والروحية والمادية لهم ، واتخذت لها مقرا بشارع عدلى رقم ١٨ بالقاهرة . وكان على رأس هذه اللجنة الرأسمالى اليهود الكبير أوفاديا سالم . بينما

كان ليون كاسترو رئيس المنظمة الصـــــهيونية فى مصر نائبا له

وأقامت هذه اللجنة عدة نواد فى القاهرة والاسكندرية كان يؤمها الجنود اليهود وتقوم على خدمتهم ســـــيدات الطائفة . واصبحت هذه النوادى فى واقع الامر مراكــز للنشاط الصهيونى ونقطا لالتقاء الشباب لبلورة أهدافهم السياسية

وقد اعتاد كبار الراسماليين اليهود دعوة الجنود باسم هذه اللجنة الى حفلات يقيمونها فى منازلهم ، ومن هؤلاء دانييل كوربيل وزوجته ، اللذين نشرت الصحف انهما أقاما فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٢ حفلا فى حديقة منزلهما بالزمالك ضم ١١٢ جنديا . كما كان يعقـــوب وايزمان يستقبل الجنود اليهود ويعقد الاجتماعات لهم . وكانت زوجته تشرف على النوادى المقامة لهم فى القاهرة

وكان يعقوب وايزمان شعلة من النشاط المستمر من أجل القضية الصهيونية ، فهو يستقبل كبار الصهيونيين، ويتبادل معهم الرأى ، ويجمع الاموال من أبناء الطائفـــة ليبعث بها الى الوكالة اليهودية فى فلسطين

كما كان صديقا حميما للصهيونى موسى شرتوك «شاريت فيما بعد» الذى تولى بعد ذلك رئاسة الوزارة فى اسرائيل خلال عامى ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ . وقد كان موسى شرتوك ينزل ضيفا على يعقوب وايزمان بمنزله بشارع قصر النيل كلما جاء الى مصر ، ليلقى بتعليماته الى رئاسة فرع المنظمـــة

ففى خلال الحرب العالمية الثانية اعتاد موسى شرتوك زيارة مصر كل ستة أشهر ، بوصفه من منظمى عمليـــة تجنيد اليهود فى جيوش الحلفاء . وكان فى أغلب الاحيان يعقد اجتماعات مع أعضاء المنظمة الصهيونية العالميـــة

وانصارها فى مصر وعلى رأسهم ليون كاسترو ، ويعقوب وايزمان ، وبوريس كاهونوف أمين صندوق المنظمــة . و س . شاؤل سكرتيرها العام

وقد اعتاد شاريت ان يلقى خطبه فى مدرسة « نقطــة اللبن » او فى « فندق المجندات اليهوديات » بشارع ضريح سعد رقم ٢ ، وكان يحضرها عدد كبير من اليهود المجندين فى القوات البريطانية ، وكذلك الكثير من المثقفين ورجال المال والاقتصاد من أبناء الطائفة . .

وفى اواخر مارس ســـنة ١٩٤٢ حضر الى مصر اسحق بن زيفى ــ الذى أصبح رئيسا لجمهورية اسرائيل بعد حاييم وايزمان ــ وكان وقتئذ رئيسا للمجلس الوطنى اليهودى فى فلسطين « فعاد ليومى » وقام بزيارة للطائفة اليهودية ، وقضى عشرة أيام تنقل فيها بين القــاهرة والاسكندرية . وقابل عددا كبيرا من الجنود والضــباط اليهود المتطوعين بالجيش البريطانى وعقد معهــم عدة اجتماعات تناول فيها بالبحث الموقف فى فلسطين . كما قام بزيارة للحاخام الاكبر ولكبار ابناء الطائفة وعقــد اجتماعا خاصا مع أعضاء المجلس الاعلى للطائفة برئاسة يوسف قطاوى باشا وطرح عليهم جــوانب المشــكلة الفلسطينية ووجهة نظر المجلس الوطنى اليهودى

وعندما سافر الى الاسكندرية اقامت له المنظمــة الصهيونية حفل اســتقبال يــوم ٢٩ مارس بمقرها بشارع النبى دانيال حيث القى خطابا سياسيا دعــا فيه الى العمل على تشييد الوطن القومى اليهــودى بتكاتف كافة الجهود المادية والمعنوية

وكان من اثر هذه اللقاءات بين زعماء الصهيونية فى فلسطين ، وأعضاء فرع المنظمة فى مصر ، ان قام الفــرع

بحملة واسعة لجمع التبرعات من أجل ضحايا النازية من اليهود . وبلغ جملة ما جمعه ١٥ ألف جنيه خصص منه مبلغ ١٢ ألف جنيه لشراء قطعة ارض فى فلسطين اقيمت عليها مستعمرة للمهاجرين اليهود الالمان بوادى الحافر ، وقد أطلق على هذه المستعمرة « كفار يديدياه » نسبة الى الفيلسوف اليهودى فيلو يديدا الذى عاش فى القرن الاول قبل الميلاد

وفى عام ١٩٤٣ قرر ليون كاسترو أن يعيد تشكيل فرع المنظمة الصهيونية من جديد ، تحت أسم « الاتحاد الصهيونى المصرى » واتخذ له مقرا بشارع عماد الدين رقم ١١٦ . وبالطبع لم يغير الاتحاد فى صورته الجديدة أهداف المنظمة الصهيونية ، بل ظل شعاره هو نشر الاهداف الصهيونية بين جماهير اليهود فى مصر والمساعدة على اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . وتولى كاسترو رئاسة هذا الاتحاد الذى كان يضم ٧٥٠ عضوا . وكان مجلس ادارته يتشكل من :

يعقوب وايزمان
أدولف كرامر
اميليو ليفى
سام هانوكا
افينعام هورفيتز
دكتور زوكرمان
رفاييل دويك
رالف جرين
البير البا
موريس فينتورا

كما كان هذا الاتحاد يضم عدة لجان منها :

« لجنة الشباب » التى رأسها حاييم زاديكوف

و « لجنة الدعاية » التى كان يتولى سكرتاريتها ليون بيفاس

و « لجنة كيرن هايسود » أى الصندوق التأسيسى لفلسطين ومهمتها الدعوة الى الاكتتابات والقروض والمنح والهبات لاستثمارها فى فلسطين وكان يتولى رئاسة هذه اللجنة ايزاك أمبيل

و « لجنة الصحافة والاعلام » وكان يشرف عليها أميل نجار المحامى زوج أبنة يعقوب وايزمان

وقد لعب اميل نجار بعد ذلك دورا هاما فى الدولة الصهيونية اذ التحق بالسلك الدبلوماسى الاسرائيلى وعمل قنصلا لاسرائيل فى مارسيليا

وكان اميل نجار مثل والد زوجته يعقوب وايزمان لا يفتر حماسة فى بث الدعاية الصهيونية ، وفى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، بعد عودته من رحلة قام بها الى فلسطين واجرى خلالها اتصالات مع زعماء الصهيونية هناك ممثلا للمنظمة فى مصر ، ألقى محاضرة بمدينة الاسكندرية حضرها الحاخام الاكبر موييس فينتورا ، وأعضاء الاتحاد الصهيونى بالمدينة ، وعدد كبير من الشباب

وكان عنوان محاضرته « انطباعات حديثة عن فلسطين » وفيها استعرض مابذله يهود فلسطين من جهود فى الحرب العالمية الثانية ، وذكر أن المنظمة الصهيونية العالمية قد وضعت فى خدمة الحلفاء شبكة من الاستعلامات التى يعتبر عملها واحدا من أعظم أعمال الحرب والتى لم يحن الوقت بعد للكشف عن خباياها

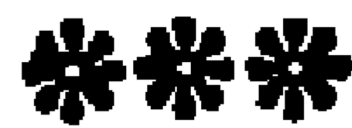
وأشار الى تصريح لبن جوريون قال فيه « اننا نشترك

فى الحرب كما لو لم يكن هناك كتاب أبيض ، ونكافح الكتاب الابيض كما لو لم تكن هناك حرب »

وخلص اميل نجار من هذا التصريح الى القول بأن يهود فلسطين وان ساهموا فى المجهود الحربى للحلفاء ، الا انهم لن يتخلوا عن أوضاعهم المكتسبة ، أو عن الكفاح من اجل تحقيق هدفهم النهائى

كما ذكر نجار ان جيولوجيا أمريكيا شهيرا هو المستر لاودر ميلك قد قام مؤخرا بدراسة امكانيات تطور فلسطين ، وذهب الى أنها تسمح باستيعاب اربعة ملايين من اليهود المهاجرين يمكن ان يعيشوا على مستوى مرتفع تماما

وختم نجار محاضرته بتوجيه نداء لكل الصهيونيين للتعاون من أجل الهدف المشترك ، وللوقوف وراء الوكالة اليهودية حتى يتيسر لها نصرة القضية الصهيونية



وعندما انعقدت الجمعية العمومية للاتحاد الصهيونى فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٤٤ برئاسة كاسترو ــ وكان ذلك بعد قتل اللورد موين فى القاهرة بواسطة عصابة شترن ــ لاعادة انتخاب أعضاء لجان النشاط بالاتحاد والموافقة على لائحته ، ألقى كاسترو كلمة اكد فيها تأييده للوكالة اليهودية ، ومساندتها فى سياستها المضادة للحركات الارهابية المتطرفة . ثم دارت مناقشة حول وضع اليهود فى بلدان أوربا التى تحررت من النازية ، اشترك فيها صحفى من جنوب افريقيا هو نورمان لورى الذى يعمل مراسلا حربيا ، وكان قادما من نيويورك فى طريقه الى فلسطين . ومر فى رحلته بباريس وسالونيك

وقد أشار لورى الى حالة اليهود بتلك البلاد ، وهاجم

التيار المادى للصهيونية والمنتشر بين اليهود فى بعض البلدان الديموقراطية . وقال ان يهود الولايات المتحدة الذين ظل كثيرون منهم لفترة طويلة مترددين فى تأييد المثل الاعلى القومى ، قد أصبحوا اليوم يعترفون بانه لم يعد هناك ملجأ للشعب اليهودى ، الا ذلك الذى حدده تيودور هرتزل

وفى نهـــاية كلمته وجه لورى نداء ليهـــود مصر بأن يضاعفوا جهودهم من أجل الوصول الى هذا الهـــدف النهائى

الفصل الثالث

حركة التصحيح

بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وصدور « وعد بلفور » استطاعت الصهيونية أن تقنع بريطانيا ، والساسة البريطانيين ، ان قيام دولة صهيونية ، او على الاقل تكتل صهيونى فى فلسطين ، سيكون ــ بلا شك ــ ركيزة لها فى الشرق وقاعدة تحمى قناة السويس التى تعتبر ممرا حيويا بالغ الاهمية ، بالنسبة لمواصلات بريطانيا الى الهند والشرق الاقصى

ثم تطورت الامور فاعتبرت فئة متطرفة من الصهيونية صدور هذا الوعد التزاما من بريطانيا لتحقيق الوطن القومى الصهيونى ، وأن تهاون بريطانيا فى تنفيذ هذا الوعد ، معناه خيانة للصهيونية لا يمكن أن تغتفر ، بصرف النظر عما يسببه هذا لها من ارهاق سياسى ، وبصرف النظر أيضا عما يحدث من سوء علاقات بينها وبين العرب ولهذا السبب قوبلت سياسة حاييم وايزمان التى تعتمد على صداقة بريطانيا وملايينتها ــ من أجل تحقيق امال الصهيونية ــ بمعارضة شديدة تزعمها فلاديمير جابوتنسكى ١٨٨٠ ــ ١٩٤٠ وهو الذى يمثل أقصى اليمين فى المنظمة الصهيونية العالمية ..

وقد استقال جابوتنسكى أولا من الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية العالمية فى يناير عام ١٩٢٣ احتجاجا

على سياسة « الكتاب الابيض » الذى صدر عام ١٩٢٢ ، متهما زملاءه فى المنظمة بفقدانهم الواقعية السياسية ، لانهم يسايرون بريطانيا دون فائدة ، مع انها تسوف فى تنفيذ وعد « بلفور »

واثر استقالة جابوتنسكى ، شكل حزبا داخل المنظمة يعرف باسم « التصحيحيين » ، أو « المراجعين »

وما أن حل عام ١٩٣٥ حتى كانت العلاقة بين « التصحيحيين » وبين انصار وايزمان قد بلغت حدا ينذر بقرب حدوث انفجار داخل المنظمة الصهيونية العالمية . وقد حاول بن جوريون التقريب ولكن جانبه التوفيق بين الفريقين فى عام ١٩٣٤ ، وقرر التصحيحيون مقاطعة المؤتمر الصهيونى التاسع عشر ، وتداولوا فيما بينهم بشأن مسألة الانشقاق عن المنظمة ، وقد رأت أقلية منهم سميت فيما بعد « بالمرحليين » ان الوضع لايستوجب الانشقاق ، وان المرحلة الحاسمة التى تمر بها الصهيونية تستدعى الوحدة والتآلف والاستمرار فى العمل داخل صفوف المنظمة

لكن الاغلبية المتطرفة أصرت على موقفها ، وشقت عصا الطاعة ، وقررت الانسحاب وقطع صلتها بالمنظمة الصهيونية العالمية . وكان يقود هذا الجناح المتطرف فلاديمير جابوتنسكى الذى ذكرنا من قبل انه شارك فى تأسيس فرقة راكبى البغال اليهودية بالاسكندرية عام ١٩١٥ . وهؤلاء أسسوا ما عرف باسم «المنظمة الصهيونية الجديدة» ، لتكون بديلا للمنظمة الصهيونية العالمية التى يتزعمها وايزمان ، ويقودها الى مايعتقدون انه « خنق الحركة الصهيونية »

ولقد بذلت محاولات مستميتة للابقاء على الوحدة داخل صفوف المنظمة ، بمحاولة اقناع المتطرفين بالتعقل

وعمل حساب الظروف ، ولكن دون جدوى ، ولهـذا فقد شكلت مجموعة من حزب التصحيحيين ، والتى يهمها الا يحدث تصدع فى اركان المنظمة الصهيونيةالعالمية القديمة والا يحدث انشقاق أيضا ، حزبا جديدا هو « حزب الدولة اليهودية »

***

على أن الذى يهمنا فى هذا المجال هو ما حدث ، بعد ان أعلن جابوتنسكى وزملاؤه قيام « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، وأهدافها . .

فمنذ قيام هذه المنظمة أعلنت أن لها ثلاثة أهداف : هى :

أولا : خلق وطن قومى يضم رقعة فلسطين وشرق الاردن

ثانيا : لم شمل اليهود فى العالم ، وانهاء حالة « التشتت » ، ثم التجمع اليهودى فى الوطن القومى الجديد . . فلسطين . .

ثالثا : بناء حضارة يهودية لغتها العبرية وروحها التوراه

وفى سبيل تحقيق هذه الاهداف الصهيونية لم تتوان المنظمة الجديدة عن رسم الخطط العملية ، لكى توضع موضع التنفيذ . . كما أنها من ناحية اخرى كشفت عن نواياها تجاه العرب ، وموقفها الصريح من مشكلة تهجير اليهود الى فلسطين

ورأت المنظمة الصهيونية الجديدة إن اقامة الدولة يستلزم فتح الباب على مصراعيه أمام كل يهودى فى العالم لدخول فلسطين ، دون قيود أو موانع . وان محاولة

عرقلة الهجرة المطلقة ، تعتبر جريمة لا تغتفر ،وان القضاء على كل المعطلات التى تعترض الطريق الى أرض الميعاد يعتبر واجبا مقدسا

وبالنسبة للعرب الذين سيعيشون داخل هذا الوطن القومى ، رأت المنظمة الصهيونية الجديدة أن تعطيهم كل الحقوق التى تطالب بها الاقليات فى الدول الاخرى

أما الطريق السليم لبلوغ الاهداف الصهيونية ، فهو يتمثل بالدرجة الاولى فى الاعتماد على الذات اليهودية ، بمعنى أنه لبناء الدولة اليهودية يجب الاعتماد اولا على اليهود أنفسهم ، من ناحية التمويل واعداد المحاربين ، ودون الاعتماد على حكومة الانتداب

وقد انعكست هذه التطورات بشكل واضح علىالحركة الصهيونية فى مصر ، وكان لها ملامحهـــا وقسماتها البارزة

البير ستراسلسكى

فى عام ۱۹۲۳ غادر مصر الى باريس صحفى يهودى شاب مولود بالقاهرة فى ۲۷ ديسمبر عام ۱۹۰۲ ، من أصل روسى ، اسمه البيرستراسلسكى

وكان البيرستراسلسكى قد تلقى تعليمه فى مدارس الطائفة الاسرائيلية فى مصر ، حتى حصل على الشهادة الابتدائية . ولم يكد يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، حتى ترك معاهد الدراسة . فقد استهوته الكتابة ، وعشق الادب ، وعمل فى الصحافة الفرنسية التى كانت تصدر فى مصر لعدة سنوات ، كان خلالها أحد الدعاة المتحمسين للصهيونية

وفى باريس حيث كان البير ستراسلسكى يزمع تكملة دراسته والتخصص فى الاقتصاد السياسى ، التقى بفلاديمير جابوتنسكى . وقد انبهر ستراسلسكى بشخصية جابوتنسكى ، وجذبته افكاره الصهيونية المتطرفة ، فكان ان كرس كل وقته لكى يتتلمذ عليه

وحين تأسس « حزب التصحيحيين » داخل اطار المنظمة الصهيونية العالمية فى باريس عام ۱۹۲٥ ، كان ستراسلسكى احد اعضائه البارزين ، ومن اخلصهم ولاء لاستاذه جابوتنسكى ، واشدهم التصاقا به ، واعجابا بافكاره المتطرفة

وبعد ست سنوات من العمل السياسي المتصل في احضان جابوتنسكي عاد ستراسلسكي الى مصر فى أوائل عام ١٩٢٩ ، ليؤسس فيها فرعا لحزب التصحيحيين ، يبشر بدعوته المتطرفة ، ويحمل لواء المعارضة داخل صفوف فرع المنظمة الصهيونية العالمية فى مصر ..

وبدأ ستراسلسكي يتصل بالعناصر المتطرفة من اليهود فى القاهرة ، ممن تزعزعت ثقتهم فى سياسة المنظمة الصهيونية العالمية ، والتى ستؤدى حتما — فى رأى التصحيحيين — الى خنق الحركة الصهيونية . وقد استطاع ستراسلسكي أن يجمع حوله لفيفا من الشباب اليهود ومن طلائع المتحمسين الذين يملأ جوانحهم الشعور بالرسالة الصهيونية ، ويعتبرون أنفسهم بناة الوطن القومى الصهيونى ، أو على الاقل معيدى بناءه . ومن هؤلاء الشبان :

- فيكتور حزان المحامى
- والاخوان ناثان وموريس هلبمان ، وهما من تجار المجوهرات فى منطقة قناة السويس
- وسالمون ليفى الموظف بالبنك الاهلى
- وفيتا كوهين من بور سعيد
- وكارلو روزنتال الذى كان يعمل بشركة كوتسكا للكحوليات
- ورفاييل سادوفسكي ، الذى كان طالبافىذلك الوقت

وهؤلاء أسسوا فرع حزب التصحيحيين فى مصر ، الذى تولى رئاسته البيرستراسلسكي ، بينما عهد بأمانته العامة الى الشاب رفاييل سادوفسكي

ولقد دفع هؤلاء الشباب الى الاستمرار والدأب على العمل مالاقته دعوتهم من مشجعين وعاطفين عليها من

اثرياء اليهود الذين كانوا على استعداد لدفع الامـــوال لدعم هذه الحركة الصهيونية . ومن هــــــؤلاء رالف جرين ، وهو واحد من كبار الملاك العقاريين ، ومن القلائل الذين سيطروا على تسويق الحاصلات الزراعية المصرية وتصديرها للخارج ، منذ بداية القرن العشرين ، ولقد عرف عن رالف جرين سخاؤه الزائد ومساهمته الكبـــيرة فى دعم الحركة الصهيونية

هذا بالاضافة الى ان ابناء عائلة موصـــيرى قد نذروا ثرواتهم وجهودهم لتأييد هذا الحزب الصهيونى ماليا وأدبيا

ولقد كانت البداية الاولى لنشاط حزب التصحيحيين فى مصر ، هى اصدار مجموعة من النشرات باللغـــة الفرنسية ، توضح موقف الحزب من مشـــكلة الوطن القومى لليهود . وكانت هذه المنشورات فى أغلبها هجوما عنيفا على سياسة الدكتور حاييم وايزمان ، بالضـــبط مثلما كان يحدث داخل المنظمة الصهيونية العالمية ، قبـل أن ينفصل عنها جابوتنسكى وأعوانه .. !

وقـد كان لنشـــــاط التصحيحيين رد فعـــل واضح

على الحركة الصهيونية فى مصر ، والتى لم تكن حتى ذلك الوقت قد بلغت درجة واضحة من البلورة والنضج فلقد الهب تطرف التصحيحيين حماس الحركة الصهيونية بوجه عام ، مما جعلها تتجه الى مزيد من التحرك والانطلاق

وبدأ ذلك واضحا حين دعت المنظمة الصهيونية العالمية، الهيئات اليهودية فى مصر لانتخاب مندوب يمثلها فى

مؤتمر زيوريخ عام ١٩٣١ ــ المؤتمر الصهيونى الســـابع عشر ــ فقد قام التصحيحيون بترشـــــيح فلاديمـــير جابوتنسكى ليمثل مصر فى المنظمة . وتقدمت مـــدام اجيون كمنافسة له

وقد اكتسح التصحيحيون المعركة الانتخابية ، وفازوا بأغلبية الاصوات . اذ حصل مرشحهم على مايقـرب من سبعمائة صوت ، بينما لم تحصل مدام أجيون على أكثر من ثلاثمائة ...

وفى هذا العام أيضا ، راى الحزب ان يصدر جريدة اسبوعية باللغة الفرنسية لتعبر عن اراء التصحيحيين ودعوتهم . فكان أن أصدر جريدة سياسية اسبوعية هى « الصوت اليهودى » واتخذ مقرا لها بشارع الشيخ ابو السباع بالقاهرة ..

وقد كان هذا المقر منتدى للاجتماعات والنـدوات السياسية الصهيونية فكانت تعقد فيه كل أسبوع حلقة للاستماع الى أخبار الحركة الصهيونية ، تتلوها مناقشات سياسية . وقد ظلت هذه الجريدة تصدر بانتظام عن حزب التصحيحيين فى مصر ، الى أن توقفت بسبب سفر البيرستراسلسكى الى فرنسا مرة أخـرى عندما استدعاه استاذه وزعيمه جابوتنسكى

والواقع أن عام ١٩٣٣ كان علما هاما فى تاريخ رئيس حـزب التصـحيحيين فى مصر ، ففيه انتخب البير ستراسلسكى مندوبا عن الحزب فى المؤتمر الصـهيونى الثامن عشر الذى عقد فى مدينة براج . وفى نفس الوقت كلفه فلاديمير جابوتنسكى فى أواخر هذا العام باصدار جريدة للتصحيحيين فى باريس

وبالفعل تولى ستراسلسكى رئاسة تحرير جـريدة « صوتنا » التى حملت لواء المعارضة ، والتنديد بسياسة وايزمان فى الاعتماد على بريطانيا لتنفيذ وعد بلفور ، وتسويفها فى تحقيق نصوص هذا الوعد

وقد اتخذت هذه الجريدة ايضا موقفا عدائيـا من العرب . ففى عددها الصادر يوم ٢ سبتمبر عام ١٩٣٤

دعا ستراسلسكي على صفحاتها الى اجتماع بدارالحزب في شارع بنتواز رقم ٧ بباريس لسماع خطاب بصدد ما سماه « بالخطر السياسي الناجم عن موقف العرب ازاء الصهيونية »

على أنه بعد أن انفصل جابوتنسكي من المنظمة الصهيونية العالمية عام ١٩٣٥ ، واسس « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، عاد ستراسلسكي الى مصر من جديد ، ليستأنف نشاطه في تنظيم حركة التصحيحيين ، بحيث تصبح فرعا تابعا للمنظمة الجديدة

ولقد اتخذ البيرستراسلسكي من مكتبه بميدان مصطفى كامل باشا مقرا لهذا الفرع ، حيث كان يعقد الاجتماعات الدورية ، وينظم المحاضرات والمناقشات ويصدر النشرات التي تدعو لمبادىء « المنظمة الصهيونية الجديدة » وتروج لافكارها

ولم يمض عام ١٩٣٦ حتى كان ستراسلسكي قد استطاع أن ينشىء فرعا اخر للمنظمة الصهيونية الجديدة في مدينة الاسكندرية ، التي كانت تعيش فيها جالية يهودية عريضة وثرية . فلقد عقد هناك عدة اجتماعات مع انصاره ومؤيديه ، ضمت فيلكس بنزاقن المحامي اليهودي أمام محكمة النقض ، وايلى بوليتي الصحفي ، ومتعهد توزيع جريدة المصري بالاسكندرية ، وجان فاينبلات ، وجاك سيد وغيرهم

وأخيرا تم تأسيس الفرع الذى ضم ثمانية عشر عضوا عاملا ، كان من بينهم جاك جافيه ، ولازاريوس كوهين

وانشأ ستراسلسكي فرعا ثالثا للمنظمة في مدينة بور سعيد تولى رئاسته هناك ناثان هلبمان صاحب محلات فولورث للمجوهرات وكان سكرتيره رولان تيركل

اما عام ١٩٣٧ ، فقد اتسم بنشاط صهيوني واسع

المدى فى العالم وفى مصر بالذات . وكان ذلك على اثر نشر تقرير « لجنة بيل الملكية » بشأن موضوع العلاقات العربية اليهودية فى فلسطين . فبعد ان انتهت هذه اللجنة من تقديم تقريرها ، الذى دعت فيه الى التقسيم ، مـــر فلاديمير جابوتنسكى على الاسكندرية ، واجتمع هنـــاك باعضاء المنظمة الصهيونية الجديدة فى مصر ، وعلى راسهم البير ستراسلسكى ، كما عقد مؤتمرا صحفيا بفنـــدق سيسل يوم ٥ يوليو سنة ١٩٣٧ تناول فيه المشـــكلة الفلسطينية وأعلن استنكاره لفكرة التقسيم ، واصرار المنظمة الصهيونية الجديدة على اقامة دولة يهودية فى الحدود التاريخية لاسرائيل ، وضرورة تنظيم الهجـرة على نطاق واسع

وقد اكد جابوتنسكى فى مؤتمره الصحفى بانه لا يمكن الحصول على موافقة العرب الا بعد اقامة الدولة الصهيونية قسرا وجبرا ، وفرضها على معارضيها

وبناء على ذلك أصـــــدر فيلكس بنزاقين المحــــــامى ، بوصفه رئيسا لفرع المنظمة بالاسكندرية نشرة باللغـــة الفرنسية هاجم فيها تقرير لجنة بيل ، وطالب بالتمسك بتحقيق وعد بلفور

كما أعدت رئاسة المنظمة الصهيونية الجديدة بالقـاهرة العديد من طلبات الانضمام الى عضـــــويتها ، لتوزيعها على نطاق واسع على أبناء الجالية اليهودية فى مصر ، دعت فيها الى وجوب تأسيس الوطن القومى لليهود . ومما جاء فيها :

« أن الطريق الوحيد المؤدى الى الهدف ، هو خلـق دولة يهودية ترتكز على مبادىء الحرية المدنية والعـدالة الاجتماعية ، على هدى من روح التوراه ، وتعمل على اعادة اليهود الراغبين الى وطنهم . وتصفية حالة التشتت »

الدور الذى لعبه الحزب

ولعب فرع المنظمة فى مصر دورا هاما فى دعم السياسة الصهيونية التى كانت ترى أن تزويد الوطن القومى بالمال هو السبيل الوحيد لتحقيق حلم الصهيونية . فبناء الوطن يحتاج الى تشييد كيان اقتصادى راسخ ، وهذا لا يتحقق الا بواسطة طريقين :

* جمع التبرعات من الطبقات الغنية من كل يهود العالم

* وحث رءوس الاموال اليهودية على التدفق الى فلسطين ، لاستغلالها فى استثمارات البلاد ، لكى يمكن الهيمنة والسيطرة على اقدارها .

وقد سارع فرعا المنظمة فى القاهرة والاسكندرية ، الى تنظيم حملات لجمع تبرعات لاكتتاب « تل هاى » الذى أنشأته « المنظمة الصهيونية الجديدة » وتولى اعضاء المنظمة فى حماس بالغ توزيع نشرات الدعاية ،التى كانت ترد اليها من مركز الاكتتاب بفلسطين . وهى نشرات كانت تطبع فى مطبعة دياج بتل أبيب ، وتحمل العلم اليهودى وشعار « بعث الامة اليهودية واسترداد أراضيها »

وفى نفس الوقت أصدرت وكالة الاكتتاب بالاسكندرية والتى كان يشرف عليها ايلى بوليتى ، ومقرها بشارع

أديب رقم ١ ، عدة نشرات كان مطبوعا على البعض منها خريطة لفلسطين ، تبرز موقع مستعمرة « تل هاى » وأسفلها قول يوسف ترمبلدور : « اذا أردنا خلق شيء كبير ، فعلينا بالعمل » . وعلى البعض الاخر صورة لحائط المبكى فى أورشليم ، وعبارة تشير الى أن المشاركة فى هذا الاكتتاب « بعث للامة اليهودية »

ويوسف ترمبلدور الذى ذكرنا من قبل انه كان من أبرز جنود فرقة راكبى البغال اليهودية عام ١٩١٤ ، قتل عام ١٩٢٦ أثناء الاضطرابات التى حدثت فى فلسطين . وقد جعل منه الصهيونيون بطلا يحتفلون بذكرى وفاته كل عام . وقد اعتادت المنظمة الصهيونية الجديدة فى مصر الاحتفال بهذه الذكرى .. وكان اخر احتفال أقيم فى مصر بهذه المناسبة فى فبراير من عام ١٩٤٥ فى « مدرسة نقطة اللبن »

ولقد أثمرت حملة الاكتتابات هذه ، وجمعت المنظمة أموالا طائلة ، بعثت بها الى مركز الاكتتاب فى فلسطين

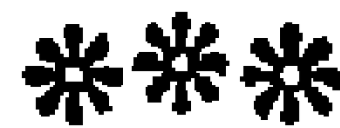
وحين هرب البيرستراسلسكى من مصر عام ١٩٤٢ بمساعدة المخابرات البريطانية الى فلسطين ، خوفا من هجوم قوات المحور التى اقتربت من العلمين ، تقابل هناك مع مدير اكتتاب تل هاى « المستر بومفيلد » ومؤسسه منذ عام ١٩٢٩ واتفق معه على اعادة تنظيم عملية التبرع لصندوق الاكتتاب

وبعد عودته الى مصر ، على أثر انتهاء أزمة العلمين ، عهد الى سالمون ليفى ـ عضو المنظمة والموظف بالبنك الاهلى ـ بالاشراف على هذا العمل ، وكلفه بوضع أكثر من عشرين صندوقا لجمع التبرعات فى الاماكن التى يتردد عليها اليهود فى القاهرة . وارسال حصيلتها أولا بأول الى مركز

الاكتتاب ، عن طريق فرع بنك باركليز بالقاهرة أو مع بعض الاشخاص ، الذين يثق بهم

ومن ناحية أخرى ، افتتح جاك سيد ـ عضو المنظمة ـ مكتبا عقاريا فى الاسكندرية باعتباره وكيلا عن عدد من المؤسسات اليهودية في فلسطين ، والتى تقوم بشراء الاراضى العربية وبيعها لليهود • وكان جاك سيد هذا يحتفظ لديه بخرائط تفصيلية للاراضى المطروحة للبيع ، يعرضها على عملائه من اليهود فى مصر ، الذين يساهمون بهذه الوسيلة فى تجريد العرب من أراضيهم

ومن بين المكاتب التى كان جاك سيد يتعامل معها ، ويعمل وكيلا لها ، مكتب اسرائيليوس زرفاداس بشارع يوناحانى رقم ٢٦ بتل أبيب • ومكتب أفيزرسيفى رقم ٨٧ بشارع شيلوموها ميلكل بتل أبيب أيضا



ثم حدث أن توفى فلاديمير جابوتنسكى فى مدينة نيويورك فى ٤ من يوليو عام ١٩٤٠ ، وبوفاته لم تستطع المنظمة الصهيونية العالمية الجديدة أن تنتخب رئيسا يخلفه ، وذلك لتعذر عقد مؤتمر صهيونى عالمى بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية

وهنا اقتصرت المنظمة على انشاء مكاتب رئيسية لها في كل من فلسطين ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة الامريكية، وجنوب أفريقيا ، وقد تولى الدكتور أرييه ألتمان رئاسة مكتب القدس والمستر أبراهامز رئاسة مكتب لندن ، والكولونيل مندلسون رئاسةمكتب جنوب أفريقيا

وفى هذا التنظيم أصبح فرع المنظمة فى مصر ، تابعا من الناحية التنظيمية لمكتب القدس ، وللتوجيه الشخصى

لرئيسه الدكتور التمان • ولذلك فقد أخذ الدكتور التمان يتردد كثيرا على القـــاهرة والاسكندرية ، للاشراف على نشاط المنظمة ، لما كان لمكتب مصر من أهمية •• نظرا لما يمكن ان يقدمه للمنظمة من عون

ففى عام ١٩٤٢ حضر الدكتور التمان الى القـــاهرة ، حيث عقد اجتماعا فى منزل سيمون يانكوفيتش بشـــارع نوبار باشا ـ وهو أحد أعضاء فرع المنظمة البـــارزين ـ وزوجته ليفشا ـ يانكوفيتش التى كانت سكرتيرة عـامة لها ، وقد حضر هذا الاجتماع نحـــو اثنى عشر عضوا من بينهم البير ستراسلسكى ، ورفاييل سادوفسكى ، وبعض اليهود المجندين المتطرفين مثل جوزيف ستنر ، وفاينبرج، اللذين سيأتى الحديث عنهما عند الكلام عن جماعة شترن ونشاطها الارهابى فى مصر • ولقـد تنـاول الاجتمـــاع مناقشة المشكلة الفلسطينية ، وظروف اليهود وأحوالهم فى فلسطين ، وخطة المستقبل بالنســـبة للوطن القومى اليهودى ، وبالنسبة للجنود اليهـــود بعد تسريحهم من جيوش الحلفاء

وفى عام ١٩٤٣ ألقى الدكتور التمان محاضرة فى مكتب الاستعلامات الصـــهيونى التـــابع للوكالة اليهـــودية بالاسكندرية ، عن مركز اليهود فى ألمانيا • وطالب بالعمل على تحرير اليهود من المذابح الجماعيـــة التى يشـــنها الفاشيون فى ألمانيا ودول البلقان ، والبلاد المحتـلة • وفى هذه المحاضرة أشار الدكتور أريبه التمان الى وجـــوب تكاتف يهود مصر من أجل جمع التبرعات للمســـاهمة فى عملية التهجير . وقد اسـتطاع التمان فى هـذه الزيارة والزيارات التى تلتهـــا لفرعى المنظمة فى القـــاهرة والاسكندرية ، أن يجمع تبرعات ضخمة من أثرياء اليهود، بلغت عدة آلاف من الجنيهات

على أنه فى فبراير من العام التالى ١٩٤٤ عقد الدكتور التمان فى مدينة الاسكندرية مؤتمرا صهيونيا كبيرا حضره ثمانون شخصا من أعضاء المنظمة الصهيونية الجديدة ،فى منزل المسيو روسانو ، وهو من كبار تجار القطن بالمدينة. ولقد ألقى الدكتور التمان فى هذا المؤتمر خطابا سياسيا ، أكد فيه أنه فى حالة فشل الصهيونيين فى الحصول على مطالبهم بالوسائل السلمية ، فانهم سيضطرون الى الالتجاء الى العنف ، وحمل السلاح من أجل تحقيق أهدافهم

وعندما علمت سلطات الامن فى مصر بهذا الاجتماع ، وأدركت مدى ما ينطوى عليه من خطر ، أرسل جورج جيز باشا وكيل حكمدارية الاسكندرية ـ فى ذلك الوقت ـ كتابا الى الكولونيل جايلز مدير القسم الجنائى والسياسى بحكومة فلسطين فى القدس . روى له فيه تفاصيل ما دار فى هذا الاجتماع ، وما حواه خطاب الدكتور التمان من تهديد سافر للحكومة البريطانية . وطلب من الكولونيل جايلز التنبيه على الدكتور التمان بأن يمر عليه لمقابلته اذا حضر الى القطر المصرى ، كى يتفاهم معه فى هذا الشأن ، ويحذره من مغبة مثل هذه الاجتماعات ، وما يدور فيها من مناقشات

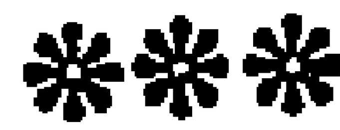
ولقد حضر الدكتور التمان فعلا ، وقابل جيز باشا فى ١٩ أبريل عام ١٩٤٤ ، وصحب معه ألبير ستراسلسكى ، والمسيو روسانو . ولم يحاول أحدهم أن ينكر ما دار فى هذا الاجتماع . وتطرق الحديث الى مناقشة الاوضاع السياسية فى فلسطين

واحتد الدكتور التمان ، وأعلن بحزم ، أن « المنظمة الصهيونية الجديدة » تضع فى اعتبارها أولا وأساسا ، انشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، وهى بعد ذلك

لا تمانع فى ضم فلسطين الى الكومنـــولث البريطانى ، مع منحها استقلالا ذاتيا

وفى هـــذا الاجتماع أيضـــا ، ردد الدكتور التمان تهديداته ، بأنه اذا لم تستجب الحكومة البريطانيـــة لهذه المطالب ، فان الصهيونيين سيتكفلون بتحقيقها بوســائلهم الخاصة ، وانه هو شخصيا سوف يتقدم الصـــفوف ولن يدخر وسعا فى الوقوف أمام الانجليز

وأمام هذا الموقف المتشدد تراجع جيز باشا ، وقال انه كموظف في الحكومة المصرية ، لا يعنيه الا الابتعاد بيهود مصر عن التورط فى مشاكل اليهود الفلســطينيين ، حتى لا يؤثر ذلك على علاقتهم بالشعب المصرى ، وحكومته



فى بداية عام ١٩٤٤ كانت تطورات الحرب العالميـــة الثانية ، تشير الى انتصار الحلفاء ، واندحار دول المحور • ولهذا بدأت المنظمة الصهيونية الجديدة تتحرك بدرجـــة عالية من التنظيم والتكتيك ، وذلك لاتخاذ الخطوات الكفيلة باعلان الوطن القومى اليهودى غداة انتهاء الحرب • ومن أجل ذلك رأى الدكتور التمان وجوب دعم نشـــاط المنظمة فى مصر ، واضفاء صفة الشرعيـــة عليهـــا بالحصـــول على اعتراف رسمى من الحكومة المصرية بتأسيسها وشرعيتها • فأصدر ـ بوصفه رئيسا لفرع المنظمة فى القدس ـ قرارا أبلغه الى البير ستراسلسكى يوم ٢٥ فبراير عام ١٩٤٤ بتعيينه ممثلا للمكتب السياسى لرئاسة المنظمة الصهيونية العالمية الجديدة فى القاهرة وعهد اليه بتنظيم وادارة كافة شئونها فى البلاد

وعلى أثر ذلك عمد ستراسلسكى الى اعادة تشكيل فرع القاهرة باعتباره قومسييرا عاما ، وزعيما للجمـــاعة فى

مصر ٠ ودعا الى اجتماع في مكتبه يوم ٢٥ يونيه عام ١٩٤٤ اقترح فيه تكوين هيئة الفرع من فيكتور حزان المحامي رئيسا ، ومدام فورتينيه حزان زوجته للسكرتارية العامة ، وزفاييل سادوفسكي مساعدا للسكرتير ، وفيكتور بيرس أمينا للصندوق ، وأكوباس مساعدا لامين الصندوق كما ضم الفرع نحو ٤٥ عضوا عاملا من بينهم سالمون ليفي ، وفيكتور كوهين ، وكارلو روزنتال ، وناثان هلبمان ، ونلسون موربورجو المحامى

وحرر البير ستراساسكي محضرا بهذا الاجتماع ، بعث به الى الحاكم العسكرى العام فى مصر ، يطلب موافقته على تكوين الفرع

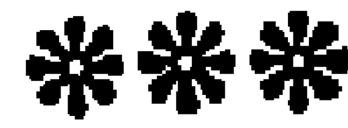
تحذير وكيل وزارة الداخلية

وفى أوائل يوليو ١٩٤٤ استدعى حسن رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية البير ستراسلسكي ومعه فيكتور حزان، ونلسون موربورجو ، ورفاييل سادوفسكى • وأبلغهم أن الحكومة المصرية لا توافق على انشاء فرع للمنظمة الصهيونية الجديدة فى مصر • وبالتالى فان عليهم أن يوقفوا نشاطهم كلية • وكان ذلك على أثر طلب تقدم به ستراسلسكي للتصريح بالاحتفال بيوم وفاة منشىء المنظمة الصهيونية الجديدة فلاديمير جابوتنسكى ، الذى اعتاد فرع المنظمة الصهيونية اقامته سنويا بمركز الجماعة فى شارع معروف

ورغم تحذير وكيل وزارة الداخلية المصرية وعدم موافقة الحاكم العسكرى العام فى مصر ، فان الصهيونية استمرت فى نشاطها ، وسارت فى اتجاهها المرسوم ، تتآمر ضد الشعب العربى فى فلسطين ، وتخون الشعب العربى فى مصر • وقد ظل هذا النشاط الصهيونى على أشده الى مارس من عام ١٩٤٥ حين ألقى القبض على رفاييل سادوفسكى الصهيونى ، الذى كان أمينا عاما للمنظمة الصهيونية الجديدة ، وفى نفس الوقت عضوا فى الجماعة الارهابية شترن

وبدأت خيوط التنظيم الصهيونى فى مصر تتكشف بعد

أن اعترف سادوفسكي بأن ستراسلسكى سجل دفاع قاتلى اللورد موين فى جلسات المحاكمة ، وهو الدفاع الذى منعت المحكمة اذاعته ، وأعطاه لواحد من ارهابيى شترن هـو بنيامين جبنر لتوصيله الى مركـز العصابة فى فلسطين



وظلت المنظمة الصهيونية العالمية الجـديدة فى مصر تواصل اتصالاتها المستمرة والمباشرة بفـروع المنظمة فى مختلف البلدان وعلى وجه الخصوص ببريطانيا .. لتتبادل معها الانباء والخبرات والمعلومات وأساليب الدعاية ، بعـد تحذير وكيل وزارة الداخلية المصرية لألبير ستراسلسكى بوقف النشاط الصهيونى

ففضلا عن أن ستراسلسكى ، كان يعمـل مراسـلا لجريدة « هاما شكيف » وهى جريدة التصحيحيين ، فقـد كان يتلقى بانتظام أعداد هذه المجلة ، ومجلتى «هاياردن» ، و «البحر والطيران» لتوزيعهما على أبناء الجالية فى مصر

كما كان ستراسلسكى يتم اخطاره أولا بأول بالاحداث التى تجرى فى المنظمة هنـاك . ففى ١٢ أبريل ١٩٤٣ ، أرسل له المكتب السياسى تفاصيل ما دار فى اجتمـاع الجمعية العمومية لاتحـاد الطلبـة اليهود الذى انعقد فى اليوم السابق ، وما اتخـذه من قرارات كان من أبرزها وجوب القيام بحملة واسعة لانشـاء الجيش اليهـودى الوطنى ، واتخاذ الاجـراءات الكفيـلة باقصـاء الدكتور ماسبش من الجامعة العبرية والمعاهد اليهودية الفلسطينية ، وتأييد وتحية اليهود المجهولين المستبعدين فى أوربا بسبب ذودهم عن الشرف اليهودى

كذلك كان ستراسلسكى على اتصـال دائم بالمستر

ابراهامز رئيس مكتب لندن ، وحين مر ابراهامز بالقاهرة فى عام١٩٤٤، وهوفى طريقهالىفلسطين ،دعاهستراسلسكى الى اجتمـــاع ، شرح فيه الموقف الراهن فى فلســـــطين ووصفه بأنه فى غاية السوء بسبب أعمال الارهابيين

وكانت جريدة « الزيونيوز » التى تصدر عن مكتب المنظمة بلندن تصل باستمرار الى فرع مصر لتوزيعها

كما استمر ستراسلسكى يراسل جريدة « الجويش كرونيكل » أقدم جريدة انجليزية يهودية

ومن جنوب افريقيا كان المستر هايمان ليفى سكرتير المنظمة الصهيونية الجديدة هناك خلال عامى ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ ، يراسل فرع مصر ، ويبعث اليه بنشراته التى تتناول مختلف نواحى نشاطه . كذلك كان ستراسلسكى يراسل جريدة « الجويش هيرالد » وهى لســـان حال التصحيحيين فى مدينة الكاب بجنوب افريقيا

والواقع ان ارتباط الفــرع المصرى ، بفــرع جنوب افريقيا كان وثيقا الى حد بعيد ، فقد كان التصحيحيون هناك قوة لا بأس بها . وكان أعضاء الحزب من جنود الجيش البريطانى الذين يعملون فى مصر ، يترددون على مقر فرع القاهرة ، ويلتقون بستراسلسكى ، ويعقدون معه الاجتماعات السرية السياسية

وكان مكتب أمريكا يوافى الفــرع المصرى بمطبوعاته الســـياسية ، ومن بينها برنامجه الذى يحمل عنوان « الصهيونية الجديدة فى أمريكا ، اغراضـــها ومبادئها وســـياستها » وكان أعضـــاء المنظمة فى مصر يقومون بتوزيعه على نطاق واسع على الجالية اليهودية

وفضلا عن ذلك عنيت أمانة المنظمة بالاهتمام بالشباب المؤمن بالمبادىء الصـــهيونية ، فأنشأ جاك ســـيد فى

الاسكندرية فرعا لجماعة « بتار » وهى المنظمة الصهيونية للشباب ، التى انشأها جابوتنسكى ، وأصبحت لها فروع فى مختلف بلدان العالم . ولقد ضمت هذه الجماعة فى مصر عددا من الرياضيين اليهود كستار لاخفاء نواياها السياسية ، اشتركت رسميا فى افتتاح الاستاد الاولمبى فى الاسكندرية ، على زعم انهما جماعة رياضية وقام أعضاؤها بعرض تفدمه جاك سيد نفسه ، وهذه الجماعة بدورها ظلت على اتصال بمركز جماعة « بتار » بتونس ، كما كانت تتبادل المعلومات والنشرات مع جماعة « بتار » بمدينة الكاب فى جنوب افريقيا ، وكذلك مع الجماعة فى فلسطين

وظل ستراسلسكى بصفته قومسييرا عاما لجماعة الصهيونيين الجديدة ، يوجه خطاباته الى الصحفيين والمحافل الماسونية ورؤساء الجماعات اليهودية الاخرى وليون كاسترو رئيس جماعة الصهيونية القديمة وللمفوضيات والسفارات ، ورؤساء الجاليات ، وعلى الاخص اللورد كيلرن ، سفير بريطانيا فى مصر ، فى الكثير من المسائل التى تخص الطائفة اليهودية ، واستمر فى نشاطه الصهيونى حتى بعد أن طلب منه حسن باشا رفعت وقف نشاط المنظمة الصهيونية الجديدة فى مصر . ولقد تعلل ستراسلسكى ـ بعد ذلك ـ بأنه كان يقوم بنشاطه بصفته ممثلا للمكتب السياسى لرئاسة جماعة الصهيونية العالمية الجديدة ، وليس بوصفه قومسييرا عاما للجماعة فى مصر ، وأن هذه الصفة لا تدخل فى نطاق التحذير والمنع

ومع أنه صدر الامر بطرد البير ستراسلسكى من البلاد المصرية فى يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٤٥ وذلك لنشاطه المعادى ، فان طرده فى الحقيقة لم يكن نهاية للتآمر الصهيونى الذى ظل ينفث سمومه سرا

الفصل الرابع

الإرهاب

كان اغتيال اللورد والترموين فى حى الزمالك بمدينة القاهرة ، فى يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، تصعيدا لحركة الارهاب الصهيونى ، الذى بدأ قبل ذلك التاريخ بسنوات معدودات ، من أجل الضغط على سلطات الانتداب البريطانى فى فلسطين ، وعلى المواطنين العرب هناك ، لاقامة الوطن القومى اليهودى

ولقد كادت أسرار ودقائق حادثة اغتيال وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط تظل فى طى الكتمان ، لو لم يتم القبض على رفاييل سادوفسكى الذى كان عضوا بارزا فى حزب « التصحيحيين » فى مصر ثم « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، كما أسلفنا

ففى يوم تنفيذ حكم الاعدام فى قاتلى اللورد موين — الياهو حكيم والياهوبت سورى — ضبط سادوفسكى عند قبر القاتلين بمدافن اليهود بالبساتين فى حى المعادى وهو يهيم على وجهه مسلوب الارادة فاقد الاتزان وفى حالة نفسية منهارة

وثبت انه لم يكن فحسب واحدا من اليهود الذين انضموا الى الحركات الصهيونية والمنظمة الصهيونية الجديدة التى يرأسها ستراسلسكى بالذات .. بل كان عضوا عاملا فى التنظيم الذى يتبع عصابة « شترن »

مباشرة فى فلسطين وكان همزة الوصل أو الامين العام لفرع « شترن » فى القاهرة

فهو الذى كان يعلم بالجريمة قبل ارتكابها وكان الساهر على طلبات القاتلين ـ الياهو حكيم ، والياهوبت سورى ـ منذ أن جاءا من فلسطين وحتى ارتكابهما جريمة الاغتيال . كما أنه هو الذى قام بعملية تنظيم لقائهما مع أفراد العصابة من الجنود اليهود الذين يعملون فى الجيش البريطانى فى منطقة الشرق الاوسط

***

وقبل أن نعرض لجريمة الاغتيال ، وكيف نسجت خيوطها فى فلسطين لتنفذ فى مصر ، نتوقف قليلا للحديث فى ايجاز عن التنظيم الارهابى وجذوره التاريخية فى فلسطين

فنتيجة للهجرات اليهودية المتكررة الى فلسطين ، لم تجد الحركة الصهيونية بدا من اجلاء العرب عن أراضيهم بقوة السلاح . فكونت الوكالة اليهودية ميليشيا عسكرية بدعوى حماية مستعمراتها المتزايدة ..

وفى أواخر الثلاثينات ، كان العدوان الصهيونى على سكان البلاد العرب يتزايد عنفا . واقترن هذا الاعتداء باسم فلاديمير جابوتنسكى ، اليمينى المتطرف الذى أنشأ فرقة عسكرية لمقاومة العرب . ثم دفع بالمنظمة الصهيونيةالعالمية دفعا حثيثا الى أنتنشىء فرقة عسكرية دائمة لحماية المستعمرات اليهودية ، هى فرقة « الهاجناه »

وعندما تصاعد الخلاف بين انصار جابوتنسكى ، وانصار وايزمن فى داخل المنظمة الصهيونية العالمية كما أوضحنا من قبل ، انعكس هذا الخلاف على الهاجناه ،

فانشق منها عام ١٩٣٧ جناح يؤمن بمبـــادىء جابوتنسكي أطلق على نفسه « الارجون زفاى ليومى » أى المنظمـــة العسكرية القومية

وظلت الارجون تمارس أعمال الارهاب العنيف ضد العرب ، وضد حكومة الانتـــداب فى نفس الوقت ، الى أن أعلنت الحرب العالمية الثانية ، فأصدر جابوتنسكى بيـــانا وجهة الى الشعب اليهودى ، لوقف أعمـــال الارهاب ضد الانجليز جاء فيه :

« يهـــدد عدو متوحش بولندا قلب المنفى اليهودى ، حيث يقطن منذ ألف عام تقـريبا ثلاثة ملايين يهودى يدينون بالولاء للبلاد ، وللامة البولندية

« وتواجه نفس التهديد ، فرنسا موئل الحرية

« ولقد قررت انجلترا أن تعتبر هذه الحرب حربها . ولا ننسي نحن اليهود أن انجلترا منذ عشرين عاما ، وحتى وقت قريب ـ كانت رفيقتنا فى صهيون . لذلك فان مكان الامة اليهودية هو فى جميع الجبهات التى تحارب فيها تلك الامم ، من أجل ارساء أسس المجتمـع الذى يعتبر كتابنا المقدس وثيقته العظمى »

ولم يلق موقف جابوتنســكى تأييد الجميع ، فقد خرجت عليه فئة انشقت من الارجون فى يونيو عام ١٩٤٠ أطلقت على نفسها اسم « لخماى حيروت اسرائيل » أى « المحاربون من أجل حرية اسرائيل » . وتعرف هذه الفئة كذلك باسم « جماعة شتيرن » نسبة الى ابراهام شتيرن زعيم المنشقين والذى كان مساعداً لدافيد راتزيل قائد الارجون

وبدأت جماعة شترن نشاطها الارهابى سرا ، وكان عددها محدودا ، غير انها تميزت بتنظيمها الحديدى .

فقد كانت منظمة على هيئة حلقات لاتزيد الواحدة منها عن عشرة أشخاص • ولا يعرف عضو الحلقه أحدا فى الجماعة غير أفراد حلقته

وكانت هذه الجماعة تؤمن بأن الوسـيلة الوحيدة لاقامة الوطن القومى اليهودى هى احراج مركز الانجليز أثناء الحرب ليتركوا فلسطين .. وفى هذا السبيل دبرت عدة جرائم اغتيال لكبار موظفى الانتداب .. وشـنت حملة ارهابية امتدت حوالى ثلاث سنوات ونصف

شترن فى القاهرة

وقد امتد نشاط هذه الجماعة الى مصر . فأقامت فيها تنظيما متكاملا اشترك فيه بعض الصـهيونيين المصريين ، وقام بتنفيذ عدة عمليات فى القاهرة والاسكندرية وفى معسكرات الجيش البريطانى ، مثل اغتيال اللورد موين ، ومحاولة نسف مؤتمر الجامعة العربية الذى عقد بقصر انطونيادس بالاسـكندرية ، وتهريب الاسـلحة والذخائر والمفرقعات من المعسكرات الى مركز العصابة فى فلسطين

وأول اسم يقفز الى الذهن من افراد عصابة شترن فى مصر هو جوزيف ستنر

جوزيف ستنر

كان الرأس المدبر ، والعقل المخطط لتنفيذ جريمـة اغتيال اللورد موين ٠٠ وهو بولندى الاصل ، انضم منذ صباه الى جماعة « المكابى » ٠٠ ثم أصبح عضوا عاملا فى جماعة « بتار » منذ عام ١٩٣٨ ٠٠ وفى عام ١٩٤٢ تطوع فى الجيش البريطانى ، باشارات السلاح الجوى الملكى ٠٠ وانضم الى جماعة شترن فكان من أعضائها البارزين فى

فلسطين ، ومن المتخصصين فى تنظيم الاغتيـــالات وتدبير الجرائم الارهابية .

وعندما قررت العصابة القضاء على اللورد موين فى القاهرة بالذات ، عهدت اليه برسم الخطـوات الكفيلة بتحقيق هذا الهدف . فتعرف على رفاييل سادوفسكي اليهـودي الذى يعيش فى مصر ، وعضـــو « المنظمة الصهيونية الجـديدة » فى ذلك الوقت ، واســـتطاع استمالته وضمه الى صفوف الجماعة .. واستغله فى تحقيق مآرب العصابة

وكان جوزيف ستنر شابا حريصا ، ذا شخصية قوية مؤثرة . فلم يكن يتردد على الحانات والاماكن العامة الا بحذر شديد . وكان من عادته حين يدخل اى مكان ان يتفحص وجوه الجالسين فيه بسرعة فائقة . ويختار على الفور مقعدا قرب الباب الخارجى ضـــمانا لسرعة التصرف فى حالات الطوارىء ..

وكان مبدؤه الذى يردده دائما لكل فرد من افراد العصابة :

« ان للارهابى عدوين : الكلام . والكتابة »

وامعانا منه فى الحذر اتخذ لنفسه اسما حركيا هو « بن زيفى » ..

والواقع انه كان فى تخطيطه للعمليات الارهابية يتبع أسلوبا يتميز بالدقة والاتقان .. كما كانت تتوافر فيه كافة الصفات اللازمة لادارة الجمعيات السرية .. ولهذا كان واحدا من ثلاثة ممن يتصلون اتصالا مباشرا برئاسة العصابة فى فلسطين التى كان يراســـها فى ذلك الوقت الارهابى « فريدمان يلن »

زفى فاينبرج

ومن العناصر البارزة فى العصابة مع جوزيف ستنر ، كان زفى فاينبرج ، وهو ليتوانى الاصل ، تطوع فى الجيش البريطانى عام ١٩٣٩ ، واشترك فى معركة العلمين ، كما كان من بين قوات الحلفاء التى دخلت سوريا

وفاينبرج على عكس ستنر ، لم يكن حذرا حذره ، بل كان على جانب من الاستهتار وعدم المبالاة ، وعندما مات فى حادث بمدينة الاسماعيلية ، بعد أن صدمه قطار اثناء عبوره أمام محطة السكك الحديدية ، عثر معه على اوراق ذات شأن وخطورة بالنسبة لعصابة شترن

وكانت مهمة فاينبرج الاساسية هى تهريب الاسلحة والذخيرة من مصر الى مركز العصابة فى فلسطين .. وقد ساعده عمله بمدينة الاسماعيلية بين معسكرات الجيش البريطانى الرابضة على قناة السويس ، فى الحصول على كميات هائلة من الاسلحة . وسهل له قربه من فلسطين تهريبها مع الجنود العائدين فى أجازاتهم ..

وقد ساهم فاينبرج فى تنفيذ جريمة اغتيال اللورد موين ، فهو الذى احضر من فلسطين المسدسين اللذين إستخدما فى الحادث ، وسلمهما فى الاسماعيلية الى اريبه كوريتسكى ، الذى أوصلهما بدوره الى رفاييل سادوفسكى فى القاهرة . وقد ثبت أن هذين المسدسين سبق أن استخدمتهما العصابة فى عدة حوادث من بينها اغتيال مفتش الشرطة البريطانى فى بيت المقدس

وفاينبرج ، كان معروفا تمام المعرفة لسلطات الأمن الانجليزية فى فلسطين ، فهو من الارهابيين الخطرين ، وكان قد قبض عليه مع جوزيف ستنر ، قبل أن ينضم

لقوات الحلفاء . وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات

وهو بدوره كان على اتصال مباشر برئاسة العصابة في فلسطين .. وقد ظل في القاهرة يتابع أحداث قضية اللورد موين بعد القبض على القاتلين ، وفي احدى مقابلاته مع رفاييل سادوفسكى بعد الحادث ، شجعه واثنى عليه وأخبره أنه رأى اسمه مدونا على لوحة الشرف في مركز العصابة بفلسطين ، تقديرا لبطولته وتفانيه من أجل قضية الصهيونية .. وحذره أن يذكر ــ ان سئل ــ شيئا عن علاقتهما ، وطلب منه أن يقول أنه يمت له بصلة القربى ، وانه لم يقابله منذ شهور عديدة

بنيامين جبنر

أما ابرز شخصيات العصابة ــ في الحقيقة ــ بعد جوزيف ستنر ، فهو بنيامين جبنر ، الذى كان أول رئيس لجماعة شترن في مصر . فقد وفد اليها مع الجيش البريطاني في عام ١٩٤٢ . وبدأ على الفور اتصالاته بالحركات الصهيونية بين يهود مصر ، ووسع دائرة علاقاته مستقطبا العناصر اليمينية المتطرفة .. وقد ظل يدير فرع العصابة في مصر ، الى أن سافر مع قوات الكوماندوز البريطانية التى قامت بغزو ايطاليا .. مخلفا في الرئاسة جوزيف ستنر الذى خطط لاغتيال اللورد موين كما أوضحنا من قبل ...

وجبنر بولندى الاصل ، بدأ حياته في المنظمات الصهيونية فانضم الى جماعة « بتار » في بولندة بين عامى ١٩٢٩ ــ ١٩٣٣ ثم رحل الى فرنسا ليدرس العلوم الزراعية في نانسى . وهناك تعرف على ألبير ستراسلسكى قوميسير فرع المنظمة الصهيونية الجديدة في مصر ــ بعد ذلك ــ وزامله في التتلمذ على فلاديمير جابوتنسكى

وفى سنة ١٩٣٦ هاجر الى فلسطين ، وأقام ثلاثة اشهر فى مستعمرة « بتاح تكفاه » ثم انتقل الى تل أبيب حيث عمل فى مصنع للمياه الغازية يملكه ب . لفيت وظل يعمل به الى نوفمبر سنة ١٩٣٩ . وخلال هذه الفترة كان قد انضم الى الارجون عن طريق صديقه آريبه اتزهاكى (أحد الارهابيين ، قتل عام ١٩٣٩ - نتيجة انفجار قنبلة زمنية كان يزمع تفجيرها) . وقد قبض عليه مع سبعة وثلاثين صهيونيا آخرين بتهمة التدريب السرى واحراز أسلحة غير مرخصة والاشتباه فى انتمائهم الى المنظمات الارهابية . وحكم عليه بالسجن عشر سنوات ، خفضت الى سبع . قضى منها ٣٦ شهرا ثم أفرجت عنه حكومة الانتداب فى يناير ١٩٤٢ ، وفى سبتمبر من نفس العام تطوع فى الجيش البريطانى ، وعمل فى مصر بفرقة مساحة الميدان رقم ٥٢٤ بالمعصرة ، ثم انتدب كمترجم فى فرق غزو صقلية ، واشترك فى فرقة الكوماندوز التى ساهمت فى غزو ايطاليا

وجبنر ، يعتبر من أصلب جماعة شترن عودا ، واكثرهم تطرفا ، وكان على درجة عالية من الثقافة ، فكان يجيد عدة لغات : الايطالية والروسية والبولندية والالمانية ، والشلختية ، والعبرية .. وكان يتحدث دائما بالفرنسية . كما كان يحظى باحترام زملائه الجنود .. فقد كان يدرس الاساليب الحديثة للحركات السرية فى كل من يوغوسلافيا وايطاليا ، ويبعث الى مركز القيادة العامة لعصابة شترن فى فلسطين بأحدث المعلومات عنها . ويتولى بنفسه تدريب زملائه الاعضاء عليها

ولم يكن جبنر يخفى فخره بالانتماء الى هذه العصابة واعلانه انه من الارهابيين ، فكان عند الحديث عن

الارهابيين يقول بلا مواربة « نحن المحاربون » .. بينما كان زميله ستنر يقول « هم المحاربون » تورية وتمويها

وعندما أخذت سلطات الانتداب فى فلسطين تتعقب الجماعات الارهابية وتصادر أجهزة الارسال اللاسلكية التى تستخدمها فى اذاعة بلاغاتها واتصالها بأعضائها ، لم ينس جبنر أن يحضر معه عند عودته من ايطاليا جهازا لاسلكيا ، أخفاه فى القاهرة عند فتاة يهودية تدعى سارة أمادو كانت تقطن فى شارع الفلكى بباب اللوق ، توطئة لتهريبه خلسة الى فلسطين ..

ومع أن جبنر لم يعاصر عمليات الاعداد لاغتيال اللورد موين ، ولم يكن فى مصر وقت تنفيذ الجريمة .. الا انه ما أن سرح من الجيش حتى بقى فى القاهرة أثناء محاكمة القاتلين الياهو حكيم والياهوبت سورى ، وكان يمضى أغلب الوقت فى مكتب ألبير ستراسلسكى ، واستطاع أن يحصل منه على نسخة من دفاع حكيم وبت سورى ، بعث بها سرا الى مركز العصابة فى فلسطين كما حمل معه عند عودته كل الصحف والمجلات التى صدرت فى القاهرة والتى كانت تحوى أخبار القضية

أرييه كوريتسكى

كان ألصق اعضاء العصابة بجبنر ، أرييه كوريتسكى ، وهو بدوره بولندى الاصل .. وكان يتسم بالذكاء والفطنة وعلى جانب كبير من الثقافة .. وقد عهد اليه جبنر باخفاء الاسلحة والمفرقعات توطئة لتهريبها الى مركز العصابة .. فكان المسئول عن تدبير المخابىء السرية لاخفائها حتى تسنح الفرصة لنقلها الى فلسطين .. كما سلمه فاينبرج المسدسين

اللذين استخدما فى قتل اللورد موين وقام بتوصيلهما الى سادوفسكى فى القاهرة ..

روبين فرانكو

ومن بين أفراد العصابة ، روبين فرانكو الـــــذى كان قبل هجرته الى فلسطين رئيسا لجماعة « بتار » بصوفيا ، وسكرتيرا « لحزب التصحيحيين » فى بلغـــــاريا ، ورئيســـــا لتحرير جـــريدة الحزب المســـماة « زاسفيت » • وخــــلال الحـــرب تطـــوع فى الجيش البريطانى ، وعمل بثكنات المعادى . وشارك فى عمليات غزو ايطاليا مع جبنر . وممـــا يذكر عنه أنه يوم مصرع اللورد موين سأله قائده البريطانى فى ايطاليا عن رأيه فى الجريمة فأجابه قائلا :

« سأقف دقيقتين حـــدادا على روح اللورد كما فعــل البرلمان الانجليزى عندما وقف دقيقتين حدادا على روح المليونين من اليهود الذين راحوا ضحية المذابح الجماعيه فى أوربا »

ومن أعضاء العصابة الاخرين :

هوروشون هوروفيتش

وهوروشون هوروفيتش ، من فلســـــطين ، تطوع فى البحــــرية الانجليزية وكان الســـــاعد الايمن لجوزيف ستنر ، والممثل له بالاســـــكندرية •• وقد ساهم فى جمع الاسلحة وتهريبهـــا ، وكان يشرف على مخازن اخفائها . وقد قبض عليـــه ، مع ستنر بتهمة محاولة نسف مؤتمر الجامعة العربية ، الذى عقد بقصر انطونيادس بالاسكندرية عام ١٩٤٤ ، ولما أفرج عنهما لعدم كفاية الادلة نقل الى مدينة الاسماعيلية ، حيث

نقل نشاطه الارهابي الى هناك .. ووجد في الاسماعيلية مجالا أوسع للحصول على الاسلحة المسروقة من القوات البريطانية وتهريبها . كما كان يشرف على عملية تهريب نشرة شترن السرية « الخازيت » وتوزيعها على المجندين وعلى الصهاينة من اليهود المصريين

سمحا مفتوفيتش

وكان سمحا مفتوفيتش يباشر نشاطا سياسيا واسعا ، فقد استغل موهبته في الخطابة ، وشارك في الاجتماعات التي كان يعقدها المتطرفون اليمينيون من أعضاء « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، وكان يلقى خطبا حماسية في الاحتفالات بذكرى جابوتنسكى ، كما شارك في عمليات سرقة الاسلحة من المعسكرات ونقلها الى فلسطين



ولم يكن أفراد العصابة في مصر من الجنود اليهود الوافدين عليها فحسب بل كانت تضم عناصر مصرية مثل هنرى ستروسمان ، ورفاييل سادوفسكى

هنري ستروسمان

وهنرى ستروسمان ، الذى كان يعمل فى الصحافة الفرنسية فى مصر ، واشترك فى تحرير جرائد « الوطن » و «الايجيبت نوفيل» ، و «كارافان» ، ويوقع مقالاته باسم هنرى ساس ، كان من المنتمين الى المنظمة الصهيونية الجديدة ، ومن أصدقاء البير ستراسلسكى ، وعندما تعرف بجوزيف ستنر ، اتجه الى التطرف ، وانضم الى جماعة شترن ، وتطوع فى

الجيش البريطاني ، واتخذت العصابة من مسكنه بشارع فهمي ، ومكتبة زوجته بشارع الملكة فريدة مخبأ للأسلحة

وقد ساهم ستروسمان فى ضم رفاييل سادوفسكى الى العصابة . فهو الذى رشحه لدى ستنر باعتباره من انشط العناصر الصهيونية واكثرها حماسا لفكرة الوطن القومى الصهيوني .

رفاييل سادوفسكى

أما رفاييـــل سادوفســـكى فقـد ولد بالقاهرة عام ١٩١٤ وتلقى تعليمه الجـامعى فى مصر وعمـل مدرســا للغــات بالمدارس المصرية . وكان فى الواقع محور ارتكاز عصابة شترن فى مصر ــ فله تاريخ صهيونى عريق . وقد بدأ نشاطه مبكرا منــذ عام ١٩٢٧ ، حين اعتنق المبادىء الصهيونية ، وانضم الى فرع منظمـة « بتار » وفرع الصهيونية القديمة فى مصر . وكان خلال ذلك عضوا فى الجماعات والمنظمات اليهودية مثل «المكابي». وقد سافر الى مونبلييه فى فرنسا عام ١٩٣١ للدراسة ، وهناك أنتخب نائبا لرئيس جمعية الطلبة اليهود ، التى كانت تضم أكثر من ٦٠٠ عضو من جنسيات مختلفة

ولما عاد الى مصر فى عام ١٩٣٣ وانشأ البيرستراسلسكى فرعا لحزب التصحيحيين كان هو ثاني او ثالث من انضم اليه من ذوى الميول الصهيونية المتأججة وتولى السكرتارية العامة للفرع

واثناء الحرب العالمية الثانية ــ فى أواخر عام ١٩٤٣ــ تعرف سادوفسكى على الكثير من المجندين اليهود وكان بينهم بعض الارهابيين ومنهم جوزيف ستنر . وقد قابل ستنر لاول مرة فى منزل مدام يانكوفيتش ، بشارع نوبار

باشا • ثم بعد ذلك فى نادى الجنود الاسرائيليين بشارع فؤاد الاول ، حيث توطدت العلاقة بينهما ، بعد أن رشحه ستروسمان للانضمام الى شترن • وكان انضمامه اليها تدريجيا • فقد كان ستنر يكلفه ببعض الاعمال مثل توزيع نشرة شترن « الخازيت » ، ثم تسليمه اسلحة ومفرقعات للاحتفاظ بها ، وكذلك توصيل الرسائل المتبادلة بين أفراد العصابة

وبعد ان اجتاز سادوفسكي هذه الاختبارات أصبح المدني الوحيد فى شترن • ولوضعه هذا وظروفه ، اتيح له أن يتعرف على أغلب اعضاء العصابة •• وقد وصفه صديقه ستراسلسكي بأنه صهيوني من الطراز الاول ، ومن أخلص اليهود لفكرة اقامة الوطن القومى فى فلسطين



ولم تقتصر عضوية عصابة شترن على الرجال فقط ، وانما كانت تضم مجموعة من الفتيات أغلبهن من المجندات •• ومنهن :

يافا جرينبرج

وهى فتاة طويلة هيفاء شقراء كانت تعمل سائقة فى فرقة المجندات بالتل الكبير •• وقد عرف عنها نشاطها الواسع فى خدمة اهداف العصابة •• لقد رافقت الياهو حكيم عدة مرات لمعاينة موقع منزل اللورد موين •• كما كانت تصاحبه عندما كان يتدرب على اطلاق النار فى صحراء الاهرام •• وكان يتعمد مصاحبتها متخذا منها ستارا فى جولاته المشبوهة حتى لا ينكشف أمره

وكانت يافا التى تتخذ اسما حركيا هو « يهوديت » حلقة اتصال بين رئاسة العصابة واعضائها فى مصر .. فعندما قبض على ستنر فى محاولة نسف مؤتمر الجامعة العربية بالاسكندرية ، ثم افرج عنه بعثت برسالة مع احدى زميلاتها الى مركز العصابة نصها :

« بن زيفى كان مريضا ، والان يمضى دور النقاهة »..

وكانت هذه الرسالة القصيرة تعنى - حسب رموز العصابة السرية - ان ستنر قد قبض عليه وحبس وافرج عنه وهو الان موضوع تحت المراقبة ويجب الا يتصل به أحد

روث جروسبارد

وكانت روث جروسبارد فتاة مثقفة ، وحاصلة على دبلوم مدرسة التجارة العليا بتل أبيب ، تباشر نشاطها فى الغالب فى مدينة الاسكندرية حيث كانت تعمل بمعسكر لوران وتندس بين المجندين اليهود فى نواديهم بالمدينة تروج لافكار العصابة

آدا ليبوفيتش

ومع روث فى نفس المعسكر ، كانت زميلتها آدا ليبوفتش وهى فتاة من مواليد زيورخ ، جاءت الى فلسطين مع أهلها منذ عام ١٩٢٩ وشاركت فى المنظمات الرياضية الصهيونية فانضمت الى نادى « بن يهودا » ، ثم الى جماعة « بتار » ، والى نادى « المكابى » .. وكان ستنر يستخدمها فى توصيل الرسائل الى اعضاء العصابة فى القاهرة

هاسيا لورى

وكانت من أهم « العضوات » المجندة

هاسيا لورى ، وهى ليتـــوانية الأصـــل كانت تتميز بالاتزان وهدوء الاعصاب ، وسرعة البـــديهة ٠٠ ولذلك استخدمها ستنر كسكرتيرة له ٠٠ وقد كانت على علم تام بكافة مخططات العصابة فى مصر ، وشاركت فى جمـــع الاسلحة والمفرقعات وكانت تنقلها بسيارات الجيش التى كانت تعمل سائقة عليها ٠ كما كانت تقوم بتوزيع نشرات العصابة على افرادها فى القاهرة ٠٠

ليفشا يانكوفيتش

والى جانب هؤلاء المجنـــدات ، شاركت ســيدة يهـــودية من أهالى فلســـــطين ، وفدت الى مصر للعمل بوظيفة مدنية بالقوات البريطانية ، فى نشـــاط العصابة ، واتخذت من منزلها بشارع نوبار باشا مركزا لاجتماعات الاجنحة الصهيونية المتطرفة ، وهى ليفشـــا يانكوفيتش ٠٠ ففى بيتها تحول سادوفسكى الى طريق الارهاب ، وعقد الدكتور التمان اجتماعه الخطير مـــع المتطرفين وانصار « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، كما سبق أن ذكرنا ٠٠ !

وخلال اقامتها فى مصر مع زوجها ، تطـــــوعت فى الصليب الاحمر الانجليزى ، ولم تتوان عن ممارســـة نشاطها الخفى بين الجنود اليهود فكانت دائمة التردد على نواديهم تبث فيهم الدعوة الصهيونية

وقد اشتركت مع آلبير ستراسلسكى فى تنظيم فرع « المنظمة الصهيونية الجديدة » وتولت ســـكرتاريتها ، وكانت تقوم بترجمة مكاتباتها العبرية الى الفرنسية ٠ كما كانت عضوا فى « منظمة النساء الصهيونية العالمية »

وكانت مدام يانكوفيتش على علاقة مشبوهة بالمخابرات

البريطانية ، الى حد ان بعض اعضاء العصـــــابة كانوا يتهمونها بالعمل ضد المنظمات الصـــــهيونية ولحساب البريطانيين هى وزوجها .

ولا يفوتنا ، أن نذكر أن اعضاء العصابة قد وجـــدوا تأييدا وتدعيما من بعض ابناء العائلات اليهودية فى مصر .. وهؤلاء وان لم يشتركوا بشكل ايجابى ومباشر مـــع الارهابيين فى عملياتهم السرية ، الا انهم يسروا لهم سبل الالتقاء فى منازلهم ، فكانوا يقيمون لهم الحفلات ويدعون اليها العناصر المتطرفة اليمينية ، ويحيطونهم بجـو ملائم لممارسة اعمالهم وتنفيذ مخططاتهم

ومن هؤلاء :

١ ـ يعقوب وايزمان : وهو من ابرز انصار المنظمـــة الصهيونية العالمية وكان يعمل مديرا لشركة شل بوتجاز كما ذكرنا من قبل ، وقد اعتاد أن يقيم فى منزله حفلا أسبوعيا يدعو اليه العديد من اليهود المجندين

٢ ـ عائلة دافيد : التى كان يقيم عميدها الصيدلى ، صاحب صيدلية مظلوم بميدان العتبة ، حفلات مستمرة يستقبل فيها المجندين ، وتدور فيها المناقشات السياسية حول القضية الصهيونية

٣ ـ عائلة الدكتور انجيـــل : التى كانت تقيم بحى الزمالك ، وتعقد الاجتماعات التي تهدف الى جمع التبرعات واستمالة اليهود المصريين

الفصل الخامس

تصاعد الإرهاب واغتيال اللوردموين

قبل أن يصل الياهو حكيم الى مصر بستة اشهر ، اى في أوائل عام ١٩٤٤ ، قابـل جوزيف ستنر ، الشـاب الصهيوني المتحمس رفاييل سادوفسكي وطلب منه أن يبحث عن غرفة مفروشة لاقامة شخصين قادمين من فلسطين • ورد سادوفسكي بأن هذه مشكلة يصعب حلها بسبب ازمة المساكن التي تجتاح القـاهرة •• ومع ذلك ظل ستنر يكرر عليه هذا الطلب كلما قابله ، الى أن يئس نهائيا بعد فترة

وفي يوم الاربعاء ٢٣ اغسطس سنة ١٩٤٤ ، حـوالى الساعة السابعة والنصف مساء بينما كان سادوفسكي يمر أمام باب نادى الجنود اليهود بشارع فـؤاد الاول « ٢٦ يوليو » ، قابله جندى من اعضاء عصابة شترن ، وجهه ملىء بآثار مرض الجدرى •• وهرول هذا الجندى نحوه في لهفة بالغة ، وذكر له انه كان يبحث عنه ومن حسن الحظ أنه عثر عليه فجأة

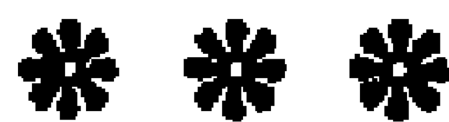
وسأله سادوفسكي عن السبب ، فأجابه في اقتضاب بأن ثمة موعدا في الساعة الثـامنة في مقهى « نيوبار » بميدان الاوبرا •• ولم يشأ سادوفسكي أن يطلب المزيد من المعلومات فقد تذكر ان ستنر عندما عرفه بهذا الجندى أفهمه أنه سيكون حلقة اتصال بينه وبين عضو آخـر •

وادرك على الفور أن المقابلة بتدبير جوزيف ستنر ، ولامر يتعلق بنشاط عصابة « شترن » فى مصر

وسار سادوفسكى فى صمت مع هذا الجندى الى المقهى وهناك اتجه به الى الصالة البحرية ، المطلة على ناصيتى ميدان الاوبرا وشارع عدلى باشا ، حيث شاهد شـــابا طويل القامة اسمر اللون يجلس وحده ويحتسى قدحـــا من الشاى ، فتقدما اليه وصافحاه ، وجلسا معه قرابة ثلث ساعة ، تحدث فيها معهما فى جدية واضحة دون اندفاع ، وبتحفظ ظاهر ، وطريقة هــــــادئة لم تدع لسادوفسكى مجالا لمعرفة الكثير عنه ٠٠ وكل ما استطاع ان يلتقطه هو ان هذا الشخص قد حضر فى اليوم السابق من فلسطين بصحبة الجندى الذى عـــرفه به ٠٠ وأن جوزيف ستنر سوف يحضر الى القاهرة خلال الايام القليلة القادمة ٠ وقد اصدر تعليماته بأن يكون سادوفسكى على اتصال دائم بهذا الشخص

وانفضت الجلسة دون أن يعرف سادوفسكى أن هذا الشخص هو الياهو حكيم أو حتى يعرف اسمه « الحركى »

وقبل أن يفترق ثلاثتهم قال حكيم انه سيتردد على هذا المقهى مرتين يوميا : الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا ، والسادسة والنصف مساء



فى مساء اليوم التالى ، ذهب سادوفسكى للقاء حـكيم فوجده جالسا الى نفس المنضدة ، يقرأ مجـــلة ، ويكاد يخفى بها وجهه بحيث لا يستطيع القادم أن يتبينه ٠٠

وفى هــذا اللقــاء اخبر حكيم سادوفسكى انه كلف بالابتعاد عن الاماكن التى يرتادها اليهود وخاصة الجنود منهم ، خشية أن يتعرف عليه أحدهم .. ورجاه أن

يتردد باستمرار على نادى الجنود اليهود بشارع فؤاد الاول ، ويبحث فى الرسائل التى تعلق على لوحة النادى لعل رسالة هامة تصله

وعلم سادوفسكى منه بموعد عودة ستنر .. فتواعدا على أن يتقابلا يوم الثلاثاء التالى فى الساعة الساعة الثانية بعد الظهر أمام سينما مترو ليلتقيا به هناك

فى الموعد المحدد ، وقف حكيم وسادوفسكى امام السينما فى انتظار ستنر . وبعد عشر دقائق شاهداه يهرول قادما من اتجاه ميدان الاسماعيلية (التحرير) وبادرهما بالاعتذار عن تأخره ، اذ وصل لتوه من الاسكندرية فى سيارة حربية انجليزية

وسار ثلاثتهم فى الطريق .. ولاول مرة يعرف سادوفسكى من ستنر الاسم الحركى لهذا الشاب الاسمر وهو « كوهين »

لم يعرف سادوفسكى اسمى القاتلين الحقيقيين الا بعد مقتل اللورد موين ، والقبض عليهما ، واعترافهما .. أما حكيم وبت سورى فكانا يعرفان اسم سادوفسكى وعنوانه من رئاسة العصابة ، قبل وصولهما من فلسطين

وانتهى السير بالثلاثة الى محل «ألبان أسترا» بميدان الاسماعيلية حيث كانت هاسيا لورى فى انتظارهم .. وطلبت هاسيا فى بداية الجلسة اعفاءها من العمل فى العصابة

وأظهر ستنر دهشته من هذا الطلب المفاجىء ، وسألها عن سببه . لكن قبل أن تجيب ، قال حكيم بنبرة قاسية :

ـ ان الاستقالة من عضوية الجماعة مستحيلة ..

فردت عليه هاسيا :

ـ لقد قمت بواجبى على اتم وجه ، واعد اننى بعد قبول استقالتى لن افتح فمى

ـ مستحيل .. من يصر على الانسحاب .. سنتولى أمره بطريقتنا الخاصة

وحينئذ تدخل ستنر ، موجها الحديث الى حكيم :

ـ دعها ، وسنتدبر أمرها فيما بعد

وهنا امتقع لون هاسيا .. ولعدة لحظات خيم الصمت على الجالسين . ثم هبت الفتاة واقفة .. واستأذنت .. فى الانصراف

وكان سادوفسكى يعرف السر وراء رغبتها فى الانفصال عن العصابة . كانت الفتاة تحب جنديا واتفقت معه على الزواج . وهذا الجندى اقترح عليها أن تستقيل من الجيش البريطانى ، ليبنيا عش المستقبل معا ..

وفى هذه الجلسة بدأ حكيم يكشف لاول مرة ، من سر حضوره الى القاهرة .. كان مكلفا بمهمة خطيرة ، غاية فى الخطورة ، ان رئاسة العصابة أصدرت حكما باعدام اللورد موين ، وعهدت اليه بتنفيذ الحكم مع عضو آخر من أعضاء العصابة ..

وفغر سادوفسكى فاه ، وتساءل فى دهشة بالغة ، عن سبب اصدار هذا القرار .. وقبل أن يشرع حكيم فى الاجابة ، قال ستنر :

ـ سيشرح لك حكيم الاسباب .. بيد أن هناك أمرا يجب أن تنتبه اليه وتعيه وتلتزم به وهو أن أعضاء العصابة ليس من شأنهم أن يناقشوا أمرا صدر من الرئاسة

وأكمل الياهو حكيم حديث ستنر وقال :

ـ لقد اختير اللورد موين بالذات باعتباره المسئول

من السياسة البريطانية فى الشرق الاوسط ، وهو الذى يدير دفة السياسة المضادة لليهود فى فلسطين .. وكان سببا فيما حدث للباخرة ستروما (١)

وأبدى سادوفسكي مخاوفه من تنفيذ الجريمة على الاراضي المصرية خشية أن يؤدى ذلك الي تعقب الصهيونيين والكشف عنهم فى مصر فطمأنه ستنر قائلا :

ـ لقد اعتادت العصابة بمجرد اقدامها على عمل من أعمال العنف والارهاب أن تعلن على الفور ، وبتحد كامل ، أنها هى التى اقترفته ، وقد حدث ذلك بالنسبة لكافة الاعمال التى نفذتها العصابة من قبل ، مثل محاولة اغتيال السير ماكمايكل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين.

وعندما قال سادوفسكى ، ان اللورد موين يسافر من حين لآخر الى فلسطين ، فلماذالايغتال هناك ، بادره حكيم قائلا :

ـ ان اللورد موين لايقضى فى فلسطين الا فترات قصيرة يصعب أثناءها الاعداد لارتكاب الجريمة .. وتدبير الاغتيال يحتاج الى وقت طويل .. كما تعلم ! ..

وقبيل أن يفترقوا ، أوصي ستنر سادوفسكى بأن يلتزم الصمت الكامل ، وأن يقفل فمه ولا يصرح بشيء .. وابلغه أنه استطاع تدبير حجرة لاقامة حكيم ..

---

(١) كانت هذه الباخرة قادمة من ميناء كونستانزا برومانيا ، وعليها حوالى ٨٠٠ مهاجر يهودى من الرجال والنساء والاطفال ، قاصدة فلسطين - وكان اللورد موين عضوا وقتذاك فى الوزارة البريطانية ، ومشرفا على شئون فلسطين . وقد صدر الامر للباخرة ألا تنزل ركابها الا بعد أن تبحث الحكومة البريطانية الامر . لكنها لم تلبث أن غرقت بمن عليها ، وهى فى انتظار التصريح لها . وقد حمل الصهيونيون اللورد موين مسئولية غرق المهاجرين اليهود .. لتعطيله البت فى رسوها على الشاطىء فترة طويلة ..

نسخ خيوط الجريمة

في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالى (٣٠ أغسطس سنة ١٩٤٠) التقى حكيم وستنر وسادوفسكى فى نفس المقهى « استرا » ومن هناك استقلوا تراما الى شارع قصر العينى ، وعند محطة شارع النباتات القريبة من حى جاردن سيتى ، تركوا الترام ثم ساروا قاصدين معاينة مبنى مكتب وزير الدولة البريطانى .. اللورد موين ..

وبعين فاحصة لاتثير الانتباه ، وفى لحظات قليلة ، ادركوا أن المبنى يبدو كثكنة عسكرية ، الحراسة حوله مشددة وامام بابه جنود مدججون بالسلاح ، وحوله أسلاك شائكة مرتفعة . والشارع الذى يقع فيه شارع ضيق ، طويل ، ملىء بالحركة .. وبالقرب منه أرض فضاء تستخدم موقفا لانتظار السيارات ..

وعندما أشار ستنر الى انه يستحيل اغتيال اللورد موين فى هذا المكان .. احتد حكيم وقال :

ـ ان كلمة مستحيل ، لا وجود لها فى قاموس العصابة

ثم أردف قائلا :

ـ فلنذهب ونعاين المكان الذى يسكن فيه وزير الدولة البريطانى ..

وقفل الثلاثة عائدين سيرا على الاقدام ، حتى وصلوا الى كورنيش النيل ، من ناحية قصر النيل ، فميدان

الاسماعيلية ، ومنه الى شارع سليمان باشا ، ثم الى شارع فؤاد الاول

ومن شارع فؤاد الاول ركبوا الترام رقم «١٥» المتجه الى حي الزمالك .. وكان ستنر قد حصل على عنوان منزل اللورد موين ، وهو رقم ٤ شـــــارع حسن صبرى .. وبالقرب منه نزلوا من الترام ، واتجهوا الى ناحية المنزل ..

وكان المنزل عبارة عن « فيللا » من طابقين ، تحيطها حديقة واسعة مسورة ، وعلى بابها الخارجى لافتة من الرخام باسم « عدس » التاجر اليهودى الشهير مالك الفيللا الذى اجرها الى اللورد ..

ولاحظ الثلاثة أن البيت لايقوم على حراسته سوى شرطي واحد ، وبالقرب منه أرض فضاء واسعة هى جـــزء من نادى سباق الخيل فى الجزيرة .. والشارع عريض ومتسع ، يكاد يكون هادئا هدوء القبور ..

وقرر ستنر أن المكان يصلح من كل الوجوه لارتكاب جريمة القتل ..

واقترح أن يتخفى حكيم فى ملابس ماسح أحذية ، ويمسك فى يده صندوقا ، بداخله مواد شديدة الانفجار كالديناميت مثلا ، ويلقيه على مدخل الفيللا حين دخول اللورد أو خروجه منها

وسارع سادوفسكى بالاعتراض على هذه الفـكرة ، فهو يعرف أن حى الزمالك ــ أرقى أحياء المدينة ــ لا يؤمه ماسحو الاحذية .. وظهور واحد فى هذا المكان يبعث حتما على الشك والريبة ..

وانصرف الثلاثة ..

وفى طريق عودتهم ، قال ستنر لســــادوفسكى انه سيعود الى الاسكندرية في نفس الليـــلة ، ورجاه أن يكون

فى خدمة حكيم وأن يقوم على طلباته
وعنــدما قال سادوفسكى بدوره لستنر ، انه ربما يسافر الى الاسكندرية لقضاء عدة أيام منعطلته الصيفية مع عائلته ، طلب منه أن يتصل به بمجرد وصوله فى نادى الجنود اليهود بشارع النبى دانيال ، الذى يتردد عليه كل ليلة ، فان لم يجده فلابد انه سيجد هوروشون هوروفيتش ، الذى يعرفه سادوفسكى

خلال العشرين يوما الاولى من شهر سبتمبر ١٩٤٤ سافر سادوفسكى الى الاسكندرية ، مرتين او ثلاثا .. وفى كل مرة كان يحمل معه رسالة من حكيم يسلمها يدا بيد الى ستنر فى الاسكندرية ، ويعود ومعه رد ستنر عليها .. وفى الاسكندرية طلب ستنر من سادوفسكى أن يبلغ حكيم ضرورة الاهتمــام بمهمته ، وأن يتجنب الاجتماعات العامة ، ويقلل من نزهاته ..

والواقع أن حكيم لم يكن يضيع وقته هباء .. ففى كل صباح كان يراقب الطريق الذى تسلكه سيارة اللورد موين من مسكنه بشارع حسن صبرى الى مكتبه بشارع النباتات بحى جاردن سيتى ، عبر كوبرى قصر النيل .. وفى المساء كان يجلس فى مقهى نيوبار ، يقرأ الجــرائد وينتظر سادوفسكى .. لعل هناك أخبارا أو خطــابات يحملها اليه ..

وفى هذه الفترة .. وبالتحديد يوم ١٥ سبتمبر ظهرت حلقة هامة فى سلسلة التدبير للجريمة .. فقد حضر الى منزل سادوفسكى فى الثالثة بعد الظهر واحد من أفراد العصابة هو اريه كوريتسكى .. وسلم كوريتسكى هذا لسادوفسكى حقيبة عسكرية صــغيرة بها مسدسان ، وطلب منه أن يسلمها الى الشـــخص الموجود الآن فى القاهرة .. (وكان يقصد بالطبع الياهو حكيم بالرغم

من أنه لم يذكر اسمه قط ..)

وقبل أن ينصرف رجاه أن ييسر له ، أن أمكن مقابلة هذا الشخص الموجود بالقاهرة ، قبل أن يعود الى الأسماعيلية بقطار السابعة الا ربعا ..

قبيل السادسة مساء ، كان سادوفسكى يقف فى الطريق العام ، أمام مقهى نيوبار ، ينتظر وصول حكيم كعادته فى هذا الموعد .. وفى السادسة والربع ، شاهده يحث الخطى من بعيد نحوه ، فسار اليه ، وابلغه ان « الرسالة » التي ينتظرها قد وصلت ، وأن عليهما الآن أن يتجها مباشرة وبسرعة الى محطة باب الحديد ليقابلا كوريتسكى الذى أحضرها

وهكذا استقلا سيارة أجرة اليها . وعلى رصيف القطار المتجه الى الاسماعيلية ، كان كوريتسكى يروح جيئة وذهابا . وحين اقتربا منه ، انتحى بحكيم جانبا ، وتحدثا بصوت خافت عدة دقائق .. حتى دق جرس المحطة ايذانا ببدء تحرك القطار .. فحياهما كوريتسكى .. وركب عائدا الى الاسماعيلية

وبعد ذلك عرض سادوفسكى على حكيم أن يغتنما فرصة خلو منزله من أفراد الاسرة ، ويتوجها معا ليسلمه « الرسالة » .. ورحب حكيم ، واستقلا الأوتوبيس الى ميدان الاسماعيلية .. وفى مسكن سادوفسكى أخرج الحقيبة العسكرية ، التى كان يخفيها فى دولاب خاص ، وأراد أن يلفها فى احدى الجرائد خشية أن يشتبه أحد فى أمر حكيم اذا شوهد وهو يحملها فى الطريق وهو يرتدى ملابس مدنية

ولكن حكيم جذب الحقيبة ، واخرج منها المسدسين ، وأخفاهما على جانبيه أسفل سترته ، ولف الحقيبة فى الجريدة ، وحملها وودع سادوفسكى وانصرف ..

تدريب وترقب

كان عيد راس السنة العبرية الذى وافق يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٤٤ فرصة مواتية لافراد العصابة للالتقاء فى القاهرة . اذ اعتاد الجيش البريطاني ان يمنح المجندين اليهود اجازة فى هذه المناسبة لمدة يومين وللمجندات ثلاثة ايام .. فتوافد على القاهرة من أجل هذا السبب كثيرون منهم ..

وفى يوم العيد ، اجتمع فى مقهى استرا ، فى الساعة الواحدة والنصف ظهرا الكثير من أعضاء عصابة شترن : جوزيف ستنر ، الياهو حكيم ، روث جروسبارد ، يافا جرينبرج ، ورفاييل سادوفسكى . وكانت هذه هى المرة الاولى التى يقابل فيها حكيم يافا جرينبرج ، وروث جروسبارد .. والمرة الاولى أيضا التى يرى فيها سادوفسكى روث جروسبارد ..

وتجاذبوا أطراف الحديث ، وناقشوا مسائل هامة .. وكلف ستنر روث جروسبارد بأن ترافق حكيم لمعاينة فيللا اللورد موين .. كما اتفق مع يافا جرينبرج أن تلتقى بحكيم بعد ظهر اليوم التالى لتصاحبه بدورها فى معاينة أخرى للفيللا ..

وعندما إنفض الاجتماع وكانوا قد اتفقوا على اللقاء فى اليوم التالى .. اتجه حكيم وروث جروسبارد الى الزمالك

.. وانصرف ستنر ، بينما دعا سادوفسكى يافا جرينبرج لتناول الغداء معه فى منزله .. !

وفى الصباح اجتمع شمل حكيم وستنر ويافا وسادوفسكى بمقهى ايسائيفتش بميدان الاسماعيلية .. كانوا فى حالة معنوية عالية ، ويبدو عليهم جميعا التفاؤل والسرور .. وأخرج حكيم من جيبه — وهو يمزح — « دفتر صرف » تسلمه القوات البريطانية للمجندين ويستعمل كبطاقة شخصية .. وكان هذا الدفتر باسم صمويل بورنشتين .. وضحك ستنر وهو يقول :

— مسكين هذا البورنشتين ، لابد أنه الان حبيس السجن الحربى بسبب اهماله فى المحافظة على دفتره

وكانت العصابة قد سرقت هذا الدفتر من ملابس احد الجنود أثناء استحمامه على شاطىء تل ابيب ، واستخدمه حكيم فى الدخول الى القطر المصرى منتحلا اسم صاحبه

وكان الهدف من اللقاء فى هذا الصباح هو مصاحبة حكيم الى صحراء الاهرام كى يتدرب على استخدام مسدس وقنابل يدوية ، كان يخفيها فى لفافة معه ..

واعتذر سادوفسكى عن الذهاب معهم ، لارتباطه بموعد سابق ، واستقل الباقون سيارة أجرة ..

وفى الصحراء خلف الاهرامات ، أثبت حكيم أنه يتمتع بقدرة فائقة فى اصابة الهدف .. وانه لا يزال من امهر أعضاء العصابة وأبرعهم فى الرماية

وظل سادوفسكى يلتقى بحكيم ، كل يوم تقريبا ، ومع ذلك فقد كان يجهل المكان الذى يسكن فيه .. وفى يوم ٦ أكتوبر تصادف ان كان سادوفسكى عائدا بعد منتصف الليل من شارع فاروق (الجيش حاليا) بعد أن أوصل

احدى صديقاته الى مسكنها عقب خروجهما من السينما ، فتقابل مع حكيم ، الذى كان يسير وحـــده متجهــا الى شارع فاروق • وعنـــدئذ أيقن سادوفسكى أنه يقيم فى هذه المنطقة ، غير أن حكيم بمجرد أن رآه قطع عليه الطريق ، وخطا نحوه بسرعة ، وحياه ، وقبل أن يدع له فرصـــة للاستفسار عن سبب وجوده فى هذا المكان ، اقترح عليه أن يصحبه فى طريق عودته ، وزعم أنه فى حاجة الى المشى حتى يستطيع ان ينام ، ولكنه كان يحاول فى الحقيقة أن يخفى على سادوفسكى مكان سكنه ، وفعلا قفل عائدا معه حتى ميدان سليمان باشا ثم افترقا ..

اللقاء المنتظر

مرت الفتــــــرة من ٥ الى ٢٠ أكتوبر على حكيم ثقيلة متباطئة ، وأخذ القلق يدب فى نفسه وبدا مضطرباً متذمراً .. فقد تاخر وصول زميله من فلسطين ، وأوشكت نقوده أن تتبخر . ويبدو أن ستنر قد أحس بما انتاب حكيم ، وأراد أن يرفع من روحه المعنــوية ، ويزيل عن نفسه الاضطراب ، فأوعز الى يافا جرينبرج عنـــدما حضرت من الاسماعيلية يوم ٥ أكتوبر أن تدعوه لسهرة راقصة بمحل جروبى بميدان سليمان باشا ، للترفيه عنه وتسليته ..

وفى يوم الجمعـــة ٢٠ اكتــوبر ١٩٤٤ ، دق جرس التليفون فى منزل سادوفسكى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وكان المتحدث صوتا لا يعرفه ، وبادره بقوله ــ باللغة العبرية :

ــ هل أنت رفاييل سادوفسكى ؟

ــ نعم ..

ــ لقد وصلت هذا الصباح الى القاهرة ، وأريد أن أراك ..

وأدرك سادوفسكى على الفــور أن المتــكلم هو زميل حكيم الذى طال انتظاره ، وقد وصلته أنباء قبلها أنه على وشك الوصول ..

وقد طلب هذا الوافد الجديد منه أن ينتظره بشارع عماد الدين على ناصية عمارة ديفز جرين أسفل ساعة سنجر ..

وسأل سادوفسكى كيف يتعرف عليه فى هذا المكان ، فأجابه :

ــ اننى ارتدى بزة عسكرية ، ولى شارب اصفر ؛ وساحمل على ظهرى حقيبة عسكرية صغيرة ، وفى يدى اليمنى جريدة

وأسرع سادوفسكى خطاه الى مكان اللقاء ، وتحت الساعة تماما شاهد جنديا يحمل نفس الاوصاف التى حددها فى محادثته . وحيا كل منهما الآخر .. وبادره الجندى بقوله :

ــ متى أستطيع أن اقابل زميلى ؟ ..

وكانت الساعة فى ذلك الوقت تشير الى الرابعة والثلث .. وأجاب سادوفسكى :

ــ بعد ساعتين تماما

والى أن يحين موعد اللقاء ذهب الاثنان الى محل الجمال بشارع عدلى لتناول المرطبات . ولاحظ الجندى أن هذا المحل يقع فى مواجهة معبد اليهود .. وطالت نظراته الى المعبد والمترددين عليه فاقترح عليه سادوفسكى أن يذهب لزيارته .. وقام الجندى ، ودخل المعبد ، ثم عاد بعد فترة وجيزة ..

وفى السادسة والنصف غادرا محل الجمال .. ولم يشأ سادوفسكى أن يذهب به مباشرة لمقابلة حكيم فى مقهى عماد الدين .. بل جعله ينتظر أمام سينما ديانا ، وذهب وحده ليفاجىء حكيم بقوله :

ــ لقد وصل ..

وفهم حكيم ما يعنيه سادوفسكى ، وهب واقفا وقد انفرجت أساريره وملأت الابتسامة وجهه وسارا معا حتى بلغا باب السينما ..

وكان المكان مزدحما برواد السينما فى ذلك الوقت ، واغتنم سادوفسكي الفرصة وقدم كلا منهما للآخر بايماءة من يده دون أن ينبس ببنت شفة . فقد كان يجهل اسم الوافد الجديد وفى نفس الوقت آثر الا يذكر اسم صاحبه كوهين (حكيم) ..

وسأل حكيم زميله ان كان حقيقة من جنود الجيش فأجابه نفيا . واخترق الثلاثة الحارة الموصلة بين سينما ديانا وشارع فؤاد الاول واتجهوا الى محل الامريكين بشارع عماد الدين .. وعندما بلغوه وقف الجندى ليقول :

ـ لقد أرهقنى السير على الاقدام فى الطرقات منذ ان وصلت هذا الصباح .. آه لو استطعت أن آخذ حماما ..

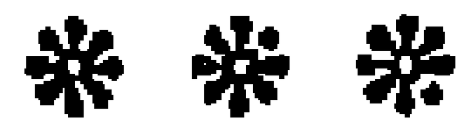
وطمأنه حكيم ، بأنه سييسر له على الفور كل وسائل الراحة ..

وعندئذ آثر سادوفسكي أن ينسحب ويتركهما معا .. وكانت الساعة قد بلغت السابعة

واتفق الثلاثة على اللقاء فى اليوم التالى فى الدور العلوى من محل « الامريكين »

ومنذ هذا الوقت انقطع حكيم نهائيا عن التردد على مقهى عماد الدين ولم يعد يتناول طعامه فى مطعم « التوفيقية » المتواضع بالممر التجارى ، بين شارعى عدلى وفؤاد الاول حيث اعتاد أن يأكل وجبات رخيصة منذ وصوله الى القاهرة ، وأصبح يشارك زميله فى الطعام

بمطعم علي حسن الحاتي خلف محلات شيكوريل ..



في الموعد المحدد تقابل سادوفسكي مع حكيم وزميله ـ الياهوبت سوري ـ الذي كان يرتدي هذه المرة ملابس مدنية

وتكررت مقابلات الثلاثة في نفس المكان ونفس الموعد ..وفهم سادوفسكي من زميليه انهما ترددا على حي الزمالك عدة مرات لمعاينة منزل اللورد موين .. استعدادا لتنفيذ الجريمة

وفي احدى المرات تساءل بت سوري ، باهتمام ، عما اذا كان لوزير الدولة البريطاني مسكن آخر غير مسكنه بالزمالك ، اذ انه لمح اثناء سيره في شارع الهرم سيارة اللورد تتجه الى منزل هناك

وعندئذ تذكر سادوفسكي ان وزير الدولة البريطاني السابق المستر كايسي كان يسكن فعلا في شارع الهرم . وقال ان اللورد موين ربما يكون قد احتفظ بمسكن سلفه ليقضي فيه عطلة نهاية الاسبوع

على انه بعد يومين ـ اي في يوم ٢٥ اكتوبر ـ زايلت بت سوري شكوكه حين تأكد لديه ـ نتيجة للمراقبة الشديدة ـ بأن اللورد موين يسكن فعلا في «فيللا عدس» بشارع حسن صبري بالزمالك ..

ولكنه في هذا اليوم فوجيء وهو يقرأ جريدة « الاجيبشيان جازيت » بخبر سفر اللورد موين الى اثينا بسبب الاضطرابات التي وقعت في اليونان ...

ولم يعد هناك مفر من انتظار عودته ...

ومرت الساعات متباطئة ثقيلة ، لكن لم يطل الوقت كثيرا .. فبعد ثلاثة أو اربعة أيام ، اى فى يوم ٢٩ اكتوبر نشرت جريدة « الاجيبشيان جازيت » خبرين ، كانت لهما أهمية خاصة عند بت سورى ..

أولهما : عودة اللورد موين الى القاهرة

وثانيهما : ان المستر انطونى ايدن وزير الخارجية البريطانية وقتذاك مر فى الليلة السابقة بالقاهرة فى طريق عودته من أثينا الى لندن

وعند هذا الخبر الاخير ، لمعت عينا بت سورى ورفع حاجبيه واعتدل فى جلسته وضرب بيده على فخذه وهو يصيح :

ـ يالها من فرصة ضاعت ..

ورنت كلمة ضاعت وكأنها صرخة أطلقهـا من فرط شعوره بالالم ..

ثم أكمل قوله فى لهفة ملتهبة وراء الفرصة التي أفلتت:

ـ كم كنت أتمنى أن أقتل انطونى ايدن بدلا من اللورد موين .. ان ايدن أثقل فى ميزان القوى البريطانية الحاكمة من موين .. وهو الذى يرسم خطوط السياسة الخارجية البريطانية .. والمسئول مسئولية مباشرة عن « الكتاب الابيض »

***

اعتاد ســادوفسكي خلال الفترة من ٢١ أكتوبر الى ٥ نوفمبر ١٩٤٤ أن يلتقي يوميا بحكيم وبت سورى بين الثانية والخامسة بعد الظهر فى مقهى بور فؤاد بشارع فؤاد الاول حيث كانا يذهبان بعد أن يتناولا طعام الفداء لقتل الوقت فى لعب الطاولة

وأشار سادوفسكى فى معرض حديثه مرة أن لديه

اثنتى عشرة نســخة من النشرة السرية التى تصــدرها شترن باسم « الخازيت » لم يتمــكن من توزيعهــا على اليهود فى القاهرة لضيق وقته . فطلب منه بت سورى أن يحضرها له ، بعد أن يعد له قائمة ببعض العناوين .. ليتولى هو وزميله توزيعها خفية فى الصباح الباكر ..

وقد نسى سادوفسكى فى مقابلتين متتاليتين معهما ، أن يحضر الاعداد . حينئذ ثارت ثائرة بت سورى ، وقال له غاضبا :

ــ لعلك لا تدرك أن الدماء تسفك فى فلسطين من أجل طبع هذه النشرة .. فكيف تهمل حتى فى مجرد احضارها ..!

وفى اليوم التالى لم ينس سادوفسكى احضار الاعداد معه ، مع كشف بالعنــاوين ، وسلمهما لبت سورى فى خجل واضح .. !



فى أحد أيام شهر أكتوبر ، وبينما كان سادوفسكى يسير مع حكيم وبت سورى فى شارع عماد الدين بالقرب من بنك مصر ، سألاه عن امكانية استئجار دراجتين . ولما أشار الى محــل قريب للدراجات يقــع فى شــارع الساحة بالقرب من محلات أوروزدي باك « عمر أفندى » أستاذنا منه على الفور منصرفين .. على أن يتقابلوا مســاء اليوم التالى

وتركهما ســادوفسكى واتجــه ناحية مبنى جريدة الاهرام القديم ، فى الاتجاه المضاد . وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق ، رآهما عائدين وكل منهما يركب دراجة . وحينما اقتربا منه تجــاهلاه ولم يعيراه التفاتا ، واستمرا فى طريقهما

وحتى هذه اللحظة لم يتصل حكيم وبت سوري بأحد في مصر سوى سادوفسكي ... ويبدو ان الخطة كانت قد نسجت خيوطها ونضجت ، ولم يبق غير التنفيذ . فلابد أن بت سوري كان يحمل معه من فلسطين التعليمات النهائية التى وضعتها رئاسة العصابة .. ولم يعد هناك غير توقيت القتل الذى ترك أمره له ..

وحين أحس سادوفسكي ان الجريمة أصبحت وشيكة الوقوع ، طلب من زميليه أن يخطراه قبل ارتكابها بيومين أو ثلاثة على الاقل كي يستعد لاخفاء أو اعدام كل مالديه من مطبوعات ونشرات ومجلات يمكن أن تكون لها صلة بالعصابة

وجاءت اللحظة الحاسمة ..

ففى يوم الجمعة ٢ نوفمبر ، أخبراه انهما قررا التنفيذ قريبا .. ولكنهما لم يحددا الموعد بالضبط

حديث أخير حول الجريمة

بينما كان سادوفسكى يجلس مع حكيم وبت سورى فى مقهى بور فؤاد بعد ظهر يوم ٥ نوفمبر ، يرقبهما وهما يلعبان الطاولة معا ، فاجاه بت سورى قائلا فى هدوء ، وفى ثقة كاملة :

ـ غدا ، فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، سنكون حكيم وانا خارج القاهرة . .

وأكمل حكيم حديث زميله :

ـ وبعد غد سنكون فى فلسطين

وأيقن سادوفسكى أن نهاية اللورد موين ستكون فى اليوم التالى « ٦ نوفمبر » وانهما سينتهيان منه قبل الساعة الثالثة بعد الظهر وسيغادران القاهرة بوسيلة أخرى غير قطار فلسطين الذى يقوم من محطة القاهرة فى السادسة مساء

وبعد قليل ، طلب بت سورى من سادوفسكى أن يدلهما على مكان يتركان فيه ملابسهما المدنية ، الى أن يتيسر له ارسالها الى فلسطين ، فلقد قررا العودة بالزى العسكرى الذى تسللا به آلى داخل القطر المصرى

وتذكر سادوفسكى محلا لبيع الزهور بشارع المدابغ « شريف باشا حاليا » أعتاد أن يتعامل معه . . وهو محل

يظل مفتوحا طوال النهار ·· وقال لهما نه سيدلهما على محل زهور بعد مغادرتهم القهوة !

وسال سادوفسكى بت سورى ان كان هناك ثمة خطر يهددهما مظهرا مخاوفه من أن يقبض عليهما عند ارتكاب الحادث ، فأجابه بت سورى باسما فى ثقة :

ــ هذا احتمال ضئيل لا يتعدى ٢ ٪

ثم نظر اليه بهدوء ، وأضاف ، بلهجة عاتبة :

ــ ثق اننا لن نبوح باسمك تحت أى ظروف ..

واردف يقول فى زهو :

ــ على العصابة أن تمد نشاطها الى لندن لتعقب المستر تشرشل نفسه .. وعقب عودتى سأقترح ذلك على الرئاسة

لكن الطمانينة لم تعرف طريقها الى قلب سادوفسكى. وتوالت أسئلته بلهجة متوترة ، وشوق قلق الى التعرف على مصير زميليه ، وفرصتهما المتاحة فى الهرب ، بعد اغتيال اللورد .. غير أن حكيم أجاب باقتضاب ، منهيا الحديث بصوت حاد. ، كمن اتخذ قرارا :

ــ لقد رتبنا كل شيء

وغادر الثلاثة المقهى ، فى طريقهم الى شارع المدابغ . وأشار اليهما سادوفسكى باصبعه على محل بيع الزهور ، لكى يتركا فيه لفافة ملابسهما المدنية ...

وبعد ذلك ودعهما بحرارة ، وتمنى لهما النجاح ..

وكانت الساعة العاشرة والنصف مساء ··

***

فى يوم الثلاثاء ٦ نوفمبر ١٩٤٤ استيقظ سادوفسكى مبكرا كعادته وترك منزله فى الثامنة صباحا ، متجها الى

شارع المدابغ ودخل الى محل الزهور .. وبعد أن تبادل مع البائع بعض كلمات الود والمجاملة ، طلب منه أن يعد له باقة من زهور القرنفل بمبلغ عشرة قروش ، على أن يمر عليه بعد الظهر لآخذها .. ثم حياه ، وتقدم ناحية الباب ، وفجأة توقف كمن نسى شيئا ثم استدار ليقول للبائع فى رقة واستحياء :

ـ أرجو ، اذا أحضر لك جندى انجليزى لفافة باسمى ، أن تحفظها عندك ، وسآخذها حين أعود اليك بعد الظهر ..

وقبل أن يسمع رد البائع ، كان قد استدار ثانية وانصرف بخطا سريعة الى مدرسة الاقباط بشارع الدرب الواسع ، ليلقى درس الصباح فى اللغة الفرنسية ..

وفى الساعة الواحدة والنصف ترك سادوفسكى مدرسة الاقباط ليستأنف عمله فى كلية فيكتوريا بشبرا والذى يبدأ عادة فى الساعة الثانية بعد الظهر . وفى طريقه الى شبرا عرج على بوفيه أمام سينما ستوديو مصر بشارع عماد الدين حيث تناول وجبة خفيفة

وغادر سادوفسكى كلية فيكتوريا فى حوالى الرابعة بعد انتهاء الدراسة وهو يتحرق شوقا لمعرفة الاخبار واتجه مباشرة الى محل الزهور بشارع المدابغ فوصله فى الساعة الرابعة والنصف .. وهناك كانت باقة القرنفل فى انتظاره ، فكلف أحد الصبية بأن يوصلها الى مسكن صديق له بالقرب من المحل .. وسأل البائع وهو يتظاهر بعدم الاكتراث عما اذا كان الجندى البريطانى قد مر عليه وترك اللفافة ، فأجابه بالنفى !

عندئذ أحس سادوفسكى كأنه أصيب بضربة على رأسه كادت تفقده الوعى ، ولكنه تمالك أعصابه ، وحاول

السيطرة على أحاسيسه ، واستجمع قواه وانصرف .. والالم والدهشة فى عينيه والحيرة والفزع على وجهه كما لو كان قد سقط فجأة الى أعمق الاغوار .. وحاول أن يقنع نفسه بأن ضيق الوقت ربما حال دون مرور حكيم وبت سورى على المحل ، بعد اغتيالهما وزير الدولة البريطانى ، أو ربما تخلصا من الملابس حتى لا يعوقهما حملها عن الهرب

واتجه سادوفسكي على الفور الى بائع الصحف ، وطلب منه نسخة من جريدة « البورص » المسائية ، ولكن الجريدة لم تكن قد وصلت بعد بالرغم من أن الساعة كانت تشير الى الخامسة

وسار فى طريقه على غير هدى ، وكلما صادفه واحد من باعة الصحف أسرع اليه سادوفسكى يسأله عن الجريدة ، الى أن قال له أحدهم :

ـ لقد تأخرت اليوم ، لحادث هام ، هو قتل وزير تموين شرق الاردن

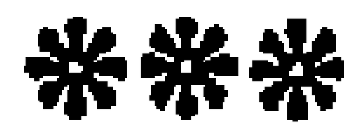
ولم يتمالك سادوفسكي من ابتسامة باهتة ارتسمت على وجهه .. فالجريمة قد وقعت .. اذن ! ..



فى السادسة وعشر دقائق ظهرت جريدة «الاجيبشيان جازيت» فى السوق ، فاشتراها سادوفسكى ، وهاله أن يجد فى صدرها نبأ الاعتداء على اللورد موين ، والقبض على القاتلين

وطوى الصحيفة .. وهام على وجهه ، فقد احاله هذا النبأ الى حجر بارد من أخمص قدميه الى رقبته .. اما رأسه فظل يسبح فى حمى شديدة الحرارة تتراقص خلالها الافكار مظلمة قاتمة ..

واستماد فى لحظات الاحداث كلها ، وبرزت أمامه كافة الاحتمالات التى يمكن أن يصادفها ، وأحس بالاخطار وما تقتضيه من وسائل الدفاع ٠٠ وتوقع أسوأ الظروف ٠٠ غير أنه شعر بعجزه التام عن مواجهتها ٠٠ وانهار أمامه فجأة عالمه الذى كان يتصوره مليئا بالمجد والبطولة والسعادة وتحطمت كل تلك المسلسلة المتوالية من المغامرات ، والمواكب المتلاحقة فى طريق النصر ٠٠ وعاد من جديد الى نفسه ليجد قدميه وقد قادتاه الى مكتب البير ستراسلسكى .. وكانت الساعة قد بلغت النصف بعد الثامنة



كان ستراسلسكى مضطربا ، يدور فى عصبية فى حجرته ، يفتح أدراج مكتبه تارة ، ويبحث فى دواليبه تارة أخرى ، ويلقى نظرات سريعة عاجلة على مئات الاوراق والنشرات التى كانت تمتلىء بها الحجرة ، وبين الحين والحين يمزق بعضها ويلقى به فى سلة المهملات

وقد استقبل سادوفسكى ، والرعب والخوف يرتسمان على وجهه . وقال له انه علم بأن مرتكبى الجريمة من اليهود ٠ ويخشى أن تقوم السلطات بتفتيش مكاتب ومنازل السياسيين اليهود البارزين

ثم عرض على سادوفسكى نص برقية عزاء ، كان قد كتبها وانتوى ارسالها الى السفارة البريطانية ، يعلن فيها بوصفه قومسيرا عاما للمكتب السياسى للمنظمة الصهيونية الجديدة ، استنكاره لهذه الجريمة الوحشية

ولم يجد سادوفسكى ما يقوله ٠٠ كان الموقف أخطر من أن يدور حوله الحديث . وكل ما فى الامر انه وافق ستراسلسكى على ارسال البرقية ...

وانصرف .. الى منزله ، حيث قضى ليلة مضنية لم تر فيها عيناه النوم

وفى صباح اليوم التـالى طلعت الصحف بتفـاصيل القبض على الجانيين ، وبصورتين لهما .. ولم يستطع سادوفسكى عندما شاهد صورتى زميليه أن يقف على قدميه ، وجف حلقه ، وأحس بأن حبلا غليظا يضغط بعنف على عنقه ..

واســترجع فى لحظات رؤيا الاماكن التى كان يتردد عليها معهما ، وتصور أن آلاف العيون التى شـاهدته مع القاتلين تحاصره من كل جانب لتلتهمه وتعتصره بشدة .. وارتعد جسده ، وتصبب العـرق على جبينه ... ومرت دقائق قبل أن يتمالك أعصابه ، ويفكر فى هـدوء .. ان أفضل ما يتخفى به ، هو أن يبتلع خوفه فى جوفه ، وأن يتظاهر بأن شيئا لم يحدث ..

ويذهب الى عمله كالمعتاد ..

زائر الصباح الباكر

فى السادسة والنصف ، من صباح الخميس ، دق جرس الباب فى مسكن سادوفسكى .. واستيقظ الاب وخرج يهرول ، يستطلع الطارق ، وكان جنديا جاء يسأل عن ابنه رفاييل

وتعجب الاب من هذه الزيارة المبكرة المفاجئة ، وفى تذمر واضح ، دعاه للدخول حالما يخبر ابنه ·· وهـــذا سادوفسكى من ثورة أبيه ، وخرج للزائر فوجده شابا فى مقتبل العمر ، متوسط القامة نحيف الجسم ،كستنائى الشعر ، حليق الشارب ، برونزى اللون ، يتكلم خليطا من الالمانية والعبرية .. ولم يكن قد رآه من قبل .. واقتاده الى حجرته ·· وبدأ الجندى حديثه بقوله انه جاء من فلسطين ليحمل له تعليمات من رئيسه جوزيف ستنر ..

وخشى سادوفسكى ، أن يكون هذا الجندى قد دس عليه ليوقعه فى الشرك ·· فاحتاط للامر ، وتحاشى أن يبدو عليه أنه على صلة بستنر .. وبعد دقائق من محاورات حذرة مع هذا الغريب ، أيقن أنه من أعضاء العصابة فعلا .. وبدأ الحديث صريحا وواضحا .. وقال الجندى ، انه حضر لامرين :

أولهما : ان يؤكد له بأن القاتلين لن يعترفا قطعا عليه

.. واذا حدث واستدعته السلطات للتحقيق فعليه ان ينكر معرفته بالقاتلين اصلا أو وجود أية صلة له بهما

غير أن سادوفسكى ، رد قائلا :

ـ ولكننى شوهدت كثيرا برفقتهما ..

واجابه الجندى مطمئنا :

ـ ان ذلك لا يكفى لادانتك وتقديمك للمحاكمة ..

ثم روى لسادوفسكى أنه سبق أن اتهم في ظروف مماثلة، وازاء اصراره على الانكار ، أفرج عنه لعدم كفاية الادلة

أما الامر الثانى : فهو استرداد الملابس العسكرية التى تركها حكيم وبت سورى فى مسكنهما وقت أن ذهبا لارتكاب الجريمة .. واسترداد دفترى الصرف اللذين استخدمهما القاتلان في التسلل الى مصر .. وما قد يكون لديهما من أوراق

واضاف الجندى يقول :

ـ سأتوجه فى الحال الى المسكن الذى كانا يقيمان فيه

وقبل أن ينصرف ، شاهد على المنضدة بعض الجرائد ، التى بها صور القاتلين .. فالتقطها ، وقال لسادوفسكى : « ابعد عنك هذه الجرائد .. أطرد من ذهنك الخوف ، لا تفكر فى شىء .. »

وكان يطلب من سادوفسكى بهذا ، شيئا مستحيلا . فمن العسير عليه أن يسقط المخاوف من حسابه ، ويتخلص منها بسهولة ..

مرت الايام ، والتحقيق مع القاتلين يجرى ، دون أن ياتى لسادوفسكى ذكر ..

وكان كل ما كشفت عنه تحقيقات النيابة ومحكمة

الجنايات التى رأسها المستشار محمود منصور ان القاتلين حكيم وبت سورى استأجرا فى صبيحة ٦ نوفمبر دراجتين ، وأنهما انطلقا ناحية الزمالك حيث تقع فيللا اللورد موين . ووقفا الى جانب الباب الخارجى لحديقة الفيللا يتربصان مقدمه ، وكل منهما يحمل مسدسه ، وقد اتفقا على أن يبادر الياهو حكيم باطلاق النار على اللورد موين ، بينما يتولى الياهو بت سورى عملية المراقبة ، الى أن ينتهى زميله من تنفيذ جريمة الاغتيال . فاذا اقتضى الامر أن يطلق الآخر النار على اللورد ، فليكن مستعدا

وقرابة الساعة الواحدة بعد الظهر ، أقبلت سيارة اللورد ، يقودها الاومباشى « آرثر فوللر » ويجلس بجواره الكابتن « هيوز انسلو » ياور اللورد . بينما فى المقعد الخلفى يجلس اللورد ، والى يساره سكرتيرته الخاصة المس « دوروثى أوزموند » ..

وحين توقفت سيارة اللورد امام باب الفيللا ، ترك القاتلان الدراجتين على الرصيف ودخلا وراء السيارة . وكان الكابتن هيوز انسلو قد غادر السيارة وأسرع الى باب الفيللا يفتحه . ثم نزل السائق فوللر ودار حول السيارة ليفتح الباب للورد . حينئذ اقترب القاتلان من السيارة شاهرين مسدسيهما .. وأمرا السائق والياور الذى كان يقف عند باب الفيللا أن ينبطحا أرضا ، والا يتحركا .. بعد ذلك وبسرعة فتح الياهو حكيم باب السيارة الخلفى ، وصوب مسدسه الى اللورد الجالس على مقعده وأطلق عليه ثلاث طلقات أصابته فى صدره وعنقه

ولما أحس بت سورى ، أن السائق فوللر يحاول الاقتراب منه ، أطلق عليه ثلاث رصاصات أردته قتيلا فى التو واللحظة ..

اما اللورد فان الرصاصات الثلاث التى أفرغها حكيم فى صدره وعنقه ، لم تقتله على الفور ولكنه مات بعد ساعات من نقله الى المستشفى

وبعد ان ارتكب القاتلان جريمتهما ، سارعا الى الدراجتين ، وركباهما ثانية ، حيث اتجها بسرعة الى الجهة القبلية من شارع حسن باشا صبرى ، ثم اتجها يمينا الى شارع الجبلاية ثم فى طرق متعرجة ، الى أن وصلا الى شارع فؤاد الاول ، ثم الى كوبرى فؤاد الاول « كوبرى الزمالك »

فى اللحظة التى غادر فيها القاتلان باب الفيللا كان يس صالح وهو يعمل سائقا بالفيللا المجاورة قد سمع صوت طلقات الرصاص ، فتلفت يبحث عن مصدرها . وهنا شاهد اثنين يركبان دراجتين خارجين من منزل اللورد •• وسمع صوت الرصاص كذلك طاهى اللورد ، وكان بالمطبخ ، يعد طعام الغداء ، فأسرع بالخروج ، حيث ذكرت له المس دوروثى أزموند ـ التى كانت فى حالة هستيرية شديدة ـ أن الجانيين فرا ••

وهرول الطباخ مسرعا ليلحق بالقاتلين ، فقابله سائق يعمل فى المنزل المجاور ، وأخبره أنه رأى اثنين يخرجان من باب الحديقة ، ويسيران فى الاتجاه القبلى • فسار الطاهى فى أثرهما ، ولكن الطريق كان أمامه خاليا ••

وعاد الطاهى أدراجه ، فى اتجاه الفيللا ••

وهناك وجد الكونستابل الامين عبد الله ، فأرشده هو وسائق المنزل المجاور عن الجهة التى سار فيها القاتلان راكبين دراجتين ••

القبض على الارهابيين واعدامهما

وأسرع الكونستابل فى الاتجاه الذى وصفاه له . واستطاع أن يلحق بالقاتلين على كوبرى « فؤاد الاول » من الجهة الشرقية . وكانا يتلفتان خلفهما ، فأمرهما بالوقوف ، ولكنهما لم يمتثلا للامر . وحين أصر الكونستابل على ذلك أطلق أحدهما النار على اطار الموتوسيكل ، قاصدين منعه من اقتفاء أثرهما ، ولكنهما لم ينجحا فى ذلك ..

وتوالت الطلقات ، فأصابت احداها ، سيارة أثناء مرورها .. حينئذ أطلق الكونستابل النار من مسدسه على بت سورى ، فأصابه ، وأسقطه من على دراجته ، وقبض عليه بعد أن انتزع منه سلاحه

أما الياهو حكيم فقد تعقبه الكونستابل حتى لحق به، وكان أحد المارة قد تمكن من ايقافه ثم انتزع منه السلاح ، وعاد به الى حيث يوجد زميله .. ليقتادهما الى قسم الشرطة .. ثم الى النيابة ، فمحكمة الجنايات

***

اعترف المتهمان بارتكاب الحادث ، ولكنهما لم يكشفا عن شركائهما .. وقبل أن تنتهى اجراءات المحاكمة ، وقف بت سورى يلقى دفاعا سياسيا منعت المحكمة نشره واذاعته قال فيه :

« سأشرح الدوافع التى دفعتنى الى ارتكاب الجريمة

« وأود أن أعود بكم بضع سنوات الى الوراء ، وأذكر أننى منذ تسع او عشر سنوات خلت كنت اقف فوق سطح منزل والدى بتل أبيب ، ارقب الطريق ، وكنت وقتئذ صبيا فرأيت جمعا من الشبان يسيرون فى الشـــارع وهم يهتفون ويحملون اعلامهم •• وفهمت من اصدقائى الصبية الذين كانوا معى أن هذه مظاهرة •• كان المنظر فى الواقع ممتعا لصبى فى العاشرة من عمره • وفجأة شاهدت عددا من رجال الشرطة بعضهم من اليهود والبعض الاخر من الانجليز يباغتون المتظــــــاهرين وهم يحملون العصى ويحاولون تفريقهم بالقوة ورأيت شرطيا انجليزيا يضرب أحد المتظاهرين ••

« ودار فى ذهنى على الفور سؤال لم أهتد وقتها للاجابة عنه •• لماذا يترك انسان وطنه وعائلته ويبتعـــــد عنهم خمسة الاف كيلو متر ليعمل شرطيا فى بلدى ؟!

« •• ومرت الايام وادركت أن بلدى تخضع للحــــكم البريطانى •• وبتعاقب السنين ايقنت ان بلدى ، لعبة فى يد حكومة اجنبية كانت عصبة الامم قد قررت وفقا لما يسمى بالقانون الدولى انتدابها لحكمها بعد أن وعــدت باقامة وطن قومى لليهود • ولكنها بدلا من تنفيذ ما عهـد اليها أخذت توسع نفوذها فى فلسطين ••

«لقد حكمت بريطانياالبلاد ، وماتزال تحكمها حتى الان بأسوأ أسلوب يمــــكن أن يحكم به بلد • فكافة ادارات الحكومة ومصالحها لا تؤدى اى عمل نافع • وليس لها من هدف الا استمرار الحكم الانجليزى للبلاد •• لقد عم الظلم ، والمحسوبية والقســـوة فى كل مكان •• واليكم بعض الامثلة :

« عندما أعلنت الحرب أصدرت الحكومة قانونا يلزم كل فلسطيني بأن يبيع للحكومة ما لديه من عملة ذهبية ، وبعد قليل طرحت الحكومة ما اشترته من ذهب في السوق بأربعة أمثال ثمنه .. وفي نفس الوقت تعلن الحكومة انها ضد التجار الجشعين الذين يستغلون ظروف الحرب

« ولكن عندما يبيع تاجر فقير في تل أبيب سلعة بسعر يزيد عن السعر المحدد بنصف قرش ، يقبض عليه ، ويعاقب بالغرامة وبالحبس عدة شهور .. فهل ينطبق هذا القانون على الحكومة .. لا ؟

« ان فلسطين مليئة بالعقول الخلاقة ويسعى سكانها الى الرقي والتقدم ولكنهم لا يجدون معاونة من المصالح الحكومية التي يتولى ادارتها انجليز لا يستجيبون لنصح ويتصورون ان كلمتهم هي القانون ..

« ان الوضع في فلسطين يذكرني بكتاب الكاتب الكبير جاك لندن « ذئب البحار » فهو يروي قصة شخص غرقت السفينة التي كان عليها ، فظل يسبح الى أن التقطته سفينة اخرى ، وتصور ان في ذلك نجاته ونهاية آلامه ، ولكن ذلك لم يكن الا بداية لمتاعبه ..

« فالسفينة التي أنقذته لم تكن الا دولة صغيرة لها قوانينها ، وهذه القوانين هي عضلات الربان . فكل من على ظهر السفينة ، يجب أن يخضع لاوامره . وهو رجل مستبد قاس لا تعرف الرحمة سبيلا الى قلبه . وما من أحد يستطيع ان يناقش اوامره . ان عضلاته تصنع القانون .. وفي فلسطين عضلات الشرطة هي التي تصنع القانون

« وأؤكد لكم أن مسلك الحكومة البريطانية في فلسطين اسوأ من مسلك هذا الربان العاتي ..

« فاذا اعتدى رجال الشرطة على شاب فلسطينى فى الثامنة عشرة الى ان يموت ، كما فعلوا عام ١٩٣٩ بالشاب اليهودى مناحم بريشت فى شوارع القدس ، كان ذلك هو القانون

« واذا اقتحم الضابط الانجليزى ماورنون منزلا وقتل اثنين من أعضاء جماعة شترن . كما حدث منذ ثلاث سنوات فى المنزل رقم ٣٠ شارع ايزنجوت بتل ابيب ، كان ذلك هو القانون

« واذا قتل هذا الضابط عمدا مع سبق الاصرار ابراهام شترن وهو أعزل من السلاح واقتاد الشاهدة الوحيدة والقى بها فى سجن النساء ببيت لحم فهذا هو القانون .

« ان القانون يطبق على الاهالى ولكنه لا يطبق على الشرطة

« وأكثر من هذا ، فان شرطة المباحث تستخدم أحدث الطرق العلمية فى التعذيب

« وعندما واجه مراسلو الصحف الاجنبية السكرتير العام لحكومة فلسطين بهذه الوقائع انكرها . ولما طالبوه بتشكيل لجنة للتحقيق فيها ، أصر على الرفض .. لماذا ؟! .

أليس من مصلحة كل حكومة أن تثبت لرعاياها أنها خير حكومة تقوم بواجبها .. ولكن حكومة فلسطين ترفض تشكيل مثل هذه اللجنة لانها تعلم صحة ما تنكره ..

« اننى لم أحظ بزيارة انجلترا ، هذا البلد الذى يحارب أبناؤه فى أنحاء العالم أجمع من أجل الحرية .. هذا البلد الذى صدرت فيه « الماجنا كارتا » . ولكننى اذكر كلمة قالها زميل لى اثناء محاكمته فى فلسطين ..

« فقال قال ان الخلق الانجليزى خلق مزدوج يجمع النقيضين .. فقد يكون الانجليزى فى بلاده « جنتلمانا »

حقيقيا مثل « الدكتور جيكل » ولكنه ما ان يترك بلاده ويذهب الى المستعمرات ويرتشف كأس الحكم حتى يتحول الى « مستر هايد »

« خلاصة الأمر أن فلسطين تحكمها الآن حكومة لاتؤمن بالعدالة ·· وعلى ذلك تصبح المسألة المطروحة هي :

« اذا كنت لاأوافق على أسلوب الحكم في فلسطين فجدير بي أن اشكو ·· ولكن من الذى يصغى الى شكواى في العالم ·· ليس هناك من سبيل سوى القتال ·· والقتال له عدة اساليب ·· فهناك الدعاية ونشر الآراء بواسطة الصحف لاقناع الاخرين بعدالة مطالبنا ·· وقد بـــدأنا فعلا بهذا الاسلوب ·· ولكننا اذا كنا قد غيرناه واستخدمنا الاسلحة النارية فان ذلك يرجع الى ســبب واحـــد ، هو الطريقة التى تحكم بها فلسطين الان · فطالما أن حـــكومة فلسطين تستعمل القوة بطرق ملتوية فلسنا بأفضل منها ويكون من حقنا عندئذ ان نسلك نفس السبيل ··

« والواقع اننى عندما عرضت على حضراتكم بعض الجرائم التى ارتكبتها حكومة فلسطين لم أكن أعنى أن ذلك كان هو السبب الذى دفعنا الى القتال · وفى بعض الاحيان الى العنف · فلسنا نقصد من هذا القتال ان نحيل حكومة فلسطين من حكومة سيئة الى حكومة طيبة ·· ولكننـــا نحارب الحكومة باعتبارها دخيلة على فلسطين وغرضـــنا استئصالها من جذورها وطردها

« ان هدفنا هو نفس الهدف الذى يرمى اليه كل فرد فى العالم يدافع عن بلده · يحركنا فى ذلك احساسنا الوطنى ونفعل ما نفعله كابناء لفلسطين ·· فاذا قال احد اننـــا كيهود لا يحق لنا أن نقاتل بريطانيا التى ندين لهـــا بوجودنا فى فلسطين بناء على وعد بلفور الذى منحنا وطنا

قوميا فانني اجيبه على الفور بان هذا غير صحيح وهو خطأ محض . فاليهود فى فلسطين كانوا يتطلعون الى الاستقلال من قبل الحرب العالمية الاولى .. وعندما تسلل « هارون هارتشون » اثناء تلك الحرب الى مصر سرا وجمع شمل عدد من شباب فلسطين وانضموا الى صفوف المحاربين البريطانيين ضد المانيا وتركيا سئل عن الثمن الذى يطلبه مقابل ذلك اجاب نحن لا نطلب مالا ولكننا نريد الاستقلال »

وختم بت سورى مرافعته بقوله :

« ان هناك وجهتى نظر مختلفتين احداهما صحيحة والاخرى خاطئة .. وقد ارتكبت الجريمة وفقا لعقيدتى فان اعتبرت المحكمة ان عقيدتى هى وجهة النظر السليمة كنت بريئا أما اذا رأت أن عقيدتى هى وجهة النظر الخاطئة كنت مدانا ... وهذا ما أريد أن أطرحه على المحكمة : ان وطنيتى هى التى دفعتنى الى ارتكاب الحادث . واذا كان العالم قد اعتاد ان ينظر الى « المسألة الفلسطينية » على انها مسألة بين اليهود والعرب فهذا خطأ .. انها مشكلة بين أبناء فلسطين مع حكومة غريبة عليهم .. ومطالبنا لم تكن لتختلف سواء أكان هناك وعد بلفور أو لم يكن ، وسواء بقيت مسألة الوطن القومى لليهود أو لم تبق .. ! »

وبعد ان القى بت سورى مرافعته ، تبعه حكيم قائلا :

« ان القانون القائم على العدالة الاجتماعية فى اى بلد من بلاد العالم يمنح كل مواطن حقوقه ويحميها واذا ارتكب اى فرد عملا بسبب وطنه فانه لا يمكن أن يحاكم وفقا لقانون البلد الذى ارتكب فيه فعلته .. نحن هنا متهمان بقتل اللورد موين ونحن نتهم الحكومة التى يمثلها

اللورد موين في الشرق الاوسط بقتل المئات من اخوتي واخواتي .. فاين هو القانون الذى يساق بمقتضاه اللورد موين ورفاقه الى العدالة ؟ !

« واذا كان قانون البلد الذى نحـــاكم فيه لا يعترف بحقوقنا الوطنية فان هذا لا يغير من طبيعة الاضرار التى لحقت بنا .. ان رجال الشرطة الذين يمـــرون الآن فى شوارع فلسطين يتمتعون بحريتهم فى تلك الشـوارع . والعلم البريطانى ما زال مرفوعا على سراى الحاكم العـام فى القدس

« فاين هو العدل بالنسبة لنا ..

« لقد تربينا منذ نشأتنا على مبادىء التوراه التى تقول « لا تقتل » . فاذا كنا قتلنا هذا الرجل فلأننا اعتقدنا ان العدل فى جانبنا . ولكن على أى أساس تطلب منا الانسانية ان نكون مسالمين .. ؟! أباسم الخزى وباسم الرق .. !

« اننى أطلب باسم العدالة أن تقضى المحكمة ببراءتنا .! »

كان دفاع المتهمين مغالطة واضحة ، فقـد حاولا بذكاء ومهارة ايهام الرأى العام بأن قضيتهما هى قضية الدفاع عن الوطن ، ضد الاحتلال الاجنبى . ونسيا أو تناسيا ، أن الانتداب البريطانى كان الغرض منه تدعيم الحـــركة الصهيونية ، وفرض سلطانها على جزء من الاراضى العربية، واقـامة وطـن قومى لليهـودية . ولم تكن جريمتهما فى الواقع الا حلقة ، فى سلسلة الضغوط التى مارســــتها الصهيونية على انجلترا للاسراع بتحقيق وعد بلفور

***

فى يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٤٥ انتهت محاكمة اليـاهو حكيم والياهو بت سورى بصدور الحـــكم باعدامهمـــا شنقا : وكان لهذا الحكم تاثيره الرهيب على نفســـــية

رفاييل سادوفسكى .. فذهب الى حيث دفن القـــاتلان بمقابر اليهود فى البساتين ليزورهما فى مثواهما الاخير .. وهناك قبض عليه خفير المدافن ..

وقد ساهم القبض عليه فى الكشف عن الحـــركة الصهيونية فى مصر .. كما كان ذلك ايقاظا للجهـــات الرســمية فى مصر .. وتفتيحا لعينيها اللتين ظلتا فترة طويلة من الزمن مغمضتين عن النشـــاط الصهيونى .. الذى بدأ ينشب أنيابه ، وأوشك أن يحقـــق أهدافه .. فى جزء من الوطن العربى .. فى فلسطين ..

خاتمة

غير أنه من الانصاف أن نؤكد أن يهود مصر لم يترددوا جميعا فى النشاطات الصهيونية العنصرية ، بالرغم من الدعاية المسمومة الواسعة التى أحاطت بهم من كل جانب ، وبالرغم من الضغوط الشديدة التى باشرها كبار الصهيونيين عليهم باسم الدين ، وبرغم تحبيذ الرأسماليين اليهود لهذه الافكار . فقد تصدى عدد من شباب اليهود المثقفين الواعين الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، ورفعوا راية المعارضة لهذا النشاط الصهيوني وكونوا فيما بينهم جماعة عرفت باسم « الحركة المضادة للصهيونية »

وقد بذل هؤلاء الشبان التقدميون جهودا واسعة ونشاطا دائبا من اجل ايقاف التسلل الصهيوني وكشف مراميه الرجعية ، وتوعية الشبيبة اليهودية ، والنأى بها عن الوقوع فى شراك ومخالب الصهيونية

وكان أبرز من حمل لواء الكفاح ضد الصهيونية هانز بن كسفلت ، وهو ابن لطبيب اسنان نمساوى الاصل عاش فى مصر . فقد شن هانز منذ عام ١٩٤٢ حربا ضارية ضد المعتقدات الصهيونية ، ونشر بين زملائه وأصدقائه كتابا للمؤلف الانجليزى « ريناب » بعنوان « المعاداة للسامية ، والمشكلة اليهودية » وهو كتاب وضع مقدمته وليم جاليشر سكرتير الحزب الشيوعى البريطاني ،

وفيه فضح مؤلفه الصهيونية بوصفها نظاما رأســــماليا هدفه سحب اليهود من معركة الصراع الطبقى ، واعتبرها حركة انقسامية القصد منها تجميع اليهود فى مكان معين يستطيعون فيه خدمة أهداف الاستعمار

وقد ضمنت هذه الجماعة عدداً من الشـــبان اليهود المصريين من بينهم الصحفى المعروف « اريك رولو » الذى يعمل الان مراسلا لجريدة الموند الفرنسية ، والمحاميان : يوسف درويش وشحاته هارون ، وريمون دويك ، وألبير آرييه وغيرهم

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وجدت المنظمـــة الصهيونية فرصة موآتية لتحقيق اهدافها عن طـــريق الجمعيات الثقافية والنوادى الرياضية كنادى المكابى ، فأخذت تنشر فى هذه الجمعيات الافـــكار التى تدعو الى الهجرة الى فلسطين باعتبارها الوطن القومى لليهـــود ، وتزعم بث الدعوة فى هـــذه النـــوادى نفر من كبار الرأسماليين على رأسهم « كليمان شيكوريل ، وجاك داسا ، ومارســـيل فينتورا ، وريمون كوهين ، وآدوين كوهين ، وسامى كوهين »

وبعـــد أن كانت هذه النوادى تعد الشـــبان نفسيا وفكريا للهجرة الى فلسطين • كانت تحت ستار الرحلات التى ينظمها نادى المكابى للشبيبة اليهـــودية للسفر الى الخارج ، تستخرج لهم جوازات السفر ، وتبعث بهم الى فلسطين ، ومن هناك يرحلون سرا الى الكيبوتزآت ومنها كيبوتز « كفار جيلاديه » على حدود سوريا ،وكيبوتز « جفات » بالقرب من مدينة حيفا

وعندما أدرك أعضاء «الحركة المضادة للصهيونية» خطورة هذه الخطة رأوا أن ينضموا الى تلك النوادى فى محاولة

للكشف عن هذا التخطيط الصهيونى الخفى ، غــير ان القـــــائمين على المنظمة الصـــــهيونية سرعان ما تنبهوا اليهم ، والى ما فى انضمامهم من خطـــورة على مراميهم ، فبدءوا فى محاربتهم مستخدمين فى ذلك كافة الوســـائل غير المشروعة ، ووصل الامر الى حد الاعتداء عليهم بالضرب

فقبيل اجراء انتخابات مجلس ادارة نادى المكابى فى ٩ ابريل سنة ١٩٤٧ ، عمدت العناصر الصهيونية المسيطرة على النادى الى دعوة الجمعية العمومية بطريقة مخالفـــة للقانون ٠فلم يحضرها مندوبمن وزارة الشئونالاجتماعية كما يقضى بذلك القانون ٠ وحشد الصهيونيون عددا كبيرا من اتباعهم وانصارهم ، وكان معظمهم ممن يعملون فى المحلات التجارية التى يملكها كبار الرأسماليين اليهـــود وعلى الاخص محلات شيكوريل ، وشملا ٠ وقبــــل أجراء الانتخابات اعتدوا على العناصر المتحررة ، اعتداء وحشيا ، فأوسعوهم ضربا وأصابوا البعض منهم باصابات بالغة ٠٠ وفى هذه الظروف أجريت عملية الانتخاب التى أسـفرت عن انتخاب مجلس ادارة كله من الصهيونيين

وقد أشارت جريدة « صوت الامة » فى عددها الصادر بتاريخ ٢٢ ابريل سنة ١٩٤٧ الى هذا الحادث ووصفته بأنه مؤامرة دبرها الصهيونيون للخروج بهذا النادى عن مهمته الاصلية ، وتحويله الى وكر صهيونى يعمـل قلبـا وقالبا من أجل الدعوة الصهيونية الاثيمة

وعقب هذا الحادث شكلت العناصر اليهودية التقـدمية جماعة عرفت باسم « الرابطة اليهودية لمكافحة الصهيونية» وأعلنت هذه الرابطة ان هدفها هو القضاء على الحركـــة الصهيونية والوقوف ضد هجرة اليهود من مصر ،واعلان الارتباط بمصالح الشعب المصرى والحركة الوطنيـــــة

المصرية • واصدرت منشورا قامت بتوزيعه على المؤسسات والمحال التجارية التى يعمل بها اليهود

كما تقدمت بمذكرة الى وزارة الشئون الاجتماعية أعلنت فيها ولاءها لمصر ورعايتها لمصالح الشعب المصرى ، واستنكارها للمؤامرة التى دبرتها العناصر العدوانية الصهيونية • وبعثت الى جريدة صوت الامة ببيان جاء فيه :

« بمناسبة ما حدث اخيرا فى انتخابات الجمعية العمومية لنادى المكابى الرياضى بالظاهر من مهازل واعتداءات نتيجة لتدخل عناصر صهيونية أرادت التغلغل والسيطرة على الشبيبة الرياضية ، وتحويل ناديها الى مركز لبث الدعاية الصهيونية وميدان لنشاطها العدوانى، نتقدم نحن الشباب الاسرائيلى الديموقراطى بالقاهرة باحتجاجنا الصارخ وتأييدنا المطلق لمقاومة تلك المحاولات •• ونعلن استنكارنا لتلك المحاولات الاثيمة التى يريد محركوها خدمة الصهيونية »

وتتابعت الاحداث على أرض فلسطين • واستطاعت الحركة الصهيونية باستقطابها الرأسمالية اليهودية فى أرجاء العالم ، وبتنظيماتها الخفية فى مختلف البلدان أن تقنع الامم المتحدة ، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، بما كانت تذرفه من دموع التماسيع على ضحايا النازية من اليهود •• أن توافق على اقامة « دولة اسرائيل » على أرض فلسطين ••

ولم تكد توضع اللبنات الاولى لهذه الدولة ، حتى كشفت عن دورها الرجعى العدوانى ، وعن أنها ركيزة للامبريالية ، تهدد عن طريقها شعوب العالم العربى المتطلعة الى الحرية والاشتراكية •• !

فهرس

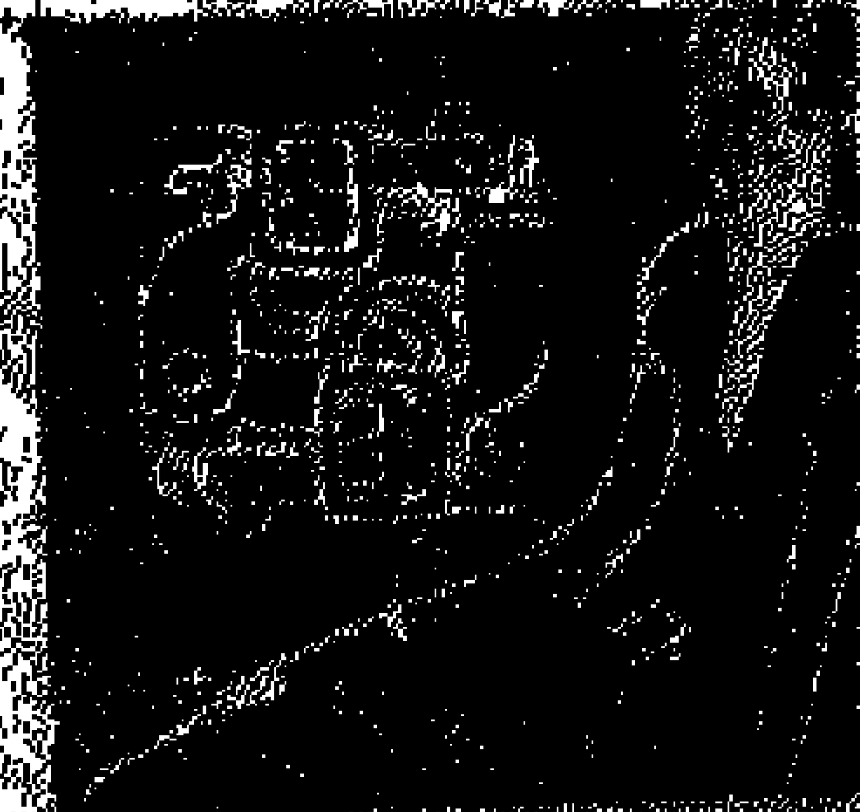
وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

ليس من المبالغة فى شىء أن نقول : أن هذا الكتاب ، يعتبر أول كتاب من نوعه ، أو أول دراسة متكاملة فى مجال الحياة اليهودية والنشاط الصهيونى فى مصر ، أو فى سائر أنحاء الوطن العربى ، عدا فلسطين بالطبع

أن القارىء العادى يتصور — وهو معذور فى تصوره — أن الحركة الصهيونية التى ولدت فى أوربا ، إنما انصبت على فلسطين وحدها فقط . ومن هذا التصور يولد تصور آخر تستغله إسرائيل ذاتها ، وهو أن يهود البلاد العربية لم يحبوا يوما إسرائيل ، وأن يهود الفعل المترتبة على ذلك ، فاسرعوا إلى الفرار من البلاد العربية التى كانوا يعيشون فيها إلى إسرائيل .

وكلا التصورين خاطىء ، كما تثبت لنا هذه الدراسة

أن هذا الكتاب يرد على ذلك ، فيحدثنا عن معالم الحياة اليهودية فى مصر ، ثم يحدثنا عن بدايات الحركة الصهيونية فى مصر أيضا ، والأساليب التى لجأت إليها ، ابتداء من النشاط الفكرى وجمع التبرعات إلى ارتكاب جرائم الاغتيال .

على أن المهم فى هذه الدراسة هو جهد البحث والاستقصاء الأصيل الذى بذله الأستاذان أحمد غنيم وأحمد أبو كف ، لوضع هذه الصورة فى إطار من الحقائق ، والوثائق ، والمستندات ...

١٠ قروش

كتاب الهلال



محمود درويش

شاعر الأرض المحتلة

سلسلة
ثقافية
شهرية

رجاء النقاش



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

العدد ٢٢٠ ربيع الثانى ١٣٨٩ يوليه ١٩٦٩

No. 220 — July 1969.

مركز الادارة

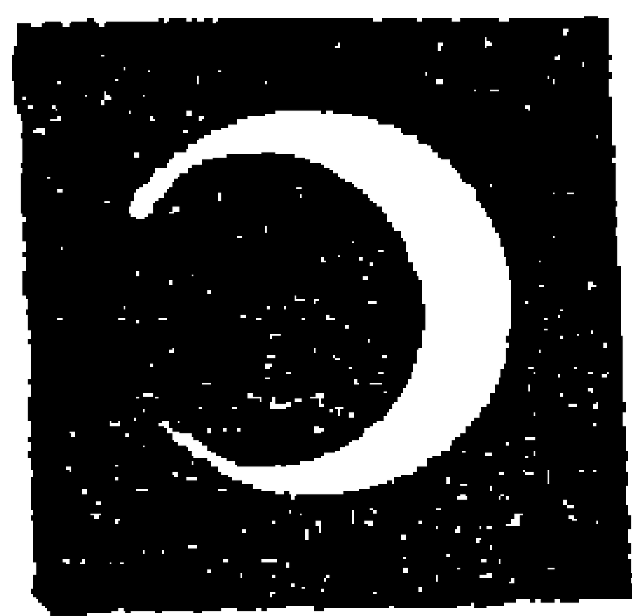
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية أو ٤٠ شلنا — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل للصرف فى (ج٠ع٠م) — والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
حـلمى التـــونى

رجاء النقاش

محمود درويش

شاعر الأرض المحتلة

دار الهلال

مقدمة

كان لقائى الاول مع ادب المقاومة فى ارض فلسطين المحتلة فى اواخر سنة ١٩٦٦ ، واذكر اننى فى ذلك الحين كنت فى زيارة للجزائر مع وفد صحفى من الجمهورية العربية المتحدة ، وكان ضمن برنامج هذه الرحلة أن نزور المنطقة البترولية فى صحراء الجزائر ، وكان من الضرورى أن نركب طائرة تحملنا من العاصمة الى قلب الصحراء ، وذلك لطول المسافة ، حيث تستغرق المواصلات العادية وقتا طويلا لا تحتمله أيام زيارتنا المحدودة . وفى الطائرة وقعت يدى على جريدة جزائرية وأخذت أتصفح الجريدة التماسا لقضاء الوقت حتى نصل الى منطقة البترول ، وفى ركن من أركان الجريدة وقعت عينى على قصيدة قصيرة بتوقيع « محمود درويش » ، وقد قدمتها الجريدة على أنها قصيدة لشاعر من أرض فلسطين المحتلة . وقرأت القصيدة فهزنى ما فيها من صدق وبساطة وجمال فنى ، وهزنى فوق ذلك كله ما فيها من حرارة ثورية عنيفة . ولست أدرى كيف ثبت فى وجدانى آنذاك أن « محمود درويش » هذا ليس اسما حقيقيا وانما هو اسم مستعار لمناضل عربى ثورى يعيش متخفيا فى الارض المحتلة ، كما أن القصيدة نفسها بدت لى نوعا

من المنشور الثورى الذى كتبه ذلك المناضل السرى ليرفع الروح المعنوية للعرب المقيمين فى فلسطين المحتلة . ولم اكن اتصور أن بين عرب الارض المحتلة حركة ادبية ثورية لها قيمتها وخطورتها ، ولعل ذلك يعود الى قلة المعلومات عن عرب الارض المحتلة وندرتها ، ثم صعوبة الوصول الى مصادر دقيقة تصور أحوالهم وواقعهم وطريقة تفكيرهم واحساسهم وتعبيرهم عن انفسهم ، فحتى ذلك الحين ـ عام ١٩٦٦ ـ كان عرب الارض المحتلة يعيشون فى ظل ستار حديدى عنيف لا يستطيع احد أن يعرف ماذا يدور وراءه من احداث ، ولم يكن هذا الستار الحديدى من صنع اسرائيل وحدها ، بل كان من صنع العرب أيضا ، فالعقلية العربية فى ذلك الوقت ، بل وبعد ذلك أيضا ، كانت ما تزال خاضعة لمنطق غريب هو تجاهل ما يدور فى الارض المحتلة سواء بالنسبة لليهود أو بالنسبة للأقلية العربية هناك . ولعل ذلك كان يرجع الى الاستهانة بالعدو الاسرائيلى ، والنفور الشديد منه ، وعدم تقدير قوته الحقيقية .. لقد كان هناك وهم كبير يعيش فى الوجدان العربى هو أن اسرائيل عدو سهل يمكن هزيمته بنفخة هواء أو بلمسة اصبع أو بركلة قدم ، ومثل هذا العدو لا يستحق منا فهما أو دراسة أو بحثا فى أصوله وجذوره .

وعندما وقعت هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، اهتز الضمير العربى كله ، وبدأت الاقلام الجادة المخلصة تفتش عن أسباب المأساة ، وكان على رأس أسبابها الواضحة ان العرب يعرفون القليل عن اسرائيل وما يجرى فيها ، وان الأسرائيليين على العكس يعرفون كل

شيء من العرب . ولقد كان على العرب أن يعرفوا عدوهم بدقة حتى يتمكنوا من مواجهته . وكان هذا الامر بديهية من البديهيات . ومع ذلك فقد غابت هذه البديهية عن النضال العربى وقتا طويلا ، وبصورة مثيرة للدهشة بل ومثيرة للفزع . ولم يبدأ العرب في التعرف على حقيقة عدوهم الاسرائيلي بصورة سليمة الا بعد أن ظهر مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية والذى يرأسه الدكتور أنيس صايغ . ومع ذلك ورغم المجهود الضخم الدقيق الامين الذى يبذله مركز الابحاث الفلسطينية ، فان دراسات هذا المركز لم تحظ باهتمام كاف الا بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . فقد احدثت الهزيمة اثرها العنيف واصبح المثقفون متلهفين على فهم هذا العدو المجهول فهما كاملا . ومن خلال موجة اكتشاف العدو ومحاولة فهمه احتلت الاقلية العربية داخل اسرائيل ، بظروفها ومشاكلها ونشاطها الفكري والعملى ، مكانا بارزا فى الدراسات التى ظهرت قبيل عدوان ٥ يونيو وبعده . وهنا بدأنا نعرف بعض التفاصيل عن شعراء المقاومة داخل الارض المحتلة وعلى راسهم : محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وراشد حسين ، وبدأت الصورة تتضح أمامنا بشيء من النضج والاكتمال ..

وقد ساعد على ذلك احتلال اسرائيل للضفة الغربية من الاردن . واصبح العرب داخل الارض المحتلة بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ نسبة عالية تقرب من المليون مواطن أوتزيد . واتصل أهل الضفة الغربية بالعرب المقيمين داخل أسوار اسرائيل وعرفوا الكثير عنهم وعن ظروفهم السياسية والفكرية والاقتصادية . واستطاع

اهل الضفة الغربية بوسائل متعددة أن ينقلوا الى العرب فى كل مكان كثيرا من المعلومات والحقائق عن أبناء الارض المحتلة الاصليين . ومن بين ما تسلل من الارض المحتلة فى تلك الفترة بعض دواوين شعراء المقاومة الذين يعيشون داخل أسوار اسرائيل .

ولقد كان اتساع حركة الفدائيين وزيادة نشاطهم داخل الارض المحتلة وسيلة أخرى من وسائل تسرب المعلومات عن عرب الارض المحتلة . وبهذه الوسائل كلها وبغيرها ، بدأت تتوفر أمامنا صورة تقريبية لأدب المقاومة فى فلسطين المحتلة . وبدأت تظهر أمامنا صورة لم تكن متوقعة هى : ان هناك حركة شعرية ناضجة ورائعة فى داخل الارض المحتلة ، وان الحكم بنضجها وروعتها من الناحية الفنية والفكرية ليس راجعا الى تعاطفنا السياسى أو النضالى مع هذه الحركة ، ما دام اصحابها من الشعراء الشبان يعيشون فى ظروف صعبة داخل أسوار اسرائيل .. ان هذا التعاطف حقيقة لا شك فيها ، ولكن الحركة الشعرية الجديدة داخل الارض المحتلة تتمتع بقيمة فنية وفكرية على اكبر درجة من النضج والاصالة بصرف النظر عن جميع الاعتبارات السياسية والعاطفية الاخرى. ان الشعراء الشبان البارزين فى الارض المحتلة هم شعراء موهوبون ، ولو ظهروا فى ظروف أخرى وأرض أخرى لكان لهم أيضا قيمتهم كفنانين بارزين . ان هؤلاء الشعراء انما يرتفعون الى مستوى كبير لا عن طريق القضية التى يعبرون عنها فقط وانما عن طريق مواهبهم الشعرية الكبيرة فى نفس الوقت . فنحن لا نجاملهم من أجل قضيتهم وانما هم فى الواقع أصحاب قضية

كبيرة وأصحاب مواهب كبيرة فى نفس الوقت بحيث نستطيع أن نقول : انهم من ألمع الشعراء العرب الذين ظهروا فى المرحلة الراهنة من تاريخنا الادبى . وعلى رأس هؤلاء الشبان يقف محمود درويش ، وهو أول اسم عربى تسلل بشعره الى خارج الاسوار الاسرائيلية ، وهو بالنسبة لى أول وجه حبيب التقيت به فى بحثى عن حركة الشعر فى الارض المحتلة ، وقد هزنى هذا الوجه بفنه ونضاله معا ، ومن خلال الحقائق التى تجمعت لدى عن حياة هذا الشاعر وفنه أقدم هذه الدراسة ، التى ارجو أن تساهم فى القاء بعض الضوء على هذه الحركة الاصيلة من حركات الشعر العربى المعاصر ، وهى حركة شعر المقاومة فى الارض المحتلة ، والتى أرجو ايضا أن اقدم بعدها دراسات آخرى عن سميح القاسم وغيره من شعراء الارض المحتلة

ولقد كان من الطبيعى أن تمتد أى دراسة لمحمود درويش الى دراسة القضية التى يعبر عنها ويستمد منها تجاربه الانسانية ... هذه التجارب التى يعتمد عليها فى قصائده المختلفة ولذلك فقد عنيت فى هذه الدراسة بقضية العرب فى اسرائيل وظروفهم المادية والنفسية ، كما حاولت أيضا أن ألقى بعض الضوء على التراث الشعرى فى فلسطين منذ سنة ١٩٣٦ حتى ظهور محمود درويش ورفاقه ، وذلك لأن هذه المدرسة الشعرية الجديدة لم تنشأ فى الفراغ ، وانما اتصلت بشكل أو بآخر بالحركات الشعرية السابقة التى ظهرت فى المراحل المختلفة للنضال العربى الفلسطينى .

كما حرصت دائما على أن أشير الى زملاء محمود درويش وأبناء جيله من الشعراء البارزين فى هذه

الحركة الشعرية الجديدة ، ذلك لان محمود درويش ليس مجرد عبقرية فنية فردية وليس نموذجا نضاليا شاذا ، بل هو فنان مرتبط بحركة شعرية واسعة ، وتجربة نضالية عريضـــة ، وهو يتأثر برفاقه ويؤثر فيهم ، لانه مرتبط بهم ارتباطا واضحا لا شك فيه .

ولعل خير ما أختم به هذه المقدمة هو تلك الابيات التى تفيـــض بالثورية والتفـــاؤل والحرارة والرفض الـــكامل لليأس ، والتى كانت أول ما قرأت من شعر المقاومة فى الارض المحتلة ، وأول ما قرأت من شـــعر محمود درويش ، وكان ذلك فى طـــائرة جزائرية ذات يوم من أيام عام ١٩٦٦ ، وفى احـــدى الصحف التى تصدر فى ذلك البلد المناضل الذى عرف أحزانا وجراحا شبيهة بالاحزان والجراح التى تنزف من قلب فلسطين.

اما هـــذه القصيدة فقد نشرها محمود درويش فى ديوانه « أوراق الزيتون » بعنوان « عن الامنيات » :

لا تقل لى :
ليتنى بائع خبز فى الجزائر
لأغني مع ثائر !
لا تقل لى :
ليتنى راعى مواش فى اليمن
لأغني لانتفاضات الزمن
لا تقل لى :
ليتنى عامل مقهى فى هافانا
لأغنى لانتصارات الحزانى
لا تقل لى :
ليتنى أعمل فى أسوان حمالا صغيرا
لأغنى للصخور

يا صـــــــديقي
لن يصب النيل في الفولجا
ولا الـكونغو ، ولا الاردن ، في نهر الفرات
كل نهر ، وله نبع ... ومجرى ... وحياة
يا صـــــــديقي
أرضنا ليست بعاقر
كل أرض ولها ميلادها
كل فجر وله موعد ثائر !

•• ذلك هو الشاعر الثائر النبيل الذى تدور حوله هذه الدراسة ، وتلك هى لغة فنه ولغة قلبه ولغة تفاؤله الثورى العظيم ••

رجاء النقاش

العرب
في إسرائيل

بعد اعلان قيام اسرائيل فى ١٥ مايو سـنة ١٩٤٨ بقى عدد من العرب داخل حدود الدولة الجديدة ، بعد أن هاجر بقية المواطنين العرب أو طردوا بقوة السلاح الاسرائيلى من أرضهم ، وكان عدد الذين واصلوا الحياة داخل أسوار اسرائيل سنة ١٩٤٨ يبلغ ١٥٦ ألفا من المواطنين العرب ، ولكن هذا العدد وصل اليوم الى ما يزيد على ثلاثمائة ألف مواطن ٠

وقد تعرض هؤلاء العرب لألوان عنيفة من الاضطهاد، كانت كلها تهدف لابادتهم بطريقة من الطرق ، فاما أن يهاجروا نهائيا من البلاد نتيجة للارهاب الذى يتعرضون له فى كل مجالات الحياة ، واما أن يموتوا فى المذابح المختلفة التى تصطنعها اسرائيل وتلفق لها الاسباب وتقتل فيها عددا كبيرا من المواطنين العرب ٠

ولعل أكثر ما يمثل شعور الاسرائيليين نحو العرب هو موقف « بن جوريون » الذى يمكن اعتباره « المواطن الاسرائيلى الاول » ، فهو الأب الروحى لاسرائيل ، وهو الاب المادى أيضا وقد هاجر الى فلسطين من بولندا سنة ١٩٠٦ فهو بذلك أقدم زعماء اسرائيل الاحياء ، وقد ظل أقواهم نفوذا فى الحياة السياسية الاسرائيلية حتى سنوات قليلة حيث اعتزل العمل السياسى المباشر بسبب شيخوخته ٠

ان موقف « بن جوريون » هو موقف شـــديد التعصب ، انه يكره كل شيء يتصل بالعرب ، ويعبر عن كراهيـــته بشكل عنيف خال حتى من الليـــاقة السياسية التي يحاول أن يتظاهر بها بعض السياسيين الاسرائيليين الآخرين ، وخاصة أبا ايبان ، حيث يردد كثيرا فى تصريحاته : « ان العرب واليهود » هم أبناء عم ، والمفروض من وجهـــة نظره الا يختلفوا ... ان « بن جوريون » لا يتحدث بهذه الروح الديبلوماسية ، ولا يخفى خنجره فى حرير ناعم ، انه يكره الشخصية العربية ، واللغة العربية ، والاسماء العربية والاماكن العربية ... ويود لو استطاع أن يمحو كلمة عرب من كل لغات العالم .

وينقل لنا المحامي العربى المقيم فى اسرائيل صبرى جريس وذلك فى كتابه الهام عن « العرب فى اسرائيل » ، ما قالته احدى المجلات الاسرائيلية ســـنة ١٩٥٨ ، عن « بن جوريون » الذى كان آنذاك رئيسا للوزراء ... لقد قالت هذه المجلة : « ان رئيس حكومة اسرائيل ما زار مدينـــة أو قرية عربية منذ قيـــام اسرائيل ، وعندما زار مدينة الناصرة العليا اليهودية ، رفض أن يزور مدينة الناصرة العربية وهى لا تبعـــد الا بضع مئات من الامتار عن الناصرة اليهـــودية . وخـــلال السنوات العشر الاولى من قيـــام اسرائيل لم يستقبل « بن جوريون » وفدا واحـــدا من المواطنين العرب . وتحت ضغط حزبه تكرم باستقبال أعضاء الـكنيست العرب ، وفى هذا الاستقبال وعدهم وعودا عرقوبية . وفى ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، التقى بهؤلاء الاعضاء ثانية بمناسبة الانتخابات . و « بن جوريون » الذى تعلم

اليونانية ليقرأ افلاطون ، والاسبانية ليقرأ سرفانتس ما رأى من واجبه أن يتعلم العربية ليقرأ الذخائر العربية المجيدة ، ورغم انه سلخ ٥٣ سنة من هجرته الى اسرائيل الا انه لا يفقه شيئا من الاذاعة او الصحافة العربية » .

هذا ما قالته احدى الصحف الاسرائيلية عن « بن جوريون » ، ويجب أن نلاحظ هنا أن اللهجة الطيبة التى تتحدث بها هذه الصحيفة عن العرب والثقافة العربية انما هى وليدة المعارضة السياسية لـ « بن جوريون » ، ومحاولة تجريحه سياسيا بسبب موقفه من العرب فى اسرائيل ، فحقيقة الموقف الاسرائيلى من العرب لا يختلف بين حزب اسرائيلى وآخر اختلافا جوهريا ، انما هى كلها اختلافات مظهرية شكلية ... فالجميع ضد العرب والجميع يوافقون فى اللحظات الحاسمة ، على الاجراءات التعسفية العنيفة ضد المواطنين العرب .

واذا حاولنا أن نتتبع الاجراءات التى تتخذها السلطات الاسرائيلية ضد هؤلاء المواطنين الذين وقعوا فى مصيدة الدولة الاسرائيلية ، فاننا سنجد أمامنا عددا من الاساليب المحددة التى تحكم تصرفات اسرائيل مع العرب المقيمين بها ..

فالاسرائيليون يعاملون العرب كمواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة ، والعرب لا يتمتعون بحقوق المواطن العادى ، ويجدون صعوبات لا حد لها فى مواصلة حياتهم اليومية وتحديد مستقبلهم ، واذا أردنا أن نقدم بعض النماذج التى لا تمثل حصرا كاملا لاساليب الضغط والارهاب الاسرائيلى فسوف نجد أمامنا أشياء كثيرة :

فالعامل العربى فى اسرائيل لا يتمتع بأى حقوق ، ولا ينتسب الى أى نقابة ، وهو دائما يقوم بالاعمال الشاقة الصعبة ، كالعمل فى المجارى والبناء ، ويتقاضى دائما اجورا أقل مما يتقاضاها العامل الاسرائيلى حتى لو كان يقوم بنفس العمل . وكما يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » : « كان العامل العربى البسيط سنة ١٩٥٢ ، يتلقى مقابل عمل يوم واحد لدى دائرة الاشغال العمومية ، ليرة اسرائيلية واحدة ، فى حين كان العامل اليهودى يأخذ مقابل العمل نفسه وفى الدرجة نفسها ٢ر٦٣ من الليرات الاسرائيلية لليوم الواحد ، وبينما كان العامل العربى المهنى « كعامل البناء مثلا » يأخذ ٢ر٥٠ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم ، كان العامل اليهودى يأخذ ٣ر١٤ من الليرات الاسرائيلية فى اليوم » .

كل هذا بالاضافة الى امكانية طرد العمال العرب من اعمالهم فى أى وقت دون اية مسئولية قانونية ، أو دون خوف من حساب أو عقاب ، بل ان الجهات الاسرائيلية الرسمية تشجع هذا الاسلوب فى معاملة العمال العرب وتؤكده باستمرار . ويصل وضع العرب الى حد بعيد من السوء عندما نعرف ان بعض المواطنين يضطرون كثيرا الى تغيير اسمائهم الى أسماء «عبرية» حتى يستطيعوا مواصلة حياتهم والحصول على خبزهم . فشاب اسمه « محمد » يسمى نفسه اسما يهوديا مثل « دافيد » ، وشاب اسمه « رشيد » يسمى نفسه « اتسحاك » ، كما جاء فى بعض المقالات المنشورة فى صحف اسرائيل نفسها . وانى أستأذن القارىء فى نقل نصين هنا ، ترجمهما عن العبرية الاستاذ « ربحى

كمال » فى كتابه « العرب فى الارض المحتلة » وهمـــا نصان يكشفان عن نفسية المواطن العربى العادى فى حياته اليومية وما تعانيه هذه النفسية من آلام كثيرة لا تنتهى ، وهى آلام تواجهه فى كل لحظة وفى كل حركة خـــلال حياته اليومية ٠ وهذان النصان منشوران فى الصحف الاسرائيلية نفسها . والصحف الاسرائيلية لا تنشر هذه الحقائق عن العرب من باب الايمان الحقيـــقى بتعديل هذه الاوضـاع ، بل من باب الصراع السياسى فى داخل اسرائيل بين الاحزاب المختلفة ، ومن باب تدعيم المظهر الديمقراطى فى اسرائيل ، وهو مظهر خارجى يخفى فى داخله نظاما عسكريا ارهابيا ليس فيه منفـــذ للحرية الحقيقية او الديمقراطية الحقيقية ، ومن ناحية أخرى يقوم نشر هـــذه الحقائق بنوع من الدعاية الخارجية لاسرائيل ، فكأن اسرائيل بمثل هذه المواقف الصحفية تضم جنـــاحا اسرائيليا يدافع عن حقـــوق الاقلية العربيـــة ويحميهـــا . وهو مظهر لا يتعدى حـــدود « الدعاية » الى الدفاع الجدى عن هـــذه الحقوق .

على اننا فى نهاية الامر قد نجد بين المثقفين الاسرائيليين من يشعر بخطورة المشكلة العربية فى اسرائيل ولــكن هؤلاء المثقفين لا يفهمون المسألة فهما جذريا وانمايتصرفون بناء على تصور محدد ، هو أن بالامكان أن يقبل العرب وجود اسرائيل لو احسنت اسرائيـــل معاملة العرب فى الداخل . وقد يكون هؤلاء هم خير المثقفين فى اسرائيل ولــكنهم فى حقيقتهم لا يختلفون عن غيرهم فى تأييـــد قيام اسرائيل وبقائها على جثـــة العرب الذين خرجوا من فلسطين وتركوا بلادهم وتحول عدد كبير منهم الى لاجئين مشردين . ولذلك فان امثال هذه المواقف بين المثقفين الاسرائيليين لا تغير صـــورة اسرائيل الجوهرية

وهى انها دولة عنصرية ... ترفع العنصر اليهودى على غيره من العناصر وبخاصة العنصر العربى ، وهى دولة تقوم على أساس اغتصاب حق العرب واضطهادهم ومحاولة ابادتهم . ان الخلافات بين الاسرائيليين هى خلافات فى « الدرجة » وليست خلافات فى « النوع »

ونعود الى النصين المنشورين فى الصحف الاسرائيلية والنص الاول هو رسالة فى بريد القراء نشرتها احدى الصحف الاسرائيلية لمواطن عربى اسمه محمود اسامة ويقول هذا المواطن فى رسالته :

« ان لدينا معشر المواطنين العرب المقيمين فى اسرائيل الشىء الكثير من المشاكل المزعجة كقيود السير والتنقل ومصادرة الاموال ولكننا لا نبتغى شيئا سوى السماح لنا بالعيش موفورى الكرامة على الاقل » ويواصل هذا المواطن العربى حديثه فيقول : « وحسبى أن استشهد بما حدث من حوادث خلال أسبوع واحد فقط للوقوف على كيفية معاملتنا فى اسرائيل . ففى خلال هذا الاسبوع وحده حدثت معى الحوادث التالية :

١ ـ قال لى بائع التذاكر فى « بيت ليد » : اذهب واشتر تذاكر من عند عبد الناصر !

٢ ـ وفى مقهى عدن أشار الينا بعض الزبائن اليهود وقالوا : عرب ، عرب ، ماذا يفعلون هنا ؟

٣ ـ وفى مكان عملى شتمنى العمال اليهود ثم سبوا دين النبى محمد

٤ ـ وفى حيفا حدثت مشادة بيننا وبين بعض المواطنين اليهود لاهانتهم ايانا ، ولما ذهبنا لتقديم شكوى الى مركز البوليس قيل لنا : لم هذا الازعاج ولا داعى لتقديم شكوى ... »

ولعل مضمون هذه الرسالة هو ما يعبر عنه احد شعراء الارض المحتلة من رفاق محمود درويش وهو سميح القاسم فى احدى قصائده ، وفى هذه القصيدة وعنوانها « اخوة » يرد سميح على هؤلاء الذين يفتعلون الحديث عن « الاخوة الاسرائيلية العربية » من بين أبناء اسرائيل ، ثم يمارسون فى واقع حياتهم أسلوبا من أقسى أساليب التفرقة ضد المواطنين العرب .. ويقدم سميح القاسم قصيدته بقوله : « الى الذين يعرون الاخوة من جلدها .. ويتركونها مرتجفة فى صقيع الزيف ! » ثم يقول فى القصيدة نفسها :

اخوك انا ؟ من ترى ذادني عن البيت والكرم عنوة
تحملني من صنوف العذاب بما لا اطيق وتفشاك زهوه
وتشتمني .. وتعلم طفلك ، شتم نبيي .. بارض النبوه
تشك بدمعي اذا مابكيت وتسرف في الظن ان سرت خطوة
وتحصي التفاتاتي المتعبات .. فيوما اشار ويوما تفوه
وان قام ، من بين اهلك واع يبرئني .. تزدريه بقسوه
وتزجره شاجبا « طيشه »وتلعن اني توجهت لغوه
واما شكوت .. فمنك اليك.. لتحكم كيف اشتهت فيك شهوه
فكيف اغني قصائد حب وسلم .. وللكره والحرب سطوه
وانشد اشعار حرية .. لقضبان سجني الكبير المشوه ؟

ففى كلمات الشاعر سميح القاسم ما يكاد يكون تصويرا مباشرا لواقع العرب داخل اسرائيل ، وللظروف النفسية والمادية القاسية التى يعيشون فيها هناك ، واذا كانت أبيات سميح القاسم تصور هذا الواقع تصويرا فنيا فان رسالة المواطن العربى السابقة الى الصحيفة الاسرائيلية تصور نفس الواقع تصويرا حيا مباشرا من خلال الاحداث اليومية ..

وهناك نص آخر يكشف عن تلك اللعنة اليومية التي تطارد العربي في اسرائيل حتى في حياته العادية البسيطة ، وهذا النص الثاني نشرته احدى الصحف الاسرائيلية أيضا وذلك في تحقيق بعنوان « الاقلية العربية في تل ابيب » وقد جاء في هذا التحقيق :

« أما الاماكن التي يسكنها العرب فهي في غاية الحقارة والقذارة في « أوسخ » أحياء تل أبيب . اليك مثلا هذا الشاب رشيد شريف ، في الحادية والعشرين من العمر ، يعمل كسفرجي في أحد مطاعم تل أبيب ، ومن الصعب ان تفرق بينه وبين شخص آخر يهودي من حيث لباسه وسلوكه ومنظره . قال الشاب : ليس من السهل العيش كما نعيش نحن ... اننا ندعى بأسماء عبرية ... فأنا مثلا أدعى « اتسحاك » لأن الزبائن لا يستلطفون أسماءنا العربية ... وجميع الشبان العرب الذين يعملون في المطاعم يسمون بالاسماء التي يعينها لهم صاحب المطعم • أنه شعور بالحقارة لكن ماذا يمكن أن نعمل؟ يجب أن نبدل أسماءنا لنعيش وحينما أمشي في الشارع ، وأنا احمل ترانزستور أفتحه على محطة عبرية حتى لا يحسبني الناس عربيا ... وذات مرة صادق رفيقي « محمد » فتاة يهودية ، وكان يذهب ويجيء معها ثلاثة شهور ، ويأخذها الى السينما والى شاطىء البحر ويعاملها معاملة حسنة . وذات يوم قالت انها تريد أن ترى بطاقته الشخصية ، ولكنه لم يطلعها عليها . ثم حدثتها أنا عن العرب وقلت لها :

ـ هل تحسبين ان هناك فرقا بين العرب واليهود ؟

قالت : لقد علمونا في المدرسة ان العرب أشرار ... يأكلون الناس ، وما الى ذلك ؟ !

ولم استطع ان اسكت ، فقلت لها :

ـ انا عربى ودافيد أيضا عربى . لقد عاشرت دافيد فكيف وجدته ؟ هل قبلك يوما بالقوة ؟ هل تأخر يوما عن دعوتك ؟ ألم يعاملك دائما بالاحترام ؟ فما الفـــرق اذن ؟ فراحت تبكى وقالت :

ـ صحيح ، صحيح ، لقد كان على ما يرام .

ثم ان دافيد قال لها : اذا شئت رؤيتى فاخبرينى والا فلا .

فقالت : أنا أريد أن أراك ..

ولكنها لم تعد للاجتماع به ، لان أهلها منعوها من ذلك ... »

هذه هى الصورة الانسانية البسيطة القاسية داخل اسرائيل ، والتى يرسمها مواطنان عاديان من العرب لايتعرضان فيها للمشكلة السياسية تعرضا مباشرا ، ومثل هذه الصور رغم بساطتها ، بل وسذاجتها أحيانا تكشف لنا عن ذلك الواقع الاليم الذى يعانيه العرب فى اسرائيل .. بما فى هذا الواقع من صعوبات ومشاكل وآلام يومية عنيفة ..

واذا كانت شخصية « بن جوريون » تقدم صـــــورة اسرائيلية نموذجية للشعور بالكراهية نحو العرب والعمل على القضاء عليهم نهائيا بحيث لا يبقى لهم أثر فى أرض فلسطين ، فان هناك تصريحا أدلى به أحد كبار الموظفين الاسرائيليين يزيد الامر وضوحا ويلقى كثيرا من الضوء على حقيقة موقف اسرائيـــل من العرب ، وقد أدلى الموظف الكبير بهــــذا التصريح فى أبريل عام ١٩٦٧ ، وفى هذا التصريح يقول الموظف الاسرائيلى :

« اعتقد ان الـكيان القومى هو فوق كل اعتبـــار ،

ان وجود اقلية عربية فى اسرائيل يعرض للخطر مستقبل الدولة اليهودية ان آجلا أو عاجــلا ، وللحيلولة دون هــــذا الخطر فان كل شىء جائز شريطة الا يحدث استنكارا أو احتجاجا فى العالم ، ويجب البحث عن طريقة مناسبة للتغطية وانتقاء الالفــاظ والمصطلحات وقد تدعو الضرورة الى تجاهل الرأى العام العالمى »

ثم يقول هذا الموظف عن العرب :

« يجب تضييق خطواتهم ، وأخذ الاراضى منهم ... واذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعــة فلا يجوز اعطاؤه عملا ، يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس سنوات ، وان يقع فريســـة اليأس ويدرك الا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر »

وتكاد هذه الـكلمات أن تكون تعبيرا نظريا دقيقا عن السياســـة الاسرائيلية العمليـــة التى تنتهجها الدولة الاسرائيلية فى معاملة العرب . انهم ينزعون الاراضى من العــرب بحجج واهيـــة . ويســـتولون على ثرواتهم باستمرار . ويصل بهم الامر أحيـانا الى قتل الاغنام التى يملـكها العرب بسموم يرشـــونها على الاعشاب والمراعى ، وبهدم البيوت العربية ، وبكل الوسائل التى تؤدى الى تجريد العربى من أى حق له أو قوة يعتمـد عليها فى حياته . بل وتعمد الاجهزة الاسرائيلية المختلفة الى محاربة العرب حتى فى ميادين « الرياضة » حيث تحدث اعتداءات متكررة وقاســية على أعضاء الفرق الرياضية العربية وعلى الجماهير العربية التى تحاول ان تشاهد المباريات المختلفـــة . وكل ذلك يهدف الى شىء واحد هو منع اى تجمع عربى فى اى ميـــدان من الميادين ، فالتجمع قد يؤدى الى تقوية المواطنين العرب

حتى لو كانوا ضعفاء كأفراد ، بعد أن تم حرمانهم من جميع الفرص الطبيعية التى كان من الممكن أن تمنحهم قوة جماعية وقدرة على الدفاع عن حقوقهم ..

وبالنسبة للتعليم تضع اسرائيل قيودا عنيفة ضد تعليم العرب . فمبانى المدارس رديئة غير صحية وغير نظيفة ، والمدرسون العرب غير مؤهلين للقيام بدورهم التربوى ، ولا تتاح لهم أية فرصة لتأهيل أنفسهم ، والكتب المدرسية شبه معدومة ، والقيود مفروضة على تعليم اللغة العربية ، بينما تفرض الدولة على العرب أن يتعلموا اللغة العبرية . ويكفى لكى ندرك مايعانيه العرب فى ميدان التعليم أن نعلم ان الراسبين فى الشهادة الثانوية من الطلاب العرب يبلغون ٩٠ ٪ من هؤلاء الطلاب كل عام على التقريب ، يزيدون احيانا من هذه النسبة قليلا ، أو يقلون عنها قليلا ، ولكن النسبة العامة للراسبين تدور عادة حول هذا الرقم المخيف . وحسبنا أن نقرأ رقما آخر هو رقم حاملى الشهادة الثانوية ، حيث نجد انه فى عام ١٩٦٢ ، كان الذين حصلوا على هذه الشهادة من العرب حوالى ٧٦ طالبا ، بينما حصل عليها من الاسرائيليين ٧٥٠٢ من الطلاب . واذا علمنا أن نسبة العرب فى اسرائيل تبلغ حوالى ١١ ٪ من مجموع السكان فلقد كان من الضرورى أن يكون عدد الحاصلين على الشهادة الثانوية من العرب اكثر من خمسمائة ، ولكنهم لم يزيدوا عن ٧٦ ، وذلك طبعا بسبب الحصار الثقافى العنيف المفروض على العرب : طلابهم ومدارسهم وكتبهم واساتذتهم .

ومن الكتب المقررة على الطلاب العرب : التوراة ، وعلى الطالب العربى أن يدرس التوراة لا ان يقرأها مجرد قراءة ، وفى نفس الوقت يحذفون من القرآن بعض

الآيات حذفا نهائيا ، ويحرمون دراستها أو قراءتها أو مناقشتها بأى شكل من الاشكال ومن هـــذه الآيات القرآنية المحظورة على العرب داخل اسرائيـــل قول القرآن الـكريم فى سورة الممتحنة :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم وظـــاهروا على اخـــراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ..

تلك هى الآية الـكريمة التى حذفها الاسرائيليون من القرآن ، ومن الواضح ان حذف هذه الآية انما يقصد الى تجنب ما فيها من دعوة صريحة للجهاد المقدس ضد الذين يعتـــدون على المســـلمين باخراجهم من ديارهم وابعادهم عن اماكنهم المقدسة ومحاولة تشـــويه الدين الاســـلامى ومحاربة أهله ، فالآية الـكريمة تدعو الى الثورة ضد الاسرائيليين ومن هنا فقدحذفوها منالقرآن

ويكشـف شـــاعرنا محمود درويش فى حديث أدبى نشرته له مجلة «الطريق» اللبنانية عن أساليب القهر الثقافى التى تفرضها اسرائيل على العرب فيقول : « فى المدرسة يعلموننا عن تيودور هرتسل أكثر مما نتعلمه عن محمد ، والنماذج التى ندرسها من شعر حاييم نحمان بياليك أكبر بكثير من نماذج شعر المتنبى ، ودراســـة التوراة اجبارية أما القرآن فلا وجود له ، فأحسسنا أن غزوا ثقافيا لنشر العبرية يزحف الينا ناعما كالافعى »

والاسرائيليون لا يمارسون اساليبهم فى الاضطهاد ضد المسلمين فقط ، بل ويمارسون نفس الاساليب ضـــــد المسيحيين أيضا. ولعل ما يقوله شكرى الخازن ، وهو

عربى مسيحى يعيش فى حيفا ، وذلك فى شكوى قدمها الى احدى السفارات الغربية ضد اسرائيل بسبب المعاملة السيئة التى يلقاها المسيحيون هناك .. لعل ما يقـوله هذا المسيحى العربى فى شكواه ان يكشف لنا مزيدا من الحقائق عن موقف اسرائيل من العرب داخـــل الارض المحتلة ..

يقول شكرى الخازن فى شكواه :

« أن السياسة التى يتبعها الاسرائيليون نحو الذين يسمونهم كفارا « جوييم » هى القضاء علينا عاجلا أو آجلا، كما دلت على ذلك تجاربنا خلال الاعوام الثمانية عشرة الماضية ، ونحن كمسيحيين لا ينبغى لنا أن ننتظر من حكام اسرائيل سوى الاعمال المؤلمة ، واذا عدنا الى الوراء رأينا ســيدنا يسوع قد صلب على أيدى بنى اسرائيل . هذه حقيقة قائمة ، ويجب الا نستهين بها بالرغم من مرور الايام والاعوام ... اننى أعيش فى هذه البلاد وكلى اقتناع بأنه قد يأتى يوم يذبحوننا فيه ولذلك فقد أرسلت نصف أفراد عائلتى الى الخارج ، لانقاذهم من الموت . وأما النصف الآخر فقــد بقى معى ليرى وينتظر مصيرنا ، وليكونوا معى ضحايا وقرابين »

وليس اضطهـــاد الاسرائيليين للعرب : مســلمين ومسيحيين قاصرا على محاربتهم فى أرزاقهم وثقافتهم وتعليمهم وعقائدهم الدينية ، بل ويحاول الاسرائيليون أن يخلقـــوا نوعا من التمزق الطـــائفى بين العرب ، ويحاولون على وجه الخصــــوص أن يخلقوا فجوة بين الدروز الذين يبلغون حوالى ثلاثين ألفا وبين غيرهم من السكان العرب ، والاسرائيليون يحاولون باستمرار أن يقذوا فى الدروز فكرة معينة ، هى أنهم يمثلون قومية خاصة مستقلة لا علاقة لها بالعرب ولا بالمسلمين ، ويصدر

الاسرائيليون كتبا خاصـــة بالدروز ويملأونها بالافكار التي تدعو الى انفصال الدروز عن العرب انفصالا كاملا، كما قررت السلطات الاسرائيلية اقامة محاكم خاصــة للدروز والسماح باعتبار « القومية الدرزية » قومية مستقلة ، وكتابتها فى البطاقات الشخصية للأفراد . كما ان الاسرائيليين يقبلون الشبان الدروز فى الجيش الاسرائيلى ، وهو الامر الممنوع تماما بالنسبة للعرب ، والواقع ان الاسرائيليين يحاولون تزوير التاريخ بهــذه الطريقة ، فالدروز فى حقيقة أمرهم ، وكما يقول المحامى

صبرى جريس فى كتابه عن عرب اسرائيل : « هم طائفة دينية عربية تأسست فى نهاية القرن العاشر الميــلادى وطقوسها الدينية مشابهة فى اكثر تفاصيــلها للديانة الاسلامية ، وهذه الطائفة تشكل من وجهـــة قومية ، جزءا لا يتجزأ من الامة العربية وتاريخهـــا الحافل بالحرب ضد الاستعمار الفرنسى فى سورية فى العشرينات من هذا القرن ليس الا قســما من التاريخ العربى ، والجدير بالذكر أن القسم الاعظم من المثقفين والشباب الدروز يستنكرون « خلق » هــذه القومية الجديدة ويفخرون بانتسابهم الى الامة العربية »

هــذا ما يقوله صبرى جريس ، الـكاتب والمواطن العربى الذى يقيم داخل اسرائيل ، حيث يكشف عن هدف اسرائيل فى خلق تمزق طائفى تريد أن تفرضه على العرب فى الأرض المحتلة ، ويمكننا أن نضيف الى ما يقوله«صبرى جريس »: ان الطائفة الدرزية داخــل اسرائيــل قد أنجبت شاعرا من أبرز شعراء المقاومة الشبان هوسميح القاسم ، وهو شاعر شاب موهوب ، يفيض شــعره بالغضب الثورى وتظهر دواوينه الشعرية وبها كثير من الصفحات البيضاء حيث تحذف الرقابة فى اسرائيل هذه

القصائد وتعترض عليها ، والمشـاعر التى يعبر عنهـا سميح القاسم ، هى مشاعر مواطن عربى حـر غاضب مؤمن بقوميته العربية ... يدعو اليها بحرارة وايمان . وعندما ظهر ديوانه « أغانى الدروب » كتبت احـدى الصحف الاسرائيلية عن هذا الديوان تقول :

« ظهر فى الناصرة كتاب حافل بالاشعار الوطنية بعد أن توقف صدور مثل هـذه الـكتب سنين عديدة ...

وهو بعنـوان « أغانى الدروب » من تأليف الشـاعر سميح القاسم من قرية الرامة ، قضاء عكا . وهـذا الشاعر هو الشـاب العربى الاسرائيلى الذى خدم فى الجيش الاسرائيلى خدمة الزامية ، باعتبـاره درزيا ، ومع ذلك فقد نظم شـعره بروح هى أعنف ما ظهر فى اسرائيل منذ قيام الدولة ، بل انها روح ثورية لم تر المطبعة الاسرائيلية مثيلا لها من قبـل . وفى احدى قصائد هذا الديوان يهزأ الشاعر ممن يدعون للسـلام ويتنصل منهم . وفى قصيـدة أخرى يعبر عن سخطه على الذين يدعون الى التحاب والتعـايش بين العرب واليهود ، وفى قصـيدة ثالثـة يرثى الشـاعر لحال اللاجئين ويدعو الى الثورة لاعادة الابتسامة الى شفاه الصغار ، ويعلن فى احدى قصـائده استمداده لتحمل مسئولية دعوته »

هذا الشاعر الدرزى الشاب سميح القاسم ، حاولوا أن يجعلوا منه عدوا للعـرب والعروبة ، وحاولوا أن يجعلوا منه انسانا متعاونا مع الاسرائيليين مهادنا لهم ، حاولوا أن يقنعوه بأنه درزى وليس عربيا ، وان الخلاف كبير بين الاثنين فلم يقتنع بشىء من ذلك ، بل كانت اصالته كعربى وصاحب قضية ، أقوى من كل محاولات

التزييف فوقف فى وجه هذه المحاولات وانتصر عليها تماما .

ولنقف لحظة مع نماذج من شعر هـذا الشـاب الموهوب وهى نماذج ترد بقوة على المحاولات الاسرائيلية لخلق انقسام طائفى بين العرب داخل اسرائيل سـواء كان هؤلاء العرب مسلمين أو مسيحيين أو دروز ! ..
فسميح القاسم الدرزى يهاجم الاحتـلال الاسرائيلى لفلسطين هجوما عنيفا يؤكد أن الشـبان الدروز لم يستجيبوا للمحاولات الاسرائيلية فى ابعادهم عن الشعور بعروبتهم وبأنهم ينتمون الى الامة العربية انتماء كاملا .

يقول سميح القاسم فى قصيدة له بعنوان « القصيدة الناقصـة » يصور فيها كيف امتدى الاسرائيليون على العرب وسلبوا منهم أرضهم : فلسطين . ويؤكد الشاعر أن القصة لم تنته وان لها بقية سوف تحمل العدل يوما الى المظلومين ... يقول الشـاعر فى هذه القصيدة :

وكان ذات يوم
أشأم ما يمكن أن يكون ذات يوم
شرذمة من الضلال
تسربت تحت خباء الليل
الى عشاش .. دوحها فى ملتقى الدروب
أبوابها مشرعة
لـكل طارق غريب
وسورها أزاهر وظل
وفى جنان طالما مر بها الله
تفجرت على السلام زوبعة

هدت عشاش سربنا الوديع
وهشمت حديقة ... ما جددت « سدوم »
ولا أعادت عار « روما » الاسود القديم
ولم تدنس روعة الحياة
وسربنا الوديع
ويلاه ... أن أحرف تتركنى
ويلاه ... ان قدرتى تخوننى
وفكرتى من رعبها تضيع
وينتهى هنا ...
أمر ما سمعت من أشعار
قصيدة صاحبها مات ولم تتم
لـكننى أسمع فى قرارة الحروف
بقية النغم
أسمع يا أحبتى ... بقية النغم

والذى يعنيه سميح القاسم بالجنة التى دخلتها الصلال « الثعابين والافاعى » هو تقديم صورة رمزية واضحة لفلسطين التى دخلها الاسرائيليون بسمومهم وقسوتهم ونزعتهم التدميرية . والذى يعنيه سميح القاسم فى قوله : « لـكننى أسمع فى قرارة الحروف ... بقية النغم » هو أن القصة المحزنة لم تنته ، فسوف ينال المظلومون يوما كل حقوقهم وسوف يستعيدون ما سلبته الثعابين والافاعى منهم ، والقصيدة عنوانها « القصيدة الناقصة » لأن القصة نفسها لم تتم بعد ... فهناك بقية لها . لأن الامور لا يمكن أن تنتهى عند هذه الحدود التى اخذ فيها اليهود أرض فلسطين . والشاعر يصف هذه القصيدة بقوله :

أمر ما سمعت من أشعار
قصيدة ... صاحبها مجهول

وصاحب هذه القصيدة ليس مجهولا لانه لا قيمة له ، بل لانه هو كل عربي مسته يد الظلم ، واساءت هذه اليد الى وطنه وأهله اساءة أليمة دامية .

اما قصيدة سميح القاسم التي يرفض فيها «السلام» والتي أشارت اليها الصحيفة الاسرائيلية فهي قصيدة بعنوان « ... للسلام » وفي هذه القصيدة يرى الشاعر انه لا معنى للحديث عن السلام بعد هذا الظلم الفادح الذي حل بالعرب .

ويقول الشاعر في فن جميل وغضب ثوري أصيل :
ليغن غيري للسلام

والعين ما عادت تبل صدى شجيرات العنب
وفروع زيتوننا ... صارت حطب

لمواقد اللاهين ... يا ويلي حطب .
وسياجنا المهدود أوحشه صهيل الخيل في الطفل المهيب
والجرن يشكو الهجر ... والابريق يحلم بالضيوف
بال « ياهلا » ... عند الغروب

ورؤى البراويز المغبرة الحطيمة .
تبكي على أطرافها نتف من الصور القديمة
وحقائب الاطفال ... اشلاء يتيمة
لبثت لدى انقاض مدرسة مهدمة حزينة

ما زال في احنائها ... ما زال يهزأ بالسكينة
رجع من الدرس الاخير ...
عن المحبة والسلام

. . . .

ليفن غيرى للسلام
وعلى ربى وطنى
وفتى ودياته
قتل السلام !

ان سميح القاسم يمثل الضمير الدرزى داخل اسوار اسرائيل خير تمثيل ، وهو ضمير عربى مخلص للأمة العربية ، لم تفلح معه كل المحاولات الاسرائيلية لفصله عن جذوره العربية الاصيلة ، بحيث يصبح على عداء مع العرب ، ويعيش فى كراهية عنيفة لهم ، وبحيث يشعر بأن قضية فلسطين العربية ليست قضيته ... لقد فشل الاسرائيليون فى هذا كله . وها هو سميح القاسم يعلن فى وضوح : انه عربى فى كل حرف يكتبه ، وفى كل قطرة من قطرات دمه ، وفى كل نبضة من نبضات قلبه . وهو بذلك يعلن فشل سياسة التفرقة الطائفية التى تحاول اسرائيل أن تشعلها بين العرب المقيمين داخل الاسوار الاسرائيلية .

واذا كانت اسرائيل قد فشلت بوضوح فى التأثير على جماهير الدروز ، وتمزيق الصلات الاساسية التى تربطهم ، تاريخا ودما وثقافة ، بالامة العربية ، فانها قد استطاعت أن تسيطر على قلة قليلة من زعماء الدروز فى اسرائيل ، وهى نسبة ضئيلة لا تعبر عن مصالح الدروز أو مشاعرهم الحقيقية . وحول هذه المجموعة القليلة من الدروز الذين يتعاونون مع السلطات الاسرائيلية يتحدث صبرى جريس فى كتابه عن «العرب فى اسرائيل » فيقول :

« ينبغى أن نشير الى أن تدخل اسرائيل فى شئون الطائفة الدرزية قد تم نتيجة لخضوع زعماء هذه الطائفة

التقليدية لسلطات اسرائيل ، وما هؤلاء الزعماء الا فريق من الجهلة والمرائين الذين يلبون طلبات الحكومة ، في حين أن الطائفة الدرزية بالذات لم تستفد شيئا من هذا الخضوع فالقسم الاعظم من قراها متأخر غاية التأخر اذا ما قورن بسائر القرى العربية في اسرائيل ، والجدير بالذكر أن السياسة الاسرائيلية هذه قد قابلها الشباب والمثقفون الدروز بمعارضة شديدة وهم ثائرون عليها ويطالبون بتغييرها باستمرار»

ان الطائفة الدرزية في الوطن العربي خارج اسرائيل، تقف في صف القضية العربيــــة بقوة ووضوح ، وقد انجبت هذه الطائفة عددا كبيرا من القيادات الوطنيــة العربية التقدمية ، وحسبنا أن نذكر في هــذا الميدان الزعيم اللبناني المعروف كمال جنبلاط ، وهو زعيم من طائفة الدروز ، وهو من الزعماء العرب البارزين الذين يدافعون عن الامة العربية والقومية العربية والتقــدم العربي بصدق وحرارة واخلاص .

هكذا يحاول الاسرائيليون أن يستخدموا اســـلوب التفرقة الطائفية في صـــفوف العرب داخل اســـوار اسرائيل ؛ ويحاولون ايضا استخدام شتى اســـاليب الاضطهاد ضدهؤلاء العرب. فالعرب يتعرضون لما يسميه الاسرائيليون بالحكم العسكري . وهذا الحكم العسكرى يفرض على العرب الوانا من القيـــود تشل حركتهم ، وتضعهم على الدوام في ظروف قاسية يخضعون فيها لالوان من التنكيل والارهاب . فمن حق الحاكم العسكري الذى يتولى حكم المناطق العربية في اسرائيل ان يقرر سجن

اى مواطن عربى فى اى لحظة ، وأن يمنعه من التنقل من بلد الى آخر ، أو من منطقة الى أخرى فى المدينة الواحدة ، ومن حق الحاكم العسكرى أن ينزع أراضى العرب وممتلكاتهم لأتفه الحجج والاسباب وفى ظل هذا الحكم العسكرى يتم طرد العرب من اعمالهم ، ويتم فرض رقابة واسعةعلىكتاباتهم ومطبوعاتهم واجتماعاتهم ونواديهم المختلفة . ونتيجة للحكم العسكرى تم حل جماعة « الارض » العربية ، وهى الجماعة التى كانت تهدف الى خلق نوع من التنظيم السياسى العلنى للدفاع عن حقوق العرب داخل اسرائيل ،واعتبرت السلطات الاسرائيلية اى نشاط لهذه الجماعة معاديا للدولة ، واعتقلت الكثيرين بتهمة الاشتراك فى هذه الجماعة ، وصادرت كثيرا من المطبوعات العربية بحجج مختلفة على راسها ان هذه المطبوعات تعبر عن جماعة « الارض » الممنوعة

وفى ظل الحكم العسكرى المفروض على العرب داخل اسرائيل طردت السلطات الاسرائيلية الكتاب والشعراء العرب من اعمالهم وأدخلتهم السجون مرة بعد مرة . فالشاعر سميح القاسم ، خرج من الجيش الاسرائيلى، حيث تسمح اسرائيل بتجنيد الدروز ، ثم عمل مدرسا فى احدى المدارس العربية ، ولكنه طرد من عمله لانه ثورى ، وله نشاط معاد للدولة الاسرائيلية . اما الشاعر محمود درويش فقد اتم دراسته الثانوية ولم تسمح له السلطات الاسرائيلية بأن يتم تعليمه العالى . ثم عمل فى جريدة « الاتحاد » العربية التى يصدرها الحزب الشيوعى العربى فى حيفا ثم طرد من هذه الجريدة ، ثم عاد اليها وطرد مرة أخرى ، وكانت التهمة الموجهة اليه دائما هى أشعاره الثائرة التى اعتبرها الاسرائيليون ضد

الدولة . وقد اعتقل محمود درويش مرارا ، ودخل السجون الاسرائيلية وذاق فيهـــا ألوانا من العذاب ، ولـكن معدنه النضالى الصلب ، ظل قويا أصيلا يزداد توهجا واشتعالا كلما ازداد عنف الاضــــطهاد الموجه اليه ..

وتسمح السلطات الاسرائيلية بطبــع بعض القصص التى تصدر فى العواصم العربية المختلفة ليقرأها العرب داخل اسرائيل . ولـكنهم يحرصون على أن يختاروا من هذه القصص ما يكون بعيدا عن القضـــايا الوطنية والثورية للأمة العربية . ومن الحوادث الطريفة فى هذا الميدان انهم سمحوا بطبع رواية « أنا أحيا » للـكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكى ، ثم اكتشفوا ان الرواية تتضمن نقدا لاذعا وقاسيا لاسرائيل والصهيونية وكانت الرواية قد صدرت وقرأها العـــرب .. وبسرعة أصـــدرت السلطات الاسرائيلية قرارا بمصادرة الرواية وجمعها من الاسواق . وتمت المصادرة بالفعل . كل ذلك يكشف أمامنا بوضوح عن ذلك الارهاب الفكرى الذى تفرضه السلطات الاسرائيلية على العرب ، حيث تعمل هـــذه السلطات بكل قوة على خلق حصار ثقافى خانق يقضى عليهم فكريا وروحيا ، بحيث ينعزلون تماما عما يجرى فى الوطن العربى خارج أســـوار اسرائيـــل ، وبحيث ينعزلون عن بعضهم البعض ، فلا يتجمعون فى أى نوع من أنواع التجمع الثقـــافى أو الســـياسى ، حتى يصبح العرب فى نهاية الامر مثل النبات المنزوع من أرضه والمحروم من كل ظروف النمو والحيـــاة ، والمعرض للـــذبول والموت . ومن المعروف أن الحكومة الاسرائيلية لا تسمح عموما بنشر الكتب العربية الا على

نطاق ضيق . وهى تختار من هذه الكتب النصوص الادبيـة • فهى لا تسمح بنشر أى دراسـات فكرية أو سياسية ، وكما يقول الدكتور أنيس صايغ فى مقال له بعنوان « ماذا يقرأ العرب فى اسرائيل » :

« ان الحكومة ودور النشر التى يهمها أن تمنع عرب فلسطين المحتلة من مناقشة قضـايا هم بشكل مباشر تحاول أن تبعدهم عن هذه المناقشة عن طريق تشجيع صنف واحد من المنشورات الادبية الصرف ــ من قصة وشعر ورواية ــ وذلك على حساب الـكتابات الفكرية والبحوث والدراسات ، ولذلك فمن بين الاربعة والستين كتابا التى وضـعها كتاب فلسـطينيون عرب « من ١٩٤٨ الى ١٩٦٨ » وطبعوها فى فلسطين المحتلة يوجد ٢١ ديوان شعر و ١٩ مجموعة قصصية و ١١ رواية . ولا يبلغ عدد البحوث والدراسات الا ١١ ومعظمها بحوث ودراسات هزيلة وفى موضـوعات غير مهمة . كما ان الاغلبية الساحقة من الـكتب العربية التى أعيد طبعها فى فلسطين المحتلة لـكتاب عرب غير فلسـطينيين هى أيضا كتب أدبية » ... هذا هو ما يكشفه لنا الدكتور أنيس صايغ من واقع الحياة الثقـافية للعرب داخل اسرائيل فالسلطات الاسرائيلية تحرص كل الحرص على اختيار هذه الـكتب الادبية بصورة تحقق كل أهداف الحصار الثقـافى . فمن الضرورى أن تكون الـكتب المسموح بها لتوفيق الحكيم او للعقاد أو لطه حسين كتبا بعيدة عن أى قضايا سياسية أو وطنية .

هذا هو الحصار المادى والاقتصادى والفكرى الذى يفرضـه الحكم العسكرى على المواطنـين العرب فى اسرائيل . وقد تردد صدى هذا الحكم العسكرى فى

الشعر العربى الذى يكتبه شعراء الجيل الجديد. فنحن نجد على سبيل المثال أن الشاعر سميح القاسم يكتب قصيدة بعنوان « الساحر والبركان » حيث يقول فى مقدمتها : « انها أسطورة مهداة الى الحكم العسكرى » ... وفى هذه القصيدة يقول الشاعر :

وشعوذ الساحر فانطلق
من قمقم البحار ... مارد صغير
يريد للزورق أن يقبل الغرق
يريد للحرية الحمراء
أن تقطن فى كوخ ... من الورق
يريد للجذور أن تحيا بلا شجر
يريد للانسان أن يحيا بلا ثمر

يريد للانسان أن يموت فى الحياة
يريد أن . . .
وانفجر البركان
والتهمت ساحره النيران

فعاد للقمقم يستجير
بساحر جديد
ليس له وجود

والرموز فى القصيدة واضحة ، فالساحر هو اسرائيل ، والمارد هو الحكم العسكرى ، والبركان هو الثورة العربية التى يؤمن بها الشاعر ويرى أنها سوف تلتهم الساحر والمارد معا ، فهما يريدان أن يفرضا على الحياة قيودا لا يمكن فرضها ولا يمكن أن تقبلها الحياة الطبيعية . فالحكم العسكرى سوف يؤدى الى الانفجار الذى يقضى على كل القيود .

وهناك قصيدة أخرى لشاعر آخر من رفاق محمود

درويش أيضا هو الشاعر راشد حسين ، وهو واحد من الشعراء الشبان الثائرين الذين يعيشون داخل الارض المحتلة ويعانون مع بقية المواطنين ألوان الاضطهاد المختلفة ، وقبل أن نقرأ القصيدة يحسن بنا أن نعرف فكرة سريعة عن موضوعها فمن بين قوانين الحكم العسكرى قانون يعين « قيما على أملاك الغائبين » من العرب وهى صيغة قانونية شكلية لسرقة الاراضى واغتصابها من أصحابها ... يقول صبرى جريس فى كتابه عن « العرب فى اسرائيل » :

« ان ما هو أكثر اثارة للذهول انما هو تطبيق هذا القانون على أملاك الوقف الاسلامى فى البلاد ، فحسب قوانين الدين الاسلامى ، تعتبر ملكية الوقف تابعة لله ، ويحول دخل هذه الاملاك لابناء الطائفة أو لمشروع خيرى او لهدف جعلت هذه الاملاك وقفا عليه ،وفى هذه الحالة لا يمكن الافتراض أن الطائفة الاسلامية لم يعد لها وجود فى البلاد بعد قيام الدولة لكن رغم ذلك نقلت املاك الوقف الاسلامى الى القيم على أملاك الغائبين وربما كان ذلك على أساس الافتراض بأن الله « غائب » حسب قانون أملاك الغائبين »

وحول هذا الموضوع كتب الشاعر راشد حسين قصيدته التى يقول فيها :

الله أصبح غائبا يا سيدى
صادر اذن حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة فهى من أملاكه
وبع المؤذن فى المزاد الاسود
حتى يتامانا أبوهم « غائب »
صادر يتامانا اذن يا سيدى

لا تعتذر ... من قال انك آثم ؟ !
لا تعتذر ... من قال انك معتدى ؟ !

حررت حتى السائمات ... غداة ان
أعطيت ابراهام أرض محمد
فخيولنا فوق الجبال طليقة

والثور يستسقى أمام المزود
والحقل يقرئك السلام ... فقمحه
شكر تجمع فى بحيرة عسجد

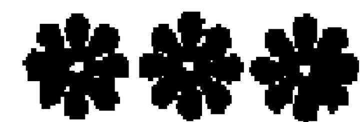
أو لم « تحرر » عنقه من حاصد
قاس... ليصبح ملك « أمدن سيد »
هل شعبك المختار أمدن سيد ؟

أم شعبك المختار أمدن معتدى
أنا لو عصرت رغيف خبزك فى يدى
لرأيت منه دمى يسيل على يدى

ان الشاعر هنا يفضح الحكم العسكرى الاسرائيلى فى هذه الابيات المليئة بالسخرية والصدق والمرارة ... فالحكم العسكرى الاسرائيلى يصدر قوانين متعسفة لنزع الاراضى العربية من أصحابها ، بالاضافة الى ما يقوم به هذا الحكم من أعمال ارهابية فى ميدان الفكر والثقافة والتعبير عن الرأى ، وفى ميدان العمل والحريات الشخصية .. والحكم العسكرى نموذج فذ للارهاب الذى يمثل العقلية الصهيونية والضمير الصهيونى خير تمثيل . ولن تكتمل صورة الارهاب الصهيونى امامنا الا اذا توقفنا أمام مثال نموذجى من امثلة الارهاب الاسرائيلى ، وقد تجسد هذا المثال فى مذبحة كفر قاسم

كفر قاسم

يا حبيبى
لا تلمنى ..
قتلونى ..
قتلونى ..
محمود درويش



لا يمكن أن يقوم مجتمع انسانى حدثت فيه مثل هذه النذالة دون أن تثور فيه رعشة غضب ...

الشاعر اليهودى
نثان الترمان

فى عام ١٩٠٦ وقعت فى القرية المصرية الصغيرة دنشواى تلك المذبحة المشهورة التى قام فيها الانجليز بشنق عدد من الفلاحين وجلد بعضهم ، وكل ذلك تم أمام أهالى القرية وأقرباء الضحايا . وكانت هذه الحادثة ذات دوى ضخم فى داخل مصر وخارجها ، وقد اتخذ منها الكاتب الايرلندى العالمى برنارد شو فرصة شن من خلالها حملة عنيفة ضد « كرومر » المندوب السامى الانجليزى فى مصر وضد الاستعمار الانجليزى عموما ، كذلك اتخذ منها مصطفى كامل فرصة لفضح الاستعمار الانجليزى أمام الرأى العام المحلى وأمام الرأى العام العالمى . وقد انتهت هذه الحادثة بخروج « كرومر » من مصر واشتداد قوة المقاومة المصرية للاحتلال الانجليزى .

ولم تكن حادثة « دنشواى » فى حد ذاتها سببا فى كل هذه الضجة العالمية التى ثارت حولها ، فما أكثر ضحايا الاحتلال الانجليزى منذ أن دخل المحتلون البلاد عام ١٨٨٢ ، ولكن حادثة « دنشواى » كانت تجسيدا لاساليب الاستعمار فى معاملة المواطنين ، وخلاصة هذه الاساليب انه لا قيمة لأى اعتبار انسانى فى سبيل تثبيت أقدام الاستعمار فى البلاد ، كما ان المذابح التى

تقوم بها سلطات الاحتلال كانت وسيلة واضحة من وسائل الارهاب ، وما كان شنق الفلاحين فى « دنشواى» الا درس أراد به الانجليز أن يخيفوا شعب مصر ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا للمواطنين : ان كل متمرد سوف يكون مصيره هو نفس مصير الفلاحين التعساء فى « دنشواى » ، ومثل هذا الاسلوب الذى اتبعته سلطات الاحتلال الانجليزى فى مصر هو نفسه الاسلوب الذى اتبعته سلطات الاحتلال الاسرائيلية فى فلسطين منذ قيام دولة اسرائيل الى اليوم . بل لقد وصلت اسرائيل فى هذا الميدان الى أقصى درجات التطرف ، فجعلت من « المذابح » جزءا أساسيا من سياستها لارهاب العرب فى الارض المحتلة وفى خارجها على السواء . ان الاستعمار الصهيونى هو تلميذ للاستعمار الانجليزى ولقد عاش الصهيونيون طويلا فى ظل الانتداب الانجليزى على فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى ولمدة ثلاثين عاما تقريبا امتدت من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٤٨ واستفاد الصهيونيون فائدة واسعة من المساعدات الضخمة التى قدمتها سلطات الانتداب الانجليزى لتشجيع هجرة اليهود الى فلسطين ، كما استفادوا سياسيا وأدبيا من وعد بلفور الانجليزى عام ١٩١٧ ، وأخيرا فقد تعلم الصهيونيون كثيرا من أساليب العمل الاستعمارى الانجليزى ، وتفوقوا على الانجليز بعد ذلك فى تطبيق هذه الاساليب .

ومنذ اعلان قيام الدولة الاسرائيلية ، بل وقبل قيامها والاسرائيليون يعتمدون على أسلوب الارهاب العنيف حتى تمتلىء نفوس المواطنين العرب بالذعر وتستسلم لمطالب الاسرائيليين . ولذلك يلجأ اليهود بين

الحين والحين الى القيام بمذابح عنيفة قاســية يكون هدفها الاساسي هو اشاعة الرعب فى قلوب العرب .

وكانت أول مذبحة شهيرة من هذا النوع هى مذبحة « دير ياسين » التى قام بها الاسرائيليون فى ٩ ابريل عام ١٩٤٨ · وفى هذه المذبحة العنيفة قتل الاسرائيليون فى ســاعات قليلة ما يقرب من مائتى مواطن عربى من بينهم نساء واطفال وشيوخ ، بل وكان من بينهم حوامل أيضا . ولم يكتف الاسرائيليون بعملية القتل الجماعية ، بل قادوا من بقى من الاحياء فى القرية العربية وثيابهم ملوثة بدماء اقربائهم ومواطنيهم من الضــحايا ليقوموا بعملية استعراض لهم فى شــوارع القدس حتى يزرعوا بذلك رعبا عنيفا فى قلوب العرب فلا يكون أمامهم الا أن يتركوا بلادهم ويهربوا بعد أن راوا بأعينهم ما أصــاب أخوانهم من أبناء « دير ياسين » . ولقــد كان لهذه المذبحة بالفعل أثرها الـكبير على العرب ، وكانت من أهم أسباب الهجرة العربية من فلسطين بصورة جماعية عنيفة عام ١٩٤٨ ·

ولقد أصبحت وقائع مذبحة « دير ياســين » أمرا معروفا ، ذلك لأن « دير ياسين » نالت سمعة عربيــة وعالمية واسعة نتيجة لما حدث فيها من فظائع قاسية .

ولـكننى أود هنا أن أنقل ما كتبه المسئول عن هذه المذبحة وهو الزعيم الصهيونى ميناحم بيجن أحد دعاة العنف والتشــدد فى اسرائيل ، وهو وزير الدولة فى وزارة اسرائيل التى قامت بالعدوان على العرب فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وما زال وزيرا فى الحكومة الاسرائيلية حتى الآن . لقــد تحدث مينــاحم بيجن عن مذبحة « دير ياســين » وذلك فى كتاب له بعنوان « الثورة »

يروى قصة حياته وقصة المنظمة التى أنشأها وتزعمها وهى منظمة « الارغون زفاى ليومى » أو «المنظمة العسكرية القومية » .. يقول ميناحم فى كتابه الـــذى ترجمه الى العربية الاستاذ سمير صنبر :

« لقد قامت دعاية عالمية ضـــدنا تعلن أننا ارتكبنا الفظائع فى « دير ياسين » . والحقيقة هى أننا أنذرنا الاهالى قبل الهجوم ، ونظرا لاشـــتداد المعركة التى خسرنا فيها كثيرا من رجالنـــا اضطررنا الى استعمال القنابل اليدوية مما أدى الى موت الاهالى الذين رفضوا أن ينسحبوا من القرية . وقد ارسلت الوكالة اليهودية رسالة الى الملك عبد الله تعتذر له فيها عن حادث « دير ياسين » وقد رد الملك عبد الله على الاعتذار قائلا : « ان الوكالة اليهودية مسئولة أيضا وانه لا يعترف أن هناك ارهابيين وغير ارهابيين » . وهكذا قامت فى البـــلاد العربية ، وفى جميع انحاء العالم موجة من الســـخط على ما سموه « بالمذابح اليهودية » وقد كانت هـــذه الدعاية العربية تقصد الى تشـــويه سمعتنا ولـــكنها انتجت لنا خيرا كثيرا ، فقد دب الذعر فى قلوب العرب ، فقرية « كالونيا » التى كانت ترد هجمات «الهاجاناه» الدائمة هجرها أهلها بين ليـــلة وضحاها واستسلمت بدون قتـــال ، وهرب أهالى « بيت اكسا » أيضا . وبسقوطهما واحتلال « القســـطل » استطاعت القوات اليهودية أن تحافظ على الطريق الى القدس . وفى أماكن كثيرة كان العرب يهربون دون أن يشتبكوا مع اليهود فى اى معركة وقد ســـاعدتنا أسطورة « دير ياسين » فى المحافظة على طبريا واحتلال حيفـــا . وعندما تقدمت جميع القوات اليهودية فى هجومها الناجح على حيفا كان

العرب يهربون مذعورين صائحين : دير ياسين ! ! »

هـذا هو ما يقوله ميناحم بيجن ، وهو يكشف لنا بوضوح كامل عن مغزى المذابح الاسرائيلية وخططهـا الدقيقة فهي تهدف الي تقـديم نموذج يخيف العرب ويرهبهم ويؤدى بهم الى الاستسلام للخطط الاسرائيلية

وبعد مرور ثمانية أعوام على مذبحة « دير ياسين » قدمت اسرائيل نموذجا آخر من سياستها الارهابية فى مذبحة جديدة قامت بها عام ١٩٥٦ ، وذلك فى قرية «كفر قاسم» العربية ، والتى تضم حوالى ألفين وخمسمائة مواطن كلهم من العرب . وقد حدثت هذه المذبحة ليلة العدوان الثلاثى على مصر اى فى مساء ٢٩ اكتوبر عام ١٩٥٦ . وكان الهدف من هذه المذبحة هو نفس الهدف من مذبحة « دير ياسين » وهو ارهاب العرب واشاعة الذعر فى نفوسـهم ، وكان التخطيط فى هـذه المذبحة موجهـا الي عرب الارض المحتلة وخاصـة فى مناطق الحدود ، فقد كان الهدف هو دفع العرب للهروب الى البلاد العربية المجاورة وبذلك يتخلص الاسرائيليون من جزء من السكان العرب .

وتبدأ مأسـاة كفر قاسم عنـدما قررت السلطات الاسرائيلية منع التجول فى القرية العربية فى تلك الليلة ابتداء من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة صباحا ولـكنهم لم يبلغوا أهالي القرية بهـذا القرار الا بين الساعة ٤٫٣٠ والساعة ٤٫٤٥ ، اى قبل موعد منع التجول بحوالى ربع ساعة . وكان من الطبيعى الا يصل الامر لـكل أهل القرية فى تلك الفترة القصيرة وخاصة بالنسبة للعمال الذين يقومون بالعمـل خارج القرية . وقد عاد ما يقرب من خمسين عاملا من أهل القرية بعد

منع التجول بقليل فأطلق الجنود الاسرائيليون النيران عليهم وقتلوهم دون أن يعرف هؤلاء الضحايا سببا لذلك أو يعرفوا حقيقة التهمة الموجهة اليهم فى نظر السلطات الاسرائيلية .

وهـذه بعض وقائع المذبحة كما رواها بعض الذين نجوا منها وكما نشرتها الصحف الاسرائيليـة نفسها ، وترجمها عن العبرية الاستاذ ربحى كمال فى كتابه عن « العرب فى الارض المحتلة » .

« يتحدث العامل عبد الله سمير بدير من قرية كفر قاسم فيقول :

« فى الساعة الخامسة الا خمس دقائق وصلت الى مدخل القرية مع ثلاثة آخرين من العمال ، وكنا نمتطى الدراجات ، والتقينـا بدورية من حرس الحدود على سيارة ، وعددهم ١٢ شرطيا مع ضابطهم ونزل رجال الشرطة وأمرونا بالوقوف وأصدر الضابط امره باطلاق الرصاص علينا . ولما بدأ رجال الشرطة باطلاق النار ، ارتميت أنا عبد الله سمير بدير ، على الارض وتدحرجت الى الحجرة المجاورة للطريق وأنا أصرخ ، ولـكننى لم اصب بأذى ، وتوقفت عن الصراخ وتظاهرت بالموت . واستمر الجنود فى اطلاق النار على العمال المصابين حتى قال لهم الضابط : كفى ... ووصلت بعد ذلك عربة « كارو » تحمل ثلاثة عمـال فأوقفت الدورية العربة وأطلقت النار على العمال فقتلتهم وابتعدت الدورية عن ذلك المـكان بضـع عشرات من الامتـار ، واحتلت استحكاما آخر على الطريق . ووصـل عدد آخر من العمال وسيارة شحن مملوءة بالعمال ، فانتهزت الفرصة وركضت نحو القـرية فأطلقت الدورية النـار على ، ولـكننى لم أصب ، واختبـأت فى أحد البيوت الاولى

للقرية حتى انتهى منع التجول »

ومن بين سيارات الشحن التى وصلت الى مدخل القرية سيارة تحمل ١٣ عاملة ، بالاضافة الى السائق ومعاونه ، وكن عائدات من عملهن فى قطف الزيتـــون خارج القرية . وعن مصير ركاب هذه السيارة تحدثت هناء سليمان عمر ، وعمرها ١٦ عاما قائلة :

ـ أوقفونا عند مدخل القرية وأمروا السائق ومعاونه بالنزول لقتلهما ، فراحت النســاء يبكين ويتوســلن طالبات عدم قتلهما ، ولـكن رجال الشرطة صاحوا : سنقتلـكن أنتن أيضا . ولما قتلوهما راحوا يتشاورون فيما يفعلون بالنساء . وسمعت أحـد الجنود يتحدث باللاسلـكى . وفى الحال راح رجـــال الشرطة يقتلون النساء ، وبعضهن نساء حوامل ، واحداهن فى شهرها الثامن هى فاطمة داود صرصور ، وبينهن عجائز تتراوح أعمارهن بين ٥٠ و ٦٠ عاما ، وفتيــات صغيرات مثل لطيفة عيسى ورشيقة بدر لا يتجاوزن ١٣ عاما . أما أنا فقد جرحت ، وسقطت بين الجثث وظنوا اننى فقـــدت الحياة .. »

وقد استمرت هذه المذبحة حتى بلغ عدد القتلى من سكان القرية حوالى الخمسين ســـقطوا واحدا بعـــد الآخر .. بحجة أن هؤلاء الضحايا خالفوا أمر منع التجول ، والحقيقة انهم لم يسمعوا به نهائيا ، ولم يكن فى الامكان أن يسمعوا به ، لان القرية سمعت بهذا الأمر بعد اصداره بفترة قصيرة تتراوح بين نصف ساعة وربع ساعة

هذه المذبحة التى قام بها الاسرائيليون عام ١٩٥٦ ، تجسد روحهم العدوانية نحو العرب فى الارض المحتلة ، وهى روح تحركها رغبة عاتية فى الانتقام والتـــدمير

على ان مذبحة كفر قاسم لم تمر بسلام على السلطات الاسرائيلية ، فقد جعل منها العرب فى الارض المحتلة ذكرى قومية يحتفلون بها كل عام بالمظاهرات والاضرابات ، وكثيرا ما تقوم السلطات الاسرائيلية بفرض الحصار على « كفر قاسم » ومنع الدخول اليها أو الخروج منها في يوم ذكرى المذبحة . لقد اصبحت «كفر قاسم » شرارة نضالية لا تنطفىء أبدا ، وأصبح شهداء « كفر قاسم » جيشا يحارب حربا قوية عنيفة ضد الاسرائيليين ، ولا يملك هذا الجيش من الشهداء مسدسات أو بنادق أو قنابل ، وانما يملك ما هو أقوى من ذلك كله ... انه صرخات المظلومين والابرياء من الاطفال والصبايا والشباب والعجائز ، وهى صرخات يطلقها هذا الجيش من الشهداء ضد سلطات الاحتلال والاغتصاب ، وسيظل يطلقها حتى يوم الحساب والحرية الكاملة .

ولقد حاكمت السلطات الاسرائيلية المسئولين عن هذه المذبحة محاكمة صورية ، بعد أن أحدثت المذبحة اثرا عنيفا لدى الرأى العام العربى داخل اسرائيل ، كما تسربت حقائقها الى الصحافة العالمية وأثارت نقمة واسعة على السلطات الاسرائيلية . وبالطبع انتهت المحاكمة الصورية بادانة شكلية للمسئولين عن المذبحة ، ثم انتهى الامر فى النهاية بالعفو عن هؤلاء المسئولين . ويكفى ان نعلم أن المتهم الاول فى هذه المذبحة وهو الضابط الاسرائيلي « شموئيل ملينكى » قد أدين وحكم عليه بالسجن لمدة ١٧ عاما ، ثم تم تخفيض الحكم فى الاستئناف الى ١٤ عاما ، ثم خفض رئيس الدولة الاسرائيلية الحكم الى خمسة أعوام . ثم أطلق سراح الضابط بعد فترة قليلة قبل أن يتم مدة السجن . ومن

الطريف ان أحد المسئولين عن هذه المذبحة وهو ضابط آخر اسمه « جبرائيل دهان » قد أفرج عنه بعد ادانته بقتل ٤٣ مواطنا عربيا فى المذبحة ، ثم عين بعد الافراج عنه مباشرة فى بلدية « الرملة » وهى مدينـــة عربية فى الارض المحتلة ، وكانت الوظيفة التى اختير لها هـــذا القاتل هي : « المسئول عن شئون العرب فى المدينة » . وقد حوكم فى القضية ايضا ضابط اسرائيلى كبير اسمه « اللواء شدمى » وحكمت المحكمة بلومه وتغريمه قرشا اسرائيليا واحدا .

ومن الطريف أيضا ، ان كان فى هذه المأساة مجال للطرافة ، ان احد الشعراء الاسرائيليين كتب قصيـدة عن هذه المذبحة وادان فيهـــا الاسرائيليين واعتبرهم مجرمين وسفاحين • يقول هذا الشاعر واسمه « نتان الترمان » :

« بعد أن تبينت لك تفاصيل ذلك العمل الرهيب ،
تفاصيله التى لا تستطيع اليد أن ترتفع لتكتبها
بعد ذلك عرفت : انه لا يجب الكتابة عن شيء آخر .
لا كتابة قصة ولا قصيدة ، لأن اللغة العبرية
ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل القذر الذى
جرى فى اسرائيل »

ثم يقول الشاعر الاسرائيلى بعد هذه الادانة لمجتمعه :
« لا يمكن أن يقوم مجتمع انسانى حدثت فيه مثل هذه النذالة دون أن تثور فيه رعشة غضب »

أما الشعراء العرب فى الارض المحتلة فقد جعلوا من « كفر قاسم » مدينة مقدســـة للـكفاح والنضـــال ، وكتبوا عنها مجموعة من أجمل أشعارهم ، ولا يكاد يوجد

شاعر فى الارض المحتلة الا وقد كتب قصيدة عن «كفر قاسم» .

ومن بين قصائد محمود درويش فى ديوانه « آخر الليل » ، قصيدة طويلة من ستة مقاطع بعنوان « ازهار الدم » تسجل بصورة فنية رفيعة مأساة « كفر قاسم » ، وما يتعلمه النضال العربى والانسان العربى من هذه المذبحة .

ففى المقطع الاول من القصيدة وعنوانه «مغنى الدم» يصور لنا محمود درويش شهداء « كفر قاسم » وقد تحولوا الى « أوتار » يغنى الشاعر على الحانها . فالشهداء لم يموتوا ، ولكنهم أصبحوا أصواتا الهية تعزف للأمل وللمستقبل ، لقد انطلق الشهداء ورفرفوا بأجنحتهم الحانية على كل المحزونين من أبناء الارض المحتلة يمسحون الدموع ويملأون القلوب بالامل

ويصور محمود درويش التناقض بين موقف القرية الوادعة الوديعة « كفر قاسم » وأهلها الذين لا يهتمون الا بالحياة ومشاغل الحياة وبين موقف الاسرائيليين الملىء بالظلم والنزعة الدموية المعادية للحياة ... القرية والناس يحلمون احلاما طيبة نبيلة والاسرائيليون يحلمون بالقتل والشر والدماء .

« كفر قاسم »
قرية تحلم بالقمح ، وازهار البنفسج
وبأعراس الحمائم
. . . . . .
ـ احصدوهم دفعة واحدة
حصدوهم
. . . . . .

. . . حصدوهم . . .
. . . . . .

فى هذه الابيات تلخيص « انسانى » للموقف كله . فالذين قتلتهم السلطات لم يكونوا سوى عمال بسطاء فى غابات الزيتون أو فى الحقول الفلسطينية الاخرى او فى أى ميدان من ميادين العمل اليدوى ، حيث يقوم العمال العرب باعمالهم فى شقاء وصبر واحتمال .

على ان رؤية محمود درويش الشعرية لم تقتصر على تسجيل التناقض بين روح البراءة والاخلاص والسلام عند العرب الذين ماتوا فى هـذه المذبحة وبين القتلة والسفاحين ، بل ان الشاعر يصـور امتداد المأساة الى الطبيعة نفسها . لقد تعاطفت هـذه الطبيعة مع الانسان واشتركت فى حزنه وأساه وغضبه . فالطبيعة لم تعد وديعة كما كانت ، لم تعد سعيدة راضية ... بل لقد تسرب اليها ما أصـاب الانسـان من ألم ، وصبغتها جراح الشهداء بلون الدم :

غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت يا حبيبى
أن خمسين ضحية
جعلتها فى الغروب
بركة حمراء ... خمسين ضحية
يا حبيبى .. لا تلمنى
قتلونى .. قتلونى
قتلونى

وليست هـذه الصورة من باب « البلاغة القديمة » التى كانت تجعل السماء تمطر عند الحزن ، والازهار

تبتسم عند الفرح ، وما الى ذلك من الصـــور المفتعلة ... كلا ... فالشاعر هنا يصـــور لنا حالة نفسية عميقة ، وتجربة روحية شاملة ، لأن الحزن الذى ملأ نفس الشاعر ، وملأ نفوس أهل القرية البريئة ، قد انعكس على نظرتهم لـكل شىء فى الواقع الخارجى ، فأصـــبحوا لا يرون اللون الاخضر فى غابة الزيتون ، ولـكنهم يرون اللون الاحمر يصبغ كل شىء ، لأنه لون الدم البشرى البرىء الذى ســـال فى مذبحة « كفر قاسم » . على ان الصلة بين أهل القرية وبين الطبيعة هى صلة قوية ووثيقة ، فالنـــاس فى القرية يمتزجون بالطبيعة امتزاجا كاملا فى حيـــاتهم وعملهم ، ومعظم أهل القرية هم عمال زراعيون . فالصداقة بينهم وبين الطبيعة عميقة ، والامتزاج بينهم وبين الطبيـــعة هو امتزاج قوى أصيل ... فليس من الغريب أن يرى الشاعر تلك الرؤية ... وهى ان الطبيـــعة تحزن لمـــأساة هؤلاء البشر الابرياء الذين سالت دماؤهم تحت الاشجار وفوق التراب وعلى القنوات الصغيرة .

ولـكن محمود درويش لا يكتفى بتسجيـــل هـــذه الرؤية الشعرية التى جعلت من الطبيعة شريكة للانسان فى حزنه العـــادل وأســـاه العميق . وجعلت غابة الزيتون الخضراء مصبوغة بلون الدم الذى ســـال من أجساد الضحايا الابرياء ... انمحمود درويش لايكتفى بذلك بل ينظر الى المأساة نظرة عميقة ، ويحاول أن يرى انعكاسها على الواقع الانسانى . وهذا جزء من الحوار الذى دار بين القتيل رقم ١٨ وحبيبته فى مقطـــع من هذه القصيدة الطويلة الرائعة نفسها ، وعنوان هذا المقطع : « القتيل رقم ١٨ » .. يقول محمود درويش على لسان هذا القتيل :

كان قلبي مرة عصفورة زرقاء
يا عش حبيبي
ومناديلك عندي كلها بيضاء
كانت يا حبيبي
ما الذي لطخها هذا المساء ؟
انا لا أفهم شيئا يا حبيبي !

. . . . . .

أوقفوا سيارة العمال في منعطف الدرب
وكانوا هادئين
وأداروها الى الشرق
وكانوا هادئين ..

. . . . . .

ان هذا الهدوء الذي يصفه الشاعر ليس أكثر من تصوير صادق وأمين للضمير الميت عند كل قاتل سفاح. على ان القتيل رقم ١٨ بعد أن تصيبه الرصاصة في قلبه يتحول في خيال الشاعر الى كائن شفاف ... لم يمت ... لأن الشهيد البريء لا يموت ، ولكنه يخاطب حبيبته التي كانت تنتظره فيقول :

لك مني كل شيء
لك ظل لك ضوء
خاتم العرس وما شئت
وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما في كل ليلة
أدخل الشباك ، في الحلم ،
وأرمي لك فلة
لا تلمني ان تأخرت قليلا
انهم قد أوقفوني

هـذا التصوير الفنى الصادق العميق المؤثر لذلك القتيل الشهيد الذى رحل عن الحياة ماذا يقدم الينا ؟ انه يؤكد لنا معنى يحس به الشاعر احساسا فريدا .. فاذا كان جسد الشهيد قد رحل عن الارض التي يحبها فان ما فى قلبه من عواطف أصيلة وافكار بسيطة ونبيلة لم ترحل ولا يمكن ان ترحل . ان ما كان يحمله فى عقله وقلبه لا يمكن أن ينطفىء مع انطفاء الجسد ، ولا يمكن أن تغتاله رصاصات العدو ... حبه لأرضه ، وحبه لأهله ، وحبه للحياة ، كل هذا ما زال باقيا متجسدا فى علاقته مع حبيبته التى ما زال يتحدث اليها ، يحمل لها الهدايا ، ويدخل بيتها من الشباك مع الاحلام والاطياف ، ويرمى لها فلة ويعتذر عن تأخره قليلا ... ان الحياة تدب فى أوصال القتيل ، لأنه كان يحمل فى قلبه أشياء غالية لا تموت مثل حبه وبراءته .

على ان العلاقة الانسانية فى حياة الشهيد ليست هى علاقته بحبيبته فقط ، ليست هى عاطفته الجميلة التى بعثت بعد موته حية متوهجة تطل على الحبيبة وترعاها وتمنحها هداياها المعهودة ... ليس هذا هو الامتداد الوحيد لحياة الشهيد ، بل ان هنالك امتدادا آخر ، هو امتداد الكفاح فى الحياة اليومية ، فهذا الشهيد هو من سلالة عاملة تأكل خبزها بعرق أيامها ... انه من جماعة ذات قلوب طيبة وقضية عادلة ولكن أيديها خشنة ليس فيها نعومة البطالة والترف ... ولذلك فان الشهيد سوف يبقى ما بقيت عواطفه النبيلة ، وما بقيت تلك الايدى الخشنة التى تكافح وتعمل وتعرق .. ففي مقطع آخر من قصيدته عن « كفر قاسم » وعنوانه « القتيل رقم ٤٨ » يقول محمود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد
وقمر ...
وهو ملقى ، ميتا ، فوق حجر
وجدوا علبة كبريت
وتصريح سفر
وعلى ساعده الفض نقوش
قبلته أمه
وبكت عاما عليه
بعد عام
نبت العوسج فى عينيه
واشتد الظلام
عندما شب أخوه
ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة
حبسوه ...
لم يكن يحمل تصريح سفر
انه يحمل فى الشارع
صندوق عفونة
وصناديق اخر
آه ، أطفال بلادى
هكذا مات القمر

ان هـــذا الشهيد باق اذن ، له امتداد لا ينتهى ، طالما ان هناك مكافحا آخر يبذل عرقه فى الشوارع او فى السجون أو فى اى ميدان من ميادين العمل .

ان هـــذا الشهـــيد الذى سقط فى « كفر قاسم » لا يمكن أن يموت لانه ترك وراءه أشياء غالية : الحب والعمل وفلة لحبيبته !

وبعد هذه الرحلة مع شهيد « كفر قاسم » وعلاقاته

الانسانية التي لم تنقطع مع الرصاصات التى تلقاها في قلبه ، يحملنا محمود درويش الى المعنى العام لقصيدته الطويلة الرائعة ، وهو يحملنا الى هذا المعنى بعد أن نكون قد عشنا مع الشهيد فى لوحات مختلفة من حياته بعد الاستشهاد ، سواء كانت هذه اللوحات تصويرا لعلاقته مع حبيبته أو لعلاقته مع أهله وأبناء قريته . وهذا المعنى العام يجسده لنا محمود درويش فى قوله :

الذى مات هو القاتل يا قيثارتى
ومغنيك انتصر

وفى قوله :

« كفر قاسم » انني عدت من الموت لأحيا ! لأغنى
فدعيني أستعر صوتى من جرح توهج

وأعينيني على الحقد الذى يزرع قلبى عوسج
انني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد
ان امشى على جرحى
وامشى ثم امشى ... واقاوم !

هذا هو الصوت الذى يرفعه الشاعر من بين انقاض مذبحة « كفر قاسم » ، ومن بين أجساد الشهداء ... انه صوت أرواح الشهداء الفقراء الذين ماتوا فى تلك الليلة الحزينة دون أن يعلموا سببا لموتهم .. فهذه الارواح كان لها همسها وغناؤها الباقى الذى لا يذوب أبدا امام اصوات مليئة بالضجيج والعنف . ولقد انصت الشاعر جيدا الى هذه الاصوات ونقل الينا فى قصيدته النبيلة ما قاله لنا الشهداء وما يرددونه مع الايام حتى يسود العدل :

يا « كفر قاسم » ! لن ننام
وفيك مقبرة وليل
ووصية الدم لا تساوم
ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم
أن نقاوم ...

ان القوة تولد هنا من المأساة ، و « كفر قاسم » لم تعد قرية بسيطة عادية ، بل أصبحت قريتنا جميعا لأنها قرية المجروح والشهيد وطالب الثأر من الظلم

شعراء وشهداء

انني ابحث في الانقاض عن ضوء
وعن شعر جديد
**
قصائدنا
بلا لون
بلا طعم
بلا صوت
اذا لم تحمل المصباح
مـــن بيت الى بيت
محمود درويش

لم يظهر محمود درويش فجأة ، ولم تظهر مدرسته الشعرية بلا مقدمات ، فمحمود درويش ومدرسته يرتبطان أشد الارتباط بحركة النضال في فلسطين وبشعراء هذه الحركة النضالية . ولو عدنا الى تاريخ الادب العربي في فلسطين لوجدنا ان مدرسة محمود درويش تمتد بجذورها الى جيلين سابقين هما جيل ١٩٣٦ وجيل ١٩٤٨ . ولا بد لنا من الحديث عن هذين الجيلين اذا اردنا أن نعرف المقدمات الصحيحة التي مهدت للجيل الثالث وهو جيل محمود درويش ورفاقه

والحادث الرئيسي الذي كان فرصة لظهور الجيل الاول من شعراء المقاومة هو ثورة عام ١٩٣٦ . ففي أواخر ابريل من هذا العام قامت في فلسطين ثورة شاملة ، بدأت باضراب أعلنه الشعب واشتركت فيه معظم الطوائف باستثناء بعض العناصر من الموظفين الذين ترددوا في الاستجابة للثورة ، ونشبت معارك مسلحة في عدد كبير من المدن الفلسطينية بين العرب من جانب واليهود والانجليز من جانب آخر ، وأعلن العرب قبل بدء الاضراب بليلة واحدة مطالبهم المحددة أمام العالم كله ، وكانت هذه المطالب تتركز في وقف الهجرة اليهودية الى فلسطين فورا ، ثم في اصدار قانون

يمنع تسرب الاراضى العربية عن طريق بيعها لليهود أو الاستيلاء عليها بواسطة سلطات الانتداب الانجليزى ثم تسليمها لليهود بعد ذلك ، وكان المطلب الثالث الذى أعلنه العرب هو تشكيل حكومة وطنية عربيـــة تتولى السلطة فى فلسطين .

واهتزت السلطات الانجليزية أمام اجماع أغلبيـــة الشعب على الاضراب والثورة ، كما أثر موقف الشعب على القيادات السياسية التى كانت تعيش فى انقســـام وتمزق كبيرين ، فاتحدت هـــذه القيادات فيما سمى حينذاك باسم « اللجنة العربية العليا » كذلك اشترك مناضلون من خارج فلسطين فى الـكفاح المسلح الذى شمل فلسطين فى ذلك العام ، وكان موجها ضد اليهود والانجليز فى وقت واحد ، ونشأت فى المناطق الفلسطينية المختلفة حكومات محلية سميت باسم « اللجان القومية » وكانت هـــذه اللجان تشرف على توجيه الثـــورة من الناحيـــة السياسيـــة ، وكانت تشرف على تزويدها بالسلاح كما كانت تقوم بكل المهام الاخرى التى تحتاجها ادارة البلاد فى ظل الثورة .

وقد أسرع الانجليز باللجوء الى بعض الحكام العرب ليتوسطوا لدى القيـادات السياسية فى فلسطين حتى تدعو الشعب الى انهاء اضرابه وثورته لايجاد منـــاخ مناسب وفرصة جديدة للتفاهم مع الانجليز على تحقيق المطالب العربية ، وقد نجحت هذه الوساطة التى كان نورى السعيد على رأس القائمين بها فى ايقاف الاضراب والثورة المسلحة ولم تنجح فى تحقيـــق أى تفاهم بين شعب فلســـطين والســـلطات الانجليزية ، وذلك لأن الانجليز كانوا قد أعدوا خطتهم على أساس اقامة دولة

اسرائيل بالارهاب تارة وبالمناورة تارة أخرى .

ومهما كانت نتائج ثورة عام ١٩٣٦ فى فلسطين ، فانها فى الحقيقة كانت ثورة عنيفة وشاملة ، بل انها كانت أكبر مما قدرته لها كل القيادات السياسية فى ذلك الحين ، واستطاعت هذه الثورة أن تخلق جيلا من عرب فلسطين له نظرة خاصة للقضية الفلسطينية ، وهى نظرة عنيفة غاضبة مناضلة ، استطاعت أن تدرك بعد تجارب عديدة انه لا حل لهذه القضية الا بالقوة المسلحة ، ولذلك فانها لم تعد تؤمن الا بالمقاومة على أعنف صور المقاومة ضد اليهود والانجليز معا ، فذلك هو الحل الوحيد للمأساة التى كان هذا الجيل يراها قادمة تزحف على الارض الفلسطينية ، وتنسج لشعب فلسطين العربى مصيرا دمويا لا حدود لتعاسته وشقائه .

ولقد كان الجيل الذى مهد لثورة ١٩٣٦ ثم قادها بعد ذلك يشعر بأن هناك املا كبيرا فى النصر لو ارتفع صوت المقاومة فوق كلّ صوت ، لأن المأساة لم تكن قد نسجت كلَّ خيوطها ولم يكن الظلام قد اصبح شاملا ، بل كان هناك أمام المناضلين فرصة للعمل والحركة ، ومن هنا فاننا نستطيع أن نسمى جيل عام ١٩٣٦ باسم « جيل المقاومة » ، فلقد حارب المخلصون من أبناء هذا الجيل حربا شاملة على جميع الجبهات ، فحاربوا بالكلمة والسلاح والتنظيمات السرية والتنظيمات العلنية على السواء ، وحاولوا أن يستمدوا المساعدة من البلاد العربية ومن أوربا ومن كل مكان تصوروا انه يمكن أن يخدم القضية بأى قدر ولو كان ضئيلا .

ومن الظواهر التى تلفت النظر فى هذا الجيل أن

المثقفين لعبوا دورا كبيرا فى قيادته وتوجيهه ، ولعل اصدق نموذج نضالى يقدمه هذا الجيل هو نموذج الشيخ « عز الدين القسام » الذى جسد ولا شك أفضل خصائص جيل عام ١٩٣٦ وأعظمها واكثرها اصالة وصفاء ، ولذلك فانه يمثل الوجدان الفلسطينى فى ذلك الجيل خير تمثيل ، وربما كان هناك زعماء اكثر شهرة منه ،وربما كان هناك قادة أحزاب سياسية استطاعوا أن يجمعوا عددا أكبر من الانصار ولكن ذلك كله لا ينفى أننا فى بحثنا عن الوجدان الفلسطينى لن نجد اصدق من هذا النموذج النضالى كممثل حقيقى لجيل عام ١٩٣٦ ، ورغم ان القسام استشهد فى أواخر عام ١٩٣٥ الا ان بعض رجاله قد عاشوا بعده وساهموا فى قيادة ثورة عام ١٩٣٦ مساهمة كبيرة ، كما ان القسام كان بأفكاره الثورية التي نشرها فى طول الارض الفلسطينية وعرضها من أكبر الذين مهدوا لثورة عام ١٩٣٦ واعدوا الشعب لها خير اعداد ، وليس مجرد مصادفة أن تشتعل الثورة بعد استشهاد القسام بحوالى خمسة اشهر ، وحتى هذه الاشهر لم تكن هادئة بل كانت تنذر بالانفجار بين لحظة واخرى ، وكان الغضب الذى يملأ قلب الشعب يعبر عن نفسه فى انفجارات صغيرة متنوعة

ولن نستطيع أن نفهم الشعراء الذين ينتسبون الى جيل عام ١٩٣٦ ويعبرون عنه دون أن نقف أمام شخصية الشيخ القسام وقفة متأنية باعتباره نموذجا مثاليا يكشف حقيقة الوجدان الفلسطينى فى تلك الفترة ، وهو وجدان المقاومة والاستشهاد والغضب واشعال النار فى صفوف الاعداء ، ولم يكن القسام مجرد حالة فردية ، بل كان صورة أمينة لحقيقة

العواطف الشـــعبية فى حرارتها والتهابهـــا العنيف . وعندما نحس بشخصية القسام وصورته الواضحة ، فاننا نستطيع أن نفهم الدائرة الوجدانية التى كان يدور فيها شعر فلسطين فى تلك الفترة

وهــذه هي صورة القسام وصورة حركته الثورية الاستشهادية كما قدمها لنا الاستاذ ناجى علوش فى كتابه القيم عن « المقاومة العربية فى فلسطين » .. وأنقل هنا هذه الصورة الدقيقة الواضحة بكل تفاصيلهـــا حتى تعطينا ما نحتاج اليه من معرفة كاملة بما كان يعيش فى قلب هذه الفترة من أفكار وانفعالات وحركات عميقة .

يقول الاستاذ ناجي علوش فى كتابه : « كان عزالدين القسام رجل دين وقورا ، وخطيبا ملك أعنة الكلام ، وتوفر على علم واسع بمجاله ، وقد وضع علمــــه ومركزه الدينى فى خدمة المقاومة العربية ، فأخـــذ يحرض على الانتفـــاض على الظلم والثورة على الاجنبى ، مذكرا فى خطبه بأن المسلم غير مكلف بالخضـــوع للأجانب وكان مؤمنا أن الثورة لابد لها من أن تعتمـــد على الفلاحين والعمال . رأى القســام ان الهبات الشعبيـــة لا تكفى لتحرير البلاد ودفع الخطر الصهيونى عنها ، كما رأى ان القيادة فى فلسطين غير أهل للمهمة الخطيرة الموكولة اليها ، ولذلك فقدعمل على انشاء حركة ثورية عقائدية ، تقوم على العقيدة الاسلامية من جهة ، وعلى التنظيم السرى من جهة أخرى ، ومن هنا بدأ القسام العمل ، فأنشأ حلقات سرية ، واخذ يعدها ليومها الموعود »

« ليس هناك تفصيلات واسعة عن تنظيمات القسام وأفكاره ، وخططه ، ولـكن ما هو موجود يدلنا على ما يلى :

اولا : اعتبر القسام أن المقاومة تقتضى وجود «كوادر» مهياة عقائديا وسياسيا وعمليا ، ولذلك فقد اتجه الى تثقيف أنصاره ومريديه تثقيفا اسلاميا وطنيا ، وكانت عملية التوعية هذه تستهدف تزويد المقاتلين بالايمان ، وحضهم على التضحية والتفانى ، وفى القرآن الكريم مادة لا تنضب من الآيات والاحاديث المفيدة جدا فى هذا المجال .

ثانيا : اعتبر القسام أن بريطانيا هى أساس البلاء ، وان الحركة الصهيونية مرتبطة بالاستعمار البريطانى ، ولذلك فان انهاء الانتداب هو الواجب الاول ، على أن تبذل الجهود لمنع الحركة الصهيونية من الاستيلاء على مزيد من الاراضى .

ثالثا : ان الثورة المسلحة هى وحدها القادرة على انهاء الانتداب والحيلولة دون قيام دولة صهيونية فى فلسطين وهذه الثورة تستلزم : نشوء تنظيم سرى — تربية المقاتلين واعدادهم للمعركة عسكريا — تعبئة الجماهير نفسيا لتايبد الثورة والاشتراك فيها .

وبدأ القسام العمل ، تحقيقا لهذه الاهداف منذ عام ١٩٢٢ ، بتأسيس الحلقات السرية . وقد انتسب عام ١٩٢٦ الى جمعية الشبان المسلمين ، فانتخب رئيسا لها ، وكان يستهدف بانتسابه للجمعية التستر على أعماله السرية . وحينما عين عام ١٩٢٩ مأذونا شرعيا أخذ يتجول فى القرى ، دارسا نفسية الشعب ، داعيا جموعه الى المحبة والوئام . وكان القسام يتصل بكل فئات الشعب ، حتى الذين لا يعرفون بالورع والتقوى ، فأثار حفيظة بعض رجال الدين وجرى بينه وبينهم نقاش حول الموضوع ، استعمل القسام منبر

مسجد الاستقلال فى حيفا لاستثارة روح الـكفاح فى المصلين ، ولاختيار العناصر التى يتوسم الخير فيهـــا منهم ، لتنضم الى حلقاته السرية ، وطلب القسام من الحاج « أمين الحسينى » ، مفتى فلســـطين فى ذلك الحين ، أن يعينه واعظا متنقلا ، ليعمل من أجل الاعداد للثورة ، فاعتذر الحاج أمين قائلا : « نحن نعمل لحل القضية سياسيا » . وأرسل القسام عام ١٩٣٥ أحـد رجاله المدعو محمود ســـالم ، الى الحاج امين ليعلمه بعزم القسام على اعلان الثورة فى الشـــمال ، وليطلب منه اعلان الثورة فى الجنوب ، ولـكن المفتى أجاب : بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وان الجهود السياسية التى تبذل تكفى لحصول عرب فلسطين على حقوقهم » .

«كان القسام فى هذه الفترة قد بنى تنظيمه السرى ، واشترى كميات من الاسلحة ودرب عددا من المقاتلين ، وقد اتصل بالطليـــان أعداء الانجليز ومنافسيهم على المنطقة العربية وضمن تأييدهم .

وكانت لجان خمس تشرف على العمل وهذه اللجان هى :

أولا : لجنة الدعوة وهى مكونة من عدد من العلماء ووظيفتها اعداد الشعب للثورة مستخدمين كل الوسائل الممكنة من الاتصال اليومى بالنـــاس ، الى حلقـــات التدريس والخطب فى المساجد .

ثانيا : لجنة التـــدريب العسكرى ووظيفتها اعداد المقاتلين .

ثالثا : لجنة العتاد ، ووظيفتها شراء الاسلحة وحفظها فى الاماكن الامينة .

رابعا : لجنة مراقبـــة الاعداء ، ووظيفتهـــا جمع المعلومات عن الانجليز والصهاينة .

خامسا : لجنة الشئون الخارجية ، ووظيفتها تنحصر فى العلاقات الخارجية .

اجتمعت قيـــادة الحركة بمناسبة الذكرى السنوية لاصدار وعد بلفور ، وقررت بدء الـكفاح بالانتقال الى الريف ، وكان ذلك فى ١٩٣٥/١١/١٢ ، واختـــارت منطقة « جنين » القريبة من حيفا مسرحا لعملياتها ، وكانت تستهدف الاتصال بالفلاحين ، وتحريضهم على الاحتـــلال الاجنبى ، ودعوتهم للاشتراك فى الثورة .

وكان عدد الاعضاء المنظمين فى الحركة قرابة مائتين عند اتخاذ هذا القرار ، بالاضافة الى ثمانمائة من الانصار. ولاعتقاد القسام بان الثورة يجب أن تعتمد على الفلاحين والعمال ، فقد أختار أعضاء منظمتـــه من أوســـاط « الفلاحين والعمال » الذين كانوا يسكنون فى ضواحى حيفا .

حين انتقلت جماعة القســـام الى الريف أحـــس الجواسيس المكلفون بمراقبتهم أنهم غائبون ، فازداد قلق السلطات المحتلة ، ونشطت فى البحث عنهم . وفى يوم ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ التقى نفر من جماعة القسام بجاويش يهودى ، وشرطى عربى ، فقتلوا الجاويش ، وتركوا الشرطى حيا ، وقد أخبر الشرطى بما رأى ، فحشدت السلطات المحتلة قوة كافية ، واخذت تجوب المنطقة بحثا عما اسماه الانجليز « العصابة » .

استمر البحث أياما ، حتى ان جريدة فلسطين كتبت تقول : « قضاء جنين كأنه ساحة حرب » . استطاعت القوات البريطانية أن تحكم الطوق على جماعة القسام

الذين قاوموا مقاومة باسلة ، ولكنهم كانوا فى واد عميق ، ولم يفكروا فى التسلل والهرب ، بل فى المقاومة والاستشهاد ، ولذلك فان القسام حين طلب منه الاستسلام أجاب : « اننا لن نستسلم ، ان هذا جهاد فى سبيل الله والوطن » والتفت الى زملائه وقال : « موتوا شهداء » . واستمر الاشتباك الاخير من الفجر حتى التاسعة صباحا ، حين قتل القسام وبعض صحبه ، وجرح آخرون منهم الشيخ نمر حسن السعدى .

لم تستطع حركة القسام أن تحقق أهدافها الاولية فقد قتل قائدها ، وبعض كبار معاونيه . الا ان الحركة لم تذهب سدى ، ذلك ان بعض جماعة القسام ، قد افترقوا عنه ، بقيادة الشيخ فرحان السعدى بعد مقتل الشاويش اليهودى فنجوا ... ثم أن مقتل القسام حرك البلاد ، وأثار كوامن حقدها ونقمتها ... »

هذه هى صورة « القسام » كما يرسمها الاستاذ ناجى علوش ، بكل ابعادها الواضحة العميقة وهى صورة حية نبيلة مشرقة لمثقف ثورى عربى ، فقد ثقته بالقيادات السياسية التقليدية فى عصره ، وأحس أن اللغة الصحيحة هى لغة الثورة والاستشهاد ، وجسد فى موقفه حقيقة الوجدان الفلسطينى فى تلك المرحلة من تاريخ فلسطين . وكما يبدو أمامنا من خلال نموذج « القسام » فان الوجدان الفلسطينى فى تلك المرحلة كان وجدانا مشتعلا بروح المقاومة ، مؤمنا بأن الدين والعلم والثقافة والفن والادب وكل شىء يجب أن ينصهر فى المعركة الاساسية ، ولذلك فقد أحال هذا الشيخ الشهيد خطبه فى المسجد وجولاته فى القرى والمدن

كمأذون يربط بين القلوب برباط من القانون والشرع ، وجلساته فى صحون المساجد المختلفة ... حول هذا كله الى دعوة للثورة المسلحة ، والتنظيم القوى الذى يستطيع الوقوف فى وجه الانجليز واليهود معا . ولقد كانت عقلية «القسام» الثورية فى غاية الدقة والوضوح.

ويبدو لنا هذا كله من تنظيمه لجماعته الصغيرة الى لجان دقيقة تستوعب كل أوجه النشاط فى العمل الثورى ، كما كان اصراره على ان القاعدة الاساسية للثورة ينبغى أن تتكون من الفلاحين والعمال دليلا على فهم فذ وموهبة ثورية أصيلة فى تلك الفترة المبكرة من تاريخنا العربى قبل ثلاثة وثلاثين عاما. كما كانت أفكاره تحديدا لبرنامج ثورى شديد الوضوح حول العمل لتحرير فلسطين ، ولقد كانت هذه الافكار التى ترددت فى برنامجه الثورى تمثيلا صحيحا لهموم الشعب وآماله ، وكانت هذه الافكار أيضا هى نفسها التى ترددت فى قصائد الشعراء البارزين فى تلك الفترة ، ولا شك ان هؤلاء الشعراء تأثروا بآراء القسام وشخصيته الثورية الجذابة المخلصة ، كما أنهم من ناحية أخرى كانوا يعبرون عن هذه الافكار باعتبارها أفكارا عامة كامنة فى روح العصر ... ولم يفعل القسام فى نهاية الامر الا انه استخرج هذه الأفكار من قلب الواقع ، ثم بلورها فى أحاديثه وخطبه ، ثم دافع عنها آخر الامر بدمه .

هذا النموذج الحى للوجدان الفلسطينى فى تلك الفترة هو الذى عبر عنه شعراء فلسطين من أبناء جيل عام ١٩٣٦ ، وهناك عدة ظواهر فنية وانسانية مشتركة عند كل هؤلاء الشعراء

فهم اولا : شعراء مناضلون ، اى ان العمل السياسى الثورى كان بالنسبة لهم « غذاء يوميا » ، بل ان شعرهم نفسه لم يكن الا أداة من أدواته هذا العمل السياسى الثورى ، وقد تعرض هؤلاء الشعراء للاضطهاد العنيف ومات بعضهم فى ميدان النضال شهداء كما مات « القسام » ، فقد كانوا من نفس النسيج الذى تكونت منه شخصية القسام ، وكانوا جميعا فى النهاية تعبيرا عن الوجدان الشعبى المقاتل وتجسيدا له فى تلك الفترة ... ذلك الوجدان الذى لم يكن يرى سوى الثورة المسلحة العنيفة الشاملة طريقا للخلاص .

وهؤلاء الشعراء ـ ثانيا ـ جعلوا من شعرهم تسجيلا للمواقف الثورية المختلفة فى فلسطين ، وجعلوا منه اعتراضا واحتجاجا على المواقف المترددة ، ويمكننا ان نستخرج كثيرا من الاحداث التاريخية الواقعية الخاصة بالثورة فى فلسطين من دواوين هؤلاء الشعراء ... لقد قدموا دواوين شعر وكتب تاريخ فى نفس الوقت ، فدواوينهم ليست مجرد تعبير وجدانى عن النضال ، بل هى وثائق تاريخية لهذا النضال ، وهى احيانا تسجيل يومى لاحداثه المختلفة .

ومن ناحية ثالثة كان هؤلاء الشعراء يستخدمون الشكل التقليدى للقصيدة العربية فى التعبير عن مشاعرهم وتجاربهم ... فالتحدى الذى كان يواجه الشاعر العربى الفلسطينى من جانب الانجليز واليهود معا هو التهديد بالقضاء على شخصيته كعربى ، والقضاء على الشخصية العربية لفلسطين نفسها . ومن هنا فلقد كان من الطبيعى أن يتمسك الشاعر بتراثه وتقاليده

الثقافية والادبية العربيـــة ، وذلك كجزء من تمسكه بشخصيته الاصـيلة التى تواجه التحـــدى وتتعرض للعاصفة .

والواقع ان المعركة العربية فى فلسطين فى تلك الفترة لم تترك مجالا امام الشاعر العربى الفلسطينى لكى يفكر تفكيرا عميقا فى قضية التجديد ، فعندما تشتعل النيران فى أنحاء البيت لا يفكر أحد فى أحدث الاساليب لبناء العمارات...ان الاساليب والاشكال هنا تميل عادة الى التبسيط والسهولة والتأثير المباشر ، لأن الهدف هو انقاذ البيت من الحريق . ومن ناحية أخرى فان قضية التجديد الادبى فى ميدان الشعر العربى فى عام ١٩٣٦ لم تكن واضحة بما فيه الكفاية ، فلقـــد كان جيـــل المجددين من الشعراء من أمثال علي محمود طه وابراهيم ناجى وغيرهما ما زالوا فى البداية لم تتأكد خطواتهم فى طريق التجديد ولم تنضج بصورة كاملة ملامح حركتهم الفنية ما عدا بعض تجديدات قليـــلة مثل التنويع فى القافية وما الى ذلك ، بالاضـــافة الى ان موضوعاتهم الاساسية فى تلك المرحلة كانت موضـوعات غزلية أو فلسفية ولم يكونوا فى معركة وطنيـــة أو اجتماعية ، ولعل انصراف الشعراء المجددين فى مصر فى الثلاثينات عن الموضوعات الوطنية عموما والموضوعات العربية على وجه خاص ، كان اثرا من آثار العـــزلة الوجدانيـــة والسياسية فى مصر عما يجرى فى الوطن العربى فى تلك الايام ، فبينما كانت ثورة فلســطين تشتعل فى قراها ومدنها وسهولها وجبالها فى عام ١٩٣٦ ضـــد الانجليز واليهود ، كانت القيـــادات السياسية فى مصر تتوحد فى جبهة لمفاوضة الانجليز والانتهاء الى معاهدة ١٩٣٦

... أى ان الانجليز كانوا يتعاهدون ويتفقون فى مصر فى نفس اللحظة التى كانوا يطلقون فيها الرصاص على شعب عربى آخر هو شعب فلسطين ، ومن هنا فى ظنى كان الجو السياسى العام فى مصر ـ التى كانت مركزا لحركات التجديد الفنى ـ جوا هادئا نسبيا مما ابعد كثيرا من الشعراء المجددين عن الارتباط بالمعركة العربية فى تلك الايام . ومن هنا ضعف تأثيرهم التجديدى على شعراء فلسطين .

ولعل من الاسباب القوية التى جعلت الشكل التقليدى عند جيل عام ١٩٣٦ من شعراء فلسطين هو الشكل الاساسي لقصائدهم ما يتضمنه هذا الشكل نفسه من قدرة فنية على التأثير الجماهيرى الواسع ، فمن السهل حفظ هذا النوع من الشعر لما يتميز به من وحدة البيت والقافية ، ومن السهل ترديده فى المظاهرات والاحتفالات الجماهيرية ، ولقد كانت وظيفة الشعر الاولى بالنسبة لجماهير فلسطين هي وظيفة « خطابية » تهدف الى الاثارة العنيفة والتحريض ، والدعوة الى اتخاذ مواقف معينة ، وكذلك كانت القصيدة المؤثرة حقا هى القصيدة التى تشبه المنشور الثورى فى عنفها ووضوحها وارتفاع نبرتها ، وهى القصيدة التى تقترب من الشعارات والهتافات والخطابات ، كل ذلك طبعا دون أن تفقد جمالها الخاص وصدقها الوجدانى والا انتهت بفقدان التأثير على الناس أيضا . ولذلك كان شعراء هذه الفترة يلتزمون بالقصيدة العربية التقليدية ، ولذلك أيضا تقبلتهم الجماهير وتأثرت بهم اشد التأثر .

ويقول الاستاذ كامل السوافيرى فى كتابه « الشعر

العربي الحديث فى مأساة فلسطين » صفحة ٢٩٨ :
« لايوجد بين الفلسطينيين الذين تعلموا فى مدارس فلسطين بعد ثورة عام ١٩٣٦ من لا يحفظ لابراهيم طوقان قصيدتيه « الفدائى » و « الشهيد » ولعبد الرحيم محمود قصيدتيه « الشهيد » و « الشعب الباسل » ، ولأبى سلمى داليته التى ثار فيها على ملوك العرب » ...

حقا ... لقد كانت تلك القصائد منشورات ثورية عامة موجهة الى جميع المواطنين لا الى المثقفين والمشتغلين بالادب فقط ، ومن هنا فرضت تلك الوظيفة الاجتماعية الثورية للشعر شروطها الفنية على شعراء تلك المرحلة ، وهذه الشروط هى : التعبير المباشر الصريح ، والشكل التقليدى ذو القافية المتنوعة احيانا ولكن فى الاطار التقليدى ، والنزعة الخطابية الصريحة العالية التى تدعو الجماهير الى موقف محدد ... كل ذلك لانه شعر يولد وسط ضجيج المعركة ... شعر يولد فى المظاهرات والاصطدامات المسلحة ... بين أصوات الرصاص وأنهار الدماء .

واذا بحثنا عن الاسماء اللامعة من شعراء فلسطين فى جيل عام ١٩٣٦ وجدنا على راس القائمة ثلاثة اسماء هم : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وابو سلمى .

وابراهيم طوقان ولد فى فلسطين عام ١٩٠٥ بمدينة نابلس وما زالت عائلته تقيم فيها حتى اليوم ، ومن افراد هذه العائلة الشاعرة فدوى طوقان ، وهى شقيقة ابراهيم ، وقد تعلم ابراهيم فى الجامعة الامريكية ببيروت ثم عاد ليعمل مدرسا فى « نابلس » بمدرسة اسمها مدرسة النجاح . وفى هذه المدرسة كانت

الدروس الاساسية التي يلقيها على طلابه هي الوطنية والعروبة والنضال ، فلقد كان يربي الطلاب على الثورة وعلوم الثورة قبل أن يربيهم على العلوم العادية . وقد ترك ابراهيم التدريس بعد أن عمل به فترة قصيرة لا تزيد عن عام واحد ، ويمكننا من خلال ديوان ابراهيم طوقان ان نعرف الكثير عن وقائع النضال الفلسطيني في تلك الفترة ، كما نجد في هذا الديوان تسجيلا للمطالب الوطنية واثارة مباشرة للشعب كي يلتزم بهذه المطالب مثل : الدعوة الى عدم بيع الاراضي لليهود ، والدعوة الى وحدة الاحزاب السياسية وما الى ذلك من قضايا واقعية مباشرة .

ولنقرأ هذا النموذج من شعر ابراهيم طوقان عن الفدائي ، وكالعادة التي تتكرر كثيرا في شعر ابراهيم كتب الشاعر هذه القصيدة في حادثة معينة يسجلها في مقدمة القصيدة فيقول : « عينت الحكومة المنتدبة يهوديا بريطاني الجنسية لوظيفة النائب العام في فلسطين ، فامعن في النكاية والكيد للعرب بالقوانين التعسفية الجائرة التي كان « يطبخها » ، ولما ثقلت على العرب وطأته ، كمن له احد الشبان المتحمسين في مدخل دار الحكومة واطلق النار عليه فجرحه » ... أما القصيدة فيقول ابراهيم طوقان فيها ، وهي من أشهر القصائد بين أبناء فلسطين من جيل عام ١٩٣٦ وما بعده من الأجيال حتى اليوم :

هو بالباب واقف والردى منه خائف
فاهدئي يا عواصف خجلا من جراءته
صامت لو تكلما لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته خلق الحزم ابكما
وأخو الحزم لم تزل يده تسبق الفما

لا تلوموه قــد رأى   منهــج الحق مظلمــا
وبلادا أحبـــــــها   ركنها قد تهـــدما
وخصـــــوما ببغيهم   ضجت الارض والسما
مر حين فــكاد يقتــ   ــله اليـأس انمـا
هــو بالبـاب واقف   والردى منــه خائف
فاهــدئى يا عواصف   خجــلا من جــراءته

وفى قصيدة اخرى يقول ابراهيم طوقان متحدثا عن هؤلاء العرب الذين يبيعون الارض لليهود :

باعوا البـــــلاد الى أعدائهم طمعا
بالمــــال لــكنما أوطـــانهم باعوا
قد يعــذرون لو أن الجوع أرغمهم
والله ما عطشـــــوا يوما ولا جاعوا
وبلغة العار عنــد الجوع تلفظهــا
نفسى لها عن قبول العـــار رداع
تلك البلاد اذا قلت : اسمها « وطن »
لا يفهمون ، ودون الفهم اطمــاع
يا بائع الارض لم تحفل بعاقبـــة
ولا تعلمت ان الخصـــم خــداع
فــكر بموتك فى أرض نشأت بها
واترك لقبـــرك أرضـــا طولها باع

وفى هذه القصيدة يقول بيته المشهور :

أعداؤنا منــــذ أن كانوا صيـــارفة
ونحن منـــذ هبطنا الارض زراع

هذا هو شعر ابراهيم طوقان الذى يمثل « وجدان عام ١٩٣٦ » خير تمثيل فهو شعر نضالى عنيف صريح مباشر ، فيه صفاء مطلق فى الرؤية الوطنيـــة ، وفيه دعوة وتحريض ، وتسجيل للمشـــاعر والوقائع التى

امتلأت بها هذه الفترة الملتهبة من تاريخ فلسطين . وقد ظل ابراهيم طوقان يكتب شعره بهذا الاسلوب الواضح الصريح ، وظـــل ملتزما بموقفه الوطنى المنيف حتى مات فى السادسة والثلاثين من عمره عام ١٩٤١ حيث كان منذ صباه يعانى ازمة مرضية صاحبته طيلة حياته حتى قضت عليه فى زهرة العمر .

أما عبد الرحيم محمود فهو تلميذ من تلاميذ ابراهيم طوقان فى مدرســــــة النجاح بنابلس ، وقـــد تعلم عبد الرحيم الشعر والوطنية على يد أستاذه وعندما أتم تعليمه بالمدرسة أصبح مدرسا بها . وكان عبد الرحيم مناضلا حقيقيا : بمواقفه وقصائده معا ، وقد اشترك فى المعارك الشعبية المسلحة ضـــد الانجليز واليهود فى ثورة عام ١٩٣٦ ، ثم هرب الى العراق بعـــد اخماد الثورة عن طريق الارهـــاب والمنـــاورات الانجليـــزية والوســـاطات المتـكررة من بعض الحكام العرب ، وفى العراق اشترك عبد الرحيم محمود فى ثورة رشيد عالى الـكيلانى عام ١٩٤١ ، وعندما قامت الحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ اشترك الشاعر فيها ، محاربا وفارســــا ، واستشهد فى احدى المعارك بقرية الشجرة قريبـــا من مدينة الناصرة ، وكان سنه عند استشهاده خمســـة وثلاثين عاما .

وشعر عبد الرحيم محمود ، هذا المناضل والفارس والشهيد ، قريب الى حد بعيد فى خصائصه الفنية من شعر أستاذه ابراهيم طوقان وان كان يختلف عنه من الناحية الموضوعية فى أن الاحساس باللوعة والمرارة عند عبد الرحيم أعنف وأكثر عمقا ، ربما لانه عاش بعـــد موت ابراهيم طوقان ، فرأى فصولا جديدة من المأساة

حفرت فى نفسه هموما وأحزانا جديدة ، ولذلك فنحن نسمع ايقاع الحزن فى شعر عبد الرحيم محمود أكثر مما نسمعه فى شعر ابراهيم طوقان ، رغم انهما فى نهاية الامر من مدرسة فنية وفكرية ووطنية واحدة ...

يقول عبد الرحيم فى احدى قصائده مخاطبا أحـد الامراء العرب عند زيارته للقدس :

يا ذا الامير أمام عينك شـاعر
ضمت على الشكوى المريرة أضلعه

المسجد الاقصى : اجئت تزوره
أم جئت من قبل الضياع تودعه

وغدا ، وما أدناه ، لا يبقى سوى
دمع لنـا يهمى وسـن تقرعه

هذا صوت حزنه ، أما صـوت فروسيته ونضاله فيتردد فى كثير من القصائد الاخرى ... فهو يقول فى احدى قصـائده مشيرا الى استشهـاد « عز الدين القسام » ومخاطبا أبناء فلسطين :

واغصب حقوقك ، قط لا تستجدها
ان الالى سـلبوا الحقـوق لئام

هـذى طريقك للحيـاة فلا تحد
قد سـارها من قبلك القسـام

وله قصيـدة أخرى يعرفها كثير من أبناء فلسطين ويحفظونها مثلما يحفظون قصـيدة الفدائى لابراهيم طوقان ، تلك هى القصيدة التى يرثى بها أحد شـهداء فلسطين ويتحدث فيها عن نفسه :

سـأحمل روحى على راحتى
والقى بها فى مهـاوى الردى

فاما حيـــاة تسر الصـــديق
واما ممــــات يسوء العــدى
ونفس الشريف لهــا غايتــــان
ورود المنـــايا ونيـــل المنى
لعمرك اني أرى مصـــــرعى
ولــكن أغــــد اليه الخطى

أرى مقتــلى دون حقى السليب
ودون بــلادى هو المبتـــــغى
وجســـمى تجندل فوق الهضاب
تنــاوشــه جارحــات الفـــلا

فمنه نصـــيب لطـير الســماء
ومنه نصـــيب لاســد الثرى
كســـا دمه الارض بالارجوان
واثقـــل بالعطر ريح الصـــبا

وعفـــر منـــه بهى الجبـــين
ولــكن عفـــارا يزيد البهـــا

وهكذا نجد عبد الرحيم محمود فى شـــعره كما فى حياته نموذجا حيا لوجدان المقاومة العربية الذى تربى فى قلب ثورة عام ١٩٣٦ ولم يكن يفرق بين الفن والعمل، فكان شعره نضالا وحياته نضـــالا وقضيـــته الاولى والاخيرة هي تحرير فلسطين قبل أن تسقط فى قبضـــة المأساة ، ولقد أدى الشاعر الفارس النبيل رسالته حتى آخر قطرة من الدم ... فمات شهيدا لايرى طريقا غير الاستشهاد خلاصا من المحنة .

بقى من الشعراء الثلاثة الذين يمثلون وجـدان عام ١٩٣٦ ، أو وجدان المقاومة... الشاعر«أبوسلمى» أو عبد الـكريم الـكرمي ، وهو الشاعر الذى ما زال حتى

اليوم يواصل رسالته النضالية عن طريق الفن والعمل السياسي معا ، وذلك بعد أن بدأ شـابا فى ثورة عام ١٩٣٦ كما بدأ صـديقاه ورفيقاه : ابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود . وبقى إبو سلمى بعدهما حاملا لراية النضال حتى اليوم .

وابو سلمي لا يختلف من الناحية الفنية عن زميليه ابراهيـم طوقان وعبـد الرحيم محمود ، وان كانت تجاربه الفنية قد اتسعت واتيح له من العمر ما ساعده على أن يبلور شخصيته الفنية فى صورة أكثر وضوحا وتحديدا ، كما اننا نجد فى شـعره الي جانب خطـه الاساسي وهو خط النضال والمقـاومة خطوطا أخرى مثل : الحزن والتعبير عن صور المأساة بعد عام ١٩٤٨، وهذه مرحلة لم يشهدها ابراهيم طوقان ولا عبد الرحيم محمود ... لم يشـهدوا ضـياع الارض ولا جموع اللاجئين المشردين ولم يعاصروا تلك النفسيـة التى سيطرت على الوجدان الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ وهى النفسية المليئة باليأس والتشـاؤم والمرارة ، والتى استمرت مرحلة بأكملها وخلقت جيلا من الشعراء يعبر عنها ويختلف عن الجيل الاول : جيل المقاومة ، ويمكننا أن نسمى جيل ما بين عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٥٦ من شعراء فلسطين باسم « جيـل اليأس والهزيمة » أو جيل « الفردوس المفقود » .

لقد أصيب ابو سلمي بهـذه الاحزان وعبر عنها ، فكانت قصائده الحزينة مثل الزهور الدامعة المعلقـة على صدر شعره النضالى ، لأنه ما زال فى حقيقته ابن ثورة عام ١٩٣٦ التى كانت نضـالا ومقاومة واصرارا على النصر ولو بالاستشهاد .

على أن شعر « أبو سلمى » يختلف قليلا عن شعر زميليه ، لا فى شكله الفني ولا فى موضوعه الاساسي وهو المقاومة والنضال ، ولكنه يختلف فى طريقة الاداء ، فهو يعتمد أكثر من زميليه على الطابع العقلى ، فبينما كان ابراهيم طوقان يمثل عاطفة شعرية عنيفة ، نجد « أبو سلمى » يمثل عاطفة أهدأ وتفكيرا أكثر... وهذا ما يفسر لنا اهتمامه بالتفاصيل الكثيرة ، وبحثه المتصل عن زوايا متعددة للموضوع الذى يعالجه وبعبارة أخرى فنحن نجد عند « أبو سلمى » اهتماما عقليا وعناية فكرية بالقصيدة كعمل فنى من ناحية مادتها وشكلها وصورها الشعرية ، وهو أمر لم يكن يهتم به ابراهيم طوقان أو عبد الرحيم محمود اهتماما كبيرا ، فالقصيدة عندهما كانت فطرة تتفجر وعاطفة هادرة ومنشورا ثوريا ... كل ذلك بالطبع دون أن نفتقد فى « أبو سلمى » العاطفة الوطنية الدافئة الصادقة التى تربطه تماما بأبناء جيل عام ١٩٣٦ من الشعراء والمناضلين .

فى قصيدة كتبها « أبو سلمى » عن ثوار جبل نابلس عام ١٩٣٦ ، وهو الجبل الذى يسمى باسم « جبل النار » ... يقول أبو سلمى فى هذه القصيدة :

جبل النار يا أعز الجبال
انت لا زلت معقد الآمال
تنبت المجد فوق صفحك فينان
وتسقيه من دم الابطال
يفصح الصخر عن شمائل أبنائك
فوق اللظى وعند النزال

ما ذكرنا حمـــــاك الا انتشـــينا
وانتشت نخـــوة رؤوس الرجـــال

هذا هو جيل المقاومة الذى تربى فى نيران ثورة عام ١٩٣٦ ، والذى كان شعره غذاء لهذه الثورة ... يلهبها ويطعم وجدانها بقصائده النبيلة الصادقة ، ويتحمل فى سبيل موقفه النضالي كل الصعوبات فلقد أصيب هؤلاء الشعراء جميعا بألوان مختلفة من الاضطهاد ، واستشهد أحدهم وهو عبد الرحيم محمود فى المعركة ، ولـكنهم لم يترددوا لحظة فى مواصلة نضالهم والتعبـير عن عدالة قضيتهم وتحريض الشعب على العمل الثورى .

وهذا الجيل من شـعراء ثورة ١٩٣٦ هو التراث الفنى والنضالى الذى تجدد ـ شـعرا وكفــاحا ـ فى محمـود درويش وفى جيله من شعراء المقاومة فى الارض المحتلة

ثم جاءت مأساة عام ١٩٤٨ ، وقامت دولة اسرائيل على أشلاء المواطنين العرب ... ومرت أعوام ظهر فيها شعراء فلسطينيون يائسون متشائمون ... انهم شعراء الهزيمة أو الشعراء المهزومون

المهزومون

كانت سنة ١٩٤٨ تاريخا حاسما بالنسبة للوجدان العربى عموما ، وبالنسبة للوجدان الفلسطينى على وجه الخصوص ، ففى هذا العام أقيمت دولة اسرائيل ، وانهزمت الجيوش العربية هزيمة سريعة ، ونجحت المؤامرة الصهيونية العالمية فى اقامة الدولة الاسرائيلية على أشلاء الشعب العربى الفلسطينى ، وبدأت مرحلة واسعة من مراحل النفى والتشريد والابادة بالنسبة لعرب فلسطين ، فخرجوا من ديارهم ليعيش بعضهم لاجئين فى الخيام ، وخرج بعضهم الى البلاد العربية المجاورة يلتمس مأوى وعملا وظلا قليلا يخفى فيه حزنه ولوعته ومأساته وسالت دماء الآلاف منهم على التراب الفلسطينى وبقى البعض من أبناء فلسطين فى غزة أو فى مدن الضفة الغربية ينظر أمامه ليجد العدو يحتل وطنه ، وليجد أن مجموعة من الاسلاك الشائكة تفصل بين الفلسطينى وبين أخيه الخاضع لاحتلال اسرائيل ، وليجد أن الراية الاسرائيلية ذات النجمة السداسية ترفرف على المدن والقرى التى كانت فى يوم غير بعيد مدنا عربية أصيلة . وانقسمت مدينة القدس الى مدينتين ... مدينة يحتلها اليهود ومدينة أخرى للعرب ... وأصبح العربى يطل على الجزء المسروق من مدينته وفى قلبه لوعة لا توصف .

لقد كانت سنة ١٩٤٨ كارثة كاملة بالنسبة للوجدان العربى ، وكانت هزيمة واضحة للانسان العربى وسحقا لكل المشاعر الثورية التى كانت تملأ قلبه .

وبالنسبة للفلسطينيين بالذات ، فان الموجة الثورية العنيفة التى انطلقت سنة ١٩٣٦ وانجبت شعراء الثورة من أمثال : ابراهيم طوقان وابو سلمى وعبد الرحيم محمود كما أنجبت زعماء وشهداء من امثال : عز الدين القسام

... هذه الموجة الثورية قد وصلت الى آخر مداها فى سنة ١٩٤٨ ، واصابها انحسار شديد ، وتحولت من موجة ثائرة فى السياسة والشعر والعمل اليومى الى موجة يائسة ... وفى سنة ١٩٤٨ بالذات مات الشاعر عبد الرحيم محمود شهيدا فى احدى المعارك وانطوى

الشاعر ابو سلمى على نفسه حزينا يلعق جراحه ... وبذلك خمدت ثورة ١٩٣٦ نهائيا وانطفأت شعلتها العنيفة . واستمد اليأس بين الفلسطينيين قوة أخرى جاءته من ذلك الشعور القاتم الحزين الذى ساد الوطن العربى كله بعد الكارثة .

وفى هذا العام بدأت فترة الحزن والأسى فى الشعر العربى الفلسطينى ... فشعراء ما بعد عام ١٩٤٨ هم الشعراء « المهزومون » الذين يعبرون عن اليأس والمرارة والدموع والفردوس المفقود ، والذين فقدوا ديارهم وأرضهم ولم يجدوا بدلا منها أملا فى المستقبل أو نورا يضىء أمامهم ذلك الظلام الشامل .

وأى مراجعة لشعر هذه المرحلة سوف تكشف بوضوح ان اللغة الاصيلة فى هذا الشعر هى لغة اليأس ولغة الحزن ، وان الاصوات القليلة التى ارتفعت بالشعر الخطابى الرنان لم يكن لهـا تاثير كبير ، وانها

كانت خالية من الاصالة الفنية ... لأن اللغة الصحيحة الصادقة فى تلك المرحلة كانت لغة اليـــأس والهزيمة . واجمل نماذج الشعر الفلسطينى وأصـــدقها فى مرحلة ما بعد عام ١٩٤٨ هى هـــذه النماذج اليائسة الحزينة التى قد تنتفض احيانا بالامل ولـكنه امل خافت غامض لا يعرف طريقه الى المستقبل .

ولنقف امام بعض النماذج الممتازة من شعر هـــذه المرحلة ... وسنجد انفسنا بوضـــوح أمام روح الاسى والياس والهزيمة .

فى قصـــيدة للشاعر الفلسطينى يوسف الخطيب ، وهو من أصدق واعذب أصوات المـأساة الفلسطينية ، نستمع اليه وهو يتحدث الى « قبرة » ، او بالاحرى يتحدث عنها ، وكيف ان هذه « القبرة » تملك الحرية فى رؤية الوطن والاستقرار على ترابه والتنقل بلا خـوف بين أشجاره وأعشابه وأزهاره ... بينما لا يستطيـــع هو ، الفلسطينى صاحب الارض ، أن يرى بلاده ، وكل ما يملـكه هو الحزن والدموع... يقول يوسف الخطيب :

تلك يا صاح قبرة ..
فى الحدود ..
خرقت الف حرمة ..
للعهود ..
فهى تغدو طليقة ..
وتروح ..
وأنا مثخن هنا ..
بالجروح ..
ليتنى كنت قبرة ..
فاطير ..

وجناحى مصفق ..
فى الاثير ..
فوق بيارة لنا ..
وغدير ..
ليتنى كنت قبرة ..

ان فى هذه القصيدة التى كتبها يوسف الخطيب يأسا ومرارة واضحة ، فالشاعر لا يملك أملا فى العودة الى داره كانسان ، فلا بد له من « التحول » و «الحلول» فى جسد طائر طليق حتى يستطيع أن يعود ... وهذه الصورة التى يرسمها لنا الشاعر لتعبر عن تجربته النفسية تكشف لنا عن الفارق الكبير بين الانسان الفلسطينى سنة ١٩٣٦ والانسان الفلسطينى سنة ١٩٤٨ وما بعدها ... فالانسان الفلسطينى سنة ١٩٣٦ كان جزءا من شعب ، وكان هذا الشعب يعيش فى ثورة ، والثورة تجعل الفرد جزءا من جماعة كبيرة يشترك معها فى الفكر والشعور والامل والالم . أما انسان عام ١٩٤٨ وما بعدهذا العام فهو انسان وحيد، منعزل، فرد ،لايرتبط بغيره ، لأن الشعب الفلسطينى تمزق ، وتناثر كأوراق الوردة التى داستها قدم قوية ، وعبثت بها رياح عاصفة ... فلا هو جزء من شعب ... فالشعب مبعثر متفرق ، ولا هو جزء من ثورة تجمع الافراد فى وحدة قاسية شاملة .. انه الآن انسان وحيد ، على رصيف الحياة ، لا رفيق له ولا سند الا الخيال والتأمل ، والحلول الرومانسية المختلفة لهمه ومأساته .

وبهذه الروح الفردية المتوحدة المنعزلة ، التى لا تجد عزاء لها الا فى الوهم والخيال يكرر الشاعر يوسف الخطيب صورة الطائر الذى يملك حرية العودة الى

الارض ... وهى حـــرية عزيزة لا يملـكها الانســـان الفلسطيني الوحيد الضائع ، وهذه الصورة نلتقى بها فى قصيدة أخرى رائعة هى قصيدة العندليب المهـــاجر ليوسف الخطيب نفسه حيث يقول :

اتراك مثـلى يا رفيـــق تمر فى الزمن
عبر المهالك ، والليـالى الســود ، والمحن
لا صاحب يرخى عليـــك غـلالة الـكفن
تذرو بقيـة عمرك الصادى بلا ثمن
لـكأن فى عينيك بعض اللمح من وطنى

***

لو عشـــبة بيـد ، ومزقة سوسن بيـد
خبـاتها بين الجناح وخفقـة الـكبد
لو رملتان من المثلث أو ربى صفد
لو عشبة بيـــد ، ومزقة ســوسن بيد
أين الهدايا مذ برحت مرابع الرغد
ام جئت مثلى بالحنين وســـورة الكمد ؟!

هــذا هو الشـعور اليائس الحزين ، المليء بالقلق والحيرة ، والذى يعبر عنه الشاعر المهزوم الذى ولده عام ١٩٤٨ ... فكان ابنــا للهزيمة ، ولم يكن ابنــا للثورة ... وأبناء الهزيمة لغتهم هى اليأس والشـعور بالوحدة والعزلة ، أما أبناء الثورة فلهم لغة أخرى هي لغة الانتماء والمقاومة والاحساس بأنهم جزء من جماعة كبيرة واحدة .

ومن شـعراء الهزيمة ، بل ومن المع شعراء هـذه المرحلة فدوى طوقان ، فشـعرها فى معظمه تعبير عن الهزيمة واليأس والمرارة والحزن ، ولا شك ان فى حياة فدوى الخاصة ما يبرر حزنها مثل فجيعتها فى شقيقها

واستاذها ابراهيم طوقان ، الذى مات سـنة ١٩٤١ ، وهى فتاة صغيرة متعلقة به أشد التعلق ... ولـكن لو كانت المأساة الخاصة قد وقعت لفـدوى طوقان وهى تنتمى الى شعب سـعيد مطمئن ، أو الى مجتمع لم يتعرض لمأساة كبيرة ، بحجم المأساة التى تعرض لها شعب فلسطين ، لو كانت فدوى تعاني من مأساة خاصة فقط فلا شك انها كانت ستجد العزاء بمرور الزمن ، وستجد ما يخفف عنها تلك المحنة الذاتية ... ولكن المأسـاة الخاصة ازدادت حدتها مع المأساة العامة التى تعرض لها شعب فلسطين . ومن هنا كان شعر فدوى دموعا ومرارة وحزنا شاملا عميقا ، حتى لقد كان اسم ديوانها الاول يحمـل لمسة من لمسات حزنها الكبير ويأسها الغامر فقد أسـمت هذا الديوان « وحدى مع الايام » ، وهذا الاسم هو تعبير صادق عن شعور الفلسطينى بعد عام ١٩٤٨ ، فلقد أصبح جزءا منعزلا عن الـكل ، بعد أن كان جزءا متصلا أشد الاتصال بالشعب كله ، عندما كان هذا الشعب يواجه عدوه بالثورة العنيفة خلال أعوام ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ .

وفى قصيدة من قصائد « وحدى مع الايام » تصـور لنا فدوى طوقان هذه الروح المهزومة اليائسة فتقول :

حيـاتى ، حياتى أسى كلهـا
اذا ما تلاشى غـدا ظلهـا
سيبقى على الارض منه صدى
يردد صـوتى هنا منشـدا :
حياتى دموع
وقلب ولوع
وشوق وديوان شعر وعود
وهذا شبابى

امان كوابى

شباب سقاه الاسى ورواه
اذا ما دعته اليها الحياة
واشواقها ، شده الف غل
وطوقه الف طوق مذل
شباب عذاب
رهين اغتراب
يضيع شذاه بأسر القيود

قد يتصور البعض ان قصيدة فدوى انما تعبر عن محنة ذاتية خاصة بها وحدها ، ولكن الحقيقة ان تعبير فدوى عن مأساتها انما يصور أيضا شعور الانسان الفلسطيني بعد سنة ١٩٤٨ كما ينعكس على نفس فتاة شاعرة حساسة مثل فدوى تنظر الى الدنيا فترى حياتها الخاصة مظلمة وترى الحياة العامة فى وطنها أكثر اظلاما وعتمة ، وترى اليأس ينشر سلطانه على عيون أبناء وطنها وقلوبهم ، سواء كانوا فتيانا أو فتيات أو اطفالا او شيوخا ، سواء كانوا شعراء أو كانوا عمالا أو فلاحين أو عاطلين أو ساكني خيام يعيشون على معونة الامم المتحدة ، بينما يعيش اليهود فى بيوت العرب ويأكلون من ثمار أرضهم

هذه الروح اليائسة ، روح الهزيمة ، تملأ كل الشعر الذى ظهر بعد عام ١٩٤٨ ، حتى الشاعر الكبير أبو سلمى ، ابن ثورة عام ١٩٣٦ ، قد امتد اليأس الى قلبه ، وسيطرت عليه روح الهزيمة ، ونحن لا نجد هذه الروح المهزومة فى شعره الوطنى فقط ولكننا نجدها أيضا حتى فى شعره العاطفى ، فهذا الشاعر الحساس المحب للحياة ، قد أصيبت نفسه بجراح قاتلة ، جعلته

لا يجد متعة فى أى مظهر من مظاهر الجمـــال ، ولعل روحه قد أصابها ما أصاب المتنبى حين قال وقد تجمدت ينابيع الحياة فى قلبه :

أصـــخرة أنا ؟ ما لى لا تحركنى
هذى المـدام ، ولا هـذى الاغاريد

وبهذا الشعور المنصرف عن الحيـــاة ، الذى لا يحس بالمتعة ولا يتأثر بالجمال ولا يتـذوق طعما لأى شىء ، يتحدث أبو سلمى فى قصيدة له فيقول :

أين الشـذا والحلـم المزهـــر

اهكذا حبـــك يا أســمر ؟ . .
اهكذا تذوى أزاهـــــيرنا ؟ . .

وكان منهـــا المسك والعنبر . .
الشـــفة الحلوة ما بالهـــا ؟ . .
تحمـــل لى الخمر ولا أســكر ؟
والعين لا تبسم عنـــد اللقا . .
الســـحر فى العين ولا تسحر !

الشاعر هنـــا يعبر عن روح حزينة يائســـة فقــدت الحياة معناها فى وجدانه ... وأصبحت خالية من كل ايحاء جميل . وتلك هى روح الهزيمة التى مست بيدها كل شىء ، واخرست كل أناشيد الفرح والامل فى قلوب الشعراء .

وسوف نجد هذه الروح سائدة فى كل شعر هـــذه الفترة ... سوف نجدها عند سلمى الخضراء ، وهى شاعرة فلسطينية أصيلة ذات موهبة خصبة حقـــا ، انها تعبر بطريقتها الخاصة عن روح الهزيمة والياس :

شجر الزيتون لم يثمر لنا زيتا ونارا
واســـــتحال اللون فى أوراقـــــــه

ونسيم الصبح لم يحمل لنا شـوقا مثارا
عانق الاغـراب في أشـــواقه

ونقرأ لشاعر آخر من أبناء جيل عام ١٩٤٨ ، هـو هارون هاشم رشيد تعبيراً مباشرا حزينا مليئـا بالدمع والتساؤل والارتباط بمأساة بلاده :

يمر العـام اثر العـام يا أبتي ... بلا جـدوى
فلا أمـل ولا بشرى ، ولا نجوى ولا سـلوى
سـوى الآلام والشجن ، سـوى الاحزان والمحن
سـوى صوت من الاقدار ، يهتف دائما : وطني
لمـاذا .. نحن يا أبتى ، لماذا ... نحن أغراب ؟

كل ما صدر عن الشاعر الفلسطيني بعـد عام ١٩٤٨ هو صـدى للجرح ، وتعبـير عن المـأساة ، وتصـوير للتشتت الذى أصـاب الفلسـطينيين ... ولقد كان هناك بين الحين والحين أصوات تحاول أن تتمرد ولكن صوت اليأس كان يخنق صوت التمرد ويرتفع فوقه...

ذلك لأن جيلَ عام ١٩٤٨ ... كان جيـلَ الهزيمة وجيل المهزومين

الشاعر الجديد

ظل صوت الياس بالنسبة للشاعر العربى الفلسطينى هو اعلى الاصوات جميعا بعد عام ١٩٤٨ ولعدة أعوام تالية ... وكان هذا الصوت اليائس تعبيرا عن الضياع والتشتت الذى أصاب فلسطين وشعبها ، فلقد كان الفلسطينيون بعد عام ١٩٤٨ مشردين يبحثون عن ماوى أو لاجئين فى الخيام يعيشون على المعونات والصدقات أو أفرادا متفرقين يعيشون على هامش مجتمعات عربية أو أجنبية أخرى ... وكان الوطن العربى كله يمر فى حالة من الياس الشامل والحزن العميق ، ولذلك لم يجد الشاعر الفلسطينى مصدرا يلهمه بالقوة والامل ويمنحه شعورا بالتفاؤل ، ولو كان هذا التفاؤل محدودا وقليلا... لم يكن هناك مصدر للضوء أو منبع من منابع الامل . كان هناك بعض المظاهرات أو الانفجارات العنيفة بين الحين والحين تجرى على سطح الحياة العربية ... ولكنها كانت نوعا من البرق الخاطف ... سرعان ما ينطفىء بعد أن يشتعل بقليل .

ولكن هذه الموجة اليائسة التى غطت على الوطن العربى باكمله بدات تتغير شيئا فشيئا ، وببطء ، وكانت نقطة البداية ولا شك هى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . فلقد كانت هذه الثورة أول احتجاج ناجح على الاوضاع

الفاسدة فى الوطن العربى والتى كان من الواضح انها سبب رئيسي من أسباب المأساة الفلسطينية . ولقد كشفت قصة الاسلحة الفاسدة فى الجيش المصرى على سبيل المثال ان الضباط والجنود المصريين الذين كانوا يحاربون فى فلسطين عام ١٩٤٨ ... هؤلاء المقاتلون كان ظهرهم عاريا تماما ... فالعدو أمامهم والخيانة وراءهم فى نفس الوقت . فهم يحاربون اليهود وجها لوجه ، ولكن كانت وراءهم مجموعة من التجار والاستغلاليين والسياسيين والحكام الذين لا يعنيهم من الامر شيء على الاطلاق سوى مصالحهم التجارية وزيادة ثروتهم حتى ولو كان ذلك على حساب ارواح الجنود والضباط المصريين ... حتى ولو كان ذلك على حساب الشعب الفلسطيني الذى ضاعت ارضه وتمزق أفراده وتشتتوا فى كل مكان .

ولذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو بداية الرد على هذه الظروف الفاسدة التى كانت من أهم عوامل المأساة .
وكانت ثورة ٢٣ يوليو بداية لانتعاش الامل فى نفس الشاعر الفلسطينى ، وبداية لميلاد شعور جديد عنده يخلصه من الاحساس بالانسحاق والهزيمة نتيجة لما حدث فى عام ١٩٤٨ . على أن هذا الشعور الجديد لم يتبلور بصورة واضحة الا بعد عدوان عام ١٩٥٦ . ففى هذا العدوان كانت هناك مواجهة صريحة بين العرب والاسرائيليين ، ولم يستسلم العرب أمام المؤامرة الصهيونية التى تمت بمساعدة الجيوش الانجليزية والفرنسية ، بل صمدوا وقاوموا مقاومة شعبية واضحة فى بور سعيد ، وقاوموا مقاومة سياسية كبيرة واسعة النطاق

... وانتهى الامر بانسحاب الجيوش الغازية من الارض العربية ..

وكان الاثر الاكبر لهذه التجربة ان الامل ولد من جديد فى نفس الشاعر العربى ... والشاعر الفلسطينى على وجه الخصوص .

اذن ... فالمواجهة ممكنة ، والتمرد على الاحتلال الاسرائيلى ممكن .. والامل فى التخلص من المأساة ممكن

وبدأ الشاعر الفلسطيني يخرج من خيمة المهزومين ... ولكن على مهل ... وخطوة بعد خطوة . وساعد على ذلك قيام الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، حيث اعطت الوحدة أملا كبيرا فى أن يحقق العرب اهدافهم ، ويستردوا حقوقهم ... ولتبدأ رحلتهم من جديد نحو استعادة ارضهم الضائعة .

وفى عام ١٩٥٦ بالذات وقعت فى الارض المحتلة مذبحة « كفر قاسم » ، التى اشرنا اليها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، وكانت هذه المذبحة صدمة عنيفة لعرب فلسطين المحتلة ، وقد أيقظتهم هذه الصدمة وقدمت لهم صورة واضحة لنوع الحياة التى تنتظرهم فى « أسرائيل » ، وأثبتت لهم ان الاسرائيليين لن يتركوهم فى أمان ، حتى لو استسلموا هم للمأساة وقبلوا الامر الواقع ، وأثبتت لهم هذه المجزرة أيضا أن عرب الارض المحتلة لم يعد أمامهم سوى الكفاح والنضال للخلاص من الوضع الذى يعانون منه ، خاصة ان الامة العربية التى ينتسبون اليها قد بدأت تستيقظ ، وكان الانتصار على العدوان الثلاثى أكبر علامة من علامات الامل الجديد الذى بدأ يولد فى النفس العربية اليائسة المهزومة الحزينة .

ثم جاءت وحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا فأكدت هذا الامل وغذته بالمزيد من الحرارة والقوة

واذا بحثنا فى الشعر الفلسطينى عن المظاهر الجديدة لاسترداد النفس ، وعودة الامل ، والخلاص من روح الهزيمة ... فاننا نجد اول مظهر حقيقى لهذه الروح الجديدة فى الشعر الفلسطينى انما تاتينـــا من داخل الارض المحتلة نفسها ، لقد بدأ الشاعر الفلسطينى طريق التمرد ... وكانت البداية من فوق التراب الفلسـطينى الذى يحتله العدو ... أى من تلك المنطقة التى تصـــور الاسرائيليون أنهم لن يسمعوا صوتها أبدا بعد عام ١٩٤٨

ففى قصيدة للشـــاعر حبيب قهـــوجى من قرية « فسوطة » فى الارض المحتـــلة كتبها الشـــاعر خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، يقول الشاعر :

تفجر من صـــميمى يا قصيـــدى
جرىء اللحن تسخر بالقيـــــود
وأرســـلها مجلجـــــلة تـــدوى
الى أرض القنـــال وبور ســـعيد
الى الابطـــال قـــد طاروا خفافا
لصـــد الغزو كالقـــدر المبيـــد

. . . .

قبعت بقـــرب مـــذياعى شرودا
وروحى عنـــدكم رغم الســـدود
تحـــرق مهجتى وتـــذيب نفسى
معـــانقـــة المعـــارك من بعيـــد

وفى قصيـــدة أخرى من الارض المحتلة للشاعر حنا أبوحنا عن بور سعيد أيضا ، كتبها الشـــاعر فى نفس الفترة ، أى أثناء العدوان الثـــلاثى عام ١٩٥٦ ، يقول الشاعر :

بور سعيد الصمود ميناء عز
بك أرست احلامنا المسولة
وعلى صخرة الخليج على شطيك
تفنى كل الجيوش الدخيلة
هتف المجد بالرجال فهبوا
... اى حر يطيق الحياة الذليلة !

وقد وردت هاتان القصيدتان فى كتاب الاستاذ غسان كنفانى « أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة » ... والذى يهمنا فى هاتين القصيدتين قبل أى اعتبار فني آخر هو روح الامل والتفاؤل بالمستقبل ، والتى بدأ الشاعر الفلسطينى يسترد من خلالها انفاسه ويرفع رأسه ، بعد أن كان مكسور الجناح لا يجد أمامه غير الهزيمة بمشاعرها السوداء القاتمة .. كل ذلك رغم ما نجده فى القصيدتين السابقتين من تعبير مباشر وصوت خطابى صارخ ، ورغم ذلك كله فالامل ينبض فى حروف القصيدتين ويملأ قلب الشاعرين

ان الشاعر الفلسطينى منذ عام ١٩٥٦ وبعد الانتصار على العدوان يتغير ويتفتح وينظر الى مصيره نظرة جديدة

بل نستطيع أن نقول : ان شاعرا جديدا قد ولد على أرض المأساة الفلسطينية ..وهو شاعر لا يحس انه وحيد منعزل مشتت منفى ، ولا يحس بأن اليأس هو غذاؤه الوحيد ، وان الحزن والكآبة هما « المادة الشعرية » الوحيدة أمامه .. شاعر ينتمى الى قوة شعبية وأمة بدأت تستيقظ وتطالب بحقوقها ، لا شاعر يحس انه لم يعد يملك الا ذكريات قديمة مبعثرة ودارا ضاعت منه وأرضا اغتصبها اليهود ولم يعد له فيها شيء ... ذلك كان صوت الهزيمة ، صوت الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٤٨ ... أما الآن فهناك صوت جديد ، صوت

الشاعر الذى ولد بعد عام ١٩٥٦ . وهو يولد هـذه المرة من قلب الجرح الكبير . من قلب فلسطين المحتلة

ويزداد الشاعر الفلسطينى الجديد قوة وأصالة وذلك بعد وحدة مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ... وفى قصيدة كتبها الشاعر توفيق زياد من الارض المحتلة أيضا ، وكتبها عام ١٩٥٨ بالتحديد ... يقول توفيق زياد فى هـذه القصيدة التي كتبها من السجن وعنوانها من وراءالقضبان:

ان يحبسونا ... انهم
لن يحبسوا نار الكفاح
لن يحبسوا عزم الشباب الحر
يعصف كالرياح
لن يحبسوا أغنية
تعلو على هذى البطاح
شرقية ، عربية الالحان ،
حمراء الجناح
طلعت على الارض الخصيبة
مثل آلهة الصباح

. . . .

يا طغمة الحكام زيدى
هل لاضطهادك من مزيد
القى القيود على القيود
سوداء باردة الحديد

سيعود شعبى فى ضياء الشمس
من خلف الحدود
سيعود للطلل المهدم
يبتنيه من جديد
سيعود للأرض الحبيبة

للزنابق للورود
ســـــيعود
رغم النار ، والاغلال
خفاق البنود

هذه الروح الثائرة المتمردة المليئة بالامل والتفاؤل هي روح الشاعر الفلسطيني الجديد ... وهـــذه الروح لم تخمد أبدا منذ أن استيقظت حتى اليوم ، رغم أنها تعرضت لازمات وصدمات متعددة ، مثل انفصـــال سبتمبر عـــام ١٩٦١ بين مصر وسوريا ، ومثل نكسة يونيو عام ١٩٦٧ ان الروح التي ولدت عام ١٩٥٦ ، لم تمت ولم تستسلم واستفادت قوة جديدة من كل التجارب القاسية التي مرت بها

ومحمود درويش هو ابن هـــذه المرحلة الجديدة في الشعر الفلسطيني ، مرحلة الامل والتفـــاؤل والتمرد والثورة ... بل أن محمود درويش هو واحد من أجمل وأصدق الاصوات الفنيـــة المعبرة عن هـــذه المرحلة الجديدة في الشعر العربي الفلسطيني ... انه خلاصة نقية أصيلة لهذه المرحلة الجديدة ، مرحلة التفاؤل الثوري، رغم أن صوته الشعري لم يرتفع الا بعد عام ١٩٦١ ...

ومنذ أن ارتفع صوت محمود درويش وهو يحلق في عالم الامل والتفاؤل الثوري ، ولا يتردى آبـــدا الى قاع اليأس القاتم أو الهزيمة الساحقة ...

ذلك لأنه يرى بقلبه الكبير حقيقة المـــأساة ، ويرى أن الظلم الذي وقع على العربي الفلسطيني لا بد أن يزول ، وان منطق التاريخ يؤكد ذلك ، وانه مهما كانت الظروف القاســـية التي يمر بها الانســـان العربي في فلسطين المحتلة فان عودة الارض الى أصحابها هو حلم ليس ببعيد ... بل هو حلم ســـوف يجسده الواقع

فى صورة مادية حقيقية فى يوم من الايام

لقد مرت على الشاعر العربى خارج الارض المحتلة فترات من اليأس والتشاؤم صبغت شعره بلون قاتم، خاصة بعد ١٩٤٨ كما أشرنا فى الفصل السابق ، رغم أن الشاعر العربى خارج الارض المحتلة لم يتعرض أبداً الى كل ما تعرض له العرب داخل أسوار اسرائيل • فمن أين جاء الامل ومن أين جاء التفاؤل الى شعراء الارض المحتلة ؟ ••

لا شك أن أقوى سبب وراء ذلك التفاؤل العظيم هو القانون الذى سماه المؤرخ الانجليزى والفيلسوف الكبير توينبى باسم قانون « التحدى والاستجابة » •• فعندما يتعرض الانسان لازمة عنيفة تهدد وجوده كله تكون هذه الأزمة هى التحدى الذى يحتاج الى استجابة معينة ••• فعندما يكون الانسان قادرا على البقاء ، قادرا على مواجهة التحدى ، قادرا على أن يحاول بأفضل ما لديه من قوى وعناصر على أن يقف على قدميه رغم الظروف السيئة العاصفة التى تحيط به •• عندما يستطيع الانسان أن يفعل ذلك فانه يواجه التحدى وينتصر عليه • وعندما يعجز عن مواجهة هذا التحدى فانه ينتهى ويتلاشى •

والانسان العربى فى الارض المحتلة يتعرض لمحنة خطيرة ليس بعدها محنة ••• وهى محنة تهدده بالقضاء على أرضه وحياته ••• تهدده باقتلاع كل جذوره ، بل لقد تم اقتلاع جذور عدد كبير من المواطنين العرب قبل ذلك من أراضيهم فى فلسطين •• وبقى هؤلاء الذين يبلغون ربع مليون عربى أو يزيدون قليلا داخل أسوار اسرائيل ينتظرون مصيرهم •

من هنا لم يعد أمامهم الا الكفاح المستميت من أجل قضيتهم ، لم يعد أمامهم فرصة للتردد أو التخاذل ، فمصيرهم فى مهب العواصف ، ولذلك فهم يبذلون أقصى

ما لديهم من جهد مادى ومعنوى في سبيل هذه القضية . وخاصة بعد ان انتهت صدمة ١٩٤٨ بانتصار العرب على العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ .

ولذلك أيضا جاء هذا الجيل الجديد من شعراء الارض المحتلة ، وقد امتزجت فى نفسه مرارة التجربة وقسوة الضغط والارهاب ، وعمق الاحساس بظلم العدو ، امتزج هذا كله بعدالة قضية الانسان العربى .. كل هذا ساعد في تكوين نفسية خاصة للشاعر العربى الجديد فى الارض المحتلة والذى نسميه باسم « شاعر المقاومة »

لنأخذ مثلا شاعرنا محمود درويش ... اقد هدم اليهود قريته « البروة » ، ... أما هو فقد دخل السجن أكثر من مرة وفقد عمله أكثر من مرة ، وهو يعيش — رغم كل مواهبه — حياة مليئة بالمتاعب المادية والتمزق المعنوى .. وسميح القاسم شاعر آخر من هؤلاء الشعراء الممتازين ... لقد طردوه من عمله وسجنوه وصادروا شعره . وتوفيق زياد ... انه هو الآخر شاعر مطارد مضطهد هو وأهله من العرب فى كل مكان من الارض المحتلة . فماذا بقى لهؤلاء غير الثورة وغير الاصرار وغير التمرد . والثائر لا يمكن أن يكون متشائما . لان التشاؤم يشل قدرة الانسان على الحركة والعمل . انه يجعل الانسان فى حالة سقوط معنوى كامل . أما الثائر الحقيقى ، فلابد أن يكون متفائلا ، فالتفاؤل وحده هو الذى يمكن أن يمنح الانسان قدرة على العمل والتمرد واحتمال الاضطهاد الكبير الذى يتعرض له .. ولا يوجد فى التاريخ كله ثائر غير متفائل، فالثورة فى جوهرها ايمان بامكانية تحقيق العدل فى هذا العالم ، وايمان بأن العمل والكفاح والمحاولة كلها أشياء مجدية .. وأن النصر فى النهاية ممكن . وكلنا يذكر ذلك الثائر الصينى الذى كان يقول «هذا مجرد فشلنا الاول ..

هذا مجرد فشلنا الثالث ٠٠ هذا مجرد فشلنا العاشر »٠٠
لقد كان متفائلا لا يعرف اليأس ، وهكذا دائما شأن الثوار، فالثوار يحملون فكرة مؤمنة بضرورة تغيير الواقع ، ولا بد لهم من أن يؤمنوا بامكانية تغيير هذا الواقع ٠ وعندما وقعت أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧ لم يتزعزع ايمان « شاعر المقاومة » في الارض المحتلة ٠٠٠ لقد هزتنا هذه الاحداث جميعا ، وأثرت فى نفوسنا تأثيرا كبيرا وكشفت لنا عن لحظات سوداء قاتمة مليئة باليأس ، ولكن أبناء الارض المحتلة تلقوا الصدمة بقوة أكثر منا ، لقد عرفوا من قبل صدمات مثلها وأكثر منها ٠٠٠ لقد تعودوا على هذه الصدمات ، ولذلك فهم قادرون على احتمالها والخلاص منها ومواصلة طريق الثورة والتفاؤل

يقول سميح القاسم فى قصيدة له عن ٥ يونيو :

نحن ، فى الخامس
من شهر حزيران ،
ولدنا من جديد

ويقول محمود درويش بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ أيضا :

وليكن ٠٠
لا بد لى
لا بد للشاعر من نخب جديد
وأناشيد جديدة

ويقول محمود درويش أيضا فى حديث له مع الكاتب اللبنانى محمد دكروب « مجلة الطريق نوفمبر ١٩٦٨ :
« أدبيا ٠٠٠ لم تخلق حرب حزيران تأثيرا مفاجئا ، ولم تقلب أفكارى رأسا على عقب ، ولم تحطم قيمى كما فعلت ، ومن الخير أنها فعلت ، بالكثيرين من الشعراء خارج بلادى، لم أكن جالسا فى برج حمام لكى تقنعنى بمثل هذا الدليل الفادح على ضرورة النزول الى الشارع ٠ ولكنها كانت

مكاشفة جارحة • وأضافت ، لمن لم يصدق حتى ذلك الحين برهانا جديدا على ضرورة ممارسة العمل والفكر الثوريين الحقيقيين ، وعلى أن الادب ليس سلعة أو متعة • وهـذا ما كنا نؤمن به ، حتى النخاع ، قولا وعملا • وما زلنا بعد حزيران أشد ايمانا • ومن الضرورى أن يستفيد منهـا أولئك الذين سودوا أطنانا من الورق ضد التزام الاديب بقضيته وضد تسلح الاديب بفكر ثورى حقيقى • ومن الموجع حقا أن يحتاج أديب الى مثل هذه الكارثة لاكتشاف ما يشبه البديهيات • واذكر انى قلت لفدوى طوقان ، فى لحظات لقائنا الاول فى حيفا : هل ترين يا فدوى أن شهرا واحدا من الاحتلال قد حل ، عندك ، كل المناقشات الطويلة حول الشعر ؟ مشيرا الى الانعطاف الواضح فى شعر فدوى بعد احتلال نابلس • وقلت لها ، بكثير من الوجع ، « آمل أن يستفيد الجميع مما حدث ، لئلا يأتى نزار قبانى ، لزيارتنا »

ويشير محمـود درويش فى تلميحه الاخـير الى أن الاديب العربى ، والانسان العـربى اذا لم ينتبهـا الى واجبهما كاملا فسوف تتعرض أراض عربية كثيرة للاحتلال والغزو بحيث يصبح عدد كبير من المواطنين فى حالة تشبه حالة محمود درويش •• تحت الاحتلال الاسرائيلى •

يقول محمود درويش فى قصيدة له :

خسرت حلما جميـلا
خسرت لسع الزنابق
وكان ليلى طـويلا
على سياج الحدائق
وما خسرت السبيلا

••• انه شاعر متفائل بين شعراء متفائلين ••• آنـه يرى خسائره الفادحة وهو مع ذلك صامد وصابر وقوى لانه كما يقول : « •• وما خسرت السبيلا » •

ملامح شخصية

ولد محمود درويش سنة ١٩٤١ كما تقول معظم المراجع التى لدينا عن حياته ومن هذه المراجع كلمة منشورة فى ديوانه الثانى « أوراق الزيتون » بقلم حنا أبو حنا ، ولكن محمود درويش نفسه يذكر أنه من مواليد ١٩٤٢ وذلك فى حديث أدلى به للاستاذ محمد ابراهيم دكروب ونشره فى مجلة الطريق اللبنانية وفى هذا الحديث يقول محمود درويش وهو يتحدث عن مأساة ١٩٤٨ كما أحس بها فى قريته الفلسطينية الصغيرة « البروة » :

«... الرصاص الذى انطلق فى تلك الليلة من صيف ١٩٤٨ فى سماء قرية هادئة « البروة » لم يميز بين أحد ، ورأيت نفسى ، وكان عمرى يومها ست سنوات ، أعدو فى اتجاه أحراش الزيتون السوداء ، فالجبال الوعرة .. مشيا على الاقدام حينا وزحفا على البطون حينا . وبعد ليلة دامية مليئة بالذعر والعطش وجدنا أنفسنا فى بلد اسمه « لبنان » .

ويؤكد محمود درويش مرة ثانية أن تاريخ ميلاده هو سنة ١٩٤٢ لا ١٩٤١ وذلك فى نفس الحديث الذى ادلى به للاستاذ دكروب فى مجلة الطريق اللبنانية وهو يتحدث عن ديوانه الاول عصافير بلا أجنحة فيقول :

« أول ديوان مطبوع لى ، لا يستحق الوقوف امامه ٠ كنت في سنتي الدراسية الاخيرة « ١٨ سنة » وكان تعبيرا عن محاولات غير متبلورة ٠ صدر عام ١٩٦٠ واسمه « عصافير بلا أجنحة »

واعتمادا على حديث محمود درويش فان تاريخ ميلاده الصحيح يكون سنة ١٩٤٢ وليس سنة ١٩٤١ كما هوشائع ومعروف. اما أين ولد محمود درويش ، ففى قرية « البروة » بكسر الباء ، ويحدثنا الاستاذ مصطفى مراد الدباغ فى كتابه « جغرافية فلسطين » عن قرية البروة فيقول :

« انهـا قرية تقع شرقى عكا على مسيرة ٩ كيلومترات منها ، بها ١٤٦٠ نسمة ، وقد مر بالبروة ناصر خسرو الرحالة الفارسى المسلم فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وقال انه زار فيها قبر « عيسى » و « شمعون » والبروة من المدن التى بناها الرومان او أعادوا بناءها فى فلسطين »

ثم يقول الكاتب وحديثه هنا يتصل بفلسطين حتى سنة ١٩٤٨ : « ما زال كثير من مدن وقرى بلادنا تحتفظ بأسمائها التى عرفت بها فى عهد الرومان أو حرفت تحريفا ظاهرا ، فقرية البروة كان اسمها «Biri»

هذه فكرة عامة عن قرية محمود درويش حتى سنة ١٩٤٨ ، ولكن هذه القرية تأثرت بالمأساة الفلسطينية تأثرا مباشرا ، فقد هدم اليهود هذه القرية كما فعلوا بكثير من القرى العربية الاخرى ، كذلك غير اليهود اسم القرية من « البروة » وهو اسمها الاصلى الى « أحيهود » ، وحولوها الى « موشاف » وهو القرية التعاونية اليهودية ، وقد تأسست هذه القرية التعاونية سنة ١٩٥٠ على أنقاض

القرية العربية المهدومة ، وقام بتأسيس هذه القـــرية التعاونية يهود من اليمن »

في سنة ١٩٤٨ كان محمود درويش يعيش في قريته ، ثم خرج هاربا منها الى لبنان أثنـاء الحـرب العربيـة اليهودية ، وبعد سنتين عاد متسللا الى الارض المحتلة وفي حديثه الى مجلة الطريق يروى لنا قصة هذه العـــودة فيقول :

« قيل لى في مساء ذات يوم : الليلة نعود الى فلسطين . وفي الليل ، وعلى امتداد عشرات الكيلومترات في الجبـال والوديان الوعرة ، كنا نسير ... أنا وأحد أعمامي ورجل آخر هو الدليل . والدليل رجل خبير بمسارب الجبـال استغل هذه الخبرة لتصبح مصدر رزق . في الصبـاح وجدت نفسي أصطدم بجدار فولاذى من خيبة الامل . أنا الان في فلسطين الموعودة . ولكن أين هي ؟ لا . هـذه ليست فلسطين . تلك الارض السحرية ... الخـلاص من الظلم والحرمان ، انها لا تحتضنني كما تصورت . وهذا العائد بعد سنتين من الانتظار ، يجد نفسـه أسيرا لمصير المنفى ذاته ، بأسلوب آخر وعلى أرض ليست له ... ليست له ! هذه هي الحقيقة الثانية التي ما زالت ، حتى الان ، أعنف يد تحرك أحساسى بالمأساة كمـا كانت أول محاولة شعرية لي »

ومحمود درويش يشير هنـا الى الحقيقـة الاولى وهي خروجه في طفولته من قريته هاربا الى لبنان سنة ١٩٤٨

ويواصل محمود حديثه عن تجربته المريرة بعد العودة الى فلسطين التى أصبح اسمها اسرائيل :

« لم أعد الى بيتي والى قريتي ، فقد أدركت بصـعوبة بالغة ، ان القرية هدمت وحرقت .. كيف تهدم القرى؟

ولماذا ؟ وكيف يعاد بناؤها ؟ .. ثم أجد ان اللغة الجديدة ما زالت تلبسني . اسمي الان : لاجيء فلسطيني في فلسطين ! واعود مرة أخرى الى وكالة الغوث والقربة ومطاردة الشرطة لاننا لم نكن نحمل بطاقة هوية اسرائيلية .. لاننا متسللون ! واذا كان من المتاح الان تقييم هذه التجربة ، تجربة اللاجيء في وطنه ، فانى اشعر انها تبعث على خطر القتل النفسي بصفاقة اقسى من تجربة المنفى . فى المنفى يتوفر لديك الاحساس بالانتظار ، وبأن المأساة مؤقتة ، فتشم رائحة أمل ، وتحمل عذاب المنفي مبرر . والتصور للمنزل والحقل والجمال المنشود والسعادة المقبلة أمر مشروع . أما التجربة الاخرى ، اللجوء في الوطن ، فانه أمر غير مبرر وصعب الاستيعاب فى حدود وعى الطفل والصبى. انك تشعر بالغصة والقهر حتى فى أجمل احلامك . وتكتسب ملامحك انعكاسات واقع هى أقرب ما تكون الى الرموز . كنت أشعر انى مستعار من كتاب قديم يخلق فى انطباعا غامضا لانى لا أحسن قراءته »

هذه هي الصورة التي يرسمها محمود درويش لطفولته الحزينة المليئة بالصدمات والفواجع . على أن محمود درويش في حديثه الى مجلة الطريق لم يذكر ان والده مات شهيدا في ١٩٤٨ ، وان كان من الواضح فى هذا الحديث أن محمود درويش قد خرج من فلسطين فى سنة المأساة ، بلا أب ، بل كان مع أحد أعمامه . وقد حدثنى شاب فلسطيني كان يعيش في الارض المحتلة حتى سنة ١٩٦٧ ، ثم خرج بعد ذلك وانضم الى منظمة فتح وعمل باحد أجهزتها الاعلامية ... حدثني هذا الشاب ، واسمه « عماد » وكان صديقا لمحمود درويش ، كما كان يعيش معه في حيفا ويلتقى به على الدوام قال لى : أن والد محمود

درويش كان مزارعا بسيطا ، وانه قتل فى الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٤٨ . وان الارض التى كان يملكها والد محمود قد نهبت ، وأن بيتهم قد هدم ضـــمن بيوت القــرية الاخرى • وقد تعــلم محمود درويش حتى نال الشهادة الثانوية فقط ، وتعـــرض فى ذلك الوقت لكل ما يتعرض له العرب من ضغوط شديدة حتى لا يتموا تعليمهم الجامعى وحتى يظل مستواهم العلمى والثقـــافى ضعيفا الى أبعد الحدود • ومنذ أن أتم محمود دراســـته سنة ١٩٦٠ وهو يعيش على الكتابة للصحف العربيــة التى تصدر فى اسرائيل ، ودخله من هذه الكتابات ضئيل مما يفرض عليه نوعا من الضيق المادى الشـــديد ، وقد ظل فترة من الوقت يعيش فى حجرة فى بيت أميــل توما وهو أحد الشخصيات العربية المعروفة فى الارض المحتلة ، واميل توما أيضا هو أحد كتاب الارض المحتلة وله كتاب بالعربية عن « جمال عبد الناصر » ويوجد هذا البيت فى شارع عباس فى « جبل الكرمل » وهو حى من أحياء حيفا • ولعل محمود ما زال يعيش فى هذا البيت الى الآن •

وقد تعرض محمـــود للسجن مرارا ، وكانت قرارات الاعتقال عادة مبنية على اسباب شكلية مثـــل خروجه من منطقة عسكرية الى منطقة أخرى بدون اذن • فاليهـــود يقسمون المناطق العربية الى مناطق عسكرية ، وعلى العربى الا يخرج من منطقة الى أخرى الا بتصريح خاص ، والعربى غالبا لا يستطيع الحصول على هذا التصريح • وعلى سبيل المثال ـ كما قال لى الشاب الفلســطينى عمــاد ـ فان محمود درويش قد سجن سنة ١٩٦٥ لمدة ثلاثة أشـــهر لاشتراكه فى مهرجان شعرى أقيم فى القـــدس فى تلك السنة • وكان عليه لكى يذهب الى القدس أن يحصل على تصريح أمن خاص ••• ولو طلب هـــذا التصريح بالطبع

فانه لن يحصل عليه • ولذلك ذهب محمود الى المهـرجان وهو يعرف النتيجة الحتمية وهى السجن • والسجن الذى دخله محمود فى تلك السنة هو سجن الرملة فى معسـكر يسميه اليهود باسم « معسياهو » • وقد تكرر اعتقـال محمود درويش مرارا لهذه الاسباب الشكلية والسـبب الحقيقى بالطبع هو ضيق السلطات الاسرائيلية به كصوت رائع من أصوات المقاومة فى الارض المحتلة • والسلطات الاسرائيلية بعد ذلك تفتعل الاسباب والحجج لتقود محمود درويش وزملاءه الى السجن ••

وقد عمل محمود درويش فى جريدة « الاتحـاد » ومجلة « الجديد » وهما من صحف الحزب الشيوعى فى اسرائيل • وهو الحزب الذى يفسح للاقلام العـربية فرصة التعبير فى صحفه المختلفة ، وسوف نعود الى موقف الحزب الشيوعى من عرب الارض المحتلة فى فصل آخر من فصول هذا الكتاب • كذلك اشترك محمود فى تحرير مجلة « الفجر » وهى مجلة أدبية عربية أصدرها حـزب « المابام » وكان يرأس تحريرها يهودى مصرى اسـمه « يوسف واشظ » كما ينطقه العرب أو « فاشد » كمـا ينطقه اليهود •

ومن الملامح الشخصية لمحمود درويش كما يحدثنى عنه صديقه « عماد » : انه نحيف جدا ، سريع الحركة فى شىء من العصبية ، مرتفع الرأس فى اعتزاز لا يشوبه غرور ، وهو يتميز فى علاقاته الشخصية بالعـاطفية والاخلاص الشديد لمن تربطهم به ادنى علاقة انسانية ، وصوت محمود فى الحديث العادى صوت خفيض هادىء ، أما القاؤه للشعر فيبلغ درجة عالية من الجودة والاصالة والقدرة على التأثير الوجدانى • ومحمود درويش على علاقة

صداقة بزميله الشاعر سميح القاسم •• ومن ملامحـــه النفسية أنه محب للغناء ، وهو يعشق صوت أم كلثوم ، وفيروز وعبد الحليم حافظ ، كما انه يحب النكتة المصرية ويتابع البرامج الفكاهية فى الاذاعات المصرية المختلفة •

ومن الصفات الشخصية لمحمود درويش انه خجـــول جدا ، ومن عاداته أنه يسهر كثيرا ، ويجد فى الليل متعته ، وفرصته للتفكير والتأمل •

وكل هذه الصفات تثبت ما فى شخصية محمود من بساطة وحب طبيعى عميق للحياة

ويحدثنا عن محمود درويش الكاتب اللبنانى الاستاذ محمد دكروب وذلك بعد لقائه معه فى مهرجان الشـــباب فى صوفيا سنة ١٩٦٨ فيقول : « شاب نحيل ، وجه أليف جداً ، قريبا الى القلب » ••• ويتحدث عنه الشــــاعر الفلسطينى الكبير أبو سلمى فيقول : « •• لا تسل عن سرورى عندما كنت فى صالة فنـــدق يوهانس هوف فى برلين أصيل ذات يوم من شهر آيار ـ مايو ـ ١٩٦٩ واذ بأحد شبابنا اسماعيل عبد الرحمن الذى هجر الشـــعر واصبح دكتورا فى الاقتصاد يدخل الى صالة الفندق ومعه شاب فى مقتبل العمر نحيل الجسم يمسك بيده نظاراته ، اقترب منى والابتسامة تملأ وجهه ، ولكن الحزن يترقرق فى عينيه ، صحت •• محمود درويش وعانقته كأننى أعانق بلادي فلسطين كلهـا ••• بلادى القـــائمة وراء الدموع والاسلاك » ••

وقد تعرض محمود لهجوم بعض زملائه من الشـــعراء العرب ، فقد هاجمه الشاعر راشد حسين بعد صـــدور ديوانه الاول « عصافير بلا أجنحة » واعتبره ديوانا يائسا

٠٠ وراشد حسين من الشعراء الممتازين فى الارض المحتلة، ومن الغريب أنه قيل بعد ذلك أن راشد حسين قد هاجر أخيرا من اسرائيل الى أمريكا يائسا أشد اليأس بعد أن تعرض لاضطهادات عنيفة فى داخل اسرائيل ، وراشد هو صاحب التشبيه المعروف « ان العرب فى اسرائيل أشبه بالزنوج فى أمريكا » ٠ ويبدو أن خروج راشد حسين ، اذا صح أنه فعل ذلك يعود الى مرضه ، وعدم قدرته صحيا على احتمال الاذى المستمر الذى يتعرض له

وشعر محمود درويش يترجم محرفا الى العبرية وهو يتعرض دائما لهجوم النقاد اليهود باعتباره « داعية الى اثارة الجماهير وعاملا على تدمير الدولة الاسرائيلية » ٠ ومن عادات محمود درويش أنه يحضر « الاعراس العربية» باعتبارها مكانا للتجمع الجماهيرى ، وباعتبارها مصدرا من مصادر الفن الشعبى العربى الذى يحبه ويتأثر به ويتعلم منه ٠ وأخيرا فان محمود درويش يعيش فى الارض المحتلة معدما أو شبه معدم ٠ لان مصدره الوحيد للحياة هو قلمه ٠٠ وكتاباته وفنه هما عصفوران سجينان فى الارض المحتلة ٠٠ ومن هنا فهو يعيش على الكفاف فى ظل القيود التى تفرضها السلطة الاسرائيلية التى يقف منها محمود درويش مناضلا ضدها وثائرا عليها ٠ ويقول محمود درويش فى ذلك « أن شعار السلطة « اكتب ما تشاء وادفع الثمن الذى نشاء » ٠٠ والثمن هو : فقدان العمل ٠٠ الاضطهاد ٠٠ الحجز فى البيت ٠٠ السجن !

٠٠ وهكذا اصدرت السلطات العسكرية أوامر الاقامة الاجبارية ضد الشعراء العرب التقدميين بدون استثناء »٠ ويقول محمود درويش أيضا « لا يستطيع الشاعر أو صاحب المطبعة ، أن يطبع أى مجموعة شعرية الا بعد أن

تجيزها المراقبة العسكرية » ويقول أيضا « لاحقتني السلطات من اجل القاء قصيدة وسجنتني عام ١٩٦١ ثم اعتقلت أيضا خلال حرب حزيران « يونيو ١٩٦٧ » .

وهذه كلها صور من صور الاضطهاد الذى يلقاه محمود درويش ، ويلقاه كل فنان ومناضل في الارض المحتلة .

ملامح فنية

ماذا يقرأ محمود درويش وكيف تكونت ثقافته الفنية ؟

مما لا شك فيه أن الثقافة الادبية الاولى لمحمود درويش مستمدة من « الوسط الادبى » العربى الذى يعيش فيه الشاعر ، ويعيش فيه جميع المثقفين العرب ، والجيل الاول من الادباء العرب المقيمين فى الاراض المحتلة هو جيل ينتسب الى ابناء ثورة ١٩٣٦ فى فلسطين ، وكلهم من ذوى الثقافة العربية القديمة ، ومن ذوى الايمان العميق بالتراث العربى القديم والمتابعين أيضا للثقافة العربية المعاصرة عند روادها من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وغيرهم ، ونستطيع هنا أن نذكر بعض الاسماء من بين هؤلاء الادباء العرب الذين واصلوا حياتهم في الارض المحتلة ، وكانوا على صلة قوية بالثقافة العربية القديمة ، وبالثقافة العربية المعاصرة حتى قيام دولة اسرائيل ، ومن هؤلاء حنا أبو حنا المدرس باحدى المدارس الثانوية العربية بالقدس ، وجبرا نقولا ، وله كتاب عن « أبى العلاء المعرى» وغيرهما من أبناء هذا الجيل الذى ينتسب الى جيل الادباء والمثقفين من أبناء ثورة ١٩٣٦ ، هؤلاء جميعا كانوا على معرفة قوية بالتراث العربى القديم ، وعلى ادراك واضح لقيمته وأهميته ، كما أن هؤلاء كانوا يعرفون جيدا كل ما يتصل بفن شعراء ثورة ١٩٣٦ الكبار من آمثال ابراهيم

طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو سلمى . وقد قرأ محمود درويش الشعر العربي القديم ، ودرسه وتعرف عليه بصورة دقيقة واضحة واتصل بهؤلاء الرجال العارفين بالتراث العربي القديم ، وقد قدمه أحدهم وهو حنا أبو حنا في ديوانه الثاني « أوراق الزيتون »

ويتحدث محمود درويش عن بدايته الادبية في حديثه الذى اشرنا اليه سابقا والذى أدلى به الى مجلة الطريق اللبنانية فيقول :

« لا اذكر متى بدأت بالضبط محاولة كتابة الشعر . ولا أذكر الحافز المباشر لكتابة « القصيدة الاولى » وان كنت اذكر اني حاولت في سن مبكرة ، كتابة « قصيدة طويلة » عن عودتي الى الوطن ، حذوت فيها حذو المعلقات ، فأثارت سخرية الكبار ودهشة الصغار » ...
اذن فقد كانت بداية محمود درويش هي تقليد الشعر الكلاسيكي في أقدم نماذجه وهي « المعلقات » . ولكن هذه مرحلة من مراحل الطفولة الفنية ، كان لابد أن يتجاوزها الشاعر بسرعة اذا كانت لديه موهبة حقيقية ، ومحمود درويش صاحب موهبة أصيلة ، وشخصية فنية مستقلة ... وللذلك فقد استطاع بفضل هذه الموهبة أن يتجاوز بسرعة مرحلة التقليد للشعر القديم وهي مرحلة لابد منها ، ولكنه أخذ من معرفته بالشعر القديم ومن معاشرته الفنية العميقة له صفات فنية ظلت مرتبطة بشعره حتى اليوم ، وأهم ما استفاده محمود درويش من قراءته الدقيقة للشعر القديم أنه — أولا — يملك معرفة واسعة باللغة العربية ، وبمفرداتها اللغوية والشعرية ، فمحمود درويش يمتاز امتيازا واضحا في شعره بثرائه اللغوى ، فهو لا يتعثر في البحث عن الفاظه،

ولا يفتعل اشتقاقات لغوية غريبة ، ولا يحس القارىء فى قصائده بما نحسه احيانا فى شعراء آخرين تكون تجاربهم الروحية اكبر من قدرتهم على التعبير.. وينشأ عن ذلك نوع من الاضطراب الفنى لا شك فيه ، ولعل من أبرز مظاهر السلبية والضعف فى الشعر الجديد ، أن عددا غير قليل من شعراء المدرسة الجديدة يعانون من هذا الفقر فى قاموسهم الشعرى ، فيضطربون ويرتبكون ويقصرون تقصيرا واضحا فى تعبيرهم . هذا العيب لا نجده عند محمود درويش ، فلديه قدرة واضحة على أن يجعل من قصيدته عملا فنيا قادرا على استيعاب تجاربه النفسية والروحية ... بلا تعثر فى أذيال العجز التعبيرى الذى يشيع عند الشعراء المتوسطين فى مدرسة الشعر الجديد ، بل وأحيانا عند بعض الشعراء المعروفين فى هذه المدرسة . ومن الملاحظ عموما أن معظم الشعراء الممتازين من شعراء المدرسة الجديدة ، قد بدأوا حياتهم بكتابة الشعر التقليدى « العمودى » بصورة جيدة مثل : السياب ، وصلاح عبد الصبور ، وحجازى ، والبياتى ، ومعين بسيسو والفيتورى وغيرهم . بل أن بعض هؤلاء الشعراء يلجأ أحيانا الى الشكل التقليدى فى بعض تجاربه ، مثل تجربة السياب المشهورة فى قصيدته عن « بور سعيد » ، ففى هذه القصيدة الممتازة يجمع السياب بين الشكلين القديم والجديد معا . حيث كان فى المواقف الغنائية ، التى يعبر فيها عن مشاعره تعبيرا مباشرا صريحا واضحا ، يلجأ الى الشكل القديم للقصيدة العربية ، بينما كان يلجأ فى المواقف الوصفية ، التى يريد أن يجسد فيها موقفا ، أو يرسم صورة انسانية الى الشكل الجديد

والحقيقة أن هذه التجارب كلها تؤكد لنا أن الشاعر الجديد القادر على أن يعبر عن نفسه تعبيرا شعريا أصيلا

من خلال الشكل الجديد للقصيدة ، لابد أن يكون على معرفة عميقة بالشكل القديم ، بل وعلى مقدرة أيضا فى التعبير من خلال هـذا الشكل . لان الشاعر الجـديد لا يستطيع أن يتجـاوز الشكل القـديم الا اذا كان على معرفة غير قليلة به .

وقد توفرت لمحمود درويش هذه المعرفة الدقيقة ، بل اننا نجده حتى فى دواوينه الاخـيرة آلتى تمثـــل أعلى درجات النضج الفنى عنده ، يفاجئنا بقصائد كتبهــــا بالطريقة الشعرية القديمة ، وأن كان هذا اللون من شعر محمود يكثر على وجـه الخصوص فى مرحلتــه الفنية الاولى ، ففى ديوانه الثانى « أوراق الزيتون » نجـد نماذج متعددة من القصائد المكتوبة بالشكل التقليدى ... حيث يقول على سبيل المثال فى قصيدة « حبنا » ... وهى قصيدة قصيرة أنقلها هنا باكملها :

حبنا بلبل ... وشـــوكة وردة
فافرشى لى على الجـــــراح مخده
لا أحب النشيد الا شـــــهيدا
ينزف الـروح والحشـــا بمودة
عندما رف فى الفضاء جنـــاحى
وهبطت البستان .. أعشق وردة
كنت لا اسأل الطـــريق رجوعا
ليس فى الحب أى درب .. لعودة

على أن محمود درويش لم يستفد من معرفته الكبيرة بالشعر القديم ذلك القاموس الشعرى الفنى فقط ، ولا ذلك التدريب الفنى الواسع فى عالم القصيدة القديمة على استخدام اللغة وحسب ، بل لقـــد اســـتفاد محمود درويش ميزة أخـرى واضـحة هى تلك « الموســيقى

الشعرية » اللامعة التى نجدها فى شعره .. فعـــالم القصيدة العربية القديمة مليىء بالموسيقى ، وعلى الاخص ما نسميه عادة « بالموسيقى الخارجية » ... الموسيقى المسموعة ، التى تنبع من القافية واختيار الالفـاظ ذات الرنين الخـاص وما الى ذلك ، ولعل هـذه الموسـيقى الخارجية كانت من الاسباب التى تثير اعتراض النقد الحديث على الشعر القديم ... لان الموسيقى الخارجية حالت فى كثير من الاحايين بين الشعر القديم وبين توفير « موسيقى داخلية » تخاطب الوجدان والقلب قبل أن تخاطب الاذن .. على أننا لسنا هنا فى مجال مناقشة هذه القضية الهامة بالنسبة للشعر القديم ، ولكن الذى يعنينا فى هذه الدراسة هو شعر محمود درويش ... لقـــد استفاد محمود درويش من دراسته للشعر القديم قدرته فى المحافظة على الموسيقى الشعرية فى قصائده .. على أنه لم يستسلم للموسيقى الخارجية التى كانت كفيلة بأن تربطه نهائيا بالمدرسة الشعرية القديمة . لقد استطاع محمود درويش أن يصل الى توازن دقيـق واضح بين « الموسيقى الخارجية » و « الموسيقى الداخليـــة » ... فصوت قصيدته مسموع ، وهو بذلك يتخلص من ذلك الخفوت الموسيقى والفتور النغمى الذى نلاحظه فى كثير من نماذج الشعر الجديد ، والذى يدفع النقاد الى وصف هذه النماذج بأنها « نثرية » ... أى أنها قريبة الى النثر بقدر بعدها عن الشعر . ولكننا بالنسبة لشعر محمود درويش نحس بموسيقى هذا الشعر احساسا واضحا ، ولكن محمود كشاعر صاحب موهبة أصيلة يستطيع أن يتنبه فى اللحظة الفنية المناسبة الى أن الموسيقى فى القصيدة لا ينبغى أن تعلو الى حد الضجيج والصخب ، بحيث تفقد عذوبة

الهمس وقدرته على النفـــــاذ الى القلب والتـــــأثير على الوجدان ... ان محمود درويش فى كثير من قصائده يوازن بالفن والاحساس الوجدانى الصادق بين الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية ... ويجعل من قصيدته عملا فنيا مسموعا بالاذن والقلب معا . ونستطيع أن نتبين القدرة الموسيقية العالية عند محمـــود درويش دون عناء كبير ...ونستطيع ان نجدها فى اى قصيدة نختارها دون بحث طويل أو تردد ... ولنقرأ على سبيل المثال هذه المقـــاطع من قصيدة محمـــود درويش عن الشاعر الاسبانى العظيم جارثيا لوركا الذى قتله الفاشست من أنصار فرانكو خلال الثورة الاسبانية سنة ١٩٣٦ :

عازف الجيتار فى الليل يطوف الطرقات
ويغنى فى الخفاء
وباشعارك يالوركا ، يلم الصدقات
من عيون البؤساء !

**

نسي النسيان أن يمشى على ضوء دمك
فاكتست بالدم بسمات القمر
عن أناشيد الغجر

**

اجمل البلدان اسبانيا ، ولوركا ، ياصبايا
أجمل الفتيان فيها
يا مغنى النار ! وزع للملايين شظايا
أننا من عابديها

هذا شعر يتوفر فيه كل ما يحتاجه الشـــعر الجميل من قدرة موسيقية ... فنحن فى هذه المقاطع الشعرية

نحس بصوت الموسيقى احساسا مطربا متصلا غير متقطع ولا متهافت ... فالايقاع هنا مستمر ... كان الشاعر عازف ناى يقدم لحنه فى نفس واحد طويل مديد .. ومن ناحية أخرى فاننا بقدر ما نحس بالطرب الموسيقى فى هذه القصيدة ... فاننــــا نحس بنوع آخر من النغم ... نغم هامس سهل ، داخلى عميق ، يتسرب الى الوجدان فى نعومة وقوة وقدرة على التاثير ... أن القصيدة تطربنا وتشجينا وتدفعنا الى حالة من الخدر والصوفية .. خدر كالاحلام ... وصــوفية مثل صــوفية الشـــهداء التى تختلط امامها كل الحدود .. فلا يكون فرق بين الموت والحياة

هذه بعض الثمار التى خرج بهــا محمود من احتكاك موهبته الاصيلة بالشعر العربى القديم ... على اننا بعد ذلك اذا أردنا أن نتابع نمو محمود درويش فسوف نجــد امامنا ثلاث مراحل متتالية :

المرحلة الاولى ، هى المرحلة الغنائية ، التى كان يعبر فيها عن نفسه وتجاربه تعبيرا مباشرا ... سواء كان ذلك فى شعره الجديد .. أو فى شعره الذى يلتزم فيه الشكل القديم

وتبرز أمامنا هــذه المرحلة بوضوح فى ديوانه الثــانى أوراق الزيتون ، ولعلها تبرز بشكل أوضح فى ديوانه الاول « عصافير بلا أجنحة » الذى يقول عنه محمود درويش « ... انه ديوان لا يستحق الوقوف أمامه . كنت فى سنتى الدراسية الاخيرة .وكان تعبيرا عن محاولات غير متبلورة صدر عام ١٩٦٠ » .. والحقيقة أن هذا الديوان بالذات لم يصل ـ فيمــا أعلم ـ الى ايدى احــد من الدارسين للشعر العربى فى الارض المحتلة خارج أسوار

اسرائيل على الاطلاق

ولعل هذا الصوت الفنائى ، الذى يعبر تعبيرا مباشرا بل وخطابيا وصاخبا فى كثير من الاحيان يبدو لنا بوضوح فى هذه القصيدة الاولى من قصائد ديوان محمود الثانى « أوراق الزيتون » ... اسم القصيدة « بطاقة هوية » ويقول فيها :

سجل !
انا عربى
ورقم بطاقتى خمسون الف !
وأطفالى ثمانية
وتاسعهم ... سيأتى بعد صيف !
فهل تغضب ؟

*

سجل
انا عربى
واعمل مع رفاق الكدح فى محجر
أسل لهم رغيف الخبز
والاثواب والدفتر
من الصخر ...
ولا أتوسل الصدقات من بابك
ولا اصغر
أمام بلاط اعتابك
فهل تغضب
سجل
انا عربى !

وتمضى القصيدة بهذه الصورة المباشرة الخطابية الصارخة التى تذكرنا بالهتاف فى المظاهرات ، وتذكرنا أيضا بالشعر العربى القديم فى صوته المرتفع وخطابيته

العالية ..وكلما قرأت قصيدة «بطاقة هوية» لمحمود درويش تذكرت بالذات قصيدة الشاعر الجاهلى « عمرو بن كلثوم » المشهورة والتى يقول فيها :

الا لا يجهلن أحـــد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا
أو قوله :
اذا بلغ الرضيع لنا فطاما
تخر له الجبـــابر ساجدينا
أو قوله :
ونشرب ان وردنا الماء صفوا
ويشرب غيرنا كدرا وطينـــا

والتشابه هنا بين قصيدة محمود درويش وقصيدة عمرو ابن كلثوم هو طبعا تشابهفىالروح الخطابيةالمباشرةوالصوت المرتفع الصارخ ، أى أنه تشابه فى الموقف الفنى والوجدانى وليس فى الموقف الفكرى . فموقف محمود درويش ليس فيه أى نزعة من نزعات التعالى والقبلية المتعصبة التى نجدها عند عمرو بن كلثوم

هذه هى المرحلة الفنية الاولى فى شعر محمود درويش، مرحلة التأثر بالشعر العربى القديم وخصائصه الفنيـــة المختلفة . على ان هذه المرحلة قد تطورت بعد ذلك الى مرحلة ثانية ، هى المرحلة التى خضع فيها محمود درويش لتأثير شعراء المهجر ، وشعراء المدرسة الرومانســـية من أمثال على محمود طه وابراهيم ناجى . وشعراء المهجر والشعراء الرومانسيون يمثلون مدرسة واحدة واتجـاها متشابها فى الشعر العربى المعاصر . وقد استفاد محمود درويش من هذه المدرسة الرومانسية ما جعل منه أكثر رقة واقل مباشرة واغنى بالعذوبة والاحلام مما كنا نجده فى

المرحلة السابقة حيث الخطابة والصوت الصاخب المرتفع . ومحمود درويش يسمى هذه المرحلة فى حياته الفنيه باسم مرحلة « الثورى الحالم » ... فهو يعبر عن ثورته على الاوضاع التى يعانيها العربى فى الارض المحتلة ، سواء كانت هذه الاوضاع معنوية او مادية ، ولكن تعبيره كان عاما ، أشبه بالحلم الغامض المبهم ، وذلك هو شان الشعراء الرومانسيين الذين كان يقرأ لهم ويتأثر بهم فى تلك المرحلة من حياته الفنية ، فهو يرفض الواقع الذى يعيش فيه ، ويتحدث عن واقع يحلم به ، ولكنه لايفصح عن عناصر الواقع الذى يرفضه ولا عن عناصر الواقع الجديد الذى يتمناه .. انه يحلم ويعبر عن احلامه فى قصائد غنائيـة رقيقة وفيها قدر من التعبير المباشر ايضا . ولعل هـذه الابيات تكشف لنا عن ذلك المنصر الغنائى الثورى الحالم عند محمود درويش فى هذه المرحلة حيث يقول فىقصيدة له بعنوان « عن انسان » :

يادامى العينين والكفين
ان الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل
نيرون مات ، ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف
ستملأ الوادى سنابل

ولعلنا أيضا نجد هذه الروح الرومانسية الغنائية الحالمة فى هذه القصيدة التى يسميها « نشيد ما » ، وهى قصيدة وطنية ولكنها تكتسى بغلالة رقيقة من «الغزل» ..فالحبيبة التى يخاطبها الشاعر هنا هى وطنه ، وتلك صورة تمـلأ

شعره فى كل مراحله المختلفة فهو يهوى ذلك التوحيد والمزج بين صورة الحبيبة وصورة الوطن ... يقول محمود درويش فى هذه القصيدة :

عسل شفاهك ، واليدان
كاسا خمور
للاخرين

*

الدوح مروحة ، وحرش السنديان
مشط صغير
للاخرين
وحرير صدرك ، والندى ، والاقحوان
فرش وثير
للاخرين

*

وأنا على أسوارك السوداء ساهد
عطش الرمال أنا .. وأعصاب المواقد
من يوصد الابواب دونى
أى طاغ ؟ .. أى مارد
سأحب شهدك
رغم أن الشهد يسكب فى كؤوس الاخرين
يا نحلة
ما قبلت الا شفاه الياسمين !

فالصور هنا هى الصور الشعرية التى تملأ خيال الشعراء الرومانسيين الحالمين ... فالصدر الحريرى ، والندى والاقحوان والسهد ، والشهد ... كلها صور تتردد فى أشعار الرومانسيين وتسيطر على وجدانهم ، وقد سيطرت على محمود درويش أيضا فى هذه المرحلة الثانية من حياته الفنية

وينتقل محمود درويش بعد ذلك الى مرحلة ثالثة هى أنضج مراحله الفنية على الاطـــلاق وهى تلك التى تتمثل على أفضل صورة فى ديوانه الرابع « آخر الليل » ... فمحمود درويش هنا يزداد ثقافة فنية ، ويزداد قدرة على التعبير ويكتشف أفضل مواهبه وأكثرها عمقا واصالة .

انه يصل هنا الى القدرة على « الايحاء » وهذه القدرة الفنية، تحل محل التعبير المباشر الصريح المكشوف ، والايحـاء الفنى أكثر تأثيرا على القلب من التعبير المكشوف المباشر ، كما أنه أغنى فى قيمته الفنية من هذا التعبير المباشر ايضا

وفى هذه المرحلة الثالثة يتاثر محمود درويش تأثرا واضحا بالشعر الجديد واعلامه من الشعراء العرب ، وهو متأثر فى هذه المرحلة على وجه الخصوص بالشاعر العربى العراقى الكبير بدر شاكر السـياب ، لقـــد قرأه محمود درويش قراءة عميقة وتأثر به تأثرا واضحا ، وان كـان محمود درويش لم يفقد استقلاله الفنى امام تاثره بالسياب ولا بغيره من كبار الشعراء . وفى هذه المرحلة الجـديدة من فن محمود درويش نلتقى بعدد من الخصائص الفنيـة البارزة ...

أولى هذه الخصائص أن محمود لم يعد الا فى القليـل النادر يعبر عن تجاربه تعبيرا مباشرا ، بل انه هنا يلجأ الى الرمز ، والاساطير ، والقصة الشعرية ، للتعبير عن تجاربه المختلفة . على أن محمود درويش رغم لجـوئه الى الرموز والاساطير والقصص الشعرية فى بناء قصائده المختلفة لم يفقد وضوحه الفنى ، ذلك لانه شاعر مرتبط بالجماهير العربية فى الارض المحتلة ، وهو يريد لشعره أن يصل الى هذه الجماهير ويساهم فى التعبير عنها . ولايمكن ان يصـــل الشعر الغامض الى الجماهير ، ولايمكن أن يؤثر عليها ..

ومن هنا حرص محمود درويش على الوضوح فى اطار رموزه المختلفة ، وحرص على أن تكون رموزه بعيدة كل البعد عن التعقيد الفنى الذى قد يجعل من القصيدة فى النهاية متعة للدارسين والباحثين وهواة كشف الالغاز وتفسيرها والاختلاف حولها ، أما الجمهور الكبير فلا يجد فى مثل هذا التعقيد أى غذاء فنى • ومحمود درويش واع كل الوعى لهذه القضية ولذلك فهو يقول « الرمز عندي ، كما أراه ، ليس مبهما • ان من الممكن اكتشافه بسرعة ، هو أولا وأخيرا بديل للتعبير المباشر »

على أن هناك سببا آخر يشير اليه محمود درويش ويقف وراء لجوئه الى الرمز فى شعره ، وذلك هو محاولة التعبير عن تجاربه بعيدا عن سطوة الرقابة السياسية الاسرائيلية، ان الرمز كما يقول محمود درويش نفسه يعتبر هنا نوعا من الاحتيال الفني في تصوير الواقع وتخطى الرقابة السياسية الاسرائيلية •

ومحمود درويش لم يهرب أبدا من موضوعه الرئيسى الذى يملأ عليه وجدانه وشعره •• بحيث نستطيع أن نقول دون أن نخشى الخطأ ان كل شعر محمود درويش يعتمد على موضوع أساسى هو وطنه وجرحه الفلسطينى•

والرمز هنا يساعد الفنان الشاب على الوصول بشعره الى اعلى درجات التأثير الوجدانى والفنى •• الرمز ليس معتما ولا قاتما ولا بعيدا عن الفهم • ونستطيع أن نقف أمام قصيدة محمود درويش « القتيل رقم ٤٨ » وهى جزء من قصيدته الطويلة آزهار الدم التى كتبها عن مجزرة كفر قاسم ـ والتى أشرنا اليها فى فصل سابق ـ حيث قام الجنود الاسرائيليون بقتل ما يقرب من خمسين عربيا فى ساعات قليلة •• وهذا القتيل رقم ٤٨ هو أحد القتلى

العرب الذين سقطوا فى تلك المجزرة .. يقول محمـــود درويش :

وجدوا فى صدره قنديل ورد .. وقمر
وهو ملقى ميتا ، فوق حجر
وجدوا علبة كبريت ، وتصريح سفر
وعلى ساعده الغض نقوش

***

قبلته أمه .. وبكت عاما عليه
بعد عام ، نبت العوسج فى عينيه
واشتد الظلام
عندما شب أخوه
ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة
حبسوه .. لم يكن يحمل تصريح سفر
انه يحمل فى الشارع صندوق عفونه
وصناديق أخر

***

آه أطفال بلادى
هكذا مات القمر

فالرموز هنا ليست معقدة ولا مغلقة أمام الفهم ... فعندما يصور الشاعر لنا هذا القتيل وفى صدره « قنديل ورد .. وقمر » فهو يقول لنا : انه كان انسانا طيبـــا يحمل عطر الحب فى قلبه ويحمل المشاعر النبيلة ولايطوى نفسه على أحقاد سوداء أو أفكار شريرة ... وعنـــدما يقول الشاعر فى آخر القصـــــيدة « آه أطفال بلادى ، هكذا مات القمر » فهو يقول لنا بصوره الفنية « ... لقد وقعت المأســاة وتمت » فليس موت القمر ، رمز النور والجمال والتفــاؤل والاشراق ، الا رمزا لوقوع

المأساة فى حياة المواطنين العرب الذين تعرضوا لمجزرة كفر قاسم ، وهم أنفسهم رمز لغيرهم من المواطنين العرب فى بقية الارض المحتلة .

على أن هذه الرموز هى فى النهاية أبسط درجات الرمز ، لانها رموز تعتمد على بعض الصور الفنية الجزئية مثل « موت القمر » أو « قنديل الورد فى صدر القتيل » أو ما الى ذلك ، ولكن الرمز الفنى بصورته العميقة حقا هو ذلك الذى يعتمد على الصورة الشاملة التى يقوم عليها بناء هذه القصيدة نفسها ... فتصوير القتيل على أنه انسان طيب بسيط ... عامل مكافح ، يكتمل لدينا من داخل القصيدة فهو « ... ملقى ، ميتا فوق حجر » وقد وجدوا معه « علبة كبريت وتصريح سفر » و « على سباعده الغض نقوش » ... بهذه الصور الجزئية الموجزة يقدم لنا الشاعر لوحة كاملة مؤثرة لذلك الشهيد .. الذى سقط ضحية العدوان . وهو لايملك شيئا ... لايملك ثروة ولا سلاحا وانما « علبة كبريت وتصريح سفر » !

وتلك صورة انسانية رائعة استطاع محمود درويش أن يرسمها لنا بعمق فنى ، واستطاع أن يجعل منها صورة مشحونة بالعاطفة والقدرة على التأثير .

ثم يقدم لنا الشاعر بعد ذلك صورة أخرى .. صورة الاخ .. أخو القتيل « الذى مضى يبحث عن شغل باسواق المدينة » فحبسوه لانه لم يكن معه « تصريح سفر » ! ...

ياللتناقض : كان أخوه الاكبر يحمل تصريح سفر فقتلوه ! أما الذى لا يحمل التصريح فمصيره الحبس ! ... وتلك كلها جزئيات تصل بنا فى نهاية الامر الى الصورة الكلية الشاملة ... صورة الاضطهاد الاسرائيلى الخالى من

أى لمحة انسانية بالنسبة للمواطنين العرب

هذا هو ما نلتقى به فى المرحلة الاخيرة لشعر محمود درويش ... الرمز الشفاف الخالى من التعقيد ، والتجسيد الانسانى للتجربة ... فبدلا من أن يحدثنا محمود درويش حديثا مباشرا وعاما عن الشهداء فهو يرسم لنا صورة انسانية عميقة « للقتيل رقم ٤٨ »

من ناحية اخرى نجد ان محمود درويش فى مرحلته الفنية الجديدة كثيرا مايعتمد على « الحوار » ، ونحن نجد فى شعره فى أكثر الاحيان « صوتين » يسيطران على القصيدة لا صوتا واحدا · وهذان الصوتان يكشفان دائما عن « مقدرة مسرحية » عند محمود درويش فلو أتاحت الظروف له أن يكتب مسرحيات شعرية لقدم شيئا له قيمة ولا شك · ومحمود درويش نفسه يقول « اننى مشبع بالرغبة فى محاولة كتابة مسرحية شعرية » ·· والحق أنه يملك كل عناصر الفن المسرحي الجيد ·

ومن أبرز القصائد التى تقدم لنا « هذين الصوتين » فى شعر محمود درويش قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب الاحمر » ثم الجزء الثانى من هذه القصيدة وعنوانه : « ملاحظة على الاغنية » · ففى هذه القصيدة صوتان : صوت صبى صغير يصور أحواله وأحوال أهله فى غضب بل وفى يأس · وهناك صوت آخر يرد عليه ، ونحن لا نعرف بالتحديد من صاحب الصوت الثانى ، هل هو صوت الاب ، أو صوت الشاعر ··· أو هو صوت مجهول المصدر ولكن هذا الصوت الثانى على أى حال هو صوت الامل ، صوت المستقبل ··· وهو رد على الصوت الاول ، صوت اليأس

يقول الصوت الأول ، صوت الصبى اليائس الحزين :

هل لكل الناس فى كل مكان

اذرع تطلع خبزا واماني
ونشيدا وطنيا ؟
فلماذا يا أبي نأكل غصن السنديان
ونغني ، خلسة ، شعرا شجيا ؟
يا أبي ، نحن بخير وأمان
بين أحضان الصليب الاحمر !

وفي هذا الحديث ، نبرة يأس وسخرية واحساس عميق بالمرارة .. ثم يواصل الصبي بعد ذلك حديثه فيقول :

... ...
وأنا أحلم بالحلوى وحبات الزبيب
في دكاكين الصليب الاحمر
حرموني من أراجيح النهار
عجنوا بالوحل خبزي ... ورموشي بالغبار
أخذوا مني حصاني الخشبي
جعلوني أحمل الاثقال عن ظهر أبي !

هذا صوت المرارة واليأس ، ولكن القصيدة تحمل الينا صوتا آخر هو صوت الامل الذي يرد على الصوت الاول ويعترض عليه :

أخذوا منك الحصان الخشبي
أخذوا ، لا بأس ، ظل الكوكب
يا صبي !
يازهرة البركان ، يانبض يدي
انني أبصر في عينيك ميلاد الغد
... ...
أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ... ليعطوك صباح

هدموا بيتا لكى تبنى وطن !
حسن هذا ... حسن
نحن أدرى بالشياطين التي تجعل من طفل نبيا
قل مع القائل ... لم اسألك مبنا هينا
يا الهى ! اعطنى ظهرا قويا !

وهذان الصوتان فى شعر محمود درويش نلتقى بهما فى كثير من قصائده الجديدة ... انهما صوتان يتحاوران ... وهما على الاغلب يمثلان ذلك الصراع الذى يدور فى نفس العربى المقيم فى داخل الارض المحتلة ... صوت التساؤل والشك واليأس وصوت الامل واليقين بالنصر . ومحمود درويش يحمل الينا من مواهبه الفنية ووجدانه الخصب مايجعلنا نتعاطف بكل قوة مع الصوت الثانى ... صوت الأمل واليقين بالنصر .

ومن ملامح هذه المرحلة الجديدة فى شعر محمود درويش أنه يعتمد أحيانا على الاغانى الشعبية ويستمد منها بعض العناصر الفنية فى بناء قصيدته . فهو يبدأ قصيدته « موال » بمقطع من اغنية شعبية فلسطينية تقول :

يما مويل الهوى
يما ... مويليا
ضرب الخناجر ولا
حكم النذل فيا

لم يستمر محمود درويش بعد ذلك فى قصيدته مستفيدا من ذلك المقطع من مقاطع الاغنية الشعبية استفادة فنية وفكرية معا ، ففى هذا المقطع الشعبى تعبير عن « الكرامة والاحتمال والصبر » والقصيدة كلها تدور حول هذه المعانى ، والشاعر يوحى الينا أنه يستمد

قوته وأمله وتفاؤله من تراث عريق ... هو تراث شعبه في الكفاح والمقاومة واحتمال المصاعب

على أن محمود درويش لايكثر من الاعتماد على التراث الشعبى والشعر الشعبى عموما ، فقليلا مايستمد من هذا التراث عناصر فنية تساعده فى بناء قصيدته . على عكس مانجد عند زميله الشاعر سميح القاسم الذى يعتمد على التراث الشعبى كثيرا .

ولكن محمود درويش يهتم بشيء آخر هو تسجيل صور الحياة الشعبية اليومية فى شعره والاستفادة من هذه الصور استفادة عميقة فى بناء قصائده وتقريبها من الوجدان الشعبي ... وتأكيد مايؤمن به الشاعر من أنه يخدم بفنه قضية شعبية هى قضية العرب فى الارض المحتلة ... وهم هؤلاء العرب الذين يعيشون حياة صعبة ويكافحون في ظل ظروفهم القاسية كفاحا مريرا . فهو يقول فى قصيدة « اعتذار » مصورا بعض أحلامه :

حلمت بعرس الطفولة
بعينين واسعتين حلمت
حلمت بذات الجديلة
حلمت بزيتونة لا تباع
ببعض قروش قليلة

وفى قصيدة قمر الشتاء يقول :

سالم جثتك الشهيدة
واذيبها بالملح والكبريت
ثم أعبها
كالشاى ... كالخمر الرديئة .. كالقصيدة

ويقول فى قصيدة « مطر » :

الشارع الخلفى يجرفه المطر
من أين تعبر ياعجوز ؟
جمدت يداك على العصا
حتى الحجر
يصطك .. والشفة العجوز
تشتى دعاء أبلها ... ماذا دهاه ؟
مازال يحمد ربه
ويموت من تحت المطر

وفى قصيدة « عنوان جديد » يقول :

تغير عنوان بيتى
وموعد أكلى
ومقدار تبغى تغير
ولون ثيابى ووجهى وشكلى
وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى وأكبر
ورائحة الارض : عطر
وطعم الطبيعة سكر !

فكما نرى فى النماذج السابقة ، نجد محمود يستخدم الكثير من الصور الشعبية ... صور الحياة اليومية ... فالزيتونة ، والقروش القليلة ، والشاى ، والكبريت ، والتبغ ، والخمر الرديئة ، وعصا العجوز ودعاؤه ... كل هذه صور من الحياة الشعبية اليومية ، يستخدمها محمود درويش كثيراً فى بناء قصائده المختلفة

أن محمود يكثر من استخدام صور الحياة اليومية فى قصائده ، وقد شاع استخدام هذه الصور فى الشعر الجديد .. ولكن محمود درويش لايستخدم هذه الصور

من باب التقليد لأسلوب فنى رائج ، بل انه يستخدم هذه الصور تعبيرا عن وجدانه الشعبى العميق وحساسيته الفنية للحياة اليومية وقدرته على التقاط الشعر الكامن فى هذه الحياة •

ومن الملامح الفنية لشخصية محمود درويش أنه يلجأ أحيانا الى ما يسمى « بالتداعى الحر » ••• فهو ينطلق من صورة معينة ثم يستسلم لهذه الصورة فتقوده الى صور أخرى تنبع منها وتتصل بها فهو عندما يقول فى أحدى قصائده :

وكنت حديقتى ، وأنا غريب الدار
أدق الباب يا قلبى
على قلبى
يقوم الباب والشباك والاسمنت والاحجار !

فصورة الدار تستدعى وراءها صورة الباب ، ثم تستدعى صور الشباك والاسمنت والاحجار • ولعل هذا « التداعى » يبدو أكثر وضوحا فى قصيدته عاشق من فلسطين ، فالصور تستدعى بعضها البعض ، ويسجلها الشاعر كما تتوارد على خاطره ، وكما « تتوالد » : صورة بعد صورة • يقول محمود فى قصيدته :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الاسم
فلسطينية الاحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت
فلسطينية الميلاد والموت
حملتك فى دفاترى القديمة
نار أشعارى

فالصور المتلاحقة في هذا المقطع من القصـــيدة تعتمد اعتمادا واضحا على التداعى ، « فالميلاد » يستدعي «الموت» و « الكلمات » تستدعي الصمت ··· ثم تتوالى الصور : العينان والوشم ، الاحلام والهم ··· المنديل والقـــدمان والجسم ··· انها كلها صور متلاحقة تدل على ميل نفسي وفنى الى الاعتماد على هذا « التداعي الحر » في بنـــــاء القصيدة ، حيث تولد الصور الفنية وراء بعضها من خلال تيار وجدانى متدفق وعنيف ··· والتيار الوجـدانى فى المقطع السابق من قصيدة عاشق من فلسطين هو ولا شك ذلك اليقين العميق بأن كل ما حاوله الاحتلال الاسرائيلي من ضغط وارهاب قد فشل تماما فى الغاء صفة «الفلسطينية» عن حبيبته التى هى فى نفس الوقت أرضه ووطنه ·

ومن ملامح محمود درويش الفنية والفكرية أيضا تعبيره المتكرر عن حاجته وحاجتنا جميعا الى شعر جديد ، يتخلص من كل الاخطاء والعيوب القديمة التى كنا ننكرها على شعرائنا ونرفضها منهم ··· فهو يريد شعرا مرتبطا كل الارتباط بالانسان وتجربة الانسان وهموم الانسان وأحلام الانسان لا شـــعراً تكون وظيفته هي الامتاع والترف والجمـــال الخارجي المجرد من أى وظيفة انسانية ، ففي قصيدة لـــه عنوانها عن « الشعر » يؤكد هـــذا المعنى الذى يرفض أى وظيفة مترفة للشعر ، ويرفض أى وظيفة له تبحث عن الجمال الخارجى ··· جمال الالفاظ والصور الفنية ، لا جمـــال الوجدان وجمال الانسان ، يقول محمود فى هذه القصيدة :

أمس غنينا لنجم فوق غيمة
وليدر قرب نجمة
وانغمسنا فى البكاء
أمس عاتبنا الدوالى والقمر
والليالى ··· والقدر

وتوددنا النساء
دقت الساعة والخيام يسكر
وعلى وقع أغانيه المخدر
قد ظللنا بؤساء
يا رفاقى الشعراء
نحن فى دنيا جديدة
مات ما فات ، فمن يكتب قصيدة
فى زمان الريح والذرة ،
يخلق أنبياء !

ثم يقول فى نفس القصيدة :

قصائدنا بلا لون
بلا طعم .. بلا صوت
اذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت
وان لم يفهم البسطا معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن ... للصمت !!

فهو يدعو بوضوح الى وظيفة انسانية للشعر ... تجعل جماله الفني في خدمة الانسان وقضاياه الكبيرة وتجاربه الحساسة ... ولا تقف عند الوصول الى الجمال والترف والرفاهية الوجدانية

وهو يحدد رسالته كشاعر في مجتمعه المكافح تحديدا بديعا وعميقا ومثيرا فى قصيدة له بعنوان « امرؤ القيس » .. يقارن فيها بين امرىء القيس كشاعر قديم له رسالته الخاصة وبين الشاعر الجديد الذى يمثله محمود درويش ويؤمن به وبرسالته .. يقول محمود في هذه القصيدة :

ليس لى قصر ، وما عرش أبى
غير فأس خشبية
لا أغنى مثلما غنيت تحت الكوكب
للخيول العربية
وتناديني : تعال
ليس لى حسان ، ولا عشر حسان
قدحى خال كجيبى والنساء
فى زمانى لا تحب الشعراء
اننى أدفع عن رأسى بطش الصولجان
وتناديني : تعال

ان العصر اختلف بين امرىء القيس ومحمود درويش ... والرسالة اختلفت ووظيفة الفن مختلفة أيضا ...

ولقد كان امرؤ القيس يقف على الاطلال القديمة وقفة العاشق ... ولكن محمود درويش يقف على الاطلال وقفة المناضل الوطني الذى تهدمت دياره بيد الطغيان وتحولت الى ذكريات وبقايا .. ان الشاعر المناضل يشم فى هذه الاطلال على أرض فلسطين أشياء كثيرة رائعة ... يشم فيها رائحة أرضه وحقوله وأهله ... وهو لذلك يقول لامرىء القيس :

وقفة الاطلال يا شاعرها
رمدتنى ، فتلفت اليك
وتحسست يديك :
أعطنى من زادك الباقى ، لعلى
أقطع الليل على أطلال دارى
ورماد النار فى موقد أهلى
والخوابى ... والجرار !
لأناديك : تعال

لا تسلني :
كيف يضحى الكوخ قصرا
ونعيما ، حين يهدم ؟
لا تسلني ! ... أنت أدرى !
كل ما عندى إله .. حين أحرم !

هذه هى رسالة الشاعر الجديد كما يؤمن بها محمود درويش ... أنها رسالة الدفاع عن الديار التى حولهـا الطغيان الى أطلال ... وهى رسـالة الفنان الذى يؤمن بالانسان ويؤمن بأن كل شيء هو من أجل الانسـان ... وأن الجمال والفن هما أيضا من أجل الانسان

هذه بعض الملامح الفنية الرئيسية فى شعر محمود درويش ... على أن محمـود درويش هو فى النهـاية شاعر حساس يعيش فى « حلم كبير » هو حلم « انتصار قضيته » المظلومة ، وهـذا الحلم يفرض نفسه على صوره الفنية وعلى طريقته فى التعبير ، فبالرغم من أنه شاعر يعبر عن قضية واقعية هي قضية العرب فى الارض المحتلة ، ويعبر عن هذه القضية على أسـاس عقيـدته الاشتراكية التى تدافع عن العاملين المنتجين فى المجتمع والتى تطلب العدل لهؤلاء أولا وأخيرا ... رغم هذا كله فان محمود درويش كثـيرا ما يترك الواقع ويرتفع فوقه بجناحيه ،ذلك لان الواقع الذى يعيش فيه هو واقع مرير ،ولو استسلم الشاعر للتفكير الواقعى العادى لما وجد أملا ولا طريقا للخلاص ... ولكن محمود درويش يدرك بقلبـه ، وبطريقة شبه صوفية أن قضية شعبه هى قضية عـادلة ، وأن هذه القضية سوف تنتصر ... حتى لو لم تكن هناك الآن علامات قريبة أو ميسورة تدل على هذا النصر المنتظر ..

إنسانيون
لامتعصبون

يمثل محمود درويش مع شعراء المقاومة فى الارض المحتلة موقفا انســـانيا فريدا ... لقد تعرض هؤلاء الشعراء لاضطهاد مادى ومعنوى بالغ العنف والقسوة ، وتعرض شعبهم العربى الفلســـطينى لهذا النوع من الاضطهاد نفسه ، وسالت دماء هذا الشعب فى مجازر لم تنته منذ سنة ١٩٤٨ الى اليوم ، ولقد كان هذا كله كفيلا بأن يخلق فى نفوسهم نوعا من الحقـــد المرير ضد اليهود ، كشعب وكعنصر انسانى معا . ولو حدث ذلك لنفسية الشعراء والمواطنين العرب لكان ذلك شيئا طبيعيا ، فهو رد فعل منتظر لما يتعرض له العرب من قسوة واضطهاد يصورهما لنا الشاعر العربى فى الارض المحتلة تصويرا عميقا مؤثرا الى أبعد حد ، ولو قرأنا أى نموذج من نماذج شعر المقاومة فى الارض المحتلة فسوف نجد هذه الصور المثيرة للاضطهاد الاسرائيلى الموجه الى العرب . ويكفى أن نتذكر أحداث كفر قاسم التى تعرضنا لها فى فصل سابق والتى قتل فيها مايقرب من خمسين عربيا من تلك القـــرية فى ســـاعات قليلة .. ليلة العـــدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ . وقد انتهت هـــذه المجزرة ـ كما أشرنا فى الفصل الثانى ـ بمحـــاكمة مدبرها وهو ضابط اسرائيلى كبير اسمه « شدومى » ... وتقـــرر فى

آخر الامر تغريمه قرشا واحدا ... عقابا له على اغتياله لخمسين انسانا عربيا فى ليلة واحدة !

هذا هو بعض العذاب الذى يتعرض له العربى فى الارض المحتلة كما تصوره مذبحة كفر قاسم . ومع ذلك لم يحدث فى جميع النصوص التى وصلت الينا لشعراء المقاومة ان وجدنا نصا يوحى بالحقد العنصرى ضد اليهود .

ان نظرة محمود درويش وزملاءه من شعراء المقاومة هى نظرة انسانية نبيلة وشاملة . نظرة تدعو الى العدل ولا تدعو الى الانتقام والثار والحقد . نظرة تدعو الى اعادة الحقوق الضائعة دون أن تنزلق الى مهاوى العنصرية التى اندفعت اليها النازية ذات يوم ، عندما وجد هتلر ، مفكر النازية وزعيمها ، أناليهود يسيطرون على الاقتصاد الالمانى وعلى غيره من مظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية فى المانيا ، ولم يكن الحل من وجهة النظر النازية هو تحقيق العدل والمساواة بين الجميع ، بل كان الحل هو استئصال العنصر اليهودى والقضاء عليه أينما كان وكيفما كان ... وقد كتب هتلر فى كتابه « كفاحى » يقول عن اليهود :

« ان قذارتهم المادية ليست شيئا مذكورا بالنسبة الى قذارة نفوسهم ، فقد اكتشفت مع الايام أنه ما من فعل مغاير للاخلاق وما من جريمة فى حق المجتمع الا ولليهود يد فيها . واستطعت أن أقيس مدى تأثير « الشعب المختار » فى تسميم أفكار الشعب الالمانى وتخديره وشل حيويته ، بتتبعى نشاطه فى الصحف وفى ميادين الفنون والاداب والتمثيل ، فقد امتد الاخطبوط اليهودى الى هذه الميادين جميعا وفرض سيطرته عليها ورسمها

بطابعه . فمعظم المؤلفين يهود ومثلهم الناشرون والفنانون الخ ... وهذا التغلغل في كل ميدان من ميادين النشاط التوجيهي يشكل طاعونا خلقيا أدهى من الطاعون الاسود وأشد فتكا ، ذلك أن تسعة أعشار المؤلفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التى تروج للاباحية المطلقة هى من صنع اليهود » ...

هذا نموذج من أفكار هتلر الذى يمثل الموقف النازى فى مواجهته لليهود تمثيلا واضحا ودقيقا . ويتضمن هذا الموقف ضد النازية نوعا من الادانة المطلقة الشاملة لكل يهودى على ظهر الارض بلا استثناء ، فاليهودى ، لمجرد انه يهودى يجب التخلص منه وابادته والقضاء عليه من وجهة النظر النازية .

والغريب أن يكون الوجه الاخر للنازية هو الصهيونية ، كل ذلك بعد ان ذاق اليهود الوانا عنيفة من الاضطهاد على يد النازيين ...

ان الصهيونية تكرر المأساة النازية نفسها ضد العرب ، فالصهيونية تفرض حركة ابادة واضطهاد واسع على العرب فى الارض المحتلة ، والصهيونية تحاول أن تتوسع فى الارض العربية وعلى حساب الشعب العربى بكل الاساليب الملتوية .

والنازية كانت تقوم على اعلاء العنصر الالمانى فوق جميع العناصر البشرية ، والصهيونية تقوم على نفس الفكرة ولكن بالنسبة لليهود ، انها تعتمد على فكرة التفوق بالنسبة للعنصر اليهودى على غيره من العناصر البشرية ، ويكفى أن نشير الى عبارة قالها بن جوريون بعد عدوان ١٩٥٦ على مصر ... ان بن جوريون يرى أن هذا العدوان على العرب هو نصر عالمى من طراز لم يحققه شعب آخر ، فهو يقول :

« لم يكن انتصارنا فى سيناء هو النصر الاكبر فى تاريخ اسرائيل فقط ، بل انه النصر الاكبر فى تاريخ العالم قاطبة » ... ففي هذه العبارة تجسيد واضح للاحساس بالتفوق الكامل على العرب وعلى غيرهم من الشعوب ، وهو نفسه الشعور بالتفوق عند النازيين ، ويصاحب هذا الشعور بالتفوق استعلاء واضح على العرب يلخصه قول كاتب يهودى فى تصريح رسمي له « اننا ننظر الى العرب باستعلاء ، ولا نأخذ أمورهم مأخذا جديا ... ونحن نشعر بالتفوق عليهم ومن الصعب التصور بأن هذا الشعور سيختفى ذات يوم ... »

ويرسم لنا شاعر من زملاء محمود درويش صورة مباشرة قاسية لموقف اليهود من العرب فى قصيدة له بعنوان « انسان مشنوق » ... هذه القصيدة هى احدى قصائد سالم جبران الذى يعيش فى الارض المحتلة ... يقول الشاعر فى المقدمة النثرية لقصيدته « عرضت فى أسواق اسرائيل لعبة للاطفال تصور عربيا مشنوقا » ... ثم يقول الشاعر فى قصيدته ، وهى قصيدة بسيطة مباشرة تضع أصبعها على الجرح بلا مواربة أو مدآراة :

انسان مشنوق
أحلى لعبة
أحلى ملهاة للأولاد
تعرض فى السوق
كلا ... ليست فى السوق
فلقد بيعت ... نفدت من أيام
لاتبحث عنها ، وليفهم طفلك
نفدت من أيام
يا أرواح الموتى

فى معتقلات النازيين
الانسان المشنوق
ليس يهوديا فى برلين
الانسان المشنوق
عربى مثلى من شعبى
يشنقه اخوتكم
عفوا ... يشنقه أشباه النازيين
فى صهيون
يا أرواح الموتى
فى معتقلات النازيين
لو تدرون ! ... لو تدرون !

هذه صورة يقدمها لنا شاعر المقاومة ، سالم جبران ، رفيق محمود درويش وزميله فى الفن والمأساة ... ويحس الشاعر احساسا واضحا بتلك العلاقة الوثيقة بين النازية والصهيونية ... ويعبر عن رؤيته للصلة المشتركة بين المذهبين المتعصبين الخاليين من اى نزعة انسانية سليمة .

ومع ذلك كله فان شاعر المقاومة فى الارض المحتلة على كثرة مارآه وقاساه يعبر عن نزعة انسانية حقيقية ، انه يعادي الصهيونية ، يعادى الظلم الذى تمثله الفكرة الصهيونية وتمثله الدولة الاسرائيلية ، ولكنه لايحمل حقدا على اليهودى كيهودى ، ولا يحمل عداء للديانة اليهودية ولا للانسان اليهودى ، ولم أعثر فى أى نص قرأته من أدب المقاومة على حديث يكشف أو حتى يشير من بعيد الى نزعة عنصرية متعصبة عند شعراء المقاومة ، فهم يكرهون الظلم ويحاربونه سواء كان هذا الظلم من امريكا أو من اسرائيل . ان الدعوة للعداء الشامل لليهودية

ليست موجودة عند شاعر المقاومة ، فالعدو عند شاعر المقاومة محدد ومعروف بمنتهى الوضـــوح ... انه الاستغلال والاحتلال والصهيونية

يقول محمود درويش فى قصيدة له :

ســـجل
أنا عربى
سلبت كروم أجدادى
وأرضا كنت أفلحها
أنا وجميع أولادى
ولم تترك لنا ... ولكل احفادى
سوى هذى الصخور
فهل ستأخذها
حكومتكم ... كما قيلا
اذن !
سجل .. براس الصفحة الاولى
أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على احد
ولكنى اذا ماجعت
آكل لحم مغتصبى
حذار .. حذار .. من جوعى
ومن غضبى !

فهذا المنطق الذى يسود قصيدة محمود درويش هو منطق انسانى سليم ، ليس هو منطق هتلر الذى يكره اليهود ورائحة اليهود واسم اليهود وعنصر اليهود فى أى مكان أو زمان ... ولكن محمود درويش فى قصـــيدته يكره الاستغلال ، ويرفض موقف اسرائيل من العرب ومن أرضهم وحقوقهم المغتصبة . انه يكره الاستغلال مهما

كان مصدره . ثم يعلن انه كعربى لايكره الناس ، وانما يكره المغتصبين ... لأنهم مغتصبون لا لانهم يهود .

لم تخرج اذن عواطف شـــاعر المقاومة عن الحدود الانسانية على الاطلاق ... لم تخرج الى الحقد والثار والكراهية الشاملة للعنصر اليهودى مثلما نجد فى موقف هتلر ... انها روح انسانية تقف عند حدود المقاومة والتصدى للعدو .

بل اننا نجد فى قصيدة رائعة اخرى لمحمود درويش عنوانها « جندى يحـلم بالزنابق البيضاء » حديثا نبيـلا ومثيرا عن جندى يهودى . فالشاعر يصور هذا الجندى اليهودى انسانا له أحلام عادية كأى انسان طبيعى ولكنه ضحية من ضحايا العنصرية الصـــهيونية التى جرته وجرت الكثيرين غيره من اليهود العاديين الى موقف سىء وخاطىء أدى به الى أن يتحول الى جزار للعرب كمـا كان النازيون جزارين لليهود ... لقد تمزقت نفسية هذا الجندى وتلوثت بسموم الروح العسكرية الاسرائيلية ففقد انســـانيته الكامنة فى أعماقه ... يقول محمود درويش على لسان هذا الجندى اليهودى :

انني أحلم بالزنابق البيضاء
بشارع مغرد ومنزل مضاء
أريد قلبا طيبا ، لا حشو بندقية
أريد يوما مشمسا ، لا لحظة انتصار
مجنونة ... فاشية
أريد طفلا باسما يضحك للنهار
لا قطعة فى الآلة الحربية
جئت لأحيا مطلع الشمس
لا مغربها

وانني ارفض أن أموت
أن احارب النساء والصغار
كي احرس الكروم والابار
لاثرياء النفط والمصانع الحربية

وهكذا يستبعد محمود درويش الشاعر العربي الانسان كل عداء بينه وبين هـذا المواطن اليهودى العادى ، ليصل الى مشاعره الانسانية العميقة ، ويكشف محمود درويش في قصيدته عن الجانب الانسانى في هـذا الجنـدى اليهودى الذى شوهته العجلة الحربية وحولته الى سفاح بينما هو في الحقيقة يحمل قلبا انسانيا وأحلاما انسانية، ويود لو لم يكن حارسا « للكروم والابار من أجل أثرياء النفط والمصانع الحربية » .. ويشير محمود درويش الى أن اسرائيل تخدم بوضوح الاثرياء والرأسـماليين الغربيين الذين يتاجرون بالمصير الانسـانى ولا يهمهم سوى أن تزيد ثروتهم وتزدهر ولو كان ذلك على حساب اشعال الحروب واسالة دماء الملايين

ويكشف محمود درويش فى هذه القصـيدة الرائعة نفسها عن التشويه الذى أصاب نفسية هذا الجنـدى اليهودى ، حيث يصوره لنا الشاعر وقد جلس معه جلسة مصارحة ومكاشفة وجدانية صادقة

يصور لنا محمود درويش فى مقطع من قصيدته كيف استطاعت الروح العدوانية أن تسيطر على نفسية هذا الجندى ... فعندما وجه اليه الشاعر سؤالا عن عـدد قتلاه قال هذا الجندى :

ـ يصعب أن أعدهم
لكنني نلت وساما واحدا
سألته ، معذبا نفسي ، اذن

صف لى قتيلا واحدا ...
أصلح من جلسته ، وداعب الجريدة المطوية
وقال لى كأنه يسمعنى أغنية :
كخيمة هوى على الحصى
وعانق الكواكب المحطمة
كان على جبينه الواسع تاج دم
وصدره بدون أوسمة
لأنه لم يحسن القتال
يبدو أنه مزارع او عامل أو بائع جوال
كخيمة هوى على الحصى ... ومات
كانت ذراعاه
ممدودتين مثل جدولين يابسين
وعندما فتشت فى جيوبه
عن اسمه ، وجدت صورتين
واحدة ... لزوجته
واحدة ... لطفلته
سألته : حزنت ؟
أجابنى مقاطعا : ياصاحبى محمود
الحزن طير أبيض
لايقرب الميدان . والجنود
يرتكبون الاثم حين يحزنون
كنت هناك آلة تنفث نارا وردى
وتجعل الفضاء طيرا أسودا !

لقد أصاب التشويه المسموم نفسية هذا الجندى اليهودى ... فلم يعد يعرف الحزن ... ولم يعد يتأثر بمنظر الدم .. ولكن هذا كله يخفى تحته استعدادا انسانيا آخر ، فمن الممكن ولا شك يتحول هذا الجندى الى

انسان عادى ، يحلم أحلاما عادية .. بعيدة عن القتل والدماء ، وطريق اعادة هذا الجندى الى انسانيته هو انتزاع السموم الصهيونية من نفسه ، وابعاده عن التعصب وذلك بالطبع لن يتم الا بتقويض جميع المبادىء الصهيونية العنصرية التى تقوم عليها دولة اسرائيل . فهذا الجندى اليهودى لا تربطه بفلسطين روابط عميقة ... فلا هو من هذه البلاد ، ولا هى أرض أهله وأجداده ... وكما يقول محمود درويش فى نفس هذه القصيدة على لسان الجندى اليهودى فى حديثه عن علاقته بفلسطين :

وكل مايربطنى بالارض من أواصر
مقالة نارية ... أو محاضرة
قد علمونى أن أحب حبها ،
ولم أحس ان قلبها قلبى
ولم اشم العشب والجذور والغصون ...

وقد أثارت هذه القصيدة من قصائد محمود درويش اعتراض بعض النقاد ، فهاجمها الأستاذ يوسف الخطيب واعتبرها نوعا من التصوير الزائف للنفسية اليهودية ، وذلك فى مقدمته « لديوان الأرض المحتلة » الذى جمع مجموعة ضخمة من قصائد شعراء المقاومة ... يعلق يوسف الخطيب على هذه القصيدة فيقول :

« أى نمط انسانى ، عجيب حقا ، ذلك الذى جلم من بولندة ، أو رومانيا ، أو اتحاد جنوب افريقيا ، من أجل أن يبحث عن زنابق بيضاء فى الجولان ، أو فى الغور الأردنى أو فى سيناء ... ان هذا الانسان ، سواء كان فى هيئة عامل أو فى هيئة مزارع ، أو فى هيئة جندى يحلم بالزنابق البيضاء ، لايكاد يختلف شيئا عن أيما ضابط

هتلرى قام بواجبه العسكرى على أكمل وجه فى ساحة القتال ، أو فى أحد أفران الغاز ثم عاد الى نفسه ليسكر ويبكى ، ويتأمل صورة زوجه وطفله الرضيع اللذين تركهما فى برلين »

ورغم قيمة اعتراض يوسف الخطيب وذكائه ، فاننى لا أوافق عليه ، فالنزعة الانسانية التى يعبر عنها محمود درويش فى شعره تبرر مثل هذه القصيدة وتجعل منها عملا فنيا وفكريا ممتازا ... وموقف محمود درويش هنا يناقض تماما الموقف النازى والموقف الصهيونى ... انه موقف عربى انسانى يريد القضاء على الظلم والعدوان ولا يريد أن يخوض فى دماء اليهود ، كبشر ، أو كأصحاب ديانة ... فليس بينه وبين اليهود مشكلة ، ولكن المشكلة كل المشكلة بينه وبين الصهيونية التى اغتالت مصالح العرب وضللت نسبة كبيرة من اليهود العاديين أنفسهم

وفى قصيدة محمود درويش الى جانب ماتكشفه من عناصر انسانية فى شخصية الجندى اليهودى كشف للتشويه الذى أصاب هذه العناصر الانسانية وأخفاها ، وحول هذا الانسان اليهودى البسيط الى سفاح ... فليس فى قصيدة محمود درويش اذن سذاجة فنية أو فكرية تدفعه الى أن يثير فى نفوسنا تعاطفا مع الجندى اليهودى ... كلا ... ان الشاعر هنا يكشف لنا ذلك الجندى اليهودى بجانبيه : الانسانى وغير الانسانى معا ... ليقول لنا فى النهاية بايحاء فنى عميق ... ان الجانب الانسانى ضاع تحت ضغط الجانب الاخر ، غير الانسانى ... وان هذا الجندى كان من الممكن ان يكون

زوجا وابا طيبـــا وعاملا من العمـــال المنتجين ولكن الصـــهيونية حولته الى مجرم وقاتل وعدو من أعداء الانسان والحياة .

ومن الضرورى أن نلتفت الى أن محمود درويش قد استفاد من ثقافته الاشتراكية فى تدعيم نظرته الانسانية هذه ، وهي النظرة البعيدة عن أى عنصرية ترفع الجنس العربى فوق بقية الاجناس والشعوب ، وبعيدة عن أى تعصب ضد اليهود كجنس أو كديانة ... والاشتراكية ترفض كل مظاهر العنصرية والتعصب ، أنها نظرية تدعو الى الانسانية والعدالة والاخوة البشرية بكل ما فى هـــذه القيم من معان رحبة واسعة .

ولا شك أن الثقافة الاشتراكية عند محمود درويش قد قادته الى هذه النظرة الانسانية الشاملة وساعدته على التزام هذا الموقف البعيد عن أى تعصب أو حقد عنصرى .

وموقف محمود درويش هو موقف كل شعراء المقاومة فى الارض المحتلة ... انهم انسانيون لا متعصبون ... دعوتهم هى الحرية والعـدل وليست هى الانتقـام أو العدوان على الاخرين .

مع الطبيعة

منحت الطبيعة فلسطين جمالا لا شك فيه ، وهناك بيت مشهور للشاعر على محمود طه لعله لا ينطبق على بيئة طبيعية كما ينطبق على البيئة الفلسطينيــة ، وفى هذا البيت يقول الشاعر :

لا تقل أخصب الثرى

فهنا أورق الحجر ...

فالحجر فى فلسطين ليس حجرا عقيما لا ينبت ولا ينجب بل هو حجر أخضر مثمر ، تنبت فيه أشجار الزيتون ، وتورق على قمم جباله أشجار أخرى تملأه باللون الاخضر الســــاحر ، أما الاراضى الرمليـــة فى فلسطين ، ففيها تنبت أشجار البرتقـــال والليمون ، حيث يمتلىء الهواء الفلسطينى بعطر رائع يملأ القرى ويتسلل الى المدن ... وهكذا ... فقد أعطت الطبيعة هذه البلاد كثيرا من لمساتها المليئـــة بالجمال والسحر والاشراق

وفى ظل الطبيعة الفلسطينية ينطلق خيـــال الانسان الى عالم من الشعر النقى الصافى ، ولذلك لم يكن من الغريب أن تكون هذه الارض بالذات مهدا لـكثير من الشعراء والحكماء والأنبياء ، فالطبيعة الجميلة المتنوعة تملأ القلب بالعواطف الكبيرة وتدفع العقل الى تاملات

غنية خصبة ... ومن بين أحضان الطبيعة الفلسطينية خرجت مزامير داود ، وهي نوع من الشعر الذى تمتزج فيه العاطفة الحارة بالحكمة العاقلة ، وعلى أرض فلسطين أيضا ولدت تأملات سليمان الحكيم فى الكون والانسان ، وعلى نفس الارض ظهر نشيد الانشاد الذى سجلته التوراة، ونشيد الانشاد هو أروع قصيدة غزل عرفتها الآداب الانسانية القديمة ، ويرى كثير من الباحثين ان هذه القصيدة الفريدة هى فى ظاهرها غزل بينما هى فى باطنها تصوف وشعر دينى . وعلى الارض الفلسطينية أيضا ولد المسيح وولدت كلماته المليئة بالعذوبة والصفاء والروح الانسانية العميقة الشفافة ... فكأن الله قد جعل فلسطين بيئة طبيعية تنبت الليمون والبرتقال والزيتون كما تنبت الشعر والحكمة والجراح والاحزان الكبيرة .

واى شاعر حساس يولد فى الارض الفلسطينية لابد أن يتنبه بقلبه وعقله معا للطبيعة ، ولا يمكن لمثل هذا الشاعر أن يتجاهل البحر والرمل والصخور الخضراء والليالى القمرية الساحرة وحفيف الاوراق وعطر البرتقال والليمون ... لا يمكن للشاعر الموهوب الا أن يصغى الى هذه السيمفونية ويتأثر بها وألا كان هناك نقص واضح وفادح فى ذوقه واحساسه بالحياة .

وشاعرنا محمودددرويش، ابن قرية البروة الفلسطينية هو شاعر حساس متفتح القلب والعقل ، وهو الى جانب ذلك شاعر محب لوطنه حبا صوفيا عميقا ، والمحب العاشق هو أول القادرين على الاحساس بجمال حبيبه ، واكتشاف هذا الجمال . ولذلك فنحن نجد عند محمود درويش احساسا عميقا بالطبيعة الفلسطينية التي تنعكس على شعره بقوة ووضوح .

ولا شـــك ان نشـــأة محمود درويش قد عمقت احساسه بالطبيعة ، وعلاقته الوجدانيـــة معها ، ذلك لأنه ولد فى قرية فلسطينيـــة ، وعاش فترة طويلة من صباه فى هذه القرية ، والذين يعيشون فى القرية يحسون بالطبيعة أكثر من أهل المدينـــة ، حيث تلعب الطبيعة فى المدينة دورا ثانويا فى حياة الانسان ، وخاصـــة مع انتشار وسائل الحياة الحديثة التى تجعل من المدينة العصرية كيانا صناعيا لا طبيعيا ، فحيث يجد انســـان القرية متعته تحت ظلال الاشجار وفى النســـمات التى تهب منطلقة لا تعوقها عمارات شاهقة ولا زحام معقد ، نجد أن أهل المدينة يبحثون عن الاماكن المكيفة الهـــواء بأساليب صناعية ، ويتوارى القمر فى ســـماء المدينة أمام الانوار والاضواء الصناعية ، ولـــكن القمـــر فى القرية يلعب دور البطولة ، ولذلك فأغلب الشـــعراء الذين يعبرون عن الطبيعة ويصورونها فى أشـــعارهم هم من أبناء الريف ، الذين عاشوا طويلا مع الطبيعة فتسربت الى نفوسهم واستطاعت أن تتمكن منهم كل التمكن .

على ان محمود درويش لم يقدم الينا فى شعره وصفا مجردا للطبيعة ، فهو من هذه الناحية بعيد تمام البعد عن « شعر الطبيعة » بهـــذا المعنى . فهناك شـــعراء كثيرون جعلوا الطبيعة موضوعا لهم ، يصـــورونها ، ويكتشفون أسرارها ، ويعبرون عن جمالها . ان الطبيعة فى شعر هؤلاء هى غاية فى ذاتها . ولـــكن محمود درويش لم يتخذ من الطبيعة فى شعره موضوعا مستقلا ، ولم يجعل منها غاية جمالية يستغلها فى فنه الشـــعرى : مصورا لها مفتونا بجمالها معبرا عما فيهـــا من عناصر متناسقة أو غير متناسقة فالموضوع الاول والاكبر عنـــد

محمود درويش ، هو تجربته الانسانية الوطنية ، ومن خلال هذه التجربة تتحدد نظرته الى سائر الموضوعات الاخرى . وعلى راس هذه الموضـوعات التى يستغلها محمود درويش استغلالا فنيا كبيرا للتعبير عن تجربته تقف الطبيعة فى المقدمة . ان كل شعر محمود درويش تقريبا ينبع اولا واخيرا من تجربته كفلسطينى عربى عاشق لوطنه متأثر الى حد بالغ العمق والحرارة والحدة بمأساة هذا الوطن . لقد نطق محمود درويش بالشعر عندما أحس بالمأساة الفلسطينية ولمسها بوجدانه وعقله معا . هزته المأساة هزا عنيفا وملأت عليه يقظته ورؤى نومه ، وهاله ما فيها من عنف وقسوة ، فأصبحت مشاعره تغلى برفض ما جرى من ناحية وبالاصرار على تحقيق العدل الكامل بالنسبة لهذه القضية المظلومة فى نفس الوقت .

هذه هى نفسية محمود درويش التى يصدر عنها كل انتاجه الفنى الغزير الخصب .

فالرؤية الوجدانية الاساسية عند محمود درويش هى رؤيته لمأساة وطنه وهى الرؤية التى تسيطر عليه سيطرة كاملة ، والتى يرى من خلالها كل الموضوعات الاخرى وعلى راسها « الطبيعة » . فهو يستخدم الطبيعة فى شعره ليعبر من خلالها عن شىء أبعد منها هو رؤيته الخاصة لمأساة الوطن والانسان ، وهى الرؤية التى تسيطر عليه تمام السيطرة .

ومن النشأة الاولى لمحمود درويش فى احدى القرى الفلسطينية ، ومن الرؤية التى تسيطر على وجدانه جاءت أول ظاهرة نلتقى بها فى كل ما يكتبه عن الطبيعة . فالطبيعة فى شعر محمود درويش ليست هى الجمال

المجرد ، فهناك ارتباط دائم بين جمال الطبيعة وبين حاجة الانسان ومطالبه . فالفلاحون لا يفضلون « الورد » على « القمح » . ولا شك ان الباحثين عن الجمال المجرد سوف يفضلون الوردة الواحدة بعطرها وجمالها على آلاف السنابل . ولكن القروى الذى يعيش فى قلب الطبيعة ، ويدرك احتياجات الانسان فى قريته ، انما يبحث عن معنى آخر للجمال ... هناك تكون السنبلة أجمل من الوردة . لأن السنبلة تمده بحبة القمح التى يعيش منها ويواصل بفضلها حياته . ويبدو صوت الساقية أعذب من خرير اى مياه أخرى ، لأن صوت الساقية يرتبط بعملية كبيرة هى نمو الزرع وازدهار الثمار . يقول محمود درويش فى قصيدة له عنوانها « عن الصمود » :

انا نحب الورد
لكنا نحب القمح أكثر
ونحب عطر الورد
لكن السنابل منه أطهر

ان الشاعر يعبر فى هذه الابيات تعبيرا صريحا عن معنى الطبيعة فى نظره ، فمعناها الاساسى يرتبط بعلاقتها مع الانسان ، أى ان الجانب الانسانى هو الذى يعنيه أولا وقبل كل شىء . ففى عالمه ــ كفلسطينى ــ حيث الانسان العربى جائع ومهدد بالا يجد لقمة خبز لأولاده ، تكون السنابل أكثر جمالا وسحرا وطهرا من أجمل ورود الارض . ان سنبلة القمح هى التى تملك أن تمنح الاطفال والرجال والنساء قدرة على الاستمرار فى الحياة والتغلب على أحزانهم وفجائعهم الكثيرة ، انها تملك القدرة على أن تمسح الدموع والاحزان

وتحمل الفرح والابتســـــام الى القلوب . ان المعنى الانساني لسنبلة القمح فى مثل هــذه الظروف القاهرة العصيبة التى يعيش فيها العربى فى فلسطين المحتلة هو الذى يعطيها قيمتها وجمالها وروعتها فى نظر الشاعر .

ولنتصور قلب أم أو قلب اب وامامهما طفــل يتضور جوعا ... اى ســعادة فى الدنيا أعلى وأعمق من تلك السعادة التى تحملها الى قلبيهما سنبلة القمح ؟.. ان هذه السنبلة بالنســبة اليهما هي كل الجمـــال وكل السعادة . انها أروع ما فى الحياة .

وهناك شيء آخر يرتبط بسنـــبلة القمح ويزيد فى معناها الانسانى ، فهذه السنـــبلة قد نمت ونضجت بعد أن وقف الانسان وراءها يكدح ويكافح ويمنحها من جهده وعرقه . فالسنبلة الواحدة تحمل معها قصــة كفاح انسانى حقيقى . ومن هنا يرى محمود درويش صورة الانسان وكفاحه فى هــذه السنبلة البسيطة .

ذلك لأن الذى يعنى هذا الشاعر هو انسان بلاده ، وما أصابه من محنة كبيرة واسي جارف مرير . فالشاعر يحمل مأساة هذا الانسان فى قلبه ، ولا تهزه ظاهرة من ظواهر الطبيعة الا اذا كان لها علاقة بهذا الانسان ، سواء كانت هذه العلاقة هى احتياج الانسان الى هــذه الظاهرة الطبيعية ، أو كانت تشير الى جهــد الانسان الكامن وراء هذه الظاهرة الطبيعية . ومن هنـــا كان تفضيل الشاعر لسنبلة القمح على الورد وعطر الورد.

وليست المسألة هى أن الشـــــاعر هنا يحمل نظرة « نفعية » ينظر بها الى الطبيعة ، بمعنى انه لا يحب من ظواهر الطبيعة الا ما هو مفيد ونافع ... كلا... ليست القضية هى تفضيل « المنفعة » على «الجمال» ،

فالقضية على حقيقتها هى تفضيل النظرة لانسانية على النظرة المجردة . ومحمود درويش لا يقبل النظرة المجردة ، ولا يحتملها ... لأنه انساني تهمه التجارب الانسانية فى نظرته الى كل ظواهر الحياة . أهم ما يعنيه ويستولى على عواطفه واهتمامه هو الانسان ، وانسان بلاده المجروح الكادح المحزون على وجه الخصوص .

يقول محمود درويش فى نفس القصيدة التى تحدث فيها عن الورد والقمح وهى قصيدة « عن الصمود » ، وفى هذه الفقرة بالذات يخاطب الناس فى بلاده :

فاحموا سنابلكم من الاعصار
بالقدم المسمر !
هاتوا السياج من الصدور
من الصدور فكيف يكسر ؟ !
النار تلتهم الحقول الضارعات
وأنت تسهر !
اقبض على عنق السنابل
مثلما عانقت خنجر
الارض والفلاح والاصرار
قل لى : كيف تقهر
هذى الاقانيم الثلاثة
كيف تقهر ؟

وهكذا يرى الشاعر أن مصير وطنه ، ومصير الانسان فى هذا الوطن مرتبط أشد الارتباط بالدفاع عن السنابل ، وفى معانقتها كأنها خنجر يحمى به الانسان نفسه من التحديات التى يوجهها اليه عدو شديد القسوة والوحشية

ويؤكد محمود درويش على ايمانه أولا وقبل كل شيء

« بالعنصر الانسانى » فى الطبيعة وذلك فى قصيدة اخرى بعنوان « الورد والقاموس » وهى احدى قصائد ديوانه الرابع « آخر الليل » ، وقد كتب هذه القصيدة بعد هزيمة ٥ يونيو التى لم تدفع به الى اليأس كما حدث لكثير من المثقفين العرب ، بل دفعته الى مزيد من الايمان بقضيته :

وليكن ...
لا بد لى أن أرفض الورد الذى
يأتى من القاموس
أو ديوان شعر
ينبت الورد على ساعد فلاح
وفى قبضة عامل
ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر ...

وفى هذه الابيات يؤكد محمود درويش انه يرفض ذلك الشعر المزيف الذى يهتم بجمال الطبيعة اهتماما شكليا دون أن يعرف حقيقة ما يعانيه الانسان .

فالشاعر الذى يزرع الورد على ساعد فلاح وفى قبضة عامل وعلى جرح مقاتل ... هذا الشاعر انما يهتم بالجمال الخارجى الزائف ، دون أن يهتم بالحقيقة الانسانية الاصيلة ، فالفلاح والعامل والمقاتل لا تنبت الورود على أكفهم وانما تولد العواصف والرياح والزوابع ويتدفق من بين أصابعهم جهد وعرق . الشاعر هنا

يهاجم الذين يحاولون خلق صور مزركشة مزخرفة للحياة الحقيقية المليئة بالمعاناة ، فيرسمون صورة للفلاح السعيد ، أو لعامل قلبه عامر بالطرب ، أو للمقاتل الذى يذهب الى الحرب كأنه يذهب الى حفلة ساهرة ...

كل هذه الصور تزوير فى تزوير ، والورد الذى تقدمه الينا هذه الصور لا يعطينا عطرا وانما يعطينا سما زعافا لا جمال فيه ولا صدق ولا حياة .

وعندما يقول الشاعر « انه يرفض الورد الذى يأتى من القاموس » ، فانما يقصد بذلك انه يرفض الاعتماد على البلاغة القائمة على الخيـــال والمستمدة من الكتب ، لأنه يؤمن بالفن الذى ينبع من الحياة ومن الواقع ومن تجربة الانسان .

وفى قصيدة أخرى بعنوان « موال » من ديوانه « آخر الليل » يؤكد محمود درويش على العنصر الانســانى فى الطبيعة حيث يقول :

اذا خسرت الصـديقة
فقدت طعم السـنابل
وان فقدت الحديقـة
ضيعت عطر الجدائل
وضاع حلم الحقيقة !

فوجود الانسان هو الذى يعطى للطبيعــة قيمتهـــا ومعناها وطعمها ، واذا اختفى الانســـان اختفى معنى الطبيعة عند الشاعر ، وربما كان العكس صحيحا أيضا ، فلقاء الطبيعة والانسان هو الذى يخلق الحركة والحياة والتوهج . ولا بد أن نلاحظ فى هـذه الابيات الاخيرة ذلك التعبير الجديد الذى يقدمه الشاعر وهو تعبـــير « حلم الحقيقة » ، وليس هذا التعبير تصغيرا للحقيقة أو تقليلا من شأنها ، ولـكن الشاعر يرى فى الحقيقة قوة مسيطرة عليه ... وكثيرا ما يعبر محمود درويش فى شعره ــ كما أشرنا من قبل ــ عن سيطرة حلم كبير على حياته النفسية ، وهو حلم غير عابر ، انه حلم لا يفارقه

أبدا ، وهو يعيش فى هذا الحلم دائما ولا ينفصل عنه ، والحلم هو حلم الحرية والخلاص من أزمة شعبه وأرضه والقضاء على التمزق الذى يعانيه الوطن ويعانيه الاهل فى نفس الوقت . وهكذا ... عندما تتحول الحقيقة الى حلم ثابت قوى فانها تكبر بذلك وتسيطر على روح الشاعر ونفسيته سيطرة كاملة .

ولعلنا نزداد احساسا بالمعنى الانسانى الذى يراه محمود درويش فى الطبيعة عندما نقرأ هذا البيت فى قصيدة « أغنية ساذجة عن الصليب الاحمر » :

عندما تفرغ أكياس الطحين
يصبح البدر رغيفا فى عيونى

ثم يقول الشاعر فى نفس القصيدة :

يا أبى ! هل غابة الزيتون
تحمينا اذا جاء المطر ؟
وهل الاشجار تفنينا عن النار ؟
وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج ، أو يحرق أشباح الليالى ؟

فى هذه الابيات كلها تأكيد لاحساس الشاعر بضرورة الربط بين الطبيعة والانسان . فالقمر يتحول الى رغيف خبز عندما يكون الانسان جائعا . ولا جدوى من غابة الزيتون اذا لم تحم الانسان من المطر ، ولا جدوى من الاشجار اذا لم توفر للانسان نارا فى برد الشتاء . ولا جدوى من ضوء القمر ، اذا كان الانسان يعيش حياة تعيسة لا يجد فيها احتياجاته ولا يتخلص فيها من مصاعب حياته المادية والمعنوية .

وهكذا فالشاعر يربط ربطا قويا وأساسيا بين الطبيعة والانسان ، ويرى ان الانسان هو الاصل ، وان

العنصر الانسانى فى الطبيعة هو الذى يعطيها قيمتهـا ومعناها ... ولا قيمة للطبيعة عنـد محمود درويش بعيدا عن الانسان . فهو ليس من عشـاق الطبيعة المجردة ، ولا من عشـاق الجمال المجرد ... انه من عشاق الانسان والجمال الانسانى

هذا هو المعنى الاساسى الاول الذى يملأ شعر محمود درويش فى نظرته الى الطبيعة

ولـكننا نجد للطبيعة معانى أخرى متعددة فى قصائد هذا الشاعر ، وكلها ولا شك مرتبطة بتجربته الانسانية والوطنية التى تتمثل فى مأساة فلسطين

فنحن نجد عنـد الشـاعر الى جانب اهتمامه بانعكاسات المـأساة الانسانية فى الطبيعة شعورا عميقا بأن الطبيعة ثابتة لا تتغير أو تزول ، وهذا الثبات فى الطبيعة هو الحقيقة الاساسية رغم كل مظاهر التغير فى التفاصيل الصغيرة . فالبحار تتعرض للمد والجزر ، ولـكنها لا تزول من الوجود ، والربيـع يتلوه الصيف والخريف والشـتاء ، ولـكن الربيع لا بد أن يعود ، والاشجار والازهار والسنابل يمكن اقتلاعها ، ولـكنها تتجدد عن طريق بذور قليلة بسيطة . وهذا الثبات فى الطبيعة وراء التغيرات الجزئية والشـكلية يخلق علاقة وثيقة بينها وبين الشاعر . فالشـعب فى نظر محمود درويش ، مهما تعرض للأزمات والمصاعب فانه لا يمكن أن يتلاشى أو يزول ، وقد يتعرض الشعب لمذابح كثـيرة ولكن هذه المذابح لا يمكن أن تقضى عليه ، فالبذرة الصغيرة تملك فى أعماقها قوة كبيرة ، وكذلك فان الشعب يمكن له أن يسترد حيويته وقوته حتى ولو لم يبق منه الا عـدد قليل ومحدود من أبنائه .

ان الطبيعة تعطى مثلا كبيرا للقدرة على التجدد والاستمرار مهما كانت العواصف ... يقول محمود درويش فى قصيدة بعنوان « عن انسان » وهى القصيدة التى أشرنا اليها فى فصل سابق :

يا دامى العينين ، والكفن !
أن الليل زائل
لا غرفة التوقيف باقية
ولا زرد السلاسل !
نيرون مات ولم تمت روما
بعينيها تقاتل
وحبوب سنبلة تجف
ستملأ الوادى سنابل !

والبيت الاخير بالذات هو الذى يجسد معنى الثبات عن طريق التجدد فى الطبيعة ، وهو المعنى الذى يلتفت اليه محمود درويش ، ويحس ان له مقابلا فى الحياة البشرية ، فالانسان أيضا ثابت فى اطار من التجدد مثل الطبيعة تماما . والسنبلة التى تجف ، يمكن لحبوبها أن تملأ الوادى سنابل ، وكذلك الشعب الذى يصيبه ما أصاب شعب فلسطين من متاعب ومصاعب ومآس كثيرة ... هذا الشعب يستطيع أن يتجدد ويملأ الوادى ، ولو لم يبق منه الا عشرات الافراد الذين اصابهم التعب كما تصاب حبات القمح الصغيرة ... التى تعود فتملأ الوادى سنابل .

ويرتبط بمعنى الثبات فى الطبيعة عن طريق التجدد والتغييرات الجزئية التى لا تقضى على ظواهر الطبيعة الرئيسية معنى آخر هو أن الطبيعة لا تعرف الموت . فالحبة عندما ندفنها فى الارض لا تموت وانما تثمر .

والشجرة التى تتعرى أغصانها من الاوراق فى الخريف تعوذ بعد ذلك الى الاخضرار فى الربيع ، والماء يتحول الى بخار ثم ينزل مطرا من جديد • فالطبيعة ـ اذن ـ لا تعرف الموت أبدا • وكل محاولة لقتل الطبيعة تنتهي الى الفشل • والشاعر ـ كعادته ـ يربط بين هذا المعنى الذى يستمده من الطبيعة وبين شعبه ووطنه ، ففيهما قوة الطبيعة ، انهما لا يموتان أبدا ، ومهما تعرضا لمظاهر الموت الخارجية فانهما لابد عائدان الى الحياة من جديد . هكذا يؤمن الشاعر ايمانا لا يتردد . وهو يجد فى الطبيعة ما يؤكد له هذا المعنى دائما حيث يقول :

الموت والميلاد فى وطني المؤله توأمان

ذلك لأن الموت تتبعه الحياة على الفور . فهناك بعث دائم متجدد للشعب مهما كانت المصاعب والظروف القاهرة ... يقول محمود درويش فى قصيدته « رد الفعل » :

سدوا على النور فى زنزانة
فتوهجت فى القلب شمس مشاعل
كتبوا على الجدران رقم بطاقتى
فنما على الجدران مرج سنابل

وهكذا فكلما ضاق الخناق عليه تجدد وازداد اشتعالا وتوهجا ، فالضغط لا يقتله وانما يحييه ، والمصاعب لا تسد عليه الطريق ، وانما تفتح أمامه سبلا واسعة عريضة . ونجد هذا المعنى الكبير الذى يستمده محمود درويش من ظواهر الطبيعة يتكرر فى كثير من قصائده . ففى قصيدته « الاغنية والسلطان » يقول :

أخبروا السلطان

ان البرق لا يحبس فى عود ذرة
للاغانى منطق الشمس
وتاريخ الجداول
ولها طبع الزلازل
والاغاني ، كجذور الشجرة
فاذا ماتت بأرض
أزهرت فى كل أرض
كانت الاغنية الزرقاء فكرة
حاول السلطان أن يطمسها
فغدت ميلاد جمرة !
كانت الاغنية الحمراء جمرة
حاول السلطان أن يحبسها
فاذا بالنار ... ثورة !

وهكذا فان الضغوط والعقبات لا توقف حركة الحياة بل تفجرها وتزيدها اشتعالا وقوة . وهذا هو القانون الذى يسيطر على الطبيعة ، وهو بالتالى القانون الذى يسيطر على حياة الشعب كما يتصورها الشاعر وكما يؤمن بها ... وهو قانون لا يعرف الموت ولا يعترف به ، بل هو قانون يقول بأن الحياة أقوى من جميع العقبات التى تتعرض لها ... ولنقرأ أيضا هذا النموذج من قصيدة للشاعر بعنوان « ولادة » :

يا أمى
جاوزت العشرين
فدعى الهم ونامى
ان قصفت عاصفة
فى تشرين
ثالثهم

فجذور التين
راسخة فى الصخر ... وفى الطين
تعطيك غصونا أخرى
وغصون !

انه في هذه الابيات يقول لأمه : لقد بلغت العشرين فلا تخافى على ... وحتى لو أصابنى مكروه قضى على حياتى فأنت قادرة على العطاء ، مثلك مثل الطبيعة ، والجذور الراسخة تعطى على الدوام غصونا جديدة ... ولعل أمه هنا هي وطنه ، فهو كثيرا ما يمزج بين صورة الأم وصورة الوطن . وبهذا المعنى فنحن أمام رؤية لا تعترف بالموت ولا تخشاه ، وتحس أن حياة الوطن مثل حياة الطبيعة : باقية ودائمة ، ولا يمكن للموت أن يقضى على الوطن القادر على التجدد ، كما لا يمكن للموت أن يقضى على مظاهر الطبيعة القادرة على التجدد .

ومحمود درويش الى جانب ذلك كله يصور لنا الطبيعة وهى تعكس الحالات النفسية التى يمر بها ، فالطبيعة تأخذ منه كما تعطيه ... لقد أعطته ايمانا بالتجدد والقدرة على مغالبة الموت ، وهو يعطيها هنا ما فى نفسه ، ففى حالة حزنه نرى الطبيعة حزينة ، وهذه صورة لحزن الطبيعة مع حزن الشاعر يقدمها لنا فى قصيدته « ثلاث صور » :

كان القمر
كعهده ـ منذ ولدنا ـ جامدا
الحزن فى جبينه مرقرق
روافدا ... روافدا
قرب سياج قرية

خر حزينا ... باردا

ففي هذه الصورة « يسقط » الشـــاعر حزنه على صورة القمر وهذا النوع من « الاسـقاط » شائع فى الشعر ، بل وفى كل الوان الفن ، فما دامت الطبيعة عنصرا يستخدمه الفنان فى بناء عمله الفنى ، فهو يعطيه لون نفسه ، فاذا كان حزينـا فهو يعطيهـا لونا قاتمـا واذا كان مليئا بالسعادة والفرح فهو يعطيها لونا مشرقا زاهيا . وكما رأينا الشاعر فى القصيدة السابقة يعكس الوان نفسه الحزينة على الطبيعة ، فهو يعطينـــا فى قصيدة أخرى ألوانا زاهية متفائلة مشرقة ، وذلك عند ما يحس بالفرح والسعادة ، فهو يقول فى قصيـدته « عنوان جديد » :

وحتى القمر
عزيز على هنا
صار أحلى وأكبر
ورائحة الارض عطر
وطعم الطبيعة سكر
كأنى على سطح بيتى القديم
ونجم جديد
بعينى تسمر

فاللحظة الاولى التى كان فيها القمر جامدا حزينا ، تنساب منه روافد قاتمة تعيســـة ، كانت لحظة أسى ويأس ، بينمـــا نجد القمر يكبر ويزداد حـــلاوة وجمالا ، وتبدو الارض والطبيعة مثل نفسية الشاعر فى هذه اللحظة المبتهجة المشرقة . فالطبيعة اذن تحمـــل أحاسيس الشاعر وتجسدها لنا ، وتشاركه فى حالاته النفسية المختلفة فان كان حزينا شاركته الحزن ، وان

كان سعيدا شاركته السعادة .

وهـــذا الاستخدام للطبيعة هو استخدام عادي ، يتكرر كثيرا في نماذج الشعر الانساني ، وليس لمحمود درويش فيه تميز خاص على غيره من الفنـانين ، وان كان محمود يحتفظ لنفسه باستقلاله الفني في اختيـار صوره وتحديد هذه الصور ... حيث يبدو تصويره للقمر في حالة الحزن وحالة الفرح تصويرا جميلا مليئا بالحيوية الفنية الواضحة ... ففي الصـورة الاولى يبدو القمر « جامدا » و « باردا » و « الحزن في جبينه مرقرق ... روافدا ... روافدا » وهي كلها صـور حساسة تستمد عناصرها من عاطفة الحزن وما توحي به هذه العاطفة من ايحاءات مختلفة ، بينما نجد القمر في الصورة الثانية « صار أحلى وأكبر»... وهي صورة مستمدة من عاطفة الفرح ، التي تكبر معهـا الاشياء وتزدهر وتصبح أكثر جمالا وروعة . وفي هذه الصـورة الاخيرة بالذات لمسة من « الطفولة» المشرقة واحساسها بالاشياء في حالة الفرح والسعادة ، فالقمـر « صـار أحلى وأكبر » و «... طعم الطبيعة سكر » و « رائحة الارض عطر » ... هذا نوع جميل أصيل من الفرح ، انه فرحة الاطفال والشعراء ، فرحة النفس البسـيطة التي لا تخفي مشاعرها ولا تضفي عليهـا اى لون من التعقيد ... بل تصرخ بالبهجة ، كما تصرخ بالاسى في لحظات الحزن والضيق ، وهي هنا شأنها شأن الاحساس الطفولي بالحياة تقيس جمال الاشياء بحجمها المادى الكبير ... فالاطفال كثيرا ما يقولون عن الشيء الجميـل في نظرهم : انه كبير .

والعودة الى الطفولة واحاسيسها البسـيطة المشرقة

الصريحة هي نبع من أصفى ينابيع الشعر ، وهو نبع يعرفه محمود درويش جيدا ، ويشرب منه دائما ويسقي منه أشعاره ... وهو عندما يعود الى أحاسيس الطفولة ورؤاها ودنياها البسيطة انما يعود بانسانيته الى البراءة والصدق والطهر الكامل والانطلاق والحماس للطبيعة والانسان والحياة . وكبار الشعراء هم الذين يعرفون كيف يشربون من نبع الطفولة الصافي البريء المليء بالطهر والنقاء .

واذا تركنا هذا « الاستخدام الذاتي » للطبيعة في شعر محمود درويش ، فاننا نجد أمامنا صورة أخرى للطبيعة ، فعندما يريد الشاعر أن يصور لنا «الحرية» كما يفهمها ويحس بها ، فانه لا يجد خيرا من صورة الطبيعة وازدهارها كمعادل فني للحرية ، ففي قصيدة له عن جبال « الاوراس » في الجزائر يقول :

يا كبرياء الجرح! لو متنا
لحاربت المقابر
فملاحم الدم في ترابك
ما لها فينا أواخر
حتى يعود القمح للفلاح
يرقص في البيادر
ويغرد العصفور حين يشاء
في عرس الازاهر
والشمس تشرق كل يوم
في المواعيد البواكر

ان الشاعر يؤكد هنا ان « الحرية » معناها ازدهار الطبيعة ، فالحرية هي عرس الطبيعة ، وانتصار الجزائر انما يتجسد في رقص القمح ، وتفريد العصافير

واشراق الشمس ، على ان الشاعر لا ينسى وهو يصور لنا هذه الصورة أن « عرس الطبيعة » مرتبط أشد الارتباط بالانسان ، ففى قلب هذا العرس الذى يرسمه الشاعر للطبيعة يقف « الفلاح » ، ذلك الكائن الذى تستمد الطبيعة منه معناها وتكتسى بأثواب الفرح والحزن حسب ما يحس به هذا الانسان حبيب الطبيعة وخادمها وعاشقها من مشاعر مختلفة .

وهكذا نجد أن « عرس الطبيعة » يرتبط أشد الارتباط بالمعانى الانسانية العامة ، وأهمها معنى الحرية التى يسعى اليها كل شعب مقيد مأسور ، والتى كافح من أجلها ثوار الجزائر ، ويكافح من أجلها اليوم ثوار فلسطين .

وفى شعر محمود درويش تتكرر كثيرا صورة «الريح» و « العاصفة » ، وهاتان الصورتان هما ولا شك تعبير عن نفسية الشاعر ، وهى ليست نفسية هادئة مستريحة ، بل هى نفسية ثائرة ، تحس بالالم العميق للمصير الذى تعرض له شعب فلسطين وتعرضت له ارض فلسطين ، والرؤى التى يراها مثل هذا الشاعر الممتلىء بالعواطف الحارة العنيفة لا يمكن أن تكون نسيما هادئا ، ولا أزهارا باسمة ، وانما لا بد لهذه الرؤى أن تكون من لون مشاعره . ولذلك فهو كثيرا ما يرى الطبيعة رياحا وعواصف . كالرياح والعواصف التى هبت على شعبه وأرضه ، وكالرياح والعواصف التى ما زالت تهب ، والتى يجب أن تهب فى المستقبل لتعيد الحقوق العادلة الى أصحابها . ولن يتم ذلك بدون ريح وعاصفة . ان رؤية الشاعر للرياح والعواصف ، وتكراره لهاتين الصورتين فى شعره انما يدل دلالة قوية على ما

فى نفسه من لهيب ، وما فى وجدانه من حدة واندفاع. ولا يكاد يوجد شاعر عربى معاصر وقف عند الرياح والعواصف واستخدمها فى شعره مثلما فعل محمود درويش . بل من المؤكد انه الشاعر الوحيد الذى استخدم هاتين الصورتين بكثرة لا تتكرر عند شاعر عربى آخر . انه يتحدث عن الطبيعة فى ثورتها وعنفها وغضبها أكثر مما يتحدث عنها فى هدوئها ووداعتها .

لأن ثورة الطبيعة هى صورة من ثورة نفسه وغضبها على ما يراه من ظلم وتعسف لا حدود لهما فى الواقع الانسانى الذى يعيشه شعب فلسطين · ولا يكاد محمود درويش يسمح لنفسه أن تهدأ وتستقر ، فهو يدعو حبيبته فى قصيدة له بعنوان « لا تتركينى » الى أن تساهم فى استمرار انفعاله العنيف الحار :

لا تتركينى
حرا بحزنى
واحبسينى
بيد تصب الشمس
فوق كوى سجونى
وتعودى أن تحرقينى
ان كنت لى
شغفا بأحجارى بزيتونى
بشباكى ··· بطينى

انه يطلب من حبيبته أن تشعل فيه على الدوام عواطفه وأن تدفعه الى أقصى درجات الانفعال ، فالقضية التى يؤمن بها تحتاج الى كل هذه الحرارة ، وكل هذا الانفعال الكبير . ومثل هذه النفسية اذا تعلقت ببعض ظواهر الطبيعة فانها تتعلق بالظواهر العنيفة على وجه

الخصوص ... تتعلق بالرياح والعواصف ، لانها نفس مليئة بما يشبه الرياح والعواصف .

على ان الرياح والعواصف لهما مغزى غير ما بينهما وبين نفس الشاعر من تشابه ، فالرياح والعواصف يقتلعان ما أمامهما من الاغصان الضعيفة والاوراق الهشة ، والشاعر يريد أيضا أن يقتلع كل ما يوحى اليه بالضعف ، فالقضية التى يدافع عنها تحتاج الى القوة والعنف ، بعد أن عانت طويلا من الضعف والتخاذل .

ان الرياح والعواصف لا تبقى أمامها الا كل ما هو أصيل وراسخ ، وهذا ما يؤمن به الشاعر وما يحرص عليه كل الحرص ، ففى قصيدته « وعود من العاصفة » يقول :

وليكن ...
لابد لى أن أرفض الموت
وأن أحرق دمع الاغنيات الراعفة
وأعرى شجر الزيتون
من كل الغصون الزائفة
فاذا كنت أغنى للفرح
خلف أجفان العيون الخائفة
فلان العاصفة
وعدتنى بنبيذ
وبأنخاب جديدة
وبأقواس قزح
ولان العاصفة
كنست صوت العصافير البليدة
والغصون المستعارة
عن جذوع الشجرات الواقفة

وهكذا ، فالشاعر يريد شيئا من الرياح والعواصف ، التى عقد بينه وبينها أواصر علاقة وطيـــدة ، بحيث استطاع أن يأخذ منها وعودا كثيرة ... انه ينتظر من هذه الرياح والعواصف أن تقضى على أى كائن زائف ، او بليد ، أو مستعار، أو ضعيف ، فالرياح والعواصف لن تبقي أمامهـــا الا على ما هو قوى وصلب وقادر على الوقوف والصمود . وعندما يتعرض الشاعر مع بنى وطنه لمحنة كبيرة ، فهو يحس بصورة الرياح والعواصف وهي تولد أمامه وتتفجر بقوة فى نفسه وشـــعره ... يقول فى قصيدة « رد الفعل » :

ما كنت أعرف أن تحت جلودنا
ميلاد عاصفة
وعرس جداول

وهو يخاطب وطنه الذى تجســـد أمامه فى « ذات العيون السود » فيقول فى قصـــيدته « خـــارج من الاسطورة » :

اننى أقرأ فى عينيك ميلاد النهار
اننى أقرأ أسرار العواصف

وهو يقول فى قصيدة أخرى مخاطبا طفلا من بلاده :

أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ... ليعطوك صباح ...

وفى قصيدته عن قرية « كفر قاسم » يقول :

افتحي الابواب يا قريتنا
افتحيها للرياح الاربع
ودعى خمسين جرحا يتوهج

وفى قصيدة « السجين والقمر » يقول :

الريح منزلنا
وصوت حبيبتى قبل

وفى قصيدة « الاغنية والسلطان » :

كان صوت الدم
مغموسا بلون العاصفة
وحصى الميدان أفواه جروح راعفه
وأنا أضحك مفتونا بميلاد الرياح
عندما قاومني السلطان
أمسكت بمفتاح الصباح
وتلمست طريقى بقناديل الجراح
آه كم كنت مصيبا
عندما كرست قلبى
لنداء العاصفة

وهكذا تملأ الرياح والعواصف شعر محمود درويش . انهما اكثر ظواهر الطبيعة اثارة لوجدانه ، وفيهما تتجسد مشاعره الحقيقية فى رؤيته لواقع بلاده ومستقبلها ، فلن تتحرك قضيته خطوة الى الامام بدون أن تعقد علاقات أصيلة مع العواصف والرياح ، وبدون أن تأخذ عهدا على هذه العواصف والرياح ، وبدون أن تهب فى كل مجالات حياتها العملية والنفسية بنفس القوة التى تهب بها الرياح والعواصف ، لتقتلع الاعشاب السامة التى زرعها العدو الاسرائيلى فى الارض الفلسطينية ، ولتقتلع ما يملأ النفس العربية من تردد أو ارتباك ... ان الشاعر يتحالف مع قوة الطبيعة ، ولا يتحالف مع ضعفها ، انه يريد أن يركب أقوى سفن الطبيعة ليصل الى غايته البعيدة ... وليس هناك أقوى من الريح والعاصفة . وقد يكون فى كلمة العاصفة هنا بالذات « عندما كرست قلبى لنداء العاصفة » اشارة بعيدة خفيفة الى الفدائيين الذين يرتبطون بتنظيم «العاصفة» العسكرى الذى يقف فى طليعة الفدائيين الفلسطينيين فى

هذه المرحلة ، خاصة ، وأن قصيدة « الاغنية والسلطان » قد كتبت بعد يونيو ١٩٦٧ ، وبعد أن اشتدت حركة المقاومة ... على أن المعنى العام الاساسى للعاصفة فى شعر محمود درويش هو المعنى المستمد من الطبيعة .

بقيت ملاحظة أخيرة على موقف محمود درويش من الطبيعة تلك هى أنه كثيرا ما يتحدث عن « الزيتون » فى شعره وقليلا ما يتحدث عن « البرتقال » . وهناك فكرة شائعة عن فلسطين هى انها أرض « البرتقال » . وكثيرا ما تتكرر هذه الفكرة فى الادب العربى الذى يتناول مأساة فلسطين ويتحدث عنها ، سواء كان هذا الادب مكتوبا بأقلام فلسطينية أو صادرا عن أدباء من مختلف البيئات العربية الاخرى .

ولكن محمود درويش فى شعره لا يلتزم بهذه الفكرة الشائعة عن ارض البرتقال ، ولا يكاد البرتقال يتردد فى قصائده الا فى حالات قليلة نادرة ، ولا شك ان الشاعر أو الفنان الاصيل وحده هو الذى يعبر دائما عن رؤية خاصة غير تقليدية ولا متكررة ، وهذا هو ما نجده عند محمود درويش ، فهو لايكرر غيره ، لا عن تعمد وافتعال ولكن عن صدق واصالة ، انه يستوحى تجربته الخاصة التى قد تختلف مع غيره كل الاختلاف ، ولذلك فان الارض عنده تبدو وكأنها أرض الزيتون ، واذا بحثنا عن تفسير آخر غير استقلال الشاعر واستقلال شخصيته الفنية ، فاننا سنجد عدة أسباب حددت رؤية الشاعر بهذه الصورة . فمحمود درويش من قرية « البروة » وهذه القرية بالذات توجد فى منطقة تنتشر فيها أشجار الزيتون بكثرة ، بل تكاد أشجار الزيتون أن تكون هى الزراعة الرئيسية فى تلك المنطقة ، ولذلك امتلأ وجدان الشاعر بشجرة الزيتون ،

فأحبها وصادقها بعــد أن عاشرها طــويلا واحس بها احساسا وجدانيا عميقا . ومنطقة « البروة » بالذات هي أغنى مناطق فلسطين بأشــجار الزيتون ، كما أن الزيتون الذى ينبت في هذه المنطقة هو أفضل وأنقي وأقدم أنواع الزيتون فى فلســطين كلهــا . اذن فالزيتون له شخصية قوية تفرض نفسها ولها وجود حي ملموس ...

عاشره الشاعر منذ طفولته وارتبطت حياته وحيــاة أهل قريته بهذا الزيتون منذ البداية . ومن هنــا كان من الصدق والواقعية والتعبــير الوجدانى السليم أن يحتل الزيتون مكانة أساسية فى شــعر محمود درويش قبل غيره من مظاهر الطبيعة فى فلسطين .

وهناك معنى آخر يساند اختيــار محمود درويش للزيتون ومحبته له والاهتمام به فى شعره ، فالزيتون من الاشجار القليلة التى تحمل بالنسبة للوجدان الانسانى بعض المعاني الرمزية الكبيرة ، فالزيتون شجرة ترمز للسلام بالنسبة لــكل انسان على هذه الارض ، وهى لا ترمز للسلام المناقض للحرب فقط وانما ترمز للسلام المرتبط بالحياة المعادى للخراب ، المتصل بالازدهار والاخضرار فى الطبيعة والانسان . ان شجرة الزيتون هى رمز للحياة الخضراء المتألقة المنتجة في كل ميدان . وما دام الزيتون يحمل كل هذه الرموز والمعاني العميقة فهو أقرب الى روح الفن ووجدان الفنان من أشجار البرتقال التى لا تحمل أى معنى من هذه المعاني على الاطلاق .

ومن ناحية أخرى فان اشجار الزيتون هى « اشجار الفقراء » يزرعها هؤلاء ويملــكونها فى كثير من الاحيان ، وليس معنى هــذا ان الاغنياء لا يملــكون شيئــا من الزيتون ، فالغني عادة يستطيع أن يشارك الفقراء فيمــا

يملكون ، بينما لا يستطيع الفقراء مشاركة الاغنياء فى كل شىء . ولكن علاقة الفقراء بالزيتون تعود الى امكان امتلاك رقعة صغيرة من الارض مزروعة بالزيتون ، فشجره وافر الثمار ، صغير الحجم ، يعتمد على المطر ، ولكن البرتقال يحتاج الى مناطق واسعة هى تلك التى تسمى باسم « البيارات » ولا بد لمن يملكها أن يكون على شىء من الثراء . أما الزيتون فمن الممكن لأى مواطن عادى فقير أن يملك بضع شجيرات يعيش عليها ومن أجلها دون حاجة الى « البيارات » .

ومحمود درويش هو واحد من هؤلاء المواطنين الفقراء أنفسهم ، عاش تجاربهم وأحلامهم وأحزانهم ، وهو فى شعره انما يعبر عنهم تعبيرا فنيا وانسانيا عميقا . ولذلك فلقد كان من الطبيعى أن تكون الصورة الواضحة فى شعره ووجدانه هى صورة شجرة « الزيتون » ، شجرة الفقراء ، شجرة السلام ، شجرة الخضرة والازدهار فى الارض وفى حياة الانسان شجرة الرسوخ والثبات والعمر الطويل . أما البرتقال فلم يلتفت اليه الشاعر كثيرا لخلوه من معظم المعانى التى ترتبط بأشجار الزيتون .

ولقد كان الديوان الثانى لمحمود درويش هو « أوراق الزيتون » . أما الزيتون فما أكثر ما نلقاه فى قصائده ودواوينه .

ولست بحاجة الى تقديم نماذج شعرية تثبت أهتمام محمود درويش بشجرة الزيتون فلا تكاد تخلو قصيدة له من صورة الزيتون هذه ، فهى صورة تقابلنا باستمرار فى شعره .

الحب والمرأة

محمود درويش شاعر عاطفى بالمعنى العميق لهذه الكلمة ، وهو شاعر تنبع موهبته من محبة الحياة وعشق الجمال فى الطبيعة والانسان ، وليس شاعرا تنبع موهبته من « الكراهية » أو « النقمة » أو « اليأس » ... ان شعر محمود درويش شعر غنى بالعاطفة الانسانية فى كثير من قصائده ، بل فى كثير من أبياته ، والحقيقة أن محمود درويش من أغنى شعراء العاطفة فى تاريخ الشعر العربى كله .. وهو يعبر عن العاطفة .. عاطفة الحب ، تعبيرا جديدا ومتنوعا ومبتكرا فى صوره وخيالاته المختلفة ... انه عاشق من الدرجة الاولى اذا صح التعبير ... يملأ العشق قلبه بالعواطف الخصبة الحارة ، وهى عواطف تفيض من هذا القلب على كل قضية أخرى تتصل بحياة الشاعر أو بفكره

على أن العاطفة فى شعر محمود درويش ليست عاطفة مجردة ، لانها ترتبط كل الارتباط بالقضية التى يعيش معها فى كل لحظة من حياته وهى قضية وطنه ، كما أن هذه العاطفة تتاثر كل التاثير بالجو الخانق التعيس الذى تعيش فيه الاقلية العربية داخل الارض المحتلة ، فالحب فى شعر محمود درويش هو زهرة حولها الكثير من الاشواك

يقول محمود درويش لحبيبته فى قصيدة عنوانها

« قصائد عن حب قديم » :

تشهيت الطفولة فيك
مذ طارت عصافير الربيع
تجرد الشجر
وصوتك كان ، يا ما كان ،
يأتيني من الأبار أحيانا
وأحيانا ينقطه لى المطر
نقيا هكذا كالنار
كالاشجار .. كالاشعار ينهمر

ويقول فى نفس القصيدة :

ونعبر الطريق مكبلين ... كأننا أسرى
يدى ، لم أدر ، أم يدك احتست وجعا
من الاخرى

هذه بعض الصور الفنية التى يعبر بها محمود درويش عن عاطفته .. انها صور جديدة وغنية بدفئها وصدقها ... فعندما يريد أن يصور لنا أن صوت حبيبته يسيطر على كيانه كله فهو يقول :

وصوتك كان يا ماكان
يأتينى من الأبار أحيانا
وأحيانا ينقطه المطر

فصوتها يأتيه من كل مكان وهو صوت يمتزج بكل مظاهر الطبيعة فكأنه جزء من هذه الطبيعة وعنصر من عناصرها

وعندما يريد الشاعر أن يصور لحظة من لحظات حبه ، لا ينسى أنه هو وحبيبته يعيشان فى ظروف قاسية ولذلك فهو يمشى مع حبيبته « فى الطريق مكبلين » .. « كأننا أسرى » ... « يدى لم أدر ، أم يدك احتست

وجعا ... من الاخرى » ... انها صورة جديدة وغريبة وصادقة حقا لعاشقين يعيشان فى ظروف من القهر .. مثل تلك الظروف التى يعيش فيهـا العـرب فى الارض المحتلة

اننا سرعان ما نجد فى الشعر العاطفى لمحمود درويش صورة عميقة لمأساته وقضيته ، فهو لا يجرد العاطفة أبدا أو ينعزل بها عن قضيته ... انه شاعر قضية ، شـاعر مأساة ، شاعر « جرح لا يساوم » ، ولذلك فالحب عنده مرتبط كل الارتباط بوطنه وقضيته ، وهـذا الارتباط لا يقلل من الحب ، بل يجعله عميقا ومؤثرا الى أبعـد حد ، فهو فى النهـاية حب محـروم ، وهو حب محرم أيضا ، فليس فى حياة الارض المحتلة فرصة طبيعية لحب طبيعى ناجح ، فكل انسان عربى فى هذه الارض معرض للاضطهاد والموت فى أى لحظة ... فالحب هنا عصفور مطارد بألف بندقية ، فهو ينتقل مضطربا من غصن الى غصن يبحث عن مأمن قد لا يجده على الاطلاق

ولعل اكثر القلوب احتياجا الى الحب ، ومعرفة لقيمته ودوره فى حياة الانسان هى قـلوب هـؤلاء المحـرومين المعرضين للاضطهـاد . الحب بالنسبة لهـذه الحيـاة الصعبة القاسية هو مصدر الامل الوحيد ، ونافذة الهواء الوحيدة ، وشعاع الشمس الذى يملأ الحياة بالحرارة والدفء

فى حوار بين الشاعر وبين حبيبته يقول لنا محمود درويش :

عندما كنت صغيرا وجميلا
كانت الوردة دارى
والينابيع بحارى

(صارت الوردة جرحا
والينابيع دماء)
ـ هل تغيرت كثيرا ؟
ـ ما تغيرت كثيرا
عندما نرجع ، كالريح ، الى منزلنا
حدقى فى جبهتى
تجدى الورد نخيلا
والينابيع عرق
تجدينى مثلما كنت
صغيرا وجميلا

فاذا كانت حبيبته تبحث عن صورة مشرقة جميلة له ... فلن تجدها الا بعد أن يعود الى منزله ، رمزا لعودة كل فلسطيني عربى الى أرضه المغتصبة ... فالحب الناجح المطمئن مرتبط بعودة الارض وانتصار الانسان العربى

وهو يرى أن نجاحه فى حبه مرتبط كل الارتباط بنجاحه فى نضاله ,واستمراره فى هذا النضال من أجل قضيته ، فلو انحنى وسلم لأعدائه فان حبه سوف يموت وينتهى ولا يعود جديرا بأى شىء من عطايا الحب وهداياه ، لأن هذا الحب مرتبط بموقفه من أرضه وشعبه وأهله :

يداك فوق جبينى
تاجان من كبرياء
اذا انحنيت انحنى
تل ,وضاعت سماء
ولا أعود جديرا
بقبلة أو دعاء

والباب يوصد دوني

ومحمود درويش كثيرا ما يمزج بين « الحبيبة » و « الوطن » ويجعل منهما شيئا واحدا .. كثيرا مايتحدث عن الحبيبة ثم يقوده الحديث الى فلسطين وجرحها واحلامها أيضا . لقد وصل محمود درويش فى تعبيره الفنى عن تجربته العاطفية الى درجة عالية من الاحساس العميق بأن كل لحظة حب يحس بها نحو فتاته هى فى نفس الوقت لحظة عاطفة من أجل الارض المحتلة المجروحة . لان الحبيبة دائما تذكره بالوطن ... بل أن الحبيبة هى الوطن فى نفس الوقت :

.. ما الذى يجعل الوطن
بين عينيك اجملا
والأساطير والزمن
تتمناك منزلا ؟
... ...
انت عندى ام الوطن
أم انا الرمز فيكما ؟

فهو هنا يمزج مزجا فنيا جميلا بينه وبين الحبيبة وبين الوطن ... الكل فى واحد لا ينقسم ولا يتجزأ

وفى قصيدته المشهورة « عاشق من فلسطين » والتى اشرنا اليها من قبل يقول محمود درويش عن حبيبته :

فلسطينية العينين والوشم
فلسطينية الأسم
فلسطينية الاحلام والهم
فلسطينية المنديل والقدمين والجسم
فلسطينية الكلمات والصمت
فلسطينية الصوت

فلسطينية الميلاد والموت

فالشاعر هنا يؤكد على كلمة « فلسطينية » لانه يجد فيها اجمل معانى الحب والعاطفة الانسانية . ذلك لأن حبه لفتاته امتزج امتزاجا كاملا بحبه لوطنه وايمانه به ، واصبح كل ما يحس به من جمال متركزا فى انها « فلسطينية » ... ففى هذه الصفة يجتمع كل السحر الحقيقى الاصيل .

وفى نفس هذه القصيدة ، قصيدة عاشق من فلسطين يرسم لنا صورة لحبيبته ، تخرج تماما عن نطاق التصوير الفنى للحبيبة العادية لتصبح صورة للوطن كله :

رايتك عند باب الكهف ... عند الفار
معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامك
رايتك فى المواقد ... فى الشوارع
فى الزرائب فى دم الشمس ...
رايتك فى اغانى اليتم والبؤس
رايتك ملء ملح البحر والرمل
وكنت جميلة كالارض ... كالاطفال .. كالفل
واقسم :
من رموش العين سوف اخيط منديلا
وانقش فوقه شعرا لعينيك
واسما حين اسقيه فؤادا ذاب ترتيلا
يمد عرائش الايك
ساكتب جملة احلى من الشهداء والقبل :
« فلسطينية كانت ولم تزل »

فالحبيبة هنا هى الوطن ، والوطن هو الحبيبة .. والصور الفنية الجديدة التى يرسمها الشاعر فى هذه القصيدة صور رائعة ومثيرة .. فهو يرى الحبيبة وهى

تعلق على حبل الغسيل ثياب أيتامها ... ويراها فى الشوارع والزرائب وفى دم الشمس .. ويراها فى أغانى اليتم والبؤس وفى ملح البحر ... وتلك كلها صور توحى الينا بمدى ما يحسه الشاعر من امتزاج الحبيبة والوطن بكل مظاهر الحياة وخاصة تلك الحياة القاسية المكافحة التى يتكون اطارها من « البؤس واليتم والزرائب وثياب الايتام »

ومع ذلك فهو يغنى للحبيبة أو الوطن أجمل أغنية ... لانها :

فلسطينية كانت ولم تزل !

فما دام الاسرائيليون يريدون القضاء على الصفة « الفلسطينية » للارض وللحبيبة فلتكن هذه الصفة هى احلى أغنية واجمل نشيد

على أن الارتباط العميق بين الوطن والحبيبة فى شعر محمود درويش ، وهو ارتباط يشمل شعر محمود العاطفى كله .. هذا الارتباط يقودنا الى موقف آخر فى شعره العاطفى . فالحب عند محمود درويش هو اشتراك فى الحياة الصعبة القاسية التى يعيشها العربى فى الارض المحتلة . ان حب محمود درويش هو حب الفقراء المكافحين ، وليس حب المترفين الذين يجعلون من الحب وردة تسعدهم فى وقت الاسترخاء والراحة والرفاهية ، ولذلك فهو يصور لنا حب الفقراء هؤلاء فى كثير من قصائده ... فاذا به حب عميق أصيل له شخصيته النبيلة المؤثرة .. وهى فى نفس الوقت صورة جديدة لذلك الحب الكبير الاصيل الذى يعبر عنه محمود درويش :

واذا جعنا تقاسمنا الرغيف

ويقول فى قصيدة اخرى :

احبك حب القوافل واحة عشب وماء
وحب الفقير الرغيف
كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة
وجدنا غريبين يوما
ونبقى رفيقين دوما !

وهو يحس بالحنين العميق الى الحب ، بل يرى ان الحب هو خلاصه من مأساته ، وهو أمله الكبير فى الخلاص :

من بئر مأساتى ... انادى مقلتيك
كى تحملا خمر الضياء الى عروقى
ماذا يثير الناس ! لو القيت راسى فى يديك
وطويت خصرك فى الطريق

ويعبر محمود درويش نفسه عن هذا الربط الذى يقصد اليه بين الحب وقضيته الوطنية والانسانية فيقول فى حديثه الى الاستاذ محمد دكروب فى مجلة الطريق اللبنانية :

« انني أكتب فى هذه الفترة عن الحب الذى يولد وسط قضية ، فيحمل ملامحها وهمومها ويصبح جزءا لا يتجزأ منها . أريد أن أكسر الحائط الذى يفصل بين العاشقين وبين الشارع فالعاشقان ليسا عاشقين فقط ، ولكنهما ضحية واحدة وأمل واحد وكفاح واحد . لقد تحدثنا كثيرا عن التحام الخاص بالعام ، ولكن هذه الظاهرة اصبحت تاخذ شكلا تلقائيا عندى خاصة فى الاغانى التى أكتبها الان . ان طعم العلاقات بين العاشقين يحمل مذاق الواقع الخشن »

على أن محمود درويش يصور لنا أحيانا وطنه فى صورة « امرأة » مسئولة عن مصيرها ... أساءت التصرف

وسمحت للآخرين ... لغير أهلها الحقيقيين بأن يمتصوها ويسيئوا اليها :

اتحبها ؟
احببت قبلك
وارتجفت على جدائلها الظليلة
كانت جميلة
لكنها رقصت على قبرى ، وأيامى الطليلة
وتخاصرت والآخرين ... بحلبة الرقص الطويلة
وأنا وانت نعاتب التاريخ
والعلم الذى فقد الرجولة
من نحن ؟
دع نزق الشوارع
يرتوى من ذل رايتنا القتيلة
فعلام لا تغضب ؟
وشفاهها للراقصين الآخرين
ونهدها يحلب
انا حملنا الحزن اعواما وما طلع الصباح
والحزن نار تخمد الايام شهوتها
وتوقظها الرياح
والريح عندك ، كيف تلجمها
ومالك من سلاح ...
الا لقاء الريح والنيران
فى وطن مباح ؟!

هذه صورة نادرة ، وقليلا ما تتكرر في شعر محمود درويش ... صورة المرأة اللاهية المسئولة عن مصيرها ، والتي استسلمت لاغتصاب الآخرين ، والمرأة هنا رمز للوطن ... ومحمود درويش فى معظم شعره لا يرمز للوطن

الا بصورة غالية كريمة عزيزة .. باستثناء ما نراه فى هذه القصيدة ، حيث تبـدو المراة ـ رمز الوطن ـ خاطئة مقصرة متساهلة فى امر مصيرها وحياتها

هناك صورة اخرى للمراة فى شعر محمود درويش ترمز لاسرائيل :

كفاك يا صديقتى ... ذئبان جائعان
مصى بقايا دمنا ، وبعدنا الطوفان
وان سغبت مرة ... لا تتركى الجثمان
وان سئمت بعدها ، فعندك الديدان

انا خلقنا غلطة ... فى غفلة من الزمان
وانت يا صديقتى العجوز ... يا صديقتى المراهقة

كونى على اشلائنا كالزنبقات العابقة

ثم يقول فى نهاية هذه القصيدة ـ وهى قصيدة ضعيفة على اى حال فى تركيبها وصياغتها الفنية وليست فى مستوى شعر محمود درويش الجيد :

يا ويل من تنفست رئاته الهواء
من رئة مسروقة !
ياويل من شرابه دماء
ومن بنى حديقة ... ترابها اشلاء
ياويله من وردها المسموم

ومعظم النماذج الشعرية السابقة مستمدة من ديوان « اوراق الزيتون » وديوان « عاشق من فلسطين » لمحمود درويش . ولكن اجمل وابقى ما غناه محمود درويش للحب انما نجده فى ديوانه الاخير « آخر الليل » . لسوف نجد محمود درويش فى هذا الديوان الذى يرتقى فيه الى اعلى قدراته الفنية ، يربط ايضا بين الحب والوطن ،

ولكن بصورة اجمل واعمق ... فهو يقول مثلا :

الارض ، أم انت عندي
أم أنتما توأمان
من مد للشمس زندى ؟
الارض ، أم مقلتان ؟
سيان ، سيان ... عندى

أو يقول :

وطنى جبينك فاسمعينى
لا تتركينى
خلف السياج
كعشبة برية
كيمامة مهجورة
لا تتركينى
... ...
وتعودى أن تحرقينى ،
ان كنت لى ،
شغفا بأحجارى بزيتونى
بشباكى ... بطينى
وطنى جبينك ، فاسمعينى
لا تتركينى !

وفى قصيدته عن مذبحة كفر قاسم ، يصور لنا محمود درويش ، عاشقا يعود الى حبيبته بعد أن قتله اليهـــود فى المذبحة ... انه يعود من الموت ليتحدث الى فتاته ، ويصور لنا الشاعر هنا كيف يموت الحب وتموت الحياة على يد الاسرائيليين عندما يقول بلسان العاشق المقتول :

لك منى كلّ شيء

لك ظلّ لك ضوء
خاتم العرس ، وما شئت
وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما فى كل ليلة
أدخل الشباك فى الحلم ، وأرمى لك فلة
لا تلمنى ان تأخرت قليلا
انهم قد أوقفونى
غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت يا حبيبى
ان خمسين ضحية
جعلتها فى الغروب
بركة حمراء ... خمسين ضحية
يا حبيبى ... لا تلمنى
قتلونى ... قتلونى
قتلونى

انها صورة رائعة للحب المقتول ... والحب هنا رمز للحياة المقتولة والوطن المقتول .. ولكن الحبيب يعود رغم الموت الى حبيبته ، وكذلك تعود الحياة ، ويعود الوطن

وفى قصيدة عنوانها « الموعد » يصور لنا محمود درويش « الحب فى بلاده » تصويرا انسانيا فى غاية العمق والروعة والقدرة على التاثير .. فماذ يكون الحب فى وطن مجروح معرض لالوان العذاب والالم ، وكيف يمكن أن تكون صورة الحب فى قلب مواطن عربى يعيش فى هذه الارض المحتلة : فلسطين ، وهو مهدد بأن يفقد

حياته في كل لحظة ، مهدد بأن يفقد حبيبته ، مهدد بأن يفقد خبزه وخبز أسرته .. انه حب حزين وهوى مليء بالعذاب .. يقول محمود في تصويره الرائع للحب في الوطن الجريح :

وطني حبنا هلاك والأغاني مجرحه
كلما جاءني نداك هجر القلب مطرحه
وتلاقي على رباك بالجروح المفتحة
لا تلمني ففي ثراك أصبح الحب .. مذبحة

وفي احدى قصائد ديوان « آخر الليل » يثير محمود درويش قضية هامة ، فهو لا يجد ما يمنعه ، كفنان صاحب نزعة انسانية عميقة ، من التعبير عن الحب كعلاقة انسانية تربط بين شاب عربي وفتاة يهودية ... ان هذا الحب من الناحية الانسانية ممكن ولا شك ، لان العربي الانسان يفرق تفرقة كاملة بين « اليهودية » و « الصهيونية » ... بين العلاقة الانسانية العامة والعلاقة المريرة التي فرضتها الصهيونية على العرب .
وفي هذه القصيدة الرائعة لمحمود درويش وهي قصيدة « ريتا والبندقية » ، يتحدث الشاعر عن حب بين شاب عربي وفتاة يهودية ... ثم يحدثنا أن هذا الحب يمكن أن ينجح ويتحول الى علاقة انسانية أصيلة . ولكن الذي يعوق هذه العلاقة ويعطلها ليس قلب العاشق العربي ولا قلب العاشقة اليهودية .. ان العائق هو الصهيونية .. هو المدفع الصهيوني .. هو البندقية الصهيونية ، لان الصهيونية ضد الحب ... ضد التقاء القلب بالقلب ، وهي بسبب ذلك ضد الحياة ، وضد الجمال ، وضد كل مظهر من مظاهر الانسانية ... ان القوة

المعادية للحب هى قوة معادية لكل شيء مثمر بالنسبة للحياة والانسان ، وهـذه القـوة المعـادية للحب هى الصهيونية

الفتاة اليهودية فى هذه القصيدة اسمها ريتا ... أما العاشق العربى فيتكلم فى قصيدة محمود درويش بلسان الشاعر :

بين ريتا وعيونى بندقية
والذى يعرف ريتا ، ينحنى
ويصلى
لاله فى العيون العسلية
.. وانا قبلت ريتا
عندما كانت صغيرة
وانا اذكر كيف التصقت
بى ، وغطت ساعدى أحلى ضفيرة
وانا اذكر ريتا
مثلما يذكر عصفور غديره
آه .. ريتا
بيننا مليون عصفور وصورة
ومواعيد كثيرة
اطلقت نارا عليها بندقية

. . . .

آه ... ريتا
اى شيء رد عن عينيك عينى
سوى اغفاءتين
وغيوم عسلية
قبل هذى البندقية !

وهكذا يسقط الحب تحت سطوة العدوان الصهيونى الذى ترمز اليه « البندقية » فى هــذه القصــيدة ... وليست قصــة الحب بين عاشــق وعاشــقة هى التى أفسدتها هذه البندقية فقط .. ولكن هذا الحب هــو أيضا رمز للحيــاة والسلام الذى يمكن أن يمــلأ أرض فلسطين ويجمع بين المسلمين والمسيحيين واليهود ... بين العاشق العربى .. وريتا العاشقة اليهودية .. لولا العنصرية والنازية الجديدة .. لولا الصهيونية التى تقوم على العدوان والتوسع والكراهية العميقة للعرب .

المسيح يصلب
في القرن العشرين

في شعر محمود درويش نلتقي برمز يتردد كثيرا في قصائده هو رمز « الصليب » ... ذلك لان الشاعر العربي الذي يعيش في الارض المحتلة يحس أنه مصلوب هو وشعبه وأرضه . والصليب رمز يرتبط بفلسطين القديمة ارتباطا كاملا ، فلقد امد اليهود على هذه الارض منذ الفين من السنين تقريبا صليبا ليقتلوا فوقه المسيح ، وكان المسيح يمثل الدعوة الى العدل وتجديد المجتمع اليهودي على أساس من المبادىء الانسانية الرفيعة ، ولكن اليهود حاربوه وقرروا قتله ، وبقيت قصة الصليب منذ ذلك الحين رمزا للفداء والتضحية من أجل خلاص الانسان ... وما حدث لفلسطين في العصر الحديث يشبه الى حد كبير قصة « الصليب » ، فلقد تمزقت فلسطين على يد الصهيونية ، صلبها اليهود وأسالوا الدماء من جسدها ... وأصبحت مأساتها نموذجا غير عادي لافظع قصة تعرض لها شعب من الشعوب خلال التاريخ الانساني المعاصر . ولو جاء المسيح ليعيش فوق فلسطين في القرن العشرين ، ودعا دعوته الى الانسانية والمثل العليا الكريمة التي كان يدعو اليها ، لكان من الضروري ان يعمل اليهود الصهيونيون على قتله وصلبه لانهم اقاموا دولتهم على أساس معاد تماما لكل القيم الانسانية التي

دعا اليها المسيح ... لقد ذبحوا البشر وأشعلوا العداء بين الناس واقاموا دولتهم على أساس من الظلم والتعسف والاغتصاب ... وكل هذه المبادىء التي أقيمت فوقها دولة اسرائيل تناقض تمام المناقضة تلك المبادىء التي عاش المسيح من اجلها وعاني الالام والمصاعب في سبيل انتشارها

ومن هنا شاع رمز الصليب في شعر محمود درويش ، خاصه وأنه كمـــــا يكشف شعره كثير القراءة للكتب الدينية .. ففي شعره كثير من الاشارات التي تدل على اهتمامه بالثقافة الدينية اهتماما واعيا وذكيا . ورمز الصليب في شعر محمود درويش يشير الى الجو النفسي الذي يعيش فيه الشاعر ، ويشير ايضا وبقوة الى المأساة الفلسطينية ... فالشاعر يحس انه يعيش في جو من الاضطهاد والمطـاردة من العـدو الاسرائيلي ، وفلسطين نفسها ممزقة ومصلوبة على يد هذا العدو نفسه . ومن هنا امتلأ شعر محمـود درويش بصورة الصليب ورمز الصليب ، ويكثر هذا الرمز على وجه الخصوص في ديوانه الثاني « عاشق من فلسطين » ... فلقد ترددت صورة الصليب في هذا الديوان بكثرة ملحوظة .

وفي قصيدة من قصائد هذا الديوان عنوانها « صدى من الغابة » يقول محمود :

من غابة الزيتون جاء الصدى
وكنت مصلوبا على النار
أقول للغربان : لا تنهشي
فربما أرجع للدار

وربما تشتي السما ... ربما
تطفىء هذا الخشب الضاري
أنزل يوما عن صليبي ... ترى

كيف أعود حافيا عاري

فالشاعر هنا مصلوب مثل وطنه فلسطين ، ومثل جميع القيم التي يمثلها المسيح وغيره من الانبياء والثوار والمصلحين ، ولكن الامل لا يفارق الشاعر فى النصر وفى الخلاص من هذا الصليب ... فى الخلاص من هذه المحنة « ... فربما تشتى السما ... وربما تطفىء هذا الخشب الضارى » ... ولنلاحظ أن الصليب هنا صليب من النار ، وهى صورة تضاعف معنى العذاب وتؤكده

وفى قصيدة أخرى بعنوان « قال المغنى » يقولمحمود درويش مستخدما صورة الصليب أيضا :

المغنى على صليب الالم
جرحه ساطع كنجم
قال للناس حوله
كل شيء ... سوى الندم :
هكذا مت واقفا
واقفا مت كالشجر
هكذا يصبح الصليب
منبرا ... أوعصا نغم
ومساميره ... وتر
هكذا ينزل المطر
هكذا يكبر الشجر

وفي هذه القصيدة يتحول الصليب الى منبر لاعلان القضية العادلة ,والتعبير عنها ، وتتحول مساميره الى أوتار يغنى من خلالها لقضيته ويعبر عن سعادته بالاستشهاد فى سبيل هذه القضية النبيلة .. ومن خلال هذا الاحتمال للعذاب ينتصر العدل « وينزل المطر ويكبر

الشجر »

وفى قصيدة أخرى بعنوان « شهيد الاغنية » يقول محمود درويش :

ماكنت أول حامل اكليل شوك
لأقول : ابكى !
فمسى صليبى صهوة ،
والشوك فوق جبينى المنقوش
بالدم والندى ... اكليل غار
وعساى آخر من يقول :
أنا تشهيت الردى !

فصورة الصليب تتكرر كثيرا فى شعر محمود درويش ... ولا شك أن محمود هو واحد من أصدق الذين استخدموا هذه الصورة فى شعرنا المعاصر ، فهى صورة تتكرر كثيرا عند الشعراء المعاصرين ، ولكننا نحس أحيانا انها نقل وتقليد لبعض الشعراء الغربيين مثل « اليوت » ، وليست صورة نابعة من احساس حقيقى وتجربة حقيقية • أما محمود فيستخدم هذه الصورة فى موضعها •• لانه يعبر عن تجربة كبيرة ومأساة حقيقية ••• وأى درجة من الآلام تلوح أمام هذه المأساة آلاما سهلة وبسيطة لان العذاب الذى تحمله المواطن العربى الفلسطينى هو نوع من عذاب الصليب الذى أعده اليهود يوما لقتل المسيح وتعذيبه • وارتباط الصليب بفلسطين ارتباطا تاريخيا ووجدانيا يبرر من ناحية أخرى استخدام الصليب عند محمود درويش ويبرر اختياره للصليب فى قصائده كرمز لآلامه كعربى ورمز لآلام شعبه فى فلسطين • وهذا ما نلتقى به على صورة شديدة التركيز ، شديدة التأثير فى قصيدة

لمحمود درويش بعنوان رباعيات .. حيث يقول فى الرباعية الاولى :

وطنى ! لم يعطنى حبى لك
غير اخشاب صليبى
وطنى ، يا وطني ، ما أجملك !
خذ عيونى ، خذ فؤادى ، خذ .. حبيبى !

فالصليب هو تلك المنحة التى نالها الشاعر والانسان العربى محمود درويش هو ورفاقه من أبناء فلسطين ... انه منحة الحب الصوفى العميق والتى تمنحها الارض المغصوبة بالظلم والدم لكل عاشق من عشاق ترابها وجراحها وما فيها من عذاب وقهر وأمل عريض فى نفس الوقت .

الدين والثورة

صورة الصليب التى تنتشر فى قصائد محمود درويش رمزا للعذاب الذى يعانيه الانسان فى الارض المحتلة ... هذه الصورة تتصل بفكرة الدين عند محمود درويش ورفاقه . وقد ظهرت الفكرة الدينية فى البداية عند شعراء المقاومة على شكل ثورة من ثورات الشك والتمرد، وبلغت ثورة الشك هذه حدا يكاد يعتبره المؤمنون الحادا وكفرا كاملين ، ولعل ثورة الشك هذه قد تاثرت بما يمكن أن نسميه باسم « طفولة الافكار اليسارية » التى شاعت فى بعض الفترات بين شعراء الارض المحتلة ، صحيح أن الفكر اليسارى الاشتراكى العالمى قد وصل بعد ذلك الى مرحلة عالية من النضج والاكتمال والتفتح والفهم الصحيح للحضارة والثقافة الدينية ، ولكن مرحلة الطفولة اليسارية كانت تبرر لبعض هؤلاء الشعراء « الثورة على الدين » ... على أن هؤلاء الشعراء أنفسهم قد استطاعوا بعد ذلك أن يصلوا الى فكرة أنضج وأعمق ، وتجاوزوا ثورة الشك ، وربطوا بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الحياة ، بين الدين والكفاح من أجل المستقبل الانسانى

ولا نكاد نعثر على أثر واضح لثورةالشك هذه عند محمود درويش اللهم الا فى بعض قصائده الاولى ، مثل قوله فى قصيدة له بعنوان « الموت فى الغابة » :

نامى !
فعين الله نائمة
عنا .. واسراب الشحارير

والحقيقة عند كل مؤمن ـ هى أن عين العدل الالهى لا تنام ، ولكن صوت محمود درويش هنا هو تعبير عن لحظة عابرة من لحظات اليأس والشك ·· وهي ليست لحظة أصيلة فى شعره ولا متكررة !

ونجد ملامح « ثورة الشك » هذه بوضوح أكثر عند زميل محمود درويش الشاعر اللامع الموهوب سميح القاسم ·· ولنقف لحظة مع ثورة الشك لنلتقى بعد ذلك بصورة أخرى للربط العميق بين الدين والثورة من أجل الحرية والعدل

يعبر سميح القاسم فى قصيدة عنوانها « رسالة الى الله » عن ثورته على الدين وشكه فى أن الدين له جدوى ، وذلك لانه يرى « المتدينين » أبناء الله ضائعين معذبين فى هذه الحياة

يقول سميح فى قصيدته :
سيد الكون أبانا
ألف آمنا ، وبعد
من حقول البؤس هذى الكلمات
من سفوح جوعت ، من قمم
نسرها أهوى على الشمروخ فى يأس .. ومات
من بحار لم تعد فيها جزيره
لم يعد فيها سوى اشرعة الذكرى المريرة
من جنين كبلت فيه الحياة
كل ما تحمل هذى الكلمات
يا أبانا ، يا أبا ايتامه ملوا الصلاة
يا أبانا نحن ما زلنا نصلى من سنين

يا أبانا نحن ما زلنا بقايا لاجئين
أرضنا
من عسل ـ يحكى ـ بها الانهار
ـ يحكى ـ من حليب
الجبت ـ يحكى ـ كبار الانبياء
وعشقناها
ولكنا انتهينا في هوانا أشقياء
وحملنا كل آلام الصليب
يا أبانا ، كيف ترضى لبنيك البسطاء
دون ذنب ـ كل آلام الصليب
يا أبانا نحن بعد اليوم لسنا بسطاء
لن نصلى لك كى تمطر قمحا
لن نداوى بالحجابات وبالرقية جرحا
نحن أنجبنا على الحزن كبار الانبياء
وخلقنا من أمانينا التى تكبر ... ربا
شق من مأساتنا للفجر دربا

ولكن سميح القاسم ينتهى من ثورة الشك فى نفس القصيدة الى طلب الغفران فى النهاية ، باعتباره خاطئا فى شكه ، ومدفوعا بسبب عذابه الى هذا الشك :

عفوك اللهم ، ان كانت حروفى مستفزه
انا انسان من الطين
انا الخاطىء مذ كنت
ومولاى المنزه

هذه الثورة .. ثورة الشك فى الدين، يخلقها الاحساس العاطفى الحاد لدى الشاعر بانه ضائع ... وانه محروم من رعاية الله .. ولكن ثورة الشك هذه سرعان ما تزول وتتحول الى ايمان عميق وربط كامل بين « الدين والثورة »

... فسنميح القاسم نفسه يقول فى قصيدة أخرى مستفيدا من قراءاته فى الكتب الدينية المختلفة :

أنا قبل قرون
لم أتعود أن أكره
لكني مكره
أن أشرع رمحا لايحيا
فى وجه التنين
أن أشهر سيفا من نار
أشهره فى وجه البغل المأفون
أن أصبح « ايليا » فى القرن العشرين

وايليا هو « نبى يهودى حارب عبادة الاوثان ، وينسب اليه أنه قتل كهنة بعل » فالشاعر هنا يوحد بين الدين والثورة ... بين الدين وتغيير الواقع وتحرير الانسان

على أن المعنى الذى يرتبط فيه الدين والايمان بالثورة نجده على أوضح ما يكون عند شاعرنا محمود درويش ، واذا كنا لا نجد فى شعر محمود درويش الا مظاهر قليلة لنزعة الشك الدينى ، فاننا نجد عنده نماذج واضحة عميقة فى نزعته الى ربط الدين بالثورة ، وبالتغيير ، وبالكفاح من أجل المستقبل الانسانى

ويكشف لنا شعر محمود درويش عن ثقافة واضحة في ميدان الكتب الدينية فلقد قرأ الشاعر هذه الكتب واستخرج منها تفسيرات خاصة ومواقف محددة تخدم تلك الفكرة التى يعبر عنها .. وهى أن الدين ليس مجرد طقوس وعبادات فقط ، بل هو فى جوهره ثورة من أجل الانسان ... ثورة من أجل العدل والحرية والكرامة .. ويهتم محمود درويش على وجه

الخصـــوص بالكتب الدينية اليهـــودية ، ولعل دافعه الى ذلك أن يستخرج من هذه الكتب ما يدين الاسرائيليين ... بلغتهم ومن كتبهم المقدسة نفسها ... ولقد توقف محمود درويش أمام نبي من أنبياء اليهود بالذات هو « حبقوق » — بتشديد الباء — وهو أحد أنبياء اليهود الذين جاء ذكرهم في العهد القديم كثائر على اليهود وعلى خطاياهم الكثيرة ، و« حبقوق » هو القـائل عن بني اسرائيل : « الى متى يارب أستغيث ولا تستجيب أصرخ اليك من الظلم ولا تخلص ، لماذا تريني الاثم وتشهدني الاصر ويجرى قدامي الاغتصاب والظلم ويحدث الخصـام ويقوم النزاع »

ثم يقول حبقوق أيضا :

« ويل لمن يبني مدينـة بالدماء ويؤسس قـرية بالاثم »

وماذا تكون اسرائيل .. اذا لم تكن مدينة مبنيةبالدماء وقرية مؤسسة بالاثم ؟! .. ان محمود درويش يستعيد صورة هذا النبي اليهودي دائما ، فهو نبي ثائر على قومه، ثائر على سلوك بني اسرائيل ... ولو كان هذا النبي حيا اليوم بأفكاره التي جاء بها العهد القديم لكان من أعتى أعداء بني أسرائيل

يقول محمود درويش في قصيدة له بعنوان رباعيات :

حبقوق ! عد الينا .. عد وبشر من جديد
وارو مأساة مدينة
فوق تاج الدم قامت والعبيد
ووراء الدم نار ، وضغينة !

وفي هذا المقطع يشير محمود درويش الى كلمـات « حبقوق » السابقة :

« ... ويل لمن يبنى مدينة بالدماء ، ويؤسس قرية بالاثم » .

ونلتقى بصورة « حبقوق » مرة اخرى عند محمود درويش فى قصيدة له عنوانها « نشيد الرجال » .. ففى هذه القصيدة يدير محمود درويش حوارا بينه وبين هذا النبى الثائر على آثام اليهود .. يقول محمود درويش فى هذا الحوار :

ــ آلو ... هالو !
أموجود هنا حبقوق ؟
ــ نعم من انت ؟
ــ انا ياسيدى عربى
وكانت لى يد تزرع
ترابا سمدته يدا وعين أبى
وكانت لى خطى ،وعباءة
وعمامة ودفوف
وكانت لى ...
ــ كفى ياابنى
على قلبى حكايتكم
على قلبى سكاكين ..

هذا هو الموقف الجديد الذى يستخرجه محمود درويش من قلب ثقافته الدينية .. انه يكشف عن الصفحات الثائرة فى التاريخ الدينى للانسان .. ولقد كان حبقوق بالذات ثائرا على اليهود ومحتجا عليهم معتقدا أنهم يخونون مبادئهم الدينية .. ويبنون حياتهم بالدماء والاثام !

ونجد محمود درويش أيضا وفى نفس قصيدته «نشيد للرجال » يقدم الينا صورة للمسيحية كما يفهمها .. انها المسيحية المناضلة من أجل مستقبل البشر .. ففى حوار

يتخيله الشاعر مع المسيح يقول :

ـ الو .. اريد يسوع ؟
ـ نعم ... من انت
ـ انا احكى من اسرائيل
وفى قدمي مسامير ... واكليل
من الاشواك احمله
فاى سبيل
اختار يابن الله ... اى سبيل ؟
الكفر بالخلاص الحلو ، ام امشى ؟
ولو امشي واحتضر ؟
ـ اقول لكم ... اماما ايها البشر

فالمسيح كما يتصوره محمود درويش .. وكما يفسره، هو داعية للنضال من اجل المستقبل الانسانى .. انه داعية الى شعار « ... اقول لكم ... اماما ايها البشر » .. فليس هناك دعوة للاستسلام والتراجع أمام الظلم

ونفس التصور يقدمه لنا محمود درويش للاسلام .. وهو يقدمه لنا فى حوار يتخيله بينه وبين محمد ، النبى العربى الكريم :

ـ الو .. اريد محمد العرب
ـ نعم ! من انت ؟
ـ سجين فى بلادى
بلا أرض ... بلا علم .. بلا بيت
رموا اهلى الى المنفى
وجاءوا يشترون النار من صوتى
لاخرج من ظلام السجن ... ما افعل ؟

وبعد ان يطرح الشاعر هذا السؤال ... ما العمل ؟ يتخيل اجابة النبى العربى الكريم .. ماذا تكون :

تحد السجن والسجان
فان حلاوة الايمان
تذيب مرارة الحنظل !

وهكذا فان روح الأديان واحدة .. انها روح الثـورة والتمرد على الظلم وعلى كل أعداء الانسان.. وبهذه الصورة النبيلة الثائرة المتمردة يفهم محمود درويش الدين ... ويربط بينه وبين الثورة برباط نهائي وثيق ... فالدين ثورة ، ورفض للظلم ، ودعوة للبطولة والنضال ضد أعداء الانسان ... ان الدين قوة تشعل الثورة والمقاومة !

اتهامات ظالمة

في صيف عام ١٩٦٨ وجهت بعض الصحف العربيـــه اتهامات عنيفة الى محمود درويش وزميله الشاعر ســميح القاسم • وخلاصة هذه الاتهامات أن الشاعرين العربيين قد اشتركا في الوفد الاسرائيلي في مهرجان الشـــباب في صوفيا عاصمة بلغاريا ، وهو المهرجان الذى عقد في صيف عام ١٩٦٨ ، وقالت الاتهـــامات التى انصبت على رأس الشاعرين انهما كانا يحملان « الباسبور » الاسرائيـــلي ويسيران وراء العلم الاسرائيلي وانهما في أحاديثهمـــــا المختلفة قد هاجما العـــدوان الاسرائيلي الاخـــير على الاراضي العربية ولكنهمـــا لم يطالبـــا بازالة الكيـــان الاسرائيلي كله •

هذه هي التهم الموجهـــة الى محمـــود درويش وزميله سميح القـــــاسم ، واذا كان محمود درويش وزميله يحتلان الآن مكانا بارزا في الحركة الادبية العربية المعاصرة عموما ، ويحتلان مكانا بارزا في أدب المقاومة العربي على وجه الخصوص ، كل ذلك لانهما شاعران موهوبان يكتبان بحرارة واصالة عن قضية فلسطين ، وهما يكتبان من موقع خاص يتيح لهما أن يعيشا هذه القضـــية بصـــورة عنيفة قاسية فهما من بين المواطنـــــين العرب الذين

يقيمون داخل اسرائيل ... اذا كان محمود درويش وزميله يمثلان هذا كله فان هذه التهم الموجهة الى الشاعرين تمثل نوعا من الصدمة العنيفة للمواطنين العرب الذى قرأوا محمود درويش وسميح ووضعوهما موضع التقدير والاحتـــرام واعتبروهما مثالا للفنانين المناضلين المؤمنين بقضية العرب ايمانا عميقا .

والواقع اننا اذا نظرنا نظرة دقيقة وامينة الى التهم الموجهة الى محمود درويش وزميله فاننا سنجدها صادرة عن مصدرين لا ثالث لهما :

المصـــدر الاول ، هو الرغبة الشـــائعة عند بعض الصحفيين والكتاب فى تحطيم النفسية العربية ، وذلك بتلطيخ كل الصور الجميلة المشرقة التي برزت فىحياتنا بعد نكسة ٥ يونيو ، وهـــذه النفسية ... نفســـية التدمير والتحطيم والتشويه هى نفسية يغذيها أعداؤنا ويستسلم لها هؤلاء الذين فقـــدوا الثقة فى كل شيء وفقدوا الايمان باى شيء ، واعتبروا ان كل شيء بعد النكسة « باطل الاباطيل » واصبحوا خاضعين لشعور أشبه «بالرغبة فى الانتحار» .. كما يستسلم لهذا النوع من التفكير والشعور بعض العنـــاصر المغرضة صاحبة الهوى والمصلحة والتى لا تحب أن ترى الامة العربيـــة وقد افاقت من صدمتها ووقفت على قدميها بعـــد أن سقطت فى احدى معاركها القاسية .

أما المصدر الثـــانى ، الذى تصدر عنه هـــذه التهم الموجهة الى محمود دريش وزميله ســـــميح القـــاسم فهو ولا شك مصدر كامن فى العقليـــة العربية نفسها . فكثيرا ما يستسلم العقـــل العربى للعاطفـــة الهوجاء والانفعـــال الجامح ، وذلك بدلا من التزام التفـــكير

الموضوعى الدقيق وقيـاس الامور بحساب وشـمول واحاطة بمختلف الظروف

وقضية محمـود درويش وزميله هى خير مثـال على حاجتنا الـكاملة الى رفض أصحاب النفسيات المشوهة الذين يريدون أن يحرموا أمتنا من أى بطولة ويستكثروا عليها أن يوجد بينها نموذج انسـانى نقى ، أو زهرة ناضرة تنبت فى أى أرض عربية ، فهم ينزعجون من هذا كله ويسارعون الى تشـويه كل شىء اذا أتيحت الفرصة لذلك التشويه ، كما أن قضية محمود درويش وزميله سميح القاسم هى فرصة أيضا لمواجهة طريقة التفكير العربى الذى يعتمد على الانفعال السريع لا على المنطق والفهم والاحاطة والشمول .

ونعود بعد ذلك الى أصل القضية التى خلقت هذه العاصفة من الاتهام ضد محمود درويش وزميله .

وتبدأ القضية فى صوفيا ، فى مهرجان الشباب الذى عقد فى صيف ١٩٦٨ ، لقـد رفضت ادارة المهرجان اشتراك أى وفد رسمى من اسرائيل فى هـذا المهرجان بناء على طلب الوفود العربية المختلفة ، ولأن بلغاريا من ناحية أخرى قد قطعت علاقاتها السـياسية باسرائيل بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ . ولـكن ادارة المهرجان قبلت أن تشترك اسرائيل بوفد شعبى لا عـلاقة له بالسلطات الاسرائيلية . وجاء هذا الوفد بالفعل ، وكان مكونا من الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، كما كان معظم أعضاء هذا الوفد من الشباب العربى الذى يكون جناحا خاصا فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى ، هو « الجناح العربى » .

ونقف هنا لحظة لنتعرف على نوع العلاقة بين العرب

فى الارض المحتلة وبين الحزب الشيوعي الاسرائيلى . فهذا الحزب هو أكثر الاحزاب السياسية اتصالا بالعرب المقيمين فى داخل اسرائيل ، وقد حدث بعد عدوان يونيو عام ١٩٦٧ أن انشـــق العرب او معظمهم عن الحزب الشيوعى ليكونوا جناحا خاصــا بهم فى هــذا الحزب .

والحقيقة ان العرب لم يرتبطــوا بالحزب الشيوعى الا بعد أن ضاقت بهم الحياة الســياسية فى اسرائيل ، حيث لم يستطيعوا تكوين تنظيم سياسى مستقل خاص بهم فقد رفضت الســلطات الاسرائيلية ـ كما أشرنا فى الفصــل الاول ـ أن تســمح بمثل هــذا التنــظيم السياسى العربى المستقل ، وعندما أقيم تنظيم « الارض » وهو التنظيم الوحيد الذى أنشأه العــرب والتفوا حوله ، قامت السلطات الاسرائيلية بحل هذا التنظيم وتحريمــه تحريما كاملا مما اضطر معظم العرب المشتركين فى هــذا التنظيم الى أن ينضموا للحزب الشيوعى الاسرائيلى ما دام هو الحزب الوحيد الذى يمكن أن يسمح للعرب بالانضمام اليه وبذلك وجد العرب « غطاء شرعيا » لنشاطهم السياسى وتنظيمهم السياسى الممنوع . ومن المعروف أن الجناح العربى فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى يتكون فى معظمه من منظمة « الارض » العربية ، وتحت لواء هذا الجنــاح العربى فى الحزب الشيوعى الاسرائيلى يعيش الشــاعران محمود درويش وسميح القاسم حياتهما السياسية مع عدد كبير غيرهما من الشــعراء العــرب فى اسرائيل ، ومن خلال ارتبــاط الشــاعرين بالجناح العربى للحــزب الشيوعى الاسرائيلى ، خرج الشاعران فى الوفد الشعبى الاسرائيلى الى مهرجان صوفيا . وهذا الجناح العــربى للحزب الشيوعى فى الارض المحتلة يقوده شــخصيتان

عربيتان هما « اميل حبيبي » و « توفيق طوبى » كما يشترك بعض اليهود بنسبة ضئيلة فى هذا الحزب ، وعلى رأس هؤلاء اليهود المنضمين الى الجناح العربى للحزب الشيوعى فى اسرائيل « فيلنر » الذى أدلى فى ٩ يوليو سنة ١٩٦٩ بتصريح مشهور قال فيه :

« ان رجال المقاومة الفلسطينية يشنون كفاحا عادلا فى جهودهم لتحرير الاراضى العربية التى احتلتها اسرائيل ، ومن الطبيعى أن تعمد أمة تقع أجزاء منها تحت يد الاحتلال الى مقاومة الاحتلال ، واذا كانت منظمة فتح تكافح لتحرير الاراضى المحتلة فان كفاحها يكون كفاحا عادلا »

ولا يمكن لاى تفكير سليم أن يرفض ارتباط محمود درويش وزملاءه بالحزب الشيوعى الاسرائيلى ، ما دام هذا الحزب – كما أشرنا – هو الحزب الوحيد الذى يفسح للعرب فرصة الانضمام اليه بسهولة ، ومادام تنظيم « الارض » العربى ممنوعا من السلطات الاسرائيلية ، ومادام العرب بانضمامهم الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى يستطيعون أن يجدوا فرصة للحركة السياسية بالنسبة لقضيتهم مهما كانت هذه الفرصة ضيقة ومحدودة .. مادام هذا كله صحيحا فلا معنى للاعتراض على انضمام محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء والكتاب العرب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى . ومن الواضح تماما أن انضمام هذا العدد من المثقفين والفنانين العرب الى الحزب الشيوعى الاسرائيلى لم يطمس أبدا وعيهم بقضيتهم العربية القومية الخاصة ، وهاهم أخيرا ينشقون عن الحزب ويكونون جناحا خاصا بهم مع نسبة قليلة من اليهود ، ويكفى أن نقرأ هنا ما كتبه أحد المثقفين والثوريين العرب فى داخل الارض المحتلة ، وهو صبرى جريس المحامى ،

وذلك فى كتابه المعروف عن « العرب فى اسرائيل » ... حيث يقول عن الحزب الشيوعي الاسرائيلى : « لقد لعب الحزب الشيوعي الاسرائيـــلى دورا فريداً فى نوعه فى التاريخ السياسى لعرب اسرائيل ... فباتخاذ هذا الحزب جانب المعارضة بعد وقت قصير من قيام الدولة ، أصبح المدافع الرئيسى عن حقوق العرب فى البلاد ، فلقد استولى الحزب على زمام المبادرة فيما يتعلق بكل النشـــاطات السياسية والاجتماعية التى ابدتها المعارضة العربيـة تجاه سياسة الاضطهاد التى اتبعتها حكومات اسرائيل المختلفة تجاه العـرب خاصـــة فى فترة سنوات الفوضى الثلاث او الاربع بعد قيام اسرائيل . ولقد استعان الحزب ايضا بأوساط عربية مختلفة اضـطرت لعـــدم وجود سبيل آخر وبقصــد مجابهة مؤامرات السلطات للتعاون مع هذا الحزب غير ان نصيب الاسد من هذا النشاط نظمته ونفذته مؤسسات هذا الحزب الخاصة كما ان صحف الحزب الشيوعى ، خاصـــة النـــاطقة بالعربية تعبر بصدق عن مشاكل عرب اسرائيل »

ويواصل صبرى جريس حديثه عن الحزب الشيوعى الاسرائيلى فيقول : « ومما لا شـــك فيه ان الحزب الشيوعى وصل الى أعلى مراتب تأثيره بين العرب فى اسرائيـــل عام ١٩٥٨ ذلك انه فى تلك الفتـــرة أيدت الشيوعية الدولية تأييدا كاملا الحركة القومية العربية التى انتصبت فى ذلك الوقت لتكافح الاستعمار الغربى وعملاءه فى الشرق الاوسط وخاصة بعد اقامة الجمهورية العربية المتحدة « وحدة ســـوريا ومصر » ففى تلك الفترة رفع الحزب الشيوعى الاسرائيلى أغلب شعارات الحركة القومية العربية بما فى ذلك حق تقرير المصـــير

لعرب اسرائيل حتى الانفصال » ويواصل صبرى جريس حديثه فيقول : « ان هناك أسبابا خارجية أدت الى تغيير الصورة تغييرا جذريا والى قلب الامور راسا على عقب ... ففى تلك الفترة غيرت الاحزاب الشيوعية فى البلاد العربية موقفها من الحركة القومية العربية وخاصة الشيوعيين السوريين ، برئاسة خالد بكداش الذين بدأوا نشاطهم ضد الجمهورية العربية المتحدة مما ادى الى شقاق بين الطرفين ... هذا الوضع الجديد أدى فى الحال الى تغيير فى موقف عرب اسرائيل ، وهكذا بدأ اكثر القادة العرب والجماهير العربية يتركون الحزب والتعاون السياسى معه » من هذا الموقف الذى يشرحه صبرى جريس يتضح لنا ان العرب فى داخل اسرائيل يضعون قضيتهم العربية القومية فوق كل اعتبار ، وهم اذا انضموا الى الحزب الشيوعي الاسرائيلى فانما يفعلون ذلك من أجل خدمة هذه القضية والدفاع عنها ، واذا اختلفوا مع الشيوعيين حول هذه القضية فانهم ينسحبون من الحزب كما حدث عام ١٩٥٩ أو يكونون جناحا مستقلا لهم كما حدث عام ١٩٦٧ عندما وجدوا أن نضالهم يجب أن يكون أشمل وأوسع مدى وأقل قيودا فى المرحلة التى تلت عدوان يونيو عام ١٩٦٧

هذه الحقائق كلها تكشف لنا عن طبيعة الظروف السياسية التى تحيط بالعرب والتى تفرض عليهم التعاون مع الحزب الشيوعى فى سبيل خدمة قضيتهم القومية ، وهذا هو الوضع السياسى الذى يعيش فى ظله محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من الشعراء العرب الشبان فى الارض المحتلة . فهم لا يستطيعون الحركة الا فى اطار « شرعية سياسية » لا تتوفر لهم

الا تحت حماية الحزب الشيوعى الاسرائيلى بصورة أو بأخرى ..

وفى ظل هـــذا الارتبـــاط بالجناح العربى للحزب الشيوعى الاسرائيلى خرج الشـــاعران الى صـــوفيا للاشتراك فى مهرجان الشباب ، وكان هدفهما كما قالا لعدد من الشبان العرب الذين اتصلوا بهما هو ان يتعرفا على غيرهما من الشباب العربى ، وأن يتصلا بشباب العالم ، ليشرحا قضية العرب ويلفتا النظر اليها وليس من المعقول أن يطلب من الشاعرين أن يظلا داخل أسوار اسرائيل اذا ما أتيحت لهما مثل هذه الفرصة ليخرجا الى العالم ، ففى هذا الخروج مزيد من التجربة بالنسبة لمحمود درويش وزملائه ، كما انه فرصة واضحة لخدمة القضية العـــربية الفلسطينية من خلال هذا المهرجان العالمى .

وتتركز التهم بعد ذلك فى ان محمود درويش وزميله كانا يسيران وراء العلم الاسرائيلى ويحملان « باسبورا » اسرائيلياً أو تذكرة مرور آسرائيلية « ليسيه باسيه » وفى مجال الرد على هذا الاتهام ينبغى أن نسأل : ماذا يحدث لو رفض الشاعران أن يسيرا وراء العلم الاسرائيلى؟

.. آلاجابة ببساطة هى أن الشاعرين سوف يمنعان من دخول اسرائيل بعد ذلك ، وكان عليهما فى هذه الحالة أن يلجآ الى احدى العواصم العربية ، ولا شـــك ان أى عاصمة عربية سترحب بمحمود درويش وزميله ، لآنهـــا تعرف قيمتهما ، وتعرف نضالهما وتعرف ان كل حرف يكتبانه هو من اجل فلسطين وحريتها ومن أجل شعبها العربى ، وتعرف أيضا ان الشاعرين قد « تخرجا » فى سجون اسرائيل ، وانهما تعرضا بكثرة للاضـــطهاد

السياسى والادبى والجسدى من السلطات الاسرائيلية .

كان من الممكن أن يجىء محمود درويش وسميح القاسم الى القاهرة أو يذهبا الى بيروت أو دمشق أو الى أى عاصمة عربية أخرى وسوف يلقيان بلا شك كل ترحيب وتقدير .

ولكن ماذا تكون قيمة هذا التصرف من جانب الشاعرين ؟.. هل خروجهما من اسرائيل فى مصلحة القضية العربية أو انه فى مصلحة اسرائيل ؟.. ان هذين الشاعرين هما فى طليعة العناصر القيادية لثلاثمائة الف عربى ما زالوا يقيمون حتى اليوم داخل أسوار اسرائيل . فماذا تكون النتيجة لو تخلى هذان الشاعران عن أرض المعركة الاصلية ؟ .. هل يكون خروجهما من إسرائيل ، حيث يقيمان الان ، نوعا من الكفاح والنضال أو أنه في حقيقته نوع من الهروب ؟ .. ان أى تفكير سليم يقول ان خروج الشاعرين من اسرائيل هو خسارة كبيرة للقضية العربية ، وأضعاف العرب الذين يقيمون فى قلب المأساة الحقيقية ويدافعون عن البقية الباقية من الارض العربية فى داخل اسرائيل ، وخروج الشاعرين من اسرائيل فيه راحة شخصية لهما وسلام وطمانينة ، ولكن بقاءهما هناك حيث يتعرضان بين يوم وآخر للاضطهاد المستمر ، ويقاومان ويكتبان أشعارهما من واقع المأساة نفسها .. هذا البقاء وسط النيران الملتهبة هو النضال الحقيقى الذى من اجله احتل محمود درويش وزملاؤه مكانتهم فى قلوبنا وفى تاريخنا السياسى والادبى .

وخروج محمود درويش وزميله من اسرائيل ، هو من ناحية أخرى ، هدف تسعى اليه اسرائيل نفسها ، انها

تغرى العرب هناك بالخروج والهجرة ، وترهبهم اذا فقد الاغراء جدواه فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، وخاصة اذا كان هؤلاء العرب من العناصر القيادية مثل محمود درويش • ان اسرائيل تبذل كل جهــدها للتخلص من الثلاثمائة ألف عربى الباقين فى أسرائيل ، وللقضـــاء على وجـــودهم بصورة نهـــائية ، فهذا الوجـــود العربى داخل أسرائيل هو نقطة الانطـلاق بالنســـبة للمستقبل العربى ، انه البذرة الخصبة التى ســوف تثمر فى المستقبل حرية لـكل الارض العربية الفلسطينية

ولـكل الشعب العربى الفلســـطينى . والســلطات الاسرائيلية تسعى بكل جهدها لـكى تقضى على هـذه البذرة العربية ، حتى لا تثمر فى المستقبل أى نوع من الثمار . وحتى ينتهى الخطر الذى يهدد المســتقبل الاسرائيلى ، وفى هذا المجال يكفى أنَّ نتذكر ذلك التصريح الذى أدلى به أحد كبار الموظفين الاسرائيليين والذى أشرنا اليه فى الفصل الاول ، حيث يقول هذا الموظف الاسرائيلى عن العرب فى اسرائيل :

« يجب تضييق خطواتهم ، واخـذ الاراضى منهم ، واذا أنهى عربى مدرسة ثانوية أو جامعة يجب أن ندعه يتسكع ثلاث أو أربع أو خمس ســنوات ، وأن يقع فريسة اليأس ويدرك الا مكان له فى هذه البلاد ويبحث لنفسه عن بلد آخر » . هذه هى السياسة الاسرائيلية ازاء العرب كما يعبر عنها موظف اسرائيلى مسئول .

فهل يخرج محمود درويش وسميح القاسم وغيرهما من اسرائيل ؟.. أليس خروجهما مســاعدة للســلطات الاسرائيلية على تحقيق اهدافها وتطبيق سياستها نحــو العرب ؟ •• ان اسرائيل مستعدة أن تقـــدم جميع

التسهيلات والمساعدات حتى يخرج منها شاعران لامعان مثل محمود درويش وسميح القاسم ، يرفعان صوت العرب فى الارض المحتلة عاليا ويعبران عن مشاكل هؤلاء العرب تعبيرا أمينا وصادقا وثوريا ، ويجسدان لاول مرة وبصورة رائعة امام العالم وجود العرب فى الارض الفلسطينية المحتلة ، بعد أن كان هذا الوجود معنى غامضا لا تجسيد له ٠

وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة معروفة فى التاريخ الادبى العالمى وهى قصة غزو نابليون لألمانيا فى القرن الماضى ، لقد دخل نابليون « ويمار » احدى الامارات الالمانية ، حيث كان يقيم الاديب الالمانى الكبير «جيته».

وكان باستطاعة « جيته » أن يهرب من « ويمار » ومن وجه نابليون الذى احتل بلاده وغزاها ، وكان باستطاعة « جيته » أن يجد حياة مناسبة واستقبالا رائعا لو انه هرب الى انجلترا مثلا وهى عدوة نابليون الاولى ، ولكنه رفض ذلك رفضا كاملا وفضل البقاء فى بلده المهزوم ، بل لقد التقى بنابليون الغازى والمحتل لبلاده ٠ ومع ذلك لم يقل أحد عن « جيته » انه خان بلاده بلقائه مع نابليون ، وانه عاون الاحتلال الفرنسى لانه رضى أن يبقى فى وطنه فى ظل هذا الاحتلال ٠ ولا شك ان « جيته » قد شاهد العلم الفرنسى يرفرف فوق كل مكان فى بلاده ، ولا شك آنه التقى بنابليون فى مكان ارتفعت فوقه الراية الفرنسية لا الالمانية ٠٠ ومع ذلك لم يكتب عنه احد انه خائن لالمانيا وعميل للفرنسيين ، وذلك لان موقف « جيته » اتيح له أن يجد الذين ينظرون اليه بالعقل والتفكير المنطقى السليم لا من ينظرون اليه بالانفعال السريع المتشنج ٠ القضية كلها واضحة تمام الوضوح امام

الشاعر محمود درويش وزملائه • فيكفى أن نقرأ شعر محمود وشعر زملائه بشيء من الفهم والوعي حتى نجد ان موضوع « التمسك بالارض الفلسطينية » والبقاء فوق التراب الفلسطيني هو موضوع أساسي وعزيز عند هؤلاء الشعراء الى ابعد الحدود • انهم يتمسكون ببقائهم فوق هذه الارض ، حتى ولو فرضت عليهم الظروف القاسية آن يحملوا « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية وان يمشوا وراء العلم الاسرائيلي • فهذا كله أهون عليهم من أن يتركوا الارض العربية للاسرائيليين ويرحلوا عنها •

فمحمود درويش عندما يتحدث عن حبيبته يقول :

فلسطينية كانت ولم تزل •

فهو يعتز بحبيبته لأنها متمسكة بأرضها متمسكة بصفتها الفلسطينية ، ولم تتخل عنها لترحل الى أرض أخرى ، وحتى لو كانت أرضا عربية قريبة وشقيقة لأرض فلسطين . ومحمود درويش عندما يحدثنا عن شخصية الأب فى شعره فهو يؤكد لنا ان شخصية الأب تجد رسالتها فى منع أولاده من الهجرة ، وفى دعوتهم للبقاء ... ففى قصيدته «أبى» يقول محمود درويش :

غض طرفا عن القمر
وانحنى يحفن التراب
وصلى • • •
لسماء بلا مطر
ونهانى عن السفر
• • • • • •
وأبى قال مرة
حين صلى على حجر !

غض طرفا عن القمر
واحذر البحر . . . والسفر
. . . .
. . . .
وأبى قال مرة
الذى ما له وطن
ما له فى الثرى ضريح
. . . . . .
ونهانى عن السفر

والتمسك بالارض والحرص عليها نغمة أساسية فى شعر محمود درويش ، فهو يقول عن وطنه وأرضه :

وطنى ليس قصة أو نشيدا
ليس ضوءا على سوالف فله
هذه الارض جلد عظمى ·· وقلبى
فوق اعشابها يعيش كنحلة ··

وهو يقول أيضا فى قصيدة أخرى :

يا صخرة صلى عليها والدى ، لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلىء ··· لن أسافر
لن أسافر ··· لن أسافر

فمحمود درويش هو « شاعر الارض المحتلة » ، شاعر التمسك بالارض ، شاعر العشق لكل أعشابها وصخورها ، شاعر الاظافر المغروسة فى التراب حرصا عليه وايمانا به وتمسكا بكل ذرة فيه ··· انه ابن هذه الارض ، وقصائده تنبت فوقها كما ينبت الزيتون ، ومشاعره كلها ، وعقائده كلها مرتبطة كل الارتباط بهذه الارض .. فكيف يتركها للعدو ، وكيف يرحل عنها وهو يغنى لها بكل هذا الحب والعمق ، والولع والعشق الصوفى الاصيل ·· اننا لا نكاد

نجد شاعرا غنى للارض الفلسطينية مثلما غنى لها محمود درويش ٠٠ انه شاعر هذه الارض المحتلة التى تريد أن تتحرر ٠٠ والتى ينبض كل حرف من قصـــائده بدعوة التمسك بها وتحريرها فى آن واحد ٠

على أننا نجد عند سميح القاسم زميل محمود درويش وصديقه صدى لتلك النغمة ٠٠ نغمة التمسـك بالارض الفلسطينية والبقاء والاستمرار فوقها ، وان كان الاهتمام بالارض قد بلغ ذروته الفنية والفكرية عند محمود درويش بالذات ، حيث يهتم سميح بقضايا أخرى مختلفة وحيث تتفجر موهبته اللامعة مع قضايا أخرى أرجو أن أشير اليها فى دراسة مستقلة . ومع ذلك كله ففى شـــعر سميح القاسم تعبير واضح عن التمسك بالارض ، ففى الهجرة من هذه الارض تبدأ الكارثة العامة ، ولقد كان خــروج العرب عام ١٩٤٨ أمام الارهاب الاسرائيلى عنصرا من أكبر العناصر التى خلقت المأساة الفلسطينية فى البداية

واحب قبـل أن نقف مع شعر سميح القاسم وهو يعبر عن تمسكه بالارض مهما كانت العواصف والزوابع، أن نقرأ هــذه الكلمة التى كتبهـــا سميح عام ١٩٦٥ ونشرتها احدى الصحف الاسرائيلية ، وكانت هــذه الرسالة تعليقا على ديوان ســميح الثــانى « أغانى الدروب » ٠٠ يقول سميح فى كلمته :

« أصدرت فى الآونة الاخيرة مجموعة شــعرية عن حياة العرب فى اسرائيل وعن النضال فى سبيل الحرية عامة . وكنت أتوقع ان قصائدى هذه ستحدث رد فعل منعكسا لدى فريق من القراء : تقدميين ورجعيين وقد صدق ظنى . اذ راحت بعض الصحف اليومية تحذر القارىء اليهودى من تلاوة قصـــائدى التى تدعو الى

الـكراهية والثورة . وكان من جراء ذلك أن سرحت من عملي في التعليم ... ولـكنني لا أرهب أحدا » . هذه هي نفسية الشاعر سميح القاسم ، وهـذه مواقفه ، ومع ذلك تتهمه بعض الصحف العربيـــة في كرامته الوطنية لأنه خرج الى مهـــرجان عالمي وهو يحمـــل « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية ويمشي وراء العلم الاسرائيلي .

اما شعر سميح القاسم ، ودعوته الصريحة القوية الى التمسك بالبقاء في أرض فلسطين فتبدو لنا بوضوح في قصيـــدته التي جعل عنوانها « اليك هناك حيث تموت » وهي رد على رسالة كتبها اليه صديق فلسطيني من أصدقاء طفولته يعيش في بيروت ، وفي هذه الرسالة يدعو الصديق سميح الى أن يترك ما يعانيه من هم وشقاء ويســافر ليعيش معه في بيروت حيث الراحة والطمانينة والبعد عن مشاكل الاحتـلال الاسرائيلي . ويرد سميح القاسم على هـذه الرســالة في قصيدته الممتازة ، وهو يقول أولا على لسان صاحب الرسالة :

أخي الغالي !
لماذا أنت لا تأتي الى بيروت ؟
وتترك جرحك المفتوت !
وتهجر وجهك المغموس في الوحل
وتنسي عيشة الذل
فحقلك لم يكن أرحب من حقلي
وبيتك لم يكن اجمل من بيتي
لماذا انت لا تأتي ؟

وفي فقرة سابقة على هذه الفقرة في نفس القصيدة يصور له هذا الصديق مغريات الحياة بعيدا عن الشقاء

فى ظل الاحتلال الاسرائيلى ، فيقول :

أنا أصبحت انسانا جديدا ..
غير ما تعهد
ختمت دراستى العليا ... ونلت
شهادة المعهد ...
واصبح مكتبى اكبر
وصار اسمى هنا أشهر
ولى صاحبة شقراء ... جدتها ...
فرنسية
وأخرى جدها قاد الفتوحات
الصليبية
ومثل بقية الاسياد
تربض فى فناء الدار .. فارهة
خصوصية !

ولكن سميح القاسم رغم كل هذه الاغراءات يرد على صديقه فيقول فى نفس القصيدة :

اليك هناك فى بيروت
اليك هناك حيث تموت
كزنبقة بلا جذر
كنهر ضيع المنبع
كأغنية بلا مطلع
كعاصفة بلا عمر
اليك هناك حيث تموت كالشمس
الخريفية
بأكفان حريرية
اليك هناك .. يا جرحى ويا عارى
ويا ساكب ماء الوجه فى نارى

اليك اليك من قلبى المقاوم جائعا
عارى ..
تحياتى وأشواقى
ولعنة بيتك الباقى !

وهكذا يرفض سميح القاسم ، ويرفض محمود درويش أن يتركا أرضهما مهما كانت الاغراءات ، فالكفاح الحقيقى هو البقاء فوق الارض الفلسطينية ... ومن أجل هذا الهدف العزيز ، ومن أجل مستقبل جديد ، يحتمل سميح ومحمود وزملاؤهما بعض القيود وكل القيود ... ومن بينها أن يحملا « باسبورا » اسرائيليا أو تذكرة مرور اسرائيلية ويسيرا وراء العلم الاسرائيلى .. فهم أصحاب الارض ، واصحاب القضية العادلة رغم راية الاحتلال . ان جوهر النضال هو الباقى وليس الشكليات . وما أغلى نضال محمود درويش وزملائه من أجل البقاء فوق أرض تهددهم فيها مسدسات وسجون ومحاربة قاسية فى الرزق واغتيالات . ولكنهم مع ذلك باقون بعد ان عرفوا ان مسألة المسائل بالنسبة للعربى الفلسطينى هى البقاء فى أحضان أرضه وزيتونه وأشواكه ، وليس الهروب الى الراحة والطمأنينة والتماس البعد عن الخطر ارضاء لاصحاب المظاهر والشكليات والنضال بالصخب الاجوف والشعارات .

ماذا نتعلم منه
ومن رفاقه ؟

كانت طلقات الرصاص وانفجارات القنابل والالغام في داخل فلسطين المحتلة هي البداية الصحيحة التي ايقظت الامل في نفوس المواطنين العرب بعد الهزيمة المادية والمعنوية التي حلت بالوطن العربي في ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . ان ظهور شخصية الفدائي العربي على سطح الاحداث هو الذي أشعل الشموع التي انطفأت في نفوسنا بعد ٥ يونيو فامتلأت أرواحنا بالظلام . ولا شك ان ظهور شخصية الفدائي العربي بهذه القوة يعتبر نقطة تحول واضحة ودقيقة في النفسية العربية ، وخلاصة هذا التحول هو الانتقال من اليأس الى الامل ، وعودة ذكريات النضال العربي المنتصر الى ضمائر العرب ، فقد بدأنا نحس ان نفس الشرارة التي اشتعلت في جبال الاوراس بالجزائر وانتهت بالنصر قد عادت لتشتعل في فلسطين وتبدأ رحلة صعبة وطويلة ولكنها مليئة بالامل .

هذا الذي حدث للنفسية العربية بعد ظهور الفدائي ، حدث ايضا في الشعر العربي المعاصر ، بعد ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة في فلسطين . وقد ظهر محمود درويش وزملاؤه بوضوح في الحياة الادبية بعد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ . كانت هناك قبل ذلك

معلومات محدودة عنهم ، وكانت هنـاك نصوص قليلة مبعثرة تظهر بين الحين والحين لهؤلاء الشعراء . كانوا قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ أشبه بحركة الفدائيين نفسها. فالحركة الفدائية كانت حركة محدودة متقطعة ، نسمع صوتها خافتا غير متصـل بين فترة وأخرى ، ولـكن حركة الفدائيين ازدادت قوة وتنظيما بعـد ٥ يونيو .

وكذلك محمود درويش وزملاؤه : لقد ظهروا امامنا بعد الهزيمة بوضوح أكثر ، وتجمعت أشـعارهم الـكثيرة وأصبحت مثل شلال هادر يتدفق داخل الارض المحتلة وخارجها . وأول ما نلاحظه ، وما سبق تسجيله في الفصول السابقة من هذا الكتاب هو أن محمود درويش وزملاءه لم يفقدوا الامل ولم يفقدوا احساسهم بأن النصر سوف يتحقق . ولقد كان من المنتظر والطبيعي أن يكونوا هم أول اليائسين .. لانهم يعيشون داخل أسوار اسرائيل، وتسلط عليهم السلطات الاسرائيليـة ارهابها المـادي والمعنوي كل يوم ، وهم يعيشون ضمن أقليـة عربية يعاملها الاسرائيليون أسوأ معاملة .

ولكن الذي حدث هو العكس كما أشرنا في فصل سابق : انهم لم يفقدوا الامل ، ولم تتحطم معنوياتهم ، ولم تمتلىء نفوسهم بأي لون من الوان اليأس أو المرارة أو الاحساس بالتشاؤم . أن ما حدث لهؤلاء الشعراء هو نفسه ما حدث للفدائي الفلسطيني ، فلقد كان من المنتظر أيضـا ومن الطبيعي أن يحس الفلسطيني بعد الهزيمة أن كل شيء قد ضاع ، وأنه لم يعد أمامه أي أمل على الاقل خـلال عشر سنوات قادمة أو أكثر من ذلك بكثير . ولكن الهزيمة على العكس أعطت الفدائي قوة ومنحته حرارة وحيـوية وحماسا قريبا من الحماس الديني ، وأصبح الفدائي بعد

الهزيمة يحس أن عليه أن يلعب دور البطولة دفاعا عن اطفاله وأرضه وبيته .

ان الشاعر محمود درويش وهو يقف فى طليعة شعراء المقاومة فى الارض المحتلة يتفجر بالشعر بعد هزيمة ٥ يونيو . وعندما نقرأ هذا الشعر نحس أن الشاعر المناضل لم يفقد ايمانه العميق بأن المعركة مستمرة ، وبان النصر لابد أن يتحقق فى النهاية لأن القضية العربية قضية عادلة . ان كل بيت من الشعر كتبه محمود درويش بعد ٥ يونيو يثبت أن أكثر الناس تعاسة هم أكثرهم قوة ونضالا ، وان المواطن العربى الذى يتعرض داخل اسوار اسرائيل لاقسى أنواع الاضطهاد هو فى نفس الوقت أكثر المواطنين صلابة واصرارا على النضال .

اننا نتذكر ونحن نقرأ اشعار محمود درويش تلك العبارة الشهيرة التى تقول : « انكم لن تخسروا سوى قيودكم » فهذه العبارة تنطبق بصدق ودقة على المواطن العربى داخل اسرائيل ... فماذا يخسر هذا المواطن من النضال والثورة والتمرد ؟ .. انه يعيش فى ظل ظروف قاسية مريرة حيث نهب الاسرائيليون أرضه وسدوا فى وجهه أبواب العمل والامل .. فما الذى يخشاه هذا المواطن بعد ذلك كله . ان النضال هو الحل الوحيد أمامه ، والمقاومة هى الرؤية الصحيحة الوحيدة لهذا المواطن العربى فى مثل ظروفه القاسية .

ان محمود درويش لا يبكى بعد ٥ يونيو ولا يقول ان كل شيء قد انتهى ولم يبق أمامنا سوى الدموع . انه على العكس يشعر بمزيد من القوة ، ويشعر بان الهزيمة قد فجرت عاصفة كبيرة سوف تقتلع ما أمامها من

الصعاب والعقبات :

أخذوا بابا ... ليعطوك رياح
فتحوا جرحا ليعطوك صباح
هدموا بيتا لـكى نبنى وطن

ويقول محمود درويش أيضا :

علمتنى ضربة الجلاد
ان أمشى على جرحى
وامشى ثم أمشى ... واقاوم

ويقول أيضا :

الموت والميلاد فى وطنى المؤله توأمان

ويقول :

أغمدت فى لحم الظلام هزيمتى
وغرزت فى شعر الضياء أناملى
فاذا احترقت على صليب عبادتى
أصبحت قديسا بزى مقاتل

هذه الابيات التى كتبها محمود درويش بعد هزيمة ٥ يونيو ان دلت على شىء فانمـــا تدل على قوة الاصرار وعمقه فى قلب هذا الشاعر ، وهو نفس الاحســـاس الذى يملأ نفوس زملائه من شــعراء المقــاومة الذين يتعرضون لأقسى المحن وأكثرها صـعوبة ، ومع ذلك فانهم يمتلئون بروح النضال والتفاؤل والايمان بالمستقبل والاحساس بأن الهزيمة ليست نهائية وانما هى خطوة على طريق النصر الذى لابد منه . وهذه الروح النضالية الاصيلة التى تملأ شـعر محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة ، هى التى صورها أحد هؤلاء الشعراء وهو « توفيق زياد » فى قصيدة له من أدباء المقاومة فى الارض المحتلة عنوانها « عشرون » ، وهو يعنى فى هذا

العنوان تحديد عدد هؤلاء الشعراء والأدباء الذين يمثلون حركة المقاومة فى الادب العربى الفلسطينى داخل الارض المحتلة ، ويتكون من بينهم تجمع أدبى كبير له تأثيره السياسى والنضالى عند الجماهير العربيـــة الخاضعة للاحتلال الاسرائيـــلى ، وهم فى نفس الوقت يمثلون قوة من قوى المقاومة العربية العنيدة بالنسبة للسلطات الاسرائيلية ، وقد استطاع بعضهم أن يحقق لنفســه سمعة خاصة فى الدوائر الثقـــافية فى أوربا ، مثـــل محمود درويش وسميح القاسم وراشد حسين ، ولذلك فان السلطات الاسرائيلية تخشى منهم جميعا ، وتفرض عليهم ألوانا من الاضطـــهاد ولـــكنهـــا فى نفس الوقت تخشى كل الخشية من أن تقتل أحدهم أو تفرض عليه النفى خارج البلاد بعد أن أصبحوا قوة ذات صـــوت مسموع ومرهوب ، ولا شك أن هؤلاء العشرين يمثلون مشكلة أساسية من مشاكل الســلطات الاسرائيلية لم تجد لها بعـــد حلا نهائيـــا وهى لا تملك أمامهم أكثر من مصادرة ما يكتبون ، واعتقالهم وتحديد اقامتهم ، وفصلهم من أعمالهم ... ومع ذلك فانتـــاجهم الادبى يتسلل الى المواطنين العرب داخـــل الارض المحتـــلة ويتسلل بعض هذا الانتاج خارج الارض المحتلة ليمثـــل تيارا كهربائيا فكريا وفنيا يهز الضمير العربى ويثيره باستمرار .

من هم هؤلاء العشرون ... زملاء محمود درويش ورفاق طريقه فى الفن والنضال ؟.. لقد عرفنا انتـــاج بعضهم وقرأناه ولـــكننا لم نعرف انتاج الآخرين بعـــد ، أما أسماؤهم فقد أصبحت كلها معروفة لنا وهم : محمود درويش ، سميح القاسم ، نايف سليم ، حنا أبو حنا ،

محمود دسوقى ، حبيب قهوجى ، توفيق فيـــاض ، فوزى الاسمر ، سالم جبران ، فهد أبو خضرة ، أحمد حسين ، راشد حسين « وهو الوحيد الذى يقال انه هاجر من اسرائيل لضعف صحته وقسوة ما نزل به من اضطهاد » عصام العباسى ، عطا الله منصور ، ابراهيم مؤيد ، زكى سليم درويش ، جمال قعوار ، أبو اياس ، أحمد يونس ، توفيق زياد .

هؤلاء العشرون يحدثنا عنهم وعن دورهم النضالى وعن صمودهم واصرارهم واحـــد منهم ، هو توفيق زياد فيقول :

كأننا عشرون مستحيل
فى اللد ... فى الرملة ... فى الجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار
وفى حلوقكم كقطعة الزجاج
وفى عيـــونكم
زوبعة من نار

وهو يؤكد انهم سوف يقبلون أشق الاعمال وأقلهـــا قيمة ، ولـكنهم لن يتركوا وطنهم ولن يتركوا أقلامهم ولن يتخلوا عن ايمانهم بقضيتهم :

هنا على صدوركم باقون كالجدار
ننظف الصـــــحون فى الحانات
ونملأ الـكؤوس للســـــــادات
ونمسح البلاط فى المطابخ السوداء
حتى نسل لقمة الصـــــغار
من بين أنيـــــابكم الزرقـــاء
هنا على صدوركم ، باقون كالجدار
نجوع

نعرى
نتحدى
ننشد الاشعار
ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السـجون كبـريـاء
ونصنع الاطفال . . . جيلا ثائرا
وراء جيل
. . . .
اننا باقون
فلتشربوا البحرا
نحرس ظـل التين والزيتـون
ونزرع الافكار كالخمير فى العجين
. . . .
اذا عطشـنا نعصر الصـخرا
ونأكل التـراب ان جعنـا
ولا نرحل
. . . .
يا جذرنا الحى تشبث
واضربى فى القـاع يا أصـول

هذه هي الروح التى تسيطر على شعراء المقاومة ، انها روح التمسك بالجذور ، روح الصـلابة الثورية والاستشهاد والايمان القوى بعدالة القضيـة ، روح الاستبسال الحقيقى الصادق ، روح النضال ذى النفس الطويل الذى يحتمل الهزائم ، ولا يستسلم لها ، وانما يقف على قدميه كل مرة ليبدأ من جديد .

والحقيقة ان محمود درويش ورفاقه من شـعراء المقاومة وأدبائها يمثلون « ظاهرة نفسية » جديدة لهـا

قيمتها وأهميتها بالنسبة للادب العربى المعــاصر كله ، فهم ليسوا مجرد ظاهرة فنية وحسب ، انهم خميرة نضالية صادقة تنقل عدواها الى الآخرين وتمسهم بقوتها السحرية الاصيلة • والحقيقة أن الشعر العربى المعاصر قد تأثر تأثرا واضحا بهؤلاء الشعراء ، وتعلم منهم الكثير • لقــد ترك هؤلاء الشعراء بصماتهم على الحركة الشعرية العربية المعاصرة ••• وخاصة من الناحية الموضوعية والنفسية •

والحق ان روح المقاومة التى يمثلها الفدائى والشاعر معا سوف تقدم للأمة العربية قوة جديدة تمنحها مزيدا من القدرة على الحركة والانتقال من الموقف الراهن الى موقف آخر أكثر أملا وأكثر اشراقا .

وسوف نقف أمام ثلاثة نماذج يمثل كل منها نوعا من التأثر بشعراء المقاومة . ولولا شعراء المقاومة ... لولا أشعارهم ومواقفهم لما ظهرت هذه النماذج الشعرية الجديدة ذات الدلالة العميقة .

والنموذج الاول تقدمه الشاعرة فدوى طوقان ، وهى الشاعرة الفلسطينية التى ولــدت وعاشت فى نابلس فى الضفة الغربية للاردن ، وقد بقيت الشاعرة فى مدينتها بعد الاحتلال الاسرائيلى ، وعانت ما يعانيه أهــل الضفة الغربية من ظروف الضغط والارهاب • وفـدوى طوقان كانت فى كل شعرها قبل ٥ يونيو عام ١٩٦٧ تعبر عن قلب حزين متشائم يائس تملأه دموع غزيرة • وكما أشرت فى فصل سابق من هذا الكتاب كان وراء شعرها الحزين تجربة شخصية وتجربة عامة ، أما التجربة الشخصية فتتمثل فى موت شقيقها الشاعر الكبير ابراهيم طوقان عام ١٩٤١ فى زهرة شبابه ، ثم موت شقيقها نمر بعد ذلك فى حادث طائرة . أما التجـربة العــامة فهى تجربة وطنهـا

فلسطين . فلقد تركت المأساة الفلسطينية فى قلب هذه الشاعرة الحساسة جرحا عميقا ، هو الجرح الذى جعل من شعرها دموعا وأحزانا دائمة ... ولقد كان من المنتظر أن تزيدها أحزان ٥ يونيو حزنا فوق حزن ، ولكن الذى حدث هو العكس ، لقد انطلقت من أعماق الشاعرة الحزينة شرارة نضالية . فقد ذهبت الشاعرة الى يافا بعد عدوان ٥ يونيو ، ولاول مرة ترى هذه المدينة العربية منذ عام ١٩٤٨ ، حينما أقيمت دولة اسرائيل ، واختفت المدن العربية العزيزة واحدة بعد الاخرى خلف الاسوار التى أقامتها اسرائيل . وفى يافا وبعد عدوان ٥ يونيو بعدة شهور التقت فدوى طوقان بالشعراء الشبان الذين يقيمون فى الارض المحتلة ، شعراء المقاومة والنضال ... التقت بمحمود درويش ورفاقه ... وبعد هذا اللقاء كتبت الشاعرة قصيدة بعنوان « لن أبكى » :

على أبواب يافا يا أحبائى
وفى فوضى حطام الدور بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين
قفا نبكى
على أطلال من حلوا وفاتوها
تنادى من بناها الدار
وتنعى من بناها الدار
وكان القلب منسحقا ..

وقال القلب :

ما فعلت
بك الايام يا دار ؟

ولكن الشاعرة رغم كل هذه الاحزان التى هاجمتها

عندما رأت يافا ، قد وجدت فى نفسها أملا جـــــديدا مشرقا بعد لقائها بهؤلاء الشعراء الشبان الذين يقيمون فى الارض المحتلة ، وانطلقت الشاعرة تقول :

احبائى ...
مسحت عن الجفون ضبابة الدمع الرمادية
لألقاكم وفى عينى نور الحب والايمان
بكم ، بالارض ، بالانسان
فواخجلى لو انى جئت القاكم
وجفنى راعش مبلول
وقلبى يائس مخذول
وهانا يا احبائى هنا معكم
لاقبس منكم جمرة
لآخذ يا مصابيح الدجى من زيتكم قطرة
لمصباحي ، وها انا يا أحبائى
الى يدكم أمد يدى
وعند رؤوسكم ألقى هنا رأسى
وأرفع جبهتى معكم الى الشمس
وها أنتم كصخر جبالنا قوة
وها انتم كزهر بلادنا الحلوة
فكيف الجرح يسحقنى
وكيف اليأس يسحقنى
وكيف امامكم أبكى
يمينا بعد هذا اليوم لن أبكى

ثم تقول فدوى طوقان فى نفس القصيدة مخاطبة محمود درويش وزملاءه من شعراء المقاومة :

أحبائى ، مصابيح الدجى ، يا اخوتى فى الجرح
وياسر الخميرة ، يا بذار القمح

يموت هنا ليعطينا
ويعطينا
ويعطينا
على طرقاتكم أمضى
وها أنا بين أعينكم
ألملمها دموع الامس
وأزرع مثلكم قدمى فى وطنى وفى أرضى
وأزرع مثلكم عينى فى درب السنى والشمس

وهكذا ، ولأول مرة على وجه التقريب بين عشرات القصائد التى كتبتها فدوى طوقان خلال ما يقرب من ربع قرن من حياتها الفنية نحس بروح التفاؤل الثورى ، والامل فى الغد ، بعد أن كان شعرها كله حزنا ودمعا وتعبيرا عن نفسية يائسة ممزقة خالية من اى أمل فى المستقبل ، ان الشاعرة فدوى طوقان تجسد فى هذه القصيدة بداية من بدايات التحول الكبير فى نفسية الشعراء العرب ، وهو التحول الذى يعود الفضل الكبير فيه الى ظهور محمود درويش وزملائه من شعراء المقاومة فى الارض المحتلة والى تأثيرهم على نفسية المواطنين والشعراء العرب على السواء .

أما النموذج الثانى الذى يكشف لنا أثر شعراء المقاومة على غيرهم من الشعراء العرب فيمثله الشاعر الفلسطينى « أبو سلمى » ، وأبو سلمى هو أحد كبار الشعراء الفلسطينيين الذين ينتسبون ـ كما اشرنا من قبل فى فصول سابقة ـ الى جيل الثورة التى اشتعلت على أرض فلسطين عام ١٩٣٦ .

وهى الثورة التى تآمرت عليها انجلترا مع الاسرائيليين ومع عدد من السياسيين

الرجعيين من امثال نورى السعيد ، واشتركت فى هـذه المؤامرة بعض القيادات الفلسطينية التقليدية من امثال الحاج امين الحسينى ، ولـكن هذه الثورة مع ذلك كله كانت تمثل أعلى موجة من موجات المقاومة الفلسطينية قبل قيام اسرائيل . وفى ظل هذه الثورة اشتعلت روح المقاومة فى الشعر العربى الفلسطينى ، وهي الروح التى نجدها واضحة فى شعر « أبو سلمى » الذى كتبه فى مرحلة الثورة « ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ » وفى الاعوام القليلة التالية للثورة . على ان « أبو سلمى » بعـد أن رأى المأساة تزحف على وطنه تغير موقفه النفسي ،فبدأ الاسى يملأ وجدانه ، وأصبح شـعره مليئا بالحزن والبكاء على أرضه وشعبه ، وقد ظل « أبو سلمى » يمثل هـذا الصوت الحزين المتفجع الباكى على اللاجئين فى خيامهم ، وعلى المدن والقرى الفلسطينيـة التى بدأت تغيب عن العين فى ظل الاحتلال الصهيونى ، حيث تغيرت أسماء هذه المدن والقرى بأسماء اسرائيلية ، فقد تحولت يافا الى « يافو » وعكا الى « عكو » وحدثت تغييرات أخرى شاملة لـكل الاسماء العربية الغالية على قلوبنا جميعا ، كذلك تغيرت الملامح العربيـة للقرى والمدن واكتست بطابع يهودى وامتدت يد الهدم والتغيير الى الشوارع والـكنائس والجوامع .

وقد ظل أبو سلمى يعبر فى شعره عن هـذا الحزن الكبير العميق ، حتى اشتعلت المقاومة فى فلسطين بعـد ٥ يونيو عام ١٩٦٧ ، وحتى ظهر هؤلاء الشعراء الشبان الذين يمثلون الوجه الثانى من وجوه المقاومة العربية ، حيث يعتمد الوجـه الاول على القـوة الفدائية المسلحة .

واستطاع هؤلاء الشبان أن يدفئوا قلب الشاعر الكبير الذى قضى أكثر من ثلاثين عاما يحمل القضية الفلسطينية فى قلبه ، ويضمها بين جناحيه ، وقضى منها ما يقرب من عشرين عاما لا يجد لشاعريته زادا الا الحزن والاسى واليأس . وهكذا امتلأت نفسية « أبو سلمى » بعواطف جديدة ، وآزهرت فيها آمال حارة ، وتغير موقفه الوجداني من اليأس الى التفاؤل . وها هو يقول فى قصيدة أخيرة له بعنوان «من فلسطين ريشتى» حيث يخاطب شعراء المقاومة الشبان :

شعراء الجليل والشاطىء الغربى
انتم طلائع الفرسان
شعركم مثلكم خلودا ويسرى
من فلسطين فيه نفح الجنان
زنتم الليل بالحروف نجوما
يا احبـاى فى احب مكان
تتحدون بالقوافى المدماة
نضالا عصابة الشيطان
طلع الشعر فوق أرضكم الخضراء
غرسا مخضب الاغصان
كل شعر سواه تلوى به الريح
ويطويه عالم النسيان
شعركم وحده يعمق فى الارض
جذور الصمود والعنفوان
شعركم وحده المجلجل فى الساح
رفيق السلاح فى الممعان

وهكذا يعود الامل الى قلب الشاعر الكبير الحزين ، فيحس باقتراب النور والخلاص ، بعد أن كان يحس

بأن الظلام يحيط به وبقضيته من كل جانب ، ولذلك فهو يخاطب الفدائيين والشعراء من ابناء الارض المحتلة فيقول :

عندما تخطرون تزدهر الارض
وتهدى غـــلائل الريحـــان
نحن اسرى وانتم انتم الاحرار
خلف الســجون والقضـــبان

ولـكن الاسير الذى يمثله « أبو سلمى » يتحرر من اسره وينطلق فى عالم كبير من الامل عندما يرى الاسرى الحقيقيين من امثـــال محمود درويش يشعرون بالقوة والامل الـكبير فى الغد ولا يمر عليهم اليأس القاتم الا كما يمر النسيم الهادىء العابر .

والنموذج الثالث الذى يمكن أن نقـــدمه فى هـــذا الميدان ، كأثر من آثار محمود درويش وزملائه من شعراء الارض المحتلة وصمودهم الكبير سواء فى مواقفهم ضـــد السلطات الاسرائيلية أو فى أشعارهم الثورية التى تنبض بالامل وبروح النضال الحقيقى .. هذا النموذج الجديد يمثله الشاعر نزار قبانى الذى أحس بصوت الهزيمة فى ٥ يونيو احساسا مدويا عنيفا ، فانفجر فى عدد من قصائده يصب غضبه على شعبه ، ويحمل فى هذه القصائد سكينا يمزق بها نفسه وقومه معا ، ويحاول أن يضع اصبعه أو سكينه بقسوة على مناطق الداء ويطالب بالقضـــاء عليها ، ولقد كان معظم شعر نزار قبانى قبل النكسة يدور حول المرأة وحول تجارب الشاعر العاطفية بل والحسية أيضا .

ولـكن صـــوت الهزيمة أيقظه من احلامه النـــاعمة الهادئة ، فانطلق ليغنى فى شعره بطريقة جديدة وأسلوب جديد ، وكان من أكبر التجارب النفسية والفنية التى

اثرت فى نفسه تجربة لقائه مع شـــعر المقاومة وتأثره بشعراء المقاومة ومواقفهم المختلفة ، لقـــد اهتز نزار قباني من اعماقه أمام هؤلاء الشعراء الشبان المناضلين ، ووقف امامهم يعطيهم العهد الصـــادق أن يتعلم منهم ويجعلهم مثلاً أعلى لدور الفنان فى حياتنا العربية ، بل واخذ يطالب بصوت مرهف وعنيف بأن يقف كل الشعراء أمام محمود درويش وزملائه ليتعلموا منهم كيف يكون الشعر وكيف يكون الانسان . يقول نزار قبـــانى فى قصيدته الى « شعراء الارض المحتلة » :

شعراء الارض المحتلة
يا أجمل طير يأتينا من ليل الاسر
يا حزنا شفاف العينين ، نقيا مثل صلاة الفجر
يا شجر الورد النابت من أحشاء الجمر
يا مطرا يسقط رغم الظلم ورغم القهر
نتعلم منكم كيف يغنى الغارق من أعماق البئر
نتعلم كيف يسير على قدميه القبر
نتعلم كيف يكون الشعر

وفى فقرة سابقة على هذه الفقرة يقول نزار :

نتعلم منكم منذ سنين
نحن الشعراء المهزومين
نحن الغرباء عن التاريخ وعن احزان المحزونين
لنتعلم كيف الحرف يكون له شكل السكين

اذن فقد استطاع شـــعراء المقاومة ان يخلقوا نغمة نفسية جديدة فى أعمـــاق الشاعر العربى خارج الارض المحتلة ، وهذه النغمة الجديدة هى الخروج من الحزن والبكاء كما خرجت فدوى من عالمها الباكى الحزين على يد شعراء المقاومة ، لتنضم الى موكبهم الصامد المملوء

بالامل والتفاؤل والاصرار على النضال . وهـــذه النغمة النفسية الجديدة هي نغمة العودة الى التفتح والانطلاق وروح النضال عند شاعر مثل « أبو سلمى » ... لقد أعاده هؤلاء الشعراء الشبان الى روح ثورة عام ١٩٣٦، وهي روح المقاومة والاصرار لا روح الحزن والاستسلام.. لقد عاد أبو سلمى الى حرارة شبابه ، بعد أن كان قد يئس وسلم وجدانه لأحاســيس المشرد الضــائع . والنغمة النفسية الجديدة أيضا هي الخروج من التجارب الذاتية الناعمة التي كانت محور قصائد نزار قباني في معظمها ، ثم هذا الوعد الذي يقدمه نزار بالالتزام في الموقف الشعري ... الالتزام بالقضيـــة العربية حتى النصر ، فهي وحدها منبع الشعر ومصدر الهامه عند نزار منذ ٥ يونيو الى اليوم .

هكذا .. لقد أعاد الفدائي الامل الى النفس العربية وانتقل بنا الى عالم جديد وموقف جديد من الحياة : ليس فيه يأس ولا بكاء بل فيه أمل وتفاؤل ونظرة الى الامام . ان يد الشاعر في الارض المحتلة تمسح على نفوس الشعراء خارج هــذه الارض لتمحو آثار الهزيمة المعنوية التي ملأت نفوسهم بعد ٥ يونيو

وهكذا فالجريح الآن هو الذي يعطينا الدواء ويقدم الينا العلاج الروحي ، لأن نفسه رغم الجرح أقوى من نفوسنا وأشد عزما واصرارا من الجميع .

كلمة أخيرة

بعد هذه الرحلة مع محمود درو يش وفنه نستطيع أن نخرج بمجموعة من الملامح الرئيسية التي يتكون منها فن هذا الشاعر ووجدانه • وان كنت أشعر أن من الصعب أن يقول النقد كلمة نهائية فى فن محمود درويش وذلك لانه ما زال شابا أمامه فرصة واسعة للتطور الفنى ، رغم أنه ، وهو فى السابعة والعشرين ، قد قدم الينا انتاجا فنيـــا غزيرا يسمح لنا بدراسته والوقوف أمامه كشـــخصية واضحة المعالم وعلى درجة كبيرة من النضج والعمق والحرارة

وخلاصة ما يمكن أن نقوله بعد هذه الرحلة مع محمود درويش ومن خلال المجموعات الشعرية التى أصدرها حتى الآن هو أنه تأثر فى تكوينه الفنى والفكرى بعدة عوامل منها :

أولا : العقيدة الاشتراكية التى خلقت فيه نزعة انسانية عميقـــة ، وفتحت أمامه افاقا واسعة يطل منها على ثورة الانسان المعاصر ضد الظلم والاستغلال ••• لقد ساعدته هذه العقيدة الاشتراكية على النضج المبكر والتفتح والفهم الصحيح لمشاكل الانسان والمجتمع

ثانيا : عقيدته القومية ••• فهو عربى مؤمن بعروبته كل ذلك فى غير ما تعصب أو استعلاء أو محاولة للرد على المأساة التى يعيشها العرب فى فلسطين بأفكار عنصرية

مليئة بالحقد والكراهية للشعوب الاخرى ... انه عربى انساني يطلب العدل والخلاص من الظلم والقضاء على الاستغلال

ثالثا : شعر محمود درويش ليس وليد التأمل الشخصى والحجرات المغلقة ، فهو شاعر مرتبط بالناس .. بمشاكلهم وقضاياهم ، وكثيرا ما ألقى قصائده على الجماهير ، وأحس دائما أن الكلمة لا معنى لها « اذا لم تحمل المصباح من بيت الى بيت » ، فشعره كله يحمل نبضا صادقا هو ثمرة الاتصال بالناس والمحبة الغامرة لهم والمشاركة الصادقة غير المفتعلة لآلامهم وظروفهم المختلفة التى هى آلام محمود درويش وظروفه في نفس الوقت

رابعا : من ناحية الثقافة الفنية استطاع محمود درويش أن يكون نفسه تكوينا ثقافيا ممتازا ومتكاملا ، فمحمود درويش وثيق الصلة بالثقافة العربية القديمة ، ووثيق الصلة بالثقافة العربية المعاصرة ، يتابعها بأمانة ودأب ويتأثر بتياراتها المختلفة ، ولذلك لا يبدو محمود درويش ظاهرة منفصلة عن التطورات الادبية العربية ... بل نجد أنه قد تأثر بحركة الشعر الجديد واستفاد منها فائدة واسعة وأضاف اليها فى نفس الوقت اضافات حقيقية . أما ثقافته العامة فقد امتدت الى الادب العالمى عن طريق اللغة الانجليزية واللغة العبرية التى يجيدها محمود درويش ويقرأ بها مايترجمه الاسرائيليون من الادب العالمى .

واذا كانت هذه هى العوامل الرئيسية التى أثرت فى شخصية محمود درويش الفنية بالاضافة الى « عامل العوامل كلها والذى يتجسد فى المأساة الفلسطينية نفسها ... فمحمود هو تلميذ هذه المأساة ، وابنها ، وشاعرها ، ومغنيها الكبير ... بالاضافة الى هذه العوامل كلها فاننا نلتقى فى شعره بملامح أخرى لنفسيته وموقفه الفكرى ، فهو شاعر « التفاؤل الثورى » بكل معنى الكلمة

... انه يؤمن ايمانا « صوفيا » بعدالة قضية وضرورة انتصار هذه القضية ، ولا يعبر فى شعره عن يأس أو روح عدمية قاتمة ، وكثيرا ما يترك الواقع ويرفرف بجناحيه فى عالم الاحلام .. ذلك لانه يعيش فى حلم كبير متوهج هو حلم النصر الكامل للقضية المظلومة التى يعبر عنها .

وهو شاعر الارض ... يتمسك بها ، بأعشابهـا وصخورها وتراثها وترابها الى أبعد الحدود ... وقضية

ارتباطه بالارض تبدو قضية مقدسة عنده ... فهو يلح الحاحا وجدانيا عميقا على نغمة التمسك بالارض ومن هنا استحق ـ فيما أتصور ـ أن نسميه « شـاعر الارض المحتلة » ... لانه يغنى دائما لهذه الارض ويتمسك بهـا ويحنو عليها :

يا نوح
لا ترحل بنا
ان الممات هنا سلامة
انا جذور لا تعيش بغير أرض
ولتكن أرضى قيامة !

وهو شاعر « الحنـان » و « الاسرة الممزقة » ... ان قلبه ملء بالحنان الغامر الدافىء ، يحـاول أن يجمع بين جناحى قصائده كل ما تبعثر وتمزق من أسرته التى هى نموذج لشعبه أيضا ، والاسرة تحتل فى شـعره مكانا بارزا ... الاب والام والاخت والجد ... انه يعبر عن الاسرة بالحب العميق واللهفة الصادقة ، والحنان الحقيقى الاصيل ... ذلك لان جرح وطنه قد أصاب الاسرة فى بلاده فمزقها وفرقها وابعد الام عن طفلها والاب عن زوجته وأولاده ... وهكذا .

ان حنان محمود درويش ، نحو شعبه واهله ، ونحـو

أسرته على وجه الخصوص هو عاطفة أساسية تحس بهـــا كالتيار المتدفق الجارف فى داخل شعره ··· انه يقول عن أخته :

حرير شوك أيامى على دربى الى غدها
حرير شوك أيامى
وأشهى من عصير المجد ما ألقى لاسعدها
وأنسى فى طفولتها عذاب طفولتى الدامى
وأشرب كالعصافير الرضا والحب من يدها

ويقول عن أمه بنفس الحنان والحب والحرارة :

أحن الى خبز أمى
وقهوة أمى
ولمسة أمى
وتكبر فى الطفولة
يوما على صدر يوم
وأعشق عمرى لانى
اذا مت
أخجل من دمع أمى

انه حنان صادق وحقيقى ، يكشف لنا مدى ما يحمله قلب الشاعر من عاطفة أصيلة تهدف آلى تجميع شعبه المشرد من جديد ··· بحيث تعود الاسرة العربية والبيت العربى الى الحياة الســـــعيدة التى يلتقى فيها الاب والام والابن والاخت ... وبحيث ترفرف تلك العاطفة الحنون التى تملأ الاسرة على كل مكان ··· وبحيث ترتوى هذه العاطفة الصادقة الاصيلة التى مزقها اليهود !

ان محمود درويش صاحب شـــــاعرية خصبة وعاطفة عميقة وقلب كبير ونظرة انسانية مليئة بالحب للآخرين ·· ولا شك أن ما حققه هذا الشاعر حتى الان على قيمته ونبله ـ انما يبشر ايضا بالكثير الذى يمكن أن يحققه فى المستقبل

وأخيرا ··· أحب هنا أن أشـــــير الى بعض المراجع الرئيسية التى أفادتنى فائدة كبيرة فى هذا البحث ··· هناك دراسات الاستاذ غســــان كنفانى القيمة عن أدب المقاومة ، ثم « ديوان الارض المحتلة » الذى أصـــدره الشاعر الاستاذ يوسف الخطيب وجمع فيه نسبة كبيرة من نصوص الشعر فى الارض المحتلة كما قدم له بمقدمة شاملة وممتازة ، وهناك الدراســـات التى قدمها مركز الابحاث الفلسطينية الذى يرأسه العـــالم العربى اللامع الدكتور أنيس صايغ ، ان هذه الدراسات هي دليل ثقافي وافر الغنى والخصوبة لاى باحث فى القضية الفلسطينية من جوانبها السياسية أو الفكرية أو الفنية · وأذكر هنا على وجه الخصوص كتاب « العرب فى اسرائيل » للمحامى العربى المقيم فى الارض المحتلة : صبرى جريس · وقــد أصدره مركز الابحاث منذ أكثر من سنتين · وأحب أن أشير أيضا الى كتاب « العرب فى الارض المحتلة » للاستاذ ربحى كمال · كل هذه كانت مراجع ممتـــازة فادتنى وساعدتنى فى اعداد هذا البحث عن محمود درويش ·

***

ولنتذكر فى النهاية أن محمود درويش ليس مجرد شاعر كبير وانما هو مناضل كبير أيضا ، ولذلك فان أى دراسة له كان يجب أن تمتد الى معرفة بظروف الارض المحتلة وشعبها العربى ··· ولعل خير ما يصور محمود درويش ، ذلك الشاعر المناضل الانسان ، فى كلمات قصيرة وصادقة هو قوله :

مليون عصفور
على أغصان قلبى
يخلق اللحن المقاتل

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

انجلترا :

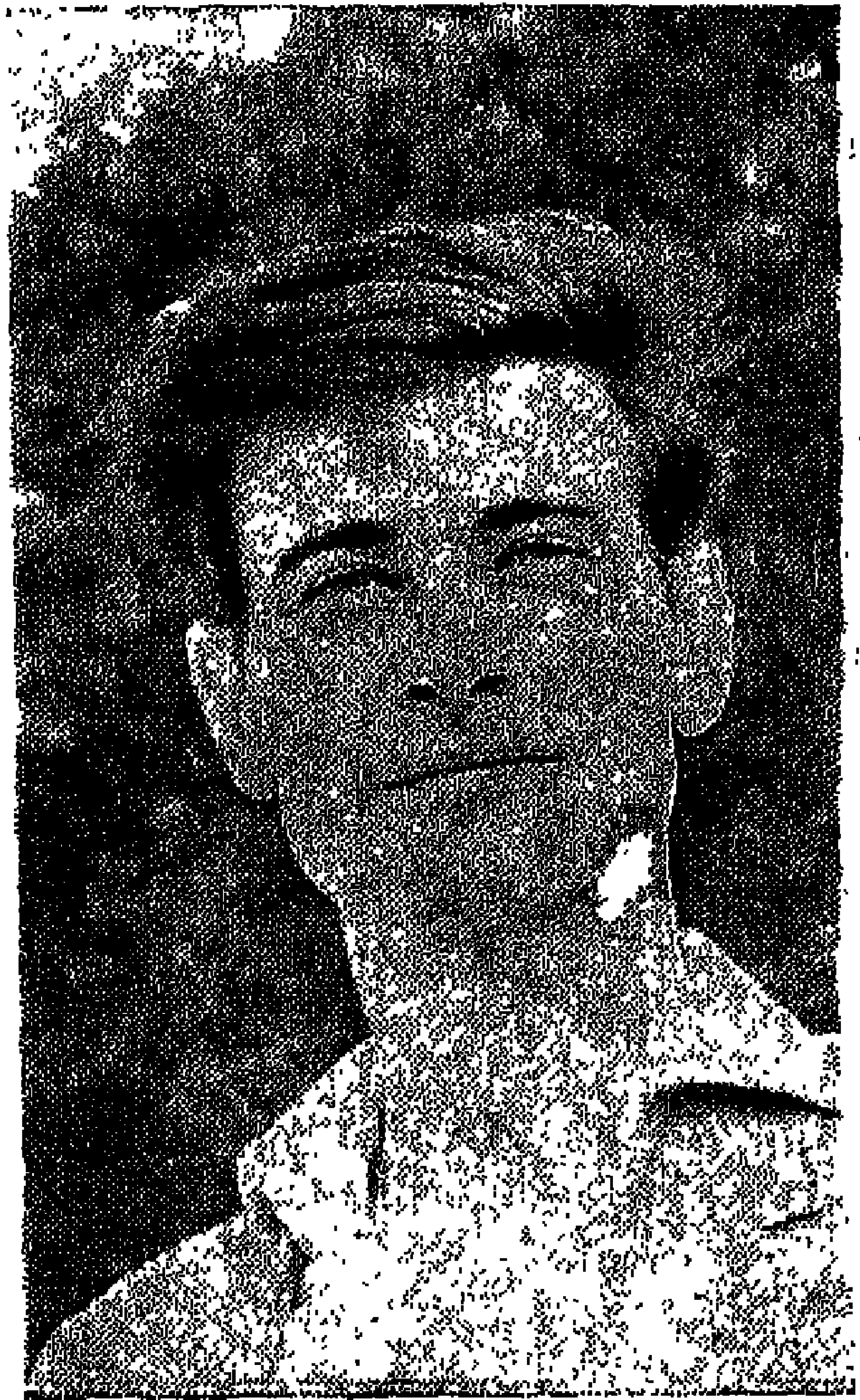
THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

M Miguel Maceul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo, BRASIL.

محمود درويش شاعر من ألمع شعراء الارض المحتله ، بل لقد أصبح الآن من ألمع الشعراء العرب المعاصرين ، وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره ، هجمت السلطات الاسرائيليه قريته « البروه » قرب « عكا » ، وشاهد منذ طفولته صور المأساة التي حلت ببلاده وأهله ، وتعرض هو نفسه للسجن والاضطهاد والحرمان من التعليم والعمل ولكن موهبته الاصيله وضميره الوطني الحي ونسجته الانسانيه المخلصة .. كل هذا ساعده على الصمود والمقاومة واحتمال هذه الظروف الصعبه . ولقد تحولت موهبته الشعريه العاليه الى سلاح في يده ، وبيد شعبه ضد الظلم والعدوان والقهر .

وهذه أول دراسه كامله عن شعر محمود درويش وحياته .. ومحمود درويش في هذه الدراسة هو ثمرة لظروف بلاده المحتله وثمرة لتيار شعر المقاومه في فلسطين منذ ثوره ١٩٣٦ ضد الاسرائيليين والانجليز الى اليوم .



محمود درويش

١٢ قرشا